نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١ هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقّري التلمساني

المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلّق عليه وقدّم له

الدكتورة مريم قاسم طويل

أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي

بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل

أستاذ الأدب الأندلسي

بالجامعة اللبنانية

الجزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية
Dar al-Kotob al-Ilmiyah
Beirut, Ramel al-Zarif, Bohtory St. - P.O.Box : 11-9424 Beirut
Tel. & Fax : (961-1) 602133 - 868051 - 366135 - 364398
بيروت - رمل الظريف - شارع البحتري - ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت
هاتف و فاكس: (١-٩٦١) ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨
Beirut - lebanon بيروت - لبنان



مقدمة

هذا كتاب «نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب». نقدّمه للقرّاء الكِرام بِحُلَّة جديدة، بعد أن بَذَلْنا جُهْدَنا فيه، وجَشِمْنا عناء قراءته غير مرّة. وهو واحد من بين كتب جليلة أَلَّفها المَقَّري، وقد قاربت الثلاثين. ولعلَّ السبب الذي دفعه إلى كتابته هو شغفه بالأندلس وإعجابه بها من جهة، وحبّه لكبير شعرائها وشيخ كتّابها الأديب لسان الدين ابن الخطيب من جهة ثانية. وقد عبَّر عن ذلك في مقدّمة كتابه، حيث أخذ يحدِّث أهل دمشق عن جمال تلك البلاد الأندلسية، ويسرد لهم من كلام وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، ما شاقهم إلى سماع ذلك أو قراءته في كتاب، وظلّ يحدوهم الأمل في الحصول على ذلك الكتاب، إلى أن تحقّق المرغوب على حدِّ قوله: «وكنّا في خلال الإقامة بدمشقَ المحروطة، وأثناء التأمّل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغُوطة، كثيرًا ما نَنْظِمُ في سِلْك المذاكرة دُرَرَ الأخبار الملقوطة، ونتفيّأُ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالسَ مَغْبوطة، نتجاذبُ فيها أهدابَ الآداب، ونشربُ من سَلْسال الاسترسال ونتهادى لُباب الألباب، ونَمُدُّ بساطَ الانبساط ونسدلُ أطنابَ الإطناب، ونقضي أوطارَ الأقطار، ونستدعي أعلامَ الأعلام، فينجرُّ بنا الكلام، والحديثُ شجون، وبالتفنّن يبلغ المستفيدون ما يرجون، إلى ذكرِ البلادِ الأندلسية، ووصفِ رياضها السندسية، التي هي بالحسن مَنُوطة، وقضاياها الموجَّهة التي لا يستوفيها المنطق مع أنها ضرورية وممكنة ومشروطة. . . فصِرْتُ أُوردُ من بدائع بُلغائها ما يجري على لساني، من الفيض الرحماني، وأَسْرُدُ من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السَّلْماني، صَبَّ اللَّهُ عليه شآبيبَ رحماه وبلّغه من رضوانه الأماني، ما تُثيره المناسبة وتقتضيه، وتميل إليه الطباعُ السليمة وترتضيه،

من النظم الجَزْل، في الجِدّ والهَزْلِ، والإنشاء، الذي يُدْهِشُ به ذاكِرَةُ الألبابَ إن شاء، وتصرُّفِهِ في فنون البلاغة حالي الولاية والعزل، إذ هو ـ أعني لسان الدين ـ فارسُ النظم والنثر في ذلك العصر، والمنفرد بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر، وكيف لا ونَظْمُهُ لم تَسْتَوْلِ على مثله أيدي الهَصْر، ونثره تزري صورته بالخريدة ودُمْيَة القصر. فلمّا تكرّر ذلك غَيْرَ مرةٍ على أسماعهم، لَهِجُوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم، وعَلِقَ بقلوبهم، وأضحى منتهى مطلوبهم. . .»[1].

وكانت فكرة الكتاب تجول في خاطره وهو في المغرب، ولكنّ الظروف أجبرتْه على ترك المغرب، فأبصر كتابُه النورَ في المشرق. وقد أقرَّ بذلك حين أشار إلى أنه ترك بالمغرب معظم المصادر التي اعتمدها في جمع مادة الكتاب: «وتركْتُ الجميعَ بالمغرب، ولم أستصحبْ معي منه ما يبيِّنُ عن المقصود ويُعْرب، إلاّ نَزْرًا يسيرًا علق بحفظي، وحَلِيَتْ بجواهره جيد لفظي. . . ولو حضرني الآن ما خَلَّفْتُه، ممّا جمعْتُ في ذلك الغرض وأَلَّفْتُه، لَقَرَّتْ به عيون وسُرَّتْ ألباب. . .»[2].

وهذا الكتاب ثمرةٌ جناها المقّري من بين أفياء غوطة دمشق، عندما كان يختلف إليها بصحبة مضيفه شاعر الشام وأديبها المدرّس بالمدرسة الجَقْمقية المولى أحمد الشاهيني، حيث كان يحدّثه عن الأندلس وشيخها لسان الدين ابن الخطيب، ممّا أثار في نفسه حبّ الاستطلاع إلى مزيد من البيان عن الأندلس والتشوّق إلى معرفة مختلف نواحي المعرفة التي جال فيها لسان الدين وصال. وقد اقترح الشاهيني على ضيفه تأليف كتابٍ في هذا الموضوع، فاعتذر المقّري في بادىء الأمر عن تلبية الغرض بحجة أن ذلك ليس بالأمر السهل، فألحّ عليه الشاهيني، وكرّر عليه الإلحاح، فوعده عندئذ بالشروع في الطلب عند وصوله إلى القاهرة. وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه فقال: «فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك، وهو الماجد المذكور، ذو السعي المشكور، أن أتصدّى للتعريف بلسان الدين في مصنَّف يُعْرِبُ عن بعض أحواله وأنبائه. . . فأجبْتُه أسمى اللّهُ قَدْرهُ الكبير، وأدام عَرْفَ فضائله المُزْري بالعنبر والعبير، بأنّ هذا الغرض غير سهل، ولستُ عَلِمَ اللّهُ له بأهل، من جهات عديدة؛ أولها قصوري عن تحمّل تلك الأعباء الشديدة، إذ لا يوفّي بهذا الغرض إلاّ الماهرُ بطرق المعارف السديدة. وثانيها عدم تيسّر الكتب المستعان بها على هذا المرام

(١) نفح الطيب (جـ ١ ص ٧٥ ـ ٧٦).
(٢) المصدر نفسه (ص ١١٢).

لأني خلَّفْتُها بالمغرب، وأكثرها في المشرق كعنقاء مُغْرب. وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة... ولم يجعل لي المذكور ـ حفظه الله ـ فسحةً ولا مندوحة، بعد هذه الأعذار المحمودة في الصدق الممدوحة... ثم إني لمّا تكرَّر عليّ في هذا الغرض الإلحاح، ولم تُقْبَلْ أعذاري التي زَنْدُها شَحاح، عَزَمْتُ على الإجابة لما للمذكور عليّ من الحقوق... فوعدْتُه بالشروع في الطلب عند الوصول إلى القاهرة المُعِزِّيّة، وأزمعْتُ السَّيْرَ عن دمشق المعروفة المزيّة...»[1].

وهكذا وجد المقّري مَن شجّعه على تحقيق ما صبا إليه، فعرف كتابه ـ وهو بمصر ـ طريقه إلى النور. وكان شروعه في كتابته بالقعدة من عام ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧ م[2]. وبعد أن كتب منه نبذة وقف به مركب العزم عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض، فجاءته من الشاهيني رسالة يحثّه فيها على تنفيذ ما وعد، فشرع في كتابته، كما يقول في مقدمة كتابه: «إني شرعْتُ بعد الاستقرار بمصر في المطلوب، وكتبتُ منه نبذة تستحسنها من المحبّين الأسماعُ والقلوب... ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واستوى، فأخّرْتُه تأخير الغريم، لِدَيْنِ الكريم، وصَدَّتْني أعراض، عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض... فجاءتني من المولى المذكور آنفًا، رسالةٌ دلّت على أنه لم يكن عن انتجاز الموعد متجانفًا[3]، فعدْتُ لقضاء الوطر... وحصل التصميم، على التكميل للتأليف والتتميم، رعيًا لهذا الولي الحميم...»[4].

وهكذا شجّع أهلُ الشام المقّري على تأليف كتاب النفح، وأصبح لهذا الكتاب، كما يذكر صاحبه، تعلّق بالشام من وجوه عديدة؛ أولها أنّ الداعي لتأليفه أهل الشام، وثانيها أنّ الفاتحين للأندلس هم أهل الشام، وثالثها أنّ غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا الأندلس وطنًا، ورابعها أنّ غرناطة نَزَلَ بها أهلُ دمشق وسمّوها باسمها[5]. وأشار في ختام كتابه إلى تاريخ الانتهاء منه فقال: «وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المُسفر صباحها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف، بالقاهرة المحروسة،

---

(١) نفح الطيب (جـ ١ ص ٧٦، ٨٠، ٨٥).

(٢) نفح الطيب (جـ ٩ ص ٣٥٧، ٣٦٦).

(٣) المتجانف: الذي يميل عن الطريق. لسان العرب ومحيط المحيط (جنف).

(٤) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٠٣، ١١٠).

(٥) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٢٠ ـ ١٢١).

والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وألحقت فيه كثيرًا في السنة بعدها، فيكون جميعه آخر الحجة تتمّة ستة تسع وثلاثين وألف...»[1].

وأزمع في بداية الأمر على تسميته بـ «عَرْف الطِّيب، في التعريف بالوزير ابن الخطيب»، ولمّا ألحق به أخبار الأندلس وَسَمَه بـ «نَفْح الطِّيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب»[2]. وهكذا جاءت التسمية النهائية بعد أن عزم على زيادة ذكر الأندلس؛ لإعجابه بمناظرها وبعض مفاخرها الباسقة، ومآثر أهلها المتناسقة[3]. وعلى ذلك قسّم كتابه قسمين؛ القسم الأول يتعلّق بالأندلس وفيه ثمانية أبواب، والقسم الثاني في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب وفيه أيضًا ثمانية أبواب. ويستحسن بنا أن نتركه يتحدّث عن هذا التقسيم بلسان حاله في مقدمة كتابه فيقول: «وبعد أن خمَّنْتُ تمام هذا التصنيف، وأمعنْتُ النظر فيما يحصل به التقريط لسامعه والتشنيف، قَسَّمْتُه قسمين... القسم الأول فيما يتعلّق بالأندلس من الأخبار... وفيه بحسْب القصد والاقتصار... ثمانية من الأبواب: الباب الأول في وصف جزيرة الأندلس... الباب الثاني في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بانقياد... الباب الثالث في سرْد بعض ما كان للدِّين بالأندلس من العزّ السامي العماد... الباب الرابع في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة... الباب الخامس في التعريف ببعض مَن رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق... الباب السادس في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق... الباب السابع في نبذة ممّا منَّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقّد الأذهان، وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عزَّ وهان... الباب الثامن في ذكر تغلّب العدوّ الكافر على الجزيرة... ولم أُخْلِ بابًا في هذا القسم من كلامٍ للسان الدين ابن الخطيب... القسم الثاني في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب... وفيه أيضًا من الأبواب ثمانية... الباب الأول في ذكر أوّليّة لسان الدين وذكر أسلافه... الباب الثاني في نشأته وترقِّيه ووزارته وسعادته... الباب الثالث في ذكر مشايخه الجلّة... الباب الرابع في مخاطبات الملوك والأكابر المُوَجَّهة إلى حضرته العليّة... الباب الخامس في إيراد جملة

---

(1) نفح الطيب (جـ ١٠ ص ٣٥١).

(2) راجع نفح الطيب (جـ ١ ص ١٢٠).

(3) نفح الطيب (جـ ١ ص ١١١).

من نثره. . . الباب السادس في مصنّفاته. . . الباب السابع في ذكر بعض تلامذته. . . الباب الثامن في ذكر أولاده. . .»[١].

وقد استهلّ كتابه بخطبة قصيرة لم تتجاوز الست صفحات ثم أردف الخطبة بقصيدة من نظمه بلغت مائة وثلاثة أبيات من الشعر. كما عبّر في أول الكتاب عن شوقه إلى وطنه، مستشهدًا بأبيات في الغربة من نظمه هو ومن نظم غيره من الشعراء، راغبًا في أن تتقلّص ذيول الغربة ليتخلّص من كربته، ومتضرّعًا إلى الله تعالى في تيسير العود إلى وطنه[٢].

وأكثرُ اعتمادِهِ على مؤلّفاتٍ كانت بين يديه، كالإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، واختصار القِدْح المعلّى في التاريخ المحلّى لابن سعيد، وأزهار الرياض في أخبار عياض للمؤلّف نفسه، وبدائع البدائه لابن ظافر الأزدي، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبّار، وخريدة القصر وجريدة العصر للعماد الكاتب الأصفهاني، ودرر السمط في خبر السبط لابن الأبّار، وروضة الآس العاطرة الأنفاس للمؤلّف نفسه، والعبر وديوان المبتدإ والخبر لابن خلدون، وقلائد العِقْيان في محاسن الأعيان لابن خاقان، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دِحْية، ومطمح الأنفس لابن خاقان، والمُغْرب في حُلى المَغْرب لابن سعيد، ونيل الابتهاج لأحمد بابا التُّنْبُكْتي، ووفيات الأعيان لابن خَلِّكان.

أمّا المصادر التي ذكرها في كتابه كتُحْفة القادم (المقتضب من كتاب تحفة القادم) لابن الأبّار، وجذوة المقتبس للحُمَيْدي، والحُلّة السِّيَراء لابن الأبّار، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الشَّنْتريني، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، وزاد المسافر لصفوان بن إدريس المرسي، والصلة لابن بَشْكُوال، وصلة الصلة لابن الزبير، والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي لابن الأبّار، والمقتبس لابن حيان، فإنه تركها جميعًا بالمغرب، وكان ينقل عنها بالواسطة.

وكتاب النفح وثيقة مضيئة في تاريخ إسبانيا الإسلامية وآدابها، ينفرد عن غيره من الكتب الأندلسية بإحاطته بكل ما له علاقة بالأندلس من لَدُنِ الفتح حتى سقوط آخر قلعة إسلامية في أيدي الإسبان عام ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م. وعلى هذا النحو يكون أحد مصادر

---

(١) نفح الطيب (جـ ١ ص ١١٦ ـ ١٢٠).

(٢) راجع نفح الطيب (جـ ١ ص٣٥ ـ ٣٨).

النقل الرئيسية في مجال الدراسات الأندلسية، وهو بالتالي صدى لشخصية صاحبه؛ فهو أديب مكين من تصوير الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية بالأندلس، رفيع الذوق في انتقاء الموضوعات، مثقّف ثقافة واسعة، كثير الميل إلى الفكر والأدب والتاريخ، صاحب ملكة مرهفة للتعبير النثري الدقيق. ولا يؤخذ عليه سوى استطراده أو العودة إلى الموضوع غير مرة، أو تكراره لأخبار نحن بغنًى عنها.

وعلى الرغم من أنَّ النفح طبع غير مرة في غير بلد، فإنّا رأينا أن نُعْنى به لما فيه من تحريف ونقص وزيادة، فراجعْناه وقابلْنا نصوصه بما يوافقها في مصادر أخرى، وقُمْنا بضبطه وشرحه والتعليق عليه، وأوضحْنا ما غمض فيه من مشكلات، وأكملْنا ما نقص فيه من عبارات. وبذلك يكون هذا الكتاب قد خرج في ثوب قشيب لم يَعْتَدِ القُرّاء على مثله من الطبعات السابقة، وهي طبعة ليدن ١٨٥٥، وطبعة بولاق ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٢ م، وطبعة القاهرة ١٩٤٩، وطبعة دار صادر ١٩٦٨. ورَجَوْنا من عملنا هذا أن يشبع رغبات أهل العلم، ملتمسين العذر منهم إن هم عثروا فيه على خطإٍ؛ لأنّ العصمة ليست إلاّ للخالق الكريم.

وارتأينا أن نتمّم عملنا هذا بتقديم نبذة عن سيرة المؤلّف موجزةٍ فنقول: هو الفقيه الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن العباس بن أحمد بن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد، الشهير بالمَقَّري[١]، ويلقب بشهاب الدين[٢]. أصل سلفه من مَقَّرَة، بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة وراء مفتوحة، وهي إحدى قرى تِلِمْسان الجزائرية، لذلك شهر بالمَقَّري. والمَقري، على حدّ قول المُحبّي: «بفتح الميم وتشديد القاف، وآخرها راء مهملة، وقيل: بفتح الميم وسكون القاف، لغتان أشهرهما الأولى، نسبةً إلى قرية من قرى تِلِمْسان، وإليها نسبةُ آبائه»[٣]. وعند إسماعيل باشا البغدادي: «المقّري، بفتح الميم

(١) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٧) وخلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٢) وهدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧) وصفوة مَن انتشر (ص ٧٢) واليواقيت الثمينة (جـ ١ ص ٢٩) ونشر المثاني (جـ ١ ص ١٥٧) وريحانة الأليّا (جـ ٢ ص ١٧٤) والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (ص ١٥٥) وتعريف الخلف برجال السلف (جـ ١ ص ٤٤) والزاوية الدلائية (ص ١٠٨) وتراجم إسلامية شرقية وأندلسية (ص ٢٤٥) وتاريخ آداب اللغة العربية (جـ ٣ ص ٣٠١) والأعلام (جـ ١ ص ٢٣٧) وفهرس المكتبة الأزهرية (جـ ٣ ص ٩٧) وفهرس الفهارس والأثبات (جـ ١ ص ٣٣٧).

(٢) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٣) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣١١).

وتشديد القاف»[1]. وقال ياقوت الحموي: «مَقَرَة، بالفتح ثم السكون، وتخفيف الراء... مدينة بالمغرب في بَرِّ البربر قريبة من قلعة بني حماد»[2]. وقال المَقَّري إن مَقَّرة من قرى زاب بإفريقية، وقد انتقل منها جدُّه إلى تِلِمْسان[3]. وأضاف: ولدْتُ بتلمسان وولد بها أبي وجدِّي وجدّ جدّي[4].

ولا ندري لماذا أغفل المَقَّري ذكر تاريخ مولده، وجاراه في ذلك معظم الذين ترجموا له. وقد عيَّن الزِّرِكْلي هذا التاريخ وجعله عام ٩٩٢ هـ/ ١٥٨٤ م، ولكنه وضع علامة استفهام حول هذا التاريخ[5]. كذلك عيَّن عبد الوهاب بن منصور، محقِّق كتاب روضة الآس للمقري، هذا التاريخ وجعله عام ٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م[6]. واعتمد إحسان عباس على ابن منصور في هذا التاريخ[7]. وحدّد ليفي بروفنسال تاريخ ولادة المقري سنة ١٠٠٠ هـ/ ١٥٩١ م[8]. وتشكّك محمد عبد الله عنان في صحة هذا التاريخ دون أن يحدّد تاريخًا آخر فقال: «يلوح لنا أنَّ من تتبَّع نشأة المقّري وحوادث حياته، حسْبما يقصّها علينا، أنه ولد قبل ذلك التاريخ بعدة أعوام، فهو أولاً يذكر لنا أنه نشأ بتلمسان إلى أنْ رحل عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف، فلو كان مولده سنة ١٠٠٠ لما تحدّث هنا عن الشبيبة، إذ يكون عمره عندئذ تسعة أعوام فقط، أعني غلامًا حدثًا، وهو ما لا ينصرف إليه الشباب»[9]. ونحن بدورنا نعتمد في هذا التاريخ على الزِّرِكْلي، أي إنّ ولادته كانت عام ٩٩٢ هـ؛ لأنَّ المقّري نفسه ذكر لنا أنه ارتحل عن تلمسان في زمن الشبيبة إلى فاس سنة ١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠ م[10]، فيكون عمره عندئذ سبع عشرة سنة، وهو ما يلائم عمر الشبيبة.

---

(١) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٢) معجم البلدان (جـ ٥ ص ١٧٥).

(٣) نفح الطيب (جـ ٧ ص ٢٠٥، ٢٧٦).

(٤) نفح الطيب (جـ ٩ ص ٣٥٧). وانظر أيضًا خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٢، ٣٠٣).

(٥) الأعلام (جـ ١ ص ٢٣٧).

(٦) روضة الأنس (مقدمة المحقق).

(٧) نفح الطيب (جـ ١ ص ٥: مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(٨) دائرة المعارف الإسلامية (مادة: المقّري أحمد بن محمد).

(٩) تراجم إسلامية (ص ٢٤٥).

(١٠) نفح الطيب (جـ ٩ ص ٣٥٧).

والمقري مالكي المذهب [1]، نشأ بتلمسان وقرأ بها[2]. يذكر المحبّي أنّ المقري نشأ بتلمسان وقرأ بها، وحفظ القرآن على عمّه الشيخ الجليل العالم أبي عثمان سعيد بن أحمد المقّري، مفتي تلمسان ستين سنة، ومن جملة ما قرأ عليه صحيح البخاري سبع مرات[3]. وذكر أنه وصف بلده تلمسان وجعلها بلدة عظيمة من أحاسن بلاد المغرب[4]. وفي سنة ١٠٠٩ هـ ارتحل المقّري عن مدينة تلمسان الجزائرية إلى مدينة فاس المغربية[5]، وكان عندئذ في حدود السابعة والعشرين من عمره. ولم يذكر لنا في مؤلّفاته، ولا ذكر الذين ترجموا له، السبب الذي دعاه إلى ترك بلده والانتقال إلى فاس. وفي هذه المدينة مضى يطلب العلم على شيوخها، وفي مقدمتهم مفتيها وخطيبها أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي[6]. ويحدّثنا أنه كان بسلا في العام المذكور، فزار بها قبر الوليّ الزاهد المشهور بالمناقب والأحوال العارف بالله أبي العباس الحاج أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي، أحد الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب[7]. كما زار قبر المعتمد ابن عباد، حين كان بمراكش عام ١٠١٠ هـ/ ١٦٠١ م، وعُمّي عليه أمر القبر، وسأل عنه مَن تُظَنُّ معرفته له، فهداه إليه شيخٌ طعن في السّنّ[8]. وفي السنة نفسها زار بمراكش أيضًا قبر الأستاذ الزاهد العارف بالله أبي العباس أحمد بن العريف الأندلسي[9]. كما زار بمراكش

---

(١) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٧) وخلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٢) وهدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٢) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٧) و(جـ ٩ ص ٣٥٧).

(٣) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣).

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥) نفح الطيب (جـ ٩ ص ٣٥٧) وخلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣).

(٦) نفح الطيب (جـ ٦ ص ١٠٢).

(٧) نفح الطيب (جـ ٩ ص ٢٠٧). وقد توفي ابن عاشر سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م. وترجمته في أنس الفقير (ص ٩) ونيل الابتهاج (ص ٤٣) والأعلام (جـ ١ ص ١٨٧) ونفاضة الجراب (ص ١٧١).

(٨) نفح الطيب (جـ ٥ ص ٣٦٣). والمعتمد بن عباد هو أعظم ملوك الطوائف بالأندلس، وقد سجنه المرابطون بأغمات فتوفي بسجنه عام ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م. وترجمته في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢١ ـ ٣٩) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ٥٢ ـ ٥٧) وقلائد العقيان (ص ٤ ـ ٣١) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٥٧ ـ ١٦٢) والوافي بالوفيات (جـ ٣ ص ١٨٣) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ٢٤٤، ٢٥٧) والذخيرة (القسم الثالث: صفحات متفرقة) والأعلام (جـ ٦ ص ١٨١).

(٩) نفح الطيب (جـ ٤ ص ٢٠٢) و(جـ ٦ ص ١٠٢). وكانت وفاة ابن العريف بمراكش سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م. وترجمته في الصلة رقم ١٧٦ (ص ١٣٦ ـ ١٣٧) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٧٠) والمعجم =

مرارًا قبر العالم الأستاذ الفقيه المحدّث الأصولي أبي زيد وأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي الأعمى[1]. وفي آخر عام ١٠١٠ هـ، أي في ذي الحجّة منه رَجَعَ إلى تلمسان. وفي عام ١٠١٣ هـ/ ١٦٠٤ م عاود الرجوع إلى فاس، فاستقرَّ بها، وقام فيها بمهمّة الإفتاء والقضاء والخطابة، إلى أن ارتحل إلى المشرق أواخر شهر رمضان سنة ١٠٢٧ هـ/ ١٦١٧ م[2]. وكان المقّري قد أحرز هذا المنصب الديني بعد وفاة شيخه محمد الهواري عام ١٠٢٢ هـ/ ١٦١٣ م[3]. وقد أشار نفسه إلى انشغاله بفاس بأمور الإمامة والفتوى والخطابة، دون أن يحدّد تاريخ تبوّئه هذا المنصب الديني: «وارتحلْتُ منها(أي من تلمسان) إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتدّ الرواق، فشغلْتُ بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها، ثم ارتحلْتُ بنيّة الحجاز...»[4]. وذهب المحبّي إلى أنَّ الفتوى صارت إلى المقري في زمن سلطان فاس أبي العباس أحمد بن محمد المنصور السعدي الذهبي ومن بعده: «ورحل إلى فاس مرتين؛ مرّة سنة تسع بعد الألف، ومرة سنة ثلاث عشرة، وكان يخبر أنها دار الخلافة للمغرب، وكان بها الملك الأعظم مولاي أحمد المنصور المشهور بالفضل والأدب المقدّم ذكره، وأنَّ الفتوى صارت إليه في زمنه ومن بعده، لمّا اختلَّتْ أحوال المملكة بسبب أولاده إلى حديث يطول ذكره...»[5]، وهذا ما لا نعتقده؛ لأنَّ المنصور توفي عام ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م[6]، ولأنَّ المقّري لا يمكن أن يكون قد تبوّأ

= في أصحاب القاضي الصدفي رقم ١٤ (ص ٢٧ ـ ٣٠) وبغية الملتمس رقم ٣٦٠ (ص ١٦٦) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٦٨ ـ ١٧٠) والأعلام (جـ ١ ص ٢١٥).

(١) نفح الطيب (جـ ٤ ص ٣٥٩). وقد توفي السهيلي سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م، وقيل: ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م. وترجمته في وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤) وبغية الملتمس رقم ١٠٢٥ (ص ٣٦٧) والمغرب في حلى المغرب (جـ ١ ص ٤٤٨) وبغية الوعاة (ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩) والمطرب (ص ٢٣٠ ـ ٢٤٣) وإنباه الرواة (جـ ٢ ص ١٦٢) والتكملة (رقم ١٦١٣) وزاد المسافر (ص ٩٦) وشذرات الذهب (جـ ٤ ص ٢٧١) والديباج المذهب (ص ١٥٠) والأعلام (جـ ٣ ص ٣١٣).

(٢) نفح الطيب (جـ ٩ ص ٣٥٧) وخلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣).

(٣) روضة الآس (المقدمة: ص يج).

(٤) نفح الطيب (جـ ٩ ص ٣٥٦).

(٥) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣).

(٦) ترجمة المنصور في خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٢٢٢) والاستقصا في أخبار المغرب الأقصى (جـ ٣ ص ٤٢ ـ ٩٥) ونزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (ص ٧٨ ـ ١٩٠) والإعلام بمَن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام (جـ ٢ ص ٤٦ ـ ٦٩) والأعلام (جـ ١ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

هذه الوظيفة الدينية الرفيعة وهو لا يزال يطلب العلم على شيوخ فاس، ولم يبلغ بعد سنّ الرّشد. كما أقرَّ المقّري بأنّ شيخه محمد بن القاسم هو الذي كان مفتي فاس وخطيبها عام ١٠١٠ هـ[١].

وهكذا ارتحل المقّري إلى المشرق، وقد أشار نفسه إلى سبب هذا الارتحال فقال إنه أمرٌ من ملك مراكش: «إنه لمّا قضى المَلِكُ الذي ليس لعبيده في أحكامه تَعَقُّبٌ أو ردّ، ولا مَحِيدٌ عمّا شاءه سواءٌ كَرِهَ ذلك المرءُ أو ردّ، برحلتي من بلادي، ونُقْلتي عن محلٍّ طارفي وتِلادي، بقُطْر المغرب الأقصى، الذي تَمّتْ محاسنُه لولا أنَّ سماسرة الفتن سامتْ بضائع أمْنِهِ نقْصًا، وطما به بحر الأهوال... وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف، تاركًا المنصب والأهل والوطن والإلْف»[٢]. وقال المحبّي إنَّ المقّري ارتحل إثر اختلال أحوال المملكة بسبب صراع أولاد المنصور الذهبي على الحكم، تاركًا للمنصب والوطن، وقاصدًا حجَّ بيت الله الحرام[٣]. وذهب الحبيب الجنحاني إلى أنَّ خروج المقّري من فاس كان بسبب مواقفه المؤيّدة لقبيلة شراكة التي هي في الأصل من تلمسان، بلد المقّري، والتي اتُّهمت بإحداث قلاقل واضطرابات في عهد السلطان محمد الشيخ السعدي[٤]. وقد تابعه في هذا الرأي محمد حجي فقال: «وكان خروج المقّري من فاس بسبب اتهامه بالميل إلى قبيلة شراكة (شراقة) في فسادها وبغيها أيام السلطان محمد الشيخ السعدي، فارتحل إلى الشرق...»[٥].

ومهما يكن من أمر، فإنَّ المقّري ترك المغرب، فوصل مصر في رجب من عام ١٠٢٨ هـ/ ١٦١٨ م، فأقام بها مدة قليلة ثم سافر في البحر إلى الحجاز لرؤية الحرمين الشريفين، فوصل جدّة[٦]. وكان قد وصف ما تكبّده من عناء السفر حتى وصل إلى مصر بقوله: «ثم وصلْنا بعد خوض بحار، يدهش فيها الفكر ويحار، وجَوْبِ فيافٍ مجاهل،

---

(١) نفح الطيب (جـ ٦ ص ١٠٢).
(٢) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٨).
(٣) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣).
(٤) المقّري صاحب نفح الطيب (ص ٤٢).
(٥) الزاوية الدلائية (ص ١٠٩).
(٦) نفح الطيب (جـ ١ ص ٤٥) و(جـ ٩ ص ٣٥٧).

يضلُّ فيها القطا عن المناهل، إلى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع...»[1].

فأكمل العُمْرة أوائل ذي القعدة من العام المذكور، وأقام فيها منتظرًا وقت الحج، إلى أن جاء الأوان، فأحرم بالحجّ، ونوى الإقامة هنالك، فحالَ من دون ذلك حائل، ثم قصد طَيْبَة[2] الشريفة لزيارة قبر الرسول ﷺ[3]. ثم عاد إلى مصر سنة ١٠٢٩ هـ/ ١٦١٩ م[4]. وقال المحبّي إنّ المقّري ورد مصر بعد أداء الحجّ في رجب سنة ١٠٢٨ هـ، وتزوج بها من امرأة من عائلة السادة الوفائية: «ثم ورد إلى مصر بعد أداء الحجّ في رجب سنة ثمان وعشرين وألف، وتزوج بها من السادة الوفائية، وسكنها»[5]. وروى المقّري أنه زار بيت المقدس في شهر ربيع الأول من العام ١٠٢٩ هـ، فدخل المسجد الأقصى فبهره جماله، وسأل عن محلّ المِعْراج الشريف فأُرْشِدَ إليه[6]. وأضاف أنّ أول قدماته على بيت المقدس كان في سنة ١٠٢٨ هـ[7]. ثم رجع إلى القاهرة، وكرّر منها الذهاب إلى مكة وطَيْبَة، فما أن كان عام ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧ م حتى كان قد دخل مكة خمس مرات، وأملى فيها دروسًا عديدة، ووفد على طيبة سبع مرات، وأملى فيها الحديث النبويّ. ثم آب إلى مصر، فلازم خدمة العلم الشريف بالأزهر، وكان عوده من الحجة الخامسة في شهر صفر من العام ١٠٣٧ هـ. وهنا مخالفة في تحديد السنة التي عاد فيها المقّري من مكة، على حدِّ قوله: «ثم رَجَعْتُ إلى القاهرة وكرَّرْتُ منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة، فدخلْتُ لهذا التاريخ الذي هو عام تسعة وثلاثين وألف مكة خمس مرات، وحصلتْ لي بالمجاورة فيها(أي في مكة) المسرّات، وأمليتُ فيها على قصد التبرّك دروسًا عديدة... ووفدْتُ على طيبة المعظّمة مُيَمِّمًا مناهجها السديدة، سبع مرار... وأمليتُ الحديث النبوي... ثم أُبْتُ إلى مصر مفوّضًا لله جميعَ الأمور، ملازمًا خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور، وكان عودي من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة...»[8]. وأغلب الظن أنّ الخطأ لم

---

(١) نفح الطيب (جـ ١ ص ٤١).

(٢) طَيْبَة، بفتح الطاء والباء وسكون الياء: اسم لمدينة رسول الله ﷺ. معجم البلدان (جـ ٤ ص ٥٣).

(٣) نفح الطيب (جـ ١ ص ٤٦ ـ ٤٧).

(٤) نفح الطيب (جـ ١ ص ٦٠).

(٥) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٤).

(٦) نفح الطيب (جـ ١ ص ٦٠) وخلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٤).

(٧) نفح الطيب (جـ ٢ ص ٢٦٤).

(٨) نفح الطيب (جـ ١ ص ٦٣).

يقع فيه المقّري، بل كان من الناسخ أو المحقّق، بحيث اختلط على أحدهما الأمر ولم يميّز بين كلمتي «سبعة» و«تسعة». كذلك وقع المحبّي في الخطإ نفسه في قوله: «ثم زار بيت المقدس في شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وألف، ورجع إلى القاهرة وكرّر منها الذهاب إلى مكة فدخلها بتاريخ سنة سبع وثلاثين خمس مرات وأملى بها دروسًا عديدة، ووفد على طيبة سبع مرات وأملى الحديث النبوي بمرأى منه، ﷺ، ومسمع، ثم رجع إلى مصر في صفر سنة تسع وثلاثين ودخل القدس في رجب من تلك السنة وأقام خمسة وعشرين يومًا ثم ورد منها إلى دمشق فدخلها في أوائل شعبان... واستوطنها مدة إقامته وأملى صحيح البخاري بالجامع... وكان ذلك نهار الأربعاء سابع عشري رمضان سنة سبع وثلاثين وألف»[1].

وفي أوائل رجب من العام المذكور، أعني عام ١٠٣٧ هـ، تحرّكت همّة المقّري للعود إلى بيت المقدس، فوصل إليه أواسط رجب، وأقام فيه نحو خمسة وعشرين يومًا، وألقى عدة دروس بالمسجد الأقصى، والصخرة المنيفة، وزار مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، ومَن معه من الأنبياء ذوي المقامات الشريفة[2]. ثم حدث له في منتصف شعبان من العام نفسه عَزْمٌ على الرحلة إلى مدينة دمشق، فدخلها أواخر الشهر المذكور، وأقام بها إلى أوائل شوال من السنة المذكورة، ومدح أهلها، ووصف مغانيها ومبانيها[3]. وقال المحبّي إنّ المقّري دخل دمشق في أوائل شعبان من العام ١٠٣٩ هـ/ ١٦٢٩ م، وإنّ المغاربة أنزلوه في مكان لا يليق به، فأرسل إليه أحمد بن شاهين مفتاح مدرسة الجَقْمقية، ولمّا دخل إليها أعجبتْه واستوطنها مدة إقامته، وأملى في جامعها صحيح البخاري[4].

وأورد المقّري أشعارًا في مدح دمشق، ومن محاسن شعره في حقّها قوله[5]: [المجتث]

محاسنُ الشام أَجْلى ... مِنْ أنْ تُسامَ بِحَدِّ
لولا حمى الشَّرْع قُلْنا ... ولم نقفْ عند حَدِّ:
كأنها معجزاتٌ ... مقرونةٌ بالتحدّي

(١) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٢) نفح الطيب (جـ ١ ص ٦٣).
(٣) نفح الطيب (جـ ١ ص ٦٣ ـ ٦٥، ٧٠ ـ ٧٢، ١١٨) و(جـ ٢ ص ٢٢٦) و(جـ ٣ ص ١٤٧) و(جـ ٩ ص ٣٥٧).
(٤) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٥) نفح الطيب (جـ ١ ص ٦٤ ـ ٦٥) وخلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٦).

وجرى بينه وبين أدبائها وعلمائها مطارحات شتّى، وفي مقدمتهم الشاعر أحمد الشاهيني[1]. وزاد تعلّقه بالشام لتشابهها ببلاده في الأنهار والأزهار على حدّ قوله: «وقد تذكّرْتُ بلادي النائية، بذلك المرأى الشاميّ الذي يَبْهَرُ رائيه، فما شئْتَ من أنهارٍ ذاتِ انسجام، أُتْرِعَ فيها من جِرْيال الأنس جام، وأزهارٍ مُتَوِّجَةٍ للأدواح، مُرَوِّجَةٍ للنفوس بعاطرِ الأرواحِ، وحدائقَ تُغشي أنوارُها الأحداق، وعيانُها للخبر عنها مِصْداق وأيّ مصداق. . . وجنان، أفنانُها في الحسن ذوات افتنان. . . وعند رؤيتي لتلك الأقطار، الجليلةِ الأوصاف العظيمة الأخطار، تفاءلْتُ بالعود إلى أوطان لي بها أوطار، إذ التشابه بينهما قريب في الأنهار والأزهار، ذات العَرْف المِعْطار. . . وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية مُولَعًا بالوطن لا سواه، فصار القلب بعد ذلك مُقَسَّمًا بهواه. . . ومحاسن الشام وأهله طويلة عريضة، ورياضُه بالمفاخر والكمالات أريضة، وهو مقرُّ الأولياء والأنبياء، ولا يجهل فضله إلاً الأغمار الأغبياء الذين قلوبُهم مريضة»[2].

ويخبرنا المقّري أنه زار قبر الشيخ الصوفي محيي الدين ابن عربي، الكائن في خارج مدينة دمشق. وتبرّك به مرارًا، وذلك في شعبان ورمضان وأول شوال من العام ١٠٣٧ هـ[3]. ويروي عبد الله العياشي أنّ أحد تلاميذ المقّري، وهو الشيخ مرز الشامي، قال إنه رافق المقّري في زيارته لقبر محيي الدين ابن عربي، وكان خروجهما بعد صلاة الصبح، فوصلا إلى القبر عند طلوع الشمس، فلمّا جلسا قال المقّري إنه ابتدأ عند خروجه إلى الزيارة ختمة من القرآن لروح ابن عربي، وقد ختمها عند وصوله إلى هناك[4].

ولم تطل إقامته بدمشق، فسرعان ما عاد إلى مصر. وقد دوّن تاريخ عودته من دمشق إلى مصر، فحدّده في أوائل شوال من العام ١٠٣٧ هـ[5]. ويقول في مكان آخر إنه آب من

---

(١) نفح الطيب (جـ ١ ص ٧١ ـ ٧٤).

(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها.

(٣) نفح الطيب (جـ ٢ ص ٣٩١). وقد توفي ابن عربي محمد بن علي سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م. وترجمته في التكملة (ص ٦٥٢) والذيل والتكملة (جـ ٦ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٨) والوافي بالوفيات (جـ ٤ ص ١٧٣ ـ ١٧٨) وفوات الوفيات (جـ ٣ ص ٤٣٥) وشذرات الذهب (جـ ٥ ص ١٩٠ ـ ٢٠٢) والنجوم الزاهرة (جـ ٦ ص ٣٣٩) والبداية والنهاية (جـ ١٣ ص ١٥٦) وعنوان الدراية (ص ٩٧) ومرآة الزمان (ص ٧٣٦).

(٤) الرحل العياشية (جـ ٢ ص ٨٦).

(٥) نفح الطيب (جـ ٣ ص ١٧٥).

الشام إلى مصر أواخر شوال من العام المذكور[1]. ويقول المحبّي إنَّ إقامة المقّري بدمشق كانت دون الأربعين يومًا حيث رحل منها في خامس شوال سنة ١٠٣٩ هـ إلى مصر[2].

وبينما هو في طريقه إلى مصر، عرّج على مدينة غزّة، فأضافه فيها الشيخ الغصين قرابة الشهر، فطلب منه تلميذه عبد القادر ابن الشيخ الغصين أن يتوسّط لدى أمير غزة في أن يسمح له ببناء بيت ملاصق للمسجد الجامع ليقرأ فيه ويُقْرِىء، كما هو الشأن في منزله البعيد عن المسجد، فأنشأ له الأمير مدرسة تليق به بدل البيت[3]. وروى لنا العياشي، نقلاً عن القادر ابن الشيخ الغصين، كيف صنع له المقّري الطعام المسمّى عند المغاربة بالكسكس، نزولاً عند رغبة الغصين[4].

ودخل مصر، واستقرّ بها، ثم عاد إلى دمشق للمرة الثانية، وذلك في أواخر شعبان سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠ م، وحصل له فيها من الإكرام ما حصل في قدمته الأولى، ثم عاد إلى مصر واستقرَّ بها مدة يسيرة، ثم طلّق زوجته الوفائية، وأراد العود إلى دمشق للتوطّن بها، ففاجأه الموت قبل نيل المرام، وكانت وفاته في جُمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م، ودفن بمقبرة المجاورين[5].

ولقد اتّسعت معارف المقّري، فبدا لنا حاملاً صولجان النثر، مُصَنَّفًا من الفئة الأولى بين كبار الأدباء والكتّاب. وله شعر، ولكنه بين الجودة والرداءة، وهو في تضاعيف مؤلفاته وخصوصًا في نفح الطيب، وفي كتب السيرة التي ترجمت له، تصانيفه متعددة النواحي تتناول معارف عصره، وتعدّ من أمهات المكتبة العربية والإسلامية، وهدفه منها هو أن يقّدم إلى أهل العلم ما يسدّ حاجتهم من الأدب والتاريخ، ولقد أقرأ معظمها إلى حين وفاته، وإليكها:

١ ـ إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة: هو عبارة عن رسالة ذكرها المقّري في كتابه النفح في ختام ترجمة أبي محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري، وذكرها

---

(١) نفح الطيب (جـ ٩ ص ٣٥٧).
(٢) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣١١).
(٣) الرحلة العياشية (جـ ٢ ص ٣٠٥).
(٤) المرجع نفسه (ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧).
(٥) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣١١).

إسماعيل باشا البغدادي في كتابه هدية العارفين[1].

٢ ـ إتحاف المُغْرى في تكميل شرح الصُغْرى: هكذا ورد عند المحبِّي[2]. وعند البغدادي: إتحاف المُغْرى في تكميل شرح الكبرى[3]. وعند إحسان عباس: إتحاف المغرى المُغْرى في شرح السنوسية الصغرى[4].

٣ ـ أرجوزة في الإمامة: ذكرها إحسان عباس دون أن يعلّق عليها[5].

٤ ـ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: هكذا ورد اسمه عند المحبِّي والبغدادي والزِّرِكْلي[6]. وذكره المقري في كتابه النفح هكذا: أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها ممّا يحصل للنفس به ارتياح وللعقل ارتياض[7]. ألّفه المقّري أثناء إقامته بفاس. وقد طبع كاملاً في خمسة أجزاء، بعناية الحكومة المغربية ودولة الإمارات ـ مطبعة الإمارات العربية، ١٩٩٤. وهناك طبعة قديمة ناقصة بثلاثة أجزاء بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢.

٥ ـ أزهار الكمامة في أخبار العمامة: هكذا ورد اسمه عند البغدادي[8]. وعند المحبِّي: أزهار الكمامة[9]. وعند إحسان عباس: أزهار الكمامة في شرف العمامة، وقال إنه مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، ورقمه ٩٨٤ د[10]. وعند الزركلي: زهر الكمامة في العمامة، وقال: هو عبارة عن أرجوزة، ولا يزال مخطوطًا[11].

٦ ـ الأصفياء: ذكره إحسان عباس، وقال: إنَّ أحمد الشاهيني ذكره في رسالة بعث بها إلى المقّري[12].

---

(١) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٢) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣).

(٣) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٤) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٢ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(٥) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٤ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(٦) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣) وهدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧) والأعلام (جـ ١ ص ٢٣٧).

(٧) نفح الطيب (جـ ٨ ص ٢٨٤).

(٨) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٩) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٢).

(١٠) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٣ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(١١) الأعلام (جـ ١ ص ٢٣٧).

(١٢) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٣ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

٧ ـ إضاءة الدُّجُنّة في عقائد أهل السُّنّة: هكذا ورد اسمه عند المحبي والبغدادي والزركلي[١]. وهو عند إحسان عباس: إضاءة الدجنّة بعقائد أهل السُّنّة[٢]. وهذا الكتاب عبارة عن منظومة بدأ بتأليفها في أثناء زياراته للحجاز والشام، وكان تلميذه الشيخ عبد القادر الغصين السبب في تأليفها[٣]. وقد طبعت بمصر سنة ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٦ م بهامش شرح العقيدة السنوسية للشيخ عليش.

٨ ـ إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس: هو عبارة عن أجوبة عن مسائل أرسلها إليه أستاذه محمد بن أبي بكر الدلائي، وتوجد ضمن كتاب البدور الضاوية، بخزانة الرباط[٤].

٩ ـ أنواء نيسان في أبناء تلمسان: ذكر المقّري في النفح أنه نوى، وهو بالمغرب، أن يجمع في شأن تلمسان كتابًا ممتعًا يسميه بهذا الاسم، وكتب بعضه، ثم عدل عن ذلك لأن الأقدار حالت بينه وبين ذلك العزم، فارتحل منها إلى حضرة فاس، حيث شغل بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها[٥].

١٠ ـ البدأة والنشأة: هو كتاب في الأدب والنظم[٦]. وأورده البغدادي هكذا: أنواء النسيان في أبناء تلمسان، وقال: إنه منظومة في الأدب[٧]. وورد اسمه عند محمد بشير ظافر الأزهري وإحسان عباس هكذا: البلدة والنشأة[٨].

١١ ـ الجمان في مختصر أخبار الزمان: هكذا ورد اسمه في هدية العارفين[٩]. وعند إحسان عباس: الجمان من مختصر أخبار الزمان[١٠]. وشكّ حبيب الجنحاني في نسبة هذا الكتاب إلى المقّري[١١].

---

(١) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٢) وهدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧) والأعلام (جـ ١ ص ٢٣٧).

(٢) نفح الطيب (جـ ١ ص ١١: مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(٣) الرحلة العياشية (جـ ٢ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(٤) راجع نفح الطيب، طبعة دار صادر (مقدمة المحقق ص ١٢).

(٥) نفح الطيب (جـ ٩ ص ٣٥٦).

(٦) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣).

(٧) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٨) اليواقيت الثمينة (ص ٢٩) ونفح الطيب (جـ ١ ص ١٣: مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(٩) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(١٠) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٤: مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(١١) المقّري صاحب نفح الطيب (ص ٩٢ ـ ٩٥).

١٢ ـ حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي: هكذا ورد اسمه عند البغدادي والأزهري وإحسان عباس[١]. وعند المحبّي: حاشية شرح أم البراهين [٢].

١٣ ـ حسن الثنا في العفو عمّن جنى: هو مطبوع بمصر دون تاريخ، ويقع في سبع وأربعين صفحة.

١٤ ـ الدّرّ الثمين في أسماء الهادي الأمين: هكذا ورد اسمه عند البغدادي والمحبّي والأزهري[٣].

١٥ ـ الدّرّ المختار من نوادر الأخبار: ذكره البغدادي[٤].

١٦ ـ رفع الغلط عن المخمس الخالي الوسط: هكذا أورد اسمه البغدادي، وقال: إنه في علم الحروف والأسماء[٥]. وقال المحبّي: «وله رسالة في الوفق المخمس الخالي الوسط وغير ذلك»[٦].

١٧ ـ روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس: هكذ ورد اسمه عند المحبّي والبغدادي[٧]. وعند الزركلي: روضة الأنس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس[٨]. وجاء في نفح الطيب بتحقيقنا: روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس[٩]، وكذلك في طبعة دار صادر[١٠]. وقد طبع هذا الكتاب بعنوان: روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، بالمطبعة الملكية بالرباط عام ١٩٦٤، بتحقيق عبد الوهاب ابن منصور.

---

(١) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧) واليواقيت الثمينة (ص ٣٠) ونفح الطيب (جـ ١ ص ١٢: مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(٢) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣).

(٣) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧) وخلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣) واليواقيت الثمينة (ص ٣٠).

(٤) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٦) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣).

(٧) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣) وهدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٨) الأعلام (جـ ١ ص ٢٣٧).

(٩) نفح الطيب (جـ ٨ ص ١٩٤).

(١٠) نفح الطيب (جـ ٦ ص ٥٩) طبعة دار صادر.

١٨ ـ روضة التعليم في ذكر الصلاة والتسليم على ما خصّه الله تعالى بالإسراء والمعاينة والتكليم: لم يرَ هذا الكتاب النور؛ يذكر المقّري أنه كان قد نوى أن يؤلّف في أمداح المصطفى، ﷺ، كتابًا يسمّيه بهذا الاسم، ولكنه لم يذكر السبب الذي دعاه لأن يعدل عن هذا الأمر[١].

١٩ ـ شرح على قصيدة «سبحان من قسّم الحظوظ»: ذكره الأزهري في اليواقيت[٢].

٢٠ ـ شرح مقدمة ابن خلدون: ذكره إحسان عباس، وقال: ذكره حاجي خليفة[٣]. ونحن لم نعثر عليه في كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة.

٢١ ـ الشفاء في بديع الاكتفاء: ذكره إحسان عباس، وقال: ذكره أحمد الشاهيني في رسالته[٤].

٢٢ ـ عرف النشق في أخبار دمشق: هكذا ورد اسمه عند المحبّي والبغدادي والزركلي[٥]. وعند إحسان عباس: عرف النشق من أخبار دمشق، وقال: «ولعلّه كان مشروعًا لم يتمّ»[٦].

٢٣ ـ الغثّ والسمين والرثّ والثمين: ذكره المحبي والبغدادي والأزهري[٧].

٢٤ ـ فتح المتعال في مدح النعال: هكذا ورد اسمه عند البغدادي[٨]. وذكره المحبّي هكذا: «فتح المتعال»، وعلّق عليه بالقول: «صنّفه في أوصاف نعل النبيّ ﷺ» [٩]. وهو عند الزركلي: «فتح المتعال في وصف النعال»[١٠]. وقد طبع هذا الكتاب بالهند. وذكره العياشي وقال: إنّ المقّري أودع في كتابه هذا كلامه وكلام أهل عصره، وهو على الرغم

---

(١) نفح الطيب (جـ ١٠ ص ٣١٥).

(٢) اليواقيت الثمينة (ص ٣٠).

(٣) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٢ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(٤) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٣ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(٥) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣) وهدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧) والأعلام (جـ ١ ص ٢٣٧).

(٦) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٢ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

(٧) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣) وهدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧) واليواقيت الثمينة (ص ٣٠).

(٨) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).

(٩) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٢).

(١٠) الأعلام (جـ ١ ص ٢٣٧).

من سَعَة حفظه وكثرة اطّلاعه لم يطّلع على كتاب «منتهى السول في مدح الرسول» لابن عذرة المغربي، الذي يتضمّن مجموعة من الشعر قيلت في مثال نعل الرسول ﷺ، وهو لو اطّلع عليه لاغتبط به كثيرًا[1]. ونحن نلفت نظر العياشي إلى أن المقّري صرّح في أواخر كتابه النفح أنه اطّلع على الجزء الخامس والعشرين من كتاب «منتهى السول» فقال: «ومن ذلك قول الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد بن محمد بن العباس المغربي، حسبما نقلته من المجلد الخامس والعشرين من كتاب منتهى السول في مدح الرسول للحسن بن عبد الرحمن ابن عبد الرحيم بن عذرة المغربي الأنصاري، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا بقصده».

٢٥ ـ قطف المهتصر في أخبار المختصر: هكذا ورد اسمه عند المحبّي والبغدادي[2]. وذكره إحسان عباس هكذا: قطف المهتصر في شرح المختصر، وعلّق عليه بالقول: هو شرح على حاشية مختصر خليل[3].

٢٦ ـ القواعد السرية في حلّ مشكلات الشجرة النعمانية: ذكره البغدادي فقط بالاسم[4].

٢٧ ـ نظم في علم الجدول: ذكره الأزهري دون أن يعلّق عليه[5].

٢٨ ـ النفحات العنبرية في نعل خير البرية: هو عبارة عن أرجوزة في مدح النعال الشريفة. وقد ذكره إحسان عباس، وقال: بعث به إلى شيخه الدلائي، وهو مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقمه ٥٦٥[6].

٢٩ ـ النمط الأكمل في ذكر المستقبل: ذكره البغدادي دون أن يقول عنه شيئًا[7].

٣٠ ـ نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالي الوسط: هو عبارة عن أرجوزة، وقد ذكره إحسان عباس، وقال: هو مخطوط بالرباط ورقمه ٢٨٧٨ ك[8].

---

(١) رحلة العياشي (جـ ٢ ص ٢٥٦).
(٢) خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٣) وهدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).
(٣) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٢ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.
(٤) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).
(٥) اليواقيت الثمينة (ص ٣٠).
(٦) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٣ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.
(٧) هدية العارفين (جـ ١ ص ١٥٧).
(٨) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٣ : مقدمة المحقق) طبعة دار صادر.

وقد أشاد المؤرّخون بذكر المقّري وأطنب الذين ترجموا له في الثناء عليه فقال فيه المحبّي: «حافظ المغرب، جاحظ البيان، ومن لم يُرَ نظيرُه في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة، وكان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزًا باهرًا في الأدب والمحاضرات»[١]. وعدّه الزركلي مؤرخًا أديبًا حافظًا، شاعرًا له شعر حسن ومزدوجات رقيقة وأخبار ومطارحات مع أدباء عصره[٢].

ولا بدَّ هنا من أن نشير إلى الدراسة القيّمة التي قام بها السيد الحبيب الجنحاني بعنوان: «المقّري صاحب نفح الطيب»، وهي مطبوعة وتبحث في سيرة المقّري وآثاره، وإلى الدراسة القيّمة التي قام بها السيد عثمان الكعاك التونسي وعنوانها: «المقّري»، وهي كذلك مطبوعة، وتبحث في كل ما يتعلّق بحياة المقّري ومؤلّفاته.

وأخيرًا نقدّم جزيل شكرنا ووافر تقديرنا للسيد محمد علي بيضون صاحب دار الكتب العلمية للّفتة الكريمة التي بدرت منه وكانت حافزًا لنا على تحمّل مشاقّ هذا العمل.

واللّهَ تعالى نسألُ الإعانة إلى سبيل الرشاد، ونسأله العفو عمّا ارتكبْنا من أخطاءَ وهفواتٍ سَهَا بها القلمُ أو طغى، وإنْ كنّا لم نبلغْ من عملنا المراد، فقد يشفع لنا الاجتهاد.

بيروت في ١٣/ ١/ ١٩٩٥

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية
والتاريخ الأندلسي بالجامعة
اللبنـانيـة

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
والدراسات العليا وعضو لجنة
الدكتوراه بالجامعة اللبنانية

---

(١) خلاصة الأثر (جـ١ ص ٣٠٢).
(٢) الأعلام (جـ١ ص ٢٣٧).

مصادر ومراجع المقدمة

١ ـ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري السلاوي (١ ـ ٤). مصر، ١٣١٢ هـ.

٢ ـ الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) للأستاذ خير الدين الزِّرِكْلي (١ ـ ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

٣ ـ الإعلام بمَن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام لعباس بن محمد بن إبراهيم المراكشي (١ ـ ٥). طبعت بفاس ابتداء من سنة ١٩٣٦، وجاء على كل جزء منها أنها «جزء من ثمانية».

٤ ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب. القسم الثاني. تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

٥ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين القفطي (١ ـ ٣). تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتب المصرية، ١٩٥٠.

٦ ـ أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني. تحقيق الأستاذين محمد الفاسي وأدولف فور. طبعة الرباط، ١٩٦٥.

٧ ـ البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (١ ـ ١٤). مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠.

٨ ـ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لأبي عبد الله محمد بن محمد المليتي المديوني التلمساني الملقب بابن مريم. الجزائر، ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م.

٩ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضَّبِّي. دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

١٠ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي. دار المعرفة، بيروت.
١١ ـ البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغْرب لابن عذاري المراكشي (١ ـ ٤). تحقيق ج.س. كولان وإ. ليڤي بروڤنسال والدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت.
١٢ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان (١ ـ ٤). مصر، ١٩١٣ ـ ١٩١٤.
١٣ ـ تراجم إسلامية شرقية وأندلسية لمحمد عبد الله عنان. مصر، ١٩٤٧.
١٤ ـ تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي بن أبي القاسم الديسي ابن إبراهيم الغول. قسمان في مجلد واحد. الجزائر، ١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٦ م.
١٥ ـ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (١ ـ ٢). طبعة مصر.
١٦ ـ الحُلّة السِّيَراء لابن الأبار (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.
١٧ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد المحبِّي. الجزء الأول، القاهرة، ١٢٨٤ هـ.
١٨ ـ دائرة المعارف الإسلامية (١ ـ ١٥). نقلها إلى العربية الأساتذة أحمد الشنتناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس. دار المعرفة، بيروت.
١٩ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي. مصر، ١٣٥١ هـ.
٢٠ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشَّنْتريني (أربعة أقسام في ثمانية مجلدات). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.
٢١ ـ الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (١ ـ ٦). تحقيق الأستاذين محمد بن شريفة وإحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.
٢٢ ـ الرحلة العياشية، المسمّاة ماء الموائد لأبي سالم عبد الله بن محمد العياشي. (١ ـ ٢). طبعت على الحجر في فاس، سنة ١٣١٦ هـ.
٢٣ ـ روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر مَن لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس لأحمد بن محمد المقّري التلمساني. المطبعة الملكية بالرباط، سنة ١٩٦٤.
٢٤ ـ ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا للخفاجي (١ ـ ٢). مصر، طبعة ١٩٦٧.
٢٥ ـ زاد المسافر وغرّة محيّا الأدب السافر لأبي بحر صفوان بن إدريس المرسي. تحقيق الأستاذ عبد القادر محداد، بيروت، ١٩٣٩.
٢٦ ـ الزاوية الدلائية للأستاذ محمد حجّي. طبعة الرباط، ١٩٦٤.
٢٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الحنبلي (١ ـ ٨). القاهرة، ١٣٥٠ ـ ١٣٥١ هـ.

٢٨ ـ صفوة مَن انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر لمحمد الصغير الإفراني المراكشي. طبع على الحجر بالقاعدة المغربية. ليس عليه تاريخ الطبع ولا مكانه.
٢٩ ـ الصلة لابن بَشْكُوال (١ ـ ٣). تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩.
٣٠ ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس الغبريني. الجزائر، ١٩١٠.
٣١ ـ فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات لمحمد عبد الحيّ بن عبد الكبير الإدريسي الكتاني (١ ـ ٢). طبع في فاس، ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧ هـ.
٣٢ ـ فهرس المكتبة الأزهرية للكتب الموجودة فيها إلى سنة ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠ م (١ ـ ٦). مصر، ١٩٥٠.
٣٣ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ ـ ٥). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.
٣٤ ـ قلائد العقيان لابن خاقان. القاهرة، ١٢٨٤ هـ.
٣٥ ـ لسان العرب لابن منظور (١ ـ ١٥). دار صادر، بيروت.
٣٦ ـ محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.
٣٧ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (المجلد الثامن، ١ ـ ٢). حيدر أباد الدكن، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.
٣٨ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دِحْية، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد الحميد والدكتور أحمد أحمد بدوي. دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥.
٣٩ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي (١ ـ ٥). دار صادر، دار بيروت، ١٩٨٤.
٤٠ ـ المعجم في أصحاب القاضي الصدفي لابن الأبّار. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت. الطبعة الأولى، ١٩٨٩.
٤١ ـ المُغْرب في حُلى المَغْرب لابن سعيد (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.
٤٢ ـ المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبّار. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣.
٤٣ ـ المقّري صاحب نفح الطيب للأستاذ الحبيب الجنحاني. تونس، ١٩٥٥.
٤٤ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (١ ـ ١٦). دار الكتب المصرية.

٤٥ ـ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الإفراني، طبع في أنجي Angers سنة ١٨٨٨.
٤٦ ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني «عشر» لمحمد بن الطيب القادري. جزآن في مجلد. فاس. ١٣١٥ هـ.
٤٧ ـ نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب لابن الخطيب. تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، ومراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.
٤٨ ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي. طبعة فاس.
٤٩ ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي (١ ـ ٢). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.
٥٠ ـ الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي (١ ـ ٢٢). الطبعة الثانية، ڤيسبادن، ١٩٦٢ ـ ١٩٨٣.
٥١ ـ وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلّكان (١ ـ ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨.
٥٢ ـ اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة لمحمد بشير ظافر الأزهري. طبع مصر، ١٣٢٥ هـ.

* * *

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب



خطبة الكتاب

يقولُ العبدُ الفقيرُ، الذليلُ المُضطَرُّ الحقيرُ، مَنْ هو مِنْ صالحِ الأعمالِ عَرِيٌّ؛ أحمدُ ابنُ محمدٍ الشّهيرُ بالمقَّرِيِّ، المغربيُّ المالكيُّ الأشعَريُّ، أَصْلَحَ اللّهُ تعالى حاله، وجَعَلَ في مَرْضاتِهِ حِلَّهُ وتَرْحالَه[1]، ومَحَا بِغَيْثِ الطاعةِ والرِّضوانِ أَمْحالَه[2]، وأنْجَحَ ببلوغ آمالِهِ انتحاءه وانتحاله[3]:

أحمدُ مَنْ عَرَّفَ مِنْ حُلَى الأمصارِ وعُلَى الأعيانِ، على تَدَاوُلِ الأَعْصارِ وتَطَاوُلِ الأحيانِ، ما فيه ذكرى لأُولي الأبصارِ وإرشادٌ إلى معرفة الديَّانِ[4] واعتبارٌ بأخبارٍ رَاعَ وَصْفُها أو راقَ[5]، وشَرَّفَ مَنْ صَرَفَ المطامحَ والمطامع، إلى تفصيلِ ما أفادَ لسانُ الدين[6] من كَلِمٍ جوامع، وتحصيلِ ما أجادَ مِنْ حِكَمٍ بوالغَ سُحُبُ بلاغتها هَوَامع[7]، واقتناءِ ذخائرِ

---

(١) الحِلُّ: نقيض الارتحال والتَّرْحال؛ يقال: حَلَّ المكانَ وبه إذا نَزَلَ به. القاموس المحيط، مادة (حلل). التَّرْحال: نقيض الحِلّ والإقامة؛ يقال: تَرَحَّلَ القومُ عن المكان وارتحلوا إذا انتقلوا. المنجد في اللغة والأعلام، مادة (رحل).

(٢) الأَمْحالُ: جمع مَحْل وهو نقيض الخِصْب، أي الجَدْب. لسان العرب (محل).

(٣) الانتحاء والانتحال هنا بمعنى القَصْد؛ يقال: نَحَاهُ وانتحاه انتحاءً إذا قَصَدَهُ. ويقال: انتحله إذا ادّعاه لنفسه وهو لغيره. القاموس المحيط (نحا) و(نحل).

(٤) الدَّيّانُ: القَهّار، وهو من أسماء اللّه عزّ وجلّ. لسان العرب (دين).

(٥) راقَ الشيءُ فلانًا: أعجبه. محيط المحيط (روق).

(٦) لسان الدين: هو لقب المؤلِّف.

(٧) السُّحُب: جمع سَحَابة وهي الغَيْم. القاموس المحيط (سحب). الهَوامِعُ: السَّيّالة، جمع هامِعة. محيط المحيط (همع).

المُهْتدين التي تَشَنَّفَتْ[1] بدُرَرِها اللوامِعِ الآذانُ والمسامع، مِنْ كلِّ مُنحَطٍّ عن رتبة البراعة أو رَاقٍ[2]، حتى توّجَ الخطيبُ[3] المجيدُ رؤوسَ المنابر بفرائد الكلام، وحَلّى الكاتبُ المجيدُ صدورَ المزابر[4] من فوائد الأعلام، وكَحَّلَ الحكيمُ الطبيبُ الأريبُ المفيدُ من إثْمِدِ المحابر بمَرَاوِدِ الأقلام عيونَ أوْراق[5].

وأَشْهَدُ أنْ لا إله إلاّ اللّه وَحْدَهُ لا شريكَ له، الذي ابتدأ الخَلْقَ من غير مثالٍ وبَرَا[6]، وقَسَّمَ العِبادَ إلى حاضرٍ وبادٍ وظاهرٍ وخاملٍ وقاصرٍ وكاملٍ تشير إليه بالأناملِ أيدي الكُبَرا[7]، وأَبْدَى في اختلافِ ذواتهم وأعراضهم وتَبَايُن أدواتهم وأغراضهم وتغاير ألسنتهم وأمكنتهم وأزمنتهم وألوانهم وأكوانهم ومناصبهم ومَنَاسبهم عِبَرَا، وجعل الدُّنْيا لمَن أُتيح صغرًا أو كبرًا، ولبس منهم مُسُوحًا أو حِبَرَا[8]، وأَخْلَدَ إلى الأرضِ أو صَعِدَ مِنْبَرًا، جِسْرًا إلى الآخرةِ ومَعْبَرًا، وحَكَمَ. وَهو الفاعل المختارُ. على الجميع بالموت فكان لمبتدئهم خَبَرًا، فيا له من داء أَعْيَا كلَّ مُعَالجٍ أو راق[9].

فسبحانه من إله انفرد بوجوب القِدَمِ والْبَقَا[10]؛ واختصَّ بفضله مَن شاء فأرْتَقَى، وعَمَّ تعالى ذوي السعادة والشَّقَا، بالحدوثِ والفَنَا[11]؛ وأذاقَ مِنْ فراق الدنيا كلَّ مَنْ فيها بلا

---

(١) تَشَنَّفَتْ: تَقَرَّطَتْ، أي تَزَيَّنَتْ بالقُرْط. لسان العرب (شنف).
(٢) الراقي: الصاعد، ضدُّ المُنحَطّ، وهو اسم فاعل لفعل «رقي». القاموس المحيط (رقي).
(٣) الخطيب: هو لقب المؤلِّف.
(٤) المزابر: جمع مِزْبَر وهو القلم. لسان العرب (زبر).
(٥) الإثْمِدُ: حجر للكُحْل. القاموس المحيط (ثمد). المراود: جمع مِرْوَد وهو المِيْل الذي يُكْتَحَلُ به. لسان العرب (رود). الأوراق: أي أوراق الكتاب.
(٦) أصل القول: بَرَأ؛ يقال: بَرَأَ اللّهُ الخَلْقَ إذا خَلَقَهُمْ، وقد حَذَفَ الهمزةَ مراعاةً للسَّجْعِ. القاموس المحيط (برأ).
(٧) أصل القول: الكبراء، جمع كبير وهو ذو الكِبَر، وقد حَذَفَ الهمزة مراعاة للسَّجْع. محيط المحيط (كبر).
(٨) المُسُوحُ: جمع مِسْح، بكسر الميم وسكون السين، وهو كِساءٌ من الشَّعر. الحِبَرُ: جمع حِبَرَة وهي ضرب من برود اليمن. لسان العرب (مسح) و(حبر).
(٩) الراقي: الذي يَرْقي المريضَ وينفث في عُوْذته. لسان العرب (رقا).
(١٠) أصلها: البقاء، وقد حذف الهمزة مراعاة للسَّجْع.
(١١) «الشقا» و«الفنا» أصلهما «الشقاء» و«الفناء».

ثِنَا[١]، فمَن وُفِّقَ فنَفَى عن جَفْنِه وَسَنَا[٢]، أو خُذِلَ فَجَرَّ في مَيْدَانِ الاغترارِ رَسَنا، وزُيِّنَ له عياذًا باللّه سوءُ عمله فرآه حَسَنًا، طَعْمَ شَعُوبَ[٣] المُرَّ الْجَنَى، فلم يغْنِ منه عن ذوي الغِنَى والغَنَا[٤]، وأهلِ السَّناء والسَّنا[٥]، مَنِ استظهروا به من أرباب الصَّوارم والقَنَا[٦]، وأصحابِ النَّظْم والنثرِ والجدال والفخر والمدح والثنا، فأولئك أَلْقَوا السلاحَ مُذعِنِين، مستبصرين مُوقِنين، إذ جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ وولَّى الامتِرَا[٧]، وهؤلاء تركوا الإصلاح مُغْلِنين، عالمين أنهم لم يكونوا في التمويه مُحْسِنين، وكيف لا وقد اَضمَحَلَّ الغرور والاجْتِرَا[٨]، وذهبَ واللّهِ الجَوْرُ والافتِرَا[٩]، وبُدِّلَ مَذْقُ الإطراءِ بصدقِ الإطراقِ[١٠].

وأشْكُرُهُ جَلَّ وعَلاَ على أنْ عَلَّمَ بالقلم ما لم نعلم، ونبَّه بآثارِهِ الدَّالَّةِ على اقتدارِهِ إلى سلوكِ الطريقِ الأقوم، الواضحِ المَعْلَم، وأرْشَدَ مَنْ أَشْرَقَ فِكْرُهُ وأَضَا[١١]، إلى التفويض لأحكام القضا[١٢]،ومَن ذا يَرُدُّ ما أمضى أو يَنْقُضُ ما أبرم، والتسليمُ على كلِّ حالٍ أسْلَم، وأمَرَ جَلَّ اسمُه بالتدبّر في أنباء مَن مضى، والنظر في عواقبِ أحوالِ الذين زالَ أمْرُهُمْ

---

(١) الثِّنا، بكسر الثاء: الأمر يُعاد ــن. لسان العرب (ثني).

(٢) الوَسَنُ: النعاس. مختار الصحاح (وسن).

(٣) طَعْمَ: مفعول به للفعل «أذاق». شَعُوب: اسم المَنِيَّة، وهي معرفة لا تنصرف ولا تدخلها الألف واللام. لسان العرب (شعب).

(٤) أصل القول: الغَنَاء، بفتح الغين والنون. وهو النَّفْع، وقد حذف الهمزة مراعاة للسَّجْع. مختار الصحاح (غني).

(٥) السَّناء: الرفعة. السَّنا: الضياء. لسان العرب (سنا).

(٦) الصَّوارم: جمع صارم وهو السَّيْفُ القاطع. القَنَا: جمع قناة وهي الرمح. مختار الصحاح (صرم) و(قنا).

(٧) الامترا: أصل القول: الامتراء، بالهمز، وقد حَذَفَ الهمزة مراعاة للسَّجْع، والامتراء: الشك؛ يقال: امترى فيه إذا شكَّ. القاموس المحيط (مَرَى).

(٨) الاجترا: أصل القول: الاجتراء بالهمز، وهو الإقدام على الشيء. لسان العرب (جرأ).

(٩) الافتراء: الأصل بالهمز؛ يقال: افترى عليه الكذبَ افتراءً إذا اختلقه. محيط المحيط (فرى).

(١٠) مَذْقُ الإطراء: الإطراءُ الكاذب؛ والمَذْقُ: المزج والخلط؛ يقال: مَذَقَ الشرابَ إذا مزجه بالماء، والإطراء: المدح؛ يقال: أطرأ القومَ إذا مدحهم. الإطراق: السكوت عامّة. لسان العرب (مذق) و(طرأ) و(طرق).

(١١) أصل القول: أضاء، وقد حَذَفَ الهمزة مراعاة للسَّجْع.

(١٢) أصل القول: القضاء، وقد حَذَفَ الهمزة مراعاةً للسَّجْع.

وانقضى، من صنوفِ الأمم، ووَبَّخ من دَجَا[1] قلْبُهُ بالإعراض عن ذلك وأظلم، وشتّان ما بين اللاّهي والمتذكّر، والساهي والمتفكر، والناجي والهالك المتحَيِّر، والداجي الحالكِ والمُشْرقِ النيّر، وما يستوي الظِّلُّ والْحَرُور[2]، والْحُزْن والسرور، والظُّلُماتُ والنور، ذو البهجة والإشراقِ.

وأُصَلِّي أَزْكَى الصلاةِ والسلام، هَدِيَّةً لحضرةِ سَيِّدِ الأنام، ولَبِنَةِ التمام، مَنْ زُوِيَتْ[3] له من الأرضِ المغاربُ والمشارق وتَمّ به نظامُ أنبياءِ اللّهِ ورسلِهِ العِظام، وأزاح نُورُهُ الضَّلالَ والظلام، حتى أضاءت بِوَسْمِهِ المساجدُ وازدانَتْ بأسمِهِ المَهَارِقُ[4] وألقى الموفَّقُ الموافِقُ لدعوته بيد الاستسلام، وذلك شأنُ ذوي العقولِ الراجحةِ والأحلامِ، غَيْرَ خائفٍ من عَتْبٍ ولا مترقّبٍ لمَلاَم، فأَمِنَ من الطوارىء والطوارق وتمّتْ كلمةُ الإسلام الذي اتّضحَ بُرْهانه لذي بَصَرٍ وبصيرة لا يحتاج إلى زيادة الإعلام، وعَلَتْ سيوفُ توحيد الملك العلاّم[5]، من المُعانِدِ المُفَارِقِ المَفَارِقَ[6]، وخَضَّبَتْها بِحِنّاءِ النجيع[7] الرقراقِ. النبيُّ الأُمّيُّ الأمين، الداعي جميعَ العالمين، إلى سلوكِ منهاجٍ ما له مِنْ هاجٍ[8]، ذي أضواء شوارق، سيد الرُّسل الغُرِّ الميامين، ملجأ الأمة جعلنا اللّه ممّن نجا باللَّجَإِ إليه آمين، الذي أنزل عليه القرآن، هُدًى للناس وبَيِّنات من الهدى والفُرْقان[9]، وانشقَّ له الزِّبْرِقان[10]، ونَبَعَ الماءُ من بين أصابعه زيادةً في الإيقان، وسَلَّمَتْ عليه الأحجار، وانقادتْ لأمره الأشجار، مُتَفَيِّئَةً ظِلالَهُ الشريفة، وخَطَّتْ في الأرضِ أَسْطُرًا مُبْدَعَةَ الإتقان، إلى غيرِ ذلك من معجزاته الخوارق، فهو صاحبُ الدعوةِ الجامعة، والبراهينِ اللامعة، والأدلَّةِ التي سَقَتِ الشجرة

---

(١) دَجَا: أظلم. القاموس المحيط (دجا).

(٢) الحَرُوْرُ: الحَرُّ الدائم. القاموس المحيط (حرر).

(٣) زُوِيَتْ: طُوِيَتْ. القاموس المحيط (زوا).

(٤) المهارِقُ: الصحف، واحدتها مُهْرَق. القاموس المحيط (هرق).

(٥) العَلاّم: العَلاّمة، أي العالِم جدًّا، القاموس المحيط (علم).

(٦) المَفارق، بفتح الميم: جمع مَفْرِق وهو موضع من الطريق يتشعب منه طريق آخر. محيط المحيط (فرق). ويريد أن يقول: لم يسلم من سيوف الرسول الكريم المعاندون الذين فارقوا الطريق القويم وانفصلوا عنه.

(٧) النَّجِيْعُ: الدم الذي يميل لونه إلى السواد. القاموس المحيط (نجع).

(٨) الهاجي: الذي يشتم الآخرين بالشِّعْر، ويريد أن يقول: ليس لهذا المنهاج أعداء.

(٩) الفُرْقان، بضم الفاء وسكون الراء: القرآن. القاموس المحيط (فرق).

(١٠) الزِّبْرِقان: بكسر الزاي والراء وسكون الباء: القمر. القاموس المحيط (زبرق).

الطيبة غيوثُهَا[1] النافعة، الصَّيِّبةُ الهامية الهامعة[2]، الصادقةُ البوارقِ، فأثمرتِ النجاة والفَوْزَ والفَلاحَ وأَوْرَقَتْ بالهدى أحسن إيراق، أَسْنَى رسولٍ بُعِثَ إلى الأرضِ، وأعظمُهُمْ جَلالَة وأكثرُهُمْ تابعًا في الطول منها والعَرْضِ، ولِم لا وقد ظهر به الحقُّ لِمَن أَمَّهُ[3] مسترشدًا وجَلا له[4]، وأسمى مَنْ جاء بتبيين السُّنَّة والفَرْضِ، وأَعَمِّهم دَلالَة، مُنْقِذُ البرايا[5] في الدنيا ويوم العرضِ، الآخذُ بحُجَزهم[6] عن النارِ والضلالة، الداعي إلى تقديم الخير وحُسْن القرضِ، الحريصُ على هدايةِ الخَلْقِ المبلِّغ لهم أحكامَ الحقِّ من غير ضَجَرٍ ولا ملالة، ذو الفضل العظيم الذي لم يختلف فيه من أهلِ العقول اثنان، والمَجْدِ الصميمِ[7] الثابتِ الأصولِ الباسق الأفنان[8]، المُنتقى مِنْ مَحْتِدِ مَعَدِّ بن عدنان[9]، المنتخَبُ من خَيْرِ عُنْصرِ وأطهرِ سُلالَة، شفيعُنا ومَلاَذُنا وعِصْمَتُنا ومَعَاذنا وثِمَالنا، الذي نَجَحَتْ به آمالنا، وزكت به أقوالنا وأعمالنا، ووسيلتُنا الكبرى، وعُمْدَتُنا[10] العُظْمى في الأولى والأخرى، وكَنْزُنا الذي أعددناه لإزاحة الغموم ذُخْرًا، وغَيْثُنا وغَوْثُنا وسيِّدُنا ونبيُّنا ومولانا محمد الطيب المنابتِ والأعراقِ.

صلّى الله عليه وسلّم، وَوَجَّه وُفُودَ التعظيم إليه، من مُفْرَدٍ في جَماله صارَ لجمعِ الأنبياء تمامًا، وفَذٍّ في كماله تقدّم في حضرة التقديس، التي أُسِّسَتْ على التشريف أعظَم

---

(١) الغُيُوثُ: جمع غَيْث، وهو المطر. مختار الصحاح (غيث).
(٢) الغيوثُ الصَّيِّبَةُ: المُنْصَبَّةُ. لسان العرب (صوب). الهامية والهامعة: بمعنًى، أي السَّيَّالة. محيط المحيط (هما) و(همع).
(٣) أَمَّهُ: قَصَدَهُ. مختار الصحاح (أمم).
(٤) جَلاَ له: أَوْضح له. مختار الصحاح (جلا).
(٥) البَرَايا: جمع بَرِيَّة وهي الخَلْق. مختار الصحاح (برأ).
(٦) الحُجَزُ: جمع حُجْزَة وهي معقد السروال والإزار. لسان العرب (حجز).
(٧) الصميمُ: الخالص. مختار الصحاح (صمم).
(٨) الباسقُ الأفنان: الذي أفنانه تطولُ وتمتدُّ؛ يقال: بَسَقَ النَّخْلُ إذا طال. الأفنان: جمع فَنَن وهو الغصن. مختار الصحاح (بسق) و(فنن).
(٩) المَحْتِدُ: الأصل. القاموس المحيط (حتد). ومَعَدُّ بن عدنان: هو أبو العرب، جَدٌّ جاهلي، من أحفاد إسماعيل، ومن سلسلة النسب النبوي، كان يقيم بنجد. جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٩، ٤٣٤)؛ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي (ص ١٠٨ - ١٠٩)؛ لسان العرب لابن منظور (مادة عدد)؛ الأعلام للزركلي (ج ٧ ص ٢٦٥).
(١٠) العُمْدَةُ: ما يُعْتَمَدُ عليه. مختار الصحاح (عمد).

تأسيس، فصَلَّى بالمرسلين إمامًا، وصَدْرِ تَحلَّى بجميل الأوصاف، كالوفاء والعفاف، والصدق والإنصاف، فزكا في أعماله، وبَلَّغ الراجي منتهى آماله، ولم يُخْلِفْ وَعْدًا ولم يَخْفِر ذماما، وسيّدٍ كُسِيَ حُلَل العِصْمة، من كل مخالفة وذنب ووَصْمة، فلم يصرف لغير طاعة مولاه، الذي أولاه من التفضيل ما أولاه، اهتبالاً[1] واهتمامًا.

وعلى آله وعِتْرَتِهِ[2]، الفائزين بأُثْرَتِهِ[3]، أنصارِ الدين، والمهاجرين المهتدين، وأشياعِهِ وذُرِّيَّتِهِ[4]، الطالعين نجومًا في سماء شهرته، وأتباعهم القائمين بحقوق نُصْرته، أَرْبابِ العقل الرصين، الفاتحين بسيوف دعوته أبوابَ المَعْقِل الحصين، حتى بلغت أحكامُ مِلَّته، وأعلامُ بعثته، مَنْ بالأندلس والصين، فضلاً عن الشأمِ والعراقِ.

ورضي اللّه تعالى عن عُلَماءِ أُمّته المُصَنّفين في جميع العلوم والفنون، وعظماءِ سُنّته المُوْفِينَ للطلاب بالآراب المحقّقين لهم الظنون، وحكماءِ شِرْعَتِهِ المُتَبَصِّرين بحدوث مَنْ مَرَّتْ عليه الأيامُ والشهورُ وكرّتْ عليه الآناءُ[5] والدهورُ والأعوامُ والسنون، المتدبِّرين في عواقبِ مَنْ كان بهذه البسيطة من السكان المتذكّرين على قَدْر الإمكان بمَن طَحَنَتْه رَحَا[6] المنون، من أمْلاكِ[7] العصور الخالية، ومُلاَّكِ القصور العالية، وذوي الأحوال التي هي بسلوك الاختلاف حَالِيَة[8]، مِنْ بصيرٍ وأعمى، وفقيرٍ وذي نُعْمَى، ومختالٍ تَرَدَّى بكبريائه، ومحتالٍ على ما بأيدي الناس بسُمْعته وريائه، وعاقلٍ أَحْسَنَ العمل، وغافلٍ افتتن بالأمل، وكارعٍ في حِياض الشريعة، ورواتع برياض الآداب المريعة، وذي وَرَعٍ سَدَّ عَمَّا رابه الذريعة[9]، وأخي طَمَعٍ في أن يُدْرِكَ آرابه[10] من الدنيا الوشيكةِ الزوالِ السريعة، ومقتبسٍ

---

(١) اهتبالاً: اغتنامًا للفرصة. محيط المحيط (هبل).

(٢) عِتْرَتُهُ: نَسْلُهُ. مختار الصحاح (عتر).

(٣) أُثْرَتُهُ: مَأْثُرَتُهُ: أي مَكْرُمَتُهُ التي تُؤْثَرُ عنه. لسان العرب (أثر).

(٤) الذُرِّيَّةُ: وَلَدُ الرجل. القاموس المحيط (ذرر).

(٥) آناء الليل: ساعاته. المنجد في اللغة والأعلام، مادة (أون).

(٦) الرَّحَا: الطاحون، جمعها أرحاء. المَنُوْنُ: الموت. لسان العرب (رحا) و(منن).

(٧) الأملاك: جمع مَلِك. مختار الصحاح (ملك).

(٨) الحالية: اللابسة حَلْيًا؛ يقال: حَلِيَتِ المرأةُ إذا صارت ذات حَلْي، فهي حَلِيَةٌ وحالية. مختار الصحاح (حلا).

(٩) رابَ الرجلُ: تحيَّر. الذريعة: الوسيلة. لسان العرب (روب) و(ذرع). ويريد هنا أن يقول: سدَّ هذا الرجل الوَرِعُ طريق الضلال.

(١٠) الآراب: جمع الأَرَب وهو الحاجة. لسان العرب (أرب).

من نِبْراسِ[1] الرواية، وملتبسٍ بأدناس الغواية، وشاعرٍ هامَ في كل واد، وقال ما لم يفعل فكان للغاوين من الروّاد، وجاهلٍ عَمَرَ الخَراب، وخُدِعَ بالسَّراب، عن أعذب الشراب، ومحقّقٍ عَلِمَ أنه إذا جاء القَدَرُ عَمِيَ البصرُ ممّن كان أحذرَ من غُراب، وموفّقٍ تيقّن أنّ غيرَ اللّه فانٍ وكلّ الذي فوق التراب تُراب[2]، ومن متخلّقٍ مُتَجَرِّدٍ[3] تَصوَّف، ومتعلّقٍ متفرّدٍ تشوّق إلى ما فيه رضا الربّ وتشوّف[4]، وناهٍ ذَكَّرَ بأيام اللّه ووَعَظَ وخوّف، ولاهٍ اغترّ بالباطل، فهو بالحق مماطل، وطالما أَخّرَهُ وسَوَّف، وأبعد الانتجاع[5]، ثم أوى من باطنه إلى بيتٍ قَعيدتُهُ لَكَاعِ[6] نفسٍ أمّارةٍ بَعْدَ ما طوّف، ومن مادحٍ نَظَمَ الآلاءَ نَظْمَ اللآل[7]، وكادحٍ طَمَسَ لألاء العِزّ بظلمةِ ذُلّ السؤال، فجعلَ القصائدَ مصايد، والرسائلَ وسائل، والمقطّعاتِ مُرَقَّعات[8]، فآلَ أمره إلى ما آل، ومن مُخْبِرٍ بما سمع ورأى، حين اغترب عن مكانه ونأى، أو أقام في أوطانه فبلغ ما قدّر ووَأى[9]، ومن مُجَازِفٍ لا يفرّقُ بين الغَثّ والسمين[10] والإمرار والإحلاء، وعارفٍ ثقةٍ أمينٍ نَظَمَ دُرَّ الصَّدَفِ الثمينِ في أسلاك الكتابة

(١) النِّبْراسُ: المِصْباح. القاموس المحيط (نبرس).

(٢) يشير هنا إلى قول أبي الطيب المتنبّي: [الطويل]

إذا نِلْتُ منكَ الوُدَّ فالمالُ هَيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ

العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٥٢٠).

(٣) المُتَخَلِّقُ: الذي يظهر في خُلُقِهِ خلاف نِيَّتِهِ. لسان العرب (خلق). المُتَجَرِّدُ: الذي جَرَّد نفسه للعبادة؛ يقال: جَرَّد زيدًا من ثوبه: عَرّاه فَتَجَرَّدَ. القاموس المحيط (جرد).

(٤) تَشَوَّفَ إلى الشيء: تَطَلَّعَ. مختار الصحاح (شوف).

(٥) الانتجاع: من انتجع؛ يقال: انتجع فلانٌ فلانًا إذا أتاه طالبًا معروفه. وانتجع القومُ: ذهبوا لطلب الكلإ في مواضعه. محيط المحيط (نجع).

(٦) القَعِيْدَةُ: المرأةُ لقعودها في البيت. محيط المحيط (قعد). لَكَاعِ: ذليلةٌ عَبْدَةُ النَّفسِ؛ يقال: رجلٌ لَكُوعٌ وامرأةٌ لَكَاعِ مثل قَطَامِ. وهنا يتأثر المقري بقول أبي الغريب النصري: [الوافر]

أُطَـوِّفُ مـا أُطَـوِّفُ ثـم آوي ... إلـى بـيـتٍ قَـعِـيـدَتُـهُ لَـكَـاعِ

لسان العرب (لكع).

(٧) أصل القول: اللآلىء، وقد حذف الهمزة مراعاة للسَّجْع.

(٨) المُقَطَّعات: أي المُقَطَّعات الشعرية، واحدتها مُقَطَّعة، وهي قِصار الشِّعْر وأراجيزه. محيط المحيط (قطع). والمقطعة الشعرية دون سبعة أبيات، وما فوق السبعة قصيدة. المُرَقَّعات: الثياب المُرَقَّعة، أي الكثيرة الرِّقاع. محيط المحيط (رقع). يقول: جعل مقطعاته الشعرية كثياب المتصوّفة الكثيرة الرِّقاع وذلك وسيلة لتصيُّده في مدحه.

(٩) وَأى: وَعَدَ، والوَأْيُ: الوَعْدُ. لسان العرب (وأي).

(١٠) الغَثُّ: اللحم المهزول. السمين: ضدُّ المهزول. مختار الصحاح (غثث) و(سمن). يريد أنه لا يفرّق بين السيّىء والجيد.

والإملاء، وعاشقِ خنساءُ فِكْره ذاتُ الصِّدَار[١]، من الشجون والشعار، تبكي على صَخْرِ قلبِ المحبوب، وتذكره كلما طَلَعَتْ شمس[٢] أو كان للصَّبَا هبوب، فتأتي بما يُطفي وَقُودَ الجَوَى الْمَشبوبِ من بحار الأشعار، وليلى شوقِهِ العفيفةُ عن العار، تَرْفُلُ في ثوبٍ من التصبّر مُعار، وقَيْس[٣] تَوْقِهِ من ثوب السلوّ عار، قد تولّه واشْتاق خصوصًا عند انتشاق البَشَام والعَرَار[٤]، وقَلِقَ لما أَرِقَ فلم يقرَّ به قرار، فاعتراه ما بَرَاه وأَلِفَ البكاءَ بحكم الاضطرار، ولَبِسَ ثياب النحول والاصفرار، وأُسِرَ لَمَّا هُزِمَتْ جيوشُ صبره وأَزْمَعَتِ الفِرار، فتحيَّر ممّا شجاه وسأل النجاة من أسرِ الفراقِ[٥]: [مجزوء الكامل]

سُبْحانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُو ظَ فلا عِتابٌ ولاَ مَلاَمَهْ
أَعْمَى وأعشى ثم ذو بَصَرٍ وزَرْقاءُ اليَمَامَهْ[٦]
ومُسَدَّدٌ أو جائِرٌ أو حائرٌ يشكو ظُلاَمَهْ[٧]

---

(١) الصِّدارُ: ثوب من صُوفٍ تلبسه المرأة الثَّكْلَى إذا فَقَدَتْ حميمها. لسان العرب (صدر). وقد لبست الخنساء صدارًا طيلة حياتها، حِدادًا على أخيها صخر الذي توفي بعد سنة من جراح أُصيب بها في غزوة لبني غطفان، وقالت فيه عدّة قصائد وردت في ديوانها ص ١٩، ٢١، ٣٢، ٣٦. وانظر أيضًا مقدمة الديوان.

(٢) إشارة إلى قول الخنساء في أخيها صخر من قصيدة من خمسة عشر بيتًا: [الوافر]
يُذَكِّرُني طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ
شرح ديوان الخنساء (ص ٨٧).

(٣) هو قيس بن المُلَوّح، المعروف بمجنون ليلى، لُقّب بذلك لهيامه في ليلى بنت سعد العامرية. توفي في حدود الثمانين للهجرة، في واد كثير الحجارة، هائمًا على وجهه دون أن يتزوّجها. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (جـ ٢ ص ٣ ـ ٨٧)؛ والشعر والشعراء لابن قتيبة (ص ٤٦٧ ـ ٤٧٧)؛ وفوات الوفيات للكتبي (جـ ٣ ص ٢٠٨ ـ ٢١٣).

(٤) البَشَامُ: شجر طيب الرِّيح يُستاكُ به. العَرارُ: بَهَارُ البَرّ وهو نبت طيب الريح، الواحدة عَرارَة. مختار الصحاح (بشم) و(عرر). ومراده القول: إن مجنون ليلى يتولّه ويشتد شوقه إلى ليلى عندما يهبّ النسيم حاملاً معه رائحة ذينك النَّبْتَيْن.

(٥) هذه القصيدة للمقري، وسَتَرِد الأبيات الأول والثاني والرابع والخامس فقط في الجزء التاسع من نفح الطيب.

(٦) زَرْقاءُ اليمامة: امرأةٌ من بني جديس يقال لها حَذام، كانت تُبْصِرُ الراكبَ من مسيرة ثلاثة أيام، ولذا ضُرِبَ بها المثل في حدّة البصر فيقال: أبْصَرُ من زرقاءِ اليمامة. مجمع الأمثال للميداني (جـ ١ ص ١١٤، رقم المثل: ٥٧٤). وهكذا يتفاوت الإنسان من حيث الإبصار إلى أعمى، وأعشى، ومُبْصِرٍ، وحادّ البصر.

(٧) المُسَدَّدُ: الذي أُرْشِدَ إلى السَّدادِ (الاستقامة والصواب) أي العادل. الجائر: الظالم. محيط المحيط

لـولا استـقـامَـةُ مَـنْ هَـذَا ... هُ لَـمَـا تَـبَـيَّـنَـتِ الـعَـلاَمَـهْ
ومُـجـاوِرُ الـغَـرَرِ[1] الـمُـخِـيـ ... ـفِ لَـهُ الـبِـشـارةُ بـالـسـلامَـهْ
وأخـو الـحِـجَـا فـي سـائـر الـ ... ـأنـفـاسِ مُـرْتَـقِـبٌ حِـمَـامَـهْ[2]
وكـمـا مـضـى مَـنْ قَـبْـلَـهُ ... يَـمْـضـي ولـم يَـقْـضِ ٱلْـتـزامَـه
والـجـاهـلُ الـمُـغْـتَـرُّ مَـنْ ... لـم يـجـعـلِ الـتَّـقْـوَى اغْـتِـنَـامَـهْ
فـلْـيـرفـضِ الـعِـصْـيـانَ مَـنْ ... يَـخْـشَـى مِـنَ الـلّـه انـتـقـامَـهْ
وَلْـيَـعْـتَـبِـرْ بِـسِـواهُ مَـنْ ... لِـصَـلاحِـهِ صَـرَفَ اهـتـمـامَـهْ
فـالـعـيـشُ فـي الـدُّنْـيـا الـدَّنِـيـ ... ـيَـةِ غَـيْـرُ مَـرْجُـوِّ الإدامَـهْ
مَـنْ أرْضَـعَـتْـهُ ثُـدِيُّـهَـا ... فـي سـرعـةٍ تَـبْـدَى فِـطَـامَـهْ[3]
مَـنْ عَـزَّ جـانـبُـهُ بـهـا ... تَـنْـوي عـلـى الـفَـوْرِ اهْـتِـضَـامَـهْ
وإذا نَـظَـرْتَ فـأيـن مَـنْ ... مَـنَـعَـتْـهُ أو مَـنَـحَـتْ مَـرَامَـهْ
ومَـنِ الـذي وَهَـبَـتْـهُ وَصْـ ... ـلاً ثـمَّ لـم يَـخْـشَ انْـصِـرامَـهْ
وَمَـنِ الـذي مَـدَّتْ لـه ... حَـبْـلاً فـلـم يَـخَـفِ انـفِـصَـامَـهْ
كـم واحـدٍ غَـرَّتْـهُ إذْ ... سَـرَّتْـهُ مُـخْـفِـيَـةَ الـدَّمـامَـهْ[4]
قَـعَـدَتْ بـه مـن حـيـثُ لـم ... يَـعْـلَـمْ فـلـم يَـمْـلِـكْ قـيـامَـهْ
أيـن الـذيـن قـلـوبُـهُـمْ ... كـانـت بـهـا ذاتَ اسـتـهـامَـهْ[5]
أيـن الـذيـن تَـفَـيَّـأوا ... ظِـلَّ الـسـيـادةِ والـزَّعَـامَـهْ
أيـن الـمـلـوكُ ذوو الـرِّيـا ... سـةِ والـسِّـيَـاسـةِ والـصَّـرامَـهْ
وبـنـو أُمَـيَّـةَ حـيـن جَـمْـ ... ـمَعَ عَـصْـرُهُـمْ لـهـم فِـئَـامَـهْ[6]

(سدد) و(جور). الظُّلاَمَةُ: بضم الظاء وفتح اللام: المَظْلِمَةُ، أي ما أُخِذَ منك. لسان العرب (ظلم). والحائر: الذي احتار في أن يكون مُسدِّدًا أو جائرًا.

(١) الغَرَرُ: الخَطَرُ. لسان العرب (غرر).

(٢) الحِجَا: العقل والفطنة. الحِمام، بكسر الحاء: قضاء الموت وقدره. لسان العرب (حجا) و(حمم).

(٣) الثُّدِيُّ: جمع ثَدْي. تَبْدَى الفِطامَ: أي تبتدىء به؛ يقال: بَدِيَ يَبْدَى بَدْيًا إذا ابتدأ به. محيط المحيط (بدي).

(٤) الدَّمَامَةُ، بالفتح: القُبْحُ. لسان العرب (دمم).

(٥) الاستهامة: مصدر استهام؛ يقال: استهام قلبه إذا هام صاحبه وذهب على وجهه عِشقًا. لسان العرب (هيم).

(٦) الفِئامُ: الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه. محيط المحيط (فأم).

وتَمَكَّنُوا مِمَّنْ يحا ولُ نَقْضَ ما شاءوا انْبِرَامَهْ
وتَعَشَّقُوا لَمَّا بَدَا لَهُمُ مُحَيَّا الأرضِ شَامَهْ[1]
وتأمّلوا وَجْهَ البَسِيـ طَةِ فانْثَنَوْا يَهْوَوْنَ شَامَهْ[2]
حتى تقلّصَ ظِلُّهُمْ وأراهُمُ الدهرُ اختِرامَهْ[3]
أينَ الخلائفُ من بني الـ عباس والبرُّ القَسَامَهْ[4]
أيـنَ الرشيـدُ[5] وأهلُهُ وبَنُوه أصحابُ الشَّهامَهْ
ووزيرُهُ يَحْيىٰ وجَعْـ فَرٌ ابْنُهُ الراوي احْتِشَامَهْ
والفضلُ مُذْنِي مَنْ يقو لُ لِمَنْ يَلُومُ على النَّدَى مَهْ[6]
أم أينَ عنترةُ الشجا عُ وذو الْجَدَا كَعْبُ بن مامَهْ[7]
والزاعمون بجَهْلِهِمْ أن القُبُورَ صَدًى وهَامَهْ[8]
والمُكْثِرُونَ مِنَ المجو نِ إذا شكا الفِكْرُ اغتمامَهْ
أيـنَ الغريضُ ومَعْبَدٌ أو أشْعَبٌ وأبو دُلاَمَهْ[9]
أيـن الأُلى هامُوا بِسُعْـ دَى أو بُثَيْنَةَ أو أُمَامَهْ

---

(١) الشامَةُ: الخال. مختار الصحاح (شيم). وهنا يشبّه وجه الأرض بالشامة.
(٢) يَهْوَوْنَ شامَهُ: أي يشتهون بلاد الشام.
(٣) الاخترام: مصدر اخترم؛ يقال: اخترمهم الدهرُ إذا اقتطعهم واستأصلهم. مختار الصحاح (خرم).
(٤) الخلائف: جمع خليفة، وهنا يشير إلى الخلفاء العباسيين. والبِرُّ القَسَامَةِ: أي أهل البِرّ الذين إذا ما حلفوا صدقوا في أيمانهم. والبِرُّ: الصُدْق في اليمين. القَسَامَةُ: القسم. لسان العرب (برر) و(قسم).
(٥) أي الخليفة العباسي هارون الرشيد.
(٦) مَهْ: اسم فعل أمر بمعنى اكْفُفْ. مختار الصحاح (مها).
(٧) الجَدَا: العطية. مختار الصحاح (جدا). كعب بن مامة هو جاهلي عُرِفَ بالجواد لكثرة جُوده وعطائه، ويُضرَب به المثل فيقال: «أجودُ من كَعْبِ بن مامة». انظر جمهرة أنساب العرب (ص ٢٩٤، ٣٢٧)؛ ومجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٨٣ ـ ١٨٤).
(٨) الهامَةُ: طائر صغير من طيور الليل يألف المقابر، وقيل هو الصَّدَى، والجمع هامٌ.
(٩) الغريضُ ومَعْبَد وأشعب ثلاثة مغنّين أجادوا الغناء في العصر الأموي. وأبو دُلامة صاحب نوادر وحكايات في العصر الأموي. انظر أخبار الغريض في الأغاني (جـ ٢ ص ٣٥٣ ـ ٣٩٤). وأخبار مَعْبَد في الأغاني (جـ ١ ص ٤٣ ـ ٦٩) و(جـ ١٤ ص ١١٥). وأخبار أشعب في تاريخ بغداد (جـ ٧ ص ٣٧ ـ ٤٤) وفوات الوفيات (جـ ١ ص ١٩٧ ـ ٢٠١). وأخبار أبي دلامة في الأغاني (جـ ١٠ ص ٢٨٣ ـ ٣٢٢) والشعر والشعراء (ص ٦٦٠ ـ ٦٦٢) ووفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٧).

وبَكَوْا لِفَرْطِ جَواهُمُ [1]	والليلُ قد أرخى ظَلامَهْ
وَتَتَبَّعُوا آثارَ مَن	عَشِقُوا بنَجْدٍ أو تِهامَهْ
وتعلَّلوا، والشَّوْقُ يَغْـ	ـلِبُ، بالأراكةِ والبَشامَهْ [2]
أَضْنَى النَّوَى قَيْسًا [3] فقا	سَ لاعِجًا أغْرَى غَرامَهْ
وغَوَى هَوَى غَيْلانَ مُذْ	أَبْدَى بميَّتِهِ هُيامَهْ [4]
أيْنَ الأكاسِرُ والقيا	صِرَةُ المُجَلُّونَ الغَمامَهْ
أينَ الذي الهَرَمانِ مِنْ	بُنْيانِهِ الحاكي اعتزامَهْ [5]
أم أينَ غُمْدانٌ وسَيْـ	ـفٌ والوفودُ به أمامَهْ [6]
أينَ الخَوَرْنَقُ والسَّدِيـ	ـرُ ومَنْ شَفَى بهما أُوَامَهْ [7]
ومدائنُ الإسْكَنْدَرِ الـ	ـلاتي لها أعلى دِعَامَهْ [8]

(١) الجَوَى: الحرقة وشدّة الوجد. مختار الصحاح (جوي).

(٢) الأراكة: شجرة لها حَمْلٌ كحمل عناقيد العنب، والجمع أَراك. البشامة: شجرة طيبة الرِّيح والطَّعم يُسْتاك بها، والجمع بَشام. لسان العرب (أرك) و(بشم).

(٣) هو قيس بن المُلَوَّح، المعروف بمجنون ليلى، وقد تقدّم الحديث عنه.

(٤) غَيْلان: هو غَيْلان بن عُقْبة، المعروف بذي الرُّمَّة، أحد فحولة الشعراء. صاحبته مَيَّة، وكان كثير التشبيب بها في شعره. كانت وفاته سنة ١١٧ هـ. انظر ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص ٤٣٧ ـ ٤٤٧) وطبقات الشعراء لابن سلاّم (ص ١٦٥، ١٦٩ ـ ١٧٣) ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص (جـ ٣ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ١١ ـ ١٧).

(٥) يقول: أين باني هذين الهَرَمَيْن؛ الهرم الأكبر والهرم الأوسط؟ ويشير هنا إلى قول المتنبي:

أينَ الذي الهَرَمانِ من بُنْيانِهِ ... ما قَومُهُ ما يَومُهُ ما المَصْرَعُ

العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٥٣٢).

(٦) غُمْدانُ: قصر بمدينة صنعاء لسيف بن ذي يَزَنَ، بناه يَعْرُب بن قحطان، وكان ارتفاعه عشرين طبقة، بُنِيَ على سبعة سقوف. معجم البلدان (جـ ٤ ص ١٥٣، ٢١٠) ومعجم ما استعجم (جـ ٣ ص ١٠٠٢) ومروج الذهب (جـ ٢ ص ٥٨) والبداية والنهاية (جـ ٢ ص ١٧٩) ولسان العرب (يزن).

(٧) الخَوَرْنَقُ: قصر بظهر الكوفة للنعمان بن امرىء القيس بن ربيعة اللخمي، بناه سِنِمَّار الرومي. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٤٠١)، وخزانة الأدب (جـ ١ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨)، والأفضليات (جـ ١ الورقة ٤٦) والعمدة (جـ ٢ ص ٢٢٩)، ومجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٥٩) ولسان العرب (سنمر). السَّدِيرُ: قصر قريب من الخورنق كان الملك النعمان المذكور قد اتّخذه لبعض ملوك العجم. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٢٠١) ولسان العرب (سدد). الأُوَامُ: حَرُّ العطش. مختار الصحاح (أوم).

(٨) الإسكندر هو الإسكندر المقدوني الشهير. الدِّعامة، بكسر الدال: عماد البيت. مختار الصحاح (دعم).

أين الخُصُونُ ومَنْ يَصُو … نُ بها من الأعدا[1] خُطامَهْ
أين المَراكبُ والمَوا … كِبُ والعَصائِبُ والعِمامَهْ[2]
أين العَساكرُ والدَّسا … كِرُ والنَّدامَى في المُدامَهْ[3]
وسُقاتُها المُتَلاعبو … نَ بِلُبِّ مَنْ أَعْطَوْهُ جامَهْ[4]
مِنْ كلِّ أهْيَفَ يَزْدَري … بالغُصْن إنْ يَهْزُزْ قَوامَهْ[5]
ذي غُرَّةٍ لألاؤها … تَمْحو عنِ النادي ظَلامَهْ
فالشمسُ في أزرارِهِ … والبَدْرُ في يده قُلامَهْ[6]
يُصْمِي[7] القلوبَ إذا رَمَى … عَنْ قوسِ حاجِبِهِ سِهامَهْ
ويَرُوقُ حُسْنًا إنْ رَنَا … ويفوقُ آرامًا برامَهْ[8]
أنَّى لها ثغرٌ حَلا … ذوقًا لمَن رامَ التِئامَهْ
أنَّى لها وَجْهٌ يَشُبُّ … بقلبِ مُبْصِرِه ضِرامَهْ
أَسْتَغْفِرُ اللهَ لِلَغْـ … ـوٍ لا يَرَى الشَّرْعُ اعتِيامَهْ[9]
بل أين أربابُ العلو … مِ أُولو التَّصَدُّرِ والإمامَهْ
وذوو الوزارةِ والحِجا … بةِ والكتابةِ والعلامَهْ
كأئمةٍ سكنوا بأنـ … ـدَلُسٍ فلم يشكوا سآمَهْ

---

(١) أصل القول: الأعداء، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.

(٢) العِمامَةُ: ما يُلَفُّ على الرأس، جمعها عمائم وعِمام. العصائب: جمع عِصابة وهي ما عُصِبَ به، كالعمامة. القاموس المحيط (عمم) و(عصب).

(٣) الدَّسَاكِرُ: جمع دَسْكَرَة وهي بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي. النَّدَامَى: جمع نديم وهو المُنادم. المُدامَة: الخمر. القاموس المحيط (دسكر) و(ندم) و(دوم).

(٤) اللُّبُ: العقل. الجامُ: إناء من فِضّة. القاموس المحيط (لبب) و(جوم).

(٥) يقول إن ذلك الأهيف النحيف أكثر نحافة من الغصن.

(٦) القُلامَةُ: ما سقط من القلم. مختار الصحاح (قلم).

(٧) يُصْمي القلوبَ: يقتلها. مختار الصحاح (صمي).

(٨) الآرامُ: جمع إِرَم وهي حجارة تنصب كالعلم في المفازة. لسان العرب (أرم). رامَةُ: موضع؛ قيل إنه منزل، وقيل جبل لبني دارم، وقيل من قرى البيت المقدس. معجم البلدان (جـ ٣ ص ١٨).

(٩) اللَّغْوُ: ما لا يُعْتَدُّ به من كلام وغيره. محيط المحيط (لغا). الاعتيام: مصدر اعتام؛ يقال: اعتام الرجلُ إذا اختار وأخذ العَيْمَةَ، والعَيْمة شهوة اللبن والعطش. لسان العرب (عوم). ويريد أن يقول: إن الشَّرْع يدعو إلى تجنب اللَّغْو.

هـي جَـنَّـةُ الـدنـيـا الـتـي قـد أَذْكَـرَتْ دَارَ الْـمُـقَـامَـهْ
لا سـيـمـا غـرنـاطـةُ الـ غـرَّاءُ رائـقـةُ الْـوَسَـامَـهْ
وهـي الـتـي دُعِـيَـتْ دِمَـشْـ قَ وحَـسْـبُـهـا هـذا فَـخـامَـهْ
لِـنـزولِ أَهْـلِـيـهـا بـهـا إِذْ أَظْـهَـرَ الـكُـفْـرُ انـهـزامَـهْ [1]
وأَتَـتْ جـيـوشُ الـشـأمِ مـن بـابٍ نَـفَـى الـفَـتْـحُ انْبِـهامَـهْ [2]
فـسَـلَـوا بـهـا عـن جِـلَّـقٍ إِذْ أَشْـبَـهَـتْـهـا فـي الـضـخـامَـهْ
وبَـدَا لـهـمْ وَجْـهُ الْـمُـنَـى وأراهُـمُ الـثَّـغْـرُ ابْـتـسـامَـهْ
وتَـبَـوَّأُوهـا خَـضْـرَةً تُـبْـري مـن الـمُـضْـنَـى سَـقَـامَـهْ
بِـرُوائـهـا وبـمـائِـهـا وهَـوائِـهـا الـنـافـي الـوَخَـامَـهْ [3]
وريـاضِـهـا الـمُـهْـتَـزَّةِ الـ أَعْـطـافِ مِـنْ شَـدْوِ الـحِـمـامَـهْ
وبـمَـرْجِـهَـا الـنَّـضْـرِ الـذي قـد زَيَّـنَ الـلَّـهُ ارتـسـامَـهْ
وقـصـورِهـا الـزُّهْـرِ الـتـي يـأبـى بـهـا الـحُـسْـنُ انْـقِـسامَـهْ
يـا لـيـتَ شِـعْـري أيـن مَـنْ أمـضـى بـهـا الـمَـلْـكُ احـتـكـامَـهْ
وأُتِـيـحَ فـي حَـمْـرائِـهـا [4] عِـزًّا بـه زانَ اتِّـسـامَـهْ
أيـن الـوزيـرُ ابـنُ الـخـطـيـ ـبِ [5] بـهـا فـمـا أحـلـى كـلامَـهْ
فَـلَـكَـمْ أبـانَ الـعَـدْلَ فـي أرجـائـهـا وبـهـا أقـامَـهْ
ولَـكَـمْ أجـار عِـدًا وكَـمْ أجـرى نَـدًى وَالَـى انـسـجـامَـهْ

---

(١) يشير إلى ما ذكره المؤرخون، بأن غرناطة سُمِّيَتْ دمشق الأندلس؛ لأن جند دمشق، الذين قَدِمُوا إلى الأندلس مع بَلْج بن بِشر القُشَيري، نَزَلُوا بها في عهد والي الأندلس أبي الخطار حُسام بن ضِرار الكَلْبي. المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (جـ ٢ ص ١٠٢)، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (جـ ١ ص ١٠٢) واللمحة البدرية لابن الخطيب (ص ٢٦).

(٢) الانْبِهامُ: مصدر انبهم، وليس في كتب اللغة العربية فعل انبهم؛ يقال: أَبْهَمَ البابَ إذا أغلقه، وبابٌ مُبْهَمٌ: مُغْلَقٌ لا يُهْتَدَى لفتحه إذا أُغْلِقَ. لسان العرب (بهم).

(٣) الرُّوَاءُ، بضم الراء، المنظر. الوَخَامَةُ: عدم موافقة الهواء للبدن؛ يقال: بلدة وخيمة إذا لم يوافِقْ سَكَنُها. لسان العرب (روى) و(وخم).

(٤) يشير إلى قصر الحمراء الذي بناه بنو نصْر بغرناطة والذي لا يزال قائمًا إلى اليوم ويعرف باسم Alhambra.

(٥) هو لسان الدين ابن الخطيب، وقد أفرد له المقري بابًا خاصًا في هذا الكتاب.

راعتْ صروفُ[١] الدهرِ ذَوْ لَتَهُ وما راعتْ ذِمَامَهْ
حتى ثَوَى إثْرَ التَّوَى[٢] في حُفْرَةٍ نَثَرَتْ نِظَامَهْ
مَنْ زارها في أرضِ فا سِ أذْهَبَتْ شَجْوًا مَنامَهْ[٣]
إذْ نَبَّهَتْهُ لكلِّ شَمْـ لٍ شَتَّتَ الموتُ التئامَهْ
هذا لسانُ الدينِ أَسْـ كَتَهُ وأَسْكَنَهُ رِجامَهْ[٤]
ومَحَا عِبارَتَهُ فَمَنْ حَيَّاهُ لم يَرْدُدْ سَلامَهْ
فكأنَّهُ ما أَمْسَكَ الـ قلمَ المُطاعَ ولا حُسامَهْ
وكأنه لم يَغْلُ مَتْـ نَ مُطَهَّمٍ بَارَى النَّعامَهْ[٥]
وكأنه لم يَرْقَ غا رِبَ الاعتزازِ ولا سَنَامَهْ
وكأنه لم يَجْلُ وَجْـ هَا حازَ مِنْ بِشْرٍ تَمَامَهْ
وكأنه ما جالَ في أمرٍ ولا نَهْيٍ وَسَامَهْ[٦]
وكأنه ما نالَ مِنْ مَلِكٍ حِبَاه[٧] ولا احترامَهْ
وكأنه لم يُلْقِ في يَدِهِ لتدبيرٍ زِمَامَهْ[٨]
مُذْ فارقَ الدُّنيا وقَوْ وَضَ عن منازلِها خِيامَهْ
أَمْسَى بِقَبْرٍ مُفْرَدًا والتُّرْبُ قد جَمَعَتْ عِظامَهْ
مِنْ بَعْدِ تثنيةِ الوزا رةِ[٩] جادَهُ صَوْبُ الغَمَامَهْ

---

(١) صروف الدهر: حِدْثانه ونوائبه، لسان العرب (صرف).
(٢) التَّوَى: الهَلاكُ. القاموس المحيط (توى). وهنا يشير إلى هلاكه على يد بني الأحمر بسبب الدسائس التي حاكها ضدّه تلميذه ابن زَمْرَك.
(٣) أي من زار الحفرة التي ثوى فيها ابن الخطيب في فاس.
(٤) الرِّجامُ: حجارة ضِخام تجمع على القبر ليُسَنَّمَ. مختار الصحاح (رجم).
(٥) المُطَهَّمُ: أي الفرس المُطَهَّم، والمُطَهَّم من الخيل: الحسن التامّ. لسان العرب (طهم).
(٦) الوَسَامَةُ: أثر الحُسْن. لسان العرب (وسم).
(٧) أصل القول: حِباءه، وقد حذف الهمزة لكي لا ينكسر الوزن، والحِباء: العطاء. مختار الصحاح (حبا).
(٨) الزِّمام، بكسر الزاي: ما يُزَمُّ به أي يُشَدُّ، والجمع أَزِمَّة. لسان العرب (زمم). وقوله: أَلْقَى زِمامَهُ في يده: أي تَدَبَّرَ الأمرَ.
(٩) تثنيةُ الوزارة: أي إن لسان الدين ابن الخطيب كان يُلَقَّب بذي الوزارتين.

لـــم يَـــبْـــقَ إلاَّ ذِكْـــرُهُ كـالـزَّهْـرِ مُـفْـتَـرَّ الـكِـمـامَـهْ[1]
والـعـمـرُ مِـثْـلُ الـضَّـيْـفِ أو كـالـطَّـيْـفِ لـيـس لـه إقـامَـهْ
والـمـوتُ حَـتْـمٌ ثـم بَـعْـدَ الـمـوتِ أهـوالُ الـقِـيـامَـهْ
والـنـاسُ مَـجْـزِيُّـون عـن أعـمـالِ مَـيْـلٍ واسـتِـقـامَـهْ
فـذوو الـسـعـادةِ يـضـحـكـونَ وغـيـرهُـمْ يـبـكـي نَـدَامَـهْ
والـلَّـهُ يَـفْـعَـلُ فـيـهـمُ مـا شـاءَ ذُلاًّ أو كـرامَـهْ
ويُـشَـفِّـعُ الـمـخـتـارَ فـيـهِـمْ حـيـن يَـبْـعَـثُـهُ مـقـامَـهْ
وعـلـيـه خَـيْـرُ صـلاتِـهِ مَـعَ صَـحْـبِـهِ تـتـلـو سَـلامَـهْ
والـتـابـعـيـن ومَـنْ بـدا بَـرْقُ الـرَّشـادِ لـه فَـشَـامَـهْ
مـا فـازَ بـالـرِّضْـوَان عَـبْـدٌ كـانـتِ الـحُـسْـنَـى خِـتـامَـهْ

واللَّهُ سبحانه المسؤولُ في الفَوْز والنجاة كرمًا منه وحلمًا، فبيده الخير لا إله إلاّ هو العليّ الكبير العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علمًا، فلا يَعْزُب عنه مِثْقال ذَرّة في الأرض ولا في السماء من مخلوقاته على الشمول والاستغراق.

أما بَعْدَ حَمْدِ اللَّه مالك الملك، والصلاة على رسوله المُنْجِي من الهلك، والرضا عن آله وصحبه الذين تجلَّتْ بأنوارهم الظُّلَمُ الحُلْك، وعن العلماء الأعلام، الخائضين بحار الكلام، المستوين من البلاغة على الفُلْك. فيقول العبدُ الحقير المُذْنِبُ الذي هو إلى رحمة ربِّه الغني فقير، المُقَصِّر المتبرىء من الْحَوْل والقوة، المُتَمَسِّكُ بأذيال الخدمة للسُّنّة والنبوّة، وذلك بفضل اللَّه أمانٌ وبراءة، الضعيفُ الفاني، الخَطَّاءُ[2] الجاني، مَنْ هو من لباس التقوى عَرِيّ، أحمد بن محمد بن أحمد، الشهير بالمقّرِيّ، المغربيّ المالكي الأشعري، التِّلِمْساني المولِدِ والمنشإ والقراءة، نزيلُ فاس الباهرة ثم مصر القاهرة، أَصْلَحَ اللَّهُ أحواله الباطنة والظاهرة، وجعله من ذوي الأوصاف الزكيّة والخلال الطاهرة، وسَدَّد في كل قَصْدٍ أنحاءهُ وآراءه ووفّقه بمنّه وكرمه للأعمال الصالحة، والطاعات الناجحة، والمتاجر المغبوطة الرابحة، والمساعي الغادية بالخير الرائحة، ووَقّاه ما بين يده ووراءه، وكفاه

---

(١) الكِمَامَةُ، بكسر الكاف: غِطاء النَّور (الزَّهر). مختار الصحاح (كمم). مُفْتَرُّ الكِمامَة: أي تفتّحت كِمامَتُهُ؛ يقال: افترّ إذا تَبَسّم. محيط المحيط (فتر).

(٢) الخَطّاءُ: الذي يلازم الخَطايا. لسان العرب (خطأ).

مكر الكائد وافترائه، وجِدَالَ الحاسدِ المستأسد ومِرَاءَه، وجعل فيما يرضيه سَوْمَه[١] وشراءه، آمين! إنه لَمَّا قَضَى المَلِكُ الذي ليس لعبيدِهِ في أَحْكامِهِ تَعَقُّبٌ أو رَدّ، ولا مَحِيدَ عَمَّا شاءه سواءٌ كَرِهَ ذلك المرءُ أو ردّ، برحلتي من بلادي، ونُقْلَتي عن محلِّ طارفي وتِلاَدي[٢]، بقُطْرِ المغربِ الأقصى، الذي تَمَّتْ محاسنُه لولا أنّ سَمَاسِرَةَ الفِتَنِ سامَتْ بضائعَ أَمْنِهِ نَقْصًا، وطَمَا به بحرُ الأهوالِ فاسْتَعْمَلَتْ شعراءُ العَيْثِ[٣] في كاملِ رَوْنقه من الزحاف إضمارًا وقَطْعًا ووَقْصا[٤]: [مجزوء الكامل]

قُــطْــرٌ كــأنَّ نــســيــمَــهُ   نَــفَــحــاتُ كــافــورٍ ومِــسْــكِ
وكـــأنَّ زَهْـــرَ ريـــاضِـــهِ   دُرٌّ هَــوَى مِــنْ نَــظْــمِ سِــلْــكِ

وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف، تاركًا المنصب والأهل والوطن والإلْف: [الخفيف]

بَـلَـدٌ طـابَ لِـي بـه الأُنْـسُ حِـيـنًـا   وصَـفَـا الـعَـوْدُ فـيـه والإبـداءُ
فـسَـقَـتْ عَـهْـدَه الـعِـهَـادُ وَرَوَّتْ   مـنـهُ تـلـك الـنـوادِيَ الأنـدَاءُ[٥]

وما عسى أن أذكر في إقليم، تَعَيَّنَ لحجةِ فضلِهِ التسليم: [الكامل]

أَضْـوَاؤه طِـبْـقُ الـمُـنَـى، وهَـواؤه   يَـشْـتـاقُـهُ الـوَلْـهَـانُ في الأسـحـارِ[٦]
والـطَّـبْـعُ مُـعْـتَـدِلٌ مـا شِـتْـتَـهُ   فـي الـظِّـلِّ والأزهـارِ والأنـهَـارِ

مَحَلُّ فَتْحِ الْكَمَائم، ومَسْقِطِ الرأسِ وقطع التمائم[٧]: [الوافر]

به كـان الـشـبابُ الـلَّدْنُ غَضًّـا[٨]   ودَهْــرِيَ كُــلُّــهُ زَمَــنَ الــربــيــعِ

---

(١) السَّوْمُ: البيع؛ يقال: سامَ بالسِّلْعة يَسُومُ سَوْمًا: غالى. لسان العرب (سوم).
(٢) الطارِفُ: المُسْتَحْدَثُ المُكْتَسَبُ من المال. التِّلادُ: المال القديم الأصلي الذي وُلِدَ عندك، وهو ضدُّ الطارف. مختار الصحاح (طرف) و(تلد).
(٣) العَيْثُ: الإفساد. مختار الصحاح (عيث).
(٤) الإضمار والقطع والوَقْص مصطلحات تطرأ على زحافات الشعر، راجع كتاب الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي.
(٥) العِهادُ: جمع العَهْد وهو أول المطر الوَسْمِيّ. الأنداء: جمع النَّدَى وهو المطر. لسان العرب (عهد) و(ندي).
(٦) الوَلْهانُ: الذي ذهب عقله وتحيَّر من شدّة الوَجْد. مختار الصحاح (وله).
(٧) سيأتي هذان البيتان في الجزء الثالث من نفح الطيب باختلاف يسير عمّا هنا.
(٨) اللَّدْنُ: اللَّيِّنُ من كلِّ شيء، والشبابُ اللَّدْنُ: الناعم. الغَضُّ: الطَّرِيُّ. مختار الصحاح (لدن) و(غضض).

فَفَرَّقَ بَيْنَنَا زَمَنٌ خَؤونٌ ... لَهُ شَغَفٌ بِتَفْرِيقِ الجَمِيعِ

لم أَنْسَ تلك النَّوَاسم، التي أيامها للعمر مَوَاسم، وثغورُها بالسرور بواسم، فصرْتُ أشير إليها وقد زُمَّتْ للرحيل القُلُصُ[1] الرواسم: [الكامل]

وَلَنَا بِهَاتِيكَ[2] الديارِ مَوَاسِمٌ ... كانَتْ تُقَامُ لِطِيبِهَا الأَسْوَاقُ
فأبانَنَا عنها الزمانُ بسرعةٍ ... وغَدَتْ تُعَلِّلُنا بها الأَشْوَاقُ

وأنشد قولَ غَيْلاَنَ[3]: [الطويل]

أَمَنْزِلَتَيْ مَيّ سَلامٌ عليكما ... هل الأَزْمُنُ اللاَّئي مَضَيْنَ رواجعُ[4]

وأتمثّل في تلك الحدائق التي حمائِمُها سواجع، بقول مَنْ جُفُونُهُ مِنَ الهَوَى غيْر هواجع: [الكامل]

تَشْدُو بِعِيدَانِ الرياضِ حمائمٌ ... شَدْوَ القِيانِ عَزَفْنَ بِالأعوادِ[5]
مَادَ النسيمُ بقُضْبِها فتمايَلَتْ ... مُهْتَزَّةَ الأعطافِ والأَجْيادِ
هاذِي تودِّعُ تلك توديعَ التي ... قد آذَنَتْ منها بوَشْكِ بِعاد
وآسْتَعْبَرَتْ لِفِراقِهَا عَيْنُ النَّدَى ... فَابْتَلَّ مِئْزَرُ عِطْفِهَا المَيَّادِ

وأُحَدِّقُ النظرَ إلى رَوْض، لإنسان العينِ[6] من فراقه في بحرِ الدموعِ سَبْحٌ وخَوْض: [مجزوء الكامل]

رَوْضٌ بِهِ أَشْيَاءُ لَيْـ ... ـسَتْ فِي سِوَاهُ تُؤَلَّفُ
فَمِنَ الهَزَارِ[7] تَرَنُّمٌ ... وَمِنَ القَضِيبِ تَقَطُّفُ

---

(١) القُلُصُ: جمع القَلُوص وهي الناقة الشابة. مختار الصحاح (قلص).
(٢) هاتيك: اسم إشارة للمتوسط، بصيغة الجمع.
(٣) هو غَيْلانُ بن عُقْبة، المعروف بذي الرُّمَّة، وقد تقدّم الحديث عنه. والبيت في ديوان ذي الرمّة (ص ٣٣٢).
(٤) ميّ: هي محبوبة ذي الرُّمّة. الأزمن: جمع الزمن، وهو الوقت. مختار الصحاح (زمن).
(٥) القيان: جمع قَيْنَة وهي المغنّية. مختار الصحاح (قين). الأعْواد: جمع العود وهو آلة من المعازف يُضرَبُ بها. محيط المحيط (عود).
(٦) إنسانُ العَيْن: المِثالُ الذي يُرَى في السواد، وجمعه أناسي. مختار الصحاح (أنس).
(٧) الهَزَارُ: العندليب، والجمع هزارات. محيط المحيط (هزر).

ومِـنَ الـنـسـيـمِ تَـلَـطُّـفٌ ومِـنَ الـغَـدِيـرِ تَـعَـطُّـفُ

والْتَفِتُ كالمستريب[١]، والحيُّ إذ ذاك قريب، وحَديثُ العَهْدِ ليس بمنكرٍ ولا غريب: [الطويل]

أهذا ولَمَّا تَمْضِ للبَيْنِ سَاعةٌ فكيف إذا مَرَّتْ عليه شُهُورُ

والآثارُ لائحة، والشمال غادية ورائحة[٢]: [الوافر]

أرَى آثـارَهُـمْ فـأذوبُ شَـوْقًـا وأسْكُبُ مِنْ تَذَكُّرِهِمْ دُمُوعِي
وأسأل مَنْ قَضَى بفراقِ حِبِّي[٣] يَمُنُّ عليَّ منهم بالرجوعِ

والنفس مُتَعَلِّلَةٌ ببعض الأنسِ، والمشاهِدُ الحميدة لم تُنسِ: [الكامل]

تلك العُهُودُ بِشدِّها مختومةٌ عندِي كما هيَ عَقْدُهَا لم يُحْلَلِ

غير أنَّ الرَّحيل، عن الرَّبْعِ الْمُحيل[٤]، فُصِل به بين الشائق والْمَشُوق وجِيل: [الطويل]

وَقَفْنا برَبْعِ الحِبِّ والحِبُّ راحلُ نحاولُ رُجْعَاه لنا ويُحاوِلُ
وألْقَتْ دُمُوعُ العَيْنِ فيه مَسَايلا[٥] لها عَنْ عباراتِ الغَرامِ دلائلُ
وبالسَّفْحِ منها كَمْ سَقَيْتُ لِبَانِها فميَّلْتُهُ والسَّفْحُ لِلْبَانِ مائلُ[٦]
إذا نَسْمَةُ الأحبابِ منها تَنَسَّمَتْ تطيبُ بها أسْحَارُنا والأصائلُ

---

(١) الـمُسْتَرِيبُ: الواقع في الرِّيبَة، أي في الشكّ. محيط المحيط (ريب).

(٢) في طبعة دار صادر: «غادية بأذكى رائحة».

(٣) الحِبُّ، بكسر الحاء: الحبيب. مختار الصحاح (حبب).

(٤) الرَّبْعُ: الدار. الـمُحِيلُ: الذي أتى عليه حَوْلٌ؛ يقال: حالتِ الدارُ إذا أتى عليها حول. مختار الصحاح (ربع) و(حول).

(٥) المسايل: مواضع سيل الماء، واحدتها مَسِيلٌ. مختار الصحاح (سيل).

(٦) منها: أي من الدموع. السَّفْحُ: أي سَفْحُ الدمع؛ يقال: سَفَحَ الدَّمْعُ سَفْحًا إذا انصبَّ، وسَفَحَ الدَّمْعَ إذا أرسله. البانُ: شجر ليِّن يُشَبَّهُ به القَدُّ لطوله، والمراد الخَصْر. محيط المحيط (سفح) و(بون). يقول: لولا دموعُهُ لَمَا سُقِي ذلك الغصنُ ونَمَا وأخذ يتمايل كلما هَبَّ النسيم. وهنا يسير الشاعر على طريقة الجاهليين؛ فالمحبوبة في صَدّ والـمُحِبُّ في بكاء هو بمثابة غذاء لتلك المحبوبة ذات الخصر النحيل المتمايل.

تُثِيرُ شجوني ساجعاتُ غصونِها فمِنْها على الحالَيْن هاجَتْ بَلاَبلُ[1]
مرابعُ ليلى في[2] مراتِعِ لذتي مطالعُ أقماري بها والمنازل

فَحَيّاها اللّهُ من منازلَ ذاتِ أقمارٍ سائرة فيها، ومنازِةِ لا يُحْصِي الواصفُ محاسنها وأمداحَ أهلها ولا يستوفيها: [البسيط]

حَلُّوا عقودَ آصْطباري عندما رَحَلُوا وفي الخمائلِ[3] حَلُّوا مثلَ أَمْطارِ
إنَّ المنازلَ قد كانت منازِهَ إذْ باتُوا بها وهْيَ أوطاني وأوطاري

ورعى اللّه مَنْ بان، وشاق حتى الرَّنْد والبان[4]: [البسيط]

بانُوا لِعَيْنَيَّ أقمارًا تُقِلُّهُمُ لُدْنُ الغصونِ فَلَمَّا آنسوا بانوا[5]
عُهُودُهُمْ لستُ أنساها، وكَيْفَ وقد رَثَى لبينيَّ عنها الرَّنْدُ والبَانُ

وفي مثل هذا الموطن تذوب القلوبُ الرِّقاق، كما قال حائز قَصَبِ السَّبْقِ بالاستحقاق، الأديبُ الأندلسي الشهير بابن الزَّقّاق[6]: [الوافر]

وَقَفْتُ على الربوعِ ولي حَنينٌ لساكِنِهِنَّ ليس إلى الرُّبُوعِ[7]
وَلَوَ آنّي حَنَنْتُ إلى مَغَاني[8] أحِبَّائي حَنَنْتُ على ضلوعي

وكما قال بعضُ مَنْ له في هذه الفِجَاجِ[9] مسير: [الطويل]

---

(١) ساجعاتُ الغصون: الحَمَامُ؛ يقال: سَجَعَتِ الحَمامَةُ إذا هدرت وردّدت صوتها، فهي ساجعة. البلابل: شدّة الهمّ والوساوس. محيط المحيط (سجع) و(بلبل).
(٢) في طبعة دار صادر: «ألأفي» بدل «ليلى في».
(٣) الخمائلُ: جمع خميلة وهي الموضع الكثير الشجر. محيط المحيط (خمل).
(٤) بانَ: فارَقَ. شاقَ: أي شاقه الحُبُّ؛ يقال: شاقه الحُبُّ إلى محبوبته إذا هاجه وحمله على الشوق. الرَّنْدُ: شجر طيب الرائحة من شجر البادية. محيط المحيط (بين) و(شوق).
(٥) بانُوا الأولى بمعنى تبيَّنوا وظهروا. وبانوا الثانية بمعنى فارقوا. تُقِلُّ: تحمل. محيط المحيط (بين) و(قلل). يقول: إنَّ اللواتي يَمْلِكْنَ وجوهًا كالأقمار بجامع الحسن، يتمايَلْن بقُدُودٍ كالغصون غَضّة.
(٦) ابن الزَّقاق هو علي بن عطية البلنسي، المتوفَّى سنة ٥٢٨ هـ، وترجمته في فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٤٧) والمطرب (ص ١٠٠) والمغرب في حلى المغرب (جـ ٢ ص ٣٢٣) والذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٢٦٥)، والبيتان في ديوان ابن الزقاق (ص ١٩٨) والمطرب (ص ١٠٥) باختلاف يسير جدًّا عمّا هنا.
(٧) الرُّبُوعُ: جمع رَبْع وهو الدار. مختار الصحاح (ربع).
(٨) المغاني: جمع مَغْنًى وهو الموضع الذي كان به أهلوه. مختار الصحاح (غني).
(٩) الفِجاج، بكسر الفاء: جمع فَجّ، بفتح الفاء، وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين. محيط المحيط (فجج).

دخولُكَ من بابِ الهوى إنْ أردْتَهُ   يَسِيرٌ، ولكنَّ الخروجَ عسيرُ

وأين مَنْ له صَفاة[1] لا يطمع الدهرُ القويُّ في نَحْتِها، وجَنّاتٌ دنيويةٌ لا تَجْري أنهارُ الفراقِ من تحتها: [الكامل]

فَسَقَى رضيعَ النَّبْتِ من ذاك الحِمَى   بِحَيًا[2] تدورُ على الرُّبا كاساتُهُ
سَفْحٌ سَفَحْتُ عليه دَمْعي في ثَرًى   كالمِسْكِ ضاعَ من الفَتاة فُتَاتُهُ

ولم أزلْ بعد انفصالي عن الغرب بقصد الشرق، واتصالي[3] في أثر ذلك الجمع بالفرق: [الوافر]

أحِنُّ إذا خَلَوْتُ إلى زمانٍ   تَقَضَّى لي بأفنيةِ الرُّبُوعِ
وأذكرُ طِيبَ أيامٍ تَوَلَّتْ   لنا فتفيض مِنْ أسَفٍ دموعي

وأتوق وقد اتَّسَعَ مِنَ البُعْدِ الْخَرْقُ، وخصوصًا إذا شَدَا صادحٌ أو أوْمَض برقٌ[4]، إلى ديار لا يعدوها اختيار: [الطويل]

وأَرْبُعِ[5] أَحبابٍ إذا ما ذَكَرْتُها   بَكَيْتُ، وقد يُبْكيكَ ما أنتَ ذاكِرُ
بِطَاحٌ وأدْوَاحٌ يَرُوقُكَ حُسْنُهَا   بكلِّ خليجٍ نَمْنَمَتْهُ الأزاهِرُ
فما هو إلاَّ فِضَّةٌ في زَبَرْجَدٍ[6]   تساقطَ فيه اللؤلؤُ المُتَناثِرُ
بحيثُ الصَّبَا والتُّرْبُ والماءُ والهَوَى   عبيرٌ وكافورٌ وراحٌ وعاطِرُ
وما جَنَّةُ الدنيا سوى ما وَصَفْتُهُ   وما ضَمَّ منه الحُسْنَ نَجْدٌ وحاجِرُ
بلادي التي أهلي بها وأَحِبَّتي   وروحي وقلبي والمنى والخواطرُ[7]
تُذَكِّرُني أنجادُهَا ووِهادُها   عهودًا مَضَتْ لي وهْيَ خُضْرٌ نواضر
إذِ العَيْشُ صافٍ والزمانُ مساعِدٌ   فلا العيشُ مملولٌ ولا الدهرُ جائِر

---

(١) الصَّفَاة، بالفتح: الحجر الصَّلْد الضخم. محيط المحيط (صفو).
(٢) الحَيَا، بفتحتين: المطر. محيط المحيط (حيي).
(٣) في طبعة دار صادر: «واتّصافي».
(٤) أومض البرقُ ووَمَضَ: لَمَعَ. مختار الصحاح (ومض).
(٥) الأَرْبُعُ: جمع رَبْع وهو الدار. مختار الصحاح (ربع).
(٦) الزَّبَرْجَدُ: جوهر معروف. مختار الصحاح (زبرجد).
(٧) في طبعة دار صادر: «وقلبي وروحي...».

بحيثُ لياليـنا كغَضّ شبابنـا ... وأيـامُنَـا سِلْـكٌ ونـحـن جـواهـر
لـيـالـيَ كـانـتْ لـلـشـبـيـبـةِ دولَـةٌ ... بـهـا مَـلِـكُ الـلَّـذَّاتِ نـاهٍ وآمِـر
سلامٌ على تلك العهودِ فإنها ... مـواردُ أفـراحٍ تَـلَـتْـهـا مـصـادِر

وأتذكّرُ تلك الأيام، التي مَرَّتْ كالأحلام، فأتمثَّلُ بقول بعض الأكابر الأعلام: [الخفيف]

يا ديارَ السرورِ، لا زالَ يَبْكي ... فيكِ، إذ تَضْحَكُ الرياضُ، غَمَامُ[1]
رُبَّ عَيْشٍ صَحِبْتُهُ فيكِ غَضّ ... وعُـيُـونُ الـفـراقِ عَـنَّـا نِـيـامُ
فــي لــيــالٍ كــأنــهــنَّ أمــانٍ ... فــي زمــانٍ كــأنــه أحْــلامُ
وكـأنَّ الأوقـاتَ فـيـكِ كُـؤوسٌ ... دائــراتٌ وأُنْــسُــهُــنَّ مُــدَامُ[2]
زَمَـنٌ مُـسْـعِـدٌ وإلْـفٌ وَصُـولٌ ... ومُـنًـى تَـسْـتَـلِـذُّهَـا الأَوْهـامُ

وبقول الحائكِ الأُمّي، عندما يكثر شَجْوي وغمِّي: [الكامل]

لـم أَنْـسَ أيامًا مَضتْ ولياليًا ... سَلَفَتْ وعَيْشًا بالصَّرِيمِ تَصَرَّمَا
إذ نحن لا نخشى الرقيبَ ولم نَخَفْ ... صَرْفَ الزمان ولا نُطيعُ اللُّوَّما
والعيشُ غَضٌّ والحواسِدُ نُوَّمٌ ... عَنَّا وعَيْنُ البينِ قد كُحِلَتْ عَمَى
في روضةٍ أبدتْ ثغورُ زهورِها ... لَمَّا بَكَى فيها الغَمامُ تَبَسُّمَا
مَدَّ الربيعُ على الخمائلِ نَوْرَهُ[3] ... فيها فأصبحَ كالخِيامِ مُخَيِّمَا
تبدو الأقاحي مثلَ ثَغْرِ أَشْنَبٍ[4] ... أَضْحَى المُحِبُّ به كئيبًا مُغْرَمَا
وعيونُ نَرْجِسِها كأعينِ غادةٍ ... تَرْنُو فَتَرْمي باللَّواحظِ أَسْهُمَا
وكذلك المنثورُ[5] منثورٌ بها ... لَمَّا رَأَى وَرْدَ الخدودِ مُنَظَّمَا
والطيرُ تَصْدَحُ في فروعِ فنونها ... سَحَرًا فَتُوقِظُ بالْهَدِيلِ النُّوَّمَا

---

(١) الغَمَامُ، بالفتح: جمع غَمامَة وهي السَّحَابَةُ. القاموس المحيط (غمم).
(٢) المُدَام، بضم الميم: الخمر. القاموس المحيط (دوم).
(٣) النَّوْرُ: الزَّهْر. لسان العرب (نور).
(٤) الأقاحيُّ: جمع أُقْحُوان وهو نَبْتٌ طيب الريح، حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر. الأَشْنَبُ: البَيِّنُ الشَّنَب، والشَّنَبُ هو العذوبة والرِقَّة في الأسنان. مختار الصحاح (قحا) و(شنب).
(٥) المنثور: نبات ذو زهر ذكيّ الرائحة، واحدته منثورة. محيط المحيط (نثر).

وأمِيلُ، إلى بلادٍ مُحَيَّاها جميلٌ[1]: [الطويل]

كساها الحَيَا بُرْدَ الشبابِ فإنها بلادٌ بها عَقَّ الشبابُ تَمائمي[2]
ذَكَرْتُ بها عَهْدَ الصِّبا فكأنما قَدَحْتُ بنار الشوقِ بَيْنَ الحَيازِمِ[3]
ليالِيَ لا أُلْوي على رُشْدِ ناصحٍ عِناني، ولا أثنيه عن غَيِّ لائم
أنالُ سُهَادي من عيونٍ نواعِسٍ وأجني مُرادي من غصونٍ نواعم
وليلٍ لنا بالسَّدِّ بين معاطف من النهر ينسابُ انْسيابَ الأراقم[4]
تَمُرُّ إلينا ثم عَنّا كأنها حواسِدُ تمشي بيننا بالنمائم
وبِتْنا ولا واشٍ نخافُ كأنما حَلَلْنا مكانَ السِّرِّ مِنْ صَدْرِ كاتم

وأهفو إلى قصورٍ ذات بَهْجَه، وصُروحٍ تُوضح معالِمها للرائد نَهْجَه: [الخفيف]

ورياضٍ تختالُ منها غصونٌ في بُرودٍ من زَهْرِها وعُقودِ
فكأنَّ الأدواحَ فيها غَوَانٍ تَتَبَارَى زَهْوًا بِحُسْنِ القُدود
وكأنَّ الأطيارَ فيها قِيانٌ تتغنَّى في كلِّ عُودٍ بعود[5]
وكأنَّ الأزهارَ في حَوْمَةِ الرَّوْ ضِ سُيُوفٌ تُسَلُّ تحت بُنُودِ[6]

وأصبو إلى بِطَاحٍ وأدواحٍ، تروّحُ النفوسَ والأرواح[7]: [المنسرح]

---

(١) الأبيات لذي الوزارتين أبي بكر محمد بن عمّار، يصف فيها وطنه، وهي في وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٢٥) باختلاف يسير عمّا هنا، ضمن قصيدة من ستّة عشر بيتًا، قالها في المعتضد بن عبّاد. وفي الذخيرة (ق ٢ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣) ضمن أربعة وعشرين بيتًا، باختلاف يسير عمّا هنا. وابن عمار وزيرُ المعتمد بن عباد، قتله المعتمد ليلاً بيده في سنة ٤٧٧ هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٢٥)، وبغية الملتمس (ص ١١٣) والذخيرة (ق ٢ ص ٣٦٨) وقلائد العقيان (ص ٨٣)، والمغرب (جـ ١ ص ٣٨٩)، والحلّة السيراء (جـ ٢ ص ١٣١) والمطرب (ص ١٦٩).

(٢) التمائمُ: جمع تميمة وهي خرزات كان الأعراب يُعَلِّقونها على أولادهم يتّقون بها العَيْن بزعمهم. محيط المحيط (تمم).

(٣) الحيازم: جمع حَيزُوم وهو الصدر لأنه موضع الحزم، والمراد القلب. محيط المحيط (حزم).

(٤) الأراقم: الحيّات التي فيها سواد وبياض، واحدتها أرقم. لسان العرب (رقم).

(٥) العُودُ الأول: الغصن. والعُودُ الثاني: آلة من المعازف يُضرب بها. محيط المحيط (عود).

(٦) البُنُودُ: جمع بَنْد وهو العَلَمُ الكبير. مختار الصحاح (بند).

(٧) البيتان لابن خفاجة كما سيأتي في هذا الكتاب (جـ ٤ ص ١٩٣)، ووردا باختلاف يسير عمّا هنا. وفي ديوان ابن خفاجة (ص ٢٠٢) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

سَقْيًا لها مِنْ بطاحِ خَزٍّ ودَوْحِ زَهْرٍ بها مُطِلٍّ
إذ لا ترى غَيْرَ وَجْهِ شمسٍ أطَلَّ فيه عِذارُ ظِلٍّ

وأنهارٍ جارية، وأزهارٍ نَواسِمُهَا سارية، وأَرْبُعٍ ومَلاَعب، تُزيحُ عن مُبْصرِها المتاعب[1] : [مجزوء الكامل]

تلك المنازلُ والمَلا عِبُ لا أراها اللَّهُ مَحْلاَ
أُوطِنْتُهَا زمَنَ الصِّبا وجَعَلْتُ فيها لي مَحَلاًّ
حَيْثُ ٱلْتَفَتُّ رأيتُ ما ءً سائِحًا ورأيتُ ظِلاًّ
والنهرُ يَفْصِلُ بَيْنَ زَهْـ ـرِ الروضِ فِي الشَّطَّينِ فَصْلا
كبساطِ وَشْيٍ جَرَّدَتْ أيدي القُيُونِ عليه نَصْلاَ[2]

وإلى منازلَ، يَسْتَفِزُّ حُسنُها الرائقُ الجادَّ والهازلَ، ويشفي منظرُها عليلا، ويكفي مَخْبَرُها للمستفهم دليلا: [الخفيف]

وجِنانٍ أَلِفْتُهَا حين غَنَّتْ حَوْلَها الوُرْقُ بُكْرَةً وأَصِيلا[3]
نَهرُها مُسْرِعًا جَرَى وتَمَشَّتْ في رُباها الصَّبا قليلاً قليلا

وأَتَمَثَّلُ إنْ ذَكَرْتُ حال وداعي، بقول الشاعر الأديب الوَدَاعي[4]: [المنسرح]

الغَرْبُ خَيْرٌ وعند ساكنِهِ أمانةٌ أوْجَبَتْ تَقَدُّمَهُ
فالشرقُ مِنْ نَيِّرَيْهِ عندهُمُ يُودِعُ دِينارَهُ ودِرْهَمَهُ

---

(١) الأبيات لأبي فراس الحمداني، وقد وردت في شرح ديوان أبي فراس الحمداني (ص ١٧٥) ضمن قصيدة من عشرين بيتًا، وببعض الاختلاف عمّا هنا. وأبو فراس هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي؛ ابن عمّ سيف الدولة الحمداني. توفي سنة ٣٥٧ هـ. يتيمة الدهر (جـ ١ ص ٣٥)، ووفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٥٨).

(٢) القُيُونُ: جمع قَين وهو الحَدّاد. النَّصْلُ: حديدة السَّهْم والسَّيف والرُّمح، والجمع نُصُول. القاموس المحيط (قين) و(نصل).

(٣) الجِنان، بكسر الجيم: جمع جَنَّة، وهي الحديقة ذات الشجر. الوُرْقُ، بضم الواو: جمع وَرْقاء وهي الحَمَامَةُ. لسان العرب (جنن) و(ورق).

(٤) هو علي بن المظفر بن إبراهيم الكندي، المعروف بعلاء الدين الوداعي، وبابن عرفة: كاتب ابن وداعة، وأديب وشاعر. من أهل الإسكندرية، توفي بدمشق سنة ٧١٦ هـ. فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٩٨) والبداية والنهاية (جـ ١٤ ص ٧٨).

ويقول غيره، إشارةً لفضل الغرب وخيره: [السريع]

أشتاقُ للغربِ وأصبو إلى معاهِدٍ فيه وعَضرِ الصِّبَا
يا صاحِبَيْ نَجْوَايَ والليلُ قد أرْخَى جَلابِيبَ[1] الدُّجَى واخْتَبَا
لا تَعْجَبا مِنْ ناظرٍ ساهِرٍ باتَ يُراعي أَنْجُمًا غُيَّبَا
القَلْبُ في آثارها طائرٌ لمَّا رآها تَقْصِدُ المَغْرِبا

وأَهِيمُ كلّما حَلَلْتُ من غِيرانِ أرضي بمكان، وقد صَيَّر السائقَ جِدَّ السَيرِ معمولاً لـ «ما انفك» كما جعله خبرًا لـ «كان»، بقول قاضي القضاة العالِم الكبير الشمس ابن خَلِّكان[2]: [الخفيف]

أيُّ ليلٍ على المُحِبِّ أطالَهْ سائِقُ الظُّعن يَوْمَ زَمَّ جِمالَهْ[3]
يَزْجُرُ العِيسَ طاويًا يقطع المَهْـ مَهَ عَسْفًا سهولَهُ ورمالَهْ[4]
أيها السائقُ المُجِدُّ، تَرَفَّقْ بالمطايا فقد سَئِمْنَ الرِّحالَهْ[5]
وأَنِخْهَا هُنَيْهَةً وأَرِحْها إذ بَرَاها السُّرَى وفَرْطُ الكَلالَهْ[6]
لا تُطِلْ سَيْرَها العنيفَ فقد بَرْ رَحَ بالصَّبِّ في سُرَاها الإطالَهْ
وارْثِ للنازحِ الذي إنْ رأى رَبْـ عًا ثَوَى فيه[7] نادبًا أطْلالَهْ
يسألُ الرَّبْعَ عن ظِباء المُصَلَّى ما على الرَّبْع لو أجاب سؤاله
ومُحالٌ من المُحِيلِ جَوابٌ غَيْرَ أنَّ الوقوفَ فيه عُلالَهْ[8]

---

(١) الجلابيب: جمع جِلْباب وهو المِلْحفة. مختار الصحاح (جلب).

(٢) هو شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خَلِّكان الإربلي الشافعي، صاحب كتاب «وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان»، توفي سنة ٦٨١ هـ. فوات الوفيات (جـ ١ ص ١١٠) والبداية والنهاية (جـ ١٣ ص ٣٠١). وقد وردت هذه الأبيات ضمن قصيدة من ثلاثة وثلاثين بيتًا في فوات الوفيات (جـ ١ ص ١١٥ ـ ١١٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) سائقُ الظُّعْنِ: الجَمّال، والظُّعْن: السَّيْرُ في البادية من بلد إلى بلد آخر. زَمَّ جِماله: شدّها بالزِّمام. لسان العرب (ظعن) و(زمم).

(٤) العِيسُ: الإبلُ البِيضُ التي يخالطُ بياضَها شيءٌ من الشُّقرة، واحدها أَعْيَس والأُنثى عِيْساء. مختار الصحاح (عيس). المَهْمَهُ والمَهْمَهَةُ: المفازة البعيدة، والجمع مهامه. محيط المحيط (مهمه).

(٥) الرِّحالة، بكسر الراء: السَّرْج: والجمع رحائل. محيط المحيط (رحل).

(٦) السُّرَى: السير ليلاً. الكَلاَلَةُ: الإعياء. مختار الصحاح (سرا) و(كلل).

(٧) ثَوَى بالرَّبْع: نزل به. القاموس المحيط (ثوى).

(٨) العُلاَلَةُ: ما يُتَعَلَّلُ به. محيط المحيط (علل).

هذه سُنَّةُ المُحِبِّينَ يبكو   نَ على كلِّ منزلٍ لا مَحَالَه
يا ديارَ الأحبابِ لا زالتِ الأعْـ   يُنُ[1] في تُرْبِ ساحتيكِ مُذَالَه
وتمشَّى النسيمُ وَهْوَ عليلٌ   في مَغانيكِ ساحبًا أذيالَه
أين عَيشٌ مَضَى لنا فيكِ؟ ما أسْـ   رَعَ عنَّا ذَهابَهُ وزَوالَه!
حيث وَجْهُ الزمانِ طَلْقٌ نضيرٌ   والتداني غصونُهُ مَيَّالَهْ
ولنا فيكِ طِيبُ أوقاتِ أنسٍ   لَيْتَنا في المَنَامِ نَلْقَى مثالَه

وأردِّد قولَ الذي سحر الألباب، مناديًا مَن له من الأحباب[2]: [البسيط]

أَحْبابَنا، لو لَقِيتُمْ في إقامتكُمْ   مِنَ الصَّبابةِ ما لاقَيْتُ في الظَّعنِ
لأصْبَحَ البحرُ مِنْ أنفاسِكُمْ يَبَسًا   والبَرُّ مِنْ أدمعي يَنْشَقُّ بالسُّفنِ

وقوله: [البسيط]

وما تَغَيَّرْتُ عن ذاك الوداد، ولا   حَالَتْ بيَ الحالُ في عَهْدِي وميثاقي
دَرْسِي غرامي بكمْ دَهْري أُكَرِّرُهُ   وقد تَفَقَّهْتُ في وَجْدي وأشواقي

وقول المجد بن شمس الخلافة[3]، معلمًا أنه لا يريد بَدَلَ معهده وخلافه: [الخفيف]

يا زمان الهوى، عليكَ السَّلامُ   وعَلَيَّ السُّلُوُّ عنكَ حَرامُ
أيُّ عيشٍ قَطَعْتُهُ فيكَ لو دا   م وهل يُرْتَجَى لِظِلٍّ دَوام
كنتَ حُلْمًا والعيشُ فيك خيالاً   وسريعًا ما تنقضي الأحلام
لَهْفَ نفسي على ليالٍ تَقَضَّتْ   سَلَبَتْني بُرُودَهَا[4] الأيام
فَطَمَتْني الأقدارُ عنها يا وليدًا[5]   وشَدِيدٌ على الوليد الفِطامُ
لا تَلُمْني على البكاء عليها   مَنْ بَكَى شَجْوَه فليس يُلامُ

---

(١) في فوات الوفيات: «الأدمع» بدل «الأعينُ»، وهو ما يوافق السياق أكثر.
(٢) البيتان لابن خلكان السابق الذكر، وقد أوردهما الكتبي ضمن شعر ابن خلّكان في كتابه فوات الوفيات (جـ ١ ص ١١٤)، وجاء فيه «ظَعْني» بدل «الظَّعن».
(٣) هو مُجِدُّ الملك أبو الفضل جعفر ابن شمس الخلافة محمد بن مختار الأفضلي، من أهل مصر، توفي سنة ٦٢٢ هـ. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٣٦٢).
(٤) البُرُودُ: جمع بَرْد وهو النَّوْمُ. مختار الصحاح (برد).
(٥) الوليد: الصَّبِيُّ. مختار الصحاح (ولد).

وقول أبي طاهر الخطيب الموصلي: [الخفيف]

حَيِّ نَجْدًا عنّي ومَنْ حَلَّ نَجْدَا ... أَرْبُعًا هِجْنَ لي غرامًا ووَجْدَا
وأَقْرِ عنّي السَّلامَ آرامَ ذاكَ الـ ... ـشِّعْبِ والأجْرَعَ الخَصِيبَ المُفَدَّى[1]
وأَبْكِ عنّي حتى تُرَنِّحَ بالوَجْـ ... ـدِ أَرَاكًا بِهِ وبانًا ورَنْدَا[2]
فلكَمْ وقفةٍ أَطَلْتُ على الضا ... لِ[3] بدمعٍ أذاعَ سِرِّي وأَبْدَى
وعلى البانِ كم مِنَ البَيْنِ أذْرَيْـ ... ـتُ لآلي لِلدَّمْعِ مَثْنَى ووَحْدا
آهِ والَهْفَتي على طِيبِ عيشٍ ... كنتُ قَطَّعْتُهُ وصالاً ووُدّا
حيثُ عُودُ الشبابِ غَضٌّ نضيرٌ ... ويَدُ المَكْرُماتِ بالجُودِ تَنْدَى
والخليلُ الوَدُودُ يُنْعِمُ إسعا ... فًا وصَرْفُ الزمانِ يَزْدادُ بُعْدا
والليالي مُساعِداتٌ على الوَصْـ ... ـلِ وعَيْنُ الرقيبِ إذ ذاك رَمْدَا
كم بها مِنْ لُبَانةٍ لي وأوطا ... رٍ تقضَّتْ وجازتِ الحَدَّ جِدّا[4]
فاسْتَعادَ الزمانُ ما كان أعطى ... خِلْسَةً لي بِبُخْلِهِ واسْتَرَدَّا

وقول بعضهم: [الطويل]

سلامٌ على تلك المعاهِدِ، إنَّها ... شَرِيعَةُ وِرْدِي[5] أو مَهَبُّ شمالي
لياليَ لم نَحْذَرْ حُزُونَ[6] قطيعةٍ ... ولم نمشِ إلاّ في سهولِ وِصالِ
فقد صِرْتُ أرضَى من نواحي جَنابِها ... بِخُلَّبِ بَرْقٍ أو بطَيْفِ خَيالِ

---

(١) وأَقْرِ السلامَ. . . : أمر لفعل «أقرأ»، وقد حذف الهمزة لكي لا ينكسر الوزن، وأصل القول: أقرىء السلام؛ يقال: أقرأه السلام إذا بلغه إياه. محيط المحيط (قرأ). كذلك جعل همزة القطع همزة وصل لكي لا يختلّ الوزن. الآرام: جمع إرَم وهي حجارة تُنْصَبُ كالعلم في المفازة. لسان العرب (أرم). الشِّعْبُ، بكسر الشين: الطريق في الجبل، أو ما انفرج بين الجبلين. القاموس المحيط (شعب). وفي طبعة دار صادر «الفَرْدا» بدل «المُفَدّى».

(٢) الأراك: شجر، واحدته أراكة. مختار الصحاح (أرك).

(٣) الضَّالُ: شجر، واحدته ضالة. محيط المحيط (ضيل).

(٤) اللُّبَانَةُ: الحاجة. الأوطار: جمع وَطَر وهو الحاجة. مختار الصحاح (لبن) و(وطر). وفي طبعة دار صادر: «حَدًّا» بدل جِدًّا».

(٥) الوِرْدُ: ضِدُّ الصَّدَر؛ يقال: وَرَدَ القومُ الماءَ إذا أشرفوا عليه، سواءٌ دخلوه أو لم يدخلوه. لسان العرب (ورد).

(٦) الحُزُونُ: جمع حَزْن وهو ما غَلُظَ من الأرض. لسان العرب (حزن).

وقول الجرجاني[١]: [الخفيف]

لِلمُحِبِّينَ مِنْ حِذَارِ الفِراقِ ... عَبَراتٌ تَجُولُ بينَ المآقي[٢]
فإذا ما استقلَّتِ العِيسُ للبَيْـ ... ـنِ وسارتْ حُدَاتُها بالرفاقِ
إسْتَهَلَّتْ على الخدودِ انحدارا ... كانحدار الجُمَانِ في الاتِّساقِ
كم مُحِبٍّ يَرَى التَّجَلُّدَ دِينًا ... فَهْوَ يُخْفِي مِنَ الهوى ما يلاقي
إزْدهاهُ النَّوَى فأَعْرَبَ بالوَجْـ ... ـدِ لسانٌ عَنْ دَمْعِهِ المُهرَاقِ
وانْحِدارُ الدموعِ في موقف البَيْـ ... ـنِ على الخَدِّ آيةُ العُشّاقِ
هَوِّنِ الخَطْبَ لستَ أوّلَ صَبٍّ[٣] ... فَضَحَتْهُ الدموعُ يومَ الفراقِ

وقول الخطيب الحصكفي الشافعي[٤]: [البسيط]

سَارُوا وأكبادُنَا جَرْحَى وأعينُنَا ... قَرْحَى وأنفسُنَا سَكْرَى من القَلَقِ
تشكو بواطِنُنا مِنْ بَعْدِهِمْ حُرَقًا ... لكنْ ظواهِرُنا تشكو من الْغَرقِ
كأنهمْ فوق أكوارِ المطيِّ وقد ... سارتْ مُقَطَّرةً في حالكِ الغَسَق[٥]
دَرارِىءُ الزُّهْرِ[٦] في الأبراج زاهرة ... تسيرُ في الفَلَكِ الجاري على نسق
يا مُوحشي الدار مذ بانوا كما أَنَسَتْ ... بقربهمْ لا خَلَتْ مِنْ صَيِّبٍ غَدَقِ
إنْ غبتُمُ لم تغيبوا عن ضمائرنا ... وإنْ حَضَرْتُمْ حَمَلْناكمْ على الْحَدَقِ

وما أحسنَ قولَ بعضهم في هذا المعنى، الذي كررنا ذكره وبه أَلْمَعْنَا: [الطويل]

سلامٌ على أهلِ الوَدادِ وعَهْدِهِمْ ... إذِ الأنسُ رَوْضٌ والسرورُ فنونُ

---

(١) لا ندري أيّهما؛ أهو علي بن عبد العزيز الجرجاني أو عبد القاهر الجرجاني؛ لأنّ الاثنين نظما شعرًا رقيقًا حسنًا.

(٢) العَبَراتُ، بالفتح: جمع عَبْرة، بفتح العين وسكون الباء، وهي الدمعة. المآقي: جمع مَأْق وهو مجرى الدّمْع من العين. محيط المحيط (عبر) و(مأق).

(٣) الصَّبُّ، بفتح الصاد: العاشق المشتاق. لسان العرب (صبب).

(٤) هو معين الدين أبو الفضل يحيىٰ بن سلامة الطنزي، المعروف بالخطيب الحصكفي، توفي سنة ٥٥١ هـ، وقيل: ٥٥٣ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٢٠٥)، ومعجم البلدان (جـ ٤ ص ٤٤، مادة طنزة).

(٥) الأكوار: جمع كُوْر وهو الرَّحْل. المَطِيُّ: جمع مَطِيّة وهي الدابّة. مُقَطَّرَةً: قريبة لبعضها البعض على نسق. محيط المحيط (كور) و(مطي) و(قطر).

(٦) دراريءُ الزُّهْرِ: أي الزُّهر المتلألئة؛ الزُّهر: جمع أزهر وهو القمر، والدُّرِّيءُ من الكواكب: المتوقّد المتلألىء. محيط المحيط (درأ) و(زهر).

رَحَلْنا فَشَرَّقْنا وراحوا فغرَّبوا   ففاضتْ لرَوْعَاتِ الفراقِ عيونُ

وكم أنشدَتْ وليالي النوى عاتمة، قولَ الأندلسي ابنِ خاتمة[1]: [من المخمسات]

أيامَنَا بالحِمَى ما كان أحلاكِ   كم بِتُّ أرعاهُ إجلالاً وأرعاكِ
لا تُنكري وَقْفَتي ذُلاً بِمَغْناكِ   يا دارُ لولا أحِبّائي ولولاكِ
لَمَا وَقَفْتُ وُقُوفَ الهائمِ الباكي

فهل لهمْ عطْفَةٌ مِنْ بَعْدِ ذَلِّهِمُ   تاللّهِ ما تسمحُ الدنيا بمثلِهِمُ
آهًا لِقَلْبِي على تَبْدِيدِ شملِهِمُ   ما كان أحلاكِ يا أيامَ وَصْلِهِمُ
ويا ليالي الرِّضا ما كان أضواكِ

يا بَدْرَ تِمّ تناءتْ عنه أربُعُنَا   ولم تَزَلْ تحتويه الدَّهْرَ أضْلُعُنا
ما لِلنَّوَى بِضُرُوبِ البَيْنِ يُوجِعُنَا   إذا تَذَكَّرْتُ دَهْرًا كان يَجْمَعُنا
تَقَطَّرَتْ كَبِدي شَوقًا لمرآكِ

أَحْبابَ أنْفُسِنا كم ذا النوى وكَم   ويا معاهدَ نَجْوَانا بذي سَلَمِ
تاللّهِ ما شُبْتُ دَمْعًا للأسى بدمِ   ولا لَثَمْتُ ترابَ الأرضِ مِنْ كَرَمِ
إلاّ مُراعاةَ خِلّ ظَلَّ يَرْعاكِ

عَلَّ التَعَلُّلَ يُدْنِي منهمُ وعَسَى   فَيَعْمُرَ القُرْبُ ما بالبَيْنِ قد دَرَسَا
كم ذا أُنادي بربعٍ بالنوى طُمِسَا   يا قلْبُ صَبْرًا فإنَّ الصَّبْرَ عادَ أسى
ويا منازلَ سَلْمَى أين سَلْمَاكِ

وقول بعضِ مَن اشتَدَّ به الهيام، فخاطب جِيرَتَهُ مادحًا ليالي القرب وذامًا تقلُّبَ الأيام: [البسيط]

أيامُ أُنسيَ قد كانتْ بقُرْبِكُمُ   بِيضًا، فحين نَأَيتُم أَصْبَحَتْ سُودَا
ذَمَمْتُ عيشيَ مذ فارقْتُ أرضَكُمُ   مِنْ بَعْدِ ما كان مغبوطًا ومحسودا

---

(١) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري الأندلسي، المتوفَّى سنة ٧٧٠ هـ. انظر ترجمته في مقدمة ديوان ابن خاتمة، بقلم المحقّق الدكتور محمد رضوان الداية. وهذه القطعة الشعرية في ديوان ابن خاتمة (ص ٨٩ ـ ٩٠) مع اختلاف في بعض الكلمات واختلاف في ترتيب الأبيات.

وقول صاحبِ مصارعِ العُشّاق[1]، وقد شاقه من الهوى ما شاق: [مجزوء الكامل]

بانُوا فأدْمُعُ مُقْلتي وَجْدًا عليهم تستهِلُّ
وحَدًا بهمْ حادي الفرا قِ عَنِ المنازل فاسْتَقَلُّوا
قُلْ للذين ترَحَّلُوا عن ناظِري والقَلْبَ حَلُّوا
ما ضَرَّهُمْ لو أنهلوا مِنْ ماءِ وَصْلِهِمُ وعَلُّوا

وقوله حين زَحْزَحَتْهُ يَدُ الفراق، عن أوطان العراق[2]: [مجزوء الكامل]

قد قُلْتُ والعَبَرَاتُ تَسْـ فَحُها على الخَدِّ المآقي
حين انحَدَرْتُ إلى الجزيـ ـرةِ وانقَطَعْتُ عن العراقِ
وتَخَبَّطَتْ أيدي الرفا قِ مَهَامِهَ البِيدِ الرقاقِ[3]
يا بؤسَ مَنْ سلَّ الزما نُ عليه سَيْفًا للفراقِ

وقوله أيضًا[4]: [السريع]

يا منزلَ الحَيِّ بذاتِ النَّقَا سَقَاكَ دَمْعٌ مذ نأوْا ما رَقَا[5]
هل سَلْوَةٌ؟ هيهاتِ! لا سَلْوَةٌ قد بَلَغَ السيلُ الزُّبىٰ وارتقى[6]

---

(١) صاحب كتاب «مصارع العشاق» هو أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج، المعروف بالقارىء البغدادي، المتوفَّى سنة ٥٠٠ هـ، وقيل: ٥٠١ هـ. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٣٥٧) وبغية الوعاة (ص ٢١١). والأبيات في مصارع العشاق (جـ ١ ص ١٣٠) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ٣٥٧) باختلاف يسير عمّا هنا.

(٢) هذه الأبيات ليست للقارىء البغدادي كما يقول المقري، بل هي لأبي العباس أحمد بن يحيىٰ النحوي كما جاء في كتاب الأمالي لأبي علي القالي (جـ ١ ص ١٦٧) وفي مصارع العشّاق (جـ ١ ص ٢٣٧).

(٣) المَهامِهُ: جمع مَهْمَه وهو المفازة البعيدة. البِيدُ: جمع بَيْداء وهي الفلاة. محيط المحيط (مهمه) و(بيد).

(٤) هذه الأبيات للقارىء البغدادي، وقد أورد منها البغدادي البيت الأول فقط في كتابه مصارع العشّاق (جـ ١ ص ٢١٥).

(٥) أصل القول: رَقَأ، وقد حذف الهمزة مراعاة للقافية؛ يقال: رَقَأَ الدمعُ يَرْقأ إذا جَفَّ وانقطع. لسان العرب (رقأ).

(٦) يتضمن هذا البيت المثل القائل: «بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى»، والزُّبَى جمع زُبْية وهي حفرة تُحْفَر للأسد إذا أرادوا صيده، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء، فإذا بلغها السَّيْلُ كان جارفًا، يُضْرَبُ لِمَا جاوز الحَدَّ. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٩١، رقم ٤٣٦).

وأنـتَ يـا يـومَ الـنَّـوَى عـاجـلاً   أدالَ مـنـك الـلَّـهُ يـومَ الـلِّـقـا[1]

وقولي مُوَطِّئًا للثالث[2]، وقد تَغَيَّرَ لي فيمن تَغَيَّرَ حارث[3]: [البسيط]

لـم أَنْسَ مَعْهَدَنَا والشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ   والعَيْشُ غَضٌّ ورَوْضُ الأُنْس مِعْطَارُ
فـهـا أنـا بَعْدَ بُعْدٍ عنه في قَلَقٍ   وقـد نَـبَـتْ بِـيَ أرجـاءٌ وأقـطـارُ
تـمضي الـلـيـالي وأشـواقـي مُـجَـدَّدَةٌ   وما انْقَضَتْ لي من الأحبابِ أوطارُ[4]

وكلما مَرَرْتُ بمرأى يروق، لمعت لي مِنْ ناحية المَغْنَى بالْمُنَى بُروق، فتذكرْتُ قولَ بعضِ مَنْ له على غير مَنْ يَهْوَى طروق: [الرجز]

ما نَظَرَتْ عيني سواكَ منظرًا   مُسْتَحْسَنًا إلاّ عَرَضْتَ دُونَهُ
ومـا تَـمَـنَّـيْـتُ لـقـاءَ غـائـبٍ   إلاّ سـألْـتُ الـلَّـهَ أنْ تـكـونَـهُ

وربما رُمْتُ انتحائي مذهب السلوّ وانتحالي، خلال أحوال إقامتي وارتحالي، فلم ينتقل عن تلك الصفات حالي، وأنّى وجِيدِي بقلائد البَتّات حالي؟: [الكامل]

والشوقُ أعظمُ أن يُحِيطَ بوَصْفِهِ   قَلَمٌ وأنْ يُطْوَى عليه كِتابُ
واللّهِ ما أنا مُنْصِفٌ إن كان لي   عَيْشٌ يَطِيبُ وجيرتي غُيّابُ

وكيف ولآماقِي[5] صَبّ، ولأتواقي زيادة إذا سَرَى نسيم أو هَبّ؟: [الطويل]

شَرِبْت حُمَيَّا البَيْنِ صِرْفًا، وطالما   جَلَوتُ مُحَيَّا الوَصْلِ وهْو وَسِيمُ
فـميعادُ دَمْعي أنْ تنوحَ حمامةٌ   ومِيقاتُ شوقي أنْ يَهُبَّ نَسيمُ

---

(١) أصل القول: اللقاء، وقد حذف الهمزة مراعاةً للقافية.
(٢) أي البيت الثالث من أبيات القارىء البغدادي.
(٣) يشير إلى قول أبي إسحق إبراهيم بن العباس الصُولي في صديقه الحارث بن بُسْخُنَّر، عندما هجره فيمن هجره من إخوانه: [الطويل]

تَـغَـيَّـرَ لـي فـيـمـن تَـغَـيَّـرَ حـارِثُ   وكم من أخٍ قد غَيَّرَتْهُ الحوادثُ
أحارِثُ، إنْ شُورِكْتُ فيكَ فطالما   غَنِينا وما بيني وبينك ثالثُ

وقيل إن هذين البيتين لإسحق بن إبراهيم الموصلي. هكذا جاء في الأغاني (جـ ١٠ ص ٥٥). وترجمة إبراهيم الصولي في الأغاني (جـ ١٠ ص ٥٢) وتاريخ بغداد (جـ ٦ ص ١١٧) ومروج الذهب (جـ ٤ ص ٢٣) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ٤٤).
(٤) الأوطار: جمع وَطَر وهو الحاجة. مختار الصحاح (وطر).
(٥) الآماق: جمع مَأق وهو مجرى الدمع من العين. محيط المحيط (مأق).

فإن لاح سَنَا بارقٍ شاقني، أو ترنُّمُ شادٍ حَدَا بي إلى الهيام وساقني، أو رَنَا ظبيُ فلاةٍ راعني وراقني: [الطويل]

وإني لَيُصْبيني[1] سَنَا كلُّ بارقٍ ... وكلُّ حَمَامٍ في الأَراكِ يَنُوحُ
وأَرْتاعُ مِنْ ظبيِ الفَلاَةِ إذا رَنَا ... وأَرتاحُ للتذكارِ وهو سَنُوحُ
ولم يكُ ذاكَ الأمرُ مِنْ حيثُ ذاتُهُ ... ولكنْ لِمَعنًى في الحبيب يَلوحُ

ولا أستطيع الإعراب عن أمري العجيب، لِمَا بي من النوى المُذْهِلِ والجَوَى المدهشِ والوَجِيب[2]: [الطويل]

ولا تسألوا عمَّا أُجِنُّ فليس لي ... لسانٌ يؤدِّي ما الغرامُ يقولُ
يُطارحني البَرْقُ الأحاديثَ كلَّما ... أضاء كأنَّ البَرْقَ منه رسولُ
وما بالُ خَفَّاقِ النسيمِ يُميلني ... هلِ الريحُ راحٌ والشَّمَال شَمُولُ[3]

إذ دموعُ شُؤوني عند الذكرى لا تَرْقَا[4]، وجفوني ليس لها عن الأَرَقِ مَرْقًى، وشجوني تنمو إذا صدَحَتْ بِفَنَنِها وَرْقَا[5]: [الخفيف]

رُبَّ وَرْقاءَ في الدياجي تُنَادِي ... إِلْفَهَا في غصونِها المَيَّادَهْ
فَتُثِيرُ الهَوَى بِلَحْنٍ عجيبٍ ... يشهدُ السَّمْعُ أنها عوّاده
كلما رجَّعَتْ توجَّعْتُ حُزْنًا ... فكأنَّا في وَجْدِنا نَتَبَادَهْ

فيا لها من ذات طَوْق، مثيرةٍ لكامنِ شوق، جالبةٍ له من يمينٍ وشِمالٍ وفوق: [الخفيف]

ذَكَّرَتْنِي الوَرْقاءُ أيامَ أُنْسٍ ... سالفاتٍ فَبِتُّ أَذْرِي الدموعَا[6]

---

(١) يُصْبيني: يدعوني إلى الصِّبا. محيط المحيط (صَبَا).
(٢) الوَجِيبُ: خفقان القلب واضطرابه. لسان العرب (وجب).
(٣) الراح: الخمر. الشَّمُولُ: الخمر. مختار الصحاح (روح) و(شمل).
(٤) أصلها: ترقأ، وقد حذف الهمزة مراعاة للسَّجع؛ يقال: رَقَأَ الدمعُ يَرْقَأُ إذا جفَّ وانقطع. لسان العرب (رقأ).
(٥) الفَنَنُ: الغصن، وجمعه أفنان وأفانين. الوَرْقا: أصل القول: الوَرْقاءُ وهي الحمامة، وقد حذف الهمزة مراعاة للسَّجع، مختار الصحاح (فنن) و(ورق).
(٦) أذري الدموعَ: أصبُّها. محيط المحيط (ذرى).

وَوَصَلْتُ السُّهادَ شوْقًا لحبِّي   وغَرامًا وقد هَجَرْتُ الهُجُوعَا(١)
كيف يخلو قلبي من الذكر يومًا   وعَلَى حُبِّهِمْ حَنَيْتُ الضُّلوعا
كلما أُولِعَ العَذُولُ بعَتْبِي   في هَواهُمْ يَزْدادُ قلبي وَلُوعَا

وربما أتخيَّلُ قول مَن قال إنها بالحُزْن باثحة، وعلى فَقْدِ الإلف نائحة، فأنشد قول خليل، وهو بالحبِّ مُدْنَفٌ(٢) وعليل: [الوافر]

ورُبَّ حَمامَةٍ في الدَّوْحِ باتَتْ   تُجِيدُ النَّوْحَ فَنًّا بَعْدَ فَنٍّ
أقاسِمُها الهَوَى مَهْمَا اجْتَمَعْنا   فمنها النَّوْحُ والْعَبَرَاتُ مِنِّي(٣)

ولا غرو إنْ ظهر سِرٌّ بائح، فباكٍ مثلي مِنَ الشَّجْوِ نائح: [الكامل]

فرَجَعْتُ بَعْدَ فراقِ أيامِ الهوى   أَصِفُ الصَّبابةَ للمُحِبِّ المُولَعِ
دامي الجفونِ إذا الحمامةُ غَرَّدَتْ   مِنْ فوقِ خُوطِ البانةِ المُتَرَعْرِعِ(٤)
أَسْقِي الديارَ - وقد تباعَدَ أهْلُها   عنها - عَزَالِيَّ الدُّمُوعِ الهُمَّعِ(٥)
ونواعِبُ الأطلالِ ليس يُجيبني   ما بينهنَّ سوى الصَّدَى بِتَوَجُّعِ
وهواتِفٌ فوق الغصونِ يجيبني   منهنَّ تغريدُ الحمامِ السُّجَّعِ
ناحَتْ على عَذَبِ الفروعِ وإلْفُهَا   منها بمرأى فَوْقَها وبِمَسْمَعِ
ما فارقَتْ إلْفًا كما فارقْتُهُ   كَلاَّ ولا أَجْرَتْ سواكبَ أدْمُعي

على أوانٍ(٦) عيونُ سُعُودِهِ رَوَانٍ(٧)، وزمانٍ معمورٍ بأمانيٍّ وأمان، وآمالٍ دَوَانٍ(٨)،

---

(١) السُّهادُ: الأرق. الهُجُوعُ: النوم. مختار الصحاح (سهد) و(هجع)،
(٢) المُدْنَفُ: المريض. مختار الصحاح (دنف).
(٣) العَبَرَاتُ: جمع عَبْرَة وهي الدمعة. القاموس المحيط (عبر).
(٤) الخُوطُ: الغصن الناعم. البانة: شجرة، وجمعها بان. مختار الصحاح (خوط) و(بون).
(٥) عزالي الدموع: إشارة إلى شدة وَقْعها، والعزالي جمع عَزْلاء؛ يقال: أنزلتِ السماءُ عَزَالِيَها، بدون تشديد الياء، إشارة إلى شدة وقع المطر. محيط المحيط (عزل). الهُمَّعُ: السَّيَّالة؛ يقال: هَمَعَ الدمعُ إذا سال. ولم نعثر في كتب اللغة على هذا الجمع، بل يقال: دموع هوامع. القاموس المحيط ولسان العرب ومختار الصحاح (همع).
(٦) الأوانُ: الوقت. محيط المحيط (أون).
(٧) الرواني: صفة للعيون، وهي عند المقري جمع رانية، وهذا الجمع لم نعثر عليه في كتب اللغة؛ يقال: رنا إليها يرنو إذا أدام النظر إليها. لسان العرب (رنا).
(٨) الآمال الدواني: أي الدانيات، على وشك أن تتحقّق، وهذا الجمع لم نعثر عليه في كتب اللغة.

وتهانٍ ما بَيْنَ بِكْرٍ وعَوَانٍ[1]، وفي عُذْرِ مَنْ طالَ ليلُه فاضْطرب فيه لولوعه، وسَكَنَ جَوَاهُ بجوانحه وضلوعه: [الكامل]

إنْ طال ليلي بعدهُمْ فَلِطُولِهِ　　عُذْرٌ، وذاكَ لِمَا أقاسي مِنْهُمُ
لم تَسْرِ فيه نجومُهُ لكنَّها　　وَقَفَتْ لتسمعَ ما أحدِّثُ عنهمُ

فَأَرَقي، الزائدُ في حُرَقي، أَظْهَرَ المكنونَ وأبان، ووَجْدي بمَن نَأى وبان، لم يُجْدِ فيه تَعَلُّلٌ برنْدٍ وبان[2]: [الرجز]

تَنَبَّهي، يا عَذَبَاتِ الرَّنْدِ،　　كم ذا الكَرَى؟ هَبَّ نسيمُ نَجْدِ
فلسْتِ مثلي في جَوًى أو أَرَاق　　وحُرْقَةٍ مِنْ فُرْقَةٍ أو صَدِّ
عُوْفِيتُ ممّا حَلَّ بي من جِيرَةٍ　　في الغَرْب لم يَرْثُوا لِفَرْطِ وَجْدي
أُعَلِّلُ القلبَ ببانِ عنهمُ[3]　　وهل ينوبُ غُصُنٌ عن قَدّ
بانوا فلا مَغْنَى السرورِ بعدهُمْ　　مَغْنًى، ولا عَهْدُ الرضا بعَهْدِ
آهًا من البُعْدِ ومَنْ لم يَدْرِهِ　　لم يَشْجُهُ تأوّهي للبُعْدِ

وفي شغل مَنْ أبكته الربوعُ والطلول، وذهبت بُرْهَةٌ من زمانه بين الترحّل والحلول، فركب من الأخطار الصَّعْبَ والذَّلُول، وحافظ على العهود ولم يسلك سبيل الغادر الملول: [الطويل]

سَقَاهَا الْحَيَا مِنْ أَرْبُعٍ وطُلُولِ　　حَكَتْ دَنَفي مِنْ بعدهِمْ ونُحُولي
ضَمِنْتُ لها أجفانَ عَيْنٍ قريحةٍ　　من الدَّمْعِ مِدْرَارِ الشؤونِ هَمُولِ

ومن الغريب، الذي ينكره غير الأريب، أنَّ الحادي إنْ سرَّ القلب بكشف رَيْن[4]، فقد تسبَّب في اجتماع أمرين متنافيين متنافرين: [الطويل]

---

(١) العواني: جمع عانية وهي المرأة المحبوسة عند الزوج. محيط المحيط (عني).
(٢) الأبيات لنجم الدين أبي الغنائم محمد بن علي بن فارس الواسطي، المعروف بابن المعلّم، المتوفى سنة ٥٩٢ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٥) والوافي بالوفيات (جـ ٤ ص ١٦٥)، وفي هذا الأخير بعض هذه الأبيات.
(٣) في طبعة دار صادر: «ببان رامةٍ» بدل «ببانِ عنهُمُ».
(٤) الرَّيْنُ: كالصَّدَأ يَغْشَى القلب. لسان العرب (رين).

تَرَنَّمَ حادٍ بالصَّريم[1] فشاقني إلى ذكر مَنْ باتَتْ ضلوعي تَضُمُّهُ
فَسَرَّ وساءَ النفسَ شَجْوًا فربما كَلِفْتُ به من حيثُ صِرْتُ أَذُمُّهُ

وارتجلْتُ حين مَلَلْتُ من طول السُّرَى، مُضَمِّنًا ذكر ما أروم له تَيَسُّرا، وقد أكثر الرفاقُ عند رؤية ما لم يألفوه من الآفاق تلهّفًا وتَحَسُّرا: [الخفيف]

قلْتُ لمّا طالَ النَّوَى عن بلادي ولأهلِ النوى جَوًى[2] وعَويلُ
هَلْ أرى للفِراقِ آخِرَ عهدٍ إنَّ عُمْرَ الفِراقِ عُمْرٌ طويلُ

ثم قلتُ مُضَمِّنًا: [الرمل]

لائمي في ذكر أَحْبابٍ نَأَوْا لا تَلُمْ مَنْ أضعَفَ الشَّوْقُ قُوَاهُ
إنَّ يومًا جامعًا شَمْلي بِهِمْ ذاك عِيدِي، ليس لي عيدٌ سِوَاهُ

ثم قلت مضمّنًا أيضًا: [الطويل]

لك اللّهُ مِنْ صَبٍّ أَضَرَّ به النَّوَى وليس له غَيْرَ اللقاءِ طبيبُ
وإنَّ صَبَاحًا نلتقي بمسائِهِ صَباحٌ إلى قلبي الْمَشُوقِ حبيبُ

ثم عُدْتُ إلى التصبُّر، بعد إمعانِ النظر والتدبّر: [الطويل]

وإني لأَدْرِي أنَّ في الصَّبْرِ راحةً ولكنَّ إنفاقي على الصَّبْرِ مِنْ عُمْري
فلا تُطْفِ نارَ الشوق بالشوقِ طالبًا سُلُوًّا، فإنَّ الجَمْرَ يُسعَرُ بالجَمْرِ[3]

ثم سَلَكْتُ مَنْهَج التفويض والتسليم، مُنْشِدًا قولَ ابن قطرال[4] المغربي في مقام النصح والتعليم، ووجَّهْتُ القَصْدَ إلى سكان الضمير بذلك التكليم: [الرمل]

إنَّ أيامَ الرِّضا معدودةٌ والرضا أجملُ شيء بالعبيدْ
لا تَظُنُّوا عنكُمُ لي سلوةً[5] ما على شوقي إليكمْ مِنْ مزيدْ

---

(١) الصَّرِيمُ: الصُّبْحُ، والليل، والأرض السوداء التي لا تنبت شيئًا، والصريم موضع باليمن، معجم البلدان (جـ ٣ ص ٤٠٤، مادة صرم).
(٢) الجَوَى: الحُرْقة وشدّة الوجد. مختار الصحاح (جوي).
(٣) يُسْعَرُ الجَمْرُ: يُوقَدُ. محيط المحيط (سعر).
(٤) أغلب الظن أنه القاضي أبو الحسن علي بن عبد اللّه بن محمد الأنصاري القرطبي، المعروف بابن قطرال، كما جاء في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٢٣٧).
(٥) في طبعة صادر: «لا تظنُّوا ليَ عنكُمْ سَلْوَةً».

راجعوا أنفُسَكُمْ تستيقنوا   أنكُمْ في الوقت أقصى ما أُريدْ
إنَّ يومًا يجمعُ اللَّهُ بكمْ   فيه شَمْلي ذاك عندي يومُ عيدْ

وقول بعضِ مَنْ نَدِمَ على البُعْدِ عن المعاهد، وأمّل العَوْدَ ـ والعَوْدُ أحمد ـ إلى المشاهد، وغفر للدهر ذنبه إنْ عاد، وتلهّف أن لم يعامله بغير الإبعاد: [الطويل]

لَئِنْ عادَ جَمْعُ الشَّمْلِ في ذلك الحِمَى   غَفَرْتُ لدهري كلَّ ذنبٍ تَقَدَّمَا
وإن لم يَعُدْ مَنَّيْتُ نفسي بعودة   وماذا عسى تُجْدي الأماني وقَلَّمَا
يحقُّ لقلبي أنْ يذوبَ صَبابةً   وللعينِ أن تُجْرِي مَدامِعَهَا دَمَا
على زمنٍ ماضٍ بِهِمْ قد قَطَعْتُهُ   لبِسْتُ به ثوبَ المَسَرَّةِ مُعْلَمَا[1]

وقول آخرَ يخاطبُ أَحْبابه، ويذكر فَوَاصِلَ بَحْرِ النَّوَى الطويلِ وأسبابَهُ: [الطويل]

أُعِيذُكُمْ مِنْ لَوْعتي وشُجُوني   ونارِ جَوًى تُذْكَى بماءِ شؤوني[2]
وبَرْحِ أسًى لم يُبْقِ فيَّ بَقِيَّةً   سوى حَرَكاتٍ تارةً وسكونِ
أرى القلبَ أَضْحَى بَعْدَ طارقةِ الأسى   أسِيرَ صَبَاباتٍ رَهِينَ شُجُون
وكيف سبيلُ القُرْبِ منكُمْ ودونكمْ   رمالُ زَرُودٍ والأجَارِعُ دوني[3]؟
سَلُوا مَضْجعي هل قَرَّ مِنْ بَعْدِ بُعْدكمْ   وهل عَرَفَتْ طَعْمَ الرُّقادِ جُفوني
سَهِرْنا بنعمانٍ، ونمتُمْ ببابلٍ،   فيا لَعُيُونٍ ما وَفَتْ لعيونِ

وفي بعض الأحيان، أتسلَّى بقول بعض الأندلسيين الأعيان: [الكامل]

لا تكترِثْ بفراقِ أوطانِ الصِّبا   فعَسَى تنالُ بِغَيْرِهِنَّ سُعُودَا
فالدُّرُّ يُنظَمُ عند فَقْدِ بِحارِهِ   بجميلِ أجيادِ الحِسَانِ عُقُودَا

وقول غيره[4]: [الكامل]

---

(١) الثوب المُعْلَمُ: الذي جُعل له علم من طراز وغيره. محيط المحيط (علم).
(٢) الشؤون: جمع شأن وهو مجرى الدمع إلى العين. لسان العرب (شأن).
(٣) زَرُود، بفتح الزاي وضمّ الراء: موضعٌ، سُمّي بذلك لأن الرمال فيه تبلع المياه التي تمطرها السحائب. معجم البلدان (جـ ٣ ص ١٣٩) ولسان العرب (زرد). الأجارع: جمع أجْرع وهو الأرض ذات الحُزُونَة تشاكل الرمل. لسان العرب (جرع).
(٤) البيتان لابن خفاجة، وقد وردا في ديوانه (ص ٢٠٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا، وسيأتيان في الجزء الخامس من نفح الطيب .

فعسى الليالي أنْ تَمُنَّ بِنَظْمِنا عِقْدًا كما كُنَّا عليه وأكْمَلاَ
فلربَّمَا نُثِرَ الجُمَانُ تَعَمُّدًا لِيُعادَ أحْسَنَ في النظامِ وأجْملا

وأرغبُ لِمَن أطال ذيول الغربة أنْ يقلِّصَها، وأطلبُ مِمَّن أجال النفوسَ في سيول لكُرْبَة أنْ يخلِّصَها: [البسيط]

فنلتقي وعَوَادِي[1] الدهرِ غافلَةٌ عَمَّا نَرُومُ وعِقْدُ البَيْنِ مَحْلُولُ
والدارُ آنسةٌ، والشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ، والطَّيْرُ صادِحَةٌ، والروضُ مَطْلُولُ[2]

وأَضْرَعُ إليه ـ سبحانه! ـ في تيسير العَوْدِ إلى أوطاني، ومعهدي الذي مَطَايا العِزِّ أوطاني[3]، وأنْ يُلحقني بذلك الأفق الذي خَيْرُهُ مَوْفُور، وحَقُّ مَنْ فيه معروفٌ لا منكر ولا مَكْفُور: [البسيط]

إذا ظَفِرْتُ من الدنيا بِقُرْبِهِمُ فكلُّ ذنبٍ جَناهُ الدَّهْرُ مَغْفُورُ

وكأني بعاتب يقول: ما هذا التطويل؟ فأقول له: جوابي قول ابن أبي الإصبع[4] الذي عليه التعويل: [البسيط]

أكْثَرْتَ عَذْلي كأنِّي كنتُ أولَ مَنْ بَكَى على مَسْكَنٍ أو حَنَّ للسَّكَنِ
لا تَلْحَ[5] إنَّ مِنَ الإيمانِ عند ذوي الـ إيمانِ منّا حَنِينَ النَّفْسِ للوَطَنِ

على أنني أقول: اللّهمَّ يَسِّرْ لي ما فيه الخِيرَةُ لي بالمشارق أو بالمغارب، وجُدْ لي مِنْ فضلك حيث حَلَلْتُ بجميع ما فيه رضاك من المآرب، بجاهِ نبيِّنا وشفيعِنا المبعوثِ رحمةً للأحمر والأسود والأعاجم والأعارب، عليه أفضلُ صلاةٍ وأزكى سلام، وعلى آله وأصحابه الأعلام، والتابعين لهم بإحسان ما ذَرَّ شارق، وتعاقَبَ طالع وغارب.

ثم جَدَّ بنا السَّيْرُ في البَرِّ أيامًا، ونأيْنا عن الأوطان التي أَطْنَبْنا في الحديث حُبًّا لها

(١) عوادي الدَّهر: عوائقه. محيط المحيط (عدي).
(٢) المَطْلُولُ: الذي نَزَلَ عليه الطَّلُّ وهو المطر الضعيف. مختار الصحاح (طلل).
(٣) أوطاني مطايا العِزّ: حملني عليها، وأصل القول: أوطأني، وقد قلب الهمزة ألفًا مراعاة للسَّجْع؛ يقال: أوطأه فرسه إذا حمله عليه فَوَطِئَهُ أي رَكِبَهُ. المطايا: جمع مَطِيَّة وهي الدابّة. محيط المحيط (وطأ) و(مطي).
(٤) هو زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد ابن أبي الإصبع المصري، المتوفّى سنة ٦٥٤ هـ. فوات الوفيات (جـ ٢ ص ٣٦٣) ومعاهد التنصيص (جـ ٤ ص ١٨٠).
(٥) لا تَلْحَ: لا تَلُمْ؛ يقال: لَحَى يَلْحَى: لامَ. محيط المحيط (لحى).

وهُيَامًا، وكُنَّا عن تفاعيل وَصْلِها[1] نياما، إلى أن ركبنا البحر، وحَلَلْنا منه بين السَّحْر والنَّحْر[2]، وشاهدنا من أهواله، وتنافي أحواله، ما لا يُعَبَّرُ عنه، ولا يُبْلَغُ له كُنْهٌ[3]: [مخلع البسيط]

البحرُ صَعْبُ المُرَامِ جِدًّا ... لا جُعِلَتْ حاجَتي إليْهِ
أَلَيْسَ ماءً ونحن طِينٌ ... فما عَسَى صَبْرُنَا عليْهِ

فكم اسْتَقْبَلَتْنا أمواجُهُ بوجوهٍ بَوَاسر[4]، وطارتْ إلينا مِنْ شِرَاعِهِ عِقْبَانٌ كواسِرُ، قد أَزْعَجَتْها أَكُفُّ الرِّيحِ من وَكْرِها، كما نَبَّهَتِ اللججَ مِنْ سُكْرِها، فلم تُبْقِ شيئًا من قوّتها ومَكْرِها، فَسَمِعْنا للجبال صفيرا، وللرياح دَوِيًّا عظيمًا وزَفِيرا، وتَيَقَّنَّا أنَّا لا نَجِدُ من ذلك إلاّ فضلَ اللّه مُجيرًا وخفيرا، ﴿وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البحرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعون إلاَّ إياه﴾[5]. وأَيِسْنَا من الحياه، لصوت تلك العواصف والمياه، فلا حَيَّا اللّهُ ذلك الهَوْلَ المُزْعِجَ ولا بَيَّاه[6]، والمَوْجُ يُصَفِّقُ لِسَماعِ أصواتِ الرياحِ فَيَطْرَبُ بل ويَضْطَرِب، فكأنه من كأسِ الجُنُونِ يَشْرَبُ أو شرب، فيبتعدُ ويقترب، وفِرَقُهُ تَلْتَطِمُ وتَصْطَفِق[7]، وتختلفُ ولا تكاد تتفق، فتخال الجوَّ يأخذُ بنَوَاصيها، وتجذبها أيديه مِنْ قواصيها[8]، حتى كاد سَطْحُ الأرضِ يُكْشَفُ من خِلالها، وعِنَانُ السُّحُبِ يخطف في استقلالها، وقد أَشْرَفَتِ النفوسُ على التَّلَفِ من خَوْفِها واعتلالها، وآذنتِ الأحوالُ بعد انتظامِها باختلالها، وساءت الظنون، وتراءتْ في

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «فَضْلِها» بدل «وَصْلها».

(٢) السَّحْرُ، بفتح السين: آخر الليل قبيل الصبح، والجمع أسحار. النَّحْرُ: أي نَحْرُ النهار وهو أوله. لسان العرب (سحر) و(نحر).

(٣) البيتان لابن رشيق القيرواني، صاحب كتاب «العمدة»، وقد وردا في ديوان ابن رشيق (ص ٢٢٦) وفيه «مُرٌّ» بدل «جدًّا». كما وردا في ديوان ابن حمديس (ص ٥٣٣) لابن رشيق، وفي البيت الأول بعض الاختلاف عمّا هنا، وجاءا في رحلة ابن جُبير (ص ٢٨٨) ببعض الاختلاف في البيت الأول، دون أن يذكر ابن جبير اسم قائلهما.

(٤) البواسرُ: الكالحة؛ يقال: بَسَرَ وَجْهُهُ إذا كَلَحَ وأصابه القُطُوبُ. لسان العرب (بسر).

(٥) سورة الإسراء ١٧، الآية ٦٧.

(٦) حَيّاهُ وبَيّاهُ: أصلحه، والمراد: أَبْعَدَ عنّا ذلك الخَوْفَ وعَجّلَ لنا ما نُحِبّ. لسان العرب (بيي).

(٧) اصْطَفَقَ البحرُ: تَحَرّكَ وتلاطمت أمواجه. محيط المحيط (صفق).

(٨) النواصي: جمع ناصِيَة وهي مُقَدّمُ الرأس. من قواصيها: أي من أماكنها القاصية، أي البعيدة. محيط المحيط (نصو) و(قصا).

صورها الـمَنُون[1]، والشِّراعُ في قراعٍ مع جيوشِ الأمواج، التي أمدَّتْ منها الأفواجَ بالأفواجِ، ونحن قُعُود، كدُودٍ على عُود، ما بين فُرَادَى وأزواج، وقد نَبَتْ بنا مِنَ القَلَقِ أَمْكِنَتُنَا، وخَرِسَتْ من الفَرَقِ[2] ألسنتُنا، وتوهَّمْنَا أنه ليس في الوجود، أغوارٌ ولا نُجود، إلاّ السماء والماء وذلك السَّفين، ومَنْ في قَبْرِ جَوْفه دفين، مع ترقّب هجوم العدوّ، في الرواح والغدوّ، لاجتيازه على عدّة من بلاد الحرب، دَمَّر اللّهُ سبحانه مَنْ فيها وأذهَبَ بفتحها عن المسلمين الكَرْب، لا سيما مالِطَة[3] الملعونة، التي يتحقّقُ مَنْ خَلَصَ مِنْ مَعرَّتها[4] أنه أُمِدَّ بتأييدٍ إلهيّ ومعونة، فقد اعترضت في لَهَوَاتِ البحر الشامي شَجَا، وقلَّ مَن ركبه فأُفْلت مِنْ كَيْدها ونجا، فزادنا ذلك الحذر، الذي لم يُبْقِ ولم يَذَرْ، على ما وصفناه من هَوْل البحر قَلَقًا، وأجريْنا إذ ذاك في مَيْدَان الإلقاء باليد إلى التهلكة طَلَقًا[5]، وتَشَتَّتَتْ أفكارُنا فِرَقا، وذُبْنَا أَسًى ونَدَمًا وفَرَقا، إذ البحر وحده لا كَمِيٌّ[6] يقارعه، ولا قويٌّ يصارِعُه، ولا شكلٌ يضارعه، لا يؤمن على كل[7] حالٍ، ولا يُفَرِّقُ بين عاطلٍ وحَالٍ، ولا بين أعزلَ وشاكي، ومُتَباكٍ وباكي: [الرجز]

ثَـلاثَـةٌ لـيـس لـهـا أمَـانُ ... الـبَـحْـرُ والـسُّـلْـطَـانُ والـزَّمَـانُ

فكيف وقد انْضَمَّ إليه خَوْفُ العدوّ الغادرِ الخائنِ والكافر الحائن[8]، إلى أن قضى الله بالنجاةِ وكلُّ ما أرادَ فهو الكائن، وإنْ نَهَى عنه وأخطأ المائن، فرأينا البَرَّ وكأنَّا قَبْلُ لم نَرَهْ، وشفيتْ به أعينُنَا من الْـمَرَه[9]، وحَصَلَ بَعْدَ الشدّةِ الفرج، وشَمِمْنَا من السلامة أطيب الأرَج[10]؛ فيا لَهَا من نعمةٍ كَشَفَتْ عن وجهها النِّقاب، يَقُلُّ شكرًا لها صومُ الأحقابِ[11]

(١) المَنُونُ: المَنِيَّةُ. مختار الصحاح (منن).
(٢) الفَرَقُ: الخوف. لسان العرب (فرق).
(٣) مالطة: جزيرة صغيرة في البحر الشامي. نزهة المشتاق (ص ٥٨٣).
(٤) المَعَرَّةُ: الأذى. محيط المحيط (عرر).
(٥) الطَّلَقُ، بالفتح: الشوط الواحد في جري الخيل. محيط المحيط (طلق).
(٦) الكَمِيُّ: الشجاع المُتَكَمِّي في سلاحه أي المُتَغَطِّي المُتَسَتِّر بالدِّرع والبيضة، والجمع كُماة. مختار الصحاح (كمي).
(٧) في طبعة دار صادر: «على حالٍ» بدل «على كلِّ حال».
(٨) الحائنُ: الذي لم يُوَفَّق للرَّشاد. محيط المحيط (حين).
(٩) المَرَهُ، بالفتح: مرض في العين لترك الكُحْل. لسان العرب (مره).
(١٠) الأَرَجُ، بالفتح: تَوَهُّج ريح الطِّيب. مختار الصحاح (أرج).
(١١) الأَحْقابُ: جمع حُقْب وهو الدهر والسنون. محيط المحيط (حقب).

وعِتْقُ الرقاب، جَعَلَنَا اللَّهُ بآياته معتبرين، وعلى طاعته مصطبرين، ولم نَخْلُ في البَرِّ من مُعَاناة خطوب، ومداراة وجوه للمتاعب ذات تَجَهُّمٍ وقطوب، فكم جُبْنَا منه مَهَامِهَ فِيحَا[1]، ومَسَحْنا بالخُطَا منها أثيرًا وصَفِيحَا، وفَلَّيْنا الفِجاج[2]، وقرأنا من الطرق خطوطًا ذات استقامة واعْوجاج، وقلوبُ الرفقةِ من الفرقة في اضطراب وارتجاج، وربما عَمِيَتْ على المجتهد الأدِلَّةُ التي يحصل بها على المذهب الاحتجاج، فترى الأنفاسَ تَعَثَّرُ في زفرةِ الأشواق، والأجسامَ قد زُرَّتْ عليها من التعب الأطواق، هذا والليلُ بصَفْحَة البدرِ مُرْتاب، وقد شُدَّتْ رِحَالٌ وأقتاب، وزُمَّتْ ركاب ورُفِعَتْ أحداج، وفُرِيَتْ من الدَّعَة بمدْيَةِ النَّصَب أَوْدَاج، وتساوى في السير نهارٌ مشرقٌ وليلٌ مُقْمرٌ أو داج، وأُدِيمَ التأويبُ وَالإسآد[3]، وَحِمْلُ الغُرْبَةِ قد أثقل وَآد[4]، ثم وَصَلْنَا بعد خَوْضِ بحار، يدهش فيها الفكر وَيَحَار، وَجَوْبِ فَيَافٍ مجاهل، يضلُّ فيها القَطَا عن المناهل، إلى مصرَ المحروسةِ فَشُفِينا برؤيتها من الأَوْجاع، وَشاهدْنا كثيرًا من محاسنها التي تعجز عن وَصفها القوافي وَالأسجاع، وَتَمَثَّلْنا في بدائعها التي لا نستوفيها، بقول ابن ناهض فيها[5]: [مجزوء الرجز]

شاطِئُ مِصْرَ جَنَّةٌ ... ما مِثْلُهَا في بَلَدِ
لا سيَّما مُذْ زُخْرِفَتْ ... بِنِيلِها المُطَّرِدِ
وَلِلرياحِ فَوْقَهُ ... سَوَابِغٌ من زَرَدِ[6]
مَسْرُودَةٌ ما مَسَّهَا ... داوُدُها بِمِبْرَدِ[7]

---

(١) المَهَامِهُ: جمع مَهْمَه وهو المفازة البعيدة. الفِيحُ: الواسعة، مفردها فَيحاء. محيط المحيط (مهمه) و(فيح).

(٢) فَلَّيْنا الفِجاجَ: ثَلَمْناها؛ والمراد: كم وَطِئْناها؛ يقال: فَلَّ السَّيفَ إذا ثَلَمَهُ أي كسر حرفه. محيط المحيط (فَلّ). الفِجاج، بكسر الفاء: جمع فَجّ، بفتح الفاء وهو الطريق الواسع بين الجبلين. مختار الصحاح (فجج).

(٣) التأويب: الرجوع: يقال: آبَ وتَأَوَّبَ إذا رَجَع. الإسآدُ: الغَذُّ في السير. محيط المحيط (أوب) و(سأد).

(٤) آدَهُ الحِمْلُ: أثقله. مختار الصحاح (أود).

(٥) وردت هذه الأبيات في رحلة ابن بطّوطة (جـ ١ ص ٣٦ ـ ٣٧) منسوبة إلى ناصر الدين بن ناهض، وببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٦) السوابغ: جمع سابغة وهي الدِّرْع الواسعة. مختار الصحاح (سبغ). وهنا يشبه صفحة الماء وقد لامسها الريح بالدِّرع الواسعة.

(٧) المَسْرُودَة: المثقوبة من طرفيها؛ يقال: سَرَّدَ الشيءَ إذا ثقبه، والمعروف أن داود النبي، عليه السلام، كان قد صنع دِرْعَين مَسْرُودَتَين. المِبْرَد: آلة يُبْرَدُ بها الحديدُ. لسان العرب (سرد) و(برد).

سـائِـلَـةٌ وَهْـوَ بِـهـا يُـرْعِـدُ عـاري الـجَـسَـدِ
وَالـفُـلْـكُ[1] كـالأفـلاك بَـيْـ ـنَ حـادِرٍ وَمُـصْـعِـدِ

ويقـول آخر: [مجزوء الكامل]

أُنظُـرْ إلـى الـنِّـيـلِ الَّـذِي ظَـهَـرَتْ بـه آيـاتُ رَبِّـي
فـكـأنـه فـي فَـيْـضِـهِ دَمْعِي وَفي الخفَقَانِ قَلْبي

ويقول أبي المكارم ابن الخطير، المعروف بابن مَمَّاتي[2]، في جزيرتها: [الطويل]

جزيرةَ مِصْرٍ، لا عَدَتْكِ مَسَرَّةٌ وَلا زالتِ اللذاتُ فيكِ اتِّصالُهَا
فكم فيكِ من شمسٍ على غُصْنِ قامةٍ يُمِيتُ وَيُحْيي هَجْرُها وَوِصالُهَا
مَغَانيكِ فوق النيل أضحَتْ هَوَادِجًا[3] ومختلفَاتُ الموج فيكِ جِبالُهَا
ومِنْ أعجبِ الأشياء أنكِ جَنَّةٌ تُمَدُّ على أهل الضلال ظِلالُهَا

لعلّه أراد بأهل الضلال اليهودَ والنصارى المستَوْلِين إذ ذاك على الدولة. وتذكَّرْتُ في مصر قولَ القاضي الفاضل[4]: [الكامل]

باللَّه قُلْ للنِّيلِ عَنِّي إنَّني لم أشْفِ من ماءِ الفُرَاتِ غليلا
وسَلِ الفؤادَ فإنه لـيَ شاهدٌ إن كان طَرْفي بالبكاء بخيلا
يا قلبُ، كم خَلَّفْتَ ثَمَّ بُثَيْنَةً وأظُنّ صَبْرَك أنْ يكون جَميلاَ

وقول أحمد بن فضل اللّه العمري[5]: [مجزوء الرجز]

لِـمِـصْـرَ فَـضْـلٌ بـاهِـرٌ بِـعَـيْـشِـهـا الـرَّغْـدِ الـنَّـضِـرْ

---

(١) الفُلْكُ، بضم الفاء وسكون اللام: السفينة. مختار الصحاح (فلك).

(٢) أبو المكارم أسعد بن الخطير، المعروف بابن مَمَّاتي، شاعر مصري، توفي سنة ٦٠٦ هـ. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٢١٠) والبداية والنهاية (جـ ١٣ ص ٥٣).

(٣) المغاني: جمع مَغْنًى وهو الموضع الذي كان به أهلوه. مختار الصحاح (غني). الهوادج: جمع هَوْدَج وهو مركب للنساء. محيط المحيط (هودج).

(٤) القاضي الفاضل هو أبو علي عبد الرحيم بن علي العسقلاني، وزير صلاح الدين الأيوبي. توفي بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٥٨) وكتب تاريخية متصلة بفترة صلاح الدين. والأبيات في وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٦٠) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) هو شهاب الدين أحمد بن يحيىٰ بن فضل اللّه العُمَري، صاحب كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، توفي سنة ٧٤٩ هـ. فوات الوفيات (جـ ١ ص ١٥٧). والبيتان في حلية الكميت (ص ٢٦٢) ببعض الاختلاف في البيت الثاني.

فـي سَـفْـحِ رَوضٍ يـلـتـقـي مـاءُ الـحـيـاةِ والـخَـضِـرْ

وقـول آخر: [الوافر]

كـأنَّ الـنِّـيـلَ ذُو فَـهْـمٍ ولُـبٍّ لِـمَـا يَـبْـدُو لِـعَـيـنِ الـناسِ مِـنْـهُ
فـيأتـي حـيـنَ حـاجـتـهـمْ إلـيـه ويَـمْـضِي حين يَسْتَغْنُون عَنْهُ

وقـول آخر: [الطويل]

وللَّهِ مَجْرَى النِّيلِ منه إذا الصَّبَا أرَتْنَا به من مَرِّها عَسْكَرًا مَجْرَا[1]
بِـشَـطٍّ يَـهـزُّ الـسَّـمْـهَـرِيَّـةَ ذُبَّـلاً ومَوْجٍ يَهزُّ البِيضَ هِنْدِيَّةً بُتْرَا[2]
إذا مَدَّ حاكىٰ الوَرْدَ لونًا، وإنْ صَفَا حكى ماءه لَوْنًا ولم يَحْكِهِ مَرًّا[3]

وقـول آخر: [الكامل]

وَاهًا لهذا النِّيلِ! أيُّ عجيبةٍ بِكْرٍ بمثل حديثها لا يُسْمَعُ
يَلْقَى الثَّرَى في الماء وهو مُسَلِّمٌ حـتـى إذا مـا مـالَ عـادَ يُـوَدِّعُ
مُسْتَقْبِلٌ مثل الهلالِ فدَهْرَهُ أبدًا يـزيـدُ كـمـا يـزيـدُ ويَـرْجِـعُ

وقول ابن النقيب[4]: [السريع]

الـصَّـبُّ مِـنْ بَـعْـدِهِـمُ مُـفْـرَدٌ ودَمْـعُـهُ الـنِّـيـلُ وتـعـلـيـقُـهُ
وخَـدُّه لَـمَّـا بـكـاهُـمْ دَمًـا مِـقـيـاسُـهُ، والـدَّمْـعُ تـخْـلـيـقُـهُ

وقـول الصَّفَدي[5]: [مجزوء الكامل]

سَـقْـيًـا لِـمِـصْـرَ ومـا حَـوَتْ مِـنْ أُنْـسِـهَـا وأُنَـاسِـهَـا

---

(١) العَسْكَرُ المَجْرُ: العظيم. محيط المحيط (مجر).

(٢) السَّمْهَرِيَّةُ: القَناةُ الصُّلْبَةُ، منسوبة إلى سَمْهَر الذي كان يُقَوِّمُ الرماح؛ يقال: رُمْحٌ سَمْهَرِيٌّ ورِماح سَمْهَرِيَّة. البِيضُ: جمع أبيض وهو السَّيْفُ. البُتْرُ: القاطعة. لسان العرب (سمهر) و(بيض) و(بتر).

(٣) مَرًّا: أي مرة أو مرتين. محيط المحيط (مرر).

(٤) هو ناصر الدين الحسن بن شاور ابن النقيب الكناني، أحد فرسان حلبة الشعر بمصر، توفي سنة ٦٨٧ هـ. فوات الوفيات (جـ ١ ص ٣٢٤). والبيتان في المصدر المذكور (ص ٣٢٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) هو صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الأديب المؤرِّخ صاحب الوافي بالوفيات ونكت الهميان وغيرهما، توفي بدمشق سنة ٧٦٤ هـ. الأعلام (جـ ٢ ص ٣١٥ ومصادر حاشيته).

ومحاسِنٍ في مَقْسِهَا[1] تَبْدُو وفي مِقْيَاسِهَا
ومَسَرَّةٍ كاساتُهَا تُجْلَى على أكياسِها
وسطورِ قُرْطٍ[2] خَطُّها الـ باري على قُرْطاسِها
ودُمَى كنائِسِهَا، ولا تَنْسَى ظِباءَ كِنَاسِهَا[3]
ولطافةٍ بجَلالةٍ تَبْدُو على جُلاَّسِها
ونَوَاسِمٍ كُلُّ المُنَى للنفسِ في أنفاسِها
ومراكبٍ لَعِبَتْ بها الـ أمواجُ في وَسْوَاسِهَا

وقول ابن جابر الأندلسي[4]: [الكامل]

ما زِلْتُ أُسْنِدُ من محاسنِ أرضِها خَبَرًا صحيحًا ليس بالمقطوعِ
كم مُرْسَلٍ مِنْ نِيلِهَا ومُسَلْسَلٍ ومُدَبَّجٍ مِنْ هَضْبِهَا المرفوعِ[5]

وقول إبراهيم بن عبدون: [الكامل]

والنِّيلُ بَيْنَ الجانبينِ كأنَّما صَدِئَتْ بِصَفْحَتِهِ صَفِيْحَةُ صَيْقَلٍ[6]
يأتيكَ مِنْ كَدَرِ الزَّواخِرِ مَدُّه بمُمَسَّكٍ مِنْ مائِهِ ومُصَنْدَلٍ[7]
فكأنَّ ضَوْءَ البَدْرِ في تمويجهِ بَرْقٌ تَمَوَّجَ في سَحابٍ مُسْبَلِ[8]

---

(١) المَقْسُ: مكان بين يَدَي القاهرة على النيل. معجم البلدان (جـ ٥ ص ١٧٥).
(٢) القُرْطُ: الذي يُعَلَّقُ في شَحْمَة الأُذن، والجمع قِراطٌ وقِرَطَةٌ. مختار الصحاح (قرط).
(٣) الظِّباءُ: جمع ظَبْيَة وهي الغزال. الكِناسُ، بكسر الكاف: بيت الظَّبي. محيط المحيط (ظبي) و(كنس). وهنا يشير إلى الحسناوات اللواتي يُمْنَعْنَ من الخروج من بيوتهنّ.
(٤) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن جابر، الأعمى النحوي، من أهل ألمرية، رحل إلى المشرق، ودخل مصر والشام، واستوطن حلب. توفي سنة ٧٧٩ هـ، وقيل ٧٨٠ هـ. بغية الوعاة (ص ١٤)وكشف الظنون (ص ١٥٢، ١٥٥). وسيورد المقرّي ترجمة له في الجزء الثالث من نفح الطيب، رقم ٣٠٢.
(٥) يجمع في هذا الشعر ألفاظًا من مصطلح الحديث.
(٦) الصَّيقَلُ: شَحّاذُ السيوف وجَلاّؤها، والجمع صياقل وصياقِلة. لسان العرب (صقل).
(٧) الكَدَرُ: نقيض الصفاء. الزواخر: جمع زاخرة؛ يقال: زَخَر الوادي إذا مَدّ وكَثُرَ ماؤه وارتفعت أمواجه، فهو زاخر. مُمَسَّكٌ: فيه مِسك، والمِسْك: ضرب من الطِّيب. مُصَنْدَلٌ: مُطَيَّبٌ بالصَّنْدل، والصَّنْدَلُ شجر طيب الرائحة. لسان العرب (كدر) و(زخر) و(مسك) و(صندل).
(٨) السَّحابُ: جمع سَحَابة وهي الغيم الممطر. المُسْبَلُ: الممطر؛ يقال: أسبلت السماءُ والمطر والدمع إذا هطل. محيط المحيط (سحب) و(سبل).

وكأنّ نُورَ السُّرْجِ مِنْ جَنَبَاتِهِ زُهْرُ الكواكب تَحْتَ لَيْلٍ أَلْيَلِ[1]
مِثْلُ الرياضِ مُفَتّقًا أنوارُهُ تبدو لِعَيْنٍ مُشَبِّهٍ ومُمَثِّلِ

وقول ابن الصاحب: [مجزوء الكامل]

فَرِحَ الأَنَامُ[2] بِنِيلِهِمْ إذ صار أحمرَ كالشَّقِيقِ
وتَبَرَّكُوا بشروقِهِ فكأنه وادي العقيقِ[3]

وقول آخر: [المجتث]

إِحْمَرَّ لِلنِّيلِ خَدٌّ حتى غَدَا كالشقيقِ
وقد تَرَنَّمْتُ فيه إذ صارَ وادي العقيق

ثم شَمَّرْتُ عن ساعد العَزْمِ بعد الإقامة بمصر مدّة قليلة، إلى المهمّ الأعظم والمقصد الأكبر الذي هو سِرُّ المطَالب الجليلة، وهو رؤية الحرمين الشريفين، والعَلَمَين المنيفين، زادهما اللّه تنويهًا، وبَلَّغَ النفوسَ ببركة مَنْ شَرُفَا به مآرب لم تزل تنويهًا، فسافرْتُ في البحر إلى الحجاز، راجيًا من اللّه سبحانه في الأجْر الانتجاز، إلى أن بلغْتُ جدة، بعد مكابدة خطوب اتّخذْتُ بها من الصبر عُدّة، فحين حصل القُرْب، واكتحلتِ العينُ بإثمد[4] تلك التُّرْب، تَرَنَّمْتُ بقول مَن قال، محرّضًا على الوَخْد والإرقال[5]: [البسيط]

بَدَا لكَ الحَقُّ فاقْطَعْ ظَهْرَ بَيْدَاءِ[6] واهْجُرْ مَقَالَةَ أَحْبابٍ وأعْدَاءِ
واقْصِدْ على عَزْمَةٍ أرضَ الحجازِ تجِدْ بُعْدًا عن السُّخْطِ في نُزْلِ الأَوِدَّاءِ[7]

---

(١) السُّرُجُ: جمع سِراج وهو المصباح الزاهر. الليلُ الأَلْيَلُ: الطويل الشديد الصعب، وقيل: أشد ليالي الشهر ظلمة. لسان العرب (سرج) و(ليل).
(٢) الأَنَام، بالفتح: الخَلْقُ. محيط المحيط (أنم).
(٣) العقيق: لا نعلم أيّ عقيق أراد؛ لأنّ في بلاد العرب أربعة أعِقّة؛ هي عقيق اليمامة، وعقيق المدينة، وعقيق بلاد مزينة، وعقيق البصرة. والعقيق هو وادٍ عادي شَقَّتْهُ السيول. معجم البلدان (جـ ٤ ص ١٣٨).
(٤) الإثمِدُ: حجرٌ يُكْتَحَلُ به. مختار الصحاح (ثمد).
(٥) الوَخْدُ: السرعة؛ يقال: وَخَدَ البعيرُ يَخِدُ إذا أسرع. الإرقال: ضرب من الخَبَب؛ يقال: أرْقَلَ الرجلُ إذا أسرع. محيط المحيط (وخد) و(رقل).
(٦) البَيْداءُ: المَفازَةُ، والجمع بِيدٌ. مختار الصحاح (بيد).
(٧) الأَوِدّاءُ: جمع وَدِيد وهو المُحِبّ. محيط المحيط (ودد).

وقُلْ إذا تِلْتَ من أُمِّ القرى[1] أرَبًا ... وَهْوَ الوُصُولُ بإسرارٍ وإبداء
يا مكةَ اللّهِ، قد مَكَّنتِ لي حَرَمًا ... مُؤَمَّنًا لستُ أشكو فيه من داء
فَمُذْ رأى النازحُ المسكينُ مَسْكَنَهُ ... في قُطْرِكِ الرَّحْبِ لم يُنْكَبْ بأرزاء
شَوْقُ الفؤادِ إلى مَغْناكِ[2] مُتَّصلٌ ... شَوْقُ الرياضِ إلى طَلٍّ وأنداءِ

ثم أنشدت، عندما بَدَتْ أعلام البيت الحرام، قولَ بعض مَن غلب عليه الشوق والغرام، وقد بلغ من أمانيه الموجبة بشائره وتهانيه المرام: [البسيط]

وافَى الحجيجُ إلى البيتِ العتيق وقد ... سَجَا الدُّجَى فرأَوْا نورًا به بَزَغَا[3]
عَجُّوا عَجِيجًا[4] وقالوا: اللّه أكبرُ ما ... للجوّ مُؤْتَلِقًا بالنور قد صُبِغَا
قال الدليلُ: ألا هاتوا بشارتَكُمْ ... فَمَنْ نَوَى كعْبةَ الرحمن قد بلغا
نَادَوْا على العِيسِ بالأشواق وانتحبوا ... وحَنَّ كلُّ فؤادٍ نحوها وصَغَا[5]
وكلُّ مَن ذَمَّ فِعْلاً نالَ مَحْمدَةً ... في مكةٍ ومَحَا ما قَدْ جَنَى وبَغَى

ولما وقع بَصَري على البيت الشريف كدْتُ أغيب عن الوجود، واستشعرْتُ قول العارف بالله الشبلي[6] لما وَفدَ إلى حضرة الجود: [الخفيف]

قُلْتُ للقَلْبِ إذ تراءَى لِعَيْنِي ... رَسْمُ دارٍ لهمْ فهاجَ اشْتياقي
هذِهِ دارُهُمْ وَأنتَ مُحِبٌّ ... ما احتباسُ الدموعِ في الآماق[7]
وَالمغانِي للصَّبِّ فيها مَعَانِي ... فَهْيَ تُدْعَى مَصارعَ العُشَّاقِ
حُلَّ عَقْدَ الدموعِ وَاحلُلْ رُبَاهَا ... وَاهْجُرِ الصَّبْرَ وارْعَ حَقَّ الفِرَاقِ

ثم أكملْتُ العُمْرة، ودَعَوتُ اللّهَ أن أكون ممَّنْ عَمَرَ بطاعةِ ربِّه عمره، وذلك أوائل

---

(١) أُمّ القرى: من أسماء مكة، سُمّيت مكةُ أُمَّ القرى لأنها أقدم القرى. معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٥٤).
(٢) المَغْنَى: الموضع الذي كان به أهلوه. مختار الصحاح (غني).
(٣) سَجَا الدُّجَى: دام وسكن. الدُّجَى: الظُّلْمة. بزغ النور: ظهر، وبَزَغَتِ الشمسُ: طَلَعَتْ. مختار الصحاح (سجا) و(دجى) و(بزغ).
(٤) عَجُّوا عجيجًا: رفعوا أصواتهم أو صَوّتوا مرة بعد أخرى. مختار الصحاح (عجج).
(٥) العِيسُ، بكسر العين: الإبل. صَغَا: مال. مختار الصحاح (عيس) و(صغا).
(٦) هو الناسك المتصوّف أبو بكر دُلَف بن جَحْدَر، وقيل: جعفر، الشِّبْلي، وقد توفي ببغداد سنة ٣٣٤ هـ. تاريخ بغداد (جـ ١٤ ص ٣٨٩) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ٢٧٣).
(٧) الآماق: جمع مُؤْق وهو طرف العين مما يلي الأنف. مختار الصحاح (مأق).

ذي القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنيّة، وأقمْتُ هنالك منتظرًا وَقْتَ الحجِّ الشريف، ومتفيِّئًا ذلك الظلِّ الوَريف، ومقتطفًا ثمارَ القُرْبِ الجَنِيَّة، إلى أن جاء الأوان، فأحرمْتُ بالحجِّ من غير تَوَان[1]، وَحين حَلَلْتُ مما به أحرمت، نويت الإقامة هنالك وأبْرَمْت، فحال من دون ذلك حائل، وكنت حَرِيًا بأن أُنْشِدَ قول القائل: [الكامل]

هذي أباطحُ مكةٍ حَوْلي وَمَا ... جَمَعَتْ مَشَاعِرُها[2] من الحُرُمَاتِ
أدعُو بها لَبَّيْكَ تلبيةَ آمرئٍ ... يَرْجُو الخلاَصَ بها من الأزَمَاتِ
نِلْتُ الْمُنَى بِمِنًى لأني لم أخَفْ ... بالخَيْفِ مِنْ ذَنْبٍ أحال سِمَاتِي[3]
وعَرَفْتُ في عَرَفَاتَ أني ناشِقٌ ... للعَفْوِ عَرْفًا[4] عاطِرَ النسَمَاتِ

وأنْ أتمثَّلَ في المَطَاف، إذ حَفَّتْني الألطاف، بقول مَنْ رَبْعُهُ بالتقوى مَشِيد، البغدادي الشهير بابن رشيد[5]: [الطويل]

على رَبْعِهِمْ للَّه بَيْتٌ مُبَارَكٌ ... إليه قلوبُ الناسِ تَهْوِي وتَهْوَاه[6]
يَطُوفُ به الجاني فَيُغْفَرُ ذَنْبُهُ ... ويَسْقُطُ عنه جُرْمُهُ وخطاياه
وكم لذةٍ أو فَرْحةٍ لِطَوَافِهِ ... فللَّهِ ما أحْلَى الطوافَ وأهْنَاهُ

ثم قَصَدْنا بعد قضاء تلك الأوطار، طَيْبة[7] الشريفة التي لها الفضلُ على الأقطار،

---

(١) من غير تَوَانٍ: من غير تقصير. مختار الصحاح (ونى).

(٢) المشاعر: المعالم التي ندب اللّه إليها وأمر بالقيام عليها، جمع مَشْعَر، ومنه سُمّي المَشْعَر الحرام لأنه مَعْلَمٌ للعبادة وموضع. لسان العرب (شعر).

(٣) مِنًى، بكسر الميم: في دَرج الوادي الذي ينزله الحاجّ ويرمي فيه الجمارَ من الحرم، سُمّي بذلك لما يُمْنَى به من الدماء أي يُراق. معجم البلدان (جـ ٥ ص ١٩٨). خَيْف مِنًى: موضع، سُمّي بذلك لانحداره عن الغِلظ وارتفاعه عن السَّيْل. لسان العرب (خيف).

(٤) العَرْفُ: الريحُ طيبةً كانت أو منتنة. مختار الصحاح (عرف).

(٥) هو مجد الدين محمد بن رشيد البغدادي، ويُعْرف بالوتري؛ لأنه نظم الوتريات وهي قصائد على حروف المعجم، تتألف الواحدة منها من ٢١ بيتًا في مدح الرسول، بدأ نظمها بغرناطة سنة ٦٥٢ هـ. كشف الظنون (ص ١٩٩٩).

(٦) ضَمَّنه قول اللّه تعالى: ﴿رَبَّنا إني أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيتي بِوادٍ غَيرِ ذي زَرْعٍ عند بيتك المُحَرَّمِ، رَبَّنا ليقيموا الصلاة فاجعلْ أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارْزُقْهم من الثمرات لَعَلّهم يَشْكُرُون﴾. سورة إبراهيم ١٤، الآية ٣٧.

(٧) طَيْبَة، بفتح الطاء والباء وسكون الياء: اسم لمدينة رسول اللّه، ﷺ. معجم البلدان (جـ ٤ ص ٥٣).

واستشعرْتُ قول مَن أنشد وطَيْرُ عَزْمِهِ عَنْ أوكاره قد طار: [الطويل]

حَمِدْتُ مَرَادي[1] إذْ بَلَغْتُ مُرَادي ... بأُمِّ القُرَى مُسْتَمْسِكًا بِعِمادي
ومُذْ رَوِيَتْ مِنْ ماءِ زمزمَ غُلَّتي ... فلَسْتُ بمحتاجٍ لماءِ ثِمَادِ[2]

فللَّه سبحانه الحمدُ على نعمه التي جَلَّتْ، ومننه التي نَزَلَتْ بها النفوس مواطن التشريف وحَلَّت: [الكامل]

مَنْ يَهْدِهِ الرحمنُ خَيْرَ هِدايةٍ ... يَحْلُلْ بمكةَ كي يُتاحَ المَقْصدا
وإذا قَضَى مِنْ حَجِّه الفَرْضَ انْثَنَى ... يشفي برؤيةِ طَيْبَةٍ دَاءَ الصَّدَى

وكان حظِّي في هذه الحال تذكُّر قول بعض الوَشَّاحين من الأندلسيين الذين كان لهم ارتحال إلى تلك المعاهد الطاهرة، والمشاهد الزاهرة، التي تُشَدُّ إليها الرحال[3]:

يا مَنْ لعبدٍ له آفْتقارُ ... إلى أيادٍ له جِسَامْ
فَضْلُكَ مُذنٍ لِخَيْرِ مُذنٍ ... حَلَّ بها سَيِّدُ الأنامْ
لم يَهْفُ قلبي لِحُبِّ ليلى ... ولا سُعادٍ ولا الرَّبابْ
لاَقَىٰ شُجونًا ونَالَ وَيْلاَ ... مَنْ هامَ في ذلك الجَنَابْ
بلْ مالَ مني الفؤادُ مَيْلاَ ... لِمَنْ له الحُبُّ لا يُعابْ
قلبيَ واللَّهِ مُسْتَطارُ[4] ... مُذ حَلَّ في بَيْتِهِ الحرامْ
ذي[5] الحِجْرِ وَالرُّكْنُ خَيْرُ رُكْنِ ... وَزَمْزَم الخير وَالمَقامْ
ذابتْ قلوبُ المطيِّ عِشْقًا ... وَرَكْبِها وَاستوى المُرادْ
إلى حبيبِ القلوبِ حَقًّا ... الحيِّ وَالمَيْتِ وَالجَمَادْ

---

(١) المَرادُ، بفتح الميم والراء: العُنُق. لسان العرب (مرد). ولعله يريد أن يقول: إني حمدت اللّه على نجاتي من الموت ووصولي إلى أُمِّ القرى.

(٢) زَمْزَم: بئر مباركة مشهورة كثيرة الماء. معجم البلدان (جـ ٣ ص ١٤٧). ثِمادُ: موضع في ديار بني تميم، والماء القليل، والمراد: الماء القليل. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٨٣) ولسان العرب (ثمد).

(٣) هذه الموشحة تامّة، مؤلفة من تسعة أقفال وثمانية أبيات. وقد ابتدىء فيها بالقفل، وخرج فيها صاحبها على ما جاء به ابن سناء المُلْك في كتابه دار الطراز (ص ٣٢) من أن الموشحة التامّة تتألف من ستّة أقفال وخمسة أبيات. وانظر أيضًا توشيع التوشيح للصفدي (ص ٢١).

(٤) المُسْتَطارُ: الهائج؛ يقال: استطار فؤاده من الفزع إذا هاج. أساس البلاغة (طير).

(٥) في طبعة دار صادر: «ذا» بدل «ذي».

إلى الذي ليس فيه يَشقَى مَنْ حُبُّهُ داخلَ الفؤادْ
شَكَوْا، وَقد طالتِ السِّفارُ هُمْ ومَطاياهُمُ، السَّقامْ[1]
فَهْيَ قِسِيٌّ[2] مِنَ التثنّي والقَوْمُ من فوقها سِهامْ
وَلستُ مِنْ سَكْرَتي مُفِيقَا حتى أرى حُجْرَةَ الرسولِ
فإنْ يُسَهِّلْ ليَ الطريقا فذاكَ أقصى مُنَى وَسُولِ[3]
متى تَرَى عَيْنيَ العقيقا وَيَفْرَحُ القلبُ بالوصولِ
كم قُلْتُ وَالصَّبْرُ مُستعارُ للرَّكْبِ[4] إذ غادروا المنامْ
وَنَسْمَةُ الشَّوْقِ حَرَّكَتْني وَزادَ بي الوَجْدُ وَالغرام
قُومُوا فقد طالَ ذا الجلوسُ وَبادِرُوا زَوْرَةَ[5] الحبيبْ
تاقَتْ إلى طَيْبَةَ النفوسُ لا عَيْشَ من دونها يَطِيبْ
لا حَبَّذا دونها الغُرُوسُ وَالماءُ وَالشادنُ الرَّبِيبْ[6]
وحبذا الرَّمْلُ وَالقِفارُ وَٱلْعُرْبُ في تِلْكُمُ الخيامْ
وَأُمُّ غَيْلانَ ظَلَّلَتْني والأَيْكُ والأثلُ وَالثُّمَامْ[7]
يا طَيْبَةً، حُزْتِ كلَّ طِيبِ بِسَيِّدٍ فيكِ ذي حلولْ
نداءُ مُسْتَضْعَفٍ غريبِ في غُرِّ أمداحِهِ يقولْ
وَهْوَ من السامع المجيبِ لِمَدْحِهِ يسألُ القَبُولْ
أنتَ الغِنَى لي فلا افتقارُ وَأنتَ عِزّي فلا أُضامْ
مُسْتَمْسِكٌ منك حُسْنُ ظني بِعُرْوَةٍ ما لها انْفِصَامْ

---

(١) السَّقامُ: المرض. السِّفار، بكسر السين، مصدر سافر. القاموس المحيط (سقم) و(سفر).

(٢) القِسِيُّ: جمع قوس. محيط المحيط (قوس).

(٣) السُّؤل والسُّوْل، بالهمز وعدمه: ما سألْتَهُ، والحاجة. محيط المحيط (سأل).

(٤) الرَّكْبُ: رُكْبان الإبل. محيط المحيط (ركب).

(٥) الزَّوْرَةُ، بفتح الزاي: المرة الواحدة من زار يزور. محيط المحيط (زور).

(٦) الشادن: الظَّبْيُ إذا قوي واستغنى عن أُمه. الرَّبِيبُ: المربوب؛ يقال: رَبَّ الصَّبِيَّ أي رَبّاه. محيط المحيط (شدن) و(ربب).

(٧) أم غَيْلانَ: شجر السَّمُر، والسَّمُر: من شجر الطَّلْح. الأَيْكُ: الشجر الكثير الملتفّ، الواحدة أيكة. مختار الصحاح (غيل) و(سمر) و(أيك). الأَثْلُ، بفتح الهمزة وسكون الثاء: شجر صلب جيد الخشب. الثُّمامُ، بضم الثاء وفتح الميم: شجر، وقيل نبت معروف في البادية. لسان العرب (أثل) و(ثمم).

بِسَيِّدِ العالمينَ أجمعْ بأحمدَ المُجتَبَى الرسولْ
ومَنْ هو الشافعُ المُشَفَّعْ في موقف المَحْشَرِ المَهُولْ
إذ لا كلامٌ هناك يُسْمَعْ للغيرِ وَالناسُ في ذُهُولْ
إذِ السماءُ لها انفطارُ وَالشُّهْبُ منثورةُ النظامْ
كذا الجبالُ انْثَنَتْ كعِهْنِ[1] سريعَةَ المرِّ كالغَمَامْ
يا أولَ الرُّسْلِ في الفضيلَهْ وإنْ تأخَّرْتَ في الزَّمَنْ
شفاعةً نِلْتَ مَعْ وسيلَهْ فَمَنْ يُضاهي عُلاكَ مَنْ
عَلَتْ بكَ الرُّتْبَةُ الجليلهْ وطِبْتَ في السِّرِّ والعَلَنْ
فأنتَ مِنْ خَيْرِهِمْ خِيارُ فَمَنْ يضاهيكَ في المقامْ
والرُّسْلُ نالتْ بكَ التمنِّي وأنتَ بَدْرٌ لهمْ تَمامْ
الوجْدُ قد قَرَّ في فؤادي فما لِصَبْرٍ به قرارْ
ولاعِجي[2] صاعدُ اتِّقاد ودَمْعُ عيني له انهمارْ
وها أنا جئتُ من بلادي لِطَيْبَةٍ أبتغي الجوارْ
فَحَبَّذا تِلْكُمُ الديارُ والمُصْطَفَى مِسْكَةُ الختامْ
عليه أزكى الصلاةِ مني وصَحْبِهِ الغُرِّ والسَّلامْ[3]

وقول أبي جعفر الرُّعَيْني الغرناطي[4] ـ رحمه الله تعالى ـ وهو من التشريع[5]، أحَدِ أنواع البديع: [الكامل]

يا راحلاً يَبْغي زيارةَ طَيْبَةٍ نِلْتَ المُنَى: بزيارةِ الأخيَارِ
حَيِّ العقيقَ إذا وصلْتَ وصِفْ لنا وادي مِنًى: يا طيِّبَ الأخبارِ

(١) العِهْن، بكسر العين وسكون الهاء: الصُّوفُ. مختار الصحاح (عهن).
(٢) اللاعج: المحرق؛ يقال هوًى لاعج لحرقة الفؤاد من الحب. محيط المحيط (لعج).
(٣) تفعيلات هذه الموشحة على البحر البسيط.
(٤) أبو جعفر الرُّعَيْني الغرناطي هو أحمد بن يوسف بن مالك: رافَقَ ابنَ جابر الأعمى إلى المشرق، فقَدِمَ القاهرة، وأقام بحلب نحو ثلاثين سنة. توفي قبل ابن جابر، وذلك سنة ٧٧٩ هـ. بغية الوعاة (ص ١٤، ١٧٦). وسيترجم له المقري في الجزء الثالث من نفح الطيب، رقم ٣٠٣.
(٥) التشريع عند أهل البديع أنْ يبني الشاعرُ بيته على قافيتين يصحُّ الوقوف على كل واحدة منهما، وفي هذه الأبيات قافيتان؛ قافية النون المفتوحة، وقافية الراء المكسورة. محيط المحيط (شرع).

وإذا وَقَفْتَ لدى المُعَرَّفِ داعيًا   زال العَنا[1]: وظَفِرْتَ بالأوطارِ

ولـمَّا مَنَّ اللَّهُ تعالى علينا بالحلول في المشاهد التي قام الدين بها وظهر، والمعاهدِ التي بانَ الحقُّ فيها واشتهر، والمواطنِ التي هَزَمَ اللَّهُ تعالى حزبَ الشيطان فيها وقهر، ونُصِرَتِ النبوّةُ وعُضِدَتْ، وقُطِعَتْ غصونُ الكُفْر وحُصِدَتْ، ورُصَّتْ قواعدُ التوحيد ونُضِدَتْ، وقرَّتِ العيون، وقُضِيَتِ الديون، أنشد لسان الحال، قول بعض مَنْ جيدُه بمحاسن طَيْبَةَ حال: [البسيط]

يا مَنْ له طَيْبَةٌ طابَتْ حُلًى وعُلًى   ومَنْ بتشريفه قد شُرِّفَ العَرَبُ
يا أحمدُ المصطفى، قد جِئْتُ من بلَدٍ   قاصٍ ولي خَلَدٌ قاسٍ ولي أرَبُ
وقَدْ دَهَتْني ذنوبٌ قلْتُ إذْ عَظُمَتْ   للّه منها وطَهَ المرتَجَى الهَرَبُ

ونَسِينا بمشاهدة ذلك الجناب ما كُنّا فيه، وسَبَقَ الدمعُ الذي لا يعارضُ الفرحَ ولا ينافيه[2]: [الخفيف]

أيها المُغْرَمُ المَشُوقُ، هَنِيئًا   ما أنالُوكَ مِنْ لذيذِ التلاقي
قُلْ لعينيكَ تَهْمِلاَنِ سُرُورًا   طالما أسْعَداكَ يَوْمَ الفراقِ
واجْمَعِ الوَجْدَ والسرورَ ابْتهاجًا   وجميعَ الأشجانِ والأشواقِ
وأْمُرِ العَيْنَ أنْ تفيضَ انْهِمالاً   وتُوالي بِدَمْعِها المُهَرَاقِ
هذه دارُهُمْ وأنتَ مُحِبٌّ   ما بقاءُ الدموعِ في الآماق

ومِلْنَا عن الأكوار[3]، وثَمِلْنا من عَرْف تلك الأنجاد والأغوار، وتَمَلَّيْنا من هاتِيك الأنوار، وتخلَّيْنا عن الأغيار، وتحلَّيْنا بحُلَى الأخيار، وكيف لا وطَيْبَةُ مركزٌ للزوّار: [الطويل]

إذا لم تطبْ في طَيْبَةٍ عند طَيِّبِ[4]   به طَيْبَةٌ طابَتْ فأين تَطِيبُ
وإن لم يُجِبْ في أرضها ربُّنا الدُّعا   ففي أيِّ أرضٍ للدعاءِ يُجِيبُ

---

(١) أصل القول: العناء، وقد حذف الهمزة مراعاة للقافية.
(٢) قد تكون هذه الأبيات للشبلي ضمن الشعر الذي تقدّم، والبيت الأخير هنا هو البيت الثاني من أبيات الشبلي مع اختلاف يسير عمّا هنا.
(٣) الأكْوارُ: جمع كُور وهو الرَّحْلُ بأداته. مختار الصحاح (كور).
(٤) الطَّيِّبُ: خلاف الخبيث. محيط المحيط (طيب).

أيا ساكني أكنافَ طَيْبَة، كلّكم   إلى القلبِ من أجلِ الحبيبِ حبيبُ

وما أحسن قول عالم الأندلس المالكي اللبيب، عبد الملك السُّلَمي المشهور بابن حبيب[1]: [الكامل]

لِلَّه دَرُّ عِصابةٍ صاحَبْتُها   نحو المدينة تقطعُ الفَلَواتِ
ومهامِهٍ قد جُبْتُها ومفاوزٍ[2]   ما زلْتُ أذكرها بطول حياتي
حتى أَتَيْنا القَبْرَ قَبْرَ محمدٍ   خَصَّ الإله محمدًا بِصَلاةٍ[3]
خَيْرُ البَرِيَّةِ والنبيُّ المُصْطَفَى   هادي الوَرَى لِطَرائِقِ الجنّاتِ[4]
لَمّا وَقَفْتُ بقربه لسلامه   جادتْ دموعي واكِفَ العَبَراتِ
ورأيْتُ حُجْرَتَهُ وموضعَهُ الذي   قد كان يدعو فيه في الخَلَواتِ
مَعَ روضةٍ قد قال فيها: إنها   مُشْتَقَّةٌ مِنْ روضةِ الجَنّاتِ
وبمنزلِ الأنصارِ وَسْطَ قِبابِهِمْ   بَيْتُ الهدايةِ كاشِفُ الغَمَراتِ
وبطَيْبَةٍ طابوا ونالوا رحمةً   مغنى الكتابِ ومُحْكَمِ الآياتِ
وبقبرِ حمزةَ والصحابةِ حوله   فاضتْ دموعُ العينِ مُنْهَمِرَاتِ
سَقْيًا لتلك معاهدًا شاهدْتُها   وشَهِدْتُها بالخَطْوِ واللحظات
لا زلْتُ زوّارًا لقبرِ نَبِيِّنا   ومدينةٍ زهراءَ بالبركات
صلّى الإله على النبيِّ المصطفى   هادي البَرِيّةِ كاشفِ الكُرُباتِ
وعلى ضجيعَيْهِ السلامُ مُرَدَّدًا   ما لاحَ نورُ الحقّ في الظُّلمات

وقول كمال الدين ناظر قوص[5]: [الطويل]

---

(١) هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمي، إمام في النحو واللغة والعروض والفقه والحديث، توفي بقرطبة سنة ٢٣٨ هـ، وقيل ٢٣٩ هـ. البيان المغرب (جـ ٢ ص ١١٠) وجذوة المقتبس (ص ٢٨٢)، وبغية الملتمس (ص ٣٣٧) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٤٥٩) وبغية الوعاة (ص ٣١٢)، وسيترجم له المقري في الجزء الثاني من نفح الطيب.

(٢) المَهَامِهُ: جمع مَهْمَه وهو المفازة البعيدة. المفاوز: جمع مفازة. مختار الصحاح (مهمه) و(فوز).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «بِصِلاتٍ».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «لِطَرائقِ لنجاةٍ».

(٥) هو أحمد بن عبد القوي بن عبد الله بن شدّاد الربعي، ناظر قُوص ورئيسها في زمنه، وكان له مشاركة =

أَنِـخْ، هذه والحمدُ للّه يَثْرِبُ[1] فَبُشراكَ قد نِلْتَ الذي كُنْتَ تطلبُ
فَعَفِّرْ بهذا التُّرْبِ وَجْهَكَ، إنه أَحَقُّ به من كلِّ طِيبٍ وأَطْيَبُ
وقَبِّلْ رُبُوعًا حَوْلَها قد تَشَرَّفَتْ بِمَنْ جاوَرَتْ، والشيءُ بالشيءِ يُحْبَبُ
وسَكِّنْ فؤادًا لم يزلْ باشْتياقِهِ إليها على جَمْرِ الْغَضَا يَتَقَلَّبُ[2]
وكَفْكِفْ دموعًا طالما قد سَفَحْتَهَا وبَرِّدْ جَوًى[3] نِيرانُهُ تتلهَّبُ

وقول الرُّعَيْني الغرْناطي[4]: [الخفيف]

هـذه روضةُ الرسولِ فَدَعْني أبذلُ الدمعَ في الصعيدِ السعيدِ
لا تَلُمْني على انْسكابِ دموعي إنّما صُنْتُها لهذا الصَّعيدِ

ولما سَلَّمْتُ على سيدِ الأنام، عليه من اللّه أفضلُ الصلاة وأزكى السلام، ذُبْتُ حياءً وخجلاً، لِمَا أنا عليه من ارتكاب ما يقتضي وَجَلاً، غير أني توسَّلْتُ بجاهه ﷺ في أن أكون ممَّنْ وَضَحَ له وجهُ الصفح وجَلاً: [مجزوء الوافر]

إليك أفِرُّ مِنْ زَلَلي فِرارَ الخائفِ الوَجِلِ[5]
وكان مزارُ قبركَ بالـ ـمدينةِ مُنْتَهَى أملِي
فوفَّى اللّهُ ما طَمَحَتْ له نَفْسي بلا خَلَلِ
فخذْ بيَدَيْ غريقٍ في بحارِ القول والعملِ
وَهَبْ لي منكَ عارِفَةً[6] تُعَرِّفُ ما تَنَكَّرَ لي
وَتَهْديني إلى رَشَدي وتَمْنَعُني مِنَ الزَّلَلِ
وتَحْمِلُني على سَنَنٍ يؤمِّنُني من الوَجَلِ[7]

= في الأدب. توفي سنة ٦٨٦ هـ. ترجمته وأبياته هذه في النجوم الزاهرة (جـ ٩ ص ٢١٤) والدرر الكامنة (جـ ١ ص ١٩٣).

(١) يَثْرِبُ، بفتح الياء وسكون الثاء وكسر الراء: مدينة رسول اللّه، ﷺ. معجم البلدان (جـ ٥ ص ٤٣٠).
(٢) جَمْرُ الغَضَا: الجمر الذي يبقى زمانًا طويلاً لا ينطفىء. محيط المحيط (غضا).
(٣) الجَوَى: الحُرْقَةُ وشدّة الوَجْد. مختار الصحاح (جوى).
(٤) تقدّمت ترجمته.
(٥) في طبعة دار صادر: «الخَجِلِ» بدل «الوَجِلِ».
(٦) العارفة: المعروف. مختار الصحاح (عرف).
(٧) السَّنَنُ، بالفتح: الطريقة. الوَجَلُ، بالفتح: الخوف. مختار الصحاح (سنن) و(وجل).

فأنتَ دليلُ مَنْ عَمِيَتْ   عليه مسالكُ السُبُلِ
وإنكَ شافِعٌ بَرٌّ   وَمَوْئِلُنا من الوَهَلِ[1]
وإنك خَيْرُ مُبْتَعَثٍ   وإنكَ خاتَمُ الرُسُلِ
فيا أزكى الوَرَى شرفًا   وشافيهم مِنَ العِلَلِ
ويا أندى الأنام يدًا   وأكرمَ ناصرٍ ووَلِي
نداءَ مُقَصِّرٍ وَجِلٍ   بثوبِ الفَقْرِ مُشْتَمِلِ
على جَدْوَاكَ معتمدي   فأنقذني من الدَّخَلِ[2]
وألحِقْني بِجَنَّاتٍ   لدى درجاتها الأُوَلِ
بصدّيقٍ وفاروقٍ   وعثمان الرِّضَى وَعلي
فأنت مَلاذُ مُعْتَصِمٍ   وأنتَ عِمادُ مُتَّكِلِ
عليك صلاةُ رَبِّكَ جَلْـ   ـلَ في الغَدَواتِ والأصُلِ

ومذ شَمَمْنا من أَرَجِ تلك الأرجاء الذاكية، واسْتَضَأْنا بسُرُجِ تلك الأضواء الزاكية، ظَهَرَ مِنَ الشوقِ ما كان بَطَن، ولم يخطر ببالنا سَكَنٌ ولا وَطَن، ويا سعادة مَن أقام بتلك البقاع الشريفة وقَطَن: [من المخمسات]

مَرَّ النسيمُ برَبْعِهِمْ فَتَلَذَّذَا   حتى كأنَّ النَّشْرَ صار له غِذَا[3]
فَصَحَا وصَحَّ وصاحَ لا أشكو أذى   قُلْ للصَّبَا ماذا حَمَلْتِ من الشَّذَا
أَمَسِسْتِ طِيبًا أم عَلاكِ عبيرُ

يا أيها الحادِي الذي مِنْ وَسْمِهِ   قَصْدُ الحبيب وأن يُلِمَّ بِرَسْمِهِ
هذي منازلُهُ فَزَمْزِمْ باسْمِهِ   بأبي الذي لم تَذْوَ زهرَةُ جِسْمِهِ
لكنه غَضُّ الجمالِ نضيرُ

لله شَوْقٌ قد تجاوزَ حَدَّهُ   أوْفَى على الصَّبْرِ المَشِيدِ فَهَدَّهُ
يا ناشِقَ الكافورِ لا تَتَعَدَّهُ   طُوبَى لِمُشْتاقٍ يُعَفِّرُ خَدَّهُ

---

(١) الوَهَلُ: الفزع. لسان العرب (وهل).
(٢) الدَّخَلُ: بالفتح: العيب. لسان العرب (دخل).
(٣) النَّشْرُ: الرائحة الطيبة. مختار الصحاح (نشر). غذا: أصل القول: غذاء، وقد حذف الهمزة مراعاة للرويّ.

فـي روضـةِ الـهـادي إلـيـه يـشـيـرُ

فهناك يبذلُ في التوسّلِ وُسْعَهُ ويُصيخُ[1]نحو خطيبِ طَيْبَةَ سَمْعَهُ
ويُرِيقُ فوق حَصَى المُصَلَّى دَمْعَهُ ويَرَى معالـمَ مَنْ يُحِبُّ وَرَبْعَهُ

ومـحـمـدٌ لـلـعـالـمـيـن بَـشِـيـرُ

صلّى عليه اللّهُ خيرَ صلاتِهِ وحَبَا معالِيَهُ جليلَ صِلاتِهِ
ما حَنَّ ذو الأشواقِ في حالاتِهِ وأتـى مَـغَـانِـيَـهُ عـلـى عِـلاّتِـهِ

فأُتِيحَ حُسْنَ الختم وهو قريرُ

ووقفنا بباب طلب الآمال خاشعين، وتوسَّلْنا إلى اللّه بذلك المقام العليِّ خاضعين، وغَبَطْنا قومًا سكنوا هنالك فكانوا لخدودهم متى شاءوا على تلك الأعتاب واضعين: [من المخمسات]

أَكْرِمْ بعبدٍ نحو طَيْبَةَ منتدي[2] مُتَوَسِّلٍ مُسْتَشْفِعٍ مُسْتَرْشِدِ
يَفْلي الفَلاةَ لها بِعَزْمٍ أَيِّدِ[3] وافى إلى قبرِ النبيِّ محمدِ

ولِـرَبْـعِـهِ الأسـمـى يَرُوحُ ويَـغْـتَـدي

أزْجَاهُ[4] صادقُ حُبِّهِ المُتَمَكِّنِ وحَداهُ سائقُ عَزْمِهِ المُتَعَيِّنِ
فَحَكَى لَدَى شَجْوِ حَمامَ الأَغْصُنِ هَزجًا يُرَدِّدُ فيه صَوْتَ مُلَحِّنِ

ويَـمُـدُّ لـلإطـرابِ صَـوْتَ الـمُـنْـشِـدِ

ويـقـول جِـئْـتُ بـعـزمـةٍ نَـزَّاعَـةٍ ونَـهَـضْـتُ والدنيا تَـمُرُّ كساعةٍ
لِـمَـحَـلِّ أحـمـدَ قـائـلاً بـإذاعةٍ هذا النبيُّ المُرْتَجَى لِشَفاعةٍ

يـومَ الـقـيـامـةِ بـيـن ذاك الـمـشـهـدِ

هـذا الـرؤوفُ بـجـارِهِ وَنَـزِيـلِـهِ هـذا سِـراجُ الـلّـهِ فـي تـنـزيـلِـهِ

---

(١) أصاخَ يُصيخ إصاخةً: استمع وأصغى. محيط المحيط (أصاخ).
(٢) في طبعة دار صادر: «مسندِ».
(٣) يفلي الفلاة: يَشقُّها، والفلاة: الصحراء الواسعة. محيط المحيط (فلا). العَزْمُ الأَيِّدُ: القويّ. مختار الصحاح (أيد).
(٤) أزجاه: ساقه. مختار الصحاح (زجا).

هذا الذي لا رَيْبَ في تفضيلِهِ　　هذا حبيبُ اللَّهِ وَابْنُ خليلِهِ

هذا ابنُ باني البيتِ أوَّلِ مَسْجِدِ

هذا الذي اصْطَفَتِ النُّبُوَّةُ خِيمَهُ　　هذا الذي اعْتامَ الهُدَى تقديمَهُ[1]

هذا الذي نُسْقَى غدًا تَسْنِيمَه　　هذا الذي جبريلُ كان خَدِيمَهُ[2]

في حضرة التشريفِ أزكى مَصْعَدِ

هذا الذي شَهِدَ الوجودُ بخصِّهِ　　بِمَزِيَّةِ التفضيلِ من مُخْتَصِّهِ

وَأبانَهُ مِنْ وَحْيِهِ في نَصِّهِ　　هذا الذي ارتفعَ البراقُ بشخصِهِ

في ليلة الإسراء أشرفَ مَشْهَدِ

هذا الذي غَدَتِ الطلولُ حديقةً　　بِجِوارِهِ وَغَدَتْ تروقُ أنيقةً

هذا المُكَمَّلُ خِلْقَةً وخليقةً　　هذا الذي سَمِعَ النداءَ حقيقةً

ودَنَا ولم يَكُ قَبْلَ ذاك بِمُبْعَدِ

فهناك كم رُسُلٍ به نَتَوَسَّلُ　　وَعلى حِماهُ لدى المعادِ يُعَوَّلُ

يا أرْحَمَ الرُّحَماءِ أنتَ المَوئِلُ　　يا خاتَمَ الإرسالِ أنت الأولُ

فَتَرَقَّ في أعلى المكارم وَاصْعَدِ

اللَّهُ رَفَّعَ في سُرَاهُ[3] مَنَارَهُ　　وَأبانَ في السَّبْعِ العُلاَ أنوارَهُ

فَقَفَتْ ملائكة السما آثارَهُ[4]　　وَأراهُ جَنَّتَهُ هناك وَنارَهُ

فَمُؤَبَّدٌ ومُخَلَّدٌ لِمُخَلَّدِ

كم ذادَ مِنْ وَجَلٍ وجَلَّى ظُلْمَةً[5]　　وامْتَنَّ بالرُّحْمَى ومَتَّنَ حُرْمَةً

لَمَّا دَجا أُفُقُ الضَّلالَةِ دُهْمَةً　　بَعَثَ الإلهُ به لِيَرْحَمَ أُمَّةً

لولاه كانت بالضلالةِ ترتدي

---

(١) الخِيْمُ، بكسر الخاء وسكون الياء: الطبيعة والسجيّة. إعْتامَهُ: إختاره. محيط المحيط (خيم) و(عيم).

(٢) التَّسْنِيمُ: ماء في الجنة، سمّي بذلك لأنه يجري فوق الغرف والقصور. مختار الصحاح (سنم).

(٣) السُّرَى: السير ليلاً. مختار الصحاح (سرا).

(٤) قَفَا أثَرَهُ: اتَّبَعَهُ. مختار الصحاح (قفا).

(٥) ذادَ الوَجَلَ: طَرده، والوَجَلُ: الخوف. مختار الصحاح (ذود) و(وجل).

حازَ الشُّفُوفَ[1] فكلُّ خَلْقٍ دُونَهُ فالغَيْثُ يَسْأَلُ إذ يَسِيلُ يمينَهُ
والشمسُ تستهدي الشروقَ جبينَهُ واللّـهُ فَضَّلَهُ وأظهرَ دينَهُ

ووَفَى لنا فيه بِصِدْقِ المَوْعِدِ

نُطْقِي يُغادي ذِكْرَهُ ويُراوِحُ وبه يُنافِحُ مِسْكَه ويُنافِحُ
تُغْيِي اللسانَ محامِدٌ ومَمَادِحُ طُوبَى لمَن قد عاش وَهْوَ يُكافِحُ

عنه يناضلُ باللسان وباليَدِ

هو صَفْوَةُ العَرَبِ الألى أحسابهمْ أسيافُهُمْ قُرِنَتْ بها أسبابُهُمْ
فهُمُ لُبَابُ المَجْدِ وَهْوَ لُبَابهمْ من آلِ بيتٍ لم تزل أنسابُهُمْ

تُنْبي لهمْ عن طِيبِ عنصُرِ مَوْلِدِ

شَرَفُ النُّبُوَّةِ قد رسا في أهلها وسما على الزُّهْرِ العُلاَ بِمَحَلِّها
ساقَ السوابقَ للفخارِ برُسْلِهَا نَطَقَ الكتابُ كما عَلِمْتَ بفضلِها

وقضى به نَصُّ الحديثِ المُسْنَدِ

فَوْقَ السِّماكِ[2] تَوَطَّنَتْ وتَوَطَّدَتْ وتَفَرَّدَتْ بالمُصْطَفَى وتَوَحَّدَتْ
فهي الخُلاصَةُ صُفِّيَتْ فَتَجَرَّدَتْ مِنْ مَعْدِنٍ فيه الرسالةُ قد بَدَتْ

مِنْ عصر آدَمِنَا لعصرِ محمدِ

طالوا فلم يُبْقوا لِمَجْدٍ مَصْعَدَا صالوا ففي أيمانهمْ[3] حَتْفُ العِدَا
سُئِلوا فهمْ لعُفَاتهمْ غَيْثُ الْجَدَا أهلُ السقايةِ والرفادةِ والنَّدَى[4]

والكَعْبَةِ البيتِ الحرامِ المقصدِ

المطعمونَ وقد طَوَى ألَم الطَّوَى[5] الناهضون إذا الصريخُ لهمْ نَوَى

---

(١) الشُّفُوفُ: جمع شُفّ، بكسر الشين أو ضمّها، وهو الفضل. محيط المحيط (شفف).
(٢) السِّماكُ: الكوكب، وهناك سِماكانِ وهما كوكبان نَيِّران. محيط المحيط (سمك).
(٣) الأيمان: جمع يمين وهو القوة. مختار الصحاح (يمن).
(٤) في طبعة دار صادر: «سألوا» بدل «سئلوا». والعُفاة: جمع عافٍ وهو طالب المعروف. الجَدا، بالفتح: العطيّة. النَّدَى، بالفتح: الجود. مختار الصحاح (عفا) و(جدي) و(ندا).
(٥) الطَّوَى: الجوع. محيط المحيط (طوي). وفي طبعة دار صادر: «المَرْيَ الطَّوَى» بدل «ألَم الطَّوَى».

العاطفونَ إذا الطريقُ بهمْ لَوَى أهلُ السِّداتِةِ والحِجابة واللِّوَى[1]

أهلُ المقامِ وزمزمٍ والمَسْجِدِ

المصلحونَ إذا الجموعُ تخاذَعَتْ[2] المنجحونَ إذا المساعي دافَعَتْ

الدافعونَ إذا الأعادي قارعَتْ المؤثِرُونَ إذا السِّنُونَ تتابعتْ

وَفْدَ الحجيجِ بِنَيْلِ كلِّ تَفَقُّدِ

لا يقربُ الخَطْبُ المُلِمُّ مَنِيعَهُمْ لا يطرقُ الكَرْبُ المخيفُ قَرِيعَهُمْ

واللّهُ شَرَّفَ بالنبيِّ جَمِيعَهُمْ مَنْ نالَ رُتْبَتَهُمْ وحازَ صَنِيعَهُمْ

نال الشُّفُوفَ وحازَ معنى السؤددِ

حَلُّوا مِنَ الطَّوْدِ[3] الأشَمِّ بمنعةٍ في خيرِ مُعْتَصَمٍ وأسمى رِفْعَةِ

فَهُمُ بمنّةِ أَمْنِهِ في هَجْعَةٍ اللّهُ خَصَّصَهُمْ بأشرفِ بُقْعَةِ

محجوجةٍ محفوفةٍ بالأَسْعُدِ

لَمَّا أَتَيْتُ لرامةٍ أصِلُ السُّرَى من بعد قصدي مكةَ أُمَّ القُرَى

أَنْشَدْتُ جهرًا فيه أَنْثُرُ جوهرًا وإلَيْكَها يا خَيْرَ مَنْ وطىء الثَّرَى

عذراءَ تُزْري بالعَذَارَى الخُرَّدِ[4]

كلُّ الحِسانِ لِحُسْنِها قد أُدْهِشا ما مِثْلُها فِي تِرْبِهَا شادٍ نَشَا[5]

سَفَرَتْ بعزمِ ما أجدُّ وأَطْيَشا نشأتْ بطيِّ القَلْبِ وارْتَوَتِ الحَشَا

زهراءَ مَنْ يَرَها يُهِلُّ[6] ويَسْجُدِ

---

(١) في طبعة صادر: «ثوى» بدل «لوى». وسِدانَةُ الكعبة: خِدْمَتُها وتَوَلِّي أمرها. والحِجابة: السِّدانَةُ؛ والفرق بين السادنِ والحاجب أن الحاجب يَحْجُبُ وإذْنُه لغيره، والسادن يَحْجُبُ وإذْنُه لنفسه. لسان العرب (سدن).

(٢) تخاذَعَتْ: تفَرَّقَتْ؛ يقال: ذهبوا خِذَعَ مِذَعَ، أي متفرقين. محيط المحيط (خذع).

(٣) الطَّوْدُ: بفتح الطاء وسكون الواو: الجبل العظيم. مختار الصحاح (طود).

(٤) الخُرَّدُ: جمع خَرِيدَة وهي البِكْرُ التي لم تُمْسَسْ قطّ. لسان العرب (خرد).

(٥) التِّرْبُ: اللِّدَةُ والسِّنُّ، والجمع أتراب. لسان العرب (ترب). نشا: أصلها نشأ، وقد حذف الهمزة مراعاة للروي.

(٦) أَهَلَّ يُهِلُّ: رفع صوته بذكر اللّه. محيط المحيط (هلل).

أَمَّتْكَ تَشْأَى في مَدَاهَا الأَلْسُنا[1] وتُرِي إجادَتَها المُجِيدَ المُحْسِنا
تَغْدُو ولا تَثْني العِنانَ عن الثَّنَا وأَتَتْكَ تَمْرَحُ كالقضيبِ إذا انْثَنَى
مُتَرَنِّحًا بين الغصونِ المُيَّدِ[2]

قد أَعْمَلَتْ في المدح ثاقبَ ذِهْنِها ترجو الحلول لدى قرارةِ أَمْنِها
وعسى إذا غُذِيَتْ بِتُرْبَةِ عَدْنِهَا يجلو لك الإحسانُ بارعَ حُسْنِها
والحسنُ يجلوها وإنْ لم تُنْشَدِ

مدحي لخير العالمين عقيدتي ومَطِيَّتي بل طيبتي ونشيدتي
ونتيجتي وهدى اليقين مفيدتي ولئن مَدَحْتُ محمدًا بقصيدتي
فلقد مَدَحْتُ قصيدتي بمحمد

يا خَيْرَ خَلْقِ اللّهِ دعوةً[3] حائرٍ يشكو إليكَ صُرُوفَ دَهْرٍ جائر
واللّهُ يعلمُ في هَواكَ سرائري وَهْوَ الذي أرجو لعَفْوِ جرائري[4]
مُتَوَسِّلاً بجنابِكَ المتأَطِّدِ[5]

لولا حقوقٌ عُيِّنَتْ بمغاربِ لَمَكَثْتُ عندكَ كي تُتَاحَ مآربي
ويكونَ في الزرقاء[6] عَذْبُ مشاربي حتى أَحَلِّيَ مِنْ ثَرَاكَ ترائبي
وأنالَ دَفْنًا في بَقيعِ الغَرْقَدِ[7]

وعليكَ من رَبّ حَبَاكَ صَلاَتُهُ وسلامُهُ وهِباتُهُ وصِلاَتُهُ
ما أَمَّ بابَكَ مَنْ هَدَتْهُ فَلاَتُهُ لِعُلاكَ حتى زُخْرِجَتْ عِلاَّتُهُ
فأُتِيحَ حُسْنَ الختمِ دون تَرَدُّدِ

---

(١) أَمَّتْكَ: قَصَدَتْكَ. تَشْأَى: تسبق؛ يقال: شأى القومَ إذا سبقهم. محيط المحيط (أمم) و(شأي).
(٢) الغصونُ المُيَّدُ: أي التي تهتزّ؛ يقال: مادَ الشيءُ إذا تَحَرَّك. محيط المحيط (ميد).
(٣) دعوةً: مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف تقديره «أدعوك».
(٤) الجرائرُ: جمع جَرِيرَة وهي الذنب والجناية. محيط المحيط (جرر).
(٥) المُتَأَطِّدُ: الثابت؛ يقال: أَطَّدَ اللّهُ مُلْكَه إذا وَطَّده وثَبَّته. محيط المحيط (أطد).
(٦) الزرقاء: لقب السماء. محيط المحيط (زرق).
(٧) بَقِيعُ الغَرْقَدِ: مقبرة أهل المدينة. معجم البلدان (جـ ١ ص ٤٧٣).

ثم وَدَّعْتُهُ ﷺ والقَلْبُ من فراقه سقيم، ووَقَعْتُ مِنَ البُعْدِ عن تلك المعاهدِ في المُقْعِدِ المُقِيم، وأنا أرجو أن يكون شكلُ منطقي غَيْرَ عقيم[١]، وأن أُحْشَرَ في زُمْرةِ مَنْ سَلَكَ الصراطَ المستقيم[٢]: [الخفيف]

يا شفيعَ العُصاةِ أنتَ رجائي كيف يَخْشَى الرجاءُ عندكَ خَيْبَهْ
وإذا كنتَ حاضرًا بفؤادي غَيْبَةُ الجسم عنك ليست بغَيْبَهْ
ليس بالعيشِ في البلاد انتفاعٌ أَطْيَبُ العيشِ ما يكون بطَيْبَهْ

ثم عدت إلى مصر، وقد زالَ عنّي ببركته ﷺ الإِصْر[٣]، وذلك في محرم سنة ١٠٢٩، ثم قَصَدْتُ زيارة بيت المقدس في شهر ربيع من هذا العام، وقد شملتني بفضل اللّه جوائز الإنعام، وتَذَكَّرْتُ عند مشاهدة تلك المسالك الصعبة قولَ حافظ الحفّاظ ابن حجر العسقلاني[٤] ـ رحمه اللّه تعالى ـ وهو ممّا زادني في هذه الزيارة رغبة: [الوافر]

إلى البيتِ المُقَدَّسِ جِئْتُ أرجو جِنانَ الخُلْدِ نُزلاً مِنْ كريمِ[٥]
قَطَعْنا في مسافته عِقَابًا وما بعد العِقَابِ سوى النعيمِ[٦]

فلما دَخَلْتُ المسجدَ الأَقْصَى، وأبْصَرْتُ بدائِعَهُ التي لا تُسْتَقْصَى، بَهَرني جمالُه الذي تجلّى اللّهُ به عليه، وسألْتُ عن مَحَلِّ المِعْراجِ الشريف فأُرْشِدْتُ إليه، وشاهدْتُ مَحَلاً أَمَّ فيه ﷺ الرُسُلَ الكرامَ الهُداة، وكان حقّي أنْ أُنْشِدَ هنالك ما قاله بعضُ الموفقين وهو مما ينبغي أنْ تزمزم به الحُدَاة: [مجزوء الكامل]

إن كنتَ تسألُ أين قَدْ رُ محمدٍ بَيْنَ الأَنامْ

---

(١) شكلُ منطقي غَيْر عقيم: أي إنه غير غامض، ينفع ويَرُدُّ خَيرًا، ولعلّه يريد أنه غير عقيم في الدنيا وفي الآخرة؛ يقال: عَقْلُ صاحب الدنيا فعقيمٌ، وعقل صاحب الآخرة فمثمرٌ. لسان العرب (عقم).
(٢) الأبيات في خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٥).
(٣) الإِصْرُ، بكسر الهمزة وسكون الصاد: الذنب. مختار الصحاح (أصر).
(٤) هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العَسْقلاني، من أئمة العلم والتاريخ والأدب والشعر. توفي بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ. الأعلام (جـ ١ ص ١٧٨ ومصادر حاشيته).
(٥) الجِنان: جمع جَنّة وهي الحديقة. النُزْل، بضم النون وسكون الزاي: ما يُهَيّأُ للضَّيْف. محيط المحيط (جنن) و(نزل).
(٦) العِقاب الأولى: جمع عَقَبَة وهي مَرْقًى صعب من الجبال. العِقابُ الثانية: العقوبة والجزاء بالشرّ. محيط المحيط (عقب).

فـأصِـخْ إلـى آيـاتـه   تَـظْـفَـرْ بِـرِيِّـكَ فـي الأُوامْ[١]
أكْـرِمْ بـعـبـدٍ سَـلَّـمَـتْ   تـقـديـمَـهُ الـرُّسُلُ الـكِـرامْ
فـي حـضـرةٍ لـلـقُـدْسِ وا   فَـاهَـا بـعِـزٍّ واحـتـرامْ
صُـفُّـوا وصَـلَّـوْا خَـلْـفَـهُ   إنَّ الـجـمـاعـةَ بـالإمـامْ
لـلـشُّـهْـبِ نُـورٌ بَـيِّـنٌ   والـفَـضْـلُ لـلـقَـمَـرِ الـتَّـمـامْ[٢]
سِـلْـكُ الـنُّـبُـوَّةِ بـاهِـرٌ   وبـأحـمـدٍ خُـتِـمَ الـنـظـامْ
هـذا الـكـتـابُ دلالـةٌ   تَـبْـقَـى إلـى يـومِ الـقـيـامْ
شَـهِـدَتْ لـه مِـنْ بَـعْـدُ: عَـجْـ   ـزِ أَلْـسُـنُ الـلُّـدِّ الـخِـصامْ[٣]
خَـيْـرُ الـوَرَى وأجَـلُّ آ   يـاتٍ لـه خَـيْـرُ الـكـلامْ
فـعَـلَـيْـهِ مِـنْ رَبِّ الـوَرَى   أزكـى صـلاةٍ مَـعْ سـلامْ

وربما يقول مَن يقف على سَرْدِ هذه الأمداح النبوية: إلى متى وهذا المَيْدان تكلُّ فيه فرسان البديهة والرَّوِيَّة؟ فأُنْشِدُهُ في الجواب، قولَ بعض مَن أَمَّ نَهْجَ الصَّواب: [الرمل]

لأدِيـمَـنَّ مَـدِيـحَ الـمُـصْـطَـفَـى   فِعْلَ مَنْ في اللَّه قَوَّى طَمَعَهْ
فَـعَـسَـى أَنْـعَـمُ فـي الـدنـيـا بِـهِ   وعَـسَـى يَـحْـشُـرني الـلَّـهُ مَـعَـهْ

وإذا كان القريضُ[٤] في بعض الأحيان كَذِبًا صُرَاحًا[٥]، والمُوَفَّقُ مَنْ تركه والحالة هذه رغبةً عنه وله أطَّراحا، فخيره ما كان حقًّا وهو مدح الله ورسوله، وبذلك يَحْصُلُ للعبد منتهى سُولِهِ[٦]: [الخفيف]

لـيـس كـلُّ الـقـريـضِ يَـقْـبَـلُـهُ الـسَّـمْـ   ـعُ وتُـصْـغِـي لِـذِكْـرِهِ الأفـهـامُ
إنَّ بَـعْـضَ الـقـريـضِ مـا كـان هُـزْءًا[٧]   لـيـس شـيـئًـا، وبَـعْـضُـهُ أحـكـامُ

(١) الرِّيُّ، بكسر الراء: الارتواء؛ يقال: رَوِيَ من الماء رَيًّا إذا شرب. محيط المحيط (روى). الأُوام، بضم الهمزة: حَرُّ العطش. مختار الصحاح (أوم).
(٢) الشُّهْبُ: أصل القول: الشُّهُبُ، بضمتين، وقد سكِّن الهاء لكي لا يختلَّ الوزن، جمع شِهاب وهو شعلة نار ساطعة أو أحد النجوم السبعة. لسان العرب (شهب).
(٣) اللُّدُّ، بضم اللام: جمع الألَدّ وهو الخَصْم. محيط المحيط (لدد).
(٤) القَرِيضُ: الشِّعْرُ. القاموس المحيط (قرض).
(٥) الصُّراح، بضم الصاد: الخالص من كل شيء. القاموس المحيط (صرح).
(٦) السُّؤل والسُّوْل، بالهمز وبغيره: ما يسأله الإنسان. مختار الصحاح (سأل).
(٧) في طبعة دار صادر: «إنّ بَعْضًا من القريض هراء».

وأَجَلُّ الكلامِ ما كان في مَدْ ... حِ شفيعِ الوَرَى عليه السلامُ
طَيِّبُ العَرْفِ دائمُ الذِّكْرِ لا تأ ... تي الليالي عليه والأيامُ
مِثْلُ زَهْرٍ قد شُقَّ عنه كِمَامٌ[1] ... أو كَمِسْكٍ قد فُضَّ عنه خِتَامُ
ليس تُحْصَى صفاتُ أحمدَ بالعَدِّ ... كما لم تُحِطْ به[2] الأوهامُ
ولَوَ اَنَّ البحارَ حِبْرٌ وما في الـ ... أرضِ من كلِّ نابتٍ أقلام[3]
فطويلُ المديحِ فيه قصيرٌ ... وحُسَامٌ ماضٍ لديه كَهَامُ[4]
ولسانُ البليغِ للعِيِّ يُنمى ... وكذا صَيِّبُ الفصيحِ جَهامُ[5]
كَيف يُحْصَى مديحُ مولًى عليه الـ ... لَّهُ أثنى وذِكْرُهُ مُسْتَدامُ
وله المعجزاتُ والآيُ تبدو ... لا يُغطّي وُجُوهَهُنَّ لِثَامُ
فَمِنَ المُعْجِزاتِ أنْ سار ليلاً ... وجميعُ الأنامِ[6] فيه نيام
راكبًا للبُرَاقِ[7] حتى أتى القُدْ ... سَ وفيه رُسْلُ الإلهِ الكرام
فاسْتَوَوا خَلْفَهُ صفوفًا وقالوا ... صَلِّ يا أحمدٌ فأنت الإمامُ
فعليه مِنْ رَبِّهِ صَلَواتٌ ... زاكياتٌ مَعْ صَحْبِهِ وسلامُ

ثم رَجَعْتُ إلى القاهرة، وكرَّرْتُ منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة، فدخلْتُ لهذا التاريخ الذي هو عام تسعة وثلاثين وألف مكةَ خمس مرات، وحَصَلَتْ لي بالمجاورة فيها المَسَرَّات، وأمْلَيْتُ فيها على قصد التبرّك دروسًا عديدة، واللَّهُ يجعلُ أيام العمر بالعود إليها مَدِيدة، ووَفَدْتُ على طَيْبَة المعظَّمة مُيَمِّمًا مناهجها السديدة، سبع مرار، وأطفأتُ بالعود

(١) الكِمامُ: جمع كِمامة وهي غطاء النَّور (الزَّهْر). مختار الصحاح (كمم).
(٢) في طبعة دار صادر: «بها» بدل «به».
(٣) ضمَّن هذا البيت قول اللَّه تعالى: ﴿ولو أنَّما في الأرض مِنْ شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سبعةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ اللَّه إنَّ اللَّهَ عزيزٌ حكيم﴾. سورة لقمان ٣١، الآية ٢٧.
(٤) الحُسام، بضم الحاء: السيف القاطع. السيفُ الكَهَامُ: الكليل. محيط المحيط (حسم) و(كهم).
(٥) العِيُّ: مصدر عَيِيَ؛ يقال: عَيِيَ في المنطق إذا أتى بكلام لا يُهْتَدَى له. محيط المحيط (عيي). الجَهَامُ: السحاب لا ماء فيه. الصَّيِّبُ: السحاب ذو الصَّوب (المطر). لسان العرب (جهم) و(صوب). وهو يريد أن يقول: إن شعر الذين لا يمدحون الرسول لا فائدة منه، فهو كالسحاب الذي لا ماء فيه.
(٦) الأنام، بالفتح: ما ظهر على الأرض من جميع الخَلْق. لسان العرب (أنم).
(٧) البُراقُ: دابّةٌ ركبها النبي ﷺ ليلة المِعْراج. مختار الصحاح (برق).

إليها ما بالأكباد الحرار[١]، واسْتَضَأْتُ بتلك الأنوار، وأَلْقَتُ بحضرته ﷺ بعضَ ما مَنَّ اللَّهُ به عليَّ في ذلك الجوار، وأَمْلَيْتُ الحديثَ النبويَّ بِمَرْأى منه عليه الصلاة والسلام ومَسْمَع، ونِلْتُ بذلك وغيره ـ ولله المنّة ـ ما لم يكن لي فيه مَطْمح ولا مطمع، ثم أُبْتُ إلى مصر مفوِّضًا للّه جميعَ الأمور، ملازِمًا خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور، وكان عَوْدِي من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة، فَتَحَرَّكَتْ همّتي أوائلَ رجب هذه السنة للعَوْدِ للبيت المقدس، وتجديد العهد بالمحلّ الذي هو على التقوى مؤسّس، فَوَصَلْتُ أواسط رجب، وأقمْتُ فيه نحو خمسة وعشرين يومًا بَدَا لي فيها بفضل اللّه وَجْهُ الرشد وما احتجب. وألقيت عدةَ دروسٍ بالأقصى والصخرة المنيفَة، وزُرْتُ مقامَ الخليل ومَن معه من الأنبياء ذوي المقامات الشريفة، وكنتُ حقيقًا بأنْ أُنْشِدَ قولَ ابن مَطْروح[٢]، في ذلك المقام الذي فَضْلُهُ معروفٌ وأمره مشروح: [الوافر]

خليلَ اللّه، قد جِئْناكَ نَرْجُو ... شَفَاعَتَكَ التي ليستْ تُرَدُّ
أَنِلْنَا دعوةً وأشْفَعْ تُشَفَّعْ ... إلى مَن لا يَخِيبُ لديه قَصْدُ
وقُلْ يا ربِّ أضيافٌ ووَفْدٌ ... لَهُمْ بمحَمَّدٍ صِلَةٌ وعَهْدُ
أَتَوْا يستغفرونَكَ مِنْ ذنوبٍ ... عِظامٍ لا تُعَدُّ ولا تُحَدُّ
إذا وُزِنَتْ بِيَذْبُلَ أو شَمَامِ ... رَجَحْنَ ودونها رَضْوَى وأُحْدُ[٣]
ولكنْ لا يضيقُ العَفْوُ عنهمْ ... وكيف يضيقُ وَهْوَ لهمْ مُعَدُّ
وقد سألوا رِضاكَ على لساني ... إلهي ما أُجيبُ وما أَرُدُّ
فيا مولاهُمْ عَطْفًا عليهِمْ ... فهُمْ جَمْعٌ أَتَوْكَ وأنتَ فَرْدُ

ثم استوعبْتُ أكثر تلك المزارات المباركة كمَزَار موسى الكَليم؛ على نبيِّنا وعليهم وعلى سائر المرسلين والأنبياء أجمعين أفضلُ الصلاة والتسليم، ثم حَدَثَ لي منتصفَ

---

(١) الحِرارُ: جمع الحَرَّى، مؤنث الحَرّان، أي الشديدة العطش. محيط المحيط (حرر).

(٢) هو جمال الدين أبو الحسن يحيىٰ بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح، شاعر وأديب مصري، خدم السلطان الملك الصالح أيوب، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٤٩ هـ، وقيل ٦٥٠ هـ وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٦٥٨).

(٣) يَذْبُلُ: جبل مشهور الذكر بنجد. معجم البلدان (جـ ٥ ص ٤٣٣) ولسان العرب (ذبل). شمامِ: مبني على الكسر على وزن قَطَام: جبل أشم طويل الرأس. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٣٦١). رَضْوَى: جبل بالمدينة. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٥١). أُحْدُ: الأصل: أُحُد بضم الهمزة والحاء، جبل بالمدينة، وقد سكّن الحاء لكي لا يختلّ الوزن. لسان العرب (أحد).

شعبان، عَزَمَ على الرحلة إلى المدينة التي ظهر فضلها وبان، دِمَشْقَ الشام ذات الحُسْن والبهاء والحياء والاحتشام، والأدواح[1] المتنوّعة، والأرواح[2] المتضوّعة، حيث المشاهد المكرّمة، والمعاهد المحترمة، والغُوطَةُ الغَنَّاء والحديقة، والمكارمُ التي يُبَاري فيها المرءُ شانئه وصديقه، والأظلال الوَرِيفة والأفنان الوريقة، والزَّهْرُ الذي تخاله مَبْسِمًا والنَّدَى ريقه، والقُضْبانُ المُلْدُ[3]، التي تُشَوِّقُ رائيها بجنة الخلد: [الوافر]

بحيثُ الروضُ وَضَّاحُ الثنايا   أنِيقُ الحُسْنِ مَصْقُولُ الأديمِ

وهي المدينةُ المستوليةُ على الطِّباع، المعمورةُ البِقاع، بالفضل والرباع: [الطويل]

تَزِيدُ على مَرِّ الزمانِ طَلاَوَةً[4]   دِمَشْقُ التي راقتْ بحُلْوِ المشارِبِ

لها في أقاليم البلادِ مشارق   مُنَزَّهَةٌ أقمارُهَا عن مغارِبِ

ودَخَلْتُها أواخرَ شعبان المذكور، وحُمِدَتِ الرحلةُ إليها وجَعَلَها اللّهُ من السعي المشكور: [الطويل]

وَجَدْتُ بها ما يملأ العَيْنَ قُرَّةً   ويُسْلي عن الأوطان كُلَّ غريبِ

وشاهدْتُ بعض مغانيها الحسنة، ومبانيها المُسْتَحْسَنة[5]: [الطويل]

نَزَلْنا بها نَنْوِي المُقامَ ثلاثةً   فطابَتْ لنا حتى أَقَمْنا بها شَهْرَا

ورأينا من محاسنها ما لا يستوفيه مَنْ تأنَّقَ في الخطاب، وأطال في الوصف وأطاب، وإنْ ملأ من البلاغة الوِطاب[6]، كما قلْتُ[7]: [المجتث]

محاسنُ الشام أجْلى   مِنْ أنْ تحاطَ[8] بحدِّ

---

(١) الأدواح: جمع دَوْحَة وهي الشجرة العظيمة المتّسعة. لسان العرب (دوح).

(٢) الأرواح: جمع رِيح وهو نسيم الهواء. لسان العرب (روح). المُتَضَوِّعَة: التي تَضَوَّعَتْ رائحتها أي انتشرت. مختار الصحاح (ضوع).

(٣) المُلْدُ: الناعمة، مفردها أمْلَد. محيط المحيط (ملد).

(٤) الطَّلاَوَةُ: الحسن والبهجة. محيط المحيط (طلا).

(٥) البيت لأبي نواس من قصيدة بعنوان «خمار يهودي» وجاء صدر البيت في ديوانه (ص ٦١) هكذا:
خرجنا على أنّ المُقامَ ثلاثةٌ

(٦) الوِطابُ، بكسر الواو: جمع وَطْب، وهو سِقاء اللبن. لسان العرب (وطب).

(٧) الأبيات في خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٨) في طبعة دار صادر: «تُسامَ» بدل «تُحاط». وفي خلاصة الأثر «تقاس».

لـولا حِـمَـى الـشَّـرْعِ قُـلْـنـا ولـم نَـقِـفْ عـنـد حـدٍّ:
كـأنـهـا مُـعْـجِـزاتٌ مَـقْـرُونَـةٌ بـالـتـحـدِّي

فالجامعُ الجامعُ للبدائع يَبْهرُ الفِكَر، والغُوطَةُ المنوطة بالحسن تَسْحر الألبابَ لا سيما إذا حَيَّاها النسيمُ وابتكر: [الطويل]

أحِبُّ الحِمَىٰ من أجلِ مَنْ سكن الحِمَىٰ حَـدِيـثٌ حديـثٌ فـي الْـهَـوى وقَـدِيـمُ

فللّه مرآها الجميلُ الجليل، وبيوتُها التي لم تخرج عن عَروض الخليل[1]، ومَخْبَرُها الذي هو على فضلها وفضلِ أهلها أدلُّ دليل، ومَنْظَرُها الذي ينقلب البصرُ عن بهجته وهو كَليل[2]: [الكامل]

والروضُ قد راقَ العيونَ بِحُلَّةٍ قـد حـاكَـهـا بِـسَـحَـابِـهِ آذارُ
وعلى غصونِ الدَّوْحِ خُضْرُ غلائلٍ والـزَّهْـرُ فـي أكْـمـامِـهِ أزرارُ

فكم لها من حُسْنٍ ظاهرٍ وكامن، كما قلْتُ مُوَطِّئًا للبيت الثامن: [مجزوء الكامل]

أمَّـا دمـشـقُ فَـجَـنَّـةٌ[3] لَـعِـبَـتْ بـألـبـاب الـخـلائـقْ
هِـيَ بَـهْـجَـةُ الـدُّنـيـا الـتـي مـنـهـا بـديـعُ الـحُـسْـنِ فـائـقْ
لـلّـه مـنـهـا الـصـالـحـيْـ يَـةُ[4] فـاخَـرَتْ بـذوي الـحـقـائـقْ
والـغُـوطَـةُ الـغَـنَّـاءُ حَـيْـ يَـثُ بـالـورودِ وبـالـشـقـائـقْ
والـنـهـرُ صـافٍ والـنـسـيـ ـمُ الـلَّـدْنُ[5] لـلأشـواقِ سـائـقْ
والـطـيـرُ بـالـعِـيـدان أبْـ ـدَتْ في الغِنا[6] أحلى الطرائقْ
ولآلـــيءُ الأزهـــارِ حَـــلْـ ـلَتْ جِـيـدَ غُـصْـنٍ فَـهْـوَ رائـقْ
ومَـرَاوِدُ[7] الأمْـطـارِ قـد كُـحِـلَـتْ بـهـا حَـدَقُ الـحـدائـقْ

---

(١) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، واضع علم العَرُوض، وأحد أئمة النحو واللغة والأدب. توفي سنة ١٧٠ هـ، وقيل ١٧٥ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٢٤٤).
(٢) الكليل: الضعيف؛ يقال: كَلَّ البصرُ إذا لم يحقِّق المنظور. محيط المحيط (كلل).
(٣) في طبعة دار صادر: «فَخُضْرَةٌ» بدل «فَجَنَّةٌ».
(٤) الصالحية قرية كبيرة في لحف جبل قاسيون من غُوطَةِ دمشق. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٣٩٠).
(٥) اللَّدْنُ: اللَّيِّنُ، والمراد النسيم العليل. مختار الصحاح (لدن).
(٦) أصل القول: الغِناء، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.
(٧) المَرَاوِدُ: جمع مِرْوَد وهو مِيلٌ يُكْتَحَلُ به. لسان العرب (رود).

لا زال مَغناها مَصُو نًا آمِنًا كلَّ البوائِق[1]

وكما قلت مرتجلاً أيضًا مُضَمِّنًا الرابع والخامس: [المجتث]

دمشقُ راقت رُوَاءً[2] وبهجةً وغضارَهْ
فيها نسيمٌ عليلٌ صَحَّ فوافَتْ بِشارهْ
وغُوطَةٌ كعروسٍ تُزهى بأعجب شَارَهْ[3]
يا حُسْنَها من رياضٍ مثلِ النُّضارِ[4] نَضارَهْ
كالزهرِ زهرًا وعنها عَرْفُ العبيرِ عِبَارَهْ
والجامعُ الفَرْدُ منها أعْلَى الإلهُ مَنَارَهْ
وحاصلُ القول فيها لِمَنْ أرادَ ٱخْتِصارَهْ
تَذْكِيرُها مَنْ رآها عَدْنًا[5] وحَسْبي إشاره
دامتْ تفوق سواها إنَالَةً وإنارَهْ

وكما ارتجلْتُ فيها أيضًا[6]: [الخفيف]

قال لي ما تقولُ في الشام حَبْرٌ كلَّما لاحَ بارقُ الحسنِ شَامَهْ[7]
قلتُ ماذا أقولُ في وصف قُطْرٍ هُوَ في وَجْنةِ المحاسنِ شامَهْ[8]

وقلْتُ أيضًا: [الخفيف]

قال لي صِفْ دمشقَ مَوْلًى رئيسٌ جَمَّلَ اللَّهُ خَلْقَهُ وٱحْتِشامَهْ
قُلْتُ كَلَّ اللسانُ في وصف قُطْرٍ هُوَ في وَجْنَةِ البسيطةِ شامَهْ

---

(١) البوائقُ: جمع بائقة، وهي غوائل الزمن وشرّه. محيط المحيط (بوق).
(٢) الرُّواء، بضم الراء: حسن المنظر. مختار الصحاح (رأى).
(٣) الشَّارَةُ: الهيئة. لسان العرب (شور).
(٤) النُّضارُ: الذهب. مختار الصحاح (نضر).
(٥) أي جَنّات عَدْنٍ وهي جَنّات إقامة لمكان الخلود. محيط المحيط (عدن).
(٦) هذان البيتان والأبيات التالية في خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٠٦).
(٧) الحَبْرُ: الصالح من العلماء. محيط المحيط (حبر). شامَهُ: تَطلَّعَ نحوه ببصره. مختار الصحاح (شيم).
(٨) الشامَةُ: الخال. مختار الصحاح (شيم).

وقلت أيضًا: [الكامل]

وإذا وَصَفْتَ محاسنَ الدنيا فلا ... تبدأ بغيرِ دمشقَ فيها أوّلاَ
بَلَدٌ إذا أرْسَلْتَ طَرْفَكَ نحوه ... لم تَلْقَ إلاّ جَنّةً أو جَدْولاَ
ذا وَصْفُ بَعْضِ صفاتِهِ وهْيَ التي ... تُعْيِي البليغَ[1] وإنْ أجادَ وطَوَّلا

والغاية في هذا الباب، من الوصف لبعضِ محاسنها الفاتنة الألباب، قولُ أبي الوَحْش سَبُعِ[2] بن خلف الأسدي يصف أرْضَها المشرقة، ورياضَها المورقة، ونسيمَها العليل، وزَهْرَها البَليل[3]: [الرجز]

سَقَى دمشقَ الشام غَيْثٌ مُمْرِعٌ ... مِنْ مُسْتَهِلِّ دِيمَةٍ دَفّاقِها[4]
مدينةٌ ليس يُضَاهِىٰ حُسْنُها ... في سائرِ الدنيا ولا آفاقِهَا
تَوَدُّ زَوْراءُ[5] العراقِ أنها ... تُعْزَى إليها لا إلى عِراقِها
فأرْضُها مثلُ السماءِ بهجةً ... وزَهْرُها كالزهرِ في إشراقِها
نسيمُ رَيَّا روضِها مَتَى سَرَى ... فَكَّ أخا الهمومِ مِنْ وَثَاقِهَا
قد رَبَّعَ الربيعُ في ربوعِها ... وسِيقَتِ الدنيا إلى أسواقِها
لا تسأمُ العيونُ والأنوفُ مِنْ ... رؤيتها يومًا ولا أنْتِشاقِها[6]

وقول شمس الدين الأسدي الطيبي: [الوافر]

إذ ذُكِرَتْ بقاعُ الأرض يومًا ... فَقُلْ سَقْيًا لِجِلَّقَ ثم رَعْيًا
وقُلْ في وصفها لا في سواها: ... بها ما شِئْتَ مِنْ دِينٍ ودُنْيا

وكأنَّ لسان الدين ذا الوزارتين ابْنَ الخطيب[7]، عَنَاها بقوله المصيب: [الكامل]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «صفاتها وهي التي يَعْيا البليغ...».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «سبعي». وهو سبع بن خلف الفقعسي. وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٢٤).
(٣) في طبعة دار صادر: «وزهرها النديّ البليل». وقد وردت أبيات ابن خلف الأسدي في رحلة ابن بطوطة (ص ٨٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٤) مُمْرِعٌ: مُخْصِبٌ. الدِّيمَةُ: المطر. مختار الصحاح (مرع) و(ديم).
(٥) الزَّوْراء: مدينة أبي جعفر المنصور، وهي في الجانب الغربي لبغداد، معجم البلدان (جـ ٣ ص ١٥٦).
(٦) الانتشاق: الشَّمّ؛ يقال: انتشق الرِّيحَ إذا شَمَّها. لسان العرب (شمم).
(٧) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب؛ وزير ومؤرّخ وأديب وشاعر. لقّب بذي الوزارتين؛ القلم والسيف. توفي سنة ٧٧٦ هـ. الدّرر الكامنة (جـ ٣=

بلدٌ تَحِفُّ به الرياضُ كأنّه وَجْهٌ جميلٌ والرياضُ عِذارُهُ[1]
وكأنّما واديهِ مِعْصَمُ غادةٍ ومِنَ الْجُسُورِ الْمُحْكَمَاتِ سِوَارُهُ

وكنت قبل رحلتي إليها، ووفادتي[2] عليها، كثيرًا ما أسمعُ عن أهلها زاد اللّه في ارتقائهم، ما يشوّقني إلى رؤيتها ولقائهم، ويُنْشقني على البعد أريجَ الأدب الفائق من تلقائهم، حتى لَقِيْتُ بمكة المعظمة، أَوْحَدَ كبرائها الذين فرائدهم بِلَبَّةِ[3] الدهرِ منظَّمة، عَيْنُ الأعيان، وصدرُ أرباب التفسير بها والبيان، صاحبُ القلمِ الذي طَبَّقَ الكلَى والمفاصل، والفتاوى التي حكمها بين الحق والباطلِ فاصل، والتآليفَ التي وَصْفُهَا بالإجادة من باب تحصيل الحاصل، وارثُ العِلْمِ عن غير كَلاَلَة، ذو الحسب المُشرق بَدْرُه في سماء الجلالة، صاحبُ المعارف التي زانت خِلاله، وساحبُ أذيال العَوَارِفِ التي أبانت عن[4] فضله دَلاَلَة، مُفْتي السلطان في تلك الأوطان، على مذهب الإمام النُّعْمان، مولانا الشيخ عبد الرحمن[5] ابن شيخ الإسلام عماد الدين، لا زال سالكًا سبيل المهتدين، فكان جَمَّلَ اللّهُ به عصرًا وأوانًا، لقضية هذا القياس عنوانًا، فلما حَلَلْتُ بدارهم، ورأيت ما أذهلني مِنْ سَبْقهم للفضل وبِدَارهم، صَدَّقَ الخُبْرُ[6] الخَبَرَ، وتَمَثَّلْتُ فيهم بقول بعض مَن غَبَرَ: [الطويل]

أَلَمَّتْ بنا أوصافُهمْ فامتلا الفَضَا عَبِيرًا وأضْحَىٰ نُورُهُ مُتَأَلِّقَا
وقد كان هذا مِنْ سماع حديثهمْ بلاغًا فَصَحَّ النَّقْلُ إذْ حصل اللُّقَا

= ص ٤٦٩) وتاريخ ابن خلدون (جـ ٧ ص ٦٣٧ـ ٦٣٨). وسيترجم له المقري في الجزء السابع من نفح الطيب. وقد قال ابن الخطيب هذا الشعر في وصف مدينة غرناطة، لـمّا نظر إليها، وقد حَفَّتْ بسورها البساتينُ العريضةُ والأدواح الملتفّة، بحيث صار سُورُها من خلف ذلك كأنه من دون سياج. الإحاطة في أخبار غرناطة (جـ ١ ص ١١٥). وسيرد هذان البيتان في الجزء التاسع دون تغيير عمّا هنا.

(١) العِذارُ: الشَّعر الدني يحاذي الأذن. محيط المحيط (عذر).
(٢) في طبعة دار صادر: «والوفادة عليها».
(٣) اللَّبَّةُ: وسط الصَّدْر، ولَبَّةُ القلادة: واسطتها. لسان العرب (لبب).
(٤) في طبعة دار صادر: «على فضله».
(٥) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عماد الدين، العمادي؛ مفتي دمشق، وقد توفي بها سنة ١٠٥١ هـ. خلاصة الأثر (جـ ٢ ص ٣٨٠) والأعلام (جـ ٣ ص ٣٣٢).
(٦) في طبعة عبد الحميد: «صَدّق الخَبَرَ»، أي سقطت كلمة «الخُبْرُ».

وقابلوني، أسماهم[1] اللّه، بالاحتفال والاحتفاء، وعَرَّفَني بديعُ بِرِّهم فَنَّ الاكتفاء: [الخفيف]

غَمَرَتْني المكارمُ الغُرُّ منهمْ وتوالَتْ عليَّ منها فُنُونُ
شَرْطُ إحسانِهِمْ تَحَقَّقَ عندي لَيْتَ شعري الجزاءُ كيف يكونُ

وقابلوني بالقَبُولِ مُغْضِينَ عن جهلي: [الطويل]

وما زال بي إحسانُهُمْ وجَميلُهُمْ وبِرُّهُمُ حتى حَسِبْتُهُمُ أهلي

بل الأَوْلَى أنْ أتمثَّلَ فيهم بما هو أبلغُ من هذا المقول في آل المهلَّب، وهو قول بعض مَنْ نَزَلَ بقومٍ بَرْقُ قَصْدهم غَيْرُ خُلَّب[2]، في زمن به تقلُّب[3]: [الطويل]

ولَمَّا نَزَلْنا في ظِلالِ بُيُوتِهِمْ أَمِنَّا ونِلْنا الخِصْبَ في زمنِ الْمَحْلِ[4]
ولو لم يَزِدْ إحسانُهُمْ وجميلُهُمْ على البِرِّ مِنْ أهلي حَسِبْتُهُمُ أهلي

لا سيما المولى الذي أمداحُهُ تُحلِّي أجيادَ الطُّروس العاطلة[5]، وسَمَاحُه يُخْجِلُ أنواء الغيوثِ الهاطلة، صَدْرُ الأكابِرِ الأعاظم، الحائزُ قَصَب السَّبْق في مَيْدان الإجادة بشهادة كلِّ ناثر وناظم، الصديقُ الذي بِوُدِّه أغتبط، والصَّدُوقُ الذي بأسباب عَهْدِهِ أرتبط، الأوحدُ الذي ضَرَبَتِ البراعةُ رِوَاقها بناديه، والماجدُ الذي لم يزل بديعُ البلاغة مِنْ كَثَبٍ يناديه، السَّرِيُّ الحائزُ من الخلال ما أبان تفضيله، اللَّوْذعي[6] الذي لم تزل أوصافُه تحكم له بالسؤدد وتقضي له، والحقُّ أبلجُ لا يحتاج إلى زيادة بَرَاهين، الأجلُّ المولى أحمد أفندي بن

---

(١) أسماهم: أعلاهم. محيط المحيط (أسمى).
(٢) البَرْقُ الخُلَّبُ: المُطْمِعُ المُخْلِفُ. محيط المحيط (خلب).
(٣) البيتان للقاضي الرشيد الأسواني كما جاء في الوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٢٢١) وهو أبو الحسين أحمد ابن علي ابن القاضي الرشيد بن إبراهيم بن الزبير الأسواني، عالم شاعر، توفي سنة ٥٦٣ هـ. الوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٢٢٠)، ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٦٠). ومعجم الأدباء (جـ ١ ص ٤١٦) وفيه أنه توفي سنة ٥٦٢ هـ.
(٤) في طبعة دار صادر: «زمنِ مَحْلِ».
(٥) الطُّرُوسُ: جمع طِرْس وهو الصحيفة. العاطِلَةُ: التي لا حَلْيَ عليها. محيط المحيط (طرس) و(عطل).
(٦) اللَّوذَعِيُّ: الذكيّ اللَّسِنُ الفصيح. محيط المحيط (لذع).

شاهين[1]، لا زالت العزةُ مُقيمةً بِوَادِيه، ولا بَرِحَتْ حضرتُهُ جامعةً لبواطنِ الفخر وبَوَادِيه، والسَّعْدُ يُراوحُ مقامه ويُغَاديه، والمَجْدُ يترنَّمُ بذكره حاديه، فكم له أسماه اللَّه ولغيره من أعيان دمشق لديَّ من أياد، يعجز عن الإبانة عنها لو أراد وَصْفَها قُسّ إياد[2]، ولو تَعَرَّضْتُ لأسمائهم وحُلاَهم، أدام اللَّه تعالى سؤددهم[3] وعُلاَهم، لضاق عن ذلك هذا النُّطاق، وكان مِنْ شِبْهِ التكليف بما لا يطاق، فليت شعري بأيّ أسلوب، أؤدّي بعضَ حَقِّهم المطلوب؟ أم بأي لسان، أثني على مَزَاياهم الحِسان؟ وما عسى أن أقول في قوم نَسَقُوا الفضائلَ وِلاء، وتعاطَوْا أكوابَ المحامدِ مِلاء[4]؟ وسحبوا من المجد مَطَارفَ ومُلاءَ[5]، وحازوا المكارمَ، وبَذُّوا المُوادِدَ والمُصارِمِ[6]، سؤددًا وعلاءً؟ : [الرجز]

فـمـا ريـاضُ زَهَـرِ الـرَّبـيـعِ ... إذا بَـدَتْ فـي وَشْـيِـهـا الـبـديـعِ
ضـاحـكـةً عَـنْ شَـنَـبِ الأقـاحِ ... عِـنْـدَ سُـفـورِ طَـلْـعَـةِ الـصَّـبَـاحِ
غَـنَّـى بـهـا مُـطَـوَّقُ الـحَـمـامِ ... وصـافَـحَـتْـهـا راحَـةُ الـغـمـامِ
وبـاكَـرَتْـهَـا نَـسْـمَـةٌ مِـنَ الـصَّـبَـا ... فـأَصْـبَـحَـتْ كـأنـهـا عَـهْـدُ الـصِّـبَـا
نَـضَـارةً ورَوْنَـقًـا وبَـهْـجَـهْ ... تُـفْـدَى بـكـلِّ نـاظـرٍ ومُـهْـجَـهْ
أطْـيَـبُ مِـنْ ثـنـائِـهِـمْ عَـبـيـرَا ... بَـيْـنَ الـوَرَى فـاسألْ[7] بـه خَـبـيـرَا
دامَتْ مَعَاليهِمْ على طولِ الزمَنْ ... يُروَى حديثُ الفضلِ عنها عَنْ حَسَنْ

---

(١) ابن شاهين شاعر الشام وأديبها، كان يدرِّسُ بالمدرسة الجَقْمقيّة، ولمّا ورد المقري دمشق أنزله ابن شاهين فيها. توفي سنة ١٠٥٣ هـ. خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٢٠). وسيأتي الحديث عنه في الجزء الثالث من نفح الطيب.

(٢) هو قُسّ بن ساعدة الإيادي، أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم. ذكره جماعة من الشعراء في أشعارهم بالحلم والخطابة. توفي نحو ٢٣ ق.هـ. الأغاني (جـ ١٥ ص ٢٣٦) والبيان والتبيين (جـ ١ ص ٢٧) ومعجم الشعراء (ص ٣٣٨) وأمالي القالي (جـ ٢ ص ٣٩) وجمهرة أنساب العرب (ص ٣٢٨).

(٣) في طبعة دار صادر: «سعودهم» بدل «سؤددهم».

(٤) في طبعة دار صادر: «ولاء» بدل «مِلاء». وأكواب مِلاءٌ: مملوءة، مفردها مَلآن. لسان العرب (ملأ).

(٥) المطارف: جمع مَطْرف وهو رداء من خزّ ذو أعلام. المُلاء: جمع مُلاءة وهي ثوب يُلْبَسُ على الفخذين. محيط المحيط (طرف) و(ملأ).

(٦) بَذَّهُ: غلبه، المُصارِمُ: اسم فاعل لفعل صارم؛ يقال: صارمه إذا قاطعه. محيط المحيط (بذذ) و(صرم). المُوادِدُ: المُحِبُّ، وهو هنا اسم فاعل لفعل «وادد»، ونحن لم نعثر في كتب اللغة على هذا الفعل، وفيها فعل توادّا أي تحابّا.

(٧) في طبعة دار صادر: «وآسْألْ».

وثــابــتٍ وقُــرَّةٍ وسَــعْــدِ وأسْـعِـفُـوا بِـنَـيْـلِ كـلِّ وَغـدِ

فهم الذين نوّهوا بِقَدْري الخامل، وظَنُّوا مع نقصي أنَّ بَحْرَ معرفتي وافرٌ كامل، حسبما اقتضاه طبعهم العالي: [البسيط]

فلو شَرَيْتَ بِعُمْري ساعةً ذَهَبَتْ مِنْ عِيشتي مَعَهُمْ ما كان بالغالي

فَمُتَعَيِّنٌ حَقُّهِمْ لا يُتْرَكُ، وحُبُّهم لا يخالَطُ بغيره ولا يُشْرَكُ، وإن أَطَلْتُ الوصف فالغاية في ذلك لا تُدْرَكُ: [البسيط]

يَزدَادُ في مَسْمَعي تَرْدَادُ ذِكْرِهِمُ طِيْبًا ويَحسُنُ في عَيْني مُكَرَّرُهُ

وإذا كان المديح الصادق لا يزيدهم رفعة قدر، فهم كما قال الأعرابي الذي ضَلَّتْ ناقته في مدح البدر[1]، والبليغُ وذو الحَصَرِ[2] في ذلك سِيَّان، والحقُّ أبلجُ والباطلُ لَجْلَجُ[3] وليس الخبر كالعِيَان[4]: [الطويل]

هَبِ الرَّوْضَ لا يُثْني على الغَيْثِ نَشْرُهُ أَتَـحْـسِـبُـهُ تَـخْـفَـى مـآثِرُهُ الـحُـسْـنَـى

وقد تذكرْتُ بلادي النائية، بذلك المرأى الشامي الذي يَبْهَرُ رائيه، فما شِئْتَ من أنهارٍ ذاتِ انسجام، أُتْرِعَ فيها من جِرْيَالِ الأنس جام[5]، وأزهارٍ مُتَوَّجَةٍ للأدواح، مُرَوِّحَةٍ للنفوس بعاطرِ الأرواح، وحدائقَ تُغْشي أنوارُها الأحداق، وعِيانُها للخبر عنها مِصْدَاق وأي مِصْدَاق: [الكامل]

فَهْيَ التي ضَحِكَ البهارُ[6] صباحَها ويَكَتْ عَشِيَّتَهَا عيونُ النرجِسِ
وٱخْضَرَّ جانبُ نَهْرِها فكأنّه سَيْفٌ يُسَلُّ وغِمْدُهُ مِنْ سُنْدُسِ

---

(١) يشير إلى قول الأعرابي للقمر: [البسيط]
إنْ قلْتُ لا زِلْتَ مرفوعًا فأنت كذا أو قلْتُ زانك ربِّي فَهْوَ قد فَعَلاَ
نفح الطيب، طبعة دار صادر (جـ ١ ص ٦٥، حاشية ١)

(٢) الحَصَرُ: العِيُّ. مختار الصحاح (حصر).

(٣) قوله: «الحقُّ أَبْلَجُ والباطلُ لَجْلَجُ» تركيب لغوي يعني التردّد في الكلام من غير نفاذ. مختار الصحاح (لجج).

(٤) العِيانُ: المعاينة والرؤية؛ يقال: رآه عِيانًا إذا لم يشكَّ في رؤيته إياه؛ لسان العرب (عين).

(٥) الجِرْيال: الخمر. مختار الصحاح (جرل). الجام: إناء من فضة. لسان العرب (جوم).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «النهار» بالنون.

وجنان، أَفْنَانُها في الحسن ذَواتُ أفنان: [الخفيف]

صافَحَتْهَا الرياحُ فاعْتَنَقَ السَّرْ ... وُ وَمَالَتْ طِوالُه للقِصَارِ
لائِذٌ بَعْضُهُ ببعضٍ كقومٍ ... في عِتابٍ مُكَرَّرٍ واعْتذارِ

وبِطاح راقَ سَنَاها، وكَمُلَ حُسْنُها وتناهى، كما قلتُ مُضَمِّنًا في ذلك المنحى، لقول بعض مَن نال في البلاغة مُنًى ومِنَحَا: [الوافر]

دِمَشْقُ لا يُقَاس بها سواها ... ويمتنعُ القياسُ مع النُّصُوصِ
حُلاها راقَتِ الأبصارَ حُسْنًا ... على حكم العُمُومِ أو الخُصُوصِ
بِسَاطُ زُمُرُّدٍ نُثِرَتْ عليه ... من الياقوتِ ألوانُ الفُصُوصِ

ولِلّه دَرُّ القائل، في وصف تلك الفضائل[1]: [الخفيف]

إن تَكُنْ جَنَّةُ الخلودِ بأرضٍ ... فدِمَشْقٌ، ولا يكونُ سِوَاها
أو تكنْ في السماءِ فَهْيَ عليها ... قد أَمَدَّتْ هَوَاءها وهواها
بَلَدٌ طَيِّبٌ وربٌّ غَفُورٌ ... فاغْتَنِمْهَا عشيَّةً أو ضُحَاها

وعند رؤيتي لتلك الأقطار، الجليلةِ الأوصاف العظيمةِ الأخطار[2]، تفاءلْتُ بالعَوْد إلى أوطانٍ لي بها أوطار[3]، إذ التشابه بينهما قريبٌ في الأنهار والأزهار، ذاتِ العَرْفِ المِعْطار، وزادتْ هذه بالتقديس الذي هَمَعَتْ عليها منه الأمطار[4]، وتَمَثَّلْتُ بقول الأصفهاني، وإنْ غَيَّرْتُ يسيرًا منه لما أسفرتْ وجوهُ التهاني[5]: [مجزوء الكامل]

---

(١) وردت هذه الأبيات الثلاثة في رحلة ابن بطوطة (ص ٨٤ ـ ٨٥) دون أن يذكر ابن بطوطة اسم قائلها.

(٢) الأخطارُ: جمع خَطَر، بالفتح، وهو القَدْرُ؛ يقال: ليس له خَطَرٌ، أي مِثْلٌ وعَدِيلٌ في العلوّ. محيط المحيط (خطر).

(٣) الأوطارُ: جمع وَطَر، بالفتح، وهو الحاجة. مختار الصحاح (وطر).

(٤) هَمَعَتِ الأمطار: سقطت وسالت. مختار الصحاح (همع).

(٥) وردت الأبيات الأربعة الأولى في جذوة المقتبس (ص ٧٢) وبغية الملتمس (ص ١٠٧ ـ ١٠٨)، وقد غَنَّتْها جارية الأمير تميم بن أبي تميم، وهي جارية بغدادية، ونذكر البيتين الأول والثاني منها:

لَمَّا وَرَدْنا القادسيْـ ... ـيَةَ حيثُ مُجْتَمَعُ الرفاقِ
وشَمِمْتُ من أرض الحجا ... ز شميمَ أنفاسِ العراقِ

والتغيير اليسير الذي أحدثه المقري في شعره هو أنه ذكر «الصالحية» بدل «القادسية» في البيت الأول، و«الحجاز» بدل «الشآم» في البيت الثاني.

لَـمَّـا وَرَدْتُ الـصـالـحـيْـ ـيَةَ حيثُ مُجْتَمَعُ الرِّفاقِ
وشـمـمْـتُ من أرض الـشـآ م نـسـيـمَ أنـفـاسِ الـعِـرَاقِ
أَيـقَـنْـتُ لـي ولـمَـن أُحِـبْـ ـبُ بـجَـمْـعِ شـمـلٍ واتِّـفـاقِ
وضَـحِـكْـتُ مِنْ فَرَحِ الـلـقـا ءِ كـمـا بَـكَـيْـتُ من الـفـراقِ
لـم يَـبْـقَ لـي إلاّ تَـجَـشْـ ـشُمُ أَزْمُن السَّفرِ البواقي
حـتـى يـطـولَ حـديـثـنـا بـصـفـاتِ مَـا كُـنَّـا نـلاقـي

وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية مُولَعًا بالوطن لا سواه، فصار القلبُ بعد ذلك مُقَسَّمًا بهواه: [الطويل]

ولي بالحِمَىٰ أهلٌ وبالشِّعْبِ جِيْرَةٌ وفي حاجرٍ خِلٌّ وفي المُنْحَنَى صَحْبُ
تَقَسَّمَ ذا القلْبُ الـمُتَيَّمُ بينَهُمْ سَأَلْتُكُمْ باللّٰهِ هل يُقْسَمُ القلبُ

فيا لك مِنْ صَبّ مُراعٍ للذمام، مُنْقادٍ لشوقه بزمام، يُخَيَّلُ له أنه سمع صَوْتَ قيان، بقول الأول: [الطويل]

إلى اللّٰهِ أشكو بالمدينة حاجَةً وبالشامِ أُخْرَى كيف يلتقيانِ

وفردٍ تعدّدتْ جُمُوعُه، وَوَشَتْ بما أكَنَّتْ ضلوعُه، دموعُه، فأنْشَدَ وقد تَـحَيَّرَ، ما بَدَّلَ فيه من عظم ما به وغَيَّرَ: [البسيط]

كَتَمْتُ شَأنَ الْهَوَى يَوْمَ النَّوَى فَوَشَى بِسِـرِّهِ مِـنْ جُـفـونـي أيُّ نَـمَّـامِ
كـانـت لَـيَـالِـيَّ بِـيـضًـا فـي دُنُوِّهِـمُ فـلا تَسَلْ بَعْدَهُمْ عن حالِ أيامي
ضَنِيتُ وَجْدًا بِهِمْ والناسُ تحسبُ بي سُقْمًا فَأُبْهِمُ حالي عِنْدَ لُوَّامي
وليس أَصْلُ ضَنًى جسمي النحيل سِوَى فَرْطِ اشتياقي لأهل الغَرْبِ والشام

وحصل التحيّر، حيث لم يمكن الجمع ولا الخلوّ عند التخيّر، كما قال ابن دقيق العيد[1]، في مثل هذا الغرض البعيد: [الطويل]

---

(١) هو أبو الفتح تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع، القشيري المصري المعروف كأبيه وجدّه بابن دقيق العيد؛ الإمام العلاّمة، شيخ الإسلام. توفي بالقاهرة سنة ٧٠٢ هـ. فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٤٤٢) والبداية والنهاية (جـ ١٤ ص ٢٧). وقد وردت هذه الأبيات الثلاثة في فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٤٤٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا، وستأتي أيضًا في الجزء السابع من نفح الطيب.

إذا كنتُ في نَجْدٍ وطِيبِ نَعيمِهِ تَذَكَّرْتُ أهلي بالِلّوى فمُحَسَّرِ
وإنْ كُنتُ فيهمْ زِدتُ شوقًا ولَوْعَةً إلى ساكني نَجْدٍ وعِيلَ تَصَبُّرِي[١]
فقد طال ما بين الفريقَيْنِ مَوْقفي فَمَنْ لي بنَجْدٍ بين أهلي ومَعْشَرِي

وبالجملة فالاعتراف بالحق فريضة، ومحاسنُ الشام وأهله طويلةٌ عريضة، ورياضُه بالمفاخر والكمالات أريضة[٢]، وهو مقرُّ الأولياء والأنبياء، ولا يَجهَلُ فضله إلاّ الأغمار[٣] الأغبياء، الذين قلوبهم مريضة: [البسيط]

أنّى يَرَى الشَّمسَ خفّاشٌ يُلاحظُهَا والشمسُ تَبْهَرُ أبصارَ الْخَفَافِيشِ[٤]

ولِلّه دَرُّ مَنْ قال في مثل هذا من الأَرْضِياء[٥]: [الوافر]

وَهَبْنِي قلتُ هٰذَا[٦] الصّبحُ ليلٌ أيَعْمَى العالمون عنِ الضِّياء

وقال آخر فيمن عن الحق ينفر: [الطويل]

إذا لم يكنْ للمرء عَيْنٌ بصيرةٌ فلا غَرْوَ أنْ يرتابَ والصُّبْحُ مُسْفِرُ

وحَسْبُ الفاضل اللبيب، أنْ يروي قول البدر بن حبيب[٧]: [السريع]

عَرِّجْ إذا ما شِمْتَ بَرْقَ الشآمْ وحَيِّ أهْلَ الحيِّ وَاقْرَ السلامْ
وأنزِلْ بإقليمٍ جزيلِ الْحَيَا بارَكَ فيه اللّهُ رَبُّ الأنامْ
العِزُّ والنَّصْرُ لديه، وَمَا لِعُرْوَةِ الإسلامِ عنه انْفِصَامْ
مِنْ أولياءِ اللّهِ كم قد حَوَى رُكْنًا بمرآهُ يَطِيبُ الْمُقامْ
وَهُوَ مَقَرُّ الأنبياءِ الأُلى والأصْفِياءِ الأتقياءِ الكِرامْ

(١) عِيل صَبْري وتصبُّري: غُلِبَ وافتقر فهو مَعُولٌ. محيط المحيط (عول).
(٢) الرياضُ الأَرِيضَةُ: المُعْجِبَةُ للعَيْن. مختار الصحاح (أرض).
(٣) الأغمارُ: جمع غُمْر، بضم الغين، وضم الميم وسكونها، وهو الذي لم يجرّب الأمور. مختار الصحاح (غمر).
(٤) الخفافيش: التي تطير بالليل، واحدها خُفّاش، بضم الخاء وتشديد الفاء. مختار الصحاح (خفش).
(٥) الأَرْضِياء: جمع رَضِيّ وهو الراضي. محيط المحيط (رضي).
(٦) في طبعة دار صادر: «إنَّ» بدل «هذا».
(٧) هو بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب، ولد في دمشق، وانتقل مع أبيه إلى حلب فنشأ فيها ونسب إليها، ثم رحل إلى مصر والحجاز، وعاد إلى حلب واستقرّ فيها. توفي سنة ٧٧٩ هـ. الدرر الكامنة (جـ ٢ ص ٢٩).

كم مِنْ شهيدٍ في حِمَاهُ وكم   مِنْ عالـمٍ فَرْدٍ وكم مِنْ إمامْ

ولذلك اعتنتِ الجهابذة بتخليد أخباره في الدواوين، وابتنت الأساتذة بيوتَ افتخاره المنيفة الأواوين، وتناقَلَتْ أنباءه البديعةَ ألْسُنُ الراوين، وهامَتْ بأماكنه الْمَرِيْعَةِ هُداةُ الشريعة فضلاً عن الشعراء الغاوين، ومع ذلك فهم في التعبير عن عجائبه غيرُ متساوين، أَوَلا يَرَى أنهم يأتون من مَقُولهم، على قَدْرِ رأيهم وعقولهم، ولم يبلغْ جَمْعٌ منهم ما كانوا له ناوين: [الطويل]

على قَدْرِكَ الصَّهباءُ[1] تُوْلِيْكَ نَشْوَةً   بها سِيءَ أعداءٌ وسُرَّ صِحابُ
ولو أنها تُعْطِيْكَ منها بِقَدْرِها   لَضاقَتْ بكَ الأكوانُ[2] وَهْيَ رِحَابُ

وكُنَّا في خلال الإقامة بدمَشْقَ المحوطة، وأثناء التأمّل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغُوْطَة، كثيرًا ما ننظم في سلك المذاكرة دُرَر الأخبارِ الملقوطة، ونتفيَّأُ من ظلالِ التبيان مع أولئك الأعيان في مجالِسَ مَغْبُوطة، نتجاذبُ فيها أهدابَ الآداب، ونشربُ من سَلْسال الاسترسال ونتهادى لُبَابَ الألباب، ونمدُّ بِساطَ الانبساط ونسدلُ أطنابَ الإطناب، ونَقْضي أوطار الأقطار، ونستدعي أعلام الأعلام، فينجرُّ بنا الكلام والحديثُ شُجُون[3]، وبالتفنّن يبلغ المستفيدون ما يرجون، إلى ذكر البلاد الأندلسية، ووصْفِ رياضها السندسية، التي هي بالحسن مَنُوْطة، وقضاياها الموجَّهة التي لا يستوفيها المنطق مع أنها ضرورية وممكنة ومشروطة، والفِطَر السليمة، والأفهام المستقيمة، بتسليم براهينها قاضيةٌ لا سيما إنْ كانت بالإنصاف مربوطة، فصِرْتُ أُوْرِدُ مِنْ بدائع بُلَغائها ما يجري على لساني، من الفيض الرحماني، وأَسْرُدُ من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السَّلْمَاني، صَبَّ اللَّهُ عليه شآبيبَ رحماهُ وبَلَّغَهُ من رضوانه الأماني! ما تُثِيْرُهُ المناسبة وتقتضيه، وتميل إليه الطباع السليمة وترتضيه، من النظم الجَزْل، في الجِدِّ والهَزْل، والإنشاء، الذي يُدْهِشُ به ذاكِرُهُ الألبابَ إن شاء، وتَصَرُّفِهِ في فنون البلاغة حالَي الولاية والعزل، إذ هو - أعني لسان الدين - فارسُ النظم والنثر في ذلك العصر، والمنفردُ بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر،

---

(١) الصَّهْباء: الخمر. محيط المحيط (صهب).
(٢) الأكوان: جمع كَوْن. مختار الصحاح (كون).
(٣) الحديثُ شُجُون: يشير إلى المثل: «الحديث ذو شُجُون» أي ذو فنون وأغراض. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٩٧) ولسان العرب (شجن).

وكيف لا ونَظْمُهُ لم تَسْتَوْلِ على مثله أيدي الهَصْر[١]، ونَثْرُهُ تُزْري صورتُهُ بالخريدة ودُمْيَة القصر.

فلما تكرر ذلك غَيْرَ مرة على أسماعهم، لَهِجُوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمةُ إجماعهم، وعَلِقَ بقلوبهم، وأضحى منتهى مطلوبهم، ومُنية آمالهم وأطماعهم، وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونه، ويعترفون ببراعته ويستحسنونه، ويستنشقون من أزهاره كلَّ ذَاكٍ، فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك، وهو الماجد المذكور، ذو السعي المشكور، أن أتَصَدَّى للتعريف بلسان الدين في مُصَنَّفٍ يُعْرِبُ عن بعض أحواله وأنبائه، وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه، ومَفَاخِرِه التي قُلِّد بها جِيْدُ الزمان ولَبَّتُه[٢]، ومآثره التي أَرِجَ بها مَسْرَى الشّمال وهَبَّتُه، وبعض ما له من النِّثار والنظام، والمؤلفات الكبار العظام، الرائقة للأبصار، الفائقة على كلام كثيرٍ من أهل الأمصار، السائرة مسير القمر والشمس، المعقودةِ[٣] عليها بالخَناصر بل الخمس، كي ما يكون ذلك لهذه الأغراض مُشِيعا، ويخلع على مطالعه بهذه البلاد المشرقية من أغراضِهِ البديعة ومنازعه وَشِيعًا[٤].

فأجبته أَسْمَى اللَّهُ قَدْرَهُ الكبير، وأدامَ عَرْفَ فضائله الـمُزْري بالعنبر والعبير، بأن هذا الغرض غير سهل، ولست عَلِمَ اللَّهُ له بأهْل، من جهات عديدة، أوّلها قصوري عن تحمّل تلك الأعباء الشديدة، إذ لا يوفّي بهذا الغرض إلاّ الماهِرُ بطرق المعارف السديدة، وثانيها عدمُ تيسُّرِ الكتب المستعان بها على هذا المرام لأني خلَّفتها بالمغرب، وأكثرها في المشرق كعَنْقَاء مُغْرب[٥]، وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة، الجالبة للفكر غاية[٦] الكُرْبة، وتَقَسُّمُ البال، بين شغل عائق وبلبال، وأنّى يطيق، سلوكَ هذا المضيق، مَنِ اكتحلت جفونه بالسهاد، ونَبَتْ جنوبه عن الـمِهَاد، وسَدَّدَ نحوه الأسفُ سَهْمه، وشغل باله ووهمه، وبَثّ

---

(١) الهَصْر: الكَسْر؛ يقال: هَصَرْتُ الشيءَ إذا كَسَرْتُه. لسان العرب (هصر). والمراد بأيدي الهصر هنا الحكّام والملوك.

(٢) اللَّبَّةُ: وسط الصدر، والجمع لَبَّات. لسان العرب (لبب).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «المعقود».

(٤) الوَشِيعُ، بفتح الواو وكسر الشين وسكون الياء: عَلَمُ الثوب. القاموس المحيط (وشع).

(٥) عَنقاءُ مُغْرِبٌ ومُغْرِبَةٌ: طائر عظيم يَبْعُدُ في طيرانه، ويقال هي التي أغربتْ في البلاد فنأَتْ ولم تُحَسّ ولم تُرَ. لسان العرب (غرب).

(٦) في طبعة دار صادر: «غالب الكربة».

في قلبه تبريحا، وعناء لم يجد منه إلاّ أن يَلْطُفَ اللّه تَسْريحا، فما شام بارِقَةَ أملٍ إلاّ في النادر، ولا ورَدَ منهلَ صفاء إلاّ وكَدَّرَهُ مَكْرُ غادر، وقد كثر الجفاء، وبَرِحَ بلا شكّ الخفاء، واسْتَوْخَمَتِ المواردُ والمصادر، والقَلْبُ مكلوم، وذو اللب[1] غير مَلُوم، إذا كان على تلفيق ما يليقُ غَيْرَ قادر، ولا مؤنس إلاّ شاكي دهر بلسان صريح، أو باكي قاصمةِ ظَهْرٍ بجَفْنٍ قَريح، أو مُناضل في معترك العجز طريح، أو فاضل دُفِنَ من الخمول في ضَرِيح، إذ رَمَتْهُ سهامُ الأوهام الصوائب، وعَضَّتْ منه إبهامَ الإبهام بنابها النوى والنوائب، فقلوبه من تَقَلُّباتِ أحواله ذوائب، وكم شابَتْ من أمثاله بصروف الدهر وأهواله ذوائب: [الطويل]

عَلَى أنها الأيامُ قد صِرْنَ كُلُّها عجائبَ حتى ليس فيها عَجَائِبُ[2]

وأَدْمَعَ أحجارَها، تسلُّطُ فُجّارِها، فكم من عدوّ منهم في ثياب صديق، وحَسُودٍ لنظره إلى نعم اللّه على عباده تحديق، لا تخدعه المُدَاراة، ولاَ تَرْدَعُه المماراة[3]، يتتبع العَثَرات، ويقنع بألم البثرات[4]، ويتبسم، وقلبه من الغلّ يتقسّمُ، ويتودّد، ومكايدُه تتجدّد فتتعدّد: [الخفيف]

لا تَرُمْ مِنْ مُمَاذِقٍ[5] الوُدَّ خَيْرًا فَبَعِيدٌ من السَّرابِ الشرابُ
رَوْنَقٌ كالحَبَابِ يَعْلو على الما ءِ ولكنْ تَحْتَ الحَبَابِ الْحُبَابُ[6]
عَظُمَتْ في النِّفاقِ ألسِنَةُ القَوْ م وفي الألْسُنِ العِذابِ العَذَابُ

والصديق الصدوق في هذا الزمن قليل، وقد أَلَّفَ بعضُ العلماء «شفاء الغليل، في ذمّ الصاحب والخليل»[7]. وهو غيرُ محمولٍ على الإطلاق، وإنْ قال به بعضُ مَنْ رَهَنَهُ مِنْ

---

(١) في طبعة دار صادر: «واللبّ» بدون «ذو».
(٢) البيت لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، المتوفّى سنة ٢٣١ هـ، وهو آخر بيت من مرثية من عشرة أبيات قالها في غالب الصغدي، ديوان أبي تمام (ص ٣١٤). وترجمته في تاريخ بغداد (جـ ٨ ص ٢٤٨) والأغاني (جـ ١٦ ص ٤١٤) ووفيات الأعيان (جـ ٢ ص ١١) ومعاهد التنصيص (جـ ١ ص ٣٨).
(٣) المماراة: المجادلة؛ يقال: ماراه إذا جادله ونازعه، محيط المحيط (مرى).
(٤) البَثَراتُ: جمع بَثْرَة وهي خُرَاج، لسان العرب (بثر).
(٥) المُماذِقُ: غير مخلص. مختار الصحاح (مذق).
(٦) الحَبَاب، بالفتح: نُفّاخات تطفو على الماء. الحُباب، بضم الحاء: الحيّة. لسان العرب (حبب).
(٧) هذا الكتاب لجمال الدين أبي الحسن علي بن ظافر بن حسين الأزدي المصري، صاحب كتاب «بدائع البدائه». توفي بالقاهرة سنة ٦٢٤ هـ، وقيل سنة ٦١٣ هـ. فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٢٦).

أبناء عصره ذو إغلاق: [مجزوء الكامل]

أبـنـاءُ دَهْـرِكَ فـأَلْـقَـهُـمْ   مِـثْـلَ الـعِـدَا بـسِـلاَحِـكـا
لا تَـغْـتَـرِرْ بِـتَـبَـسُّـمٍ   فـالسَّيْفُ يقتلُ ضاحكا

وداءُ الحسد أَعْيَا الأوّلَ والآخر، وقد عظم الأمرُ في هذا الأوَانِ وكثر المزدري[1] والساخر، مع أن أسواقَ الدفاتر كاسدة، وأمزجة المحابر فاسدة: [مجزوء الكامل]

والـدَّهْـرُ دهْـرُ الـجـاهِـلِـيْـ   ـنَ وأَمْـرُ أهـلِ الـعـلـمِ فـاتـرْ
لا سُـوقَ أكـسَـدُ فـيـه مـن   سُـوْقِ الـمـحـابـرِ والـدفـاتـرْ

فالمنسوب للعلم في هذا الزمن زَمِنٌ، وهو بأن ينشد قولَ الأول قَمِنٌ[2]: [الوافر]

لأيِّ وَمِـيـضِ بـارقـةٍ أشِـيـمُ   ومَرْعَى[3] الفَضْلِ عندهُمُ هَشِيمُ[4]

وليت شعري عَلامَ يُحْسَدُ مَنْ أبدلَ الاغترابُ شارتَه[5]، وأضعف الاضطرابُ إشارَتَه، وأنهل[6] بالدموع أنواءه، وقَلَّلَ أضواءه، وكَثَّرَ علله وأدواءه، وغَيَّرَ عند التأمّل رُوَاءه[7]، وثَنَى عن المأمول عِنَانه، وأرْهَفَ بالخمول سِنانَه، حتى قدح الذكرُ حَنَانه، وملأ الفكرُ جأشه وجَنَانه[8]، فهو في ميدان النزوح مستبق، ومن راحةِ التعب مصطبح ومُغْتَبق[9]: [الطويل]

له أنَّةُ المشتاقِ في كلِّ ساعةٍ   تَمُرُّ وما للثاكلاتِ مِنَ الْحُزْنِ
ومِنْ مُرْسَلاَتِ الدمعِ واقعةُ الأَسَى   ومِنْ عادياتِ البَيْنِ قارعةُ السِّنِّ[10]

---

(١) في طبعة دار صادر: «المزري».

(٢) الزَّمِنُ: الـمُبْتَلَى، البَيِّنُ الزَّمانة (العاهة). قَمِنٌ: خَلِيقٌ، جَدِيرٌ؛ يقال: هو قَمِنٌ بكذا أي جديرٌ به وخليق. لسان العرب (زمن) و(قمن).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «ورَعْي».

(٤) الهشيم من النبات: اليابس. مختار الصحاح (هشم).

(٥) الشَّارة: الهيئة. لسان العرب (شور).

(٦) في طبعة دار صادر: «وأَهَلَّ».

(٧) الرُّواء، بضم الراء: حُسْنُ المنظر. مختار الصحاح (رأى).

(٨) الـجَنَانُ، بالفتح: القَلْبُ. مختار الصحاح (جنن).

(٩) مُصْطَبِحٌ: شارب الصَّبُوح وهي خمرة الصَّباح. مُغْتَبِقٌ: شارب خمرة الغَبُوق وهي خمرة المساء. لسان العرب (صبح) و(غبق).

(١٠) يقال: قَرَعَ فلانٌ سِنَّه: حَرَّقه ندمًا. محيط المحيط (قرع).

تُثيرُ الذكرى منه كوامنَ الشجُون، وتدير عليه جامَ الهُيام[1] ولو كان بين الصَّفَا والـحَجُون[2]: [الطويل]

وتَـحْتَ ضُلُوعِ الـمُسْتهَام[3] كآبة   يَخَافُ على الأحشاء منها التَّفَطُّرَا
ولو أنَّ أحشاء تبُوحُ بما حَوَتْ   لَتَـمْتَلِئَنَّ الأرضُ كُتبًا وأسْطُرا

وشَتّانَ ما بَيْنَ الاقترابِ والاغتراب، والسكونِ في الركون والنبوِّ عنها والاضطراب، فذاك تسهلُ غالباً فيه الأغراضُ والمآرب، وهذا تَتَعَفَّرُ فيه المقاصدُ وتَتَكَدَّرُ المشارب: [الطويل]

وما أنا عن تَحْصِيلِ دُنْيَا بعاجزٍ   ولكنْ أَرَى تَحْصِيلَهَا بالدَّنِيَّةِ
وإنْ طاوَعَتْنِي رِقَّةُ الحالِ مَرَّةً   أَبَتْ فِعْلَها أخلاقُ نَفْسٍ أَبِيَّةِ

وكما قلْتُ، عندما صِرْتُ إلى الاغتراب وأُلْتُ: [الوافر]

تَرَكْتُ رسومَ عِزِّي في بلادي   وصِرْتُ بمصرَ مَنْسِيَّ الرسومِ
ورُضْتُ النفسَ بالتجريدِ زُهْدًا   وقُلْتُ لها عن العَلْيَاءِ صُومِي
مَخَافَةَ أنْ أُرَى بالحرصِ ممّن   يكونُ زمانُهُ أحَدَ الخصومِ

وكما قال بعضُ الأكابر، من أهل الزمان الغابر: [الكامل]

لا عارَ إنْ عَطِلَتْ يَدَايَ مِنَ الغِنَى   كم سابقٍ في الخيل غيرِ مُحَجَّلِ[4]
صان اللئيمُ، وصُنْتُ وَجْهي، مالَه[5]   دوني، فلم يَبْذُلْ ولم أتَبَذَّلِ
أبكي لهمّ ضافني متأوِّباً[6]   إن الدموعَ قِرَى الهمومِ النُّزَّلِ
لا تُنْكِرُوا شيبًا ألَمَّ بمَفْرِقِي   عَجِلاً كأنَّ سَنَاهُ سَلَّةُ مُنْصُلِ[7]
فلقد دُفِعْتُ إلى الهموم تنوبني   منها ثلاثُ شدائدٍ جُمِّعْنَ لي

---

(١) الجَامُ: إناء من فِضّة. لسان العرب (جوم). الهُيامُ، بضم الهاء: العطش. مختار الصحاح (هيم).
(٢) الصفا والحَجُون: موضعان. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٤١١) و(جـ ٢ ص ٢٢٥).
(٣) الـمُسْتَهَامُ: الهائم. مختار الصحاح (هيم).
(٤) الفَرَسُ الـمُحَجَّلُ: الذي في قوائمه بياض. مختار الصحاح (حجل).
(٥) مالَهُ: مفعول به لفعل صانَ.
(٦) ضافَني الهَمُّ: نَزَلَ بي. مُتَأَوِّبًا: راجعًا؛ يقال: تأوَّب إذا رَجَعَ أو أتى ليلاً. محيط المحيط (ضيف) و(أوب).
(٧) الـمُنْصُلُ، بضم الميم والصاد وسكون النون: السيف. مختار الصحاح (نصل).

أَسَفٌ على ماضي الزمان، وحَيْرَةٌ   في الحال منه، وَوَحْشَةُ المستقبلِ
ما إنْ وصَلْتُ إلى زمانٍ آخر   إلا بَكَيْتُ على الزَّمانِ الأوَّلِ
للَّهِ عَهْدٌ بالحِمَى لم أنْسَهُ   أيامَ أعْصِي في الصبابة عُذَّلي

ويرحم اللّه ابن قَلاقِس الإسكندري[1]، إذ قال في معنى التمنّي المصدري: [الطويل]

لَعَلَّ زماني بالعُذَيْبِ[2] يَعُود   فَيَقْرُبَ قربٌ أو يصدَّ صُدُودُ
وأُبْصِرُ كُثْبانًا وهَزَّ رَوَادِفٍ   عليهنَّ أغصانٌ وهُنَّ قُدُودُ
وأقطفُ وَرْدَ الخَدِّ وهو مُضَرَّجٌ   وأجني أقاحَ الثغرِ وهو بَرُودُ[3]
وأُدْني ذراعي للعِنَاقِ ذريعةً   فتَنْهَى عن الإفراطِ فيه نهُودُ
ويَسْرِي إليَّ البَدْرُ وهو مُمَنَّعٌ   ويَغْدُو إليَّ الظَّبْيُ وهو شَرُودُ[4]
ونَكْرَعُ في شكوى الفراقِ كأننا   فَوَارِطُ هِيْمٍ راقَهُنَّ وُرُودُ[5]
وأُكْبِرُ مِقْدارَ الهَوَى عن كبيرةٍ   وأحْمي عَفافي دُونَهُ وأذودُ

وفَرْقٌ ما بين الجوهر والعَرَض، والصِّحَّةِ البَيِّنَةِ والمَرَض، والدُّرِّ والحصا، والحُسام والعصا، والرجوعُ إلى التفويض للأقدار، في أمور هذه الدار، الكثيرة الأكدار، هو المطلوبُ، والمَرْجُوُّ من اللّه سبحانه جَبْرُ القلوب: [المجتث]

يا ربُّ نَفِّسْ هُمومِي   واكْشِفْ كُرُوبي جميعا
فَقَدْ رَجَوْتُ كريمًا   وقَدْ دَعَوْتُ سَمِيعا

ولم يجعل لي المذكور - حفظه اللّه! - فسحةً ولا مندوحة، بعد هذه الأعذار المحمودة في الصدق الممدوحة، ولسانُ حالي وقالي، يثْبتانِ عجزي عن أداء هذا الحقّ

---

(١) هو أبو الفتوح نصر اللّه بن عبد اللّه بن مخلوف بن قلاقس، الأزهري الإسكندري، شاعر مجيد وكاتب مشهور. توفي بعيذاب سنة ٥٦٧ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٨٥) والبداية والنهاية (جـ ١٢ ص ٢٦٩).

(٢) العُذَيْبُ: ماء قرب الفرما من أرض مصر في وسط الرمل. معجم البلدان (جـ ٤ ص ٩٢).

(٣) مُضَرَّجٌ: مُلَطَّخٌ بالدم، أي أن خدَّه محمرٌّ كاحمرار الدم. بَرُودٌ: بارد. مختار الصحاح (ضرج) و(برد). وهنا يجعل رضابها عَذْبًا كعذوبة الماء البارد.

(٤) الشَّرُودُ: كثير النفور. مختار الصحاح (شرد).

(٥) الفوارط: القَطَا التي تتقدّم إلى الماء. الهِيمُ: جمع الهَيْماء وهي الشديدة العطش. لسان العرب (فرط) و(هيم).

بشهادة مَن هو وادٌ وقالي، إذ مَنْ كان بصفة، غَيْرِ متمكّنة مما تكون به متّصفة، واتّسَمَ بنعوتٍ مختلفة، وازْتَسَمَ في غير ذوي الأحوال المؤتلفة، كيف يحير في التصنيف جوابًا، أو ينتحي من التأليف صوابًا؟ ومَنْ جَفْنُهُ هام هاملٍ، وقصورُهُ عامٌّ شامل، كيف يقبضُ بالأنامل، على ماء البحر الوافر الكامل؟ ومَنْ لبس مِنَ العيّ مُلاَهُ[1]، لا يعبُرُ عمّن طَبَّقَ مفاصل الكلام وكُلاَهُ[2]، وقَصَّرَتْ أَلْسُنُ البلغاءِ عن عُلاه، وزانَتْ صدورُ الدواوين حُلاه، وجَمَّعَ خِلالاً حِسَانًا، وكان للدِّيْن لسانًا، وزاحَمَتْ مفاخرُهُ بالمناكب الكواكب، وازْدانت بمرآه النوادي والمواكب، ونفحاتُ الأزهارِ مِنْ آدابه، ونَسَمَاتُ الأسحار عِطْرُ أذياله وأهدابه، والسِّحْرُ من كتابته، والسَّحَرُ من كنايته، ورَوْحُ النسيم من تعريضه، والنَّثْرَةُ من نثره، والشِّعْرَى[3] من شعره وقريضه، وحُلَل المجد لباسُه، وأنوارُ العلم اقتباسُه: [الوافر]

لـه ذِهْـنٌ يَـغُـوصُ بـبَـحْـرِ عِـلْـمٍ فـيـأتـي مـنـه بـالـدُّرِّ الـنـظـيـمِ
مَـعَـانـيـه الـريـاضُ، لأجـلِ هـذا سَـرَتْ ألـفـاظُـه مِـثْـلَ الـنـسـيـمِ

ومباهيه النجوم، ومضاهيه الغَيْث السَّجُوم، إلى آباء يحسدهم القمرُ[4] والشمس، وإباءٍ لو كان للـمَشْرَفِيِّ لَـمَا تَـحَيَّفَهُ لَـمْس[5]، وشرفٍ لا مُدَّعًى ولا مُنْتَحل، وهِمّةٍ لو نالَها البدرُ لاستحذى له زُحَل[6]، وبراعةٍ أرهَفَتْ سنانَ قلمه، ويراعةٍ سارتْ أمراؤها تحت عَلَمه، فكم فَتَحَ بفكرهِ أقفالَها، ووَسَمَ بذهنه الثاقبِ أغْفَالَها، وسَبَكَ معانيها في قالبِ قلبه إبريزا[7] ورَقَمَ بيانُ لسانه بُرُودَ إحسانِه بِلفظه البديع تطريزا، فَرُفِعَ في ميدان الإجادة لواؤه،

---

(١) أصل القول: لبس مُلاءه، وقد حذف الهمزة مراعاة للسَّجْع، والـمُلاءُ جمع مُلاءة وهي الإزار. لسان العرب (ملأ).

(٢) قوله: طَبَّقَ مفاصلَ الكلام وكُلاه: أي أصاب في كلامه؛ يقال: طَبَّق السيفُ الـمَفْصِلَ إذا أصابه، ويقال للرجل إذا أصاب الـحُجَّة إنه يطبّق الـمَفصِلَ. والمفاصل جمع مَفْصِل وهو كل ملتقى عظمين من الجسد. والكُلا: جمع كلية، وتقوم الكليتان بوظيفة إفراز البول من الدم. محيط المحيط (طبق) و(فصل) و(كلي). وهنا يستعير من الإنسان المفاصل والكلى إلى الكلام.

(٣) النَّثْرَةُ، بفتح النون والراء وسكون الثاء: كوكبان بينهما قَدْرُ شِبْر. الشِّعْرى: كوكب. محيط المحيط (نثر) و(شعر).

(٤) في طبعة دار صادر: «البدر» بدل «القمر».

(٥) الـمَشْرَفِيُّ: أي السيف الـمَشْرَفِيّ، نسبة إلى مشارف اليمن. تَـحَيَّفَهُ: تَنَقَّصَهُ من نواحيه. لسان العرب (شرف) و(حيف).

(٦) زُحَلُ: كوكب في الفلك السابع. محيط المحيط (زحل).

(٧) الإبريز: الذهب الخالص الصافي. لسان العرب (برز).

وأُتِيحَ مِنْ أنهار البراعة العذبة إرْواؤه، ونال سَبْقًا وتبريزا: [الوافر]

وما زَمنُ الشَّبابِ وأنْتَ تَجري مع الأحباب في لَهْوٍ وطِيبِ
ووَصْلٍ من حبيبٍ بعد هَجْرٍ بأحْلَى من كلام ابن الخطيبِ

فقصائدُهُ أرْخَصَتْ جواهِرَ البحور، المنظومةِ في قلائد اللَّبَّات[1] والنحور، من حسان العقائل الحور: [الطويل]

مَعَانٍ وألفاظٌ تُنَظَّمُ منهما عُقُودُ لآلٍ في نُحُورِ الشمائلِ
وزَهْرُ كَلامٍ كالحدائقِ نَسْجُهُ غَنِينَا به عن حُسْن زَهْرِ الْخَمَائلِ

وكلماته غَدَتْ للإبداع إقليدا[2]، وجَمَعَتْ طريقًا من البلاغة وتَلِيدا: [المتقارب]

كَسَونَ عَبِيدًا[3] ثيابَ العبيدِ وأضحى لَبِيدٌ[4] لديها بَلِيدَا

ومُقَطَّعاتُهُ ألَذُّ في الأسماع، مِنْ مُطْرِبِ السماع، وأبْهَى في الأحداق والنواظر، من الحدائق ذوات الأغصان المُلْدِ[5] النَّوَاضر، يعترف بفضلها مَن انْتحل الإنصافَ دينا، وانتخل الأوصافَ فاخْتار العدلَ منها خَدِينا[6]: [الوافر]

رَقِيقَاتُ الْمَقَاطِعِ مُحْكَمَاتٌ لَوَ آن الشِّعْرَ يُلْبَسُ لارْتُدِيْنا

ورسائلُه كَنقْط العروس اللائحة في البياض، أو كَوَشْي الربيع أو قِطَعِ الرياض، بَرَزَتْ أغصانُها الحالية وتَبَرَّجَتْ، وتَضَوَّعَتْ أفنانُها العالية وتأرَّجَتْ، وقد ألْبَسَها القَطْرُ[7] زَهْرا، وفَجَّر خلالها نَهْرا، فأخذت زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ، ولاحَتْ محاسِنها غير محتجبة وَتَبَيَّنَتْ، فَبَهَرَتْ مَنْ لها قابَل، أستغفرُ اللَّهَ لا بل: [البسيط]

---

(١) في طبعة دار صادر: «لِلَّبَّات» بدل «اللَّبَّات».
(٢) الإقْلِيدُ: المِفْتاح. محيط المحيط (قلد).
(٣) هو عَبِيدُ بن الأبرص الأسدي؛ شاعر، ومن دهاة الجاهلية وحكمائها. توفي نحو ٢٥ ق.هـ. الشعر والشعرا (ص ١٨٧) وطبقات الشعراء (ص ٥٨).
(٤) هو لَبِيدُ بن ربيعة بن مالك العامري، أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية. أدرك الإسلام وعُدَّ من الصحابة. هو أحد أصحاب المعلّقات، وتوفي سنة ٤١ هـ. الشعر والشعراء (ص ١٩٤) والأغاني (جـ ١٥ ص ٣٥٠) وطبقات الشعراء (ص ٥٣).
(٥) المُلْدُ: جمع أمْلَد وهو الناعم من الغصون. محيط المحيط (ملد) .
(٦) الخَدِينُ: الصاحب، محيط المحيط (خدن).
(٧) القَطْرُ: المطر. محيط المحيط (قطر).

هِيَ الحديقةُ إلاّ أنّ صَيِّبَها[1]   صَوْبُ النُّهى وَجَنَاهَا زَهْرَةُ الكَلِمِ

وقوافيه، رِيشَتْ بها قَوَادِمُ الإتقانِ وخَوَافيه، بنانُ مُجَارِيها يستدثرُ[2] الْحَصَر، وباعُ مُبَارِيها يستشعر القِصَر: [الخفيف]

خَطُّهَا رَوْضَةٌ، وألفاظُها الأزْ   هَارُ يَضْحَكْنَ، والمعاني ثِمَارُ
تُبْدي لِمُبْصِرها وتُري، وما قاله أبو عبادة الْبُحْتُري[3]: [الخفيف]

وكلامٌ كأنه الزهَرُ النا   ضِرُ في رَوْنقِ الربيعِ الْجَديدِ
مُشْرِقٌ في جَوَانب السَّمْعِ ما يُخْ   لِقُهُ[4] عَوْدُه على المُسْتَعِيدِ
ومَعَانٍ لو فصَّلَتْهَا القوافي   هَجَّنَتْ ما لِجَرْوَلٍ[5] مِنْ نَشيدِ
حُزْنَ مُسْتَعْمَلَ الكلامِ اختيارًا   وتَجَنَّبْنَ ظلمةَ التعقيدِ

بل هي أجلُّ مما وصف عند التحقيق، وإمعان النظر الصحيح والتدقيق: [الخفيف]

أيْنَ زَهْرُ الرياضِ وهْوَ إذا ما   طال عَهْدًا بالغَيْثِ عاد هَشِيمَا
مِنْ قوافٍ كأنها الأنجمُ الزُّهْـ   ـرُ سَنَاهَا زانَ الظلامَ الْبَهِيما[6]

وناهيك بمَن أطلعته العلوم على جلائلها ودقائقها، وأرَتْهُ الفنونُ ما شاء من يانعاتِ حدائقها، وحَبَتْهُ[7] الحِكَمُ الرياضيةُ بأزاهرها، وشقائقها، وأرْضَعَتْهُ الوزارةُ من ثُدِيِّها[8]،

---

(١) الصَّيِّبُ: السَّحاب ذو الصَّوب، والصَّوبُ هو المطر. لسان العرب (صوب).

(٢) في طبعة دار صادر: «تستدثر» بالتاء.

(٣) هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي؛ شاعر كبير، وأحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم؛ المتنبي وأبو تمام والبحتري. توفي سنة ٢٨٤ هـ. تاريخ بغداد (جـ ١٣ ص ٤٤٦) ووفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٢١) ومعاهد التنصيص (جـ ١ ص ٢٣٤). وهذه الأبيات في ديوان البحتري (جـ ٢ ص ١٩٨) من قصيدة من ٤٦ بيتًا قالها البحتري في مدح محمد بن عبد الملك الزيّات، وروايتها ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) يُخْلِقُهُ: يجعله باليًا. محيط المحيط (خلق).

(٥) هو جَرْوَل بن أوس بن مالك العبسي، المعروف بالحُطَيْئة. أدرك الجاهلية والإسلام، وكان هجّاءً عنيفًا. توفي نحو ٤٥ هـ. الشعر والشعراء (ص ٢٣٨) والأغاني (جـ ٢ ص ١٤٩) وطبقات الشعراء (ص ١١١ ـ ١١٢) وفوات الوفيات (جـ ١ ص ٢٧٦).

(٦) الظلام البهيمُ: الذي ليس فيه ضوء إلى الصباح. لسان العرب (بهم).

(٧) في طبعة دار صادر: «وحَيَّتْهُ» بدل «وَحَبَتْهُ».

(٨) الثُدِيُّ: جمع ثَدْي. مختار الصحاح (ثدا).

وحَلَّتْ به الإمارةُ صَدْرَ نَدِيِّها[1]، وجعلته المرجوعَ إليه في تمييزِ جَيِّد الأمور ورَدِيِّها، فغَرَسَ في أرض الرياسة من نخل السياسة ووَدِيِّها[2]، وأعْلَى عَلَمَ العدلِ وأغْمَدَ سَيفَ الانتقام، ودَفَعَ تنّينَ الفتنة الذي فَغَر فاهُ للالتقام، والعَهْدُ إذ ذاك قريب، في وطن الأندلس الغريب، باختلال الحال، وتوالي الإمحال، والتجرّي على قتل الملوك، والتحرّي لقَطْع الطرق ومنع السلوك، حيث أهواءُ المارقين ذاتُ افتراق، وضلوعُ الصادِقِين في قَلَقٍ واحتراق، وأيدي الإِحَن[3] باطشة، وسيوفُ المحن إلى الدماء عاطشة، وعَرْشُ الحماية مثلول، وصارمُ الكفاية مَفلول، ونِطاقُ الرعاية مطلول[4]، وجَيبُ النصيحة مَملول، والتَّنُورُ السلطاني بنار اختلاف الكلمة ملتهب، والعدوُّ ينتهز الفرصة ويستلب[5] الأنفسَ والأموالَ وينتهب، وليس له في غير قَطْع شَأفةِ المسلمين ابتغاء، وإنْ عَقَدَ المهادنة في بعض الأحيان فهو يُسِرُّ حَسْوًا في ارتغاء[6]، وكلابُ الباطلِ في دماء أهل الحق والغة[7]، ولله سبحانه وتعالى في خَلْقه إرادة نافذة وحكمة بالغة، فَرَقَّعَ لسانُ الدين ثوبَ الأندلس ورَفَاه[8]، وأرْغَمَ - رحمه الله! - الكفر الذي فَغَرَ[9] فاهُ، وشَمَّرَ عن ساعد اجتهاده، وحَضَّ باللسان وباليد على دفاعه وجهاده، حتى لاحت للنصر بَوَارق، وأمنت بالحزم الطوارىء والطوارق، ثم ضرب الدهرُ ضَرَبَانَه، وأحرق الحاسِدُ بنار أحقاده أنْضَرَ بانهْ، وأظهر ما في قلبه على لسان الدين وأبانه، وتَقَرَّب الوشاة، وهم مِمَّنْ كان يخدمه ويَغْشاه، إلى سلطانه الذي كان عِزّةَ أوطانه الذي كان يأمنه ولا يخشاه، حتى فَسَدَ عليه ضميرُه، وتكدَّر - ومَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ -

---

(١) النَّدِيُّ: مجلس القوم. مختار الصحاح (ندا).

(٢) الوَدِيُّ، بفتح الواو وكسر الدال وتشديد الياء: صغار الفسيل (النخل)، الواحدة وَدِيّة. مختار الصحاح (ودى).

(٣) الإحن: جمع إحْنة وهي الحِقْد. مختار الصحاح (أحن).

(٤) في طبعة دار صادر: «مغلول، ونطاق الرعاية محلول، ودم الوقاية مطلول».

(٥) في طبعة دار صادر: «ويسلب».

(٦) «يُسِرُّ حَسْوًا في ارتغاء»: مَثَلٌ يُضرَب لمَن يُريك أنه يُعِينُكَ، وهو يجرُّ النَّفْعَ إلى نفسه. والارتغاء: شرب الرَّغْوة، وأصل المثل أنَّ رجلاً أُتي بلبن، فأظهر أنه يريد الرَّغْوة خاصة ولا يريد غيرها، فيشربها، وهو في ذلك ينال من اللبن. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٤١٧).

(٧) يقال: وَلَغَ الكلبُ في الإناء وفي الشراب ومنه وبه: شرب ما فيه بأطراف لسانه أو أدخل فيه لسانه فحرّكه. محيط المحيط (ولغ).

(٨) رَفَا الثوبَ: أصلحه. محيط المحيط (رفا).

(٩) فَغَرَ فاه: فتحه. محيط المحيط (فغر).

نَـمِيرُهُ[1]، فأحسَّ بظاهر التغيّر، وصار في الباطن من أهل التحير، وأجال قِدَاح آرائه، والْتَفَتَ إلى جهة العدوّ من ورائه، ففرَّ مشمّرًا عن ذَيْله في لُـمَّةٍ من خيله، إلى أسد العرين، سلطان بني مَرين، وكان إذ ذاك بِتِلِـمْسَان، وهو من أهل العلم والعدل والإحسان، فاهتزَّ لِـمَقْدَمِهِ، ولقيه بخاصّته وخدمه، وأكرم مَثْواه، وجعله صاحب نَـجْواه، ثم أدرك السلطانَ الْـحِمَامُ[2]، وكُسِفَ بَدْرُهُ وَقْتَ التمام، فَرَجَع لسانُ الدين إلى فاس، واستنشق بها أَطْيَبَ الأنفاس، وكثرت بعد ذلك الأهوال، وتغيَّرَتْ بسببه بين رؤساء العُدْوة والأندلس الأحوال، فما نجا من مكر العدا ولا سلم، وآل أَمْرُهُ من الاغتيال وما نَفَعَ الاحتيالُ إلى ما علم، على يَدَيْ[3] بعض أعدائه، الذين كانوا يتربّصون الدوائر لإردائه، فأصبح كأمْسِ الذاهب، وصارَتْ أموالُه وضياعُه عُرْضَةً للناهب، وغَصَّ بذلك مَن كان من أوِدَّائِه[4]، وأخذ اللّه ثاره، من بعض مَنْ حَرَّكَ عليه الـمَكْر وأثاره، وتسبب في هلاكه، حتى انْتَثَرَتْ جواهر أسلاكه، ومات بدائه. فالعيونُ إلى هذا الوقت على لسان الدين باكية، ونفوسُ الأكابر وغيرهم مما فُعل به شاكية، والألسنةُ والأقلام لمقاماته في الإسلام حاكية.

فمَنْ كان بهذه السِّمَات وأكْثَرَ منها موصوفًا، لا يَقْدِرُ مثلي على تحبير التعبير عنه ويَخْشى أنْ تكون فكرته كخرقاءَ نَقَضَتْ قُطْنًا أو صُوفًا[5].

ثم إني لَـمّا تَكَرَّرَ عليّ في هذا الغرض الإلحاح، ولم تُقْبَلْ أعذاري التي زَنْدُها شَحَاح[6]، عَزَمْتُ على الإجابة لما للمذكور عَلَيَّ من الحقوق، وكيف أقابل برّه حفظه اللّه بالعقوق؟ وهو الذي يَرْوِي من أحاديث الفضلِ الحسانَ والصحاح، فوَعَدْتُه بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة الـمُعِزِّيّة[7]، وأَزْمَعْتُ السَّيْرَ عن دمشق المعروفة الْـمَزِيّة،

---

(١) النَّمِيرُ: الزاكي من الماء. القاموس المحيط (نمر).

(٢) الـحِمامُ، بكسر الحاء: قضاء الموت وقدره. لسان العرب (حمم).

(٣) في طبعة دار صادر: «على يد».

(٤) الأَوِدّاءُ: جمع وديد وهو الـمُحِبّ. لسان العرب (ودد).

(٥) الـخَرْقاء: الـحَمْقاء، وهي تأنيث الأخرق. لسان العرب (خرق). وهنا يستند على المثل: «خرقاءُ وَجَدَتْ صُوفًا»، يُضرَب للذي يُفْسِدُ ماله. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٢٣٧).

(٦) الزَّنْدُ: العود الذي تُقْدَحُ به النار. والزَّنْدُ الشَّحاحُ: الذي لا يوري، أي لا يُخْرِجُ النار. محيط المحيط (زند) و(شحح) و(وري).

(٧) يشير إلى الـمُعِزّ أبي تميم معدّ بن إسماعيل، الذي أمر غلامه جوهرًا ببنائها في سنة ٣٥٨ هـ. معجم البلدان (جـ ٤ ص ٣٠١، مادة القاهرة).

وألبسني السفر منها من الخلع زِيّه، ورَحَلْنا عن تلك الأرجاء المتألّقة، والقلوبُ بها وبمَن فيها متعلّقة: [الطويل]

حَلَلْنا ديارًا للغرام سَرَتْ بِهَا ... إلَيْنَا صَبَا نَجْدٍ بِطِيبِ نسيمِ
ويَانَ رَدَا الأشجانِ لَمَّا تجاذَبَتْ ... أكُفُّ المُنَى فيها رِدَاءَ نعيمِ
فما أنْشَبَتْنا العِيسُ أنْ قَذَفَتْ بنا ... إلى فُرْقَةٍ والعَهْدُ غَيْرُ قديمِ[1]

فخرج معنا ـ أسماه اللّه ـ مع جملة من الأعيان إلى دَاريًّا، المضاهية لدَارِينَ في رَيَّاها وحَبّذا رَيًّا، فألفيناها: [مجزوء الكامل]

رَيًّا مِنَ الأنداء[2] طَيـ ... ـيبةً لها القَدْرُ الجليلْ
تُهدِي لنا أرْجَاؤُهَا ... أرَجًا من الزَّهْرِ البليلْ
وبها الغُصُون تمايَلَتْ ... مَيلَ الخليلِ على الخليلْ

ووصلنا عند الظُّهيرة، وسَرَّحْنا العيونَ في محاسنها[3] الشهيرة: [الخفيف]

مَنْزِلٌ كالرَّبيعِ حلَّتْ عليه ... حالياتُ السَّحاب عِقْدَ النِّطَاقِ
يُمْتِعُ العَيْنَ من طرائِقِ حُسْنٍ ... تَتَجَافَى بها عن الإطراقِ

وقُلْنا بها، لَمَّا نَزَلْنا بجانبها[4]: [الوافر]

وبِتْنَا والسرورُ لنا نَدِيمٌ ... ومَاءُ عيونِهِ الصَّافي مُدَامُ
يُسَايِرُهُ النسيمُ إذا تغنَّتْ ... حَمَائِمُهُ ويَسْقِيهِ الغَمَامُ

فيا لك من ليلة أرْبَتْ في طيب النفح، على ليلة الشَّريف الرضيّ بالسَّفْح[5]: [المنسرح]

---

(١) العِيس: الإبل. الفُرْقَة، بضم الفاء: الخلاف. مختار الصحاح (عيس) و(فرق).

(٢) الرَّيّا، بفتح الراء وتشديد الياء المفتوحة: الرِّيحُ الطيبة. الأنداء: جمع النَّدَى وهو شيء يُتَطَيَّبُ به كالبخور. محيط المحيط (روي) و(ندي).

(٣) في طبعة دار صادر: «بدائعها» بدل «محاسنها».

(٤) في طبعة دار صادر: «بجنابها».

(٥) الشريف الرِّضي هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى، العلوي الحسيني الموسوي، أشعر الطالبيين. ولد ببغداد وتوفي بها سنة ٤٠٦ هـ. تاريخ بغداد (جـ ٢ ص ٢٤٦) ويتيمة الدهر (جـ ٣ ص ١٣١) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤١٤). ويشير المقري هنا إلى قول الشريف الرضي في ليلة السَّفْح: [البسيط] =

ونــحــنُ فــي رَوْضَــةٍ مُـفَـوَّفَـةٍ   قد وُشِّيَتْ بـالـغـمـائـمِ الـوُكُـفِ
نُـغْـفِـي عـلـى زَهْـرِهَـا فَـيُـوقِظُنـا   وَهْنًا هَـدِيرُ الـحـمـائـمِ الـهُـتُـفِ
ودَوْحُــهــا مــن نَـداهُ فـي وُشُـحٍ   ومِـنْ لآلـي الأزهَـارِ فـي شُـنُـفِ
والـغُـصْـنُ من فـوقـه حَـمَـامـتـه   كـأنـهـا هَـمْـزَةٌ عـلـى ألِـفِ

وما أقرب قول الوزير ابن عمّار[1]، من وصف ذلك المضمار، الجامع للأقمار: [مجزوء الكامل]

يـا لَـيْـلَـةً بِـتْـنَـا بـهـا   فـي ظـلِّ أكـنـافِ الـنَّـعـيـمِ
مِـنْ فَـوْقِ أكـمـامِ الـرِّيا   ضِ وتَـحْـتَ أذيـالِ الـنَّـسِـيـمِ

وناهيك بِمَحَلٍّ قَرُبَ من دمشق الغرّاء، فَخَلَعَتْ عليه حللُ الْحُبُور والسَّراء، وأمدَّتْهُ بضيائها، وأوْدَعَتْهُ بَرْقَ حَيَاها[2] وماء حيائها، فصار ناضرَ الدَّوْحات، عاطرَ الغَدَوات والرَّوحات، مُونِقَ الأنفاس والنفحات، مُشْرِقَ الأسِرَّة والصفحات، هذا والقلوبُ من الفراق في قَلَق، ولسانُ الحال ينشد: [البسيط]

وبي عَلاَقَةُ وَجْدٍ ليس يَعْلَمُها   إلاّ الَّذِي خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقِ[3]

ويحثُّ على انتهاز فرصة اللقاء إذ هي غنيمة، ويذكُرُ بقولِ مَنْ قال وأكُفُّ الدهر موقظة ومُنيمة[4]: [الوافر]

= يا ليلةَ السَّفحِ، ألاَ عُدْتِ ثانيةً   سَقَى زمانَكَ هَطّالٌ مِنَ الدِّيَمِ
ديوان الشريف الرضي (جـ ٢ ص ٢٧٣).

(١) هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار الشُّلْبي الأندلسي؛ شاعر مشهور، قتله مليكه المعتمد بن عباد بيده سنة ٤٧٧ هـ بمدينة إشبيلية. الذخيرة (ق ٢ ص ٣٦٨) وقلائد العقيان (ص٨٣) وبغية الملتمس (ص ١١٣) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٢٥) والحلّة السيراء (جـ ٢ ص ١٣١) والمطرب (ص ١٦٩) والمغرب (جـ ١ ص ٣٨٢).

(٢) الحَيَا، بالفتح: المطر. مختار الصحاح (حيا).

(٣) في عجز هذا البيت يقتبس الشاعر من القرآن الكريم قول اللّه تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. سورة العلق ٩٦، الآية ٢.

(٤) جاء في طبعتي إحسان عباس ومحيي الدين عبد الحميد أن هذين البيتين من شعر ابن الخياط شاعر صقلية، وأنهما في كتاب المغرب لابن سعيد، ونحن نقول إن هذين البيتين لم يردا في المصدر =

تَـمَـتَّـعْ بـالـرُّقَـادِ عـلـى شِـمَـالٍ فـسَـوْفَ يـطـولُ نَـوْمُـكَ بـالـيـمـيـنِ
ومَـتِّـعْ مَـنْ يُـحِـبُّـكَ بـاجـتـمـاعٍ فـأنـتَ مـن الـفـراقِ عـلـى يـقـيـنِ

ثم حضر بعد تلك الليلة موقف الوَدَاع، والكلُّ ما بين واجمٍ وباكٍ وداع، فَتَمَثَّلْتُ بقول مَنْ قَلْبُهُ لفراق الأحباب في انْصِدَاع: [المجتث]

وَدَّعْـتُـهُـمْ ودُمـوعـي عـلـى الـخـدودِ غِـزَارُ
فـاسـتـكـثـروا دَمْـعَ عـيـنـي لـمَّـا اسْـتَـقَـلُّـوا[1] وسَـارُوا

وقـول آخر: [السريع]

يـا وَحْـشَـةً مِـنْ جِـيـرَةٍ قَـدْ نَـأَوْا عُـلُـوُّ قَـدْري فـي الْـهَـوَى انـحَـطَّـا
حكَتْ دموعي البحرَ مِنْ بُعْدِهِمْ لَـمَّـا رأتْ مَـنْـزِلَـهُـمْ شَـطَّـا[2]

وحُقَّ لي أَنْ أَتَـمَثَّلَ في ذلك بقول العزازي[3]: [الخفيف]

لا تَـسَـلْـنـي عَـمَّـا جَـنـاهُ الـفـراقُ حَـمَّـلَـتْـنـي يَـدَاه مـا لا يُـطَـاقُ
أَيـنَ صَـبْـرِي أم كـيـف أمْـلِـكُ دَمْـعِـي والـمَـطَـايـا بـالـظـاعِـنِـيـنَ تُـسَـاقُ
قِـفْ مـعـي نَـنْـدُبُ الـطُّـلُـولَ فـهٰـذِي سُـنَّـةٌ قَـبْـلُ سَـنَّـهـا الـعُـشَّـاقُ
وأعِـدْ لـي ذكـر الـغُـوَيْـرِ[4] فـكـم مـا لَ بِـعِـطْـفِـي نـسـيـمُـهُ الـخَـفَّـاقُ
فـي سـبـيـلِ الـغَـرَامِ مـا فـعَـلَـتْ بـالـ ـعـاشِـقِـيـنَ الـقُـدودُ والأحْـدَاقُ
يَـوْمَ وَلَّـتْ طـلائـعُ الـصَّـبْـرِ مـنّـا ثـم شَـنَّـتْ غـاراتِـهَـا الأشْـوَاقُ

= المذكور، كذلك لم يرد فيه اسم ابن الخياط، بل فيه ترجمة لأبي عبد اللّه محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني الأعمى القرطبي. المغرب (جـ ١ ص ١٢١).

(١) استقلَّ القومُ: ذهبوا وارتحلوا. محيط المحيط (قلل).

(٢) في كلمة «شَطَّ» معنيان؛ الأول بمعنى «الشاطىء» لمماثلة البحر، والثاني بمعنى «بَعُدَ»، والمراد المعنى الثاني، وهو ما يُسَمَّى في علم البديع بالتورية التي هي من المُحَسِّنات المعنوية.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الفزاري». والعزازي هو شهاب الدين أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم، شاعر مصري وتاجر. توفي بالقاهرة سنة ٧١٠ هـ. فوات الوفيات (جـ ١ ص ٩٥). وقد ورد البيتان الثالث والرابع من مقطوعته في فوات الوفيات (جـ ١ ص ٩٦ ـ ٩٧) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) الغُوَيرُ: موضع على الفرات، وقيل: ماء لكلب بأرض السماوة بين العراق والشام. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٢٢٠).

ويقــول غيـره: [المنسرح]

كُنَّا جميعًا والدارُ تَجْمَعُنَا   مثلَ حروفِ للْجَمْعِ[1] مُلْتَصِقَهْ
واليومَ صارَ الوَداعُ يَجْعَلُنَا   مثلَ حُرُوفِ الوَداعِ مُفْتَرِقَهْ

وقــول آخر: [الخفيف]

حين هَمَّ الحبيبُ بالتَّوديعِ   عَيَّرُوني أنّي سَفَحْتُ دُمُوعِي
لم يذوقوا طَعْمَ الفراقِ ولا ما   أَحْرَقَتْ لوعَةُ الأَسَى من ضلوعي
كيف لا أسْفَحُ الدموعَ على رَبْـ   ـعِ حَوَى خَيْرَ ساكنٍ وجُمُوعِ
هَبْكَ أنّي كَتَمْتُ حالي أتَخْفَى   زفَرَاتُ المُتَيَّمِ المَصْدُوعِ
إنَّما يُعْرَفُ الغَرَامُ بِمَنْ لا   حَ عليه الغَرامُ بَيْنَ الربوعِ

وقول مَن قال: [المتقارب]

أقولُ له عِنْدَ تَوْدِيعِهِ   وكُلٌّ بِعَبْرَتِهِ مُبْلِسُ[2]
لَئِنْ قَعَدَتْ عَنْكَ أجْسَادُنا   لقد سافَرَتْ مَعَكَ الأنفُسُ

وقول الصابي[3]: [المتقارب]

ولَمَّا حَضَرْتُ لتَوْدِيعِهِ   وطَرْفُ النَّوَى نَحْوَنا أشْوَسُ[4]
عكسْتُ له بَيتَ شعرٍ مَضَى   يليقُ به الحالُ إذ يُعْكَسُ
لَئِنْ سافَرَتْ عنك أجسادُنا   لَقد قَعَدَتْ معك الأنفُسُ

وقول المهذب بن أسعد الموصلي[5]: [الكامل]

دَعْني وما شاءَ التفرّقُ والأسَى   واقْصِدْ بلَومِكَ مَنْ يطيعُكَ أو يَعِي

---

(١) في طبعة دار صادر: «حروفِ الجميع».
(٢) مُبْلِسٌ: اسم فاعل لفعل أبلس؛ يقال: أبلس فلان إذا سَكَتَ غَمًّا. مختار الصحاح (بلس).
(٣) هو أبو إسحق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني الصابىء؛ صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع. توفي سنة ٣٨٤ هـ. يتيمة الدهر (جـ ٢ ص ٢٤١) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ٥٢).
(٤) الأشْوَسُ: مَن نظر بمؤخر عينه تَكَبُّرًا أو صَغَّر عينه وضمَّ أجفانه. محيط المحيط (شوس).
(٥) هو أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن علي، المعروف بابن الدهان الموصلي، ويعرف بالحمصي أيضًا، وينعت بالمهذب؛ أديب شاعر، ولد في الموصل وأقام بمصر مدة، وانتقل إلى الشام، فولي التدريس بحمص وتوفي بها سنة ٥٨١ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٥٧) والأعلام (جـ ٤ ص ٧٢).

لا قلبَ لي فأعي الملامَ فإنني　　أوْدَعْتُهُ بالأمسِ عِنْدَ مُوَدِّعِي
هَل يَعْلَمُ المتحمِّلونَ لنُجْعَةٍ　　أنَّ المنازلَ أخْصَبَتْ من أدْمُعِي
كم غادروا حَرَضًا[1] وكم لوَدَاعِهِمْ　　بينَ الجوانحِ مِنْ غرَامٍ مُوَدِّعِ
والسقْمُ آيةُ ما أُجِنُّ[2] مِنَ الجَوَى　　والدَّمْعُ بَيِّنَةٌ على ما أدَّعِي

وقول الكمال التَّنُوخي: [الكامل]

كم ليلةٍ قد بِتُّها أرْعَى السُّهَا　　جَزَعًا لفُرْقَتِهِمْ بمُقْلَةِ أرْمَدِ[3]
قَضَّيْتُهَا ما بين نومٍ نافِرٍ　　وزفيرِ مَهْجُورٍ وقَلْبِ مُكمَدِ
لم أنسَ أيامَ السُّرور وطِيبَهَا　　بين السَّدِيرِ وبين بُرْقَةِ ثهْمَدِ[4]
والروضُ قد أبْدَى بدائعَ نَورِهِ　　مِنْ أزرقٍ ومُفَضَّضٍ ومُوَرَّدِ
والماءُ يَبْدُو كالصَّوارمِ سَارِيًا　　فيعيدُهُ مَرُّ الصَّبَا كالمِبْرَدِ
والطيرُ بين مُسَجِّعٍ ومُرَجِّعٍ　　ومُغَرِّدٍ ومُعَدِّدٍ ومُرَدِّدِ

وقول القاضي بهاء الدين السنجاري[5]: [الكامل]

أَحْبابَنَا ما لي على بُعْدِ المَدَى　　جَلَدٌ ومَنْ بَعْدَ النَّوَى يَتَجَلَّدُ
للَّه أوقاتُ الوِصالِ ومَنْظَرٌ　　نَضِرٌ وغُصْنُ الوَصْلِ غَضٌّ أمْلَدُ
أنَّى يُطِيقُ أخو الهَوَى كتمانَهُ　　والخَدُّ بالدمعِ المصونِ مُخَدَّدُ
ما بَعْدَ مفترقِ الركابِ تَصَبُّرٌ　　عَمَّنْ أُحِبُّ فهل خليلٌ يُسْعِدُ
يا سَعْدُ، ساعِدْ بالبكاءِ أخا هَوًى　　يَوْمَ الوَداعِ بَكَى عليه الحُسَّدُ[6]

---

(١) الحَرَضُ، بالفتح: الإشراف على الهلاك. محيط المحيط (حرض).
(٢) أَجَنَّ الشيءَ في صدره: أكَنَّه وستره. مختار الصحاح (جنن).
(٣) السُّها: كوكب خفيٌّ يمتحن الناسُ به أبصارهم. الفُرْقة، بضم الفاء: الاسم من فارق. الأرمد: الذي في عينه مرض الرَّمَد. مختار الصحاح (سها) و(فرق) و(رمد).
(٤) السَّديرُ: نَهْرٌ، ويقال قصر قريب من الخَوَرْنَق. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٢٠١). بُرْقَةُ ثَهْمَدٍ: لبني دارم. معجم البلدان (جـ ١ ص ٣٩٢).
(٥) هو أبو السعادات بهاء الدين أسعد بن يحيى بن موسى السنجاري؛ فقيه، غلب عليه الشعر فأجاد فيه واشتهر به. توفي بسنجار سنة ٦٢٢ هـ. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٢١٤) ومعجم البلدان (جـ ٣ ص ٢٦٣، مادة سنجار).
(٦) الحُسَّدُ: جمع حاسد. محيط المحيط (حسد).

وقول ابن الأثير: [مجزوء الكامل]

لـم أنـسَ لـيـلَـةَ وَدَّعـوا صَبًا[1] وساروا بـالْـحُـمُـولِ
والـدَّمْـعُ مِـنْ فَـرْطِ الأَسَـى يَـجـرِي فـيـعـثـرُ بـالـذيُـولِ

وقـول الأَرَّجَاني[2]: [الطويل]

ولَـمَّـا وَقَـفْـنَـا لـلـوداع عَـشِـيَّـةً وطَرْفي وقـلـبي هـامعٌ وخَفُـوقُ
بَكَيْتُ فأَضْحَكْتُ الوُشَاةَ شَماتَةً كـأنـي سَـحَـابٌ والـوُشَـاةُ بُـرُوقُ

وقول ابن نُبَاتة السَّعدي[3]: [الطويل]

ولَـمَّـا وقَـفْـنَـا لـلـوداعِ عـشـيـةً ولـم يَـبْـقَ إلاَّ شـامِـتٌ وغَـيُـورُ
وقَفْنَا فَمِنْ باكٍ يُكَفْكِفُ دَمْعَه ومُـلْـتَـزِمٍ قَـلْـبًـا يـكـادُ يَـطِـيـرُ

وقـول بعضهم: [السريع]

لَـمَّـا حَـدَا الْـحَـادي بـتَـرْحَـالِـهِـمْ هَـيَّـجَ أشْـوَاقِـي وأشْـجَـانِـي
ورَاحَ يَثْنِي القَلْبَ عن غَيْرِهِمْ فـهْـوَ لـهُـمْ حـادٍ ولـي ثـانِـي[4]

وقـول الصَّفَدي[5]: [السريع]

لَـمَّـا اعْـتَـنَـقْـنَـا لِـوَدَاعِ الـنَّـوَى وكِـدْتُ مِـنْ حَـرِّ الـجَـوَى أُحْـرَقُ
رأيْـتُ قـلـبـي سـارَ قُـدَّامَـهُـمْ وأدمُـعِـي تَـجْـري ولا تُـلْـحَـقُ

وقوله أيضًا: [الطويل]

تَذكَّرْتُ عيشًا مَرَّ حُلْوًا بقربكمْ[6] فـهل لـلـيـالِـيـنـا الـذواهـبِ واهِـبُ

---

(١) الصَّبُّ، بفتح الصاد: ذو الصَّبابة. محيط المحيط (صبب).
(٢) هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأَرَّجاني، شاعر، في شعره رقّة وحكمة. توفي بمدينة تُسْتر سنة ٥٤٤ هـ. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٥١) ومعاهد التنصيص (جـ ٣ ص ٤١).
(٣) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد ابن نُباتة السَّعْدي؛ من فحول شعراء عصره. توفي ببغداد سنة ٤٠٥ هـ. تاريخ بغداد (جـ ١٠ ص ٤٦٦) ويتيمة الدهر (جـ ٢ ص ٣٧٩) ووفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٩٠).
(٤) حادٍ: مَن حَدَا الإبلَ أي ساقها. ثاني: من ثَنَى القلب يثنيه. مختار الصحاح (حدا) و(ثنى).
(٥) هو صلاح الدين خليل بن أيبك. وقد تقدّمت ترجمته.
(٦) في طبعة دار صادر: «حُلْوًا بكم فهل لأيامنا تلك الذواهبِ...».

وما انْصَرَفَتْ آمالُ نفسي لغَيْركمْ ولا أنا عن هٰذي الرغائب غائبُ
سأصْبِرُ كَرْهًا في الْهَوَى غيرَ طائعٍ لعلَّ زماني بالحبائبِ آيِبُ

وقول ابن نُباتة المصري[1]: [السريع]

في كَنَفِ اللّه وفي حِفْظِهِ مَسْراكَ والعَوْدُ بِعَزْمٍ صريحْ
لو جازَ أنْ تسلكَ أجفانَنا كُنّا فَرَشْنا كلَّ جَفْنٍ قريحْ
لكنها بالبُعْدِ مُعْتَلَّةٌ وأنتَ لا تَسْلكُ إلاّ الصحيحْ

وقول الحافظ أبي الحسن علي بن الفضل[2]: [الطويل]

عَجِبْتُ لنفسي بَعْدَهُمْ ما بَقَاؤها ولم أحْظَ مِنْ لُقْيَاهُمُ بِمُرَادي
لَعَمْرُكَ ما فارَقْتُهُمْ مُنْذ وَدَّعوا ولكنما فارقْتُ طِيبَ رقادي
وقد مَنَعوا مني زيارة طَيْفهمْ وكيفَ يزورُ الطَّيْفُ حِلْفَ سُهادِ
وأعجبُ ما في الأمر شوقي إليهِمُ وهُمْ في سَوَادَيْ ناظري وفُؤَادي

وقوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

رعَى اللّهُ أيامَ المُقَامِ بِرَوْضَةٍ تَرُوحُ عَلَينا بالسرورِ وتَغْتَدِي
كأن الشَّقيقَ الغَضَّ بَيْنَ بِطَاحِهَا نجومُ عقيقٍ في سماءِ زَبَرْجَدِ

وقول القاضي الرشيد الأسواني[3]: [الكامل]

رَحَلُوا فلا خَلَتِ المنازلُ مِنْهُمُ ونَأوْا فلا سَلَتِ الجوانحُ عنهُمُ
وسَرَوا وقد كَتَمُوا الغَدَاةَ مَسِيرَهُمْ وضياءُ نور الشمسِ لا يُكْتَمُ
وتبدَّلوا أرضَ العقيقِ عنِ الحِمَى رَوَّتْ جفوني أيَّ أرضٍ يَمَّمُوا

---

(١) هو جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المصري؛ شاعر وكاتب. توفي بالقاهرة سنة ٧٦٨ هـ. البداية والنهاية (جـ ١٤ ص ٣٢٢).

(٢) أبو الحسن علي بن الفضل فقيه أندلسي، أصله من أوريوله Orihuela، سكن إشبيلية وساد فيها. له الموشحات السائرة في المغرب والمشرق. توفي سنة ٦٢٧ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ٢٨٦) واختصار القدح (ص ١٠٨).

(٣) هو الرشيد أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني الأسواني المصري، وقد مرّت ترجمته في هذا الجزء. وأبياته هذه في معجم الأدباء (جـ ١ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١) والوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١) وروايتها مختلفة بعض الاختلاف عمّا هنا.

نَزَلُوا العُذَيْب وإنما هو مهجتي   رَحَلوا وفي قلبِ المُتَيَّم خيَّموا
ما ضَرَّهُمْ لو وَدَّعوا مَنْ أَوْدَعُوا   نارَ الغرام وسلَّموا مَنْ أسلَموا[1]
هُمْ في الحَشَا إن أعْرَقوا أو أيْمَنُوا   أو أشأموا أو أنجدُوا أو أتْهَمُوا

وقول الشاعر أبي طاهر الأصفهاني، المعروف بالوَثّابي[2]: [الطويل]

أشاعُوا فقالوا وَقْفَةٌ ووَدَاعُ   وزُمَّتْ مَطَايا للرحيلِ سِراعُ
فقلْتُ وَدَاعٌ لا أُطِيقُ عِيَانَهُ   كفاني من البَيْنِ المُشِتِّ سَمَاعُ
ولم يَمْلِكِ الكتمانَ قلبٌ مَلَكْتُهُ   وعِنْدَ النَّوى سِرُّ الكتومِ مُذَاعُ

وقول أبي المجد قاضي مارِدِينَ: [الطويل]

رعَى اللَّه رَبْعًا أنتمْ فيه أهْلُهُ   وجادَ عليه هاطِلٌ وهَتُونُ
ولا زال مُخْضَرَّ الجوانبِ مُتْرَعَ الـ   ـحِياض وفيه للنَّعيم فُنُونُ
لَئِنْ قَدَّرَ اللَّهُ اللقاءَ وأيْنَعَتْ   غصُونُ التداني فالبِعادُ يَهُونُ
وإنْ حَكَمَتْ أيدي الفراق بعُسْرَةٍ   فكم قُضِيَتْ للمُعْسِرِينَ دُيُونُ

وقول آخر: [الكامل]

غِبْتُمْ فما لي في التَّصَبُّرِ مَطْمَعُ   عَظُمَ الجَوَى واشْتَدَّتِ الأشْوَاقُ
لا الدارُ بَعْدَكُمُ كما كانَتْ ولا   ذَاك البَهَاء بِهَا ولا الإشراقُ
أشتاقُكُمْ، وكذا المُحِبُّ إذا نَأَى   عنهُ أَحِبَّةُ قَلْبِهِ يَشْتَاقُ

وقول أبي الحسن الهمذاني[3]: [الوافر]

وَيَوْمَ تَوَلَّتِ الأظعانُ عنَّا   وقَوَّضَ حاضِرٌ وأرَنَّ بادِي[4]
مَدَدْتُ إلى الوَدَاعِ يدًا وأخرى   حَبَسْتُ بها الحياةَ على فُؤَادي

---

(١) أودعوا نارَ الغرام: أي جعلوا نار الغرام وديعةً. أسلموا: أي أسلموه لعدوه، فخذلوه.
(٢) هو إسماعيل بن محمد بن أحمد الوَثّابي الأصفهاني؛ أديب وشاعر، له شعر حسن رائق. توفي سنة ٥٣٢ هـ. اللباب في تهذيب الأنساب (جـ ٣ ص ٢٦٢).
(٣) في طبعة دار صادر: «الهمداني» بالدال المهملة.
(٤) الأظعان: جمع الظَّعِينة وهي الهودج، كانت فيه امرأة أو لم تكن. أرنَّ: صاح. مختار الصحاح (ظعن) و(رنن).

وقول ابن الصائغ[1]: [البسيط]

قد أودَعُوا القلبَ لَمَّا وَدَّعُوا حُرَقًا ... فَظَلَّ في الليلِ مثلَ النَّجْمِ حَيْرَانَا
رَاوَدْتُهُ يَسْتَعِيرُ الصَّبْرَ بَعْدَهُمُ ... فقال: إني اسْتَعَرْتُ اليوم نِيرَانَا

وقول الصدر بن الأدَمي[2] مُكْتَفِيًا: [الرمل]

يَوْمَ توديعي لأحبابي غَدًا ... ذِكْرُ ميّ شاغِلِي عَنْ كلِّ شَيْ
فَرنَتْ نحوِي وقَالت: يا تُرَى ... أنتَ حَيٌّ في هوانا؟ قلْتُ: مَيْ[3]

وقول غيره: [السريع]

ولي فُؤَادٌ مذ نَأى شَخْصُهُمْ ... ظَلَّ كئيبًا مُدْنَفًا مُوجَعَا
ومُقْلَةٌ مَهْما تَذَكَّرتُهُمْ ... تَذْرِفُ دَمْعًا أرْبَعًا أربعا
وليس لي مِنْ حيلةٍ كلما ... لَجَّتْ بِيَ الأشواقُ إلاَّ الدُّعَا
أسألُ مَنْ ألَّفَ ما بَيْنَنا ... وقَدَّرَ الفُرْقَةَ أنْ يجمعا

وقول الرُّعَيْني الغرناطي[4]: [الطويل]

محاسِنُ رَبْعٍ قد مَحَاهُنَّ ما جَرَى ... من الدمع لَمَّا قِيلَ قد رَحَلَ الرَّكْبُ
تناقَضَ حالي مُذْ شَجَاني فراقُهُمْ ... فَمِنْ أضْلعي نارٌ ومِنْ أدمعي سَكْبُ

وفي معناه قوله أيضًا[5]: [الطويل]

---

(١) ابن الصائغ هذا ليس أبا بكر بن الصائغ، المعروف بابن باجة، ولو عَناهُ المقري لذكره باسم ابن باجة، كما سيأتي في الأجزاء الرابع والخامس والتاسع من نفح الطيب. وأغلب الظن أنه الشيخ شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن حسن الجذامي، المعروف بابن الصائغ، الأديب الشاعر واللغوي النحوي، المتوفّى بدمشق سنة ٧٢٠ هـ، وقيل: سنة ٧٢٢ هـ، وقيل: سنة ٧٢٥ هـ. بغية الوعاة (ص ٣٤) والبداية والنهاية (جـ ١٤ ص ٩٨).

(٢) صدر الدين ابن الأدَمي هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد؛ قاضٍ، وشاعر وكاتب. توفي بدمشق سنة ٨١٦ هـ. الأعلام (جـ ٥ ص ٧ ومصادر حاشيته).

(٣) كلمة «مَيْ» هنا تعني «مَيْت»، وقد اختصرها الشاعر مكتفيًا ببعض الكلمة، وكأنه لا يستطيع الكلام. وهذا الاكتفاء هو ما أراده في قوله: «مكتفيًا».

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي، وقد تقدمت ترجمته.

(٥) أورد ابن خلّكان هذين البيتين في كتابه وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ١٧٢) ببعض الاختلاف عمّا هنا، ونسبهما إلى أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة، وعلم البيان، والمتوفّى سنة ٥٣٨ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ١٦٨).

وقـائـلـةٍ: مـا هـذه الـدُّرَرُ الـتـي تُساقِطُها عَيناكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ
فقلت لها: هذا الذي قد حَشَا به أبُو مُضَرٍ أُذْنِي تَساقَطَ مِنْ عيني

وقول الزمخشري[1]: [الكامل]

لم يُبْكني إلاّ حديثُ فراقِهِمْ لَـمَّـا أَسَـرَّ بـه إلـيَّ مُـوَدِّعـي
هـو ذلـك الـدُّرُّ الـذي أَوْدَعْـتُـمُ في مَسْمَعي أَجْرَيْتُهُ من مَدْمَعي

وقول الزُّغاري: [الرجز]

قد بِعْتُهُمْ قَلْبِيَ يَومَ بَيْنِهِمْ بـنـظـرةِ الـتـوديـعِ وَهْـوَ يـحـتـرقْ
ولـم أجِـدْ مِـنْ بَـعْـدِهـا لِـرَدِّهِ وَجْهًا وكان الرَّدُّ لو لم نَفْترقْ

وقول بعض الأندلسيين: [البسيط]

سارُوا فودَّعَهُمْ طَرْفي وأَودَعَهُمْ قلبي فما بَعُدُوا عَنّي ولا قَرُبُوا
هُمُ الشموسُ ففي عَيْني إذا طَلَعوا في القادمين وفي قلبي إذا غَرَبُوا

وقلت أنا مُضَمِّنًا بديهة: [المجتث]

لا كـــان يـــومُ فـــراقِ ســـاقَ الـشـجـونَ إلَـيـنَـا
فـكـم أذلَّ نـفـوسًـا يـا مَـنْ يَـعِـزُّ عـلـيـنـا[2]

وقلت أيضًا مُضَمِّنًا[3]: [البسيط]

سلا أحِبَّتَه مَنْ لم يَذُبْ كمدًا يومَ الوداعِ وإنْ أجرى الدموعَ دَمَا
يا مَنْ يَعِزُّ علينا أنْ نُفارِقَهُمْ مِنْ بُعْدِكُمْ هُدَّ رُكْنُ الصَّبْرِ وانْهَدَما
وإنْ نأى الجسْمُ كَرْهًا عن منازلكمْ فالقلبُ ثاوٍ بها لمن يصحَبِ القَدَما
وما نسينا عهودًا لِلْهَوَى كَرُمَتْ نَعَمْ قَرَعْنَا عليها سِنَّنَا نَدَمَا

---

(١) أورد ابن خلّكان هذين البيتين في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ١٧٢) باختلاف يسير عمّا هنا، ونسبهما إلى القاضي أبي بكر الأرجاني، وقد تقدّمت ترجمة الأرجاني.

(٢) يُضَمِّنُ في هذا البيت قولَ المتنبي من قصيدة من ٣٨ بيتًا: [البسيط]

يـا مَـنْ يَعِزُّ عـلـيـنـا أنْ نُفـارِقَـهُـمْ وِجْدانُنا كلَّ شيءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

يقول: إذا فارَقْناكم ووجَدْنا كلَّ شيء، فإنَّ وجدانه أو عدمه سواءٌ؛ لأنه لا يغني غناءكم أحدٌ ولا يخلفكم عندنا بدل. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٣٤٤).

(٣) يُضَمِّنُ في البيتين الثاني والخامس بَيْتَ المتنبي السابق الذكر.

وأَظْلَمَتْ بالنَّوَى أرجاءُ مَقْصِدِنا وصارَ وِجْدَانُ إلفِ غيركُمْ عَدَمَا

وقلت أيضًا مُضَمِّنًا: [البسيط]

لم أنسَ بالشام أُنسًا شِمْتُ بارقَهُ جادَتْ معاهِدَهُ أنواءُ نَيْسَانِ[1]
لَهْفِي لعَيْشٍ قضَيْنَا في مشاهدها ما بَيْنَ حُسْنٍ من الدنيا وإحْسانِ

وقلت كذلك: [الكامل]

يا جِيرَةً بانُوا وأبْقَوا حَسْرَةً تجري دموعي بَعْدَهُمْ وَفْقَ الْقَضَا
كم قلتُ إذ ودَّعْتُهُمْ والأُنْسُ لا يُنْسَى وعَهْدُ وِدادِهِمْ لن يُرْفَضَا
يا مَوْقِفَ التوديع إنَّ مدامعي فُضَّتْ وفاضَتْ في ثرى ذاك الفَضَا

وكما تفاءلْتُ بقول الأول، مع علمي بأن على اللّٰه الْمُعَوَّل[2]: [البسيط المخلع]

إذا رأيْتَ الْوَدَاعَ فاصْبِرْ ولا يَهُمَّنَّكَ البِعَادُ
وانتظِرِ العَوْدَ عن قريبٍ فإنَّ قَلْبَ الوَدَاعِ عادُوا

وضاقتْ بي الرِّحاب، عند مفارقة أعيان الأحباب والصِّحاب[3]، وكاثَرَتْ دموعي من بينهم السحاب[4]، وزَنْدُ التذكّر يَقْدَحُ الأسفَ فيهيِّجُ الانتحاب، وقد تَمَثَّلْنا إذ ذاك والجوانحُ مِنَ الْجَوَى في التهاب، وذخائرُ الصبرِ ذاتُ انتهاب، بقولِ بعض مَنْ مَزَّق البُعْدُ منه الإهاب: [الكامل]

ولَمَّا نَزَلْنا منزلاً طَلَّهُ النَّدَى أنِيقًا وبُسْتانًا من النَّوْرِ حاليا
أجَدَّ لنا طِيبُ المكانِ وحُسْنُهُ مُنًى فَتَمَنَّينا فكُنْتَ[5] الأمانيا

---

(١) البارق: البَرْق. شامَ البَرْقَ: نظر إليه أين يُمطر. الأنواء: جمع نَوْء وهو المطر. نَيْسان، بفتح النون وكسرها: اسم شهر، وهو الشهر الرابع من شهور السنة الرومية. محيط المحيط (برق) و(شيم) و(ناء) و(نيس).

(٢) هذان البيتان لبعض شعراء يتيمة الدهر للثعالبي، وسيأتيان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا في البيت الأول.

(٣) في طبعة دار صادر: «عند مفارقة أعيان الصحاب...».

(٤) كاثرتِ السَّحَابَ: غالَبَتْهُ في الكَثْرة، والسَّحاب: جمع سَحَابة وهي الغيم الممطر. محيط المحيط (كثر) و(سحب).

(٥) في طبعة دار صادر: «فكانوا» بدل «فكنْتَ».

وقد طُفتُ في شَرق البلاد وغَرْبِها　　وسَيَّرْتُ خيلي بينها وركابِيا
فلم أرَ منها مثلَ بغدادَ منزلا　　ولم أرَ فيها مثلَ دِجْلَةَ واديا
ولا مِثْلَ أَهْلِيْها أرقَّ شمائلاً　　وأعْذَبَ ألفاظًا وأحْلَى مَعَانيا

وبقول مَنْ تأسَّف على مغاني التداني، وهو أبو الحجاج الأندلسي الداني[١]: [الطويل]

أبى اللّه إلاّ أنْ أفارِقَ منزلاً　　يُطالِعُني وَجْهُ المُنَى فيه سافِرَا
كأنَّ على الأيام حين غَشِيتُهُ　　يمينًا فلم أحْلُلْه إلاّ مُسَافِرا

وتَخَيَّلْنا أنَّ إقامتنا بدمشق وَقاها اللّه كُلَّ صَرْف، ما كانت إلاّ خَطْرةَ طَيْف مُلِمّ[٢] أو لمحة طَرْف: [الوافر]

وَقَفْنَا ساعةً ثم ارْتَحَلْنَا　　وما يُغْني المَشُوقَ وقوفُ ساعَةْ
كأنَّ الشَّمْلَ لم يَكُ في اجتماعٍ　　إذا ما شَتَّتَ البَيْنُ اجتماعَهْ

وطالما عَلَّلْتُ النفسَ بالعَوْد إليها ثم إلى بقاعي، مُنْشِدًا قولَ الأديب الشهير بابن الفُقَّاعِي[٣]: [الطويل]

متى عاينَتْ عيناي أعلامَ حاجر　　جَعَلْتُ مَوَاطِي العِيسِ فوق محاجري[٤]
وإنْ لاحَ مِنْ أرضِ العَوَاصم بَارِقٌ　　رجَعْتُ بأحشاءِ صَوَادٍ صَوَادِرِ[٥]

---

(١) هو أبو الحجّاج يوسف بن عبد اللّه بن أيوب الفهري؛ من أهل دانية، سكن بلنسية وولي بها الأحكام. توفي سنة ٥٩٢ هـ. المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٣١). والبيتان في المقتضب (ص ١٣١) وجاء فيه البيت الثاني ببعض الاختلاف عمّا هنا. وسيأتيان في الجزء الخامس من نفح الطيب ببعض الاختلاف في البيت الثاني.

(٢) طَيف مُلِمّ: أي مُلِمّ بهم؛ يقال: أَلَمَّ بالقوم إذا زارهم. الطَّيْفُ: الخيال. محيط المحيط (لمم) و(طيف).

(٣) هو محمد بن غازي المَوصلي، المعروف بالفُقَّاعي، نسبةً إلى الفُقّاع وهو شراب تعلوه فقاقيع من الزبد؛ شاعر دمشقي، توفي سنة ٦٢٩ هـ. الوافي بالوفيات (جـ ٤ ص ٣٠٦).

(٤) حاجر: موضع. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٢٠٤). مواطي العِيس: أي مواطىء العِيس، وقد حذف الهمزة لكي لا يختلّ الوزن، والمواطىء: جمع مَوْطىء وهو موضع القدم. العِيس: الإبل، الواحد أعيس والواحدة عَيْساء. المحاجر: جمع مَحْجر، والمحجر من العين: ما دار بها، والمراد هنا العيون. محيط المحيط (وطأ) و(عيس) و(حجر).

(٥) البارق: البرق. الأحشاء الصوادي: العَطْشَى، واحدتها صادية. صوادر: أي صادرة عن الماء؛ يقال: صَدَرَ عن الماء إذا رَجَعَ وانصرف. محيط المحيط (برق) و(صدي) و(صدر).

سقى اللَّهُ هاتِيكَ المواطِنَ والرُّبا مَـوَاطِـرَ أجـفـانٍ هـوامٍ هَـوَامِـرِ
وحَيَّا الحيَا من ساكني الحيِّ أَوْجُهًا سَـفَـرْنَ بـأنـوارٍ زَوَاهٍ زواهِـرِ
بحيثُ زمانُ الوَصْلِ غَضٌّ ورَوضُهُ أرِيـضٌ[1] بـأزهـارٍ بَـوَاهٍ بـواهِـرِ
وحَيثُ جفونُ الحاسِدِينَ غضيضَةٌ رَمَـقْـنَ بـآمـاقٍ سَـوَاهٍ سَـوَاهِـرِ[2]

ثم حاولْتُ خاطري الكليل، فيما يشفي بعض الغليل، فقال على طريق التضمين، وقد غلب عليه الشوق والتخمين: [الرمل]

بـأبـي مَـنْ أوْدَعُـوا مُـذْ وَدَّعُـوا قـلـبـيَ الشَّـوْقَ وَلـلـعِـيـسِ ذَمِـيـلُ
جِـيـرَةٌ غُـرٌّ كِـرَامٌ خِـيـرَةٌ كـلُّ شـيء منهُمُ يبدو جَميلُ
وعلى الـجُمْلَةِ ما لي غَيْرُهُمْ لـو أرادوا أنْ يَملّوا أو يميلُوا

ثم قلت وقد سَدَّدَ التنائي إليَّ نَبْله، مُوَطِّئًا للبيت الثالث كما في الأبيات قبله: [الخفيف]

يا دِمَشْقا حَيَّاكِ غَيْثٌ غزيرُ ووقـاكِ الإلـهُ مِـمّـا يَـضِـيـرُ
حُسْنُكِ الفَرْدُ والبدائعُ جَمْعٌ مُـتَـنـاهٍ فـيـه فَـعَـزَّ الـنـظـيـرُ
أيـن أيـامُـنـا بـظـلِّـك والـشَّـمْـ ـلُ جميعٌ، والعَيشُ غَضٌّ نَضِيرُ

ثم أَكْثَرْتُ الالتفاتَ عن اليمين وعن الشمال، وقد شَبَّهْتُ البَيداء والشوق ببدل الكل والاشتمال، وتَنَسَّمْتُ من نواحي تلك الأرجاء أريجَ الشَّمال[3]، وضَمَّنْتُ في المعنى قولَ بعض مَن ثَنَى الحُبُّ عِطْفَهُ وأمال: [الطويل]

تَنَسَّمْتُ أرواحًا[4] سَرَتْ مِنْ ديارِ مَنْ بِهِمْ كان جَمْعُ الشَّمْلِ لمحةَ حالِمِ
وجاوَبْتُ مَن يَلْحى على ذاك جاهلاً بـقـولِ لـبـيـبٍ بـالـعـواقـبِ عـالـمِ
ومـا أنْـشَـقُ الأرواحَ إلاَّ لأنَّـهـا تـمرُّ عـلـى تـلـك الـرُّبـا والـمـعـالِـمِ

وما أحسن قول الآخر: [الطويل]

---

(١) الأريض: المُعْجِبُ للعين. مختار الصحاح (أرض).
(٢) الجفون الغضيضة: الفاترة. الآماق: جمع مُؤْق وهو طرف العين. مختار الصحاح (غضض) و(مأق).
(٣) الشَّمالُ: أي ريح الشمال. مختار الصحاح (شمل).
(٤) الأرواح: جمع رِيح. مختار الصحاح (ريح).

سَرَتْ مِنْ نَوَاحي الشام لي نَسْمةُ الصَّبا وقد أَصْبَحَتْ حَسْرَى مِنَ السَّيْرِ ظَالِعَهْ[1]
ومِنْ عَرَقٍ مَبْلُولةَ الجَيبِ بالنَّدَى ومِنْ تعَبٍ أنفاسُهَا مُتَتَابِعَهْ

وقلت أنا: [الطويل]

حَمِدْتُ وحَقِّ اللّهِ للشام رِحْلَةً أتاحَتْ لِعَيْنَيَّ اجْتِلاءَ مُحَيَّاهُ
وبَعْدَ التنائي صِرْتُ أرْتاحُ للصَّبَا لأنَّ الصَّبَا تسْرِي بعاطِرِ رَيَّاهُ[2]
فللّه عَهْدٌ قد أتاحَ بِجِلَّقٍ سرورًا فحيَّاه[3] الإله وحَيَّاهُ

واستحضرْتُ عند جدّ السَّيْر، قولَ صفوان[4] بن إدريس الْمُرْسِيّ ذكره اللّه تعالى بالخير: [الخفيف]

أين أيامُنَا اللواتي تَقَضَّتْ إذْ زَجَرْنا للوَصْلِ أيمَنَ طَيْرِ

ثم قول غيره ممّن حَنَّ وأنَّ، وقلِقَ قَلْبُه وما اطْمَأنَّ: [الوافر]

أحِنُّ إلى مشاهِدِ أُنْسِ إلفي وعَهْدي مِنْ زيارتِهِ قريبُ
وكنتُ أظنُّ قُرْبَ العَهْدِ يُطْفِي لَهيبَ الشوقِ فازْدادَ اللهيبُ

وربما تَجَلَّدْتُ مغالطًا، متعلِّلاً بقول مَن كان لإلفه مخالطًا: [الوافر]

حَضَرْتَ فكنْتَ في بَصَري مُقيمًا وغِبْتَ فكُنْتَ في وَسَطِ الفؤادِ
وما شَطَّتْ بنا دارٌ ولكِنْ نُقِلْتَ من السَّواد إلى السَّوادِ

وقول غيره: [البسيط]

وكُنْ كما شئْتَ مِنْ قُرْبٍ ومِنْ بُعُدٍ فالقَلْبُ يَرْعاكَ إن لم يَرْعَكَ البَصَرُ

وبقول الوَدَاعي[5]: [السريع]

يا عاذلي في وَحْدَتِي بَعْدَهُمْ وأنَّ رَبْعي ما به مِنْ جَليسْ

---

(١) حَسْرَى: مُتْعبة؛ يقال: حَسَرَ الرجلُ إذا أعْيَا. ظالعة: التي تَغْمز في مَشْيها. محيط المحيط (حسر) و(ظلع).
(٢) التنائي: التباعد؛ يقال: تناءوا إذا تباعدوا. الرَّيّا: الرِّيحُ الطيبة. محيط المحيط (نأى) و(روي).
(٣) في طبعة دار صادر: «فَحَيَّاها».
(٤) أبو بحر صفوان بن إدريس المرسي الأندلسي، ولد بمرسية وتوفي بها سنة ٥٩٨ هـ. وهو شاعر مجيد وكاتب بليغ. المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٣٥) وفوات الوفيات (جـ ١ ص ١١٧).
(٥) هو علاء الدين علي بن المظفر بن إبراهيم الكندي، المعروف بالوداعي، وقد تقدّمت ترجمته.

وكيف يشكو وَحْدةً مَنْ لـه   دَمْعٌ حميمٌ وأنينٌ أنيس

ثم رَدَّدْتُ هذه الطريقة، بقول بعض مَن لم يُبْلِغْه السلُوُّ رِيقَه[1]: [الخفيف]

لا رَعَى اللَّه عَزمَةً ضَمِنَتْ لي   سَلْوةَ القلبِ والتصبُّرَ عَنْهُمْ

ما وَفَتْ غَيْرَ ساعةٍ ثم عادتْ   مِثْلَ قلبي تقولُ لا بُدَّ مِنْهُمْ

وبقول ابن آجروم[2]، في مثل هذا الغرض الْمَرُوم: [البسيط]

يا غائبًا كان أُنسي رَهْنَ طَلْعَتِهِ   كيف اضطباري وقد كابدْتُ بينهما

دعواي أنك في قلبي يُعَارضها   شوقي إليك، فكيف الجَمْعُ بينهما

ثم جَدَّ بي السيرُ إلى مصر واستمرّ، فَتَذَكَّرْتُ قول الصفدي وقد اشتدَّ بالرَّمْلِ الحرّ: [الطويل]

أقولُ وَحَرُّ الرَّمْلِ قد زادَ وَقْدُهُ   وما لي إلى شَمِّ النسيمِ سَبيلُ

أظنُّ نسيمَ الجوّ قد ماتَ وانْقَضَى   فَعَهْدِي به في الشام وهو عَلِيلُ

وقول ابن الخياط[3]: [السريع]

قَصَدْتُ مِصْرًا من رُبا جِلَّقٍ   بِهِمَّةٍ تَجْري بتَجْرِيبي

فلم أرَ الطُّرَّةَ حتى جَرَتْ   دموعُ عيني بالْمُزَيْرِيبِ[4]

وحين وصلت مصر لم أَنْسَ عَهْدَ الشام المرعي، وأنشدْتُ قولَ الشهاب الحنبلي الزرعي[5]: [الطويل]

---

(١) تقول العرب: أَبْلِغني ريقي: أي أَمْهِلْني مقدار ما أبلعه. محيط المحيط (بلع).

(٢) هو أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، النَّحْوي، المعروف بابن آجُرُوم بضم الجيم والراء المشدّدة، ومعناه بلغة البربر الفقير الصوفي. توفي بمدينة فاس سنة ٧٢٣ هـ. بغية الوعاة (ص ١٠٢).

(٣) هو شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد اللّه، المتوفّى سنة ٧٥٦ هـ، كما سيأتي في الجزء الثالث من نفح الطيب حيث ورد هذان البيتان ببعض الاختلاف عمّا هنا. انظر ترجمته في الوافي بالوفيات (جـ ٥ ص ٢٨٣) وبيتاه في المصدر نفسه (ص ٢٨٤) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) هكذا سترد في الجزء الثالث من نفح الطيب. وفي طبعة دار صادر وطبعة عبد الحميد: «بالـمُزَيْرِيب». الـمُزَيْرِيب: تصغير مِزْراب.

(٥) هو شهاب الدين أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي، المتوفّى سنة ٧١٩ هـ. الذيل على طبقات الحنابلة (جـ ٢ ص ٤٧١).

أحِبَّتَنَا، واللّهِ مُذْ غِبْتُ عَنْكُمُ سُهادي سَمِيري والمدامعُ مِدْرَارُ[1]
وواللّهِ ما اخْتَرْتُ الفِراقَ، وإنه بِرَغْمِي، ولي في ذلك الأمرِ أعْذَارُ
إذا شامَ بَرْقَ الشامِ طَرْفي تتابَعَتْ سحائِبُ جَفْنِي والفؤادُ به نارُ
ألا ليت شعري هل يَعُودَنَّ شَمْلُنا جميعًا وتحوينا رُبُوعٌ وأقطار

وقول ابن عُنَين[2]: [الطويل]

دِمَشْقُ، بنا شوقٌ إليكِ مُبَرِّحٌ وإن لَجَّ واشٍ أو ألَحَّ عَذُولُ
بلادٌ بها الحَصْباءُ دُرٌّ، وتُرْبُهَا عَبيرٌ، وأنفاسُ الرياح شمولُ
تَسَلْسَلَ منها ماؤها وَهْوَ مطلقٌ وصَحَّ نسيمُ الروضِ وَهْوَ عَليلُ

وقول آخر: [البسيط]

نَفْسِي الفِداء لأُنْسٍ كنتُ أعْهَدُهُ وطِيبِ عَيْشٍ تَقَضَّى كُلُّه كَرَمُ
وجِيرةٍ كان لي إلفٌ بِوَصْلِهِمُ والأنسُ أفضلُ ما بالْوَصْل يُغْتَنَمُ
بالشام خلَّفْتُهُمْ ثم انْصَرَفْتُ إلى سِوَاهُمُ فاعْتَرَاني بَعْدَهُمْ ألَمُ
كانوا نعيمَ فؤادي والحياةَ له والآن كلُّ وجودٍ بَعْدَهُمْ عَدَمُ

فإن أنشد لسان الحال فيما اقتضاه معنى البعد عنها والارتحال[3]: [الكامل]

يا غائبًا قد كنتُ أحسبُ قَلْبَهُ بِسِوَى دِمَشْقَ وأهلِهَا لا يَعْلَقُ
إن كان صَدَّكَ نَيلُ مِصْرٍ عَنْهُمُ لا غزوَ فهو لنا العَدُوُّ الأزرَقُ

أَتَيتُ في جَوَابه، بقول بعض من بَرَّح الجَوَى به: [البسيط]

لله دهرٌ جَمَعْنَا شَمْلَ لذتِهِ بالشام أعْذَبَ مِنْ أمْنٍ على فَرَقِ[4]

---

(١) مِدْرارٌ: غزيرة السيلان، تَدُرُّ بالدَّمع. محيط المحيط (درر).

(٢) هو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عُنَيْن الأنصاري؛ أصله من الكوفة، ولد بدمشق ونشأ بها. شاعر مشهور مولع بالهجاء. توفي بدمشق سنة ٦٣٠ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ١٤) والبداية والنهاية (جـ ١٣ ص ١٣٧). وسترد أبياته هذه في الجزء الثالث من نفح الطيب باختلاف يسير جدًا عمّا هنا.

(٣) هذان البيتان لنجم الدين القحفازي، وهما في صدر كتاب بعث به إلى ابن الطحان حين سافر إلى الديار المصرية. المسالك والممالك، نسخة آيا صوفيا (جـ ٧ ورقة ٦٨). عن تعليقات الدكتور إحسان عباس في كتاب نفح الطيب (جـ ٨ ص ٥٤٨: استدراكات وتعليقات).

(٤) الفَرَقُ، بالفتح: الخوف. مختار الصحاح (فرق).

مَرَّتْ لياليه والأيامُ في خُلَسٍ ... كأنّما سَلَبتْه كفُّ مُسْتَرِقِ[1]
ما كان أَحْسَنَها لولا تَنَقُّلها ... من النعيمِ إلى ذاكِ من الحُرَقِ
رَقَّ العَذُولُ لحالي بعدها وَرَثَى ... لي في الجَوَى والنَّوَى والشَّجْوِ والأَرَقِ

وبالجملة فتلك الأيام من مواسم العمر محسوبة، والسعود إلى طوالعها منسوبة: [الوافر]

وكانت في دِمَشْقَ لنا ليالٍ ... سَرَقْناهُنَّ مِنْ رَيْبِ الزمانِ
جَعَلْناهُنَّ تاريخَ الليالي ... وعُنْوَانَ المَسَرَّةِ والأماني

وهي مغاني[2] التهاني التي ما نسيناها، وأماني زماني التي نَعِمْتُ بطور سِيناها، عليها وعلى وطني مقصورة، والقلْبُ في المعنى مقيمٌ بهما وإن كان في غيرهما بالصورة، والأشواقُ إليهما قضاياها مُوَجَّهةٌ وإن كانت غيرَ محصورة: [الكامل]

ولله عَهْدٌ قد تَقَضَّى وإنْ يَعُدْ ... فإني عن الأيامِ أعفو وأَصْفَحُ
بقلبيَ من ذكراه ما لَيس يَنْقضي ... ومن بُرَحَاء الشوقِ ما ليس يَبْرَحُ[3]
إذا مَسَحَتْ كفّي الدموعَ تستُّرًا ... بَدَتْ زفرةٌ بين الجوانح تَقْدَحُ
فإن جَمَعَتْ شَمْلِي الليالي بقربِهِمْ ... تَجَمَّعَ غيلانٌ ومَيٌّ وصَيدَحُ
على أنها الأيامُ جِدٌّ مُزَاحُها ... ورُبَّ مُجِدّ في الأذى وهو يَمْزَحُ

وكثيرًا ما يلهج اللسان بقول مَن قال: [الطويل]

وما تَفْضُلُ الأوقاتُ أُخْرَى لذاتها ... ولكنَّ أوقاتَ الحِسانِ حِسَانُ

ويردِّدُ قولَ مَنْ شَوقُهُ مُتَجَدِّدٌ: [الطويل]

سَقَى مَعْهَدَ الأحبابِ ناقعُ صَيِّبٍ ... من المُزْنِ عن مَغْناه ليس يَرِيمُ[4]
وإن لم أكن من ساكنيه فإنه ... يَحُلُّ به خِلٌّ عليَّ كريمُ

---

(١) الخُلَسُ، جمع خُلْسَة، بضم الخاء، وهي الفرصة. المُسْتَرِقُ: السارق، وهو اسم فاعل لفعل استرق؛ استرق وسرق بمعنى واحد. محيط المحيط (خلس) و(سرق).
(٢) المغاني: جمع مَغْنًى وهو الموضع الذي كان به أهلوه. مختار الصحاح (غني).
(٣) بُرَحاءُ الشوق: أذى الشوق، وتباريح الشوق: تَوَهُّجُهُ. مختار الصحاح (برح).
(٤) الصَّيِّبُ: السَّحابُ ذو الصَّوْب (المطر). يَرِيمُ: يَبْرَحُ، يقيم. مختار الصحاح (صوب) و(ريم).

وينشد مَن يلوم، قول مَنْ في حَشَاه وَلَهٌ وفي قلبه كُلوم: [الدُّوبَيت]

قـد أصـبـح آخـرُ الـهـوى أَوَّلَـهُ   فـالـعـاذلُ فـي هـواك مـا لـي ولَـهُ
بـالـلّـه عـلـيـكَ خَـلِّ مـا أَوَّلَـهُ   وأَرْحَـمْ دَنِـفًـا لَـدَى حـشـاهُ وَلَـهُ

وقد امْتَدَّ بنا الكلام، وربّما يجعله اللاحي[1] ذَريعة لزيادة الملام، فلنرجع إلى ما كنّا بصَدَده، من إجابة المولى الشاهيني[2]، أمدَّه اللّهُ سبحانه بمدده، فأقول، مستمدًّا من واهب العقول:

إني شَرَعْتُ بعد الاستقرار بمصر في المطلوب، وكَتَبْتُ منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماعُ والقلوب، وسَلَكْتُ في ترتيبه أحسنَ أسلوب، وعَرَضْتُ في سُوقِهِ كلَّ نفيسٍ غريبٍ من الغرب إلى الشرق مجلوب، تَسْتَحْسِنُ الأبصارُ ما عليه احتوى، وتعرف الأفكارُ أنه غير مُجْتَوَى[3]، ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واسْتَوَى، فأَخَّرْتُهُ تأخيرَ الغريم، لِدَينِ الكريم، وصَدَّتْني أعراض، عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض، وأَضْرَبْتُ بُرْهَةً عَمَّا له من مَنحى، لاختلاف أحوال الدهر نفعًا ودفعًا ومنعًا ومَنْحا، ومَرَقَتْ[4] عن هَدَف الإصابة نِبَال، وطَرَقَتْ في سَدَفِ[5] ليالي الكتابة أمور لم تكن تخطر ببال. فجاءتني من المولى المذكور آنفا، رسالةٌ دَلّتْ على أنه لم يكن عن انتجاز الوعد متجانفا[6]، فَعُدْتُ لقضاء الوَطَرِ[7] مستقبلاً وللجملة مستأنفا، وحدا[8] بي خطابه الجسيم للإتمام وساقني، وراقني كتابُه الكريمُ لتلك الأيام وشاقني، وذَكَّرني تلك الليالي التي لم أَنْسَهَا، وحَرَّكني لتلك المعاهد التي لم أزل أذكر أُنْسَها: [السريع]

الإِلْـفُ لا يَـصْـبِـرُ عـن إِلْـفِـهِ   إلاَّ كـمـا يَـطْـرِفُ بـالـعَـيْـنِ
وقـد صَـبَـرْنـا عـنـهُـمُ مُـدَّةً   مـا هـكـذا شـأنُ الـمُـحِـبَّـيْـنِ

(١) اللاحي: اللائم. مختار الصحاح (لحى).
(٢) هو أحمد بن شاهين، صديق المقري، الذي تقدّم الحديث عنه.
(٣) غَيْرُ مُجْتَوَى: غَيْرُ مكروه؛ يقال: اجتوى البلدَ إذا كره المقام فيه وإن كان في نعمة. محيط المحيط (جوي).
(٤) مَرَقَتِ السهامُ والنِّبال من الرَّمِيّة: نفذت فيها وخَرَقَتْها. لسان العرب (مرق).
(٥) السَّدَفُ، بالفتح: ظلمة الليل. لسان العرب (سدف).
(٦) المتجانف: الذي يميل عن الطريق. محيط المحيط (جنف).
(٧) الوَطَرُ: الحاجة. مختار الصحاح (وطر).
(٨) في طبعة دار صادر: «وحداني».

فيا له من كتاب[1] كريم، أعرب عن وُدّ صميم، وذَكَّرَ بعهدٍ غيرِ ذَميم، ووُدٍّ طِيبِ لعَرْفِ والشَّميم، يَخْجل ابنُ المعتز لبلاغته وابنُ المعز تميم: [المتقارب]

ولـم تـرَ عَـيـنَـاي مِـنْ قَـبْـلِـهِ — كتابًا حَوَى بعضَ ما قد حَوَى
كـأنَّ الـمـبـاسِـمَ مِـيـمـاتُـهُ — ولاماتُـهُ الـصُّـدْغُ لَـمَّا الْـتَـوَى
وأعْـيُـنُـه كـعـيـون[2] الـحِـسـانِ — تُـغَـازِلُـنَـا عـنـد ذِكْـرِ الْـهَـوَى
كـتـابٌ ذكَـرْنَـا بـألـفـاظـه — عـهـودًا زكَـتْ بـالـحمى والـلِّـوَى

فكأنه الروضُ المطَّرِدُ الأنهار، والدَّوْحُ المُدَبَّج الأزهار: [الطويل]

رأيـنـا بـه رَوضًـا تُـدَبِّـجُ وَشْـيَـهُ — إذا جادَ من تلك الأيادي غمائمُ
بـه أِلِفَـاتٌ كـالـغـصـونِ وقـد عَـلاَ — عليها من الهَمْزِ المطلِّ حمائمُ

وقد سُقِيَتْ بأنهارِ البراعةِ السَّلْسالة، حدائق حَلّتْ بها غانية تلك الرسالة، لتشفي صَبَّها[3] بالزيارة، وتُشَرِّف بدنوِّها ديارَه: [الخفيف]

زارتِ الـصَّـبَّ فـي لـيـالٍ مـن الـبُـعْـ — ـدِ فَلَـمَّا دَنَتْ رأى الصُّبْحَ يَلْـمَـحْ
قُـلِّـدَتْ بـالـعِـقْـيَـانِ جِـيـدَ بَـيَـانٍ — ليسَ فيه للفَتْحِ مِنْ بَعْدُ مَطْمَحْ[4]

فَشفَتِ النفسَ من آلامها، وأحْيَتْ ميت الهوى مذ حَيَّتْ بعذب كلامها: [الوافر]

كـلامٌ كـالـجـواهـرِ حـيـن يَـبْـدُو — وكـالـنَّـدُّ[5] الـمُـعَـنْـبَـرِ إذ يَـفُـوحُ
لـه فـي ظـاهـر الألـفـاظِ جِـسْـمٌ — ولـكـنَّ الـمـعـانـي فـيـه رُوحُ

فَصَيَّرَتْ لي ذلك الكتاب سميرا، ووردتْ من السرور مَشْرَعًا نَميرا[6]، وتَمَثَّلْتُ بقول بعض مَن أخلص في الودّ ضميرا: [الكامل]

---

(١) في طبعة دار صادر: «فيا له من كتاب أعرب...».
(٢) في طبعة دار صادر: «بعيونٍ».
(٣) الصَّبُّ: ذو الصَّبابَة وهي رقة الشوق وحرارته، لسان العرب (صبب).
(٤) يشير هنا إلى الفتح بن خاقان وإلى كتابَيْه قلائد العقيان ومطمح الأنفس. وابن خاقان هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان الأندلسي. ولد ونشأ بإشبيلية، وتوفي قتيلاً سنة ٥٣٥ هـ بمدينة مراكش، وقيل: سنة ٥٢٨ هـ، وقيل: سنة ٥٢٩ هـ. المغرب (جـ ١ ص ٢٥٩) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٢٣) والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ٣٠٨).
(٥) النَّدُّ، بفتح النون وكسرها: ضرب من الطِّيب يُدَخَّنُ به. لسان العرب (ندد).
(٦) المَشْرَعُ: مورد الشارب. النَّمِيرُ: الزاكي من الماء. محيط المحيط (شرع) و(نمر).

يا سفردًا أَهْدَى إليَّ كتابَهُ جُمَلاً يَحَارُ الذِّهْنُ في أثنائها
كالدُّرِّ أَشْرَقَ في سُموطِ عقودِهِ والزَّهْرِ والأنوارِ غبٌّ سمائها
فأفادني جَذَلاً وبالي كاسِدٌ وأجارَ نفسي مِنْ جَوَى بُرَحَائها
وحَسِبْتُ أيامَ الشَّبابِ رَجَعْنَ لي فلبسْتُ حَلْيَ جمالها وبهائها
لا يعدمُ الإخوانُ منكَ محاسِنًا كلُّ المفاخرِ قَطْرَةٌ مِنْ مائها

فأكْرِمْ به من كتاب جاء من السَّرِيِّ العلي، والماجد الأخ الولي[١]: [الوافر]

قَضَضْتُ خِتامَهُ فَتَبَيَّنَتْ لي مَعَانِيهِ عن الخَبَرِ الجَلِيِّ
وكان ألذَّ في عَيني وأندَى على كبِدِي من الزَّهْرِ الجَنِيِّ
وضُمِّنَ صَدْرُهُ ما لم تُضَمَّنْ صُدُوْرُ الغانياتِ من الحُلِيِّ

وأَغْرَبَ عن اعتمادٍ متماد، ووداد مزداد، وأطابَ حين أطال، وأدَّى دَيْنَ الفصاحة دون مطال[٢]، واشتمل من فُصُول العبارة على أحْسَنَ من الحدق المراض، وأتى من أصول البراعة ببراهين ابن شاهين التي لا خُلْف[٣] فيها ولا اعتراض، ورَوَينا مِنْ غَيثِ أنامله الْهَتُون[٤]، ورَوَينا عنه مُسْند أحمد[٥] حَسَنَ الأسانيد والمتون، وحَثّنا على العَوْد والرجوع، وكان أجدى من الماء الزلال لذي ظمإٍ والمشتهى من الطعام لذي سَغَبٍ وجُوع: [الوافر]

وأشهَى في القلوب من الأماني وأحلى في العيون من الهُجُوعِ[٦]

وجلا بنوره ظلامُ استيحاشي، وحَشَرَ إليَّ أشتاتَ المَسَرّات دون أن يحاشي[٧]،

---

(١) الأبيات لأبي تمام من قصيدة من ٤٧ بيتًا قالها في مدح الحسن بن وهب، وقد وردت في ديوان أبي تمام (ص ٣٠٦) باختلاف يسير عمّا هنا، وقد تقدمت ترجمة أبي تمام.
(٢) المِطال، بكسر الميم: مصدر ماطل؛ يقال: ماطَلَ فلانًا حَقَّه إذا سوَّف في دفع ما يتوجّب عليه. لسان العرب (مطل).
(٣) الخُلْفُ: الاسم من الإخلاف وهو في المستقبل كالكذب في الماضي. مختار الصحاح (خلف).
(٤) الغَيثُ الهَتُونُ: الغَيث المُنْصَبّ. محيط المحيط (هتن).
(٥) هو مُسْند الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، إمام المذهب الحنبلي؛ ولد ونشأ ببغداد، وتوفي سنة ٢٤١ هـ. وكتابه «المسند» مطبوع، وقد جمع فيه من الحديث ما لم يتّفق لغيره، تاريخ بغداد (جـ ٤ ص ٤١٢) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ٦٣) والبداية والنهاية (جـ ١٠ ص ٣٢٥).
(٦) الهُجُوع، بضم الهاء والجيم: النوم ليلاً. مختار الصحاح (هجع).
(٧) يُحاشي: يَسْتثني؛ يقال: حاشى فلانًا من القوم إذا استثناه. محيط المحيط (حشي).

ووجدني في مُكابدةِ شَغُوب[1]، وأشغالٍ أَشْرَبَتِ الكَسَلَ واللُّغُوب[2]، وحَيَّرَتِ الخواطر، وصَيَّرَتْ سُحُبَ الأقلام غير مَوَاطر، فزحزح عنّي الغموم وسلاّني، وأولاني - شكر اللّه صنيعه! - من المَسَرّات ما أولاني: [البسيط]

حديثُه أو حديثٌ عنه يُطْرِبني   هذا إذا غابَ أو هٰذا إذا حَضَرَا
كلاهُمَا حَسَنٌ عندي أُسَرُّ به   لكنَّ أحلاهما ما وافق النَّظَرَا

وقال آخر: [الخفيف]

لستُ مُسْتَأْنِسًا بشيء إذا غِبْـ   ـتَ سوى ذِكْرِكَ الذي لا يَغِيبُ
أنْتَ دون الجُلاّسِ عندِي وإنْ كُنْـ   ـتَ بعيدًا فالأنسُ منكَ قريبُ

وضَمَّنْتُ فيه لَمَّا وَرَدَ مع جملةِ كتب من تلك الناحية، وأنوارُ أهلِها ذوي الفضائل الشهيرة أظهرُ مِنْ شمسِ الظهيرة في السماء الصاحية: [الخفيف]

قلتُ لَمَّا أَتَتْ من الشامِ كُتْبٌ   مِنْ أجلاَّءَ نُورُهُمْ يتألّقْ
مَرْحبًا مَرْحبًا وأهلاً وسَهْلاً   بعُيونٍ رأتْ محاسِنَ جِلَّقْ

وقلت أيضًا: [الخفيف]

قلت لَمّا وافتْ من الشام كُتْبٌ   والليالي تُتيحُ قربًا وبُعْدًا
مرحَبًا مرحبًا وأَهْلاً وسَهْلاً   بعيونٍ رأت محاسنَ سُعْدَى

وكان من فصول هذا[3] الكتاب الوارد من المولى الشاهيني الذي اقتنص بفضله كلَّ شارد ما نَصُّه «ومما استخلص قلبي من يَدَيْ تَرَحِي، وجَدَّدَ سُروري ونَبَّه فرحي، حديثُ الكتاب وما حديث الكتاب، حديثٌ نَسَخَ بحلاوته مَرارةَ العتاب، وأنساني حرارة المصَاب، في الأنسَال والأعقاب، وقضى به من حق لسان الدين، دينه الذي تَبَرَّعَ به غَريمٌ مَليءٌ من البلاغة وهو غير مدين، حتى كأني يا سيدي بهذه البشرى، أَحْرَزْتُ سوارَيْ كسرى، وكان في مسمعي كل حرف إليها منسوب، قميصُ يوسف في أجفان يعقوب، وحتى كدت أهجر أهلي وبيتي، وأُسْرِجُ لاستقبال هذه البشرى أَشْهَبي وكُمَيْتِي، وحتى إنني حاربْتُ نومي

---

(١) الشُّغُوب، بفتح الشين وضمّ الغين المعجمة: الشَّغِبُ، أي مُهَيِّج الشرّ. قاموس د. كورينطي (شغب).
(٢) اللُّغُوب، بضم اللام والغين المعجمة: التعب والإعياء. مختار الصحاح (لغب).
(٣) في طبعة دار صادر: «فصول الكتاب»، بحذف «هذا».

وقومي، وعَزَمْتُ على أنْ أرحلَ ناقتي في وقتي ويومي، وإن ذلك التغليس والتهجير[1] في جَنْب ما بُشِّرت به لَحَقِير، وإنَّ موقعها لدى هذا العبد الحقير لَخطِير. وقد كنت سألت شيخي حين وَرَدَ دمشقَ الشام، واشْتمَّ منها العَرَار والبَشَام[2]، وشرَّفني فعرفني، وشاهدني فعاهدني، على أنْ يجري ما دار بيننا لدى المجاورة، من المسامرة والمحاورة، في ديباجة ذلك الكتاب، الذي فتن العقولَ خَبَرُهُ وسَحَرَ الألباب، وما قَصَدْتُ إلاّ أن يجري اسمي على قلمه، ويرقم رسمي في مطاوي تحريره ورقمه، ويكون ذكري مختلطًا بذكره، كما أنَّ سِرّي مرتبطٌ في المحبة بسرّه، فرأيتُ شيخي لم يَتَصَدَّ في أثناء هذه البشرى، لما يُفْهِمني بالذكرى، لأنتظر النجاح في الأخرى، ولم يساعدني على ذلك المُلْتَمَس، وحَبَسَ عِنانَ القلم فاحْتَبَس، فانكسرتْ سَوْرةُ سروري بفتوري، وتبين لنفسي عن بلوغ ذلك الأمل تخلُّفي وقصوري» انتهى.

ثم قال بعد كلام[3] طويل لم نذكره لعدم تَعَلُّقِهِ بهذا الغرض، ما صورته: «وحَسِبْتُ أنَّ سيدي وحاشاه، نسي مَنْ ليس يَنْساه، وظَنَنْتُ به الظنون، لأمورٍ تكون أو لا تكون، وهل يكره سيدي[4] وشيخي أن يُهْدَى الدنيا في طبق؟ ثم الأخرى على ذلك النسق، ولا شكَّ أن حَظَّه هو الروضة الغَنّا[5]، لا بَلْ جَنَّةُ المأوى، فَطُوبَى لنفسي إنْ جَنَتْ[6] ثمرته طُوبَى، ولَعَمْرُ شيخي إني بذلك لَجَدِير، وإني كنت أمْلِكُ به الخَوَرْنق والسَّدير[7]». انتهى ما يتعلّق بالغرض[8] من ذلك الرقيم، الذي شَكْلُ منطقِهِ غَيْرُ عقيم، سلك اللّٰهُ تعالى بي وبِمَن وَجَّهَهُ الصراطَ المستقيم.

---

(١) التَّغْلِيسُ: السَّيرُ في الغَلَس، والغَلَسُ هو ظلمة آخر الليل. التَّهْجير: السَّيْرُ في الهاجرة، والهاجرة هي نصف النهار عند اشتداد الحرّ. مختار الصحاح (غلس) و(هجر).

(٢) العرار، بالفتح: بَهار البَرّ وهو نَبْتٌ طيب الريح. البَشَامُ، بالفتح: شجر طيِّبُ الرِّيح يُسْتاك به. مختار الصحاح (عرر) و(بشم).

(٣) في طبعة دار صادر: «بعد كلام لم....»، أي بدون كلمة «طويل».

(٤) في طبعة دار صادر: «يكره شيخي...» أي بدون كلمة «سيدي».

(٥) الغَنّا: أصل القول: «الغَنّاء» وقد حذف الهمزة مراعاة للسَّجْع، والغَنّاء: الكثيرة العُشْب. مختار الصحاح (غنن).

(٦) في طبعة دار صادر: «جنيت».

(٧) الخَوَرْنَقُ والسَّدِيرُ: قصران. وقد تقدّم الحديث عنهما.

(٨) في طبعة دار صادر: «بالمطلوب» بدل «بالغرض».

وأتى في المكتوب بأنواعٍ من البلاغة، مما تركت ذكره هنا لعدم تعلّقه بهذا الأمر الخاص الذي يُيَسِّرُ لكارعِ الأدبِ مَسَاغَه، وختمه بقصيدةٍ نفيسةٍ من نظمه يستنجز فيها ذلك الوعد، وأشهد أنه قد حاز فيها قَصَبَ السَّبْق والمَجْد، وما قلت إلاّ بالذي عَلِمَتْ سَعْد[1]، وهذه صورتها: [السريع]

يا سَيِّدًا أَفْدِيه بالأَكْثَرِ … مِنْ أَصْغَرِ العالَمِ والأَكْبَرِ
ويا وحيدًا قَلَّ قولي له … عُطَارِدٌ أنتَ مع المشْتَرِي[2]
ويا مجيدًا ليس عندي له … إلاّ مقالُ المادحِ المُكْثِرِ
أَقْسَمْتُ بالبيتِ العتيقِ الذي … حَجَّتْ إليه الناسُ والمَشْعَرِ[3]
ما للعلا والعلم إلاّ أبو الـ … ـعباس شيخي أحمدُ المَقَّرِي
ذاك الذي آثرني منه بالـ … ـعلم الذي للغَيْرِ لم يُؤْثِرِ
وخَصَّنِي منه بأشياءَ لم … يَفُزْ بها غيري ولم يعثرِ
فَرُحْتُ عَبْدًا ذا وَفاءٍ لَهُ … مُعْتَرِفًا بالرقِّ لا أَمْتَرِي[4]
فيا أبا العباس[5] يا مَنْ غَدَا … أعظَمَ في نَفْسِي من مَعْشَرِي
ومَنْ إذًا ما غاب عن ناظري … كان سَمِيرَ القلبِ للمَحْضَرِ
هاتِ أفِدْنِي سيدي عن علا الـ … ـمَولى لسانِ الدين ذاك السَّرِي[6]
ذاك الوحيدُ الفَذُّ في عَصْرِهِ … بل أَوْحَدُ الأدهرِ والأَعْصُرِ
ذاك الذي أخبرني سيدي … عنه مَزَايا بَعْدُ لم تُحْصَرِ
ذاك الذي العَيُّوقُ لا يَعْتَلي … إلى مَعاليه ولا يَجْتَرِي[7]

---

(١) قوله: «وما قلتُ... سَعْدُ» عجز بيت للحطيئة، وهو: [الطويل]
وتَعْذُلُنِي أبناءُ سَعْدٍ عليهمُ … وما قلتُ إلاّ بالذي عَلِمَتْ سَعْدُ
ديوان الحطيئة (ص ٤٢). والحطيئة هو جَرْوَل بن أوس، وقد تقدّمت ترجمته.

(٢) عُطارِدُ: نجم في السماء السادسة. المُشْتري: نجم. القاموس المحيط (عطرد) و(شرى).

(٣) المَشْعَرُ: موضع مناسك الحَجّ. محيط المحيط (شعر).

(٤) أمتري: أشكُّ، والامتراء: الشَّكُّ. مختار الصحاح (مرا).

(٥) أبو العباس كنية المقري.

(٦) السَّرِيُّ: صاحب المروءة في شرف والسّيّد الشريف السخيّ. محيط المحيط (سري).

(٧) العَيُّوقُ: كوكب. لسان العرب (عيق). يجتري: أصل القول: يجترىء، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.

ما قد وَعَدْتَ العَبْدَ في جَمْعه ... مِنْ خَبَرٍ عن فضله مُسْفِرِ
بـخـطِّـكَ الـوَضَّاحِ وَهْـوَ الـذي ... مَخْبَرُهُ يُزْبي على الـمَنْظَرِ
والـشيء لا يُرْجَىٰ إذا ما غَـدَا ... مَنْظَرُهُ يُزْبي على الـمَخْبَر
نقشٌ على طِرْسٍ[1] بياضٍ كما ... لاحَتْ عيون الرشإِ الأحْوَرِ
وأَسْطُرٌ قد سُلْسِلَتْ مثلَ ما ... لاح عِذارُ الشادِنِ الأخْفَر[2]
ونُزْهَةُ الأنفسِ مَغْنًى غَدَا ... ما بَيْنَهَا يَنْسابُ كالكوثرِ
عذبٌ رقيقٌ مثلُ ظَبْيٍ غَدَا ... يلوحُ طاوي الكَشْحِ أو جُؤْذَرِ[3]
آثارُ أقلامِكَ وَهْيَ التي ... أَغْنَتْ عَنِ الأبيض والأسمر
يَرَاعُكَ الجامعُ راوٍ، غَدَا ... يَرْوِي اللُّغى[4] عن لفظك الجَوْهَرِي
يَنْثُرُ مِسْكًا تارةً ناظمًا ... وينظمُ الجوهَرَ بالعَنْبَرِ
هذا ابنُ شاهينَ الْفَتَى أحمد ... عن ذكرك المأنوسِ لم يَفْتُر
فاجعلْ له ذكرًا كريمًا به ... يَزْدَانُ مغبوطًا إلى المحشرِ
واذكر بيوتاتي[5] وكلُّ الذي ... كَتَبْتُهُ نحوكَ في دفتري
أنتَ جَدِيرٌ بمديحي فَكُنْ ... ذاكِرَ عبدٍ بالوفا أَجْدَرِ
وهاكَهَا سيَّارةً أَعْنَقَتْ ... على جوادٍ كان للبحتري
طِرْفٍ كريمٍ سابِقٍ صافنٍ ... مُطَهَّمٍ ذي أدبٍ أوْفَرِ[6]
ورِثْتُهُ منه ولكنما ... مِنْ شاعرٍ وافى إلى أشْعَرِ
ما لِلْفَتَى الطائيِّ شَوطُ امرِىءٍ ... يَصْطَادُ نَسْرَ الجَوِّ بالمنسرِ[7]
وأسْلَمْ لعبدٍ لا يرَى سَيِّدًا ... سوى الذي في ثوبك الأطْهر

---

١) الطِّرْس، بكسر الطاء وسكون الراء: الصحيفة.
٢) في طبعة دار صادر: «المُقْمِرِ».
٣) الكَشْحُ: ما بين الخاصرة إلى الضِّلَع الخلْف؛ وقوله: طوى كَشْحَهُ: أضمره وستره. محيط المحيط (كشح). الجُؤْذَرُ: ولد البقرة الوحشية. مختار الصحاح (جأذر).
٤) اللُّغى: جمع لُغَة. مختار الصحاح (لغا).
٥) في طبعة دار صادر: «بويتاتي».
٦) الطِّرف، بكسر الطاء: الكريم من الخيل. الصافن: الفرس الذي يقوم على ثلاث قوائم وطرفِ حافرِ الرابعة. مُطَهَّمٌ: نحيفٌ، أو التامّ، القاموس المحيط (طرف) و(صفن) و(طهم).
٧) المِنْسَرُ، بكسر الميم وسكون النون: هو بمثابة المِنْقار لغير سباع الطير. مختار الصحاح (نسر).

فـي كـرم الـعـنـصـر فـردًا غَـدَا   طَبْعُكَ فـاشْكُرْ كَرَمَ العُنْصُر
مـا حَنَّ مـشـتـاقٌ أخـو صَبْـوَةٍ   إلـى خـلـيـل فـي الـهَـوى مُفْـكِرِ

انتهـــت.

فلما وصلني هذا الخطاب، الذي ملأ من الفصاحة الوِطاب[(١)]، وحَلِيَ[(٢)] في عيني وقلبي وطَاب، تَحَرَّكَتْ دواعي الوجد، لذلك المجد، الذي وَلِعَتْ به ولوع ابن الدُّمَيْنَة[(٣)] بصَبَا نجد، وأثارَ من الهيام والأُوار[(٤)]، ما يزيد على ما حصل للفرزدق[(٥)] لـمّا فارق النوّار[(٦)]، وتضاعف الشوق إلى تلك الأنجاد والأغوار، مُنْشِدًا قول الأول «لعلّ أبي المغوار» [(٧)] وتذكرْتُ والذكرى شجُون وأطوار، تلك الأضواء والأنوار، المشرقة بقطر أزهر بالمحاسن، وجرى نهره غير آسن[(٨)]، فلم يذم فيه الجوار: [الطويل]

وإنَّ اصطباري عن مَعَاهِدِ جِلَّقٍ   غرِيبٌ فما أجفى الفراقَ وأجفاني
سقى اللّهُ أرضًا لو ظَفِرْتُ بتربها   كَحَلْتُ بها من شدة الشوق أجفاني

وحصل التصميم، على التكميل للتأليف والتتميم، رَعْيًا لهذا الولي الحميم، أفاض اللّهُ تعالى عليه غَيْثَ البر العميم، وأبقى ظلَّ عزه ممدودا، وحُلِيَّ [(٩)] سؤدده مودودا،

---

(١) الوِطابُ: جمع وَطْب وهو سِقاء اللّبن. لسان العرب (وطب).
(٢) في طبعة دار صادر: «وحَلاَ».
(٣) هو أبو السَّريّ عبد اللّه بن عبيد اللّه، وقيل: عبيد اللّه بن عبد اللّه، من خَثْعَم، والدُّمَيْنَةُ أمُّهُ. وهو شاعر مشهور له غزل رقيق. الأغاني (جـ ١٧ ص ١٤٤) والشعر والشعراء (ص ٦١٧) ومعاهد التنصيص (جـ ١ ص ١٦٠).
(٤) الأُوار، بضم الواو: العطش. لسان العرب (أور).
(٥) هو هَمّام بن غالب بن صعصعة، شاعر مشهور، وقد فَضّله جرير على نفسه في الشعر. توفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ، وقيل: ١١١ هـ، و١١٢ هـ، و١١٤ هـ. الشعر والشعراء (ص ٣٨١) ومعجم الشعراء (ص ٤٨٦) ووفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٨٦).
(٦) النوّار: هي زوجة الفرزدق، وهي ابنة أَعْيَنَ بن ضُبَيْعة المجاشعي. ماتت بالبصرة مطلّقة منه. الشعر والشعراء (ص ٣٨٦).
(٧) إشارة إلى بيت ابن الدمينة: [الطويل]
فقلْتُ ٱدْعُ أخرى وارْفَعِ الصَّوتَ جهرةً   لـعـلَّ أبـي الـمِـغْـوار مـنـكَ قـريـبُ
ديوان ابن الدمينة (ص ١٠٦).
(٨) الآسِنُ: الماء الذي تغيّر طعمه ولونه وريحه. محيط المحيط (أسن).
(٩) في طبعة دار صادر: «وحَلّى».

وأناله من الخيرات ما ليس محصورًا ولا معدودا، وجمعني وإياه، وأطلع لي بِشْرَ مُحَيّاه، وأنشقني عَرْفَ اجتماعه ورَيَّاه، وكيف لا أستديم أَمَدَ بُقْياه، وأعتقد البشائرَ في لقياه، وأسقي غروسَ الودِّ بِسُقْياه، وهو الصدر الذي أَصْفَى لي الوداد، والركن الذي لي بثبوته اعتماد[1] واعتداد: [الكامل]

فَعَلَيهِ مِنْ مُصْفِي هواهُ تحيّةٌ ... كالمِسْكِ لَمَّا فُضَّ عنه ختامُ
تَتْرَى بساحته السنيّةِ ما دَعَتْ ... فوق الغصونِ هَدِيلَهُنَّ حَمامُ

ودامت فضائله ظاهرة كالشمس، محروسة بالسبع المثاني معوّذة بالخمس: [الطويل]

ولا آنفكّ ما يَرْجُوه أقربَ مِنْ غَدٍ ... ولا زال ما يَخْشَاه أَبْعَدَ مِنْ أمسِ

وبقي من العناية في حرم أمين، آمين.

ولما حصل لي كمال الاغتباط، بما دلّ على صحة حال الارتباط، نُشِر[2] بساطُ الانبساط، وحَدَثَتْ لي قوة النشاط، وانقشعتْ عني سحائب الكسل وانجابت، وناديْتُ فكرتي فلبَّتْ مع ضعفها وأجابتْ، فاقْتَدَحْتُ من القريحة زَنْدًا كان شَحَاحا، وجَمَعْتُ من مُقَيّدَاتي حسانًا وصحاحا، وكنت كتبْتُ شَطْره، وملأْتُ بما تَيَسَّرَ هامشَهُ وسَطْره، ورقَمْتُ من أنباء لسان الدين بن الخطيب حُلَلاً لا تُخْلِقُ[3] جِدَّتَهَا الأعْصُرُ، وسلكْتُ من التعريف به، رحمه الله، مهامِهَ[4] تكلُّ فيها واسعات الخطا وتقصر، فَحَدث لي بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة ومَن كان يُعَضِّدُ به الإسلام وينصر، وبعض مفاخرها الباسقة، ومآثر أهلها المتناسقة؛ لأنَّ كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر، وجئت من النظم والنثر بنبذة توضح للطالب سبله، وتُظْهِر علمه ونبله، وتُتْرِعُ كأس محاسِنِه من راح المذاكرة وإناؤه، حتى[5] يَرَى حُسْنَ التأليفِ أبناءُ هذا التصنيف وأدباؤه، وكنت في المغرب وظلالُ الشباب ضافية، وسماء الأفكار من قَزَعِ[6] الأكدار صافية، معتنيًا بالفَحْصِ عن أنباء أبناء

---

(١) في طبعة دار صادر: «بثبوته اعتداد» أي بدون لفظة «اعتماد».

(٢) في طبعة دار صادر: «نَشَرْتُ بِساطَ...».

(٣) أَخْلَقَ الثوبَ: جعله باليًا، الجِدّة، بكسر الجيم وتشديد الدال: ضِدُّ البلى. محيط المحيط (خلق) و(جدد).

(٤) المهامِهُ: جمع مَهْمَه وهي المفازة البعيدة. مختار الصحاح (مهمه).

(٥) في طبعة دار صادر: «حتى يرى إيثار هذا المصنّف وإدناءه، وكنت في المغرب...».

(٦) القَزَعُ، بفتح القاف والزاي: قطع من السَّحاب متفرّقة صغار. محيط المحيط (قزع).

الأندلس[1]، وأخبار أهلِها التي تنشرح لها الصدور والأنفس، وما لهم من السبق في ميدان العلوم، والتقدّم في جهاد العدوّ الظَّلوم، ومحاسن بلادهم، ومواطن جدالهم وجلادهم[2]، حتى اقتنيتُ منها ذخائرَ يرغبُ فيها الأفاضل الأخاير، وانتقيتُ جواهرَ فرائِدُهَا للعقول بَوَاهر، واقتطفْتُ أزاهرَ أنـجُمهَا في أُفق المحاضرة زواهر، وحَصَّلْتُ فوائدَ بواطنٍ وظواهر، طالما كانت أعين الألِبَّاء لنيلها سواهر، وجمعت من ذلك كَلِمًا عالية، لو خاطب بها الداعي صُمَّ الجلامدِ لانبَجَسَ حَجَرُها[3]، وحِكَمًا غالية، لو عامل بها الأيامَ ربحَ مَتْجَرُها، وأسجاعًا تهتزُّ لها الأعطاف، ومواعظ يعمل بمقتضاها مَنْ حَفَّتْ به الألطاف، وقوافيَ موقورة القَوَادمِ والخَوافي[4]، يُثْني عليها مَنْ سَلِمَ من الغَبَانة والصّمم، ويعترف ببراعتها مَن لا يعتريه اللّمم، وطالما أعرض الجاهلُ الغَمْرُ بوجهه عن مثلها وأشاح، وأَنْصَتَ لها الْحَبْرُ إنصات السُّوار لـجَرْس الحلي ونَغَم الوشاح، وفَرِحَ إنْ ظفر بشيء منها فرحَ الصائد بالقَنيص، والساري العاري ذي البطن الخميص[5]، بالزاد والقميص. وتركْتُ الجميعَ بالمغرب، ولم أستصحبْ معي منه ما يبيِّنُ عن المقصود ويُغْرِب، إلاّ نَزْرًا يسيرًا علق بحفظي، وحَلَّيْتُ بجواهره جِيدَ لفظي، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظي، ولو حضرني الآن ما خَلَّفْتُه، ممّا جَمَعْتُ في ذلك الغرض وأَلَّفْتُه، لقَرَّتْ به عيونٌ وسُرَّتْ ألباب، إذ هو، واللّه، الغاية في هذا الباب، ولكن المرءَ ابنُ وقتِهِ وساعته، وكلٌّ يُنْفِقُ على قَدْر وُسْعه واستطاعته، وعُذْرُ مثلي باد، للمنصفين من العباد، إنْ قَصَّرْتُ فيما تَبَصَّرْتُ، أو تـخَلَّفْتُ في الذي تَكَلَّفْتُ، أو أَضَعْتُ تحرير ما وَضَعْتُ، والْتَقَمْتُ ثديَ التقصير ورَضَعْتُ، أو أَطَعْتُ دَاعيَ التّواني فتأخَّرْتُ عَمَّنْ سَبَقَ وانقَطَعْتُ، (إنْ أُرِيدَ إلاّ الإصلاحَ ما استطعْتُ)[6]، ومَنْ كانتْ بضاعتُهُ مُزْجَاة، فهو من الإنصاف بـمَنْجَاة، إذا أتى بالمقدور،

---

(١) في طبعة دار صادر: «عن أنباء الأندلس».

(٢) المجالدة: الضرب بالسيوف. محيط المحيط (جلد).

(٣) الجلامد: جمع جُلْمُود وهو الصخر. انبجس حجرها: تفجّر منه الماء. لسان العرب (جلمد) و(بجس).

(٤) القَوادمُ: جمع قادمة وهي عشر ريشات في مقدمة الجَناح وهي كبار الريش، والخوافي صغار الريش وهي تحت القوادم. محيط المحيط (قدم).

(٥) البَطْن الخميص: الضامر. محيط المحيط (خمص).

(٦) سورة هود ١١، الآية ٨٨.

وتَبَرَّأَ مِنَ الدَّعْوَى في الورود والصدور، وعَيْنُ الرِّضا عن كل عَيبٍ كَليلة[1]، والسلامةُ من الملامة متعذِّرة أو قليلة، وقد قال إمامُنا مالكٌ[2] صاحبُ المناقب الجليلة: «كلُّ كلامٍ يُؤخذ منه ويُرَدُّ إلاَّ كلامُ صاحبِ هذا القبر» صلّى الله عليه وسلّم أزكى صلاة وأتمّ سلام وشَفَى بجاهه من الآلام قلوبَنَا العليلة، وجَعَلنا ممّن كان اتّباعُ سُنّته رائدَه ودليله! آمين.

والحمد للّه الذي يَسَّر لي هذا القدر، مع ضِيق الصدر، وقلّة بضاعتي، وكثرة إضاعتي، فإنَّ حَمْده جَلَّ جلاله تتضوَّع به المطالب طِيبا، وتُقْضَى ببركته المآرب فَيَرْقَى صاحبُها على منبر القبول خطيبا، وتَعْذُبُ به المشاربُ فتُنْبِتُ في أرض القرطاس، من زاكي الغراس، ما يروق منظرًا نضيرًا ويُورِقُ غُصْنًا رطيبا، وقد أتيْتُ من المقال، بما يُقِرُّ إنْ شاء اللّه تعالى عَينَ وامق ويُرْغِمُ أنفَ قال[3]، وإن كنتُ ممّن هو في ثوب العَيّ[4] رافل، وعن نسبته للقصور غير غافل، ومِمَّنْ جَعَلَ النفسَ هَدَفا[5]، وصَيَّر مكانَ الدُّرِّ صَدَفا، إذ لسانُ الدين بن الخطيب إمام هذه الفنون، المحقِّقُ لذوي الآمال الظنون، المستخرِج من بحار البلاغة دُرَّها المكنون، وله اليَدُ الطولى في العلوم على اختلاف أجناسها، والألفاظ الرائقة التي تزيح وَحْشَةَ الأنفس بإيناسها: [الكامل]

ناهِيكَ مِنْ فَرْدٍ أغرَّ مُمَدَّحٍ ... رَحْبِ الذَّرَا حُرِّ الكلامِ مُحَسَّدِ[6]
بَهَرَ الأنامَ رياسةً وسياسةً ... وجلالةً في المُنْتَمَى والمَحْتِدِ[7]
وأتى بكلِّ بديعة في نوعها ... لم تُخْتَرَعْ وغريبةٍ لم تُعْهَدِ

---

(١) قوله: «عَيْنَ الرِّضا عن كلِّ عَيبٍ كليلةٌ» صَدْرُ بيتٍ استشهد به القاضي إياس بن معاوية عندما سأله رجل كان قد صحبه في سفر وأراد أن يفارقه: [الطويل]

وعَيْنُ الرِّضَى عن كلِّ عَيبٍ كليلةٌ ... ولكنَّ عَينَ السُّخْطِ تُبْدِي المساويا

وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٤٦٧). وعَينٌ كليلَةٌ: أي لم تحقّق المنظور. لسان العرب (كلل).

(٢) هو مالك بن أنس، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السُّنَّة، وإليه تنسب المالكية. ولد في المدينة وتوفي بها سنة ١٧٩ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ١٣٥) والأعلام (جـ ٥ ص ٢٥٧).

(٣) الوامق: المُحِبُّ. القالي: المبغض. مختار الصحاح (ومق) و(قلا).

(٤) العيُّ، بفتح العين وكسرها: مصدر عَيَّ؛ يقال: عَيَّ الرجلُ بأمره وعن أمره إذا لم يَهْتَدِ لوجه مراده. محيط المحيط (عيي).

(٥) قوله: «جَعَلَ النَّفْسَ هَدَفًا»: يريد: مَن صَنَّفَ فقد استهدف. محيط المحيط (هدف).

(٦) الذَّرا، بالفتح: نواحي الدار. وقوله: رَحْبُ الذرا: أي كريم مضياف. محيط المحيط (ذرى).

(٧) المَحْتِدُ: الأصل. محيط المحيط (حتد). وفي طبعة دار صادر: «والقُعْدُدِ» بدل «والمَحْتِدِ».

ما شِئْتَ من شعرٍ أرقَّ من الصَّبا وكتابةٍ أزهَى من الزَّهْرِ النَّدِي
وبديعِ قِرطاسٍ تَوَشَّحَ مَتْنُه بِمُنَمْنَمٍ مِنْ رَقْمِهِ ومُنَجَّدِ
بَهِجٌ كأنَّ الحُسْنَ حَلَّ أدِيمَهُ فكساه رَيْعَانَ الشبابِ الأغْيَدِ
كالبُرْدِ في توشيعه، والسُّلكِ في تَرْصيعه، والوَشْيِ نُمِّقَ باليَدِ[1]
وكأنما سالَ العِذَارُ عليه أو خَطَّتْهُ أيْدي الغانياتِ بإثْمِدِ[2]
يختالُ بين مُوَصَّلٍ ومُفَصَّلٍ ومُطَرَّزٍ ومُنَظَّمٍ ومُنَضَّدِ
قد قَيَّدَ الأبصارَ والأفكارَ مِنْ ألْفاظِهِ بمثقَّفٍ ومُقَيَّدِ
ما فيه مَغْرَزُ إصْبَعٍ إلاَّ وفيـ ـه نتيجَةٌ لِمُفَرَّعٍ ومُوَلَّدِ
ولِكُلِّ جُزْءٍ حِكْمَةٌ أو مُلْحَةٌ أو بِدْعَةٌ لِمُرَسَّلٍ ومُقَصَّدِ[3]
أوَ ليس مثلي قاصرًا عن وَصْفه والحَقُّ نُورٌ واضحٌ للمُهْتَدِي

وكما قلت وقد عجزت عن أداء الواجب وحاولت المَسنُون، وفضلُ اللَّه سبحانه على مَن يشاء من عباده ليس بممنوع ولا ممنون[4]: [الخفيف]

لَيْتَ شِعْرِي أيُّ العبارات تُوفِي واجِبَ ابْنِ الخَطيبِ مِمَّا أرُومُ
وأنا عاجِزٌ عنِ البَعْضِ منها لِقُصُوري وما العَيِيُّ[5] مَلومُ
وَهْوَ يُدْعَى لسانَ دِينٍ وناهِيـ ـكَ افتخارًا به تَتِمُّ الرُّسُومُ
فبأيِّ الحُلَى أُحَلِّي عُلاَ مَنْ نَالَ فَضْلاً رَوَتْهُ عُرْبٌ ورُومُ
وعَلَى الفَرْض ما الَّذِي أنْتحي مِنْـ ـهُ لَدَى الوَصْفِ أن يخصّ العُمُومُ
ألِحِفْظٍ قد ارْتَوَى مِنْ مَعِينٍ[6] لِصَوابٍ عليه كلٌّ يَحُومُ
أم لفَهْمٍ يستخرج الدُّرَّ غَوصًا من بحارٍ يَخْشَى بها مَنْ يَعُومُ

---

(١) وقع هذا البيت في طبعة دار صادر بعد البيتين التاليين.
(٢) الإثْمِدُ، بكسر الهمزة والميم وسكون الثاء: حَجَرٌ يُكْتَحَلُ به. مختار الصحاح (ثمد).
(٣) المُلْحَةُ، بضم الميم وسكون اللام: البركة. البِدْعة، بكسر الباء وسكون الدال: زيادة في الدِّين أو نقصان منه بعد الإكمال. مُرَسَّلٌ: مُرَتَّلٌ. مُقَصَّدٌ: مُكَسَّرٌ. محيط المحيط (ملح) و(بدع) و(رسل) و(قصد).
(٤) ممنون: مقطوع. محيط المحيط (منن).
(٥) العَيِيُّ: ذو العِيّ، أي الذي لا يهتدي لوجه مراده. محيط المحيط (عيي).
(٦) الماءُ المَعِينُ: الظاهر الجاري على وجه الأرض، محيط المحيط (عين).

أم لِفِكرٍ مُؤلِّفٍ في فنونٍ عن دهاءٍ[1] به تُداوى الكُلُومُ[2]
أم لِنَظْمٍ كأنه جَوْهرُ السِّلْـ ـكِ غَلاَ قَدْرُهُ على مَنْ يَسُومُ
تتباهى به الصُّدورُ حُلِيًّا وتَرُوقُ العيونَ منه نجومُ
أم لنثرٍ وافى بسِحْرِ بيانٍ فَهْوَ كالرُّوحِ والمعاني جُسومُ
وأظَلَّتْهُ للبديعِ سَمَاءٌ تتلالاَ[3] في جانِبَيْهَا العُلُومُ
فاستزادَتْ منه النفوسُ رَشادًا واستزانَتْ منه النُّهى والحُلُومُ[4]
أم لحظٍّ مُنَمْنَمٍ فاقَ حُسْنًا مثلَ وَشْيٍ تلوحُ منه الرُّقُومُ
أو كَزَهْرٍ في بَهْجَةٍ ورُوَاءٍ وأريجٍ به تُزاحُ الغُمُومُ[5]
والغصونُ، الأقلامُ، والطِّرْسُ رَوضٌ ناضِرٌ، والمِدَادُ غَيثٌ سَجُومُ[6]
تلك سِتٌّ أعْجَزْنَ وَصْفي فإني بسِوَاها مما يجلُّ أقُومُ

ولم يكن جمعي ـ علم الله ـ هذا التأليف لِرِفْدٍ أستهديه، أو عَرَضٍ نائل أستجديه، بل لحقِّ وُدٍّ أُؤدِّيه، ودَيْنٍ وَعْدٍ أقدِّمه وأُبْدِيه، ووقوف عند حَدّ لا يجوز تَعَدِّيه، وتلبيةِ داعٍ أُحَيِّيْه وأفديه: [الرمل]

إنَّ مَنْ يَرْجُو نوالاً ونَدًى مِنْ بني الدنيا لَذُوْ حَظٍّ غَبينْ[7]
فلقَدْ كان على غيرِ الهُدَى مَنْ يُسَوِّيهِمْ بربِّ العالمينْ
ويُرَجِّي منهمُ الرزقَ فهل خالقُ الكلِّ فقيرٌ أو ضَنِينْ[8]
أنُخَلِّي قَصْدَ ربٍّ مالكٍ ونُرَى للخلقِ جَهْلاً قاصدينْ
ما لنا مِنْ مَخْلَصٍ نأتي به غيرُ جاه المصطفى الهادي الأمين

---

(١) في طبعة دار صادر: «عِدَّةٍ ما به» بدل «عن دهاءٍ به».
(٢) الكُلُومُ: جمع كَلْم وهو الجرح. مختار الصحاح (كلم).
(٣) تتلالاَ: أصلها: تتلألأ؛ وقد حذف الهمزة الثانية لكي لا ينكسر الوزن.
(٤) النُّهى: جمع نُهْيَة وهي العقل. الحُلُومُ: جمع حِلْم وهو الأناة والعقل. مختار الصحاح (نهي) ومحيط المحيط (حلم).
(٥) الرُّواء، بضم الراء: حُسْنُ المنظر. الغُمُومُ: جمع غَمّ وهو الكَرْب. مختار الصحاح (رأى) و(غمم).
(٦) الطِّرْسُ، بكسر الطاء: الصحيفة. المِداد، بكسر الميم: النِّقْسُ (ما يكتب به). غَيْثٌ سَجُومٌ: سيّال. مختار الصحاح (طرس) و(مدد) و(نقس) و(سجم).
(٧) الرأي الغَبِينُ: الضعيف. مختار الصحاح (غبن).
(٨) الضَّنِينُ: البخيل. مختار الصحاح (ضنن).

سَيِّدِ الخلقِ العمادِ المرتَجَى   للمُلِمَّاتِ[1] شَفيعِ المذنبين
فَعَلَيهِ صَلَواتٌ تنتحي   حضرَةً حَلَّ بها في كل حين
والرضا مِنْ بَعْدُ عن أربعةٍ   هُمْ بحقٍّ أمراءُ المؤمنين
فَيَمِينَا إنَّ مَنْ يَهْواهُمُ   لَيَكُونَنَّ مِنَ أصحابِ اليمينْ
وَسْطَ جَنّاتٍ تُحَيِّيهِ بها   آنِساتٌ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينْ[2]
بِقَوارِيرِ لُجَيْنٍ شُرْبُهُ   وأباريقَ وكأسٍ من مَعِينْ[3]
والذي شَرَّفَهُمْ يَمْنَحُنا   حُبَّهُم والكونَ معهم أجمعينْ

فدونك أيها الناظرُ في هذا الكتاب، المتجافي عن مَذهب النقد والعِتاب، كلماتٍ سوانح، اختُلِسَتْ مع اشتعال الجوانح، وتضاد الأمور الموانع والموانح، وألفاظًا بَوَارِح، اقْتُنِصَتْ بين أشغال الجوارح، وطُرَفًا أَسَمْتُ الطَّرْفَ في مَرعاها وكانت هَمَلاً[4] غير سَوَارِح، وتُحَفًا يحصل بها لناظره الإمتاع، ولا يعدُّها من سَقَطَ المتاع المبتاع، ويلهج بها المرتاح، ويستأنس المستوحش المُرْتاع[5].

وبعد أن خَمَّنْتُ تمامَ هذا التصنيف، وأمْعَنْتُ النظرَ فيما يحصل به التَّقْرِيطُ لسامعه والتشنيف[6]، قَسَّمْتُهُ قسمين، وكلٌّ منهما مستقلٌّ بالمطلوب فَيَصِحّ أن يُسَمَّيَا باسمين:

---

(١) المُلِمَّاتُ: جمع مُلِمَّة وهي النازلة من نوازل الدنيا. محيط المحيط (لمم).

(٢) الآنسات: جمع آنسة وهي الجارية الطيبة النَّفس. الطَّرْفُ: العَيْنُ. العِينُ: جمع عَيناء وهي ذات العيون الواسعة. القاموس المحيط (أنس) و(طرف) ولسان العرب (عين). وقوله: قاصرات الطرف: أي إنهنّ لا يَنْظُرْنَ إلى غير ما يُرِدْن. وعجز البيت أخذه من قول ابن مُقَانا الأشبوني الأندلسي من قصيدة قالها في مدح إدريس بن يحيى بن علي بن حمود، خليفة مالقة: [الرمل]

وعليهمْ زاجرٌ من حِلْمِهِمْ   ولديهمْ قاصراتُ الطَّرْفِ عِينْ

الذخيرة (ق ٢ ص ٧٩١).

(٣) عجز هذا البيت مأخوذ أيضًا من قول ابن مُقَانا الأشبوني من القصيدة المذكورة:

ويُسَقَّونَ إذا ما شربوا   بأباريقَ وكأسٍ من مَعِينْ

الذخيرة (ق ٢ ص ٧٩٢).

(٤) الطُّرَفُ: جمع طُرْفة وهي الغريب المُسْتَحْسَن المُعْجِب. الهَمَلُ من الإبل: التي تترك ليلاً ونهارًا ترعى بلا راعٍ. محيط المحيط (طرف) و(همل).

(٥) المُرْتاعُ: الخائف. مختار الصحاح (روع).

(٦) التقريط: إلباس القُرْط وهو حلي يُعلَّق في شحمة الأذُن. التشنيف: إلباس الشُّنُف وهو القُرْط الأعلى. محيط المحيط (قرط) و(شنف).

القسم الأول ـ فيما يتعلّق بالأندلس من الأخبار الـمُتْرَعَةِ الأكواب والأنباء المنتحية صَوْبَ الصواب، الرافلة من الإفادة في سوابغ الأثواب، وفيه بحسب القصد والاقتصار، وتحرّي التوسُّط في بعض المواضع دون الاختصار، ثمانية من الأبواب:

الباب الأول ـ في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها، واعتدال مِزَاجها ووُفور خيرها وكمالها واستوائها، واشتمالها على كثير من المنافع والمحاسن[1] واحتوائها، وكرم نباتها الذي سَقَتْه سماء البركات من جنباتها بنافع أنوائها، وذكر بعض مآثرها المجلوّة الصُّوَر، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكُوَر، المستمدّة من أضوائها.

الباب الثاني ـ في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بانقِياد، وفَتْحِها على يد مُوسَى بن نُصَير ومولاه طارق بن زياد، وصَيرُورتها ميدانًا لِسَبْق الجياد، ومحطّ رحال الارتياء والارتياد[2]، وما يتبع ذلك من خَبَر حصل بازديانه زياد[3]، ونبإٍ وصل إليه اعتيامٌ[4] وتقرر بمثله اعتياد.

الباب الثالث ـ في سَرْد بعض ما كان للدِّين بالأندلس من العز السامي العماد، والقهر للعدوّ في الرواح والغدوّ والتحرّك للهدوّ البالغ غاية الآماد، وإعمال أهلها للجهاد، بالجدّ والاجتهاد، في الجبال والوهاد، بالأسنّة الـمُشْرَعَة[5] والسيوف الـمُسْتَلَّة من الأغماد.

الباب الرابع ـ في ذكر قُرْطُبة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة، وجامِعِهَا الأمويِّ ذي البدائع الباهية الباهرة، والإلماع بحَضْرَتي الملك؛ الزهراء الناصرية والعامرية الزاهرة، ووصفِ جملة من متنزهات تلك الأقطار ومصانعها[6] ذات المحاسن الباطنة والظاهرة، وما يجرّ إليه شجونُ الحديثِ من أمور تَقْضي بحُسْن إيرادها القرائحُ الوَقّادة والأفكار الماهرة.

---

(١) في طبعة دار صادر: «من المحاسن واحتوائها...».

(٢) الارتياء: من ارتأى الأمرَ إذا نظر فيه وتَدَبَّره. الارتياد: من ارتاد الشيءَ إذا طلبه. محيط المحيط (رأى) و(رود).

(٣) في طبعة دار صادر: «ازدياد» بدل «زياد».

(٤) الاعتيام: من اعتام الرجلُ إذا اختار. محيط المحيط (عيم).

(٥) الأَسِنّةُ: جمع سِنان وهو نَصْلُ الرمح. الـمُشْرَعَةُ: الـمُسَدَّدة إلى صدور الأعداء. محيط المحيط (سنن) و(شرع).

(٦) المصانع: جمع مَصْنع وهو كالحوض يُجْمَعُ فيه ماء المطر. محيط المحيط (صنع).

الباب الخامس - في التعريف ببعض مَن رَحَل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الذاكية العَرَار والبَشَام[١]، ومَدْحِ جماعةٍ من أولئك الأعلام، ذوي الألباب الراجحة والأحلام، لِشامَةِ وَجْنَةِ الأرضِ دِمَشْق الشام، وما اقْتَضَتْه المناسبةُ من كلام أعيانها وأرباب بيانها ذوي السؤدد والاحتشام، ومُخَاطباتهم للمؤلّف الفقير حين حَلَّها عام سبعة وثلاثين وألف وشاهَدَ بَرْقَ فَضْلِها المبين وشام[٢].

الباب السادس - في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل الـمَشْرق، المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء الـمُشْرِق، والأكابر الذين حَلُّوا منها بحلولهم فيها الـجِيْدَ والـمَفْرِق[٣]، وافتخروا برُؤْية قُطْرِها الـمُونِقِ على الـمُشْئِمِ والـمُعْرِق[٤].

الباب السابع - في نبذة مما منَّ اللّهُ تعالى به على أهل الأندلس مِنْ توقُّدِ الأذهان، وبَذْلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عَزَّ أوْ هان، وحَوْزهم في ميدان البراعة من قَصَبِ السَّبْقِ خَصْلَ الرهان، وجملة من أجوبتهم الدالّة على لوذعيتهم[٥]، وأوصافهم المؤذنة بألمعيتهم[٦]، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فَضْلهم أوضح بُرْهان.

الباب الثامن - في ذكر تغلّب العدوّ الكافر على الجزيرة بَعْدَ صَرْفِهِ وجوه الكَيْد إليها، وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بِـمَكْرِهِ واسْتعماله في أمرها حِيَلَ فِكْره حتى استولى - دمَّره اللّه - عليها، ومَحَا منها التوحيد واسْمَه، وكتب على مشاهدها ومعاهدها وَسْمَه، وقَرَّرَ مذهب التثليث والرأي الخبيث لديها، واستغاثة مَنْ بها بالنظم والنثر، أهلَ ذلك العصر، من سائر الأقطار، حين تَعَذَّرَتْ بحصارها، مع قلّة حُمَاتها وأنصارها، المآربُ والأوطار[٧]،

---

(١) العَرارُ، بالفتح: بهار البَرّ وهو نَبْتٌ طيِّب الريح. البَشَام، بالفتح: شجر طيِّبُ الرِّيح يُسْتاكُ به. مختار الصحاح (عرر) و(بشم).

(٢) شامَ البَرْقَ: نَظَرَ إلى سحابته أين تُمْطِرُ. مختار الصحاح (شيم).

(٣) الـجِيدُ، بكسر الجيم: العُنُق. الـمَفْرِقُ: وسط الرأس وهو الذي يُفْرَقُ فيه الشعر. محيط المحيط (جيد) و(فرق).

(٤) الـمُشْئِمُ: اسم فاعل لفعل أَشْأَمَ؛ يقال: أَشْأَم الرجلُ إذا أتى الشام. الـمُعْرِقُ: اسم فاعل لفعل أَعْرَقَ؛ يقال: أَعْرَق فلانٌ إذا أتى العراق. محيط المحيط (شأم) و(عرق).

(٥) عَثَرْنا في لسان العرب والقاموس المحيط ومختار الصحاح (مادة لذع) على كلمة «الوذعي» وهو الخفيف الذكيّ الظريفُ اللّسِنُ الفصيح، كأنه يلذع بالنار من ذكائه.

(٦) الألمعيُّ: الذكي المتوقّد. مختار الصحاح (لمع).

(٧) الأوطار: جمع وَطَر وهو الحاجة. لسان العرب (وطر).

وجاءها الأعداءُ من خلفها ومن بين يديها، أعاد اللّه تعالى إليها كلمة الإسلام، وأقام فيها شريعة سَيِّد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، ورفع يَدَ الكُفْر عنها وعَمَّا حَوَاليها، آمين.

ولـم أُخْـلِ بابًا في هذا القسم من كلام[1] للسان الدين بن الخطيب وإنْ قَلّ، مع أن القسم الثاني بذلك كما ستقف عليه قد استقلّ، وهذا آخر ما تعلّق بالقسم الأول، وعلى الله سبحانه المتَّكل والمُعَوَّل.

القسم الثاني ـ في التعريف بلسان الدين بن الخطيب، وذكر أنبائه التي يَرُوقُ سماعُها، ويتأرجُ نَفْحُها ويَطِيب، وما يُنَاسِبُها من أحوال العلماء الأفراد، والأعلام الذين اقتضى ذِكْرَهُمْ شجونُ الكلام والاستطراد، وفيه أيضًا من الأبواب ثمانية، موصلة إلى جَنّاتِ أدبٍ قُطُوفُها دانية، وكلُّ غصن منها رطيب:

الباب الأول ـ في ذكر أولية لسان الدين وذكر أسلافه، الذين وَرِثَ عنهم المجدَ وارْتَضَعَ دَرَّ أخلافه[2]، وما يناسب ذلك مما لا يذهب المنصفُ إلى خلافه.

الباب الثاني ـ في نشأته وتَرَقِّيهِ ووزارته وسعادته، ومُساعدةِ الدهر له ثم قَلْبِهِ له ظَهْرَ المِجَنّ[3] على عادته، في مُصَافاته، ومنافاته، وارتباكه، في شباكه، وما لقي من إحَن[4] الحاسد، ذي المذهب الفاسد، ومِحَن الكائد المستأسد وآفاته، وذكر قصوره وأمواله، وغير ذلك من أحواله، في تقلّباته عنده لما قابله الزمان بأهواله، في بَدْئه وإعادته إلى وفاته.

الباب الثالث ـ في ذكر مشايخه الجِلَّة، هُدَاة الناس ونجوم المِلَّة، وما يَتَّصِلُ بذلك من الأخبار الشافية للعلّة، والمواعظ المنجية من الأهواء الْمُضِلَّة، والمناسبات الواضحة البراهين والأدِلَّة.

الباب الرابع ـ في مخاطبات الملوك والأكابر الموجَّهة إلى حضرته العليّة، وثناء غير

---

(١) في طبعة دار صادر: «لسانِ الدين».

(٢) الدَّرُّ، بفتح الدار وتشديد الراء: اللَّبَنُ. الأخلاف: جمع خِلْف، بكسر الخاء وسكون اللام، وهو حَلَمَةُ ضَرْع الناقة. لسان العرب (درر) و(خلف).

(٣) المِجَنُّ، بكسر الميم وفتح الجيم: التُّرْس. مختار الصحاح (جنن). والقول: «قَلَّبَ له ظَهْرَ المِجَنّ» مثل يضرب لمن كان صاحبه على مودّة ثم حال عن العهد. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ١٠١، رقم المثل ٢٨٦٩).

(٤) الإحَنُ: جمع إحْنة وهي الحِقْد. مختار الصحاح (أحن).

واحد من أهل عصره عليه، وصَرْف القاصدين وجوهَ التأميل إليه، واجتلائهم أنوار رياسته الجليّة.

الباب الخامس ـ في إيراد جملة من نَثْره الذي عَبِق أَرِيجُ البلاغة من نَفَحاته، ونظمه الذي تألّق نور البراعة من لمحاته وصفحاته، وما يَتَّصِلُ بذلك[1] من بعض أزجاله ومُوَشَّحاته، ومناسبات رائقة من فنون الأدب ومُصْطلحاته.

الباب السادس ـ في مُصَنّفاته في الفنون، ومؤلّفاته المُحَقّقة للواقف عليها الآمالَ والظنون، وما كمل منها أو اخْتَرَمَتْه دون إتمامه الْمَنُون[2].

الباب السابع ـ في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه، المستدلّين به على المنهاج، المُتَلَقّينَ أنواعَ العلوم منه، والمُقْتَبِسِينَ أنوارَ الفهوم من سراجه الوهّاج.

الباب الثامن ـ في ذكر أولاده الرافلين في حُلَل الجلالة، المُقْتَفِينَ أوصافَه الحميدة وخِلاَلَه، الوارثين العلم والحِلْم والرياسة والمجد عن غير كَلاَلَة[3]، ووصيّته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا، المشتملة على النصائح الكافية، والحِكَم الشافية، من كل مَرَضٍ بلا ثُنْيا، المنقذة من أنواع الضلالة، وما يتبع ذلك من المناسبات القوية، والأمداح النبويّة، التي لها على حُسْن الختام أظهر دَلالة.

وقد كنت أولاً سمّيته بـ «عَرْف الطِّيب، في التعريف بالوزير ابن الخطيب» ثم وَسَمْتُهُ حين أَلْحَقْتُ أخبارَ الأندلس به بـ «نفح الطِّيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب».

وله بالشام تعلّق من وجوه عديدة، هادية لمتأمّله[4] إلى الطرق السديدة:

أوّلها: أنَّ الداعي لتأليفه أهل الشام ـ أبقى اللّه مآثرهم وجعلها على مَرِّ الزمان مَدِيدة.

ثانيها: أنَّ الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذوو النَّجْدة والشَّوْكة الحديدة[5].

---

(١) في طبعة دار صادر: «وما يتصل به».

(٢) الـمَنُونُ: الـمَنِيَّةُ. مختار الصحاح (منن).

(٣) الكَلالَةُ: بنو العَمّ الأباعد، والعرب تقول: لم يَرِثْه كلالةً، أي لم يَرِثْه عن قرب واستحقاق، وقولهم: ورث المجد من غير كلالة، أي ورثه وهو حقيق بذلك. لسان العرب (كلل).

(٤) في طبعة دار صادر: «متأملها» بدل «المتأمله».

(٥) في طبعة دار صادر: «ذوو الشوكة الحديدة». الشَّوكة: القدرة. الحديدةُ: الحادّة. محيط المحيط (شوك) و(حدد).

ثالثها: أن غالب أهل الأندلس من عَرَب الشام الذين اتّخذوا بالأندلس وَطَنًا مستأنفًا وحَضْرة جديدة.

ورابعها: أن غَرْنَاطة نزل بها أهل دمشق، وسَمَّوْها باسمها لشبهها بها في القَصْر والنهر، والدَّوْح والزَّهْر، والغُوطة الفيحاء، وهذه مناسبةٌ قوية الْعُرَا شديدة.

هذا، وإني أسأل ممّن وقف عليه، أنْ ينظر بعين الإغضاء إليه، كما أطلب ممّن كان السبب في تصنيفه، والداعي إلى تأليفه وتَرْصيفه، استنادًا لركن الثقة، واعتمادًا على الود والـمِقَة[1]، أن يصفح عَمّا فيه من قصور ويَسْمح، ويُلاحظه بعين الرضا الكَليلة ويَلْمح، إذ ركّبْتُ شكل مَنْطِقِهِ والأشجان غالبة، وقضية الغربة، موجبة للكربة، ولبعض الآمال سالبة، وهو ـ وإن لم يُوْفِ بكل الغرض ـ فلا يخلو من فائدة، وقد يُسْتَدَلُّ على الجوهر بالعرَض، فإنْ أَدَّيْتُ المفترض، وذاك الْمَرَام الذي أرتضيه، ويُوجب الودّ ويقتضيه: [الطويل]

وإلاَّ فَحَسْبي أنْ بَذَلْتُ به جهدي وأَنْفَقْتُ مِنْ وُجْدي[2] على قَدْرِ ما عندي

وقد توهّمْتُ أني لم أُسْبَقْ إلى مثله في بابه، إذا لم أقف له على نظيرٍ أتعلّق بأسبابه، ورَجَوْتُ أن يكون هَدِيّةً مستملحةً مستعذبة، وطُرْفةً[3] مقبولةً مستغربة: [السريع]

هَدِيَّتِي تقصرُ عن هِمّتِي وهمتِي أكْثرُ من مالي
وخالصُ الودِّ ومَحْضُ الإخا[4] أكثرُ ما يُهْدِيه أمثالي

وأوردْتُ فيه من نظم وإنشاء، ما يكفي المقتصرَ عليه إن شاء، ومن أخبار ملوك ورؤساء، وطبقات مَنْ أَحْسَنَ أو أساء، ما فيه اعتبارٌ للمتأمّل، وادّكارٌ[5] للراحل المتحمِّل، وزينةٌ للذاكر المتجمّل، وتنكيتٌ على أهل البَطَرِ[6]، وتبكيتٌ لـمَن خَرَجَ مِنْ دنياه ولم يَقْضِ من الطاعة الوَطَر: [الوافر]

أرى أولادَ آدمَ أَبْطَرَتْهُمْ حُظُوظُهُمُ من الدنيا الدَّنِيَّهْ

---

(١) الـمِقَةُ، بكسر الميم وفتح القاف: المحبة. مختار الصحاح (ومق).
(٢) الوُجْدُ، بضم الواو وسكون الجيم: الغنى. مختار الصحاح (وجد).
(٣) الطُّرْفَةُ: الغريب الـمُسْتَحْسنُ الـمُعْجِبُ. محيط المحيط (طرف).
(٤) الإخا: أصل القول: الإخاء، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.
(٥) الادّكار: من ادَّكَرَ، أي تذكَّر. لسان العرب (دكر).
(٦) البَطَر، بالفتح: الطُّغْيان في النِّعْمة. لسان العرب (بطر).

فَلِمْ بَطِرُوا وأوّلُهُمْ مَنِيٌّ إذا نُسِبُوا وآخرُهُمْ مَنِيَّهْ

وفيه إيقاظ لمثلي من سِنَة[1] الغفلة، وحَثٌّ على عدم الاغترار بالمهلة، وتنبيهٌ للابس بُرْد الشبابِ القشيب، أنّه لا بُدّ من حادث الموت قَبْلَ أو بَعْدَ المَشِيب: [السريع]

لِلَّه دَرُّ الشَّيْبِ من واعظٍ وناصحٍ مِنْهاجُهُ واضِحْ[2]
كلُّ امْرِئٍ يُعْجِبُهُ شأنه وحادثُ الدهر له فاضِحْ

فكَمْ باكٍ على عَصر الشباب، وشاكٍ لفراق عَهْدِ الصِّبَا والأحباب، أنساه طارقُ الزمان سُلَيمى والرّباب: [الوافر]

مَضَى عَصْرُ الشباب كلَمْحِ بَرْقٍ وعَصْرُ الشَّيْبِ بالأكدار شِيبَا
وما أعْدَدْتُ قَبْلَ الموتِ زادًا ليَومٍ يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيبا[3]

وما أَحْسَنَ قولَ بعض الأعلام: [الطويل]

مَضَى ما مَضَى من حُلْوِ عَيْشٍ ومُرِّهِ كأنْ لم يَكُنْ إلاّ كأضغاثِ أحْلامِ[4]

وقول مَن أرشد سفيهًا: [الخفيف]

إنما هذه الحياةُ متاعٌ فالجَهُولُ الجهولُ مَنْ يَصْطفيها
ما مَضَى فات والمُؤَمَّلُ غَيْبٌ ولك الساعةُ التي أنتَ فِيهَا

وفي معناه لغيره: [المجتث]

دُنْيَاكَ شيئانِ فانْظُرْ ما ذانِكَ الشّيئانِ
ما فاتَ منها فَحُلْمٌ وما بَقِي فأمَانِي

---

(١) السِّنَةُ، بكسر السين: النعاس.

(٢) يجمع الشاعر في هذا البيت بيتي أبي نواس: [السريع]

لِلَّهِ دَرُّ الشَّيبِ من واعظٍ وناصحٍ لو سُمِعَ الناصحُ
يأبى الفَتَى إلاّ اتّباع الهَوَى ومَنْهَجُ الحَقِّ له واضحُ

ديوان أبي نواس (ص ٦١٨).

(٣) في عجز هذا البيت يقتبس الشاعر من القرآن الكريم قول اللّه تعالى: ﴿فكيف تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتُمْ يومًا يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيبًا﴾. سورة المُزّمّل ٧٣، الآية ١٧. والوِلْدان، بكسر الواو: جمع وليد وهو المولود والصَّبِيُّ. محيط المحيط (ولد).

(٤) سيأتي هذا البيت في الجزء السابع من نفح الطيب.

وما أَحْكَمَ قولَ ابن حِطّان[1]، مع وقوعه من البِدْعَة في أشطان[2]: [الرمل]

يأسفُ المرءُ على ما فاتَهُ ... مِنْ لُبَاناتٍ[3] إذا لم يَقْضِهَا
وتَـرَاه ضاحكًا مُسْتَبْشِرًا ... بالتي أمْضَى كأنْ لم يُمْضِها
إنها عندي كأحلامِ الكَرَى ... لَقَرِيبٌ بَعْضُها مِنْ بَعْضِها

ولغيره: [البسيط]

واللَّه لو كانتِ الدنيا بأجمعها ... تَبْقَى علينا ويأتي رِزْقُهَا رَغَدَا
ما كانَ من حَقِّ حُرٍّ أنْ يذلَّ لها ... فكيف وَهْيَ متاعٌ يَضْمَحِلُّ غَدَا

ولآخر: [السريع]

لا حَظَّ في الدنيا لمُسْتَبْصِرٍ ... يَلْمَحُها بالفِكرةِ البَاصِرَهْ
إنْ كَدَّرَتْ مَشْرَبَهُ مَلَّها ... وإنْ صَفَتْ كَدَّرَتِ الآخرهْ

ويعجبني قولُ الوزير ابن المغربي[4]: [مجزوء الكامل]

إني أَبُثُّكَ من حَدِيـ ... ـثي والحديثُ له شُجُونُ[5]
فارَقْتُ مَوْضِعَ مَرْقَدِي ... ليلاً ففَارَقني السكونُ
قُلْ لي فأولُ لَيْلَةٍ ... للقبرِ كيف تُرَى أكونُ

وقول مامِيَّه[6]: [الوافر]

---

(١) هو عمران بن حِطّان الشيباني، من أهل البصرة، شاعر مُفْلِقٌ مُكْثر. توفي سنة ٨٤ هـ. الكامل في اللغة والأدب (جـ ٢ ص ١٢٤) والأعلام (جـ ٥ ص ٧٠).

(٢) الأشطان: جمع شَطَن، بفتح الشين والطاء، وهو الحبل، وقيل: الحبل الطويل. مختار الصحاح (شطن). وستأتي هذه الأبيات في الجزء السابع، باختلاف يسير عمّا هنا.

(٣) اللُّبانات: جمع لُبانة وهي الحاجة. مختار الصحاح (لبن).

(٤) هو أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين، المعروف بالوزير المغربي؛ شاعر وناثر، توفي سنة ٤١٨ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ١٧٢). وقد وردت الأبيات في المصدر المذكور (ص ١٧٤) باختلاف يسير عمّا هنا.

(٥) الشُّجونُ: طرق الأودية، واحدها شَجْن، وهنا يشير إلى المثل: «الحديث ذو شجون» أي ذو فنون وأغراض يدخل بعضه ببعض، يضرب في الحديث يُتَذَكَّرُ به غيره. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٩٧، رقم ١٠٤٤) ولسان العرب ومختار الصحاح (شجن).

(٦) هو محمد بن أحمد بن عبد اللّه، المعروف بماميّه الرومي؛ زجّال ووشّاح، وشاعر صاحب ديوان. توفي بدمشق سنة ٩٨٨ هـ. شذرات الذهب (جـ ٨ ص ٤١٣) والأعلام (جـ ٦ ص ٧).

تأمَّلْ في الوُجُود بعَيْن فِكْرٍ   تَرَ الدنْيَا الدَّنِيَّةَ كالْخَيَالِ
ومَنْ فيها جَميعًا سوف يَفْنَى   ويَبْقَى وجْهُ ربك ذو الجَلاَلِ[1]

وقول بعض العارفين: [الخفيف]

إسْتَعِدّي يا نَفْسُ للموتِ واسْعَيْ   لنجاةٍ فالحازمُ الْمُسْتَعِدُّ
قَدْ تَبَيَّنْتِ أنه لَيْسَ للْحَيْـ   ـي خُلُودٌ وما مِنَ الموتِ بُدُّ
إنما أنتِ مُسْتَعِيرَةٌ ما سَوْ   فَ تَرُدِّيْنَ والعَوَارِي[2] تُرَدُّ
أنتِ تَسْهِينَ والحوادثُ لا تَسْـ   ـهُو وتَلْهِينَ والْمَنايا تَجِدُّ
أيُّ مِلْكٍ في الأرضِ أو أيُّ حظٍّ   لامرىءٍ حَظُّهُ من الأرضِ لَحْدُ
لا تُرَجِّي البقاء في مَعْدِنِ المَوْ   تِ ودارٍ حُتُوفُها لكِ وِرْدُ
كيف يَرْجُو امرؤٌ لَذَاذَةَ أيا   مٍ عليه الأنفاسُ فيها تُعَدُّ

وأسألُ من مُبْلِغ السائلين ما يرجون: أنْ يصفح عن زَلاّتي ويسامحني فيما أوردْتُ في هذا الكتاب من الهَزْل والمُجُون، الذي جَرَّتِ المناسبةُ إليه والحديثُ شجون، وما القَصْد منه إلاّ ترويح قلوب الذين يسوقون عِيْسَ الأسْمَارِ ويُزْجُون[3]، وفيما أوردْتُ من المواعظ والنصائح، وحكايات الأولياء الذين طِيبُ زَهْرِ مناقبهم فائح، والتوسُّل بمحاسن الأمداح النبوية أنْ يستر بفضله سبحانه القبائح، ويُرِينا وجهَ القبول بلا اكتتام، ويَمْنَحنا الزُّلْفَى[4] وحُسْنَ الختام: [الطويل]

ومَن يَتَوَسَّلْ بالنبيِّ مُحَمَّدٍ   شفيْعِ البَرايا السَّيِّدِ السَّنَدِ الأَسْنَى
فذاكَ جديرٌ أنْ يُكَفَّرَ ذَنْبُهُ   ويُمْنَحَ نَيْلَ القَصْدِ والخَتْمِ بالحُسْنَى

وهذا أوانُ الشروع، في الأصول من هذا الكتاب والفروع، وعلى اللّه سبحانه أعتمد، ومن مَعُونَتِهِ أستمدّ.

---

(١) في عجز البيت يقتبس من القرآن الكريم قول اللّه تعالى: ﴿ويَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجَلالِ والإكرامِ﴾. سورة الرحمن ٥٥، الآية ٢٧.

(٢) العواري: جمع العارية وهي ما يتداولونه بينهم. لسان العرب (عور).

(٣) يُزْجُونَ: يَسُوقُونَ؛ يقال: أَزْجَى الإبِلَ إذا ساقَها. مختار الصحاح (زجا).

(٤) الزُّلْفى، بضم الزاي وسكون اللام: الدرجة والمنزلة. لسان العرب (زلف).

القسم الأول

فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المُتْرَعَة الأكواب، والأنباء المنتحية صَوْبَ الصواب، الرافلة من الإفادة في سَوَابغ الأثواب، وفيه ـ بِحَسْبِ القَصْد والاختصار، وتحرِّي التوسّط في بعض المواضع دون الاختصار،

ثمانية من الأبواب هي:

الباب الأول : في وصف جزيرة الأندلس.

الباب الثاني : في فتح الأندلس.

الباب الثالث : في سرد ما كان للدين الإسلامي بالأندلس من العزّة والمكانة.

الباب الرابع : في ذكر قرطبة وجامعها الأموي ووصف الزهراء.

الباب الخامس : في التعريف ببعض مَن رحل من الأندلسيين إلى المشرق.

الباب السادس : في ذكر الوافدين من المشرق إلى الأندلس.

الباب السابع : فيما امتاز به الأندلسيون من توقّد الأذهان.

الباب الثامن : في تغلّب العدو على الأندلس، واستغاثة الأندلسيين بالنظم والشعر.

الباب الأول
وصف الأندلس

في وصف جزيرة الأندلس وحُسْن هوائها، واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها، واشتمالها على كثيرٍ من المحاسن واحتوائها، وكرم بُقْعَتِها التي سَقَتْها سماء البركات بنافع أنوائها[1]، وذكر بعض مآثرها المجلوّة الصُّوَر، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكُوَر[2]، المستمدّة من أضوائها، فأقول:

محاسنُ الأندلس لا تُسْتَوفَى بعبارة، ومجاري فَضْلها لا يُشَقُّ غُبَارُه، وأنَّى تُجَارَى وهي الحائزة قَصَبَ السَّبْق، في أقطار الغرب والشرق؟.

قال ابن سعيد: إنما سُمِّيَتْ بالأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح؛ لأنه نَزَلَها، كما أن أخاه سَبْتَ بن يافث نَزَلَ العُدْوة المقابلة لها، وإليه تنسب سَبْتة[3].

قال: وأهل الأندلس يحافظون على قَوَام اللسان العربي؛ لأنهم إمّا عَرَبٌ أو متعرّبون، انتهى.

---

(١) الأنواء: جمع نَوْء وهو المطر. مختار الصحاح (نوأ).

(٢) الكُوَرُ: جمع كُورة وهي لفظة يونانية الأصل من (Curia). وقد ظهر اصطلاح «كُورَة» في الأندلس لأول مرة في عهد الوالي أبي الخطار الحسام بن ضرار الكَلْبي (١٢٥ ـ ١٢٨ هـ) عندما وزّع جُنْدَ الشام الذين دخلوا الأندلس سنة ١٢٣ هـ مع بَلْج بن بِشْر القُشَيري. البيان المغرب (جـ ٢ ص ٣٣ ـ ٣٤). وتاريخ مدينة المرية الأندلسية (ص ٧٧، حاشية ١) وLévi - provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane (T.III, p. 48). وقال ياقوت: الكورة اسم فارسي بَحْتٌ، وقد استعارَتْها العربُ وجعلتْها اسمًا للإستان، وهي كل صُقْع يشتمل على عدة قرى. معجم البلدان (جـ ١ ص ٣٦).

(٣) سَبْتَةُ: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، تقابل جزيرة الأندلس، معجم البلدان (جـ ٣ ص ١٨٢).

وقال ابن غالب[1]: إنه أندلس بن يافث، والله تعالى أعلم.

وقال الوزير لسان الدين ابن الخطيب ـ رحمه الله ـ في بعض كلام له أجرى فيه ذكرَ البلادِ الأندلسية، أعادها اللّهُ تعالى للإسلام، ببركة المصطفى عليه من اللّه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ما نَصُّهُ: خَصَّ اللّهُ تعالى بلادَ الأندلس من الرِّيْع وغَدَقِ السُّقْيا[2]، ولذاذة الأقوات، وفَرَاهة الحيوان[3]، ودُرُوْرِ الفواكه، وكثرة المياه، وتبحُّر العُمْران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونُبْل الأذهان، وفنون[4] الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدُّن والاعتمار[5]، بما حُرِمَهُ الكثيرُ من الأقطار ممّا سواها، انتهى.

قال أبو عامر السالمي[6]، في كتابه المسمَّى بـ «درر القلائد وغرر الفوائد»: الأندلس من الإقليم الشامي، وهو خير الأقاليم، وأعدلها هواءً وترابًا، وأعذبها ماءً، وأطيبها هواءً وحيوانًا ونباتًا، وهو أوسط الأقاليم، وخير الأمور أوساطها، انتهى.

قال أبو عبيد البكري[7]: الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانيّة في اعتدالها

---

(١) هو محمد بن أيوب بن غالب الغرناطي، من أهل القرن السادس الهجري، وله كتاب «فرحة الأنفس» الذي ينقل عنه المقري، وقد نشر الدكتور لطفي عبد البديع قطعة متبقية منه تتعلق بكُوَر الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، مطبعة مصر، ١٩٥٥. وعبارة ابن غالب هنا في المصدر المذكور (ص ٢٨١).

(٢) الرِّيع، بكسر الراء: مسيل الوادي من كل مكان، والجمع رِياع. محيط المحيط (ريع). الماءُ الغَدَقُ، بالفتح: الماء الكثير. مخار الصحاح (غدق).

(٣) الفَرَاهَةُ: النشاط. لسان العرب (فره).

(٤) في طبعة دار صادر: «وقبول الصنائع».

(٥) الاعتمار: القصد إلى موضع عامر، والمراد هنا التعمير. محيط المحيط (عمر).

(٦) هو محمد بن أحمد بن عامر البلوي الطرطوشي السالمي؛ كان عالمًا أديبًا مؤرِّخًا لغويًّا، صنّف في الحديث والآداب واللغة والتاريخ كتبًا مفيدة. توفي سنة ٥٥٩ هـ. الذيل والتكملة (جـ ٦ ص ٧) وبغية الوعاة (ص ١٢). وجاء في طبعة عبد الحميد: «السلمي».

(٧) هو عبد اللّه بن أبي مُصْعب عبد العزيز البكري، نسبة إلى بكر بن وائل. لزم المعتصم بن صمادح، ملك ألمرية، والمعتمد بن عباد، ملك إشبيلية. توفي بإشبيلية سنة ٤٨٩ هـ. الذخيرة (ق ٢ ص ٢٣٢) والمغرب (جـ ١ ص ٣٤٧) وقلائد العقيان (ص ١٨٩) والحلّة السيراء (جـ ٢ ص ١٨٠). وجاء نصُّ البكري الوارد هنا في الروض المعطار (ص ٣٣) وفي قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨١) باختلاف يسير عمّا هنا.

واستوائها، هنديّة في عِطْرِها وذكائها، أهوازية في عظم جِبَايتها، صينية في جواهر معادنها، عَدَنِيَّةٌ في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهلِ الحكمة وحاملي الفَلسفة، وكان من ملوكهم الذين أثَّروا الآثار بالأندلس هرقاس، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس[1] وصنم جِلِّيقِيَّة[2]، والأثر في مدينة طَرَّكُونة[3]، الذي لا نظير له.

قال المسعودي[4]: بلاد الأندلس تكون مسيرةُ عمائرها ومدنها نحو شهرين، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة، انتهى باختصار.

ونحوه لابن اليَسَع[5]، إذ قال: طولها من أَرْبُونة[6] إلى أَشْبُونة[7] وهو قَطْعُ ستين يومًا للفارس المجدّ. وانتقد بأمرين: أحدهما أنه يقتضي أنَّ أَرْبُونة داخلة في جزيرة الأندلس، والصحيح أنها خارجة عنها، والثاني أن قوله: «ستّين يومًا للفارس المُجِدّ» إعياءٌ وإفراط، وقد قال جماعة: إنها شهر ونصف.

قال ابن سعيد[8]: وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المُجِدّ، والصحيحُ ما نَصّ عليه

---

(١) قادس: بالإسبانية Cadiz، وهي جزيرة في غربي الأندلس، فيها الطِّلَسْمُ المشهور. معجم البلدان (جـ ٤ ص ٢٩٠).

(٢) جليقية: بالإسبانية Galicia، وهي ناحيةٌ قرب ساحل البحر المحيط شمالي الأندلس، معجم البلدان (جـ ٢ ص ١٥٧).

(٣) طركونة: بالإسبانية Tarragona وهي مدينة بالأندلس على شاطىء البحر الشامي، مياهها كثيرة. الروض المعطار (ص ٣٩٢).

(٤) هو أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي، ولد ونشأ ببغداد، وتوفي في الفسطاط سنة ٣٤٥ هـ. انظر ترجمته بقلم محقّق مروج الذهب (جـ ١ ص ١). وجاء نص المسعودي الوارد هنا في مروج الذهب (جـ ١ ص ١٨٣) باختلاف يسير عمّا هنا.

(٥) هو أبو يحيىٰ اليَسَع بن عيسى بن اليَسَع، مُصَنِّفُ كتاب «المعرب في آداب المغرب»، صنَّفه بمصر لصلاح الدين الأيوبي، وأراد فيه معارضة كتاب قلائد العقيان لابن خاقان، كان بالأندلس يكتب عن المستنصر بن هود، وتوفي سنة ٥٧٥ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ٨٨، والحاشية).

(٦) أربونة: بالإسبانية Narbona: بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس، وقد خرجت عن أيدي المسلمين سنة ٦٣٠ هـ مع غيرها مما كان في أيديهم من المدن والحصون. الروض المعطار (ص ٢٤) ومعجم البلدان (جـ ١ ص ١٤٠).

(٧) أشبونة: يقال لها لَشبونة Lisboa، وهي مدينة بالأندلس، متصلة بشنترين قريبة من البحر المحيط. معجم البلدان (جـ ١ ص ١٩٥) والروض المعطار (ص ٦١). وهي اليوم عاصمة البرتغال.

(٨) هو أبو الحسن علي بن سعيد بن موسى بن سعيد؛ ولد في قلعة يَحْصب من أعمال غرناطة. توفي سنة =

الشريف [1] من أنها مسيرة شهر، وكذا قال الحجاري [2] ، وقد سألتُ المسافرين المحقّقين عن ذلك فعملوا حسابًا بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بِنَيِّفٍ قليل.

قال الحجاري في موضع من كتابه: إن طول الأندلس من الحاجز إلى أَشْبُونة ألف ميل ونيف. انتهى.

وبالجملة، فالمرادُ التقريبُ من غير مشاححة، كما قاله ابن سعيد، وأطال في ذلك، ثم قال بعد كلام: ومسافة الحاجز الذي بين بحر الزُّقاق والبحر المحيط أربعون ميلاً، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق، ولقلَّته سُمِّيَتْ جزيرة، وإلاّ فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القَدْر بالأرض الكبيرة، وعَرْضُ جزيرة الأندلس في مَوْسِطتها[3] عند طُلَيْطِلَةَ[4] ستة عشر يومًا. واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل، واختلفوا في الركن الذي في الشرق والجنوب في حيز أَرْبُونَةَ، فممّن قال إنه في أربونة وإن هذه المدينة تقابلها مدينة بُرْذِيل[5] التي في الركن الشرقي الشمالي أحمدُ بن محمد الرازي وابنُ حَيَّان، وفي كلام غيرهما أنه في جهة أربونة، وحقّق الأمر الشريف، وهو أعرف بتلك الجهة لتردّده في الأسفار بَرًّا وبَحرًا إليها وتفرّغه لهذا الفن.

قال ابن سعيد: وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أنَّ الصحيح ما ذهب

= ٦٨٥ هـ ترجمته في المغرب (جـ ٢ ص ١٧٢) واختصار القدح (ص ١) وفوات الوفيات (جـ ٣ ص ١٠٣) والذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٤١١) وبغية الوعاة (ص ٣٥٧). وسيترجم له المقري في الجزء الثالث من نفح الطيب رقم ١٦٦.

(١) هو أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد اللّه بن إدريس الحمودي الحسني، المعروف بالشريف الإدريسي، صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». توفي سنة ٥٦٠ هـ. انظر ترجمته في مقدمة كتابه «نزهة المشتاق» بتحقيق دار عالم الكتب.

(٢) هو أبو محمد عبد اللّه بن إبراهيم الحجاري، نسبة إلى وادي الحجارة بالأندلس، مؤرّخ أندلسي، من مؤلفاته «الـمُسْهِبُ في أخبار أهل المغرب» و«الحديقة». توفي سنة ٥٨٤ هـ. كشف الظنون (ص ٦٤٦، ١٦٨٥) وهدية العارفين (جـ ١ ص ٤٥٧).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «مَوَسّطها».

(٤) طليطلة: بالإسبانية Toledo: مدينة بالأندلس، كانت مركزًا لجميع بلاد الأندلس. أخذها الإسبان في سنة ٤٧٨ هـ. الروض المعطار (ص ٣٩٣).

(٥) بُرْذيل: هي مدينة Bordeaux الفرنسية، وهي مدينة كبيرة في بلاد جليقية على نهر جرونة. الروض المعطار (ص ٩٠).

إليه الشريف، وأنّ أربونة وبَرْشِلُونة[١] غير داخلتين في أرض الأندلس، وأن الركن الموفي على بحر الزقاق بالمشرق بين بَرْشِلُونة وطرّكونة في موضع يعرف بوادي زَنْلَقْطُو[٢]، وهنالك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة، وفي هذا المكان جبل ألبرت الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الأبواب التي فَتَحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق في البرّ. وذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع في مقابلتها في بحر الزقاق البحرُ الذي بين جزيرتي مَيُورْقَةَ ومَنُورْقَةَ[٣]، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية، ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبي والركن الشمالي أربعون ميلاً.

قال: وشمال الركن المذكور عند مدينة بُرْذِيلَ، وهي من مدن الإفرنجة، مطلّةٌ على البحر المحيط في شماليّ الأندلس، قال: ويتقهقر البرّ بعد تميز هذا الركن إلى الشمال في بلاد الفرنجة، ولهم به جزائر كثيرة. وذكر[٤] أنَّ الركن الشمالي عند شنت ياقوه[٥] من ساحل الجلالقة في شمال الأندلس[٦]، حيث تبتدىء جزيرة برطانية[٧] الكبيرة فيتصوّر هنالك بحر داخل بين أرضين، من الناس من يجعله بحرًا منفردًا خارجًا من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدّم الذكر عند مدينة بُرْذيل.

وذكر الشريف أن عند شنت ياقوه في هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنمًا مطلاً مشبهًا بصنم قادس.

---

(١) برشلونة: بالإسبانية Barcelona، وهي مدينة على البحر، تبعد عن مدينة طرطوشة خمسين ميلاً. نزهة المشتاق (ص ٧٣٤) والروض المِعطار (ص ٨٦).

(٢) في طبعة دار صادر: «رنْلقاطو». وفي طبعة ليدن الأوروبية يرى محقّق الجزء الأول أن الصواب «ربلقاطو» (Rubricatus).

(٣) ميورقة، بالإسبانية Mallorca، وهي جزيرة في البحر المتوسط، فتحها المسلمون سنة ١٩٠ هـ، وتغلّب عليها الإسبان سنة ٦٢٦ هـ. الروض المِعطار (ص ٥٦٧). منورقة، بالإسبانية Minorca، جزيرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة. معجم البلدان (جـ ٥ ص ٢١٦).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «ودوكرا من الركن. . .».

(٥) شنت ياقو: بالإسبانية Santiago، وهي قلعة حصينة بالأندلس، وفيها كنيسة عظيمة. وقد وردت في الروض المِعطار (ص ٣٤٨): شنت ياقوب، وفي معجم البلدان (جـ ٣ ص ٣٦٨): شنت ياقب.

(٦) في طبعة صادر: «في شمال الأندلس الغربي، حيث. . .».

(٧) برطانية جزيرة توازي حدّ الأندلس الأقصى، ويتصل حدُّها ببلد الصقالبة. الروض المعطار (ص ٨٩).

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغرّ[١] حيث صنم قادس، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحرُ الزُّقاق من البحر المحيط مارًّا مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل ألبرت المذكور، انتهى، والكلام في مثل هذا طويل الذيل.

قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي[٢]: بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة، طيب التربة، خِصْبُ الجناب، مُنْبَجِسُ الأنهار[٣] الغزار والعيون العِذَاب، قليل الهوامّ ذوات السموم، معتدل الهواء والجوّ والنسيم، ربيعه وخريفه ومَشْتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال، وسِطَة من الحال، لا يتولّد في أحدها فَضْلٌ[٤] يتولّد منه فيما يتلوه انتقاص، تتّصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدومُ متلاحقة غير مفقودة، أمّا الساحل منه ونواحيه، فيبادر بباكوره، وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء، فيتأخّر بالكثير من ثمره، فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كل الأحيان، وفواكهه على الجملة غير معدومة في كل أوان. وله خواصٌّ في كرم النبات توافق[٥] في بعضها أرضَ الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره[٦]: منها أن المَحْلَب[٧] ـ وهو المقدّم في الأفاويه[٨] والمُفَضَّل في أنواع الأشْنان[٩] ـ لا ينبت بشيء من الأرض إلاّ بالهند والأندلس.

وللأندلس المدن الحصينة، والمعاقل المنيعة، والقِلاع الحريزة، والمصانع الجليلة، ولها البَرُّ والبَحْر، والسهل والوَعْر، وشكلها مثلث، وهي معتمدة على ثلاثة أركان؛ الأول هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامي

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الأغن» بدل «الأغرّ». وهو لا يزال يسمّى «الطرف الأغر» Trafalgar.

(٢) أحمد بن محمد بن موسى الرازي مؤرّخ أندلسي، له في أخبار ملوك الأندلس كتاب كبير، وكتاب في صفة قرطبة، وكتاب ضخم في أنساب مشاهير أهل الأندلس. جذوة المقتبس (ص ١٠٤) وبغية الملتمس (ص ١٥١).

(٣) في طبعة دار صادر: «بالأنهار».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «فصل» بالصاد المهملة.

(٥) في طبعة دار صادر: «يوافق».

(٦) في طبعة دار صادر: «الهند المخصوصة بجواهر الأنبات: منها...».

(٧) المَحْلَبُ: شجرٌ يعظم حتى يقارب البُطْم (شجر كالفستق). محيط المحيط (حلب).

(٨) الأفاويه: جمع أفواه، والأفواه جمع فُوه، والفُوهُ هو النَّورُ وضروبه، محيط المحيط (فوه).

(٩) الأُشْنان، بضم الهمزة: حَمْضٌ تُغْسَلُ به الأيدي. لسان العرب (أشن).

الآخذ بقبليِّ الأندلس، والركن الثاني هو بشرقي الأندلس بين مدينة تُرْبُونَة[1] ومدينة بُرْذِيلَ مما بأيدي الفرنجة اليوم بإزاء جزيرتي مَيُورقة ومَنُورقة بمجاورة من البحرين؛ البحر المحيط والبحر المتوسط، وبينهما البَرُّ الذي يعرف بالأبواب، وهو المدخل إلى بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجة، ومسافته بين البحرين مسيرة يومين، ومدينة تُرْبُونة[1] تقابل البحر المحيط، والركن الثالث منها هو ما بين الـجَوْف[2] والغرب من حيّز جِلِّيقية، حيث الجبل الموفي على البحر، وفيها الصنم العالي المشبّه بصنم قادس، وهو الطالع على بلد برطانية.

قال: الأندلس[3] أندلسان في اختلاف هبوب أرياحها[4] ومواقع أمطارها وجريان أنهارها: أندلس غربي، وَأندلس شرقي، فالغربي منهما ما جرت أودِيته إلى البحر المحيط الغربي، وتمطر[5] بالرياح الغربية، ومبتدأ هذا الـحَوْز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شَنْتَمَرِيَّةَ[6] طالعًا إلى حَوْز إغريطة المجاورة لطليطلة مائلاً إلى الغرب ومُجَاوِرًا للبحر المتوسط الموازي لِقَرْطَاجَنَّةِ الخلفاءِ[7] التي من بلد لُورَقَةَ[8]. والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى، وتجري أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالريح الشرقية، وهو من حَدِّ جبل البشكنش[9]، هابطًا مع وادي إِبْرَة إلى بلد شنت مرية[10]، ومن جوف

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «بريونة».

(٢) الـجَوْفُ في اصطلاح المغاربة الجهة المقابلة للقِبلة، أي الشمال. اللمحة البدرية (ص ٢٢، حاشية ٣).

(٣) في طبعة دار صادر: «والأندلس».

(٤) في طبعة دار صادر: «رياحها».

(٥) في طبعة صادر: «ويمطر».

(٦) هي شنتمريّة الغرب، وهي بالإسبانية Santa María de Algarve، وتكتب أيضًا شنت مرية، وتعني بلغة الفرنج «مدينة القدّيسة مريم». وهي مدينة في الأندلس على البحر، وتتبع اليوم للبرتغال وتسمى Faro. الروض المعطار (ص ٣٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (ص ٥٤٢).

(٧) في طبعة دار صادر: «الحلفاء» بالحاء المهملة. وقرطاجَنّة الخلفاء بالإسبانية Cartagena، وهي فرضة مدينة مرسية، من كُورة تدمير بالأندلس، الروض المعطار (ص ٤٦٢).

(٨) لورقة: بالإسبانية Lorca، وهي مدينة من بلاد تدمير بالأندلس، وتعني باللغة الإسبانية «الدرع الحصين». الروض المعطار (ص ٥١٢) ونزهة المشتاق (ص ٥٣٨).

(٩) البَشْكَنْسُ هم شعب بلاد البشكنس في شمالي إسبانيا Los Vascos.

(١٠) هي شنتمرية الشرق وتسمى أيضًا السهلة Albarracín.

هذا البحر وغربه المحيط، وفي القبلة منه البحرُ الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام، وهو البحر الـمُسَمَّى ببحر تيران، ومعناه الذي يشقّ دائرة الأرض، ويسمى البحر الكبير، انتهى.

قال أبو بكرٍ عبدُ اللّه بن عبد الحكم المعروف بابن النظام[1]: بلد الأندلس عند علماء أهله أندلسان؛ فالأندلس الشرقي منه ما صَبَّتْ أوديته إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق، وذلك ما بين مدينة تُدْمِيرَ إلى سَرَقسطة، والأندلس الغربي ما صَبَّتْ أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل[2] ذلك الحدّ إلى ساحل المغرب، فالشرقي منهما يُمْطرُ بالريح الشرقية، ويُصْلَـحُ عليها، والغربيُّ[3] يُمْطرُ بالريح الغربية وبها صلاحه، وجبالُهُ هابطةٌ إلى الغرب جَبَلاً بعد جبل. وإنما قَسَّمَتْه الأوائل جزءين؛ لاختلافهما في حال أمطارهما، وذلك أنه مَهْما استحكمتِ الريحُ الغربية كَثُرَ مطر الأندلس الغربي وقَحِطَ الأندلسُ الشرقي، ومتى استحكمت الريحُ الشرقية كثر مطر الأندلس الشرقيّ وقَحِطَ الغربي، وأودية هذا القسم تجري من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال. وجبال الأندلس الغربي تمتدّ إلى الشرق جبلاً بعد جبل. تقطع من الجوف إلى القبلة، والأودية التي تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها إلى القبلة وبعضها إلى الشرق، وتنصبُّ كُلُّها إلى البحر المحيط بالأندلس[4] القاطع إلى الشام، وهو البحر الرومي، وما كان من بلاد جوفي الأندلس من بلاد جِلِّيقِيَّةَ وما يليها فإنَّ أوديته تنصبُّ إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف.

وصفة الأندلس شكلٌ مُرَكَّنٌ[5] على مثال الشكل المثلث: ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صَنَم قادس، وركنها الثاني في بلد جِلِّيقِيَّة حيث الصنم المشبه صنم قادس مقابل جزيرة برطانية، وركنها الثالث بين مدينة نُرْبونة

---

(١) عبد اللّه بن عبد الحكم، المعروف بابن النظام، أديب أخباري تاريخي، من أهل قرطبة، وقد اعتمد عليه ابن حيّان المؤرّخ الأندلسي صاحب كتاب المقتبس. التكملة لكتاب الصلة (ص ٧٨٨).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «أسفل من ذلك...».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «والغرب».

(٤) في طبعة دار صادر: «البحر المتوسط للأندلس...».

(٥) هذا النص من «وصفة الأندلس حتى واشتدَّ سلطانه، انتهى» أورده ابن عذاري في البيان المغرب (جـ ٢ ص ١ ـ ٢) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

ومدينة بُرْذيل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البَحْرُ المحيط من البحر الشامي المتوسط، فيكادان يجتمعان في ذلك الموضع، فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما في الحقيقة، لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب، منه المدخلُ إلى الأرض الكبيرة التي يقال لها الأبواب، ومن قِبَله يتصل بلدُ الأندلس بتلك البلادِ المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألسن المختلفة.

قال[١]: وأوّل مَنْ سكن بالأندلس[٢] على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش - معجمة الشين - بهم سُمّي المكانُ، فَعُرِّبَ فيما بعد بالسين غير المعجمة، كانوا الذين عَمَرُوها وتناسلوا فيها وتداولوا ملْكَها دهرًا، على دين التمجّس والإهمال والإفساد في الأرض، ثم أخذهم اللّه بذنوبهم، فحبس المطرَ عنهم، ووالى القَحْطَ عليهم، وأعطش بلادَهُمْ حتى نضبت مياهُها، وغارت عيونُها، ويبست أنهارُها، وبادتْ أشجارُها، فهلك أكثرُهُمْ، وفَرَّ مَنْ قدر على الفرار منهم، فأقفرت الأندلسُ منهم، وبقيت خاليةً فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة، وذلك مِنْ حَدِّ بلد الفرنجة إلى حَدِّ بحر الغرب الأخضر، وكان عدّة ما عمرتها هذه الأمة البائدة مائة عام وبضع عشرة سنة. ثم ابتعث اللّهُ لعمارتها الأفارقة، فدخل إليها بعد إقفارها تلك المدّةَ الطويلةَ قومٌ منهم أجلاهُم ملكُ إفريقية تخفّفًا منهم لإمحالٍ توالى على أهل مملكته، وتردّد عليهم حتى كاد يُفْنيهم، فحمل منهم خلقًا في السفن مع قائدٍ مِنْ قِبَلِهِ يُدْعَى أبطِريقس فأرْسَوْا بريف الأندلس الغربي، واحتلُّوا بجزيرة قادس، فأصابوا الأندلس قد أمطرت وأخصبتْ، فَجَرَتْ أنهارُها، وانفجرتْ عيونُها، وحييتْ أشجارُها، فَنَزَلُوا الأندلسَ مغتبطين، وسكنوها معتمرين[٣]، وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا في عمارة الأرض ما بين الساحل الذي أرْسَوْا فيه بغربيها إلى بلد الإفرنجة من شرقيها، ونَصَّبُوا من أنفسهم ملوكًا عليهم ضبطوا أمرهم وتوالوا على إقامة دولتهم، وهم - مع ذلك - على ديانة مَن قبلهم من الجاهلية، وكانت دارُ مملكتهم طالقةَ الخرابِ اليوم من أرض إشبيلية، اخترعها ملوكهم وسكنوها، فاتّسق ملكُهُمْ بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عامًا إلى أنْ أهلكهم اللّهُ تعالى،

---

(١) القول هنا للرازي المؤرّخ الأندلسي، حسبما يذكر الحميري في الروض المعطار (ص ٣٣)، ولكن الحميري يختصر هذا النص.

(٢) في طبعة دار صادر: «سكن الأندلس».

(٣) المُعْتَمِرُ: الزائر والقاصد للشيء، والمراد هنا مَن يريد عمارة البلاد.

ونَسَخَهُمْ بِعَجَم رومة، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة في مدّتهم تلك أحد عشر ملكًا. ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة ومَلِكِهِمْ إشبان بن طيطش، وباسمه سُمِّيَت الأندلسُ إشبانية، وذكر بعضهم أنَّ اسمه أصبهانَ فأُحيل بلسان العجم، وقيل: بل كان مولده بأصبهان فغلب اسمها عليه، وهو الذي بنى إشبيلية، وكان إشبانية اسمًا خالصًا لبلد إشبيلة الذي كان ينزله إشبان هذا، ثم غلب الاسمُ بعده على الأندلس كله، فالعجم[1] الآن يسمّونه إشبانية لآثار إشبان هذا فيه، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدُّنْيا فيما زعموا، وكان غَزَا الأفارقة عندما سلّطه اللّهُ عليهم في جموعه، فَفَضَّ عساكرَهُمْ، وأثخن فيهم[2]، ونَزَلَ عليهم بقاعدتهم طالقة وقد تحصّنوا فيها منه، فابتنى عليهم مدينة إشبيلية اليوم، واتّصل حصرُه وقتالُه لهم حتى فتحها اللّه عليه، وغلبهم، واستوت له مملكة الأندلس بأسْرِها، ودَانَ له مَنْ كان فيها، فهدم مدينة طالقة، ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة إشبيلية، فاستتمّ بناءها، واتّخذها دار مملكته، واستغلظ سلطانُه في الأرض، وكثرت جموعه، فعلا وعظم عتوّه، ثم غزا إيليا - وهي القدس الشريف - من إشبيلية بعد سنتين من ملكه، خرج إليها في السفن فغنمها وهدمها، وقتل فيها من اليهود مائة ألف، واسترقَّ[3] مائة ألف، ونقل[4] رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس، وقهر الأعداء، واشتدَّ سلطانه، انتهى.

وذكر بعض المؤرّخين[5] أن الغرائب التي أُصيبت في مغانم الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طلَيطلة وقُلَيْلَةِ الدُّرِّ التي ألفاها موسى بن نُصَير بكنيسة ماردة وغيرهما من طَرائف الذخائر، إنما كانت ممّا صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس، إذ حضر فتحها مع بُخْتَنَصَّر. وكان اسم ذلك الملك بِرْيَان، وفي سهمه وقع ذلك ومثله ممّا كانت الجنُّ تأتي به نبيَّ اللّهِ سليمان، على نَبِيِّنا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام! انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر: «فالعجم إلى الآن».
(٢) أَثْخَنَ فيهم: بالغ فيهم الجراحة. محيط المحيط (ثخن).
(٣) إِسْتَرَقَّ مائة ألف: أي ملكهم. محيط المحيط (رقّ).
(٤) في طبعة دار صادر: «وانتقل».
(٥) النص من «أنّ الغرائب حتى بختنصّر» هو تتمة لنص الرازي السابق الذكر، كما في الروض المعطار (ص ٣٣ - ٣٤).

وقال غير واحد من المؤرخين: كان أهل المغرب الأقصى يُضَرُّون بأهل الأندلس(١)؛ لاتّصال الأرض، ويَلْقَوْنَ منهم الجَهْدَ الجهيد في كل وقت، إلى أن اجتاز بهم الإسكندر، فَشَكَوْا حالهم إليه، فأَحْضَرَ المهندسين، وحَضَرَ إلى الزقاق، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشيء يسير، فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الشامي، ونَقْلِها من الحضيض إلى الأعلى، ثم أمر بحَفْر ما بين طَنْجة(٢) وبلاد الأندلس من الأرض، فَحُفِرَتْ حتى ظهرت الجبال السفلية، وبنى عليها رصيفًا بالحجر والجَيّار(٣) بناءً محكمًا وجعل طوله اثني عشر مِيْلاً، وهي المسافة التي كانت بين البحرين، وبَنَى رصيفًا آخرَ يقابله من ناحية طَنْجة، وجعل بين الرصيفين سَعَة ستة أميال، فلمّا كَمُلَ الرصيفانِ حَفَرَ من جهة البحر الأعظم، وأَطْلَقَ فَمَ الماء بين الرصيفين، فدخل في البحرِ الشامي، ثم فاض ماؤه، فأغرق مُدُنًا كثيرةً، وأَهْلَكَ أُمَمًا عظيمة كانت على الشطّين، وطَفَا الماءُ على الرصيفين إحدى عشرة قامة، فأمّا الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس، فإنّه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهورًا بَيِّنًا مستقيمًا على خطٍّ واحد، وأهل الجزيرتين يسمّونه القنطرة، وأما الرصيف الذي من جهة العُدْوة، فإن الماء حمله في صدره، واحتفر ما خَلْفَهُ من الأرض اثني عشر مِيْلاً، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسَبْتة وطَنْجة، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء، وبين سَبْتة والجزيرة الخضراء عرض البحر. انتهى ملخصًا، وقد تكرَّر بَعْضُه مع ما جلبناه، والعذرُ بَيِّنٌ لارتباط الكلام بعضه ببعض.

وقال ابن سعيد: ذكر الشريف أنْ لا حَظَّ لأرض الأندلس في الإقليم الثالث، قال: ويمرُّ بجزيرة الأندلس الإقليم(٤) الرابع على ساحلها الجنوبي وما قاربه من قُرْطُبة وإشبيلية ومُرْسِية وبَلَنْسِية، ثم يمرُّ على جزيرة صِقِلية وعلى ما في سَمْتِها من الجزائر، والشمسُ مُدبِّرَةٌ له.

---

(١) يُضَرُّون بأهل الأندلس: أي يأتيهم الضرر من أهل الأندلس.

(٢) طنجة: مدينة قديمة بالمغرب على ساحل البحر، بينها وبين سبتة ثلاثون ميلاً في البرّ. الروض المعطار (ص ٣٩٥).

(٣) الجَيّار، بفتح الجيم والياء المشدّدة: الصاروج (النُّورَة أي حجر الكلس). محيط المحيط (جير) و(نور) و(صرج).

(٤) في طبعة دار صادر: «من الأقاليم...».

والإقليم الخامس يمرُّ على طُلَيْطلة وسَرَقُسْطة وما في سَمْتهما إلى بلاد أَرَغُون[1] التي في جنوبيها بَرْشِلُونة، ثم يمرُّ على رومية وبلادها، ويشقّ بحر البنادقة، ثم يمرّ على القسطنطينية، ومُدَبِّرَتُهُ الزُّهرة.

والسادس يمرُّ على ساحل الأندلس الشمالي الذي على البحر المحيط وما قارَبَهُ وبعضُ البلاد الداخلة في قَشْتَالة[2] وبُرْتُقَال وما في سَمْتِها، وعلى بلاد بُرْجَان والصقالبة والروس، ومُدَبِّرُهُ عُطَارد.

ويمرّ الإقليمُ السابع في البحر المحيط الذي في شماليِّ الأندلس إلى جزيرة أنقلطرة وغيرها من الجزائر وما في سَمْتها من بلاد الصقالبة وبُرْجَان. قال البيهقي: وفيه تقع جزيرة تُولَى وجزيرتا أجبال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة في الشمال والبلغار، ومُدَبِّرُهُ القمر، انتهى.

وقال بعض العلماء: إنَّ النصارى حُرِمُوا جَنَّةَ الآخرة فأعطاهم اللّه جنة الدنيا بستانًا متّصلاً من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية، وعندهم عموم شاه بلوط والبندق والجوز والفستق وغير ذلك مما يكون أكثر وأمكن في الأقاليم الباردة، والتمر عندهم معدوم، وكذا الموز وقصب السكر، وربما يكون شيء من ذلك في الساحل؛ لأن هواء البحر يدفيء، انتهى.

قال ابن حيّان في المقتبس[3]: ذكر رواة العجم أن الخَضِرَ، عليه السلام، وقف على[4] إشبان المذكور وهو يَحرث الأرض بفُدُنٍ[5] له أيامَ حراثته، فقال له: يا إشبان، إنك

---

(١) أرغون، بالإسبانية Aragon: اسم بلاد الملك الإسباني غرسية بن شانجة. الروض المعطار (ص ٢٧).

(٢) قشتالة، ويقال قشتيلة، وهي بالإسبانية Castilla: عمل من أعمال الأندلس، قاعدته قشتالة، سُمّي العمل بها. الروض المعطار (ص ٤٨٣). برتقال هي البرتغال، وهكذا ورد الاسم في الروض المعطار (ص ٤٧١).

(٣) نَصُّ ابن حيّان: من «ذكر رواة العجم حتى... وأن مدة أيام ملكهم بالأندلس ثلاثمائة واثنتان وأربعون سنة، انتهى» في الروض المعطار (ص ٣٤) وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) في طبعة دار صادر: «بإشبان» أي بدون «على».

(٥) الفُدُن، بالضم: جمع فَدّان وهو آلة الثورين للحَرْث. محيط المحيط (فدن).

لَذُو شأن، وسوف يُحظيك زمان، ويعليك سلطان، فإذا أنت غَلَبْتَ على إيليا فأَرْفُقْ بذرّيّة الأنبياء، فقال له إشبان: أساخرٌ بي[1] رحمك اللّه؟! أنّى يكون هذا منّي وأنا ضعيف مُمْتَهَنٌ حقيرٌ فقيرٌ ليس مثلي ينال السلطان؟ فقال له: قد قَدَّر ذلك فيك مَنْ قَدَّرَ في عصاك اليابسة ما تراه، فنظر إشبان إلى عصاه، فإذا بها قد أورقَتْ، فَرِيعَ لما رأى من الآية[2]، وذهب الخَضِرُ عنه، وقد وقع الكلام بخَلَدِه[3]، ووقرت[4] في نفسه الثقة بكونه، فترك الامتهان من وقته، وداخَلَ الناس، وصَحِبَ أهلَ البأس منهم، وسَمَا به جَدُّه[5] فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيمًا، وكان منه ما كان. ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله، وكان ملكه كله عشرين سنة، وتمادى ملك الإشبانيين بعده إلى أنْ مَلَكَ منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكًا.

ثم دخل على هؤلاء الإشبانيين مِنْ عَجَم[6] رومة أُمَّةٌ يُدْعَوْنَ البشتولقات[7]، وملكهم طلويش[8] بن بيطة، وذلك زَمَنَ بَعْثِ المسيح عيسى[9] ابن مريم عليه السلام! أتوا الأندلس مِنْ قِبَلِ رومة، وكانوا يملكون إفرنجة معها، ويبعثون عمالهم إليها، فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة مَارِدَةَ[10]، واستولوا على مملكة الأندلس، واتصل ملكهم بها مدّة إلى أنْ ملك منهم سبعة وعشرون ملكًا.

ثم دخل على هؤلاء البشتولقاتِ أمّةُ القُوط مع ملك لهم، فغلبوا على الأندلس، واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة، وتفرّدوا بسلطانهم، واتخذوا مدينة طُلَيطلة دار مملكتهم، وأقرّوا بها سرير ملكهم، فبقي بأشبيلية عَلَم الإشبانيين ورياسة أوليتهم.

---

(١) في طبعة دار صادر: «أساخرٌ، رحمك...»، أي بدون «بي».
(٢) رِيعَ: خاف. الآية: العلامة. محيط المحيط (روع) و(أوى).
(٣) الخَلَدُ، بالفتح: البال؛ يقال: وقع ذلك في خَلَدي أي في قلبي. مختار الصحاح (خلد).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «ووَقُرت».
(٥) الجَدُّ، بفتح الجيم: الحَظُّ، والجمع جُدُودٌ. مختار الصحاح (جدد).
(٦) في الروض المعطار: «حجر» بدل «عجم».
(٧) في الروض المعطار: «الشبونقات». وفي البيان المغرب «البشترلقات».
(٨) في طبعة دار صادر: «طلويش» بالباء.
(٩) كلمة «عيسى» محذوفة في طبعة دار صادر.
(١٠) ماردة: بالإسبانية Mérida، وهي مدينة بجوفيّ قرطبة، أي بشمالها، الروض المعطار (ص ٥١٨).

وقد كان عيسى المسيحُ عليه السلام، بعث الحَوَاريين في الأرض يَدْعون الخلق إلى ديانته، فاختلف الناس عليهم، وقتلوا بعضهم، واستجاب لهم كثير منهم، وكان من أسرعهم إجابة لـمَن جاءه من هؤلاء الحواريين خشندش[1] ملك القُوط، فَتَنَصَّرَ، ودعا قومه إلى النصرانية، وكان من صميم أعاظمهم وخير مَنْ تَنَصَّرَ مِنْ ملوكهم، وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم أعدل منه حكمًا، ولا أرشد رأيًا، ولا أحسن سيرة، ولا أجود تدبيرًا، فكان الذي أَصَّلَ النصرانيةَ في مملكته، ومضى أهلُها على سُنَّته إلى اليوم، وحكموا بها، والإنجيلات في[2] المصاحف الأربعة التي يختلفون فيها من انتساخه وجَمْعه وتثقيفه، فتناسقت ملوكُ القُوط بالأندلس بعده إلى أن غلبتهم العربُ عليها، وأظهر اللّه تعالى دين الإسلام على جميع الأديان.

فوقع في تواريخ العجم القديمة أنّ عدّة ملوك هؤلاء القُوط بالأندلس من عهد أتاناوينوس الذي ملك في السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصري لمضيّ أربعمائة وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم إلى عهد لُذْرِيقَ آخرهم الذي ملك في السنة التاسعة والأربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر، وهو الذي دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط، ستة وثلاثون ملكًا، وأن مدّة أيام ملكهم بالأندلس ثلثمائة واثنتان وأربعون سنة، انتهى[3].

وقال جماعة: إن القوط غير البشتولقات، وإن البشتولقات من عجم رومة، وإنهم جعلوا دار ملكهم ماردة، واتّصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكًا، ثم دخل عليهم القوط، واتّخذوا طُلَيْطلة دار مملكة، ثم ذكر تَنَصُّرَ مَلِكهم خشندش مثل ما تقدّم، ثم ذكر أن عدّة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكًا.

وذكر الرازي أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح، وقيل غير ذلك، انتهى.

وذكر[4] الرازي في موضع آخر نحو ما تقدّم وزيادة، ونَصُّه: أن الأندلس في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التي[5] تقدّم ذكرها التي هي رُبْع معمور الدنيا فهي موسطة

---

(١) في الروض المعطار: «وخنشوش» وفي البيان المغرب «وَخْشَنْدَش».
(٢) في الروض المعطار: «والإنجيلات والمصاحف...».
(٣) إلى هنا ينتهي نص ابن حيان، الذي ورد في الروض المعطار والبيان المغرب.
(٤) في طبعة دار صادر: «وقال الرازي».
(٥) جملة «التي تقدّم ذكرها» محذوفة في طبعة دار صادر.

من البلدان، كريمة البقعة، بطبع الخلقة، طيبة التربة، مُخْصبة القاعة[١]، منبجسة العيون الثِّرار[٢]، منفجرة الأنهار[٣] الغِزار، قليلة الهوامّ ذواتِ السموم، معتدلة الهواء أكثَرَ الأزمان لا يزيد قَيظها زيادة منكرة تضرّ بالأبدان وكذا سائر فصولها في أعمّ سِنِيها تأتي على قَدْرٍ من الاعتدال، وتوسُّطٍ من الحال، وفواكهها تتصل طولَ الزمان، فلا تكاد تعدم؛ لأن الساحل ونواحيه يبادر بباكورهِ، كما أن الثغر وجهاته والجبال التي يخصُّها برد الهواء وكثافة الجوّ تستأخر بما فيها من ذلك، حتى يكاد طَرَفًا فاكهتها يلتقيان، فمادّة الخيرات فيها متّصلة كلَّ أوان. ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد المقدّم على أجناسه في الطِّيب والصبر على النار، وبها شجر المَحْلَب[٤] المعدود في الأفاويه[٥] المقدّم في أنواع الأُشْنان[٦] كثير واسع، وقد زعموا أنه لا يكون إلاّ بالهند وبها فقط، ولها خواصُّ نباتيةٌ يكثر تعدادها، انتهى.

وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال[٧]: يوجد في ناحية دَلاَّية من إقليم البُشُرّة[٨] عود الأَلَنْجُوج[٩]، لا يفوقه العود الهندي ذكاء[١٠] وعِطْرَ رائحةٍ، وقد سِيقَ منه إلى خَيْران الصقلبي صاحب ألْمَرية[١١]، وأنَّ أَصْلَ مَنْبِته كان بين أحجار هنالك. وبأَكْشونبة[١٢] جبلٌ

---

(١) القاعة من الدار: ساحتها، والمراد هنا السهل.
(٢) العيون الثِّرارُ: الغزيرة، مفردها عَينٌ ثَرّةٌ. محيط المحيط (ثرر).
(٣) في طبعة دار صادر: «بالأنهار».
(٤) المَحْلَبُ: شجرٌ يعظم حتى يقارب البُطْمَ (شجر كالفستق). محيط المحيط (حلب).
(٥) الأفاويه: جمع أفواه، والأفواه جمع فُوه، والفوه هو النَّوْرُ وضروبه. محيط المحيط (فوه).
(٦) الأُشْنان، بضم الهمزة: حَمْضٌ تُغْسَلُ به الأيدي. لسان العرب (أشن).
(٧) ورد هذا النص في الإحاطة (جـ ١ ص ٩٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٨) دَلاَّيَة، بالإسبانية Dalias: بلد أندلسي ساحلي قريب من ألمرية، يتبع لإقليم البُشُرّة، والبُشُرّة بالإسبانية Alpujarras وهي منطقة جبال سييرا نفادا Sierra Nevada. جغرافية الأندلس (ص ١٢٤).
(٩) الأَلَنْجُوجُ واليَلَنْجُوجُ: عود جيد، طيب الريح، يُتَبَخَّرُ به. لسان العرب (لنج).
(١٠) في الإحاطة: «ذَكَا».
(١١) خيران الصَّقْلبي أو العامري هو أول مَن استقلّ بألمرية Almería عن الخلافة بقرطبة، وحكمها من سنة ٤٠٥ هـ حتى سنة ٤١٩ هـ. نصوص عن الأندلس (ص ٨٢) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٠) والمغرب (جـ ٢ ص ١٩٤).
(١٢) في طبعة عبد الحميد وفي معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٤٠): «أُكْشُونية» بفتح الهمزة وسكون الكاف والواو وضم الشين وكسر النون. وتكتب أيضًا أكشونبة، وهي بالإسبانية Ocsonoba، وهي مدينة بالأندلس يتصل عملها بعمل أشبونة، وقيل هي كورةٌ قاعدتُها شِلْب Silves. معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٤٠) والروض المعطار (ص ٣٤٢).

كثيرًا ما يتضوّع، ريحُه ريح العود الذكي إذا أرسلت فيه النار، وببحر شَذُونة [1] يوجد العنبر الطيب الغربي، وفي جبل مُنت لِيُون المَخلَب، ويوجد بالأندلس القُسْط الطيب، والسنبل الطيب، والـجَنطَيَانة [2] تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق، وهو عُقار رفيع، والمرّ الطيب بقلعة أيوب [3]، وأطيبُ كهرباء [4] الأرض بشذونة، درهم منها يَعْدِلُ دراهم من المجلوبة، وأطيب القِرْمِزِ قِرْمِزُ الأندلس، وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولَبْلَة وشذونة وبَلَنسية، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق. وبناحية لورَقَةَ من عمل تُدْمِير يكون حجرُ اللازَوَرْد الجيد، وقد يوجد في غيرها. وعلى مقربة من حضرة[5] لُورَقَةَ من عمل قُرْطُبة معدن البلور، وقد يوجَدُ بجبل شحيران وهو شرقي يبرة. وحجر[6] النجادي يوجد بناحية مدينة الأشبونة في جبل هنالك يتلألأ فيه ليلاً كالسراج. والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن منت ميور من كورة مَالَقَةَ إلاّ أنه دقيق جدًا لا يصلح للاستعمال لصغره. ويُوجدُ حجرٌ يُشْبِهُ الياقوتَ الأحمرَ بناحية بَجّانة[7] في خندق يُعْرَفُ بقرية ناشرة أشكالاً مختلفة كأنه مصبوغ، حَسَن اللون، صَبُور على النار[8]. وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تُدْمير. وحجر[9] الشادنة بجبال قرطبة كثير، ويستعمل[10] ذلك في التذاهيب. وحجر

---

(١) شذونة: بالإسبانية Medina Sidonia، وهي كورة بالأندلس متصلة بكورة موررور، نَزَلَها جند فلسطين من العرب بعيد فتح الأندلس. الروض المعطار (ص ٣٣٩).

(٢) القُسْطُ، بضم القاف وسكون السين: عودٌ يُتَبَخَّرُ به، يُؤتَى به من الهند. السُّنْبُلُ، بضم السين والباء وسكون النون: هو من الطِّيب. لسان العرب (قسط) و(سنبل). الـجَنْطَيَانَة والـجَنْطَيَانا: نبات ينبت في الجبال الشامخة. محيط المحيط (جنط).

(٣) قلعة أيوب: بالإسبانية Calatyud، مدينة بالأندلس كثيرة الأشجار والثمار. الروض المعطار (ص ٤٦٩).

(٤) الكهرباء والكهربا: صَمْغ شجرة الجوز الرومي، معرّب كاه ربا بالفارسية. محيط المحيط (كهرب).

(٥) في طبعة دار صادر: «حضر» بدل «حضرة».

(٦) في طبعة دار صادر: «والحجر البجادي».

(٧) بجانة، بالإسبانية Pechina، مدينة أندلسية مُحْدَثة بنيت في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ). الروض المعطار (ص ٥٣٨) والمغرب (جـ ٢ ص ١٨٩) ووصف إفريقية والمغرب والأندلس (ص ٤٦).

(٨) في جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ١٢٨): «وحجرٌ يشبه الياقوت الأحمر في ناحية مَرِيّة بَجّانة، وفي خندق بقرب قرية ناشر يُوجدُ أشكالاً مختلفة، كأنه مصنوع، حسن اللون، صبورًا على النار...».

(٩) في طبعة صادر: «الشاذنة» بالذال المعجمة، وقال المحقّق إن الشاذنة حجر يستعمل في مداواة العين وخشونة الأجفان.

(١٠) في طبعة دار صادر: «ويستعمل في ذلك التذاهيب».

اليهودي في ناحية حصن[1] ألبونت، وهو أنفع شيء للحَصَاة. وحجر المَرْقيشينا[2] الذهبية في جبال أُبَّذَة[3] لا نظير لها في الدنيا، ومن الأندلس تُحْمَلُ إلى جميع الآفاق لفضلها. والمغنيسيا[4] بالأندلس كثير، وكذلك حجر الطِّلْق[5]. ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة بَرْشِلُونَةَ إلاّ أنه جامد اللون. ويوجد المرجان بساحل بيْرة من عمل أَلْمَرِية، ما لُقِطَ منه في أقلّ من شهر نحو ثمانين ربعًا[6]. ومعدن الذهب بنهر لاردة يُجْمَعُ منه كثير، ويجمع أيضًا في ساحل الأشبونة. ومعادن الفضة في الأندلس كثيرة في كورة تُدْمير وجبال حَمَّة[7] ببَجَّانة. وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل. وبأكشونبة[8] معدن القصدير الذي لا مثيل[9] له يشبه الفضة، وله معادن بناحية إفرنجة وليون. ومعدن الزئبق في جبل البرانس، ومن هنالك يتجهّز به إلى الآفاق. ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة، ومعدن التوتيا الطيبة بساحل إلبيرة بقرية تسمى بَطِرْنَةَ[10]، وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس، وبجبال قرطبة توتيا، وليست كالبطرنية. ومعدن الكحل المشبّه بالأصفهاني بناحية مدينة طُرْطُوشة[11] يحمل منها إلى جميع البلاد. ومعادن الشبوب

---

(١) حصن ألبونت: بالإسبانية Alpuente، ويقع شمال غربي بلنسية.

(٢) في طبعة دار صادر: «المرقشيثا» بالثاء بدل النون، وقال المحقّق إنه من المعادن الكبريتية.

(٣) أُبَّذَة، بالإسبانية Ubeda: مدينة صغيرة بالأندلس، بينها وبين مدينة بيّاسة Baeza سبعة أميال. الروض المعطار (ص ٦).

(٤) المَغْنِيسِيَا: تراب أبيض ليِّن لا رائحة له ولا طعم، يُتَداوَى به. محيط المحيط (مغن).

(٥) الطِّلْقُ، بكسر الطاء: حجر بَرّاق، يُتَّخَذُ منه مضاوي للحمامات بدلاً من الزجاج، وأجوده اليماني ثم الهندي ثم الأندلسي. القاموس المحيط (طلق).

(٦) ألمرية، بالإسبانية Almeria: مدينة كبيرة من مشاهير مدن الأندلس، ومن أعمال كورة إلبيرة. المعجب (ص ٢٤٧) وقطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٨٣) والروض المعطار (ص ٥٣٨). وفي جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ١٢٩): «والمرجان يخرج من بحر الأندلس، وقد خرج منه في ساحل بحر بيرة من عمل ألمرية، ما لُقِطَ منه في أقلّ من شهر نحو ثمانين قنطارًا».

(٧) قوله: «ومعادن الفِضّة... حمة بجانة» في جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ١٢٩) باختلاف يسير عمّا هنا.

(٨) في طبعة عبد الحميد: «وبأشكونية».

(٩) في طبعة دار صادر: «لا نظير له».

(١٠) إلبيرة، بالإسبانية Elvira: كورة ومدينة، تبعد عن غرناطة ستة أميال. الروض المعطار (ص ٢٨). وقد عدّ ابن سعيد «بطرنة» من قرى بلنسية. المغرب (جـ ٢ ص ٣٥٥).

(١١) طرطوشة، بالإسبانية Tortosa: مدينة بالأندلس، في سفح جبل، ولها قصبة على صخرة عظيمة. الروض المعطار (ص ٣٩١).

والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى. وما ذكرت هنا وإنْ تكرّر بعضه مع ما سبق أو يأتي فهو لجمع النظائر، وما لم نذكره أكثر، والله تعالى أعلم.

ومن خواص طليطلة أنَّ حنطتها لا تتغيّر ولا تسوّس على طول السنين، يتوارثها الخلف عن السلف، وزعفران طليطلة هو الذي يعمُّ البلاد ويتجهّز به الرفاق إلى الآفاق، وكذلك الصبغ السماوي، انتهى.

وقال المسعودي في «مروج الذهب» بعد كلام ما نَصُّه: والعنبر كثير ببحر الأندلس، يجهّز إلى مصر وغيرها، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال له شنترين[١] وشذونة، تبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهبًا، والأوقية بالبغدادي، وتباع بمصر أوقيته بعشرين[٢] دينارًا، وهو عنبر جيّد، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضَرَبَتْهُ الأمواجُ من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء. وبالأندلس معدن عظيم للفضة، ومعدن للزئبق ليس بالجيد يجهّز إلى سائر بلاد الإسلام والكفر، وكذلك يُحْمَلُ من بلاد الأندلس الزعفرانُ وعروق الزنجبيل. وأُصول الطِّيب خمسة أصناف: المسك، والكافور، والعود، والعنبر، والزعفران، وكلها تُحْمَلُ من أرض الهند وما اتصل بها إلاّ الزعفران والعنبر. انتهى. وهو وإنْ تكرَّر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة، والله تعالى أعلم.

وذكر البعض أن في[٣] بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة وهي: الرصاص من زُحَل، والقصدير الأبيض من الـمُشْتَري، والحديد من قسم المريخ، والذهب من قسم الشمس، والنحاس من الزهرة، والزئبق من عُطَارِد، والفِضّة من القمر.

وذكر الكاتب إبراهيم بن القاسم القَرَوي المعروف بالرقيق[٤] بَلَدَ الأندلس، فقال: أهله أصحاب جهاد متّصل يحاربون من أهل الشِّرْك المحيطين بهم أُمَّةٌ يُدْعون الجلالقة، يُتَاخمون حَوْزهم ما بين غرب إلى شرق، قوم لهم شدّة ولهم جمالٌ وحُسْنُ وجوه، فأكثر

---

(١) شنترين، بالإسبانية Santaren مدينة بالأندلس بقرب باجة Beja، على ساحل البحر، مبنيّة على نهر باجة، ويوجد بها العنبر الجيد. آثار البلاد (ص ٥٤٢).

(٢) في طبعة دار صادر: «بعشرة دنانير».

(٣) في طبعة دار صادر: «أنّ في بعض بلاد الأندلس. . .».

(٤) أبو إسحٰق إبراهيم بن القاسم، المعروف بالرقيق أو ابن الرقيق؛ مؤرّخ أديب من أهل القيروان. توفي نحو ٤٢٥ هـ. الأعلام (جـ ١ ص ٥٧ ومصادر حاشيته).

رقيقهم الموصوفين بالجمال والفَرَاهة[1] منهم ليس بينهم وبينهم دَرْب، فالحرب متّصلة بينهم، ما لم تقع هدنة، ويحاربون بالأفق الشرقي أُمّةً يقال لهم الفرنجة هم أشدُّ عليهم من جميع مَن يحاربونه من عدوّهم، إذ كانوا خلقًا عظيمًا في بلاد كثيرة واسعة جليلة متّصلة العمارة آهلة تدعى الأرض الكبيرة، هم أكثر عددًا من الجليقيين وأشدّ بأسًا وأحدّ شوكة وأعظم أمدادًا[2]. وهذه الأمة يحاربون أمّة الصقالبة المتّصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة فيَسْبُونَهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس، فلهم هنالك كثرة، وتَـخْصِيهم للفرنجة يهودُ ذمّتهم الذين بأرضهم، وفي ثغر المسلمين المتصل بهم، فيحمل خِصْيَانهم من هنالك إلى سائر البلاد، وقد تعلم الـخِصاء قومٌ من المسلمين هناك، فصاروا يخصون ويستحلّون الـمُثْلَة[3].

قال ابن سعيد: ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربي بمكان يقال له الخضراء ما بين طَنْجة من أرض المغرب وبين الأندلس، فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ثمانية عشر ميلاً، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سَبْتة، وهناك كانت القنطرة التي يزعم الناسُ أن الإسكندر بناها ليعبرَ عليها من بَرّ الأندلس إلى بَرّ العُدْوة، ويُعْرَفُ هذا الموضعُ بالزقاق، وهو صعب المجاز؛ لأنه مجمع البحرين لا تزال الأمواج تتطاول فيه والماء يدور، وطول هذا الزقاق الذي عرضه ثمانية عشر ميلاً مضاعف ذلك إلى ميناء سَبْتة، ومن هناك يأخذ البحر في الاتّساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد، ومُنْتَهَاه مدينة صور من الشام، وفيه عدد عظيم من الجزائر.

قال بعضهم: إنها ثمانٍ وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة وغيرهما، انتهى، وبعضه بالمعنى.

وقال بعضهم عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سَبْتة، ما صورته: ثم يتّسع كلّما امتدّ حتى يسير[4] إلى ما لا ذرع له ولا نهاية.

---

(١) الفَرَاهَةُ: الحِذْق. مختار الصحاح (فره).

(٢) يبدو أن ابن الرقيق ينقل عن ابن حوقل، أو أنه يتفق وإياه في أن الفرنج خلق عظيم وأن الجلالقة أشد بأسًا وقوة وأكثر غدرًا. انظر صورة الأرض لابن حوقل (ص ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٣) الـمُثْلَةُ: التنكيل. محيط المحيط (مثل).

(٤) في طبعة دار صادر: «حتى يصير».

وقال بعضهم: وكان مبلغ خراج الأندلس الذي كان يُؤَدَّى إلى ملوك بني أميّة قديمًا ثلثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة قوانين، وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم، فكانوا يُعْطُون جُنْدهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار، ويُنْفِقُونَ في أمورهم ونوائبهم ومؤن أهليهم مائة ألف دينار، ويَدَّخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار، انتهى.

وذكر غيره أن الجباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط[١] ألفَ ألفِ دينارٍ في السنة، وكانت قبل ذلك لا تزيد على ستمائة ألف، حكاه ابن سعيد، وقال: إن الأندلس مسيرة شهر مدن وعمائر.

وقال قاضي القضاة ابن خَلْدون الحضرمي في تاريخه الكبير، ما صورته[٢]: كان هذا القطر الأندلسي من العُدْوة الشمالية من عُدْوتي[٣] البحر الرومي وبالجانب الغربي منها يُسَمَّى عند العجم الأندلوش[٤]، وتسكنه أُمم من إفرنجة المغرب أشدّهم وأكثرهم الجلالقة. وكان القُوطُ قد تملّكوه وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الإسلام، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة. ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط إلى الأندلس، فصاروا إليها ومَلَكوها. ولما أخذ الروم واللطينيون بملّة[٥] النصرانية حملوا مَنْ وراءهم بالمغرب من أُمم الفرنجة والقُوطِ عليها فدانوا بها، وكان ملوك القوط ينزلون طُلَيْطلة، وكانت دارَ ملكهم. وربما تنقّلوا ما بينها وبين قرطبة[٦] وإشبيلية ومارِدَة، وأقاموا كذلك نحوًا من أربعمائة سنة إلى أن جاء اللّه بالإسلام والفتحِ. وكانَ مَلِكُهُمْ لذلك العهد يُسَمَّى لُذَرِيقَ، وهو سِمَة لملوكهم، كما أن جرجير سِمَة لملوك صقلية، انتهى.

---

(١) هو أبو المطرف عبد الرحمن بن الحكم الرَّبَضي؛ أمير الأندلس، ولي الحكم في سنة ٢٠٦ هـ، وتوفي بقرطبة سنة ٢٣٨ هـ. المغرب (جـ ١ ص ٤٥) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ١١٣) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٨٠).

(٢) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣) باختلاف يسير عمّا هنا.

(٣) في تايخ ابن خلدون: «عن عدوة البحر الرومي. . .».

(٤) في المصدر نفسه: «عند العرب أندلوش».

(٥) في المصدر نفسه: «لبلة النصرانية».

(٦) قرطبة، بالإسبانية Cordoba: قاعدة الأندلس وأُم مدائنها ومستقرّ خلافة الأمويين بها. تغلّب عليها الإسبان سنة ٦٣٣ هـ. الروض المعطار (ص ٤٥٦). وإشبيلية بالإسبانية Sevilla، وهي مدينة بالأندلس، تبعد عن قرطبة ثمانين ميلاً. تغلب عليها الإسبان سنة ٦٤٦ هـ. المصدر نفسه (ص ٥٩).

ومن أشهر بلاد الأندلس غَرْنَاطة[1]، وقيل: إن الصواب إغرناطة ـ بالهمز ـ ومعناه بلغتهم الرُّمّانة، وكفاها شَرَفًا ولادةُ لسان الدين بها.

وقال الشقندي[2]: أما غَرْناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس، ومَسْرح الأبصار، ومطمح الأنفس، ولم تَخْلُ من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، انتهى[3]. ولو لم يكن لها إلاّ ما خَصَّها الله تعالى به من المَرْج الطويل العريض ونهر شنيل[4] لكفاها.

وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته[5]: وما لمصرَ تفخرُ بنيلها وألفٌ منه في شِنيلها؟ يعني أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف، فقولنا شنيل إذا اعْتَبَرْنَا عدد شينه كان ألف نيل. وفيها قيل[6]: [مخلع البسيط]

غَرْنَاطَةٌ ما لها نظيرٌ ... ما مصرُ؟ ما الشام؟ ما العراقْ؟
ما هي إلاّ العروسُ تُجْلَى ... وتلك من جُمْلَةِ الصَّداقْ[7]

وتسمى كورة إلبيرة التي منها غَرْناطة، دمشق؛ لأنَّ جُنْدَ دمشق نزلوها عند الفتح، وقيل: إنما سُمِّيَتْ بذلك لشبهها بدمشق في غَزَارة الأنهار، وكثرة الأشجار، حكاه صاحب مناهج الفكر[8]، قال: ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها فصارت المصرَ المقصود، والمعقلَ الذي تَنْضَوي إليه العساكرُ والجنود. ويَشُقُّها نهر عليه

---

(١) غرناطة أو أغرناطة: بالإسبانية Granada، وهي مدينة محدثة بالأندلس، من مدن إلبيرة. الروض المعطار (ص ٤٥).

(٢) هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشَّقُنْدي، نسبة إلى شَقُنْدَة وهي بلدة مجاورة لمدينة قرطبة. له رسالة مشهورة يفضّل فيها الأندلس على المغرب. توفي بإشبيلية سنة ٦٢٩ هـ. المغرب (جـ ١ ص ٢١٨) واختصار القدح المعلّى (ص ١٣٨). ورسالة الشقندي يحتفظ بها المقري جملة في الجزء الرابع من نفح الطيب.

(٣) كلمة «انتهى» ساقطة في طبعة عبد الحميد.

(٤) نهر شنيل: بالإسبانية Genil، وهو نهر غرناطة الكبير. المغرب (جـ ٢ ص ١٠٣) وتقويم البلدان (ص ١٧٧).

(٥) ورد قول ابن الخطيب في الإحاطة (جـ ١ ص ١١٨).

(٦) هذان البيتان لم يَرِدا في الإحاطة.

(٧) الصَّداق: مَهْرُ المرأة. مختار الصحاح (صدق).

(٨) في طبعة عبد الحميد: «منهاج الفكر». وصاحب «مناهج الفكر» هو جمال الدين محمد بن إبراهيم ابن يحيىٰ بن علي الأنصاري، المعروف بالوطواط؛ أديب من أهل مصر. من مؤلفاته «مناهج الفكر ومباهج العبر»، وهو المشار إليه، وما يزال مخطوطًا. الأعلام(جـ ٥ ص ٢٩٧ ومصادر حاشيته).

قناطر يُجَاز عليها، وفي قبليها جبل شُلَير[1]، وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفًا ولا شتاءً، وفيه سائر النبات الهندي، لكن ليس فيه خصائصه، انتهى.

ومن أعمال غرناطة قطرلَوْشَةَ[2]، وبها معدن للفِضّة جيّد، ومنها أعني لوشة، أَصلُ لسان الدين بن الخطيب. وهذا القطر ضخم ينضاف إليه من الحصون والقرى كثير، وقاعدته لَوْشَة، بينها وبين غرناطة مرحلة، وهي ذات أنهار وأشجار، وهي على نهر غَرْناطة الشهير بشِنِيل.

ومن أعمال غرناطة الكبار عمل باغة[3]، والعامّة يقولون بيغُهْ، وإذا نسبوا إليه قالوا بيغي، وقاعدته باغة طيبة الزرع، كثيرة الثمار، غزيرة المياه، ويجود فيها الزعفران.

ومن أعمال غرناطة وادي آش[4]، ويقال: وادي الأشات. وهي مدينة جَليلة قد أحدقت بها البساتين والأنهار، وقد خصَّ اللَّهُ أَهلَها بالأدب وحبّ الشعر، وفيها يقول أبو الحسن بن نِزار[5]: [الكامل]

وَادِي الأَشاتِ يَهيجُ وَجْدي كلَّما ... أَذْكَرْتُ ما أفضَتْ[6] بك النعماءُ
لِلَّه ظِلُّكَ والهَجِيرُ مُسَلَّطٌ ... قد بَرَّدَتْ لَفَحاتِهِ الأنداءُ
والشمسُ ترغب أنْ تفوزَ بلَحْظَةٍ ... منه فتطرفُ طَرْفَهَا الأفياءُ
والنهرُ يَبْسِمُ بالحَبَابِ كأنه ... سِلْخٌ[7] نَضَتْهُ حَيَّةٌ رَقْشَاءُ

(١) جبل شُلَير، بضم الشين وفتح اللام وسكون الياء؛ بالإسبانية Solarius أي المشمس؛ لانعكاس الشمس على ثلوجه الناصعة التي تغطيه. ويسمى بالإسبانية Sierra Nevada، وهو أحد مشاهير جبال الأرض. الإحاطة (جـ ١ ص ٩٦) وجغرافية الأندلس وأوروبا (ص ٨٥) والروض المعطار (ص ٣٤٣، حاشية ٢).

(٢) لوشة، بالإسبانية Loja: مدينة من أقاليم إلبيرة، بينها وبين إلبيرة ثلاثون ميلاً. الروض المعطار (ص ٥١٣).

(٣) باغة، بالإسبانية Priego: وهي قرية، تقع شمالي لوشة في ولاية جيان. نصوص عن الأندلس (ص ٩٣) والإحاطة (جـ ١ ص ٥٠٩، حاشية ٦).

(٤) وادي آش، بالإسبانية Guadix: مدينة كبيرة بالأندلس، وتقع شمال شرقي غرناطة وتشرف على واديها الأخضر. الروض المعطار (ص ٦٠٤).

(٥) أبو الحسن بن نزار من بيوتات وادي آش، ومن شعراء القرن السادس الهجري. المغرب (جـ ٢ ص ١٤٧ وحاشيته). وسيترجم له المقري في الجزء الخامس من نفح الطيب.

(٦) في طبعة دار صادر: «قَضَتْ بك».

(٧) السِّلْخ، بكسر السين وسكون اللام: قشر الحَيّة. محيط المحيط (سلخ).

فلذاك تَحْذُرُهُ الغُصُونُ فَمَيْلُهَا أبدًا على جَنَبَاتِه إيماءُ

ومن أعمال وادي آش حصن جِلْيَانة[1]، وهو كبير يُضاهي المدن، وبه التفاح الجلياني الذي خصّ اللَّهُ به ذلك الموضع، يَجْمع عظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء، وبين الحصن المذكور ووادي آش اثنا عشر ميلاً.

ومن غرائب الأندلس أنّ به شجرتين من شجر القسطل[2]، وهما عظيمتان جدًا إحداهما بسَنَدِ[3] وادي آش والأخرى ببَشُرّة غَرْناطة، في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب، وهذا أمر مشهور قاله أبو عبد الله بن جُزَيّ وغيره.

وكانت إلبيرة هي المدينة قبل غَرْنَاطة، فلما بَنَى الصِّنْهاجي[4] مدينة غَرْنَاطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس إليها، ثم زاد في عمارتها ابنه بَادِيسُ[5] بعده.

وذكر غير واحد أن في كورة سَرَقُسْطَةَ[6] الملح الأندراني[7] الأبيض الصافي الأملس الخالص، وليس في الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح.

قال: وسَرَقُسْطَةَ بناها قيصر ملك رومة الذي تؤرّخ من مدّته مدّة الصفر قبل مولد

---

(١) حصن جليانة، بالإسبانية Juliana، وجاء في المغرب (جـ ٢ ص ١٤٨): «حصن جليانة: خصّه الله بالتفاح الذي يُضْرَبُ به المثل في الأندلس...».

(٢) القَسْطل: هو الشاه بلوط، أي الكستناء. قاموس ف. كورينطي (قسطل).

(٣) السَّنَدُ، بالفتح: هو ما قابلك من الجبل وعلا من السفح. محيط المحيط (سند).

(٤) هو حبوس بن ماكْسَنْ بن زيري بن مناد الصنهاجي؛ ولي الحكم بغرناطة سنة ٤١٠ هـ، وصار من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس. توفي بغرناطة سنة ٤٢٩ هـ. البيان المغرب (جـ ٣ ص ٢٦٤) والإحاطة (جـ ١ ص ٤٣٢) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩) وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٤٦).

(٥) هو باديس بن حبوس بن ماكْسَنْ بن زيري بن مناد الصنهاجي، ولي الحكم بغرناطة سنة ٤٢٩ هـ، وتوفي بها سنة ٤٦٧ هـ. بدائع البدائه (ص ٣٦٦) ومذكرات الأمير عبد اللّه (ص ٣٥) وصبح الأعشى (جـ ٥ ص ٢٤٨).

(٦) سرقسطة، بالإسبانية Saragoza: مدينة كبيرة في شرق الأندلس، تعرف بالمدينة البيضاء. استردّها الإسبان من أيدي المسلمين سنة ٥١٢ هـ. الروض المعطار (ص ٣١٧) وآثار البلاد (ص ٥٣٤) ونزهة المشتاق (ص ٥٥٤) ومعجم البلدان (جـ ٣ ص ٢١٢).

(٧) في الروض المعطار: «الملح الدراني»، وفي معجم البلدان: «الملح الذرآني».

المسيح على نبيّنا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام، وتفسير اسمها قصر السيد؛ لأنه اختار ذلك المكان بالأندلس.

وقيل: إن موسى بن نُصَير شرب من ماء نهر جِلَّق[1] بسرقسطة فاستعذبه، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذبَ منه، وسأل عن اسمه، فقيل: جِلق، ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبَّهها بغُوطَة جِلَّق الشام، وقيل: إنها من بناء الإسكندر، والله أعلم.

وبمدينة بَرْجَةَ[2] ـ وهي من أعمال ألْمَرِية ـ معدن الرصاص، وهي على واد مبهج يعرف بوادي عذراء، وهو محدق بالأزهار والأشجار[3]. وتسمى برجة بهجة لبهجة منظرها، وفيها يقول أبو الفضل بن شَرَف القَيْرَواني[4] رحمه الله تعالى: [المتقارب]

رياضٌ تَعَشَّقَهَا سُنْدُسٌ ... تَوَشَّتْ معاطِفُهَا بالزَّهَرْ
مدامِعُهَا فَوْقَ خَدَّيْ رُبَا ... لها نَظْرَة فَتَنَتْ مَنْ نَظَرْ
وكُلُّ مكان بها جَنَّةٌ ... وكُلُّ طريقٍ إليها سَقَرْ[5]

وفيها أيضًا قوله: [المجتث]

حُطَّ الرحالَ بِبَرْجَهْ ... وارْتَدْ لنفسكَ بَهْجَهْ
في قَلْعَةٍ كَسلاح ... ودَوْحَةٍ مثل لُجَّهْ
فَحِصْنُهَا لك أمْنٌ ... ورَوْضُهَا لك فُرْجَهْ
كلُّ البلادِ سواها ... كعُمْرَةٍ وهي حَجَّهْ

---

(١) هو نهر إبْرُه Ebro.
(٢) برجة، بالإسبانية Berja: مدينة بالأندلس تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة ألمرية Almeria، وتبعد عن دَلاَيَة ثمانية أميال. المغرب (جـ ٢ ص ٢٢٨) ومشاهدات لسان الدين (ص ٨١ ـ ٨٢) ومعجم البلدان (جـ ١ ص ٣٧٤) ونزهة المشتاق (ص ٥٦٣).
(٣) هذه المعلومات في المغرب (جـ ٢ ص ٢٢٨).
(٤) هو جعفر بن أبي عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي البرجي القيرواني. ولد في القيروان، وخرج منها إلى الأندلس، فاستوطن برجة. توفي سنة ٥٣٤ هـ. الذخيرة (ق ٣ ص ٨٦٧) وقلائد العقيان (ص ٢٥١) والصلة (جـ ١ ص ١٢٩) والمطرب (ص ٦٦) والمغرب (جـ ٢ ص ٢٤٠) وبغية الملتمس (ص ٢٥٦).
(٥) سَقَرْ: اسم من أسماء النار. مختار الصحاح (سقر).

وبمالقة[1] التينُ الذي يضرب المثل بحسنه، ويُجْلَبُ حتى للهند والصين، وقيل: إنه ليس في الدنيا مثله، وفيه يقول أبو الحجّاج يوسف ابن الشيخ البلَوي المالقي حسبما أنشده غير واحد، منهم ابن سعيد[2]: [السريع]

مالقةٌ، حُيِّيتَ يا تينَهَا   الفُلْكُ من أجلكَ ياتِينها
نَهَى طبيبي عنه في عِلَّتي   ما لِطَبيبي عن حَيَاتِي نَهَى

وذَيَّلَ عليه الإمام الخطيبُ أبو محمد عبد الوهاب المنشي بقوله: [السريع]

وحِمْصُ لا تَنْسَ لها تِيْنَهَا   واذْكُرْ مع التين زَيَاتِينَهَا[3]

وفي بعض النسخ: [السريع]

لا تنْسَ لاشْبِيلِيَّةٍ تِيْنَهَا   واذْكُرْ مع التين زَيَاتينها

وهو نحو الأول؛ لأن حمص هي إشبيلية، لنزول أهل حمص من المشرق بها، حسبما سنذكره.

ونسب ابن جُزَي في ترتيبه لرحلة ابن بَطُّوطة البيتين الأولين للخطيب أبي محمد عبد الوهاب المالقي، والتذييل لقاضي الجماعة أبي عبد الله بن عبد الملك، فالله أعلم.

وقال ابن بطوطة[4]: وبمالقة يصنع الفَخَّارُ المُذَهَّبُ العجيبُ، ويُجْلَبُ منها إلى أقاصي البلاد، ومسجدها كبير الساحة، شهيرُ البركة[5]، وصَحْنه لا نظير له في الحسن، وفيه أشجار النارنج البديعة، انتهى.

---

(١) مالقة، بالإسبانية Malaga: مدينة بالأندلس على شاطىء البحر، اشتهرت بالتين والرمان. الروض المعطار (ص ٥١٧) ورحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩).

(٢) روى الحميري في الروض المعطار (ص ٥١٨) أن القاضي الشهير أبا محمد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري، ولي قضاء مالقة، ولمّا قَدِمَ على مالقة خرج طلبتها إلى لقائه، فأنشدهم هذين البيتين، وفيه: «يأتينها» بدل «ياتينها». وورد البيتان في رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩) باختلاف يسير عمّا هنا، ونسبهما ابن بطوطة، نقلاً عن ابن جزي، إلى الخطيب أبي محمد عبد الوهاب بن علي المالقي.

(٣) زياتينها: أراد جمع زيتونة. وورد هذا البيت في رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩) وجاء فيه أن قاضي الجماعة أبا عبد الله بن عبد الملك، مؤلّف كتاب الذيل والتكملة، هو الذي ذيّل البيتين بهذا البيت.

(٤) النص في رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٠) وفيه: «فيه أشجار النارنج البعيدة».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «كثيرُ البركة شهيرُها».

وقال قبله[1]: إن مالَقَةَ إحدى قواعد الأندلس، وبلادها الحِسان، جامعةٌ بين مرافق البَرّ والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه، رأيتُ العنبَ يُباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بِدِرْهمٍ صغير، ورُمّانها المُرْسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا، وأمّا التينُ واللوز فَيُجْلَبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب، انتهى.

وبكورة أشبونة المتصلة بشَنْتَرين معدن التِّبر، وفيها عسل يُجعَل في كيس كَتّان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر، ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبهه إلاّ الشِّحْرِي.

ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة - أعادها اللّه تعالى للإسلام! - وبها الجامع المشهور، والقنطرة المعروفة بالجسر.

وقد ذكر ابن حيان أنه بُني على أَمْرِ عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، ونصه: وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الأكبر الذي ما يُعْرف في الدنيا مثله، انتهى.

وفيها يقول بعض علماء الأندلس[2]: [البسيط]

بأربَعٍ فاقَتِ الأمصارَ قُرْطُبَةٌ ... منهنَّ قنطرةُ الوادي، وجامعُهَا
هاتانِ ثنتان، والزهراء ثالثة، ... والعلم أعظمُ شيء، وَهْو رابعُهَا

وقال الحجازي في «المُسْهب»: كانت قرطبة في الدولة المروانية قبّة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام، بها استقرّ سريرُ الخلافة المروانية، وفيها تَمَحَّضَتْ خلاصة القبائل المعدّية واليمانية، وإليها كانت الرِّحْلة في الرواية إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، مُكْتَنَفٌ بديباج المروج مطرز بالأزهار، تَصْدَحُ في جَنَباته الأطيار، وتنعر النواعير ويَبْسم النُّوّار، وقُرْطاها الزاهرة والزهراء، حاضِرَتَا الملك وأفقاه[3] النعماء والسرّاء. وإن كان قد أخنى عليها الزمان، وغَيَّرَ بهجة أوجهها الحسان، فتلك عادَتُه[4] وسَلِ الخَوَرْنَق والسديرَ وغُمْدَان، وقد

(١) النص في رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٩) دون تغيير عمّا هنا.
(٢) سيأتي هذان البيتان في الجزء الثاني من نفح الطيب، حيث ينسبهما المقري إلى أبي محمد بن عطية المحاربي.
(٣) في طبعة دار صادر: «وأفقا».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «إعادته».

أعذر بإنذاره إذ لم يزل ينادي بِصُرُوفِهِ لا أمان لا أمان، وقد قال الشاعر: [المتقارب]

وما زلْتُ أَسْمَعُ أنَّ الملو ... ك تَبْنِي على قَدْرِ أخْطَارها

وقال السلطان يعقوب المنصور[1] ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي لأحد رؤساء أجنادها: ما تقول في قرطبة؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلامُ عامّة الأندلس بقوله: جَوْفُها شِمام، وغربيها قُمَام، وقبلتها مُدام، والجنة هي والسلام.

يعني بالشِّمام جبال الورد، ويعني بالقُمام ما يؤكل إشارة إلى مَحْرَثِ الكنْبَانِيَّة[2]، ويعني بالمدام النهر.

ولما قال والده السلطان[3] يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران[4] موسى بن سعيد العنسي: ما عندك في قرطبة؟ قال له: ما كان لي أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها، فقال السلطان: إن ملوك بني أمية حين اتّخذوها حضرةَ مملكتهم لَعَلَى بصيرة، الديارُ المنفسحةُ الكبيرة[5]، والشوارعُ المتّسعة، والمباني الضخمة المشيدة، والنهرُ الجاري، والهواءُ المعتدل، والخارجُ الناضر، والمَحْرَثُ العظيمُ، والشَّعْراء[6] الكافية، والتوسّطُ بين شرق الأندلس وغربها، قال: فقلت: ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول.

قال ابن سعيد: ولأهلها رياسة ووقار، لا تزال سِمَة العلم والملك متوارثة فيهم، إلاّ أنّ عامّتها أكثر الناس فضولاً، وأشدُّهم تشغيبًا، ويُضْرَبُ بهم المثل ما بين أهل الأندلس في

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن القيسي الكومي الموحّدي، صاحبُ بلاد المغرب والأندلس، ولي خلافة الموحدين سنة ٥٨٠ هـ، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ٣) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦٩) والحلل الموشية (ص ١٢١ ـ ١٢٢).

(٢) الكنبانية، بالإسبانية Campaña وتعني الأرض الجرداء. وهناك ناحية بالأندلس قرب قرطبة تحمل هذا الاسم، حسبما يشير ياقوت في معجم البلدان (جـ ٤ ص ٤٨١).

(٣) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي الموحدي، صاحب المغرب والأندلس. ولي الحكم سنة ٥٥٨ هـ، وتوفي سنة ٥٨٠ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١٣٠) وتاريخ المنّ بالإمامة (ص ٢٢٨) والحلل الموشية (ص ١١٩ ـ ١٢٠).

(٤) أبو عمران موسى بن عبد الملك بن سعيد، والد أبي الحسن علي صاحب «المغرب في حلى المغرب» و«رايات المبرزين» و«القدح المعلّى». كان شغوفًا بالتاريخ. توفي سنة ٦٤٠ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ١٧٠ ـ ١٧١).

(٥) في طبعة دار صادر: «الكثيرة».

(٦) الشَّعْراء، بفتح الشين وسكون العين: الشجر الكثير. مختار الصحاح (شعر).

القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلّة الرضا بأمورهم، حتى إنّ السيد أبا يحيىٰ أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لَـمَّا انفصل عن ولايتها: كيف وَجَدْتَ أهلَ قرطبة؟ فقال: مثل الجمل، إن خَفَّفْتَ عنه الحِمْلَ صاح، وإنْ أَثْقَلْتَهُ صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنتجنبه، وما سلَّط اللّهُ عليهم حَجَّاج الفتنة حتى كان عامَّتُها شرًّا من عامّة العراق، وإنّ العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية، وإني وإنْ كُلِّفْتُ العَوْدَ إليها لقائل: لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جحر مرتين، انتهى.

وقال أبو الفضل التيفاشي[1]: جَرَتْ مناظرةٌ بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوبَ بين الفقيه أبي الوليد[2] بن رُشْد والرئيس أبي بكر بن زُهْر[3]، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالمٌ بإشبيلية فأُريد بَيْعُ كتبه حُمِلَتْ إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطربٌ بقرطبة فأُريد بيع آلاته حُمِلَت إلى إشبيلية، قال: وقرطبة أكثر بلاد اللّه كتبًا، انتهى.

وحكى الإمام ابن بَشْكُوَال[4] عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طُلَيطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي[5]، قال: فسألنا: من أين؟ فقلنا: من قرطبة،

---

(١) هو شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد، القيسي التيفاشي، نسبة إلى تيفاش وهي قرية بإفريقية، وقد ولد بها، وتعلّم بمصر، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها سنة ٦٥١ هـ. الأعلام (جـ ١ ص ٢٧٣ ومصادره في الحاشية).

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رُشْد القرطبي؛ فيلسوف الأندلس وفقيهها. توفي سنة ٥٩٥ هـ، وقيل: سنة ٥٩٨ هـ. المغرب (جـ ١ ص ١٠٤) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١١١) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٣٠).

(٣) هو الوزير الحكيم محمد بن عبد الملك بن زُهْر الإيادي، المعروف بالحفيد ابن زُهْر؛ من نوابغ الطب والأدب في الأندلس. توفي سنة ٥٩٥ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٣٤) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٢١) والمغرب (جـ ١ ص ٢٧١) والذيل والتكملة (جـ ٦ ص ٣٩٨) والمطرب (ص ٢٠٦).

(٤) هو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بَشْكُوال، صاحب كتاب الصلة. ولد بقرطبة سنة ٤٩٤ هـ ونشأ بها. توفي سنة ٥٧٨ هـ. انظر ترجمته في مقدمة كتاب الصلة بقلم المحقّق الأستاذ إبراهيم الأبياري.

(٥) أبو بكر محمد الأعمى المخزومي، هَجّاء مشهور، ولشدّة سلاطة لسانه لقِّب بشّار الأندلس. أكثر إقامته بغرناطة، وتعرّض لشاعرتها نزهون بنت الوزير القلاعي وهجاها. وسيترجم له المقري في هذا الجزء من نفح الطيب. انظر أيضًا المغرب (جـ ١ ص ٢٢٨).

فقال: متى عهدكما بها؟ فقلنا: الآن وَصَلْنا منها، فقال: اقْرُبا إِليَّ أَشمّ نسيمَ قرطبة، فَقَرُبْنا منه، فَشَمَّ رأسي وقَبَّلَهُ، وقال لي: اُكْتُبْ: [الطويل]

أَقُرْطُبَةُ الغَرَّاءُ هل لـيَ أَوْبَـةٌ[1] إليكِ؟ وهل يَدْنُو لنا ذلك العَهْدُ
سَقَى الجانبَ الغربيَّ منكِ غمامةٌ وقَعْقَعَ في ساحات دَوْحَاتِكِ الرَّعْدُ
لياليكِ أسحارٌ، وأَرْضُكِ رَوْضَةٌ، وتُرْبُكِ في اسْتِنْشاقِها عَنْبَرٌ وَرْدُ

وكتب الرئيس الكاتب أبو بكر بن القبطرنة[2] للعالِم أبي الحسين بن سراج[3] بقوله: [الكامل]

يـا سَيِّـدِي وأبـي هَـوًى وجَـلالَـةً ورَسُـولَ وُدِّي إن طَلَبْتُ رسولا
عَـرِّجْ بـقـرطـبـةٍ إذا بُـلِّـغْـتَـهَـا بأبي الحسين ونادِهِ تمويلا[4]
وإذا سَعِدْتَ بنظرةٍ مـن وَجْـهِـهِ أَهْـدِ الـسـلامَ لِكَـفِّـه تَـقْـبـيـلا
واذْكُرْ له شوقي وشكري مُجْمَلاً ولَوِ اسْتَطَعْتُ شَرَحْتُهُ تفصيلا
بـتـحـيـةٍ تُـهْـدى إلـيـه كـأنـمـا جَرَّتْ على زهر الرياض ذُيُولاً

وفي باب اليهود بقرطبة يقول أبو عامر بن شُهَيد[5]: [المتقارب]

لـقـد أَطْـلَـعُـوا عِـنْـدَ بـابِ الـيـهـو دِ بَدْرًا أَبَىٰ الـحُسْنُ أن يُكْسَفَا
تَــراهُ الــيــهــودُ عــلــى بــابــهــا أمـيـرًا فَـتَـحْـسَـبُـهُ يُـوسُـفَـا

---

(١) الأَوْبَةُ: العودة، مختار الصحاح (أوب).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «القبطرنيّة». وأبو بكر بن القبطرنة هو الوزير عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز، من بَطَلْيَوْس، وأحد فرسان الكلام، وأحد ثلاثة أخوة وزراء شعراء يعرفون ببني القبطرنة أو القبطورنة، فأحد أخويه هو أبو محمد طلحة، والآخر هو أبو الحسن محمد، والثلاثة كانوا وزراء في عهد بني الأفطس ببطليوس في عهد ملوك الطوائف. الذخيرة (ق ٢ ص ٧٥٣) والمغرب (جـ ١ ص ٣٦٧) وقلائد العقيان (ص ١٤٨) والمطرب (ص ١٨٦). وقد وردت أبيات ابن القبطورنة هذه ضمن قصيدة من ١٤ بيتًا في الذخيرة (ق ٢ ص ٧٦٧) وقلائد العقيان (ص ١٥١) باختلاف يسير عمّا هنا. وستأتي هذه الأبيات في الجزء الثاني من نفح الطيب.

(٣) هو الوزير سراج بن عبد الملك بن سراج؛ عالم الأندلس في النحو والصرف. توفي سنة ٥٠٨ هـ. المغرب (جـ ١ ص ١١٦) وبغية الوعاة (ص ٢٥١).

(٤) نادِهِ تمويلا: أي قلْ له: «يا مولاي».

(٥) هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأندلسي، صاحب رسالة التوابع والزوابع؛ توفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه. والبيتان في ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ١٠٠) دون تغيير عمّا هنا. وسيأتيان في الجزء الثاني من نفح الطيب، وفيه «شمسًا» بدل «بَدْرًا».

واستقبحوا قولهم «باب اليهود» فقالوا «باب الهدى» وسنذكر قرطبة والزهراء والزاهرة ومسجدها في الباب المنفرد بها إن شاء الله تعالى، وكذلك القنطرة.

ومن أعظم مدن الأندلس إشبيلية ـ قال الشقندي: من محاسنها اعتدال الهواء، وحُسْنُ المباني، ونَهْرُها الأعظم الذي يصعد المدُّ فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر، وفيه يقول ابن سَفَرٍ[1]: [الكامل]

شَقَّ النسيمُ عليه جَيْبَ قَمِيصِهِ   فَانْسابَ مِنْ شَطَّيْه يَطْلُبُ ثَارَهُ
فتضاحَكَتْ وُرْقُ الْحَمامِ بِدَوحِها   هُزُءًا فَضَمَّ من الحَيَاءِ إزارَهُ

وقيل لأحد مَن رأى مصر والشام: أيهما رأيت أحسن؟ أهذان أم إشبيلية؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية: شَرَفُها غابة بلا أَسَد، ونهرها نِيلٌ بلا تمساح، انتهى.

ويقال: إن الذي بنى إشبيلية اسمه يوليش[2]، وإنه أول مَن سُمِّي قيصر، وإنه لـمّا دخل الأندلس أُعجب بساحاتها وطِيب أرضها وجبلها المعروف بالشَّرَف[3]، فَرَدَمَ على النهر الأعظم مكانًا، وأقام فيه المدينة، وأحدق عليها بأسوار من صخر صَلْد، وبنى في وسط المدينة قصبتين بديعتي الشأن تُعرفان بالأخوين، وجعلها أُمَّ قواعد الأندلس، واشتقّ لها اسمًا من رومية، ومن اسمه، فسمّاها رومية يوليش[2]، انتهى.

وقد تقدّم شيء من هذا.

وكان الأوّلون من ملوك الأعاجم يتداولون بسُكْناهم أربعة[4] بلاد من بلاد الأندلس: إشبيلية، وقُرْطُبة، وقَرْمُونة[5]، وطُلَيطلة، ويقسمون أزمانهم على الكَيْنُونة بها.

---

(١) هو أبو الحسين وقيل أبو عبد الله محمد بن سفر، شاعر المرية في عصره. المغرب (جـ ٢ ص ٢١٢) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٥٤). وسيترجم له المقري في هذا الجزء من نفح الطيب، كما سيأتي هذان البيتان في الجزء الرابع. وهما في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص١٥٤) وفيه: «بأيكها» بدل «بدوحها».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «توليس». وهذا النص في الروض المعطار (ص ٥٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) شرف إشبيلية جبل، يبعد عن إشبيلية ثلاثة أميال، وسُمّي بذلك لأنه مشرف من ناحية إشبيلية، وهو كله تراب أحمر. الروض المعطار (ص ٣٣٩).

(٤) في طبعة صادر: «أربعة من بلاد...».

(٥) قرمونة، بالإسبانية Carmona: مدينة بالأندلس في الشرق من إشبيلية. الروض المعطار (ص ٤٦١).

وأما شَرَفُ إشبيلية، فهو شريف البقعة، كريم التربة، دائم الخضرة، فرسخ في فرسخ طولاً وعرضًا، لا تكاد تُشْمِسُ فيه بقعة لالتفاف زيتونه.

واعلم أن إشبيلية لها كُوَر جليلة، ومدن كثيرة، وحصون شريفة، وهي من الكُوَر المجندة، نَزَلَها جُنْدُ حمص ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق. وانتهت جبَاية إشبيلية أيام الحكَم[١] بن هشام إلى خمسة وثلاثين ألفَ دينارٍ ومائة دينار.

وفي إقليم طالقة[٢] من أقاليم إشبيلية وُجِدَتْ صورة جارية من مرمر معها صبي، وكأن حَيّةً تريده، لم يُسْمَعْ في الأخبار ولا رُئِيَ في الآثار صورة أبدع منها، جُعِلَتْ في بعض الحمامات وتَعَشَّقها جماعةٌ من العوامّ[٣].

وفي كورة ماردة حصنٌ شننت أفرج في غاية الارتفاع، لا يعلوه طائر البتّة لا نَسْرٌ ولا غيره.

ومن عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع أُقليش[٤]، فإن طول كل جائزة[٥] منه مائة شبر وأحد عشر شبرًا، وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف.

وقال بعض مَن وصف إشبيلية[٦]: إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة، وعليه جسر مربوط بالسفن، وبها أسواق قائمة، وتجارات رابحة، وأهلها ذوو أموال عظيمة، وأكثر مَتَاجرهم الزيت، وهو يشتمل على كثيرٍ من إقليم الشَّرَف، وإقليمُ الشرف على تَلٍّ عالٍ من تراب أحمر مسافته أربعون ميلاً في مثلها، يمشي[٧] به السائر في ظلّ الزيتون والتين، ولها - فيما ذكر بعضُ الناس - قُرى كثيرة، وكل قرية عامرة بالأسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق.

---

(١) هو أبو العاصي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، المعروف بالحكم الرَّبَضي؛ أمير الأندلس، وُلّي الحكم سنة ١٨٠ هـ، وتوفي سنة ٢٠٦ هـ. المغرب (جـ ١ ص ٣٨) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٤٣).

(٢) طالقة: بالإسبانية Itálica، وهي مدينة بالأندلس بقرب إشبيلية. الروض المعطار (ص ٣٨١).

(٣) هذا النص في الروض المعطار (ص ٣٨١) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) أُقليش: بالإسبانية Uclés، وهي مدينة بالأندلس، وقاعدة كور شنتبرية. الروض المعطار (ص ٥١).

(٥) الجائزة: الدعامة التي تحمل خشب البيت. وفي لسان العرب: «جائز» بدون تاء التأنيث.

(٦) ورد بعض هذا النص في الروض المعطار (ص ٥٨ - ٥٩).

(٧) في طبعة دار صادر: «يمشي بها».

وقال صاحب مناهج[1] الفكر، عند ذكر إشبيلية: وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها يُضْرَبُ المثلُ في الْخَلاَعة، وانتهاز فرصة الزمان الساعةَ بَعْدَ الساعة، ويعينهم على ذلك واديها الفرج، وناديها البهج، وهذا الوادي يأتيها من قرطبة، ويجزر في كل يوم، ولها جبل الشَّرَف، وهو تراب أحمر طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلاً، وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلاً، يشتمل على مائتين وعشرين قرية، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت، انتهى.

ولكورة باجة[2] من الكور الغربية التي كانت من أعمال إشبيلية أيام بني عبّاد خاصّيّةٌ في دباغة الأديم وصناعة الكتّان، وفيها معدن فِضّة، وبها وُلِدَ المعتمد[3] بن عبّاد، وهي متصلة بكورة ماردة.

ولجبل طارق حوز قصب السّبْق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نُصَير، إذ كان أوّل ما حَلّ به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح، ولذا شُهِر بجبل الفتح وهو مقابل الجزيرة الخضراء، وقد تَجَوَّنَ البحر هنالك مستديرًا حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء، وفيه يقول مطرّف[4] شاعر غرناطة: [الطويل]

وأَقْوَدَ قد ألقى على البحر مَتْنَهُ ... فأصبَحَ عن قُوْدِ الجبال بِمَعْزِلِ[5]
يُعَرِّضُ نحو الأُفْق وَجْهًا كأنما ... تُراقِبُ عَيْنَاه كواكبَ منزلِ

وإذا أقبل عليه المسافرون من جهة سَبْتَةَ في البحر بان كأنه سرج، قال أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد: أقبلت عليه مرة مع والدي فنظرنا إليه على تلك الصفة، فقال والدي: أجز: [المجتث]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «منهاج».

(٢) باجة: بالإسبانية Beja، وهي من أقدم مدائن الأندلس، بُنِيَت في أيام الأقاصرة. وهي اليوم في البرتغال. الروض المعطار (ص ٧٥).

(٣) هو أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله عباد بن محمد، صاحب إشبيلية وأقوى ملوك الطوائف في عصره. ولي الحكم سنة ٤٦١ هـ، وخلعه المرابطون سنة ٤٨٤ هـ، وأودعوه سجن أغمات، فتوفي فيه سنة ٤٨٨ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢١) والذخيرة (ق ٢ ص ٤١) وقلائد العقيان (ص ٤).

(٤) هو أبو الحسن مطرف بن مطرف، من أهل غرناطة. وقد قتله النصارى في وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ١٢٠) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٥١).

(٥) الأَقْوَدُ: الجبل الطويل، والجمع قُود. محيط المحيط (قود).

انْظُرْ إلى جَبَلِ الْفَتْـ ... ـحِ راكِبًا مَتْنَ لُجّ[1]

فقلت: [المجتث]

وقد تَفَتَّحَ مِثْلَ الـ ... أفنانِ في شكلِ سَرْجِ

وأما جزيرة طريف فليست بجزيرة، وإنّما سُمّيَت بذلك الجزيرةُ التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء، وطريف المنسوبة إليه بَرْبَري من موالي موسى بن نُصَير، ويقال: إن موسى بعثه قبل طارق في أربعمائة رجل، فَنَزَلَ بهذه الجزيرة في رمضان سنة إحدى وتسعين، وبعده دخل طارق، والله أعلم.

ومن أعظم كُوَرِ الأندلس كورة طُلَيْطلة، وهي من متوسط الأندلس، وكانت دار مملكة بني ذي النُّون من ملوك الطوائف، وكان ابتداء ملكهم صدرَ المائة الخامسة، وسمّاها قيصر بلسانه بزليطلة[2]، وتأويل ذلك: أنت فارح، فَعَرَّبتها العربُ وقالت: طليطلة، وكانوا يسمُّونها وجهاتها في دولة بني أميّة بالثغر الأدنى، ويسمّون سَرَقُسْطة وجهاتها بالثغر الأعلى، وتُسمَّى طليطلة مدينة الأملاك؛ لأنها فيما يقال مَلَكَها اثنان وسبعون إنسانًا، ودخلها سليمان بن داود، عليهما السلام، وعيسى ابن مريم، وذو القرنين، وفيها وَجَدَ طارقُ مائدة سليمان، وكانت من ذخائر إشبان ملك الروم الذي بنى إشبيلية، أخذها من بيت المقدس كما مَرَّ، وقُوِّمَتْ هذه المائدةُ عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار، وقيل: إنها كانت من زُمُرُّد أخضر، ويقال: إنّها الآن برومة، والله أعلم بذلك.

ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة، منها مائة وسبعون تاجًا من الدُّرّ[3] والياقوت والأحجار النفيسة، وإيوان ممتلىء من أواني الذهب والفِضّة، وهو كبير، حتى قيل: إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه، وقد قيل: إن أواني المائدة من الذهب وصحافها

---

(١) اللُّجّ، بضم اللام والجيم المشددة: معظم ماء البحر. مختار الصحاح (لجج).

(٢) في الروض المعطار (ص ٣٩٤): «وزعموا أنّ معنى طليطلة باللطيني «تولاطو» ـ معناه «فرح ساكنها» يريدون لحصانتها ومنعتها...».

(٣) في الروض المعطار (ص ٣٩٣): «مائة وسبعون تاجًا من الذهب مرصّعة بالدُّرّ، وأصناف الحجارة الثمينة...».

من اليَشْم والْجَزْع[1]، وذكروا فيها غير هذا ممّا لا يكاد يصدّقه الناظر فيه.

ويطليطلة بساتينُ محدقة، وأنهار مخترقة، ورياض وجنان، وفواكه حسان، مختلفة الطعوم والألوان، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، ورساتيق مريعة، وضياع بديعة، وقِلاع منيعة، وبالجملة فمحاسنها كثيرة، ولعلنا نُلِمُّ ببعض متنزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وطليطلة قاعدة ملك القوطيين، وهي مُطِلة على نهر تَاجُه[2]، وعليه كانت القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها، وكانت على قَوْس واحد تكتنفه فرختان[3] من كل جانب، وطولُ القنطرة ثلثمائة باع، وعرضها ثمانون باعًا، وخربت أيام الأمير محمد[4] لما عصى عليه أهلها فغزاهم، واحتال في هدمها، وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس[5]: [الكامل]

أضْحَتْ طُلَيْطِلَةُ مُعَطَّلَةً ... من أهلها في قبضة الصَّقْرِ
تُرِكَتْ بلا أهلٍ تؤهِّلها ... مَهْجورَةَ الأكنافِ كالقبرِ
ما كان يُبْقِي اللَّهُ قنطرةً ... نُصِبَتْ لحملِ كتائبِ الكُفْرِ

وسيأتي بعض أخبار طليطلة.

ومن مشهور مدن الأندلس ألْمَرِية، وهي على ساحل البحر، ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران، بناها عبد الرحمن الناصر، وعظمت في دولة المنصور بن أبي

---

(١) اليَشْمُ: اليَشْبُ وهو حجر قريب من الزَّبَرْجد لكنه أكثر شفافية وصفاء منه. الجَزْعُ: خرز يماني فيه سواد وبياض تُشَبَّهُ به الأعين. محيط المحيط (يشم) و(جزع).

(٢) نهر تاجه: بالإسبانية Tajo، وهو نهر عظيم يشق طليطلة، يخرج من بلاد الجلالقة ويصب في البحر الرومي. الروض المعطار (ص ١٢٧).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «فرجتان» بالجيم.

(٤) هو أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن الثاني، وقد ولي الأندلس سنة ٢٣٨ هـ وتوفي سنة ٢٧٣ هـ. البيان المغرب (جـ ٢ ص ٩٣) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ١١٩) والمغرب (جـ ١ ص ٥١).

(٥) عباس بن فرناس حكيم الأندلس وفيلسوفها، أديب شاعر، كثير الاختراع والتوليد. كان في أيام الأمير محمد. توفي سنة ٢٧٤ هـ. جذوة المقتبس (ص ٣١٨) وبغية الملتمس (ص ٤٣١) والمغرب (جـ ١ ص ٣٣٣).

عامر، وولّى عليها مولاه خَيْرَان، فَنُسِبَتْ القلعة إليه، وبها من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد، وفيها دار الصناعة، وتشتمل كُورَتُهَا على معدن الحديد والرخام، ومن أبوابها باب العُقاب عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر[(١)].

وقال بعضهم: كان بألْمَريَّة لنسج طُرُز الحَرير ثمانمائة نَوْل، وللحُلَل النفيسة والديباج[(٢)] الفاخر ألف نَوْل، وللأسقلاطون[(٣)] كذلك، وللثياب الجرجانية[(٤)] كذلك، وللأصفهانية[(٥)] مثل ذلك، وللعنابي[(٦)] والمعاجر[(٧)] المدهشة والستور المكلّلة[(٨)]. ويُصْنَع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف. وفاكهة ألمرية يقصر عنها الوصف حُسْنًا، وساحِلُها أفضلُ السواحل، وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة، وقد ألّف فيها أبو جعفر بن خاتمة[(٩)] تاريخًا حافلاً سَمّاه بـ «مَزِيَّة ألمرية، على غيرها من البلاد الأندلسية» في مجلد ضخم تَرَكْتُه من جملة كتبي بالمغرب، واللّه سبحانه المسؤول في جمع الشمل، فله الأمر مِنْ بَعْدُ ومِنْ قَبْل.

---

(١) وردت هذه المعلومات في الروض المعطار (ص ٥٣٨).

(٢) الدِّيْباج: نوع من الأقمشة الحريرية السميكة، ويعرف بالإسبانية باسم Brocado. الفنون الزخرفية الإسلامية (ص ١٢٤) وتاريخ مدينة ألمرية الإسلامية (ص ١٥٧).

(٣) الأسقلاطون أو السِّقْلاطون: نوع من المنسوجات الحريرية، اشتهرت في الأصل في بلاد اليونان فنسبت إلى سقلاطون بلد من بلاد الروم. ومن اليونان انتقل إلى البلاد الإسلامية. صبح الأعشى (جـ ٣ ص ٤٧٦) وتكملة المعاجم العربية (جـ ١ ص ١٣٦) والفنون الزخرفية الإسلامية (ص ١٢٤).

(٤) نسبة إلى مدينة جُرْجان الفارسية؛ لاشتهارها بهذا النوع من الحرير. الفنون الزخرفية الإسلامية (ص ١٢٤).

(٥) ويقال أيضًا: الأصبهانية، نسبة إلى مدينة أصبهان الفارسية؛ لاشتهارها بهذا النوع من المنسوجات الحريرية. الفنون الزخرفية الإسلامية (ص ١٢٤).

(٦) نسبة إلى العَتّابية إحدى محلات بغداد، التي كانت الثياب العتّابية تُصنَع فيها، وهي ثياب من حرير وقطن مختلفة الألوان. رحلة ابن جبير (ص ٢٠١) والفنون الزخرفية الإسلامية (ص١٢٤ ـ ١٢٥).

(٧) المعاجر: جمع مِعْجر وهو كوب تَلُفُّه المرأة على استدارة رأسها، وقيل: ضرب من ثياب اليمن. لسان العرب (عجر). ويرى الدكتور سالم أنها قماش من الحرير شفاف. تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية (ص ١٥٨).

(٨) الستور المكلّلة نوع من المنسوجات الحريرية، خفيفة رقيقة تزدان بالزخارف النباتية والأزهار التي تشبه الأكاليل. تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية (ص ١٥٨).

(٩) هو ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي، وقد تقدمت ترجمته.

ووادي ألمرية طوله أربعون ميلاً في مثلها كلها بساتين بهجة، وجنات نضرة، وأنهار مطّردة، وطيور مغرّدة.

قال بعضهم[١] : ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالاً من أهل ألمرية، ولا أعظم متاجر وذخائر، وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف، وهي بين الجبلين بينهما خندق معمور، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة، وعلى الآخر رَبَضُها، والسور محيط بالمدينة والربض، وغربيها رَبَضٌ لها آخر يسمى ربض الحوض ذو فنادق وحمامات وخنادق وصناعات، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة، وأحجار أولية، وكأنما غُرْبِلَتْ أرضُها من التراب، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار، انتهى.

وقال ابن اليسع، عند ذكره مدينة شِنْترة[٢]: إنَّ من خَوَاصِّها أنَّ القمح والشعير يُزْرعان فيها ويُحْصدان عند مضي أربعين يومًا من زراعته، وإن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر، قال لي أبو عبد الله الباكوري، وكان ثقة: أَبْصَرْتُ عند المعتمد بن عباد رجلاً من أهل شنترة أهدى إليه أربعًا من التفاح ما يُقِلُّ الحاملُ على رأسه غيرها، دور كل واحدة خمسة أشبار، وذكر الرجل بحضرة ابن عبّاد[٣] أن المعتاد عندهم أقلّ من هذا، فإذا أرادوا أن يجيء بهذا العظم وهذا القدر قطعوا أصلها وأبقوا منه عشرًا أو أقلّ وجعلوا تحتها دعامات من الخشب، انتهى.

ويحصن شَنَش[٤] على مرحلة من ألمرية التّوت الكثير، وفيها الحرير والقرمز، ويُعْرَفُ واديها بوادي طَبَرْنَش[٥].

وبغربي مالَقَةَ عملُ سُهَيلٍ، وهو عمل عظيم كثير الضياع، وفيه جبل سهيل لا يُرى نجم سهيل بالأندلس إلاّ منه.

---

(١) انظر الروض المعطار (ص ٥٣٨).

(٢) شِنْترة: بالإسبانية Cintra، وهي من مدائن الأشبونة بالأندلس، على مقربة من البحر، وهي اليوم تابعة للبرتغال. الروض المعطار (ص ٣٤٧) وأخبار وتراجم أندلسية (ص ٤٠).

(٣) عبارة «بحضرة ابن عباد» ساقطة في طبعة دار صادر.

(٤) في المغرب)؛جـ ٢ ص ٢٢٥):«حصن شنش على مرحلة من ألمرية، وفيه شجر التوت كثير، بسبب الحرير، ولهم فيه غِلَلٌ عظيمة».

(٥) بالإسبانية Tabernas وتعني الخمارات.

ومن كور الأندلس الشرقية تُدْمِير[1]، وتسمى مصر أيضًا لكثرة شبهها بها؛ لأنَّ لها أرضًا يسيحُ عليها نهر في وقت مخصوص من السنة، ثم يَنْضُبُ عنها، فَتُزْرَعُ كما تُزْرَعُ أرضُ مصر، وصارت القصبة بعد تدمير مُرْسِيَةَ، وتسمى البستان؛ لكثرة جَنّاتها المحيطة بها، ولها نهر يصبّ في قِبْلِيِّها.

واعْلَم أنَّ جزيرة الأندلس ـ أعادها اللّه للإسلام! ـ مشتملة على موسطة، وشرق، وغرب.

فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متّسعة: قرطبة، وطليطلة، وجَيّان، وغَرْناطة، وألْمَرية، ومَالَقَة. فمن أعمال قرطبة إسْتَجَةُ وبَلْكُونة وقَبْرة ورُنْدة وغافق والمُدَوَّر وأسطبة وبَيَّانة والْيَسَّانة والقَصير وغيرها[2]. ومن أعمال طليطلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة[3] وغيرها. ومن أعمال جَيّان أُبَّدَة وبَيّاسة وقَسْطَلَّة وغيرها[4]. ومن أعمال غرناطة وادي آش والمنكب ولَوْشة وغيرها[5]. ومن أعمال ألمرية أَنْدَرَشُ وغيرها[6]. ومن أعمال مَالَقَة بلّش والحامة

---

(١) تدمير: بالإسبانية Todmir، وهي من كور الأندلس، سُمّيت باسم ملكها تدمير الروض المعطار (ص ١٣١).

(٢) هذا التقسيم أورده ابن سعيد في المغرب (جـ ١ ص ٣٥) وأسقط منه ابن سعيد «رندة» و«بيانة»، كما أسقط المقري «مراد» و«كُزْنة». وإستجة: بالإسبانية Ecija، وبلكونة Balcuna، وقبرة Cabra، ورُنْدَة Ronda، وغافق Gafic، والـمُدَوّر Almodovar، وأسطبة Estepa، وبَيّانة Baena، والـيُسّانة أو اللُّسّانة Lucena، والقُصَيْر Alkosair. راجع الروض المعطار ومعجم البلدان ونزهة المشتاق ونخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر وغيرها من كتب الجغرافيا.

(٣) أعمال طليطلة، حسب تقسيم ابن سعيد هي: وَقْش، وطلبيرة، ووادي الحجارة، وقلعة رباح، وطَلَمَنْكة، ومجريط، ومَكّادة. المغرب (جـ ٢ ص ٧). ووادي الحجارة بالإسبانية Guadalajara، وقلعة رباح Calatraba، وطلمنكة Salamanca. راجع كتب الجغرافيا السابقة الذكر.

(٤) أعمال جيان، حسب تقسيم ابن سعيد، هي: قسطلة درّاج، قيجاطة، شَقُورة، سُمُنْتان، بَيّاسة، أُبدة، بسطة، بُرْشانة، تاجَلة، قولِيّة. المغرب (جـ ٢ ص ٤٩ ـ ٥٠). وأبدة بالإسبانية Ubeda، وبياسة Baeza، وقَسْطَلّة Cacella.

(٥) وادي آش بالإسبانية Guadix، والمنكب Almuñecar، ولوشة Loja.

(٦) حسب تقسيم ابن سعيد فإن أعمال ألمرية هي: بجانة، وألمرية، ومرشانة، وشنش، ودوجر، وبَرْجَة، وأندرش. المغرب (جـ ٢ ص ١٨٩). وأندرش بالإسبانية Andarax.

وغيرهما[1]. وببلّش من الفواكه ما بمالقة، وبالحامة العين الحارّة على ضفة واديها.

وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد: مُرْسية، وبَلَنْسية، ودانية، والسهلة، والثغر الأعلى. فمن أعمال مُرْسية أوريولة وألقنت ولورقة وغير ذلك[2]. ومن أعمال بلنسية شاطبة التي يُضرَب بحُسنها المثل ويُعْمَل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شَقْر وغير ذلك[3]. وأما دانية[4] فهي شهيرة ولها أعمال. وأما السهلة[5] فإنها متوسطة بين بلنسية وسَرَقُسطة ولذا عدّها بعضهم من كور الثغر الأعلى ولها مدن وحصون. ومن أعمال الثغر الأعلى: سرقسطة وهي أُمّ ذلك الثغر، وكورة لاردة، وقلعة رباح، وتسمى بالبيضاء، وكورة تُطِيلة، ومدينتها طرسونة، وكورة وَشْقة، ومدينتها تمريط، وكورة مدينة سالم، وكورة قلعة أيوب، ومدينتها بَلْيَانة، وكورة برطانية، وكورة باروشة[6].

وأما غرب الأندلس ففيه: إشبيلية، وماردة، وأشبونة، وشِلْب. فمن أعمال إشبيلية شَريش والخضراء ولَبْلَه وغيرها[7]. ومن أعمال ماردة بَطَلْيَوْس ويابرة وغيرهما. ومن أعمال أشبونة شَنْتَرين وغيرها. ومن أعمال شِلْبَ شنت مرية[8] وغيرها.

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة قادس، وهي من أعمال إشبيلية، وقال ابن سعيد: إنها من كورة شَرِيش، ولا منافاة لأن شريشًا من أعمال إشبيلية كما مرّ، قال: وبِيَدِ

(١) تقسيم ابن سعيد في المغرب (جـ ٤٢٢) هكذا: ريّة، بليش، بِزلْيانة، لَمَاية، موررور، وبلش مالقة بالإسبانية Velez Malaga، والحامة Alhama.

(٢) أوريولة: بالإسبانية Orihuela، وألقنت Alicante. الروض المعطار.

(٣) أعمال بلنسية في المغرب (جـ ٢ ص ٢٩٥ - ٢٩٦) هي: بلنسية، رصافة بلنسية، قرية المنصف، قرية بطرنة، قرية بِنّة، حصن مَتّيطة، جزيرة شقر، حصن مُرْبيطر، كورة شاطبة، وشاطبة بالإسبانية Sativa، وشقر Jucar.

(٤) دانية: مدينة بالأندلس، وبالإسبانية Denia.

(٥) السهلة: اسمها أيضًا شنتمرية الشرق، وقد تقدم الحديث عنها.

(٦) هذا التقسيم أورده ابن سعيد في المغرب (جـ ٢ ص ٤٣٣) وأسقط منه قلعة رباح، وقلعة أيوب، وبرطانية، وباروشة. وأسقط المقري طرسونة، وأُشْكُرْنة. وجاء في طبعة دار صادر: «مَلْيانة» بدل «بليانة» و«بريطانية» بدل «برطانية».

(٧) أعمال إشبيلية في تقسيم ابن سعيد في المغرب (جـ ١ ص ٢٣٧) هي: إشبيلية، قرمونة، شذونة، موررور، قلعة ورد، أركش، أشونة، جزيرة طريف، الجزيرة الخضراء، رُنْدة، لبة، أونبة. وشريش بالإسبانية jerez، والخضراء Algezira، ولبلة Niebla.

(٨) في طبعة عبد الحميد: «شنت رية».

صَنَم[١] قادس مفتاح، ولـمّا ثار بقادس ابن أُخت القائد أبي عبد الله بن مَيمون ـ وهو علي ابن عيسى قائد البحر بها ـ ظَنّ أنّ تحت الصنم مالاً فهدَمهُ فلم يجد شيئًا، انتهى. وهي ـ أعني جزيرة قادس ـ في البحر المحيط؛ وفي البحر المحيطِ الجزائر الخالدات السبع، وهي غربي مدينة سَلاَتلوح للناظر في اليوم الصاحي الخالي الجوّ من الأبخرة الغليظة، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين، تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها. وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات، وفيها من المدن والقُرَى ما لا يُحْصَى، ومنها يخرج قومٌ يقال لهم المجوس على دين النصارى: أولها جزيرة برطانية، وهي بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الأندلس، ولا جبال فيها، ولا عيون، وإنما يشربون من ماء المطر، ويزرعون عليه.

قال ابن سعيد: وفيه جزيرة شَلْطيش[٢]، وهي آهلة وفيها مدينة، وبحرها كثير السمك، ومنها يُحْمَلُ مُمَلَّحًا إلى إشبيلية، وهي من كورة لَبْلَة[٣] مضافة إلى عمل أونَبَة، انتهى.

وقال بعضهم، لما أجرى ذكر قَرْطَاجنة من بلاد الأندلس: إن الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمَطْرةٍ واحدة، وبها أقواس من الحجارة المقربصة[٤]، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحيّر البصر والبصيرة، ومن أعجب بنائها الدواميس[٥]، وهي أربعة وعشرون على صفٍّ واحد من حجارة مقربصة، طولُ كل داموس مائةٌ وثلاثون خطوة في عرض ستّين خطوة، وارتفاع كل واحد أكثر من مائتي ذراع، بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض في العلوّ الشاهق بهندسة عجيبة وإحكام بديع، انتهى.

---

(١) هو الصنم الذي بناه أركلش أحد قواد الروم الإغريقيين على زمان موسى عليه السلام. الروض المعطار (ص ٤٤٨).

(٢) شلطيش: بالإسبانية Saltes، وهي جزيرة بالأندلس بقرب مدينة لبلة. وهي اليوم من مديرية ولبة Huelva. الروض المعطار (ص ٣٤٣).

(٣) لبلة: بالإسبانية Niebla، وهي مدينة قديمة في غرب الأندلس. الروض المعطار (ص ٥٠٧).

(٤) الحجارة المقربصة: أي المحكمة البناء؛ يقال: قربص البَنّاءُ البيت إذا قاس طوله وعرضه ليساوي بين كل حائط وما يقابله. محيط المحيط (قربص).

(٥) الدواميس: جمع داموس وهو القُتْرَة (ما يُبْنَى كالبيت)، وهو هنا بمعنى حوض الماء. محيط المحيط (دمس) و(قتر).

قلت: أظن هذا غلطًا؛ فإن قَرْطَاجنة التي بهذه الصفة قرطاجنة إفريقية[1]، لا قرطاجنة الأندلس، واللّه أعلم.

وقال صاحب مناهج الفكر، عندما ذكر قَرْطَاجنة: وهي على البحر الرومي مدينة قديمة بقي منها آثار، لها فحص طوله ستة أيام وعرضه يومان معمور بالقرى، انتهى.

وذكر قبل ذلك في لُورَقَةَ أنّ بناحيتها يُوجَدُ حَجَرُ اللازَوَرْد. وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا[2] مَيُورقة ومَنُورقة، وبينهما خمسون ميلاً، وجزيرة مَيُورقة مسافة يوم، بها مدينة حسنة، وتدخلها ساقية جارية على الدوام، وفيها يقول ابن اللَّبَّانة[3]: [الكامل]

بَلَد أعَارَتْهُ الحَمامَةُ طَوْقَهَا ... وكَسَاهُ حُلَّةَ رِيشِهِ الطاووسُ
فكأنَّما الأنهارُ فيه مُدَامةٌ ... وكأنَّ ساحاتِ الديارِ كؤوسُ

وقال يخاطب ملكها[4] ذلك الوقت: [الكامل]

وغَمَرْتَ بالإحسانِ أرضَ مَيُورَقَةٍ ... وبَنَيْتَ ما لم يَبْنِهِ الإسْكَنْدَرُ

وجزيرة يابسة.

واستقصاءُ ما يتعلّق بهذا الفصل يطول، ولو تُتُبِّعَ لكان تأليفًا مستقلاً، وما أحسن قول ابن خَفَاجَةَ[5]: [الكامل]

---

(١) المقري هنا على صواب؛ لأن ما قيل عن قرطاجنة هنا ليس لقرطاجنة الأندلس، بل هو مطابق لقرطاجنة إفريقية، وهذا ما رأيناه في الروض المعطار (ص ٤٦٣).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «جزيرتي».

(٣) هو أبو بكر محمد بن عيسى الداني، المشهور بابن اللبانة، نسبة إلى أمه التي كانت تبيع اللبن. كان شاعر المعتمد بن عباد بإشبيلية. توفي بميورقة سنة ٥٠٧ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ٤٠٩) وقلائد العقيان (ص ٢٤٤) والذخيرة (ق ٣ ص ٦٦٦) والمطرب (ص ١٧٨) وفوات الوفيات (جـ ٤ ص ٢٧). وورد هذان البيتان في المغرب (جـ ٢ ص ٤٦٦) وجاء فيه: «قيعان» بدل «ساحات». ووردا في ديوان ابن حمديس (ص ٥٥٣) وصدر البيت الثاني ببعض الاختلاف عمّا هنا. وسيأتيان في الجزء التاسع من نفح الطيب ببعض الاختلاف في البيت الأول.

(٤) صاحب ميورقة زمن ابن اللبانة هو ناصر الدولة مبشر بن سليمان. وقد ورد هذا البيت في المطرب (ص ١٧٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد اللّه بن خفاجة؛ شاعر أندلسي، من أعيان جزيرة شقر، وتوفي بها سنة ٥٣٣ هـ. قلائد العقيان (ص ٢٣٠) والمطرب (ص ١١١) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٦٧) =

إنَّ لـلـجَـنَّـةِ بـالأنـدُلُـسِ مُـجْـتـلَـى حُـسْـنٍ ورَيَّـا نَـفَـسِ
فـسَـنَـا صُـبْـحَـتِـهـا مِـنْ شَـنَـبٍ ودُجَـى لـيـلـتِـهـا مـن لَـعَـسِ
وإذا مـا هَـبَّـتِ الـريـحُ صَـبًـا صِـحْـتُ واشَـوْقـي إلـى الأنـدلـسِ

وقال بعضهم في طُلَيطلة: [الكامل]

زادتْ طُلَـيْطلةٌ على ما حَدَّثُوا بَـلَـدٌ عـلـيـه نَـضْـرَةٌ ونَـعـيـمُ
الـلَّـه زَيَّـنَـه فَـوَشَّـحَ خَـضْـرَه نـهـرُ الـمجرّةِ والـغصونُ نـجومُ

ولا حرج إن أَوْرَدْنا هنا ما خاطب به أديبُ الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأميرَ عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي، فإنه مناسب، ونَصُّه: مولاي، أَمْتَعَ اللَّهُ ببقائك الزمانَ وأبناءه، كما ضَمَّ على حُبِّك أحناءهم[1] وأحناءه، وأوصل لك ما شِئتَ من المنّ[2] والأمان، كما نظم قلائدَ فخرك على لَبّة[3] الدهر نَظْمَ الجُمَان، فإنك الملكُ الهمام، والقمرُ التمام، أيامُك غُرَر وحُجُول، وفِرِنْدُ[4] بهائها في صَفحات الدهر يَجُول، أَلْبَسْتَ الرعيةَ بُرُودَ التأمين، فتنافَسَتْ فيك من نفيسٍ ثمين، وتَلَقَّتْ دَعَواتِ خُلْدك لها باليمين، فكم للناس، من أمنٍ بك وإيناس، وللأيام، من لَوْعة فيك وهُيَام، وللأقطار، من لُبَاناتٍ لديك وأوطار، وللبلاد، من قراع على تملّكك لها وجلاد، يَتَمَنَّون شَخْصك الكريم على اللّه ويقترحون، ويغتبقون في رياض ذكرك العاطر بمُدام حبك ويصطبحون، ﴿كلُّ حِزْبٍ بما لديهمْ فَرِحُون﴾[5]، محبةً من اللّه ألقاها لك حتى على الجماد، ونَصْرًا مؤزّرًا تنطق به ألسنةُ السيوف على أفواه الأغماد، ومَنْ أَسَرَّ سريرة ألبسه اللّه رداءها، ومَنْ طوى حسن نية ختم اللّهُ له بالجميل إعادتها وإبداءها، ومَنْ قدّم صالحًا فلا بُدَّ أن يوازيه، ومَنْ يفعل الخير لا يعدم جَوَازيه[6]. ولـمَّا تخاصَمَتْ فيك من الأندلس الأمصار، وطال

= والذخيرة (ق ٣ ص ٥٤١) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ٥٦). وسترد هذه الأبيات في هذا الجزء من نفح الطيب وفي الجزء الخامس. وهي في ديوان ابن خفاجة (ص ١٥١) باختلاف يسير عمّا هنا.

(١) الأَحْناءُ: جمع حِنْو وهو كلُّ ما فيه اعوجاج من البدن، والمراد هنا الصَّدْر. القاموس المحيط (حنو).

(٢) في طبعة دار صادر: «ووصل لك ما شئت من اليُمْن والأمان. . .».

(٣) اللَّبَّةُ: المَنْحَرُ. مختار الصحاح (لبب).

(٤) الفِرِنْدُ: السَّيْف. مختار الصحاح (فرند).

(٥) سورة الروم ٣٠، الآية ٣٢.

(٦) الجوازي: جمع جزاء وهو الثواب، وهذا صدر بيت للحطيئة وهو: [البسيط] =

بها الوقوفُ على حبك والاقتصار، كلُّها يُفصِح قولا، ويقول: أنا أحقّ وأولىٰ، ويُصِيخ إلى إجابة دعوته ويُصْغِي، ويتلو إذا بُشِّر بك ﴿ذلك ما كنَّا نَبْغِ﴾[1]، تَنَمَّرَتْ حمصُ غيظًا[2]، وكادت تفيظ فَيْظًا[3] وقالت: ما لهم يزيدون وينقصون، ويطمعون ويحرصون، ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُون﴾[4]. لي[5] السَّهمُ الأسدّ، والساعد الأشَدّ، والنهر، الذي يتعاقب عليه الجَزْرُ والمدّ، أنا مصر الأندلس والنِّيلُ نهري، وسمائي[6] التأنُّس والنجوم زهري، إنْ تجاريتم في ذلك الشرف، فحسبي أن أفيض في ذلك الشرف[7]، وإن تبجحتم بأشرف اللبوس، فأي إزار اشتملتموه كشنتبوس، لي ما شئت من أبنية رِحاب، وروضٍ يستغني بنَضْرته عن السَّحاب، قد ملأت زهراتي وِهَادا ونِجَادًا، وتوشَّحَ سيد نهري بحدائقي نِجَادا، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحَق، ﴿الآن حَصْحَصَ الحَقُّ﴾[8].

فَنَظَرَتْها قرطبة شَزْرَا، وقالت: لقد كَثُرْتِ نَزْرًا[9]، وبَذَرْتِ في الصخر الأَصَمِّ بزرا، كلامُ العِدَى ضَرْبٌ من الهذيان[10]، وأنَّى للإيضاح والبيان، متى استحال المستقبَحُ مستحسنا، ومَن أودع أجفان المهجور وَسَنا، ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[11]. يا عجبًا للمراكز تُقَدَّم على الأسنّة، وللأثفار تفضَّل على الأعِنَّة، إن ادَّعَيْتُم سبقا، فمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى، لي البيت المطهر الشريفُ، والاسم الذي ضَرَبَ عليه رِوَاقَهُ التعريفُ، في

=
مَن يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ

لسان العرب (جوز).

(1) سورة الكهف ١٨، الآية ٦٤. وفي طبعة عبد الحميد: «نبغي».

(2) تَنَمَّرَتْ: غضبت وتشبّهت بالنَّمِر؛ لأن النمر لا يُلْقَى إلاّ غضبان. محيط المحيط (نمر).

(3) تفيظ فَيْظًا: تموت. محيط المحيط (فيظ).

(4) سورة يونس ١٠، الآية ٦٦.

(5) في طبعة عبد الحميد: «ألهم».

(6) في طبعة دار صادر: «وسماء».

(7) أي في «شرف إشبيلية» وقد تقدّم الحديث عنه.

(8) سورة يوسف ١٢، الآية ٥١.

(9) النَّزْرُ: القليل التافه. مختار الصحاح (نزر).

(10) هذا من قول المتنبي من ٢٧ بيتًا: [الطويل]

ولِلّهِ سِرٌّ في عُلاكَ وإنَّما   كلومُ العِدَى ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

(11) سورة فاطر ٣٥، الآية ٨.

بقيعي محل الرجال الأفاضل، فليرغم أنف المناضل، وفي جامعي مشاهد ليلة القدر، فحسبي من نَبَاهة القدر، فما لأحدٍ أن يستأثر عليَّ بهذا السيد الأعلى، ولا أرضى [1] له أن يوطىء غيرَ ترابي نَعْلا، فأقِرُّوا لي بالأبوّة، وانقادوا[2] لي على حكم البنوَّة، ﴿ولا تكونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾[3]، وكُفُّوا عن تباريكم، ﴿ذلكُمْ خَيْرٌ لكمْ عِنْدَ باريكم﴾[4].

فقالت غَرْناطة: لي المعقل الذي يمتنع ساكِنُهُ من النجوم، ولا تجري إلاَّ تحته جِيَادُ الغيث[5] السَّجوم، فلا يلحقني مِنْ مُعَانِدٍ ضَرَرٌ ولا حَيْف، ولا يهتدي إليَّ خيالٌ طارق ولا طيف، فاستسلموا قولاً وفعلا، فقد أفلح اليومَ مَنِ اسْتَعْلَى، لي بِطاح تقلَّدت من جداولها أسلاكًا، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكًا، ومياه تسيل على أعطافي كأدمع العشاق، وبرد نسيم يردّ ذَماء[6] المستجير بالانتشاق، فَحُسْني لا يطمع فيه ولا يحتال، فدعوني فكل ذات ذيل تختال، فأنا أولى بهذا السيِّد الأعدل، وما لي به من عِوَض ولا بدل، ولِمَ لا يعطف عليَّ عِنان مجده ويَثْنِي، وإن أنشد يومًا فإياي يَعْني: [الطويل]

بلادٌ بِهَا عَقَّ الشبابُ تمائمي[7]   وأولُ أرضٍ مَسَّ جلدي تُرَابُهَا

فما لكم تعتزُون لفخري وتنتمون، وتتأخرون في ميداني وتتقدمون، تبرءوا إليَّ مما تزعمون، ﴿ذلِكُمْ خَيرٌ لكمْ إنْ كنتمْ تَعْلَمُون﴾[8].

فقالت مالقة: أتتركوني بينكم هَمَلا، ولم تعطوني في سيدنا أملا، ولِمَ ولي البحرُ العجاج، والسبُلُ الفِجاج، والجَنّات الأثيرة، والفواكه الكثيرة، لديَّ من البَهْجَة ما تستغني

---

(١) في طبعة دار صادر: «ولا أرتضي».
(٢) في طبعة دار صادر: «وانقادوا على».
(٣) سورة النحل ١٦، الآية ٩٢.
(٤) سورة البقرة ٢، الآية ٥٤. وفي طبعة عبد الحميد: «ذلك» بدل «ذلِكُمْ».
(٥) في طبعة دار صادر: «الغيم» بدل «الغيث».
(٦) الذَّمَاء، بالفتح: بقيّة الروح في المذبوح. مختار الصحاح (ذمأ). وفي طبعة عبد الحميد: «دماء» بالدال المهملة.
(٧) عَقَّ الشبابُ تمائمي: قَطَعَها، والتمائم: جمع تميمة وهي خرزات كان الأعراب يعلّقونها على أولادهم يتّقون بها النَّفس أي العَيْنَ بزعمهم. محيط المحيط (عقق) و(تمم).
(٨) سورة التوبة ٩، الآية ٤١.

به الحَمامُ عن الهَدِيل، ولا تجنَحُ الأنفسُ الرقاق الحواشي إلى تعويض عنه ولا تبديل، فما لي لا أُعطي في ناديكم كلامًا، ولا أنْشُرُ في جيش فخاركم أعلامًا؟

فكأن الأمصار نظرتها ازدراء، فلم تَرَ لحديثها في ميدان الذكر إجراء، لأنها مَوْطِن لا يحلى منه بطائل، ونظن البلاد تأوَّلَتْ فيها قول القائل: [الوافر]

إذا نَطَقَ السفيهُ فلا تُجِبْهُ   فخيرٌ من إجابته السُّكُوتُ

فقالت مُرْسِية: أمامي تتعاطَونَ الفَخْرَ، وبحضرة الدُّرِّ تُنَفِّقون الصخر[1]؟ إنْ عُدَّتِ المفاخرُ، فلي منها الأول والآخرُ، أين أوشالُكم[2] من بَحْرِي، وخَرَزكم من لؤلؤ نَحْرِي، وَجَعْجَعَتُكم[3] مِنْ نَفَثَاتِ سِحْرِي؟ فلي الروض النَّضير، والمرأى الذي ما له من نظير، وزنقاتي[4] التي سار مَثَلُها في الآفاق، وتَبَرْقَعَ وَجْهُ جمالها بغُرَّة الإصفاق، فمن دَوْحات، كم لها من بكور وَرَوحات، ومن أرجاء، إليها تُمَدُّ أيدي الرجاء، فأبنائي فيه[5] في الجنة الدنيوية مُودعون، يتنعمون فيما يأخذون ويَدَعُون، ولهمْ فيها ما تشتهي أنْفُسُهُمْ ولهم فيها ما يَدَّعُون. فانقادوا لأمري، وحاذروا اصطلاء جمري، وخلُّوا بيني وبين سيدنا أبي زيد، وإلاَّ ضَرَبْتُكُمْ ضَرْبَ زيد[6]، فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم، ﴿وما يُلَقَّاها إلاَّ ذو حَظٍّ عظيم﴾[7].

فقالت بَلَنْسِيَة: فيمَ الجدال والقِراع؟ وعَلامَ الاستهام والاقتراع؟ وإلامَ التعريضُ والتصريح؟ وتحت الرَّغْوة اللبنُ الصريح[8]، أنا أحوزه من دونكم، فأخمدوا نارَيْ تحرككم وهدونكم، فلي المحاسن الشامخة الأعلام، والجَنَّات التي تُلْقي إليها الآفاقُ يَدَ

---

(١) تُنَفِّقونَ الصَّخرَ: أي تجعلونه نافقًا رائجًا. لسان العرب (نفق).

(٢) الأوشال: جمع وَشَل وهو الماء القليل يَتَحَلَّبُ من جبل أو صخرة. القاموس المحيط (وشل).

(٣) الجعجعة: صوت الرَّحى، ومنه المثل: إني أسمع جَعْجَعَةً ولا أرى طحنًا، يُضرَب للبخيل يَعِدُ ولا ينجز. محيط المحيط (جعجع).

(٤) الزنقات من متفرّجات مرسية. المغرب (جـ ٢ ص ٢٤٦). وفي طبعة عبد الحميد: «رتقاتي».

(٥) في طبعة دار صادر: «فيها» بدل «فيه».

(٦) يشير هنا إلى قول النحاة: «ضرب زيد عمرًا».

(٧) سورة فُصِّلَتْ ٤١، الآية ٣٥.

(٨) اللَّبَنُ الصريحُ: الذي ذهبت رَغْوَتُه. وقوله: تحت الرغوة اللبن الصريح أي إن الظاهر لا يحجب الحقيقة، وفي المثل: «برز الصريحُ بجانب المَتْن»، يضرب هذا للأمر الذي وَضَحَ. لسان العرب (صرح).

الاستسلام، وبرُصافتي وجِسْري أعارض مدينة السلام[1]، فأجْمِعوا على الانقياد لي والسلام، وإلاَّ فَعَضُّوا بنانا، واقْرَعُوا أسنانا، فأنا حيث لا تدركون وأنَّى، ومولانا لا يُهْلِكُنا بما فعل السفهاء منّا.

فعند ذلك ارتمت جَمْرَةُ تُدْمِيرَ بالشَّرار، واستدَت[2] أسهُمها لنحور الشِّرار، وقالت: عِشْ رَجَبا، تَرَ عَجَبا[3]، أَبَعْدَ العصيانِ والعقوق، تتهيَّأَنَ لرُتَبِ ذوي الحقوق؟ هذه سماء الفخر فمن ضَمَّنَكِ[4] أن تعرجي، ليس بعُشِّك فادرجي[5]، لك الوَصَبُ والخَبْلُ[6]، ﴿الآنَ وقد عَصَيتَ قَبْلُ﴾[7]. أيتها الصانعة الفاعلة، مَنْ أدّاكِ أن تُطِرِّي وما أنت ناعلة[8]؟ ما الذي يُجْدِيك الروضُ والزَّهْرُ؟ أم ما يفيدك الجدول والنهر؟ وهل يُصْلِحُ العَطّارُ ما أَفْسَدَ الدَّهْرُ[9]؟ هل أنتِ إلاّ مَحَطُّ رحل النفاق، ومنزلٌ ما لِسُوقِ الْخَصْبِ فيه من نَفَاق؟ ذَرَاكِ لا يكتحل الطرفُ فيه بهجوع، وقِرَاكِ لا يُسْمِنُ ولا يغني من جوع، فِإلامَ تبرز الإماء في منصّة العقائل[9]؟ ولكن اذكري قول القائل[10]: [الطويل]

---

(١) هنا إشارة إلى أن بلنسية اشتهرت برصافتها وجسرها، فعارض بذلك بغداد مدينة السلام التي اشتهرت بدورها برصافتها وجسرها على حدِّ قول شاعرها علي بن الجهم المتوفَّى سنة ٢٤٩ هـ: [الطويل]

عيونُ المَهَا بين الرصافة والجسرِ جَلَبْنَ الهَوَى من حيث أدري ولا أدري

معجم البلدان (جـ ٣ ص ٤٦).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «واشتدّت» بالشين المعجمة.

(٣) «عِشْ رَجَبًا تَرَ عَجَبًا»: مثلٌ يُضْرَبُ في الوعيد بعد حِين. محيط المحيط (رجب).

(٤) في طبعة دار صادر: «ضمَّك».

(٥) قوله: «ليس بِعُشِّكِ فادرجي» مثل يُضرَب لـمَن يتعاطى ما لا ينبغي له، أي ليس لك فيه حقّ فامضي. محيط المحيط (عشش).

(٦) الوَصَب، بالفتح: المرض. الخَبْلُ، بفتح الخاء وسكون الباء: الفساد. مختار الصحاح (وصب) و(خبل).

(٧) سورة يونس ١٠، الآية ٩١.

(٨) في طبعة عبد الحميد: «مَن أدراك أن تَضربي وما أنت فاعلة؟»، وهذا خطأ؛ لأنه مَثَلٌ: «أَطِرِّي فإنك ناعلةٌ»، أي خذي طُرَر الوادي وهي نواحيه، واجمعي الإبل فإنَّ عليك نَعْلَين، يريد خشونة رِجْلها، محيط المحيط (طرر).

(٩) هذا من قول الشاعر: [الطويل]

عَـجُـوزٌ تَـرَجَّـى أن تـكـونَ فـتـيَّـةً وقد لَـحِبَ الجَنْبانِ واحْدَوْدَبَ الظَّهْرُ

تـروح إلـى الـعـطـار تـبـغـي صلاحَـهـا وهل يُصْلِحُ العَطّارُ ما أَفْسَدَ الدَّهْرُ

محيط المحيط (لحب).

(١٠) سيلمح المقري في هذا الجزء إلى هذين البيتين، وينسبهما إلى أبي عبد الله بن عياش. وفي معجم البلدان (جـ ١ ص ٤٩١) ينسبهما ياقوت إلى ابن حريق، ووردا باختلاف يسير عمّا هنا.

بَلَنسِيَةٌ بِينِي عن القَلْبِ سَلْوَةً فإنَّكِ رَوضٌ لا أحِنُّ لِزَهْرِكِ
وكَيفَ يُحِبُّ المرءُ دارًا تقسَّمَتْ على صارمَيْ جُوعٍ وفتنةِ مُشرِكِ؟

بَيْدَ أني أسأل اللّه تعالى أنْ يُوقِدَ من توفيقك ما خمد، ويُسِيل من تسديدك ما جَمَد، ولا يُطِيل عليك في الجهالة الأمد، وإيّاه سُبْحانه نسأل أن يردَّ سيدنا ومولانا إلى أفضل عوائده، ويَجْعَلَ مصائب أعدائه من فوائده، ويُـمَكِّن حُسَامَه من رقاب المشغِّبين، ويُبْقِيه وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين، ويَصِلَ له تأييدًا وتأبيدًا، ويُـمَهِّدَ له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيدًا، ويمدّ على الدنيا سَعْده، ويَهَبَهُ مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده: [البسيط]

آمِـينَ آمِـينَ لا أرْضَىٰ بـواحِـدَةٍ حَتَّى أُضِيفَ إليهَا ألفَ آمينا[1]

ثم السلام الذي يتأنّق عَبَقًا ونَشْرا، ويتألّق رَوْنَقًا وبِشرا، على حضرتهم العليّة، ومطالع أنوارهم السنيّة الجليّة، ورحمة اللّه تعالى وبركاته، انتهى.

ولما أَلَـمَّ الرحّالةُ ابنُ بَطوطة في رحلته بدخوله بلاد[2] الأندلس ـ أعادها اللّهُ تعالى للإسلام! ـ قال[3]: فوصَلْتُ إلى بلاد الأندلس ـ حرسها اللّه تعالى! ـ حيث الأَجْرُ موفورٌ للساكن، والثوابُ مذخورٌ للمقيم والظاعن، إلى أن قال عند ذكره غَرناطة ما نَصُّه[4]: قاعدةُ بلاد الأندلس، وعروسُ مدنها، وخارجُها لا نظيرَ له في الدنيا، وهو مسيرةُ أربعين مِيلاً، يخترقه نهرُ شِنِيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتينُ[5] الجليلة، والجنّات والرياضات والقصور، والكُرُوم مُـحْدِقةٌ بها من كل جهة، ومن عجيب مواضعها عَينُ الدمع، وهو جبل فيه الرياضات والبساتين، لا مثل له بسواها، انتهى.

وقال الشقندي: غَرناطة دمشقُ بلاد الأندلس، ومَسْرَح الأبصار، ومَطْمحُ الأنفس، ولم تَخْلُ من أشرافٍ أماثِلَ، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن بها إلاّ ما خصّها

---

(١) سيأتي هذا البيت في الجزءين الثالث والتاسع من نفح الطيب.
(٢) في طبعة دار صادر: «البلاد الأندلس».
(٣) ورد هذا النص: «فوَصلْتُ حتى... والظاعن» في رحلة ابن بطوطة (ص ٦٦٥).
(٤) ورد هذا النص في رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٠) باختلاف يسير عمّا هنا.
(٥) كلمة «الجليلة» ساقطة في طبعة دار صادر، وساقطة في رحلة ابن بطوطة أيضًا.

اللّهُ تعالى به من كونها قد نَبَغَ فيها النساء الشواعر كَنزهُونَ القلعية[1] والرَّكُونية[2] وغيرهما، وناهيك بهما في الظَّرْف والأدب، انتهى.

ولبعضهم يتشوَّق إلى غَرْناطة فيما ذكره بعض المؤرخين، والصواب أن الأبيات قيلت في قُرْطُبة كما مرّ[3]، واللّه أعلم: [الطويل]

أغَرْناطَةُ الغرّاءُ هل لِيَ أَوْبَةٌ إليكِ؟ وهل يَدْنُو لنا ذلك العَهْدُ؟
سَقَى الجانبَ الغربيَّ منكِ غَمَامَةٌ[4] وقَعْقَع في ساحات رَوْضتك الرَّعْدُ؟
لياليك أسحارٌ، وأرضُكِ جَنَّةٌ، وتُرْبُكِ في استنشاقها عَنْبَرٌ وَرْدُ

وقال ابن مالك الرُّعَيْني: [الطويل]

رَعَى اللّهُ بالحمرَاءِ عَيشًا قَطَعْتُهُ ذَهَبْتُ به للأنس، والليلُ قد ذَهَبْ
ترى الأرضَ منها فِضَّةً فإذا اكْتَسَتْ بشَمْسِ الضُّحى عادَتْ سبيكَتُها ذَهَبْ

وهـو القائل: [الرمل]

لا تَظُنُّوا أَنَّ شَوقي جَمَدا بَعْدَكُمْ أو أَنَّ دمعي جَمَدا
كيفَ أسلو عن أُناسٍ مِثْلُهُمْ قَلَّ أنْ تُبْصِرَ عَيْني أحَدًا

وغرناطةُ من أحسن بلاد الأندلس، وتسمَّى بدمشق الأندلس؛ لأنها أشبه شيء بها، ويَشُقُّها نهر حَدَرُّه[5]، ويُطِلُّ عليها الجبل المُسَمَّى بشُلَير الذي لا يَزُول الثلجُ عنه شتاءً وصيفًا، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصَّلْد، وفي أعلاه الأزاهر الكثيرة، وأجناسُ

---

(١) نزهون بنت القلاعي أو القليعي، من أهل غرناطة. شاعرة ماجنة كثيرة النوادر، خفيفة الروح، جميلة. توفيت نحو ٥٥٠ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ١٢١) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٢١٦) وبغية الملتمس (ص ٥٤٦). وسيترجم لها المقري في الجزء السادس من نفح الطيب.

(٢) هي حفصة بنت الحاج الركونية الأندلسية؛ شاعرة من أهل غرناطة، توفيت بمراكش سنة ٥٨٦ هـ. الأعلام (جـ ٢ ص ٢٦٤ ومصادر الحاشية) وسيترجم لها المقري في الجزء الخامس من نفح الطيب.

(٣) مرّ ذلك في هذا الجزء.

(٤) في طبعة دار صادر: «غمائم» بدل «غمامة».

(٥) نهر حَدَرُّه، بفتح الحاء والدال وضمّ الراء المشدّدة: نهر مشهور بالأندلس، ويسمّى نهر الذهب، واسمه بالإسبانية اليوم Darro. معجم البلدان (جـ ٤ ص ١٩٥) والروض المعطار (ص ٤٥) وكتاب الجغرافيا (ص ١٦٧).

الأفاويه الرفيعة، ونَزَلَ بها أهلُ دمشق لَـمَّا جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور، وقرى غَرْنَاطة ـ فيما ذكر بعض المتأخرين ـ مائتان وسبعون قرية.

وقال ابن جُزَيّ مرتِّبُ رحلة ابن بطوطة، بعد ذكر كلامه، ما نَصُّهُ: قال ابن جزي[1]: لولا خشية أنْ أُنسَبَ إلى العَصَبيّة لأَطَلْتُ القول في وصف غَرْناطة، فقد وَجَدْتُ مكانه، ولكنَّ ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه. ولله دَرُّ شيخنا أبي بكر بن محمد بن شيرين السبتي نزيل غَرْناطة حيث يقول: [الطويل]

رَعَى اللّـهُ مِنْ غَـرْناطةٍ مُتَبَـوَّأً ... يَسُـرُّ حزينًـا أو يُـجيرُ طَـريـدَا
تَبَرَّمَ منها صاحِبِي عندَمَا رَأى ... مَسَارِحَهَا بالثلج عُدْنَ جَليدَا
هيَ الثَّغْرُ صان اللّهُ مَنْ أَهِلَتْ به ... وما خَيْرُ ثغرٍ لا يكون بَرُودَا!؟

وقال ابن سعيد عندما أجرى ذكر قرية نارجة ـ وهي قرية كبيرة تضاهي المدن، قد أَحْدَقَتْ بها البساتين، ولها نهر يفتن الناظرين، وهي من أعمال مالَقَةَ ـ: إنّه اجتاز مرة عليها مع والده أبي عمران موسى، وكان ذلك زمانَ صباغة الحرير عندهم، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطّعاته خيمًا، وبعضهم يغني ويطرب، وسألوا: بِمَ يُعْرَفُ ذلك الموضع؟ فقالوا: الطراز، فقال والدي: اسمٌ طابَقَ مُسَمّاه، ولفظٌ وافق معناه[2]: [البسيط]

وقَدْ وَجَدْتَ مَكان الْقَولِ ذَا سَعَةٍ ... فإنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قائلاً فَقُلِ

ثم قال أجِـزْ: [الطويل]

بنارِجَةٍ حيث الطرازُ المُنَمْنَمُ
فقلت : أقِمْ فَوقَ نهرٍ ثَغْرُه يَتَبَسَّمُ
فقال : وسَمْعُك نحو الهاتفاتِ[3] فإنها

---

(١) هذا النص في رحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٠) وجاء فيه: «...شيخنا أبي بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستي...». كما وردت فيه الأبيات ص (٦٧٠ ـ ٦٧١) دون تغيير عمّا هنا. وترجم له ابن الخطيب والنباهي وقالا: أبو بكر محمد بن أحمد الجذامي، المعروف بابن شَبْرين السبتي، هو قاضي غرناطة، وأوردا له الأبيات المذكورة.
(٢) سيرد هذا البيت في الجزء الرابع من نفح الطيب.
(٣) الهاتفات: جمع هاتفة، وأراد بها هنا الحمامة المغرّدة.

فقلت : لـمـا أبـصـرت مـن بَـهْـجَـةٍ تَـتَـرَنَّـمُ
فقال : أيـا جَـنَّـةَ الـفـردوسِ لـسـتُ بـآدم
فقلت : فـلا يَـكُ حَـظِّي مـن جَـنَـاك الـتـنـدُّمُ
فقال : يـعـزُّ عَـلَـيـنَـا أنْ نـزورك مـثـل مـا
فقلت : يـزول خـيـالٌ مـن سُـلَـيْـمَـى مُـسَـلِّـمُ
فقال : فـلـو أنـنـي أُعْـطَـى الـخـيـارَ لـمـا عَـدَتْ
فقلت : مـحَـلُّـك لـي عَـيـنٌ بـمَـرْآكِ تَـنْـعَـمُ
فقال : بـحـيـثُ الـصَّـبَـا والـطَّـلُّ مِـنْ نَـفَـثَـاتـهـا
فقلت : وَقَـتْ لَـسْـع رَوْضٍ فـيـهِ لـلـنـهـرِ أرْقَـمُ[1]
فقال : فـوا أسَـفِـي إن لـم تـكـن لـي عَـودَةٌ
فقلت : فـكُـنْ مـالـكًـا إنـي عـلـيـك مُـتَـمِّـمُ
فقال : فـأحْـسَـبُ هـذا آخِـرَ الـعـهـدِ بـيـنـنـا
فقلت : وقَـدْ يـلـحـظُ الـرَّحْـمٰـنُ شـوقـي فَـيَـرْحَـمُ
فقال : سَـلامٌ سَـلامٌ لا يَـزَالُ مُـرَدَّدا
فقلت : عـلـيـك ولا زالت بـك الـسُّـحْـبُ تَـسْـجُـمُ

وقال ابن سعيد[2]: إن كورة بلَنسية من شرق الأندلس ينبت[3] بها الزعفران، وتُعْرَفُ بمدينة التراب، وبها كمثرى تسمّى الأرزة في قدر حبّة العنب، قد جَمَعَ مع حلاوة الطعم[4] ذكاء الرائحة، إذا دخل دارًا عُرف بريحه، ويقال: إن ضوء بَلَنْسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس، وبها مَنَارة[5] ومسارح، ومن أبدعها وأشهرها الرُّصَافة ومُنْية ابن أبي عامر.

وقال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغَرْنَاطي من أبيات فيها: [الوافر]

هِيَ الفِرْدَوسُ في الدنيا جَمَالاً   لساكِنِهَا وكَارِهها البَعُوضُ

(١) الأرقم: الحيّة. لسان العرب (رقم).
(٢) ورد بعض هذا النص في المغرب (جـ ٢ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨).
(٣) في طبعة دار صادر: «الأندلس تنبت الزعفران...».
(٤) في طبعة دار صادر: «المطعم».
(٥) في طبعة دار صادر: «منازه».

وقال بعضهم فيها[1]: [المجتث]

ضاقَتْ بَلَنْسِيَةُ بي وذَادَ عَنّي غُمُوضي
رَقْصُ البراغِيثِ فيها عَلَى غِناءِ البَعُوضِ

وفيها لابن الزَّقَّاق البَلَنْسِي[2]: [الوافر]

بَلَنْسِيةٌ - إذا فَكَّرْتَ فيها وفي آياتها - أسْنَى البلادِ
وَأعْظَم شاهِدِي منها عَلَيها وأنَّ جمَالها لِلعَينِ بَادِي
كَسَاها رَبُّها دِيبَاجَ حُسْنٍ لَهَا عَلَمَانِ من بَحْرٍ وَوَادي

وقال ابن سعيد أيضًا: أنشدني والدي قال: أنشدني مَرْوَان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية لنفسه بمراكش قوله[3]: [المتقارب]

كأن بَلَنْسِيَةً كاعِبٌ ومَلْبَسُهَا سُنْدُسٌ أخْضَرُ
إذا جِئْتَهَا سَتَرَتْ نفسَهَا بأكمامِهَا فَهْيَ لاَ تَظْهَرُ

وأما قول أبي عبد الله بن عياش «بلنسية بيني - البيتين» وقد سبقا[4]، فقال ابن سعيد: إن ذلك حيث صارت ثغرًا يُصَابحها العدوّ ويماسيها، انتهى.

وقال أبو الحسن بن حريق[5] يجاوب ابن عياش: [الوافر]

بَلَنْسِيَةٌ قَرَارَةُ كلِّ حُسْنٍ حَدِيثٌ صَحَّ في شَرْقٍ وغَرْبِ

---

(١) قائل هذين البيتين الأستاذ أبو الحسن الحُصْري كما في المطرب (ص ٩٤) وجاء فيه: «حولي» بدل «فيها». كما سيردان في الجزء الرابع من نفح الطيب.

(٢) الأبيات في ديوان ابن الزقاق البلنسي (ص ١٣٩) باختلاف يسير جدًّا عمّا هنا.

(٣) أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن عبد العزيز، صاحب بلنسية في فترة المرابطين؛ قام عليه جُنْد بلده في سنة ٥٣٩ هـ وبايعوا لابن عياض صاحب مرسية، فَحُمِلَ إلى ألمرية ومنها إلى جزيرة ميورقة. المغرب (جـ ٢ ص ٣٠٠ - ٣٠١). والبيتان في معجم البلدان (جـ ١ ص ٤٩١) لأبي العباس أحمد بن الزقاق، وجاء فيه: «وملبسها السندسُ الأخضرُ».

(٤) تقدما.

(٥) هو علي بن محمد بن أحمد بن سلمة بن حريق، شاعر بلنسي متبحّر في اللغة والأدب، حافظ لأشعار العرب. توفي سنة ٦٢٢ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ٣١٨) وفوات الوفيات (جـ ٣ ص ٦٤). وقد وردت هذه الأبيات في المغرب (جـ ٢ ص ٣٢٠) وفي معجم البلدان (جـ ١ ص ٤٩١).

فإنْ قالوا: مَحَلُّ غَلاءِ سِعْرٍ ومَسْقطُ دِيمَتَيْ طَعْنٍ وَضَرْبِ
فَقُلْ هي جَنَّةٌ حُفَّتْ رُبَاها بِمَكْروهَيْنِ من جُوعٍ وحَرْبِ

وقال الرُّصافي[1] في رُصَافتها: [المتقارب]

وَلاَ كالرُّصافة مِنْ مَنْزِلٍ سَقَتْهُ السحائبُ صَوبَ الولي[2]
أَحِنُّ إليها وَمَنْ لِي بها وَأَيْنَ السَّرِيُّ مِنَ المَوْصِلِ[3]

وقال ابن سعيد: وبرُصَافة بَلَنْسِيَةَ مناظر وبساتين ومياه، ولا نَعلم في الأندلس ما يسمَّى بهذا الاسم إلاّ هذه ورُصافة قُرطبة، انتهى.

ومن أعمال بَلَنْسِيَةَ قرية المَنْصَفِ التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد اللّٰه المَنْصَفيّ وقبره كان بسَبْتة يُزار، رحمه اللّٰه تعالى! ومن نظمه[4]: [السريع]

قالَتْ لِيَ النفْسُ أتاكَ الردَى وأنْتَ في بحرِ الخَطَايَا مُقِيمْ
فما ادَّخَرْتَ الزادَ، قلْتُ: اقْصِرِي هَلْ يُحْمَلُ الزادُ لدارِ الكَرِيمْ

ومن عمل بَلَنْسِيَةَ قرية بَطَرْنة، وهي التي كانت فيها الوقعة المشهورة للنصارى على المسلمين، وفيها يقول أبو إسحق بن يَعْلَى الطُّرَسُوني[5]: [الكامل]

---

(١) هو أبو عبد اللّٰه محمد بن غالب الرصافي، شاعر بلنسية في فترة المرابطين والموحدين. توفي سنة ٥٧٢ هـ. انظر ترجمته في ديوانه بقلم المحقّق الدكتور إحسان عباس. والبيتان في ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٢٤).

(٢) الولي: الدفعة الثانية من المطر وتكون بعد الوسميّ. لسان العرب (ولي).

(٣) في طبعة دار صادر وطبعة عبد الحميد: «المَوْصليّ» بتشديد الياء. وهو غير صحيح؛ لأنه يريد أن يقول: إنّ السّرِيَّ، مثلي، ترك بلده الموصل ولم يعد إليها. وهو أبو الحسن السّرِيُّ بن أحمد بن السَّرِيِّ الكندي الموصلي، المعروف بالرّفّاء؛ لأنه كان في صباه يرفو ويطرز في دكان بالموصل. التحق بسيف الدولة بحلب ثم عاد إلى بغداد فتوفي بها بعيد سنة ٣٦٢ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٣٥٩) وتاريخ بغداد (جـ ٩ ص ١٩٤).

(٤) البيتان في المغرب (جـ ٢ ص ٣٥٤) دون تغيير عمّا هنا. وكنية المَنْصَفيّ فيه «أبو الحجّاج». كما سيردان في الجزء الخامس من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا، وجاءت الكنية أيضًا أبا الحجّاج.

(٥) هو إبراهيم بن مُعَلّى الطُّرَسُوني، نسبة إلى طَرَسُونة إحدى مدن الثغر بالأندلس؛ شاعر مشهور، اشتهر بمدح المقتدر بن هود، صاحب الثغر، وجال على مدن الأندلس، وقد قال هذين البيتين يصف خروج أهل بلنسية للقاء العدو في غير ثياب الحرب، وهزيمتهم بموضع يعرف ببطرنة عام ٤٥٥ هـ. الذخيرة

لَبِسُوا الحديدَ إلى الْوَغَى وَلَبِسْتُمُ حُلَلَ الحريرِ عَلَيكُمُ أَلْوَانَا
ما كان أَقْبَحَهُمْ وأَحْسَنكمْ بها لو لم يَكُنْ بِبَطَرْنَةٍ ما كانَا

ومن عمل بَلَنْسِيَةَ متيطة التي نسب إليها جماعة من العلماء والأدباء.

ومن عمل بَلَنْسِيَةَ مدينة أُنْدَة التي في جَبَلها معدنُ الحديد، وأما رُنْدَة ـ بالراء ـ فهي في متوسط الأندلس، ولها حصن يُعرَف بأندة أيضًا.

وفي إشبيلية ـ أعادها اللّه! ـ من المتفرَّجَات والمتنزهات كثير، ومن ذلك مدينة طَرْيانة، فإنها من مدن إشبيلية ومتنزهاتها، وكذلك تَيْطَل، فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تَيطَل في المتفرجات.

وقال أبو عمران موسى بن سعيد في جوابه لأبي يحيىٰ صاحب سَبْتة لما استوزره مستنصر بني عبد المؤمن، وكتب إلى المذكور يرغّبه في النقلة عن الأندلس إلى مَرّاكش، ما نَصُّ محلِّ الحاجة منه: وأما ما ذكر سيدي من التخيير بين ترك الأندلس وبين الوصول إلى حضرة مراكش، فكفى الفهمَ العالي من الإشارة قولُ القائل: [الكامل]

والعزُّ محمودٌ وَمُلْتَمَسٌ وألَذُّهُ ما كان[1] في الْوَطَنِ

فإذا نِلْتُ بك السماء في تلك الحضرة، فعلى مَنْ أسودُ فيها؟ ومَن ذا أُضاهي بها؟: [الرمل]

لا رَقَتْ بي هِمَّةٌ إنْ لم أكن فيك قد أَمَّلْتُ كلَّ[2] الأملِ

وبعد هذا، فكيف أُفارِقُ الأندلسَ وقد عَلِمَ سيدي أنها جَنَّة الدنيا بما حَبَاها اللّه به من اعتدال الهواء، وعذوبة الماء، وكثافة الأفياء، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قُرّة عَيْنٍ وقَرَار نفس: [الطويل]

هيَ الأرضُ لا وِرْدٌ لديها مُكَدَّرٌ ولا ظَلَّ[3] مقصورٌ ولا رَوضَ مجدبُ

= (ق ٣ ص ٨٤٠) والمغرب (جـ ٢ ص ٤٥٧). والبيتان في الذخيرة (ق ٣ ص ٨٥٠) دونما تغيير عمّا هنا.

(١) في طبعة دار صادر: «ما نِيلَ».
(٢) في طبعة دار صادر: «فوق الأملِ».
(٣) في طبعة دار صادر: «ولا ظِلّ».

أُفُقٌ صقيل، وبساطٌ مُدَبَّج، وماء سائح، وطائر مترنّم بليل، وكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة؟ فيا سَمَوأل الوفاء[1]، ويا حاتم السماح[2]، ويا جَذِيمة الصفاء[3]، كَمِّلْ لـمَن أَمَّلَكَ النعمة بتركه في موطنه، غير مكدّر لخاطره بالتحرّك من معدنه، متلفّتًا إلى قول القائل[4]: [البسيط]

وَسَـوَّلَـتْ لِـيَ نَـفْـسِـي أَنْ أُفـارِقَـهَـا   والماءُ في المُزْنِ أصفى منه في الغُدُرِ

فإن أغناه اهتمام مؤمّله عن ارتياد الـمَرَاد، وبلّغه دون أن يشدَّ قَتَبًا[5] ولا أن يُنْضِي عِيسًا[6] غاية الـمُرَاد، أنشد ناجِحَ المرغوب، بالغ المطلوب: [الطويل]

ولَـيـسَ الـذي يَـتَّـبِّـعُ الـوَبـلَ رائـدًا   كـمَـنْ جاءه في داره رائِدُ الْوَبْلِ[7]

ورُبّ قائلٍ إذا سمع هذا التبسّط على الأماني: ما له تَشَطَّطَ، وعَدَلَ عن سبيل التأدّب وتَبَسَّطَ؟ ولا جواب عندي إلاّ قولُ القائل[8]: [البسيط]

فَـهٰـذِهِ خُـطَّـةٌ مـا زِلْـتُ أَرْقَـبُـهـا   فـالـيـومَ أَبْـسُـطُ آمـالِـي وَأَحْـتَـكِـمُ

وما لي لا أنشد ما قاله المتنبي في سيف الدولة[9]: [المتقارب]

---

(١) هو السموأل بن غريض بن عادياء الأزدي، الشاعر الجاهلي الحكيم، وبه يُضرَب المثل في الوفاء؛ لأنه رضي بقتل ابنه ولم يخن أمانته. معاهد التنصيص (جـ ١ ص ٣٨٨).

(٢) هو حاتم الطائي مضرب المثل في الجود والكرم في العصر الجاهلي. العقد الفريد (جـ ١ ص ٢٨٧).

(٣) هو جذيمة بن مالك بن فهم التنوخي القضاعي، ثالث ملوك الدولة التنوخية في العراق في العصر الجاهلي. كان يقال له «الوضاح» و«الأبرش» لبرص فيه. الأعلام (جـ ٢ ص ١١٤ ومصادر حاشيته).

(٤) هو البيت الحادي عشر من قصيدة من ٤٨ بيتًا قالها الأعمى التطيلي في مدح أبي العلاء بن زهر. ديوان الأعمى التطيلي (ص ٤٩). والأعمى التطيلي هو أبو جعفر وأبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي هبيرة، الشاعر الوشّاح المشهور. توفي سنة ٥٢٥ هـ. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه، بقلم المحقق الدكتور إحسان عباس.

(٥) القَتَبُ، بالفتح: إكاف البعير، أي الرَّحْل. لسان العرب (قتب).

(٦) العِيس: الإبل. مختار الصحاح (عيس).

(٧) البيت للمتنبي وهو في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٥٦٢)، وسيرد في الجزء الخامس.

(٨) سيرد هذا البيت في الجزء الثالث من نفح الطيب، وجاء هناك: «رتبة» بدل «خطّة».

سيرد هذا البيت في الجزء الثالث من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا. ولم أعثر عليه في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب. وأبو الطيب المتنبي هو أحمد بن الحسين، شاعر سيف الدولة

(٩) الحمداني، توفي سنة ٣٥٤ هـ. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه بقلم الشيخ ناصيف اليازجي.

وَمَنْ كُنْتَ بَحْرًا له يا علـيّ لـم يَـقْـبَـلِ الـدُّرَّ إلاّ كِـبَـارَا

انتهى المقصود منه.

وقال الحجاري: إن مدينة شَرِيشَ[1] بنت إشبيلية، وواديها ابن واديها، ما أشبه سعدى بسعيد، وهي مدينة جليلة ضخمة الأسواق، لأهلها هِمَمٌ، وظرف في اللباس، وإظهار الرفاهية، وتخلُّقٌ بالآداب، ولا تكاد ترى بها إلاّ عاشقًا أو[2] معشوقًا، ولها من الفواكه ما يعمّ ويفضل، وممّا اختصّت به إحسان الصنعة في المجبنات، وطِيبُ جبْنها يعين على ذلك، ويقول أهل الأندلس: مَن دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم، انتهى.

والمجبنات: نوع من القطائف يضاف إليها[3] الجبن في عجينها، وتُقلَى بالزيت الطيب.

وفي شِلْبَ[4] يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو بن مالك بن سَبْدَمير[5]: [الخفيف]

أَشَجَاكَ النسيمُ حين يَهُبُّ أم سَنَى البَرْقِ إذ يَخُبُّ ويَخْبُو
أم هَتوفٌ على الأراكةِ تَشْدُو أم هَتُونٌ من الغمامَةِ سَكْبُ
كلُّ هٰذاكَ للصَّبابةِ داعٍ أيُّ صبّ دُمُوعُه لا تَصُبُّ
أنا لَوْلاَ النسيمُ والْبَرْقُ والْوُرْ قِ[6] وصَوْبُ الغمام ما كنتُ أصْبُو
ذَكَّرَتْنِي شِلبًا، وهيهاتَ مِنّي بَعْدَما اسْتَحْكَمَ التَّباعُدُ، شِلْبُ

وتسمى أعمال شِلْب كورة أكشونبة، وهي متصلة بكورة أشبونة، وهي - أعني أكشونبة - قاعدة جليلة، لها مدن ومعاقل، ودار ملكها قاعدة شِلْب، وبينها وبين قرطبة

---

(١) شريش: بالإسبانية Jerez، وهي من كور شذونة بالأندلس، على مقربة من البحر. الروض المعطار (ص ٣٤٩).
(٢) في طبعة دار صادر: «ومعشوقًا».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «إليه».
(٤) شِلْب بالإسبانية Silves، وهي قاعدة كورة أكشونبة، وهي اليوم من مدن البرتغال. الروض المعطار (ص ٣٤٢).
(٥) في طبعة دار صادر: «سيدمير» بالياء.
(٦) الوُرْقُ: جمع وَرْقاء وهي الحمامة. لسان العرب (ورق).

سبعة أيام، ولمّا صارت لبني عبد المؤمن ملوك مراكش أضافوها إلى كورة إشبيلية، وتفتخر شِلْب بكون ذي الوزارتين ابن عمّار منها، سامحه اللّه!.

ومنها القائد أبو مروان عبد الملك بن بَدْران، وربما قيل «ابن بدرون»[1] الأديب المشهور، شارح قصيدة ابن عَبْدون التي أولها[2]: [البسيط]

الدَّهرُ يَفْجَعُ بَعْدَ العَينِ بالأثرِ فما البكاءُ على الأشْبَاح والصُّوَرِ

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد المشرقية، ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله: [البسيط]

العِشقُ لَذَّتُهُ التَّعْنِيقُ والقُبَلُ كما مُنَغِّصُهُ التثريبُ والعَذَلُ
يا لَيتَ شِعْرِيَ هل يُقْضىٰ وصالُكُمُ لولا الْمُنَى لم يكن ذا العُمْرُ يَتَّصِلُ

ومنها نَحْوِيُّ زمانه وعلاَّمَتُهُ أبو محمد عبد اللّه بن السِّيد البَطَلْيَوْسي[3]، فإنّ شِلْبًا بَيضَتُهُ، ومنها كانت حركته ونهضته، كما في الذخيرة، وهو القائل: [المتقارب]

إذا سألونيَ عَنْ حالتي وحاوَلْتُ عُذْرًا فلم يُمْكِنِ
أقولُ: بخيرٍ، ولكنَّهُ كلامٌ يَدُورُ على الألْسُنِ
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما في الصُّدورِ ويَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ

وقال الوزير أبو عمرو بن القَلاَّس[4] يمدح بَطَلْيَوْسَ بقوله: [الطويل]

بَطَلْيَوْسُ لا أنساكِ ما اتَّصل البُعْدُ فللّه غَورٌ في جَنابكِ أو نَجْدُ

---

(١) ترجم له ابن الأبار في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٦١) فقال: «أبو القاسم عبد الملك بن عبد اللّه بن بدرون الحضرمي، من أهل شِلْب، ويكنى أبا الحسين، وهو مؤلِّفُ «كمامة الزهر وصدفة الدّرر» في شرح قصيدة أبي محمد بن عبدون اليابري، التي يرثي بها المتوكل». وترجم له ابن عبد الملك في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٢١) وكنّاه أبا القاسم وذكر «كمامة الزهر وصدفة الدرر».

(٢) هو أبو محمد بن عبدون اليابري، شاعر بني الأفطس ببطليوس، من يابرة. والبيت المذكور هنا من مرثية قالها في بني الأفطس. توفي سنة ٥٢٩ هـ. المغرب (جـ ١ ص ٣٧٤) وقلائد العقيان (ص ١٤٥). وسيرد هذا البيت في هذا الجزء وفي الجزءين السادس والسابع.

(٣) ابن السِّيد البطليوسي من شِلْب، لازم مدينة بطليوس فعرف بالبطليوسي. افتخرت به الأندلس عَلَمًا من أعلام العربية، وله تصانيف في علم النحو. المغرب (جـ ١ ص ٣٨٥) وقلائد العقيان (ص ١٩٣) وبغية الوعاة (ص ٢٨٣). والأبيات في المغرب (جـ ١ ص ٣٨٦).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «الغلاس» بالغين المعجمة. والبيتان منسوبان إلى ابن الغلاس في المغرب (جـ ١ ص ٣٦٣) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

ولِلَّه دَوحاتٌ تَحُفُّكِ يُنَّعًا[1] تَفَجَّرَ واديها كما شُقِّقَ الْبُرْدُ

وبنو الفَلاس من أعيان حضرة بَطَلْيوس، وأبو عمرو المذكور أشهرهم، وهو من رجال الذخيرة والـمُسْهب، رحمه اللّٰه تعالى!.

وفي شاطبة يقول بعضهم: [المديد]

نِعْمَ مُلْقَى الرَّحْلِ شَاطِبَةٌ لِفَتًى طالتْ به الرِّحَلُ
بَلْدَةٌ أوقاتُها سَحَرٌ وَصَبًا في ذيلِه بَلَلُ
ونَسِيمٌ عَرْفُه أرِجٌ ورياضٌ غُصْنُها ثَمِلُ
وَوُجُوهٌ كلُّها غُرَرٌ وكلامٌ كلُّهُ مُثُلُ

وفي بَرْجَة يقول بعضهم[2]: [المتقارب]

إذا جِئْتَ بَرْجَةَ مُسْتَوْفِزًا[3] فَخُذْ في المُقَامِ وخَلِّ السَّفَرْ
فكلُّ مكانٍ بها جَنَّةٌ وكلُّ طريقٍ إليها سَقَرْ

واعلم[4] أنه لو لم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد لكان كافيًا، ويرحم اللّٰهُ لسانَ الدين بن الخطيب حيث كتب على لسان سلطانه إلى بعض العلماء العاملين ما فيه إشارة إلى بعض ذلك، ما نَصُّه: من أمير المسلمين فلان، إلى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا، وَصَلَ اللّٰهُ له سعادةً تَجْذِبُهُ، وعنايةً إليه تُقَرِّبُه، وقبولاً منه يدعوه إلى خير ما عند اللّٰه ويندبه! سلام كريم عليكم ورحمة اللّٰه وبركاته، أمّا بَعْدَ حَمْدِ اللّٰهِ المرشد المثيب، السميع المجيب، مُعَوِّد اللطف الخفي والصنع العجيب، المتكفِّل بإنجاز وَعْد النصر العزيز والفتح القريب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذي القَدْر الرفيع والعزّ المنيع والجناب الرحيب، الذي به نرجو ظهور عَبَدَةِ الله على عَبَدَةِ الصليب، ونستظهر منه[5] على العدوّ بالحبيب، ونَعُدُّه عُدَّتنا لليوم العَصِيب، والرضا عن آله وصحبه الذين فازوا من مُشَاهدته بأوفى النصيب، ورَمَوا إلى هَدَف مرضاته بالسَّهْم الْمُصِيب، فإنّا كَتَبْناه

(١) في طبعة دار صادر: «بينها» بدل «يُنَّعا».
(٢) البيتان لأبي الفضل بن شرف القيرواني، وقد تقدّم البيت الثاني في هذا الجزء.
(٣) استوفز: قعد منتصبًا غير مطمئنّ. محيط المحيط (وفز).
(٤) جاء بعد هذين البيتين مباشرة في طبعة دار صادر عبارة: «وقد تقدّم هذان البيتان».
(٥) نستظهر: نحتاط؛ يقال: استظهر الرجلُ إذا احتاط، وهنا بمعنى نتقوّى. محيط المحيط (ظهر).

إليكم. كَتَبَ اللَّهُ تعالى لكم عملاً صالحًا يختمُ الجهادُ صحائفَ برّه، وتتمخّض لأنْ تكون كلمةُ اللَّه هي العليا جوامعُ أمره! وجعلكم ممّن تهنّى في الأرض التي فيها أبواب الجنّة مدة[1] عمره! - من حمراء غَرْناطة - حرسها اللَّه تعالى! - ولطفُ اللَّه هامي السحاب، وصنعه رائق الجناب، واللَّهُ يَصِلُ لنا ولكم ما عوّده من صلة لطفه عند انبتَاتِ الأسباب، وإلى هذا أيّها المولى الذي هو بركة المغرب المُشار إليه بالبَنَان، وواحده في رِفعة الشان، المؤثر ما عند اللَّه على الزخرف الفَتَّان، المتقلّل من المتاع الفان، المستشرف[2] إلى مقام العرفان، من درج الإسلام والإيمان والإحسان، فإنّا لِمَا نؤثره من برّكم الذي نَعُدُّه من الأمر الأكيد، ونُضْمِرُه من وُدّكم الذي نحلُّه محلَّ الكنز العتيد، ونلتمسه من دعائكم التماس العدّة والعديد، لا نزال نسأل عن أحوالكم التي تَرَقَّتْ في أطوار السعادة، ووصلت جناب الحقّ بهَجْر العادة، وألقتْ إلى يد التسليم للّه والتوكّل عليه بالْمَقَادة، فنسرّ بما هيّأ اللَّهُ تعالى لكم من القبول، وبلّغكم من المأمول، وألهمكم من الكَلَف بالقرب إليه والوُصُول، والفوز بما لديه والحصول. وعندما ردّ اللَّه تعالى علينا ملكنا الردّ الجميل، وأنالَنَا فضله الجزيل، وكان لعثارنا الْمُقِيل، خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا، ومحلّكم من حُسْن اعتقادنا، ووَجَّهْنا إلى وجهة دعائكم وَجْهَ اعتدادنا، واللَّه ينفعنا بجميل الظنّ في دينكم المتين، وفَضْلكم المبين، ويجمع الشَّمْل بكم في الجهاد عن الدين. وتعرَّفْنا الآن بـمَن[3] له بأنبائكم اعتناء، وعلى جلالكم حَمْدٌ وثناء، ولـجَنَاب ودّكم اعتزاء وانتماء، بتجاول[4] عزمكم بين حجّ مبرور ترغبون من أجْره في ازدياد، وتجدّون العهد منه بأليف اعتياد، وبين رباط في سبيل اللَّه وجهاد، وتوثير[5] مهاد بين رُبًا أثيرة عند اللَّه وَوِهاد، يُحْشَرُ يوم القيامة شهداؤها مع الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيّين والصدّيقين، فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللَّهُ من فَضْلِهِ، واللَّه أصدقُ القائلين الصادقين، حيث لا غارة لغير عدوّ الإسلام تُتَّقَى، إلاّ لابتغاء ما لدى اللَّه تُرْتَقَى، حيث رحمةُ اللَّه قد فَتَحَتْ أبوابها، وحُورُ الـجِنان قد زَيَّنَتْ أترابها، دارُ العُرْب الذين قَرَعُوا باب الفتح، وفازوا بجزيل الْمَنْح، وخلّدوا الآثار، وأرْغَمُوا الكُفّار، وأقالوا العِثّار، وأخذوا

(١) في طبعة دار صادر: «حصّة عمره».
(٢) المستشرف: المتطلّع. محيط المحيط (شرف).
(٣) في طبعة دار صادر: «ممّن له».
(٤) التجاول: التردّد والتكرار. محيط المحيط (جول).
(٥) يقال: وَثَّرَ الفراشَ تَوْثيرًا إذا وَطَّأَه. محيط المحيط (وثر).

الثار، وأمنوا مِنْ لَفح جَهَنَّم بما علا على وُجُوههم من ذلك الغبار، فكَتَبْنَا إليكم هذا نقوّي بصيرتكم على جهة الجهاد من العَزمَين، ونهبُ[1] بكم إلى إحدى الـحُسْنَيين، والصبحُ غير خافٍ على ذي عَيْنَيْن، والفَضْلُ ظاهر لإحدى المنزلتين، فإنكم إن[2] حَجَجْتم أَعَدْتُـمْ فرضًا أدّيتموه، وفضلاً ارْتَدَيتُـمُوه، فائدتُهُ عليكم مقصورة، وقضيّته فيكم محصورة، وإذا أقمتم الجهاد جَلَبْتُـمْ إلى حسناتكم عملاً غريبًا، واستأنفْتُـمْ سَعْيًا من اللّه قريبًا، وتعدَّتِ المنفعةُ إلى أُلوف من النفوس، المستشعِرة لباس البُؤس، ولو كان الجهاد بحيث يَخْفَى عليكم فضلُهُ لأَطْنَبْنَا، وأعِنَّةَ الاستدلال أَرْسَلنا[3]، هذا لو قدمتم على هذا الوطن وفضلكم غُفْل من الاشتهار، ومَنْ به لا يوجب لكم ترفيع المقدار، فكيف وفَضْلكم أشهر من مُحَيّا النهار؟ ولقاؤكم أشهى الآمال وآثر الأوطار، فإنْ قَـوِيَ عزمُكم واللّه يقوِّيه، ويعينُنا من برّكم على ما نَنْوِيه، فالبلادُ بلادكم، وما فيها طَرِيفكم وتِلادُكم[4]، وكهولها إخوانكم، وأحْدَاثها أولادُكم، ونرجو أن تجدوا لذكركم اللّه في رُبَاها حلاوة زائدة، ولا تعدموا مِنْ رَوْح اللّه فيها فائدة، وتتكيّف نفسكم فيها تكيّفاتٍ تقصرُ عنها خلواتُ السلوك، إلى ملك الملوك، حتى تغتبطوا بفضل اللّه الذي يُوْليكم، وتَرَوْا أثَر رحمته فيكم، وتخلفوا فخر هذا الانقطاع إلى اللّه في قبيلكم وبنيكم، وتَـخْتِـمُوا العُمْرَ الطيبَ بالجهاد الذي يُعليكم، ومن اللّه تعالى يُدْنيكم، فنبيُكم العربي صلوات اللّه عليه وسلامه نبيُّ الرحمة والملاحم، ومُعْمِلُ الصوارم[5]، وبجهاد الفرنج ختم عمل جهاده والأعمالُ بالخواتم، هذا على بُعْد بلادهم من بلاده، وأنتم أحقُّ الناسِ باقْتفاء جهاده، والاستباق إلى آماده، هذا ما عندنا حَثَثْناكم عليه، ونَدَبْناكم إليه، وأنتم في إيثار هذا الجوار، ومُقارضة ما عندنا بقدومكم على بلادنا من الاستبشار، بحسب ما يخلق عنكم مَن بيده مَقَادة الاختيار، وتصريف الليل والنهار، وتقليب القلوب وإجالة الأفكار، وإذا تعارضتِ الحظوظُ فما عند اللّه خيرٌ للأبرار، والدار الآخرة دار القرار، وخيرُ الأعمالِ عملٌ أوصَلَ إلى الجنة وباعَدَ من النار، ولْتَعْلَموا أنَّ نفوس أهل الكشف والاطّلاع، بهذه الأرجاء والأصقاع، قد اتَّفَقَتْ أخبارُهَا، واتَّحَدَتْ

---

(١) في طبعة دار صادر: «ونهيب بكم».
(٢) في طبعة دار صادر: «فإنكم إذا».
(٣) أطنبنا: أي أطنبنا في الكلام وبالغنا. وأرسلْنا: أي أرسلْنا عنان القول.
(٤) الطريف: المستحدث من المال. التّلادُ: المال القديم. مختار الصحاح (طرف) و(تلد).
(٥) الصوارم: جمع صارم وهو السيف. مختار الصحاح (صرم).

أسرارُها، على البشارة بفَتْح قُرْبَ أوانُهُ، وأظلّ زمانُه، فنرجو اللَّهَ أن تكونوا ممّن يحضرُ مَدْعَاه[1]، ويكرم فيه مَسْعاه، ويسلف[2] فيه العمل الذي يشكره اللَّهُ ويرعاه، والسلام الكريم يخصُّكم ورحمة اللّه وبركاته، انتهى.

ولـمّا دخل الأندلسَ أميرُ المسلمين عليّ[3] ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللَّمْتُوني ملك المغرب والأندلس، وأَمْعَنَ النظَرَ فيها، وتأمّلَ وَصْفَها وحالها، قال: إنها تُشْبه عُقابًا مَخَالِبُهُ طُلَيْطلة، وصَدْرُه قلعةُ رَبَاح، ورأسُهُ جَيَّان، ومنقارُه غَرْنَاطة، وجناحُه الأيمنُ باسطٌ إلى المغرب، وجناحُه الأيسرُ باسط إلى المشرق، في خبر طويل لم يحضرني الآن، إذْ تركْتُهُ مع كتبي بالمغرب، جمعني اللّه بها على أحسن الأحوال!.

ومع كون أهل الأندلس سُبَّاقَ حَلْبة الجهاد، مُهْطعين[4] إلى داعيه من الجبال والوهاد، فكان لهم في التَّرَف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خَوفَ الهجاء محلٌ وَثيرُ المهاد[5]، وسيأتي في الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره ما يشفي ويكفي، ولكنْ سنَح لي أنْ أذكرَ هنا حكاية أبي بكر المخزومي الهَجَّاء المشهور الذي قال فيه لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة[6]: إنه كان أعمى شديد الشرّ، معروفًا بالهجاء، مسلّطًا على الأعراض، سريعَ الجواب، ذكيّ الذهن، فطنًا للمعاريض[7]، سابقًا في ميدان الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره. والحكاية هي ما حكاه أبو الحسن بن سعيد في الطالع السعيد، إذ قال حكاية عن أبيه فيما أظن: قَدِمَ المذكورُ - يعني المخزومي - على غَرْنَاطة أيامَ ولاية أبي بكر ابن سعيد، ونَزَلَ قريبًا مني، وكنْتُ أسمعُ به بنارِ صاعقةٍ يُرسلها اللّه على مَنْ يشاء من عباده، ثم رأيت أن أبدأه بالتأنيس والإحسان، فاستدْعَيتُه بهذه الأبيات[8]: [المجتث]

يـا ثـانـيًـا لـلـمَـعَـرّي   فـي حُـسْـنِ نَـظْـمٍ ونَـثْـرِ

---

(١) المَدْعَى: اسم مكان من الدعاء، والمراد هنا المكان الذي يدعى فيه إليه.

(٢) يسلف: يقدم؛ يقال: سَلَفَ فلان يَسْلُفُ إذا تَقَدَّم. محيط المحيط (سلف).

(٣) علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني أميرُ المسلمين بمراكش وثاني أمراء دولة المرابطين بعد والده يوسف، توفي سنة ٥٣٧ هـ. الأعلام (جـ ٥ ص ٣٣ ومصادر حاشيته).

(٤) يقال: هَطَعَ الرجل: أسرع أو أقْبَلَ ببصره على الشيء لا يُقْلِعُ عنه. محيط المحيط (هطع).

(٥) يقال: وَثُرَ الفراش: وَطُؤَ. محيط المحيط (وثر).

(٦) الإحاطة (جـ ١ ص ٤٣٢).

(٧) المعاريض: جمع مِعْراض وهو التورية، والمِعْراض من الكلام: فحواه. محيط المحيط (عرض).

(٨) الأبيات في الإحاطة (جـ ١ ص ٤٢٤ - ٤٢٥) باختلاف يسير عمّا هنا.

وَفَـرْطِ ظَـرْفٍ وَنُـبْـلِ   وَغَـوصِ فَـهْـمٍ وفِـكْـرِ
صِلْ ثـمَّ وَاصِـلْ حَـفِـيًّـا   بِـكُـلِّ بِـرّ وَشُـكْـرِ
وَلَـيْـسَ إلاَّ حَـدِيـثٌ   كَـمَـا زَهَـا[1] عِـقْـدُ دُرِّ
وَشَـادِنٌ يَـتَـغَـنَّـى   عَـلَـى رِبَـابٍ وَزَمْـرِ
ومـا يُـسَـامـح فـيـه الـ   ـغَـفُـورُ مِـنْ كَـأْسِ خَـمْـرِ
وَبَـيْـنَـنَـا عَـهْـدُ حِـلْـفِ   لِـيَـاسِـرٍ حِـلْـفُ كُـفْـرِ
نَـعَـمْ فـجـدّده عَـهْـدًا   بِـطِـيـبِ شُـكْـرٍ وَيُـسْـرِ
والـكَـأسُ مـثـلُ رضـاعٍ   وَمَـنْ كـمـثْـلِـكَ يَـدْرِي

وَوَجَّهَ له الوزيرُ أبو بكر بن سعيد عبدًا صغيرًا قاده، فلما استقرّ به المجلس، وأفعمته روائح النَّدُ[2] والعود والأزهار، وهَزَّتْ عِطْفه الأوتار، قال: [البسيط]

دارُ السَّعِيدِيّ ذي أم دارُ رِضْوَانِ[3]   مَا تَشْتَهِي النَّفْسُ فيها حاضِرٌ دَانِي
سَقَتْ أباريقَها للنَّدِّ سُحْبُ نَدًى   تُـحْدَى[4] برَعْدٍ لأوتـارٍ وَعِـيدَانِ
وَالْبَرْقُ مِنْ كلِّ دَنٍّ[5] ساكِبٌ مَطَرًا   يُحْيِـي بـه مَيْتُ أفكـارٍ وَأَشْجَـانِ
هٰذَا النَّعِيمُ الذي كُنَّا نُحَدَّثُهُ   ولا سَـبِـيـلَ لـه إلاّ بـآذانِ

فقال له أبو بكر بن سعيد: وإلى الآن لا سبيل له إلاّ بآذان[6]؟ فقال: حتى يبعث اللَّهُ ولد زنى كلما أَنْشَدْتُ هذه الأبيات قال: إنها[7] لأعمى، فقال: أمّا أنا، فلا أنطق بحرف، فقال: مَنْ صَمَتَ نَجَا. وكانت نَزْهُون بنت القِلاعي حاضرة فقالت: وَتَرَاك يا أستاذ، قديمَ النعمة بمجمر ندٍّ وغناء وشراب، فَتَعْجَبَ من تأتّيه وتشبّهه بنعيم الجنة، وتقول: ما كان يعلم إلاّ بالسماع، ولا يبلغ إليه بالعيان؟ ولكن مَنْ يجيء من حصن المُدَوَّر، وينشأ بين

---

(١) في طبعة دار صادر: «كما وَهَى».
(٢) النَّدُّ، بفتح النون وتشديد الدال: الطِّيبُ. مختار الصحاح (ندد).
(٣) رِضوان، بكسر الراء وسكون الضاد: اسم بوّاب الجنة وخازنها، والمراد هنا الجنة. محيط المحيط (رضي).
(٤) تُحْدَى: تُساقُ؛ يقال: حَدَا الإبلَ إذا ساقها. محيط المحيط (حدو).
(٥) الدَّنُّ: الراقود العظيم. القاموس المحيط (دنن).
(٦) هنا تعريض بأنّ المخاطب أعمى يعتمد على الأُذُن.
(٧) في طبعة دار صادر: «قال: إنَّ قائلها لأعمى».

تيوس وبقر، من أين له معرفةٌ بمجالس النعيم؟ فلمّا اسْتَوْفَتْ كلامَهَا تنحنح الأعمى، فقالت له: ذبحة، فقال: مَنْ هذه الفاضلة؟ فقالت: عجوزٌ مقام أُمِّكَ، فقال: كَذَبْتِ، ما هذا صوت عجوز، إنّما هذه نغمةُ قَحْبَةٍ محترقة تشمُّ روائح هَنِها[1] على فراسخ، فقال له أبو بكر: يا أستاذ، هذه نزهون بنت القِلاَعي الشاعرة الأديبة، فقال: سَمِعْتُ بها، لا أَسْمَعَها اللَّهُ خيرًا! ولا أراها إلاّ أيرًا! فقالت له: يا شيخَ سوءٍ تناقضْتَ، وأيُّ خيرٍ للمرأةِ مثلَ ما ذَكَرْتَ؟ فَفَكَّرَ ساعةً ثم قال: [الطويل]

عَلَى وَجْهِ نَزْهُونٍ مِنَ الحُسْنِ مَسْحَةٌ   وإنْ كان قَدْ أَمْسَى من الضوءِ عارِيَا[2]
قـواصِـدُ نـزهـونٍ تـوارِكُ غَـيْـرِهـا   وَمَنْ قَصَدَ البَحْرَ استقلَّ السَّواقيَا[3]

فأعملتْ فِكْرَها ثم قالت[4]: [المجتث]

قُـلْ لـلـوَضِـيـعِ مَـقَـالاً   يُـتْـلَـى إلـى حِـيـنِ يُـحْـشَـرْ
مِـنَ الـمُـدَوَّرِ أُنْـشِـئْـ   ـتَ وَالْـخَـرَا[5] مـنـهُ أعْـطَـرْ
حَـيْـثُ الـبَـدَاوَةُ أَمْـسَـتْ   فـي مَـشْـيِـهـا تَـتَـبَـخْـتَـرْ
لِـذاكَ أمْـسَـيْـتَ صَـبًّـا   بِـكـلِّ شـيءٍ مُـدَوَّرْ
خُـلِـقْـتَ أعْـمَـى وَلٰـكِـنْ   تَـهِـيـمُ فـي كـل أعْـوَرْ
جـازَيْـتُ شِـعْـرًا بِـشِـعْـرٍ   فـقـل لَـعَـمْـري مَـنَ أشْـعَـرْ
إن كـنـتُ فـي الـخَـلْـقِ أُنْثَى   فـإنّ شِـعْـرِي مُـذَكَّـرْ

فقال لها اسمعي[6]: [المتقارب]

أَلاَ قُـلْ لـنَـزْهُـونَـةٍ مـا لَـهَـا   تَـجُـرُّ مـن الـتِّـيـهِ أذيـالَـهَـا

---

(١) الهَنُ، بفتح الهاء: الفرج. القاموس المحيط (هنن).

(٢) أخذ معنى هذا البيت من قول ذي الرمّة في صاحبته ميّ: [الطويل]
على وَجْهِ مَيّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاحَةٍ   وتحت الثيابِ الشَّينُ لو كان باديا
الشعر والشعراء (ص ٤٣٩).

(٣) عجز هذا البيت تضمين لبيت المتنبي من قصيدة قالها في مدح كافور: [الطويل]
قَـواصِـد كـافـورٍ تَـوارِك غَـيـرِهِ   ومَنْ قَصَدَ البحرَ اسْتَقَلَّ السواقيا
العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٤٧٤).

(٤) الأبيات في المغرب (جـ ١ ص ٢٢٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) الـخَرَا: كلما عاميّة، وبالفصحى «الـخُرْء» وهو العَذِرَةُ. القاموس المحيط (خرىء).

(٦) البيتان في المغرب (جـ ١ ص ٢٢٨).

ولو أبْصَرَتْ فَيْشَةً(١) شَمَّرَتْ - كما عَوَّدَتْنِيَ - سِرْبالَها

فحلف أبو بكر بن سعيد أن لا يزيد أحدهما على الآخر في هجوٍ(٢) كلمةً، فقال المخزومي: أكون هَجَّاء الأندلس وأكفُّ عنها دون شيء؟ فقال: أنا أشتري منك عرضَهَا فأطْلُبْ، فقال: بالعبد الذي أرسَلْتَهُ فقادني إلى منزلك، فإنه لَيِّنُ اليد رقيقُ المشي، فقال أبو بكر: لولا كونه صغيرًا كنت أبلغك به مرادك، وأهبُهُ لك، فَفَهِمَ قَصْدَهُ وقال: أصْبِرُ عليه حتى يَكْبُرَ، ولو كان كبيرًا ما آثرتني به على نفسك، فضحك أبو بكر، وقال: إن لم تَهْجُ نظمًا هَجَوْتَ نثرًا، فقال: أيها الوزير، لا تبديل لخلق الله. وانفصل المخزومي بالعبد بعد ما أصلح الوزيرُ بينه وبين نزهون، انتهى.

وفي كتاب «الدرّ المنضد، في وفيات أعيان أمة محمد» تأليف الإمام صارم الدين إبراهيم بن دُقْماق(٣)، قال أبو القاسم بن خلف: كان - يعني المخزومي المذكور - حَيًّا بعد الأربعين وخمسمائة، انتهى.

ونقلت من كتاب «قطب السرور» لابن الرقيق المغربي(٤)، ما مُلَخَّصُهُ: ومِمَّنْ أدْرَكْتُهُ وعاشرْتُه عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب، وذَكَرْتُه هنا؛ لأنه ملحقٌ بالأمراء المتقدمين غيرُ خارج منهم ولا مقصِّرٌ عنهم، بل كان واحد عصره في الغناء الرائق، والأدبِ الرائع، والشعرِ الرقيق، واللفظِ الأنيق، ورقّةِ الطبع، وإصابةِ النادر، والتشبيهِ المصيب، والبديهةِ التي لا يُلْحَق فيها، مع شرف النفس، وعلوّ الهمّة، وكان قد قطع عمره، وأفْنَى دهره، في اللهو واللعب، والفكاهة والطرب، وكان أعلم الناس بضرب العود، واختلاف طرائقه، وصنعة اللحون، وكثيرًا ما يقولُ المعانيَ اللطيفةَ في الأبيات الحسنة، ويَصُوغُ عليها الألحانَ المطربةَ البديعةَ المعجبة، اختراعًا منه وحِذْقًا، وكانت له في ذلك قريحةٌ وطبع، وكان إذا لم يَزُرْه أحدٌ من إخوانه أَحْضَرَ مائدته وشرابه عَشَرَة من أهل بيته، منهم ولده وعبد الله ابن أخيه وبعض غِلْمانه، وكلُّهُمْ يُغَنِّي فيجيد، فلا يزالون يغنّون بين يديه

---

(١) الفَيْشَةُ، بفتح الفاء والشين وسكون الياء: رأس الذَّكَر. محيط المحيط (فيش).
(٢) في طبعة دار صادر: «في هجوه كلمةً».
(٣) هو صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقماق القاهري؛ مؤرّخ الديار المصرية في وقته. توفي بالقاهرة سنة ٨٠٩ هـ. الأعلام (جـ ١ ص ٦٤ ومصادر حاشيته).
(٤) تقدّمت ترجمة ابن الرقيق، وكتابة المذكور هو «قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور»، وقد طبع جزء منه. راجع الأعلام (جـ ١ ص ٥٧).

حتى يطرب، فيدعو بالعُود ويغني لنفسه ولهم، وكان بشارة الزامر الذي يزمر عليه مِنْ حُذَّاق زَمَرة المشرق، وكان بَعِيدَ الهمّة سَمْحًا بما يجد، تُغِلُّ عليه ضياعُه كلّ عام أموالاً جليلة، فلا تحُول السنةُ حتى يَنْفَدَ جميعُ ذلك ويستسلف غيره، فكان لا يطرأ من المشرق مُغَنّ إلاّ سأل مَن يقصد بهذا الشأن، فيدلّ عليه، فَمَنْ وَصَلَهُ منهم استقبله بصنوف البِرّ والإكرام، وكساه وخلطه بنفسه ولم يَدَعْه إلى أحد من الناس، فلا يزال معه في صَبُوح وغَبُوق[(١)]، وهو مُجَدِّد له كل يوم كرامة، حتى يأخذ جميع ما معه من صَوْتٍ مُطْرِب أو حكاية نادرة.

وجلس يومًا وقد زاره رجلان من إخوانه، وحضر أقرباؤه، فَطَعِمُوا وشربوا وأخذوا في الغناء، فارتَجَّ المجلس[(٢)]، إذ دخل عليه بعضُ غِلْمَانه فقال: بالباب رجلٌ غريبٌ عليه ثيابُ السفر، ذكر أنّه ضَيفٌ، فأمر بإدخاله، فإذا رجلٌ أسمرُ سِنَاطٌ[(٣)]، رثّ الهيئة، فسلّم عليه، قال: أين بلد الرجل؟ قال: البصرة، فرحَّبَ به، وأمره بالجلوس، فجلس مع الغلمان في صُفَّة[(٤)]، وأُتيَ بطعامٍ فأكل وسُقِيَ أقداحًا، ودار الغناء في المجلس، حتى انتهى إلى آخرهم، فلمّا سكتوا اندفع يغني بصوتٍ نَدِيّ وطبع حَسَن: [الهزج]

أَلاَ يا دَارُ ما الهَجْرُ ... لِسُكَّانِكِ مِنْ شَانِي
سُقِيتِ الغَيثَ من دارٍ ... وإنْ هَيَّجْتِ أشجاني
ولو شِئْتُ لما اسْتَسْقَيْـ ... ـتُ غَيْثًا غيرَ أجفاني
بنفسي حَلَّ أهلُوكِ ... وإنْ بانُوا بِسُلْوَانِي
وَمَا الدَّهرُ بمأمونٍ ... على تَشْتِيتِ خِلاَّنِي

فَطَرِبَ عبدُ الوهاب وصاح، وتَبَيَّنَ الحذقَ في إشارته، والطِّيبَ في طبعه، وقال: يا غلامُ، خُذْ بيده إلى الحَمَّام، وعَجِّلْ عليَّ به، فأُدْخِلَ الحَمّامَ، ونظف، ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فأُلقِيَتْ عليه، ورفعه فأجلسه عن يساره، وأقبل عليه وبسطه، فغنى له: [مخلع البسيط]

---

(١) الصَّبُوح: شرب خمرة الصباح، أي الشرب بالغداة، ضدُّ الغَبُوق وهو الشرب في المساء. مختار الصحاح (صبح) و(غبق).

(٢) اِرْتَجَّ المجلسُ: اضطرب. مختار الصحاح (رجج).

(٣) السِّناط، بكسر السين: الكَوْسَجُ الذي لا لِحْيَة له أصلاً. مختار الصحاح (سنط).

(٤) الصُّفّة، بضم الصاد والفاء المشدّدة: موضع مظلّل. محيط المحيط (صفف).

قومِي امْزُجي التِّبْرَ باللُّجَيْنِ[1] واحْتَمِلِي الرَّطْلَ بالْيَدَيْنِ
واغْتَنِمِي غَفْلَةَ اللَّيَالِي فَرُبَّمَا أيقَظَتْ لِحَيْنِ
فَقَدْ لَعَمْرِي أَقَرَّ مِنَّا هِلَالُ شَوَّالَ كُلَّ عَيْنِ
ذاتُ الخَلَاخِيلِ أَبْصَرَتْهُ كنِصْفِ خَلْخَالِهَا اللُّجَيْنِي[2]

فطرب وشرب، واستزاده، فغنّاه: [الكامل]

مَنْ لِي عَلَى رَغْمِ الحَسُودِ بِقَهْوَةٍ[3] بِكْرٍ رَبِيبَةِ حَانَةٍ عَذْرَاءِ
مَوجٌ مِنَ الذهَبِ المُذَابِ تَضُمُّه كَأْسٌ كَقِشْرِ الدُّرَّةِ البَيْضَاءِ
والنَّجْمُ في أُفُقِ السماءِ كأنَّهُ عَينٌ تخالِسُ غفْلَةَ الرُّقَبَاءِ

فشرب عبد الوهاب ثم قال: زدني، فغنّاه: [الطويل]

وَأَنْتَ الذي أَشْرَقْتَ عَيْنِي بِمَائِهَا وَعَلَّمْتَهَا بالهَجْرِ أنْ تَهْجُرَ الْغُمْضَا[4]
وأغْرَقْتَهَا بالدَّمْعِ حتى جُفُونُهَا لَيُنْكِرُ مِنْ فَقْدِ الكَرَى بَعْضُها بَعْضَا

فَمَرَّ يومٌ من أحسن الأيام وأطيبها، ووصله وأحسن إليه، ولم يزل عنده مُقرَّبا مُكرّمًا، وكان خليعًا ماجنًا مشتهرًا بالنبيذ، فخلاّه وما أحبَّ، ثُمَّ وَصَفَ له الأندلس وطِيبَها، وكثرة خمورها، فمضى إليها ومات بها، وعلى نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارىء يطرأ من المشرق، ولو ذَكَرْتُهُمْ لَطَالَ بهم الكتابُ، انتهى.

وغرضي من إيراد هذه الحكاية هنا كونه وَصَفَ للمشرقيّ الأندلسَ وطِيبَها، وذلك أمر لا يشكّ فيه ولا يرتاب، واللّه المسؤول في حُسْنِ المتاب.

ورأيت في بعض كتب تاريخ الأندلس في ترجمة السلطان بَادِيس الصِّنْهَاجيّ صاحِب غَرْنَاطة، ما نَصُّهُ: وهو الذي أكمل ترتيب قصبة مالَقَةَ، وكان أفرس الناس، وأنبلهم، ذا

---

(١) التِّبْرُ: الذهب غير المضروب، والمراد هنا الخمر الصفراء التي بلون الذهب. اللُّجَينُ: الفِضّة؛ والمراد هنا الماء الصافي الذي بلون الفضة. مختار الصحاح (تبر) و(لجن).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «اللُّجَينِ».
(٣) القَهْوَةُ: الخمر. محيط المحيط (قهو).
(٤) أَشْرَقْتَ عيني بمائها: أي أبكيتني كثيرًا فامتلأت عيناي بالدموع؛ يقال: أشرق فلان عَدُوَّه إذا أغصه، وأشرق فلانًا بريقه إذا لم تسوّغ له ما يأتي من قول أو فعل. الغُمْضُ، بضم الغين وسكون الميم: النوم. محيط المحيط (شرق) و(غمض).

مروءة ونجدة، وقَصْرُهُ بغَرْنَاطة ليس ببلاد الإسلام والكفر مثله، فيما قيل، انتهى.

وهذا القصر هو الذي عَناهُ لسانُ الدين بن الخطيب في قصيدته السينية المذكورة في الباب الخامس من القسم الثاني من هذا الكتاب فلتراجع ثمة[١].

وذكر غير واحد من المحدّثين والمؤرّخين أن مدينة سَرَقُسْطَة لا يدخلها الثعبان من قبل نفسه، وإذا أدخله أحدٌ لم يتحرّك، ونظيرُ هذا المعنى في بعض الحيوانات بالنسبة إلى بعض البلاد كثير، وذلك برصد أو طِلَّسم، وقد استطرد بعضُ علماء أصول الدين ذلك عندما تكلّموا على السحر حسبما قُرّرَ في محله، والله أعلم.

هكذا رأيت في كلام بعض علماء المشارقة، والذي رأيته لبعض مؤرّخي المغرب في سَرَقسطة أنها لا تدخلها عقربٌ ولا حَيَّةٌ إلاّ ماتت من ساعتها، ويؤتى بالحيّات والعقارب إليها حَيَّةً فبنفس ما تدخل إلى جَوف البلد تموت، قال: ولا يتسوَّسُ فيها شيء من الطعام، ولا يعفن، ويوجد فيها القمح من مائة سنة، والعنبُ المُعَلَّق من ستة أعوام، والتين والخوخ وحب الملوك والتفاح والإجّاص اليابسة من أربعة أعوام، والفولُ والحمص من عشرين سنة، ولا يسوّس فيها خشب ولا ثوب كان صوفًا أو حريرًا أو كَتَّانًا، وليس في بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها، ولا أطيب طعمًا، ولا أكبر جِرْمًا، والبساتينُ مُحْدِقَةٌ بها من كل ناحية ثمانية أميال، ولها أعمال كثيرة: مدن وحصون وقرى مسافة أربعين ميلاً، وهي تضاهي مدنَ العراق في كثرة الأشجار والأنهار، وبالجملة فأمْرُها عظيم، وقد أَسْلَفْنا ذكرها.

واعْلَمْ أنَّ بأرضِ الأندلس من الخِصْبِ والنُّضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدُّنْيا ما لا يوجد مجموعُهُ غالبًا في غيرها، فمن ذلك ما ذكره الحجاري في المُسْهب: أنَّ السَّمُّور[٢] الذي يُعْمَلُ مِنْ وَبَره الفراءُ الرفيعةُ يُوجَد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية، ويُجْلَبُ إلى سَرَقسْطة ويُصْنَعُ بها. ولـمّا ذَكَرَ ابنُ غالب وَبَر السَّمُّور الذي يُصْنَعُ بقرطبة قال: هذا السمّور المذكور هنا لم أتحقّق ما هو، ولا ما عني به، إن كان هو

---

(١) وردت هذه القصيدة السينية في الجزء التاسع من نفح الطيب، ومطلعها: [الطويل]

عسى خَطْرَةٌ بالرَّكْبِ يا حاديَ العِيسِ   على الهَضْبَةِ الشَّمّاءِ مِنْ قَصْرِ باديسِ

(٢) السَّمُّورُ: حيوان بَرّيٌّ يشبه السنّور، يُتّخذ من جلده فِراءٌ ثمينة لِلِينها وخفّتها وحسنها. محيط المحيط (سمر).

نباتًا عندهم أو وَبَرَ الدابةِ المعروفة، فإن كانت الدابةُ المعروفة فهي دابّة تكون في البحر، وتخرج إلى البَرّ، وعندها قوّةُ مَيْزٍ. وقال حامد بن سمجون[1] الطبيب صاحب كتاب الأدوية المفردة: هو حيوان يكون في بحر الروم، ولا يحتاج منه إلاّ إلى خُصَاه، فيخرج الحيوانُ من البحر في البَرّ، فَيُؤْخَذُ وتُقْطَعُ خُصَاه، ويُطْلَقُ، فربّما عرض للقَنّاصين مرة أخرى، فإذا أَحَسَّ بهم وخشي أن لا يفوتهم استلقى على ظهره وفَرَجَ بين فخذيه لِيُرَى موضعُ خُصْيَيْهِ خاليًا، فإذا رآه القناصون كذلك تركوه. قال ابن غالب: ويُسَمَّى هذا الحيوان أيضًا الجَنْدَبادستر، والدواء الذي يُصْنَع من خُصْيبه من الأدوية الرفيعة، ومنافعه كثيرة، وخاصيته في العلل الباردة، وهو حارّ يابس في الدرجة الرابعة.

والقَنْلِية حيوان أدقُّ من الأرنب وأطيبُ في الطعم وأحسن وَبَرًا، وكثيرًا ما تُلْبَسُ[2] فِراؤها، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى، ولا توجد في بَرّ البربر إلاّ ما جُلِبَ منها إلى سَبْتة فنشأ في جوانبها. قال ابن سعيد: وقد جُلِبَتْ في هذه المدّة إلى تونس حضرةِ إفريقية.

ويكون بالأندلس من الغزال والأَيَّل[3] وحمار الوحش وبَقَره وغير ذلك ممّا يوجد في غيرها كثير[4]. وأما الأسد، فلا يوجد فيها البَتّة، ولا الفيلُ والزرافة وغير ذلك ممّا يكون في أقاليم الحرارة، ولها سَبُعٌ يُعْرَفُ باللّب[5] أكبر بقليل من الذئب في نهاية من القِحَة[6]، وقد يفترسُ الرجلَ إذا كان جائعًا.

وبغالُ الأندلس فارهة[7]، وخَيْلُها ضخمة الأجسام، حصونٌ للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعَدْوِ في خيل البَرّ الجنوبيّ.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «سمحون» بالحاء المهملة. وأبو بكر حامد بن سمجون طبيبٌ، تميّز في معرفة الأدوية المفردة، وله كتاب فيما ألّفه في أيام المنصور محمد بن أبي عامر، صاحب الأندلس. وله تصرّف في البلاغة. توفي نحو ٤٠٠ هـ. جذوة المقتبس (ص ١٩٧) وبغية الملتمس (ص ٢٧٢) وفيه: «سمحون» بالحاء المهملة. وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٠٠).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «يُلْبَسُ».

(٣) الأَيِّلُ، بفتح الهمزة والياء المشدّدة: الوَعِلُ. القاموس المحيط (أول).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «مما لا يوجد في غيرها كثيرًا...».

(٥) اللّب بالإسبانية Lobo ويعني الذئب.

(٦) القِحَة هنا بمعنى الجرأة؛ يقال: وَقَحَ حافر الدابة قِحَةً إذا صلب. محيط المحيط (وقح).

(٧) فارهة: حاذقة نشيطة. لسان العرب (فره).

ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول، وكذلك حيوان البحر، ودوابّ بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض.

قال ابن سعيد: عانَيْتُ من ذلك العجب، والمسافرون في البحر يخافون منها لِئَلاً تقلب المراكب، فيقطعون الكلام، ولها نَفْخٌ بالماء من فيها يقوم في الجو ذا ارتفاع مفرط.

وقال ابن سعيد: قال المسعودي في «مروج الذهب»: في الأندلس من أنواع الأفاويه[1] خمسة وعشرون صنفًا: منها السنبل، والقرنفل، والصندل، والقرفة، وقصب الذريرة، وغير ذلك.

وذكر ابن غالب أنّ المسعودي قال: أصول الطِّيب خمسة أصناف: المسك، والكافور، والعود، والعنبر، والزعفران، وكلها من أرض الهند، إلاّ الزعفران والعنبر، فإنهما موجودان في أرض الأندلس، ويوجد العنبر في أرض الشِّحْر.

قال ابن سعيد: وقد تكلّموا في أصل العنبر، فَذَكَرَ بعضُهم أنه عيون تنبع في قعر البحر يصير منها ما تبلعه الدواب وتقذفه. قال الحجاري: ومنهم مَن قال: إنه نبات في قعر البحر.

وقد تقدّم قول الرازي أن المحلب - وهو المقدّم في الأفاويه، والمُفَضَّل في أنواع الأُشْنان[2] - لا يوجد في شيء من الأرض إلاّ بالهند والأندلس.

قال ابن سعيد: وفي الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أُطْلِقَتْ فيها فاحَتْ بروائح العود وما أشبهه، وفي جبل شُلَيْرِ أفاويه هندية.

قال: وأمّا الثمار وأصناف الفواكه، فالأندلسُ أَسْعَدُ بلادِ اللّه بكثرتها، ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز، المعدومان[3] في الأقاليم الباردة، ولا يعدم منها إلاّ التمر، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقلُّ، كالتين القوطيّ والتين[4] السفريّ بإشبيلية.

قال ابن سعيد: وهذان صنفان لم تَرَ عَيْني ولم أَذُقْ لهما منذ خَرَجْتُ من الأندلس ما

---

(١) الأفاويه: جمع أفواه، وأفواه جمع فُوه، والفُوهُ هو الطِّيب. محيط المحيط (فوه).
(٢) الأُشْنان، بضم الهمزة وكسرها: حَمْضٌ يُغْسَلُ به الأيدي. لسان العرب (أشن).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «ويوجدان في الأقاليم...».
(٤) في طبعة صادر: «والتِّين الشعري».

يفضلهما، وكذلك التين المالَقِيّ والزبيب الْمُنَكَّبيّ[1] والزبيب العسليّ والرمان السفري[2] والخوخ والجوز واللوز، وغير ذلك مما يطول ذكره.

وقد ذكر ابن سعيد أيضًا أن الأرض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة، وأنها في الأندلس التي هي بعض تلك الأرض، وأعظم معدن للذهب بالأندلس في جهة شَنْت يَاقُوه[3] قاعدة الجلالقة على البحر المحيط، وفي جهة قُرْطُبة الفِضَّةُ والزئبق، والنحاسُ في شمال الأندلس كثير، والصُّفر[4] الذي يكاد يُشْبه الذهب، وغير ذلك من المعادن المتفرقة في أماكنها.

والعينُ التي يخرج منها الزاج[5] في لَبْلَة مشهورة، وهو كثير مفضل في البلاد منسوب لجبل طليطلة جبل الطَّفْل[6] الذي يجهز إلى البلاد ويفضل على كل طَفْل بالمشرق والمغرب.

وبالأندلس عدة مَقَاطع للرخام، وذكر الرازي أن بجبل قُرْطُبة مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون[7] والخمري، وفي ناشِرَةَ مقطع عجيب للعُمُد، وبباغَةْ من مملكة غَرْنَاطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة مُوَشّاة في حمرة وصفرة، وغير ذلك من المقاطع التي بالأندلس من الرخام الحالك والمُجَزَّع.

وحَصَى ألمرِيَّةِ يُحْمَلُ إلى البلاد فإنه كالدُّرّ في رَونَقه، وله ألوان عجيبة، ومن عادتهم أن يَضَعوه في كِيزان الماء.

---

(١) نسبة إلى المُنَكَّب Almuñecar وهي مدينة صغيرة في مقاطعة غرناطة على البحر المتوسط. الروض المعطار (ص ٥٤٨).

(٢) دخل الرمان السفري إلى الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل على يد رجل شامي يسمى سفر، فقام هذا الرجل بغرسه حتى نَمَا وأثمر. قضاة قرطبة (ص ٥٣). ويسمى هذا الرمان بالإسبانية Zafari. وسيتحدث عنه المقري بالتفصيل في الباب الرابع من نفح الطيب.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «ياقور» . وشنت ياقوه هي Santiago.

(٤) الصُّفْر: الذي يُعْمَلُ منه الأواني، أي النحاس. مختار الصحاح (صفر).

(٥) الزاج: ملح يُصْبَغُ به، معرّب زاك بالفارسية. محيط المحيط (زاج). وقد أشار الحميري إلى هذه العين في الروض المعطار (ص ٥٠٧، مادة لبلة).

(٦) في طبعة دار صادر: «منسوبٌ، وبجبل طليطلة...». والطَّفْل بلغة المولّدين: الفخار والطين والصلصال، ومعناه بالإسبانية arcilla. قاموس ف. كورينطي (طفل).

(٧) في طبعة صادر: «الناصع والخمري».

وفي الأندلس من الأمنان[1] التي تنزل من السماء القِرْمِز الذي ينزل على شجرة البَلُّوط فيجمعه الناسُ زمَنَ الشِّعْرى[2] ويصبغون به، فيخرج منه اللون الأحمر الذي لا تفوقه حمرة.

قال ابن سعيد: وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل، وللمتعصّبين لها في ذلك كلام كثير، فقد اختصّت ألمريَّةُ ومالَقَةُ ومُرْسِية بالموشّى[3] المذهّب، يتعجَّب من حُسْن صنعته أهلُ المشرق إذا رأوا منه شيئًا، وفي تَنْتَالَةَ من عمل مُرْسِية تُعْمَلُ البُسُط التي يُغَالَى في ثمنها بالمشرق، ويُصْنَعُ في غرناطة وبَسْطة من ثياب اللباس المحرّرة الصنفُ الذي يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة، ويُصْنَعُ في مُرْسِية من الأسِرَّة الموصّعة والحصر الفَتَّانة الصنعة وآلات الصُّفْر والحديد من السكاكين والأمقاص[4] المذهَّبة وغير ذلك من آلات العروس والجنديّ ما يَبْهَرُ العقل، ومنها تُجَهَّزُ هذه الأصنافُ إلى بلاد إفريقية وغيرها. ويصنع بها وبألمريَّة ومالقة الزجاجُ الغريب العجيب وفخار مزجّج مذهب، ويُصْنَعُ بالأندلس نوع من المفضّض[5] المعروف في المشرق بالفُسَيفِسَاء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يُعْرَفُ بالزُّلَيْجِي[6] يشبه المفضّض[7]، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملوّن الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذَرْوَانِ، وما يجري مجراه.

وأما آلات الحرب من التّراس والرّماح والسُّروج والألجم والدروع والـمَغَافر فأكثرُ هِمَـمِ أهل الأندلس ـ فيما حكى ابنُ سعيد ـ كانت مصروفة إلى هذا الشأن، ويُصْنَعُ فيها في بلاد الكفر ما يبهر العقول، قال: والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة، وبرذيل[8]: آخر

---

(١) الأمنان: جمع مَنّ وهو كل طَلّ (ندى) ينزل من السماء على شجر فينعقد عسلاً. محيط المحيط (منن).

(٢) في طبعة دار صادر: «من الشِّعْرا». والشِّعْرى، بكسر الشين كوكبٌ نَيِّرٌ يَطْلُعُ بعد الجوزاء، وطلوعه في شدّة الحرّ. لسان العرب (شعر).

(٣) في طبعة دار صادر: «بالوشي».

(٤) الأمقاص: جمع مقصّ وهو الـمِقْراض، أي آلة القصّ، وهذا الجمع لم نعثر عليه في كتب اللغة، وفيها أن جمع مقصّ مَقَاصّ.

(٥) في طبعة دار صادر: «الـمُفَصَّص» بالصاد المهملة.

(٦) يسمّى بالإسبانية Azulejo.

(٧) في طبعة دار صادر: «المفصّص».

(٨) هي مدينة Bordeaux الفرنسية، وقد تقدّم الحديث عنها.

بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق، والفولاذ الذي بإشبيلية إليه النهاية، وفي إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره.

وقد أفرد ابن غالب في «فرحة الأنفس» للآثار الأولية التي بالأندلس من كتابه مكانًا، فقال: منها ما كان من جَلْبِهِمُ الماءَ من البحر الملح إلى الأرحيّ التي بِطَرّكُونَةَ على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طحنت به، وذلك من أعجب ما صنع. ومن ذلك ما صنعه الأُوَلُ أيضًا من جَلْب الماء من[1] البحر المحيط إلى جزيرة قادس من العين التي في إقليم الأصنام، جَلَبُوه في جوف البحر في الصخر المجوَّف ذكرًا في أُنثى وشَقُّوا به الجبال، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بَنَوْا له قناطرَ على حَنَايا، فإذا جاوزها واتّصل بالأرض المعتدلة رَجَعُوا إلى البنيان المذكور، فإذا صادف سَبَخة[2] بُنِيَ له رصيف وأُجْرِيَ عليه، هكذا إلى أن انْتُهي به إلى البحر، ثمّ دخل به في البحر، وأُخْرِجَ في جزيرة قادس، والبنيان الذي عليه الماء في البحر ظاهر بَيِّنٌ، قال ابن سعيد: إلى وقتنا هذا.

ومنها الرصيف المشهور بالأندلس، قال في بعض أخبار رومية: إنه لـمّا ولي بوليش[3] المعروف بجاشر، وابتدأ بتدريج الأرض وتكسيرها، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب، ثم بدأ بفرشِ المبلّطة[4]، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أنْ بلغ بها أرضَ الأندلس وركزها شرقي قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار، ثم ابتدأها من باب القَنْطرة قبليَّ قرطبة إلى شَقُنْدَةَ إلى إسْتِجَةَ إلى قرمونة إلى البحر، وأقام على كل ميل ساريةً قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية، وذكر أنه أراد تسقيفها في بعض الأماكن راحةً للخاطرين من وَهَج الصيف وهول الشتاء، ثم تَوَقَّعَ أن يكون ذلك فسادًا في الأرض وتغييرًا للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشرّ فيها في المواضع المنقطعة النائية عن العُمْران، فتركها على ما هي عليه. وذكر في هذه الآثار صنمَ قادس الذي ليس له نظير إلاّ الصنم الذي بطرف جِلِّيقية، وذكر قنطرة طُلَيْطلة، وقنطرة السيف وقنطرة ماردة، وملعب مُرْبَيْطَر.

---

(١) في طبعة دار صادر: «في البحر».

(٢) السَّبَخَة، بفتح السين والباء والخاء: أرض ذات مِلْح ونَزّ، والجمع سِباخ. محيط المحيط (سبخ).

(٣) في طبعة دار صادر: «يوليش»، بالياء.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «المبطلة».

قال ابن سعيد: وفي الأندلس عجائب، منها الشجرة التي لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذَكَرْتُها، فإنَّ خَبَرَها عندهم شائع متواتر، وقد رأيْتُ مَن يَشْهد بخبرها ورؤيتها، وهم جَمٌّ غفير، وهي شجرة زيتون تَصْنَعُ الورقَ والنَّوْرَ والثمرَ من يوم واحد معلوم عندهم من أيام السنة الشمسية.

ومن العجائب الساريةُ التي بغرب الأندلس، يزعم[1] الجمهور أنّ أهل ذلك المكان إذا أَحَبُّوا المَطَر أقاموها فيمطر اللّه جهتهم.

ومنها صنم قادس، طول ما كان قائمًا كان يمنع الريحَ أن تهبَّ في البحر المحيط فلا تستطيع المراكب الكبار على الجري فيه، فلمّا هُدِمَ في أول دولة بني عبد المؤمن صارت السفن تجري فيه.

وبكورة قَبْرَةَ[2] مَغَارَةٌ ذكرها الرازي وحكى أنه يقال: إنها باب من أبواب الريح لا يُدْرَكُ لها قَعْرٌ.

وذكر الرازي أن في جهة قلعة وَرْد جَبَلاً فيه شقٌّ في صخرة داخلَ كَهْفٍ فيه فأسُ حديدٍ متعلّق من الشق الذي في الصخرة، تراه العيونُ وتلمسه اليدُ، ومَنْ رامَ إخراجه لم يطق ذلك، وإذا رفعته اليدُ ارتفع وغاب في شق الصخرة ثم يعود إلى حالته.

وأمّا ما أورده ابن بَشْكُوال من الأحاديث والآثار في شأن فضل الأندلس والمغرب فقد ذكرها ابن سعيد في كتابه الـمُغْرب، ولم أذكرها أنا، واللّه أعلم بِحقيقة أمرها، وكذلك ما ذكره ابن بَشكُوال من أنّ فتح القسطنطينية إنما يكون من قِبَلِ الأندلس، قال: وذكره سيف[3] عن عثمان بن عفّان، رضي اللّه تعالى عنه، ـ واللّه أعلم بصحة ذلك ـ ولعلَّ المراد بالقسطنطينية رومية، واللّه أعلم.

قال سيف: وذلك أن عثمان ندَبَ جيشًا من القيروان إلى الأندلس، وكتب لهم: أمّا

---

(١) في طبعة دار صادر: «ما يزعم».
(٢) ذكر الحميري هذه المغارة بقوله: «وعلى مقربة من مدينة قبرة المغارة المعروفة بالعروب، لا يُدْرك قعرها، ولا يُسْبَرُ غَورُها، وهي باب من أبواب الرياح، ويعرفونها بيئر الرِّيح. . .».
(٣) هو سيف بن عمر الأسدي التميمي، من أصحاب السِّيَر، كوفي الأصل، اشتهر ببغداد وتوفي بها سنة ٢٠٠ هـ. الأعلام (جـ ٣ ص ١٥٠ ومصادر حاشيته).

بَعْدُ، فإنَّ فتح القسطنطينية إنما يكون مِنْ قِبَلِ الأندلس، فإنكم إن فتحتموها كنتم الشركاء في الأجْر، والسلام، انتهى.

قلت: عهدة هذه الأمور على ناقلها، وأنا بريء من عهدتها، وإنْ ذكرها ابن بَشْكُوَال وصاحب الْـمُغْرب وغير واحد فإنها عندي لا أصل لها، وأيّ وقت بَعَثَ عثمان إلى الأندلس؟ مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمانَ الوليد، وإنما ذكرت هذا للتنبيه عليه، واللَّه أعلم.

قال ابن سعيد: وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخِصْب والعمارة من كل جهة، فمتى سافَرْتَ من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحارى فيها معدومة. ومما اخْتصَّتْ به أنَّ قُرَاها في نهاية من الجمال لِتَصَنُّع أهلها في أوضاعها وتبييضها، لِئلاَّ تنبو العيون عنها، فهي كما قال الوزير ابن الحمارة[1] فيها: [الكامل]

لاحَتْ قُرَاها بين خُضْرَةِ أَيْكِها   كـالـدُّرِّ بـيـن زَبَـرْجَـدِ مـكـنـونِ

ولقد تَعَجَّبْتُ لـمَّا دَخَلْتُ الديارَ المصريةَ من أوضاع قُرَاها التي تكَدِّرُ العَيْنُ بسَوَادها، ويضيقُ الصدرُ بضيق أوضاعها. وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الـمُمَصَّرَةُ من مثلها، والمثال في ذلك أنك إذا تَوَجَّهْتَ من إشبيلية فعَلَى مسيرة يوم وبعضِ آخر مدينةُ شَرِيشَ، وهي في نهاية من الحضارة والنَّضَارة، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك، ثم مالَقَةُ، وهذا كثير في الأندلس، ولهذا كَثُرَتْ مدنها وأكثرُها مُسَوَّرٌ من أجل الاستعداد للعدوِّ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين، وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدوِّ ما ينيِّفُ على عشرين سنة لامتناع معاقلها، ودُرْبَة أهلها على الحرب، واعتيادهم لمجاورة العدوّ بالطَّعْنِ والضرب، وكثرة ما تنخزن الغلة في مطاميرها[2]، فمنها ما يطول صَبْرُهُ عليها نحوًا من مائة سنة. قال ابن سعيد: ولذلك أدامها اللَّه تعالى من وقت الفتح إلى الآن، وإن

---

(١) هو أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطي، تلميذ ابن باجة؛ برع في علم الألحان، وأجاد في نظم الشعر، وكان خبيث الهجاء. بغية الملتمس (ص ٥٣٢) والمغرب (جـ ٢ ص ١٢٠) والمطرب (ص ١٠٩).

(٢) المطامير: جمع مَطْمورة وهي الحفيرة تحت الأرض يُطْمَرُ فيها الطعام أي يُخَبَّأ. محيط المحيط (طمر).

كان العدوُّ قد نَقَصَها من أطرافها، وشارك في أوساطها ففي البقية منعة عظيمة، فأرض بقي فيها مثل إشبيلية وغَرْنَاطة ومالَقَةَ وألمرِيَّة وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الـمُـمَصَّرة، الرجاءُ فيها قويّ بحول اللّه وقوته، انتهى.

قلت: قد خاب ذلك الرجاء، وصارت تلك الأرجاء للكفر مَعْرجَا، ونسأل اللّه تعالى الذي جعل للهَمِّ فَرَجَا، وللضيق مخرجًا، أنْ يُعِيدَ إليها كلمةَ الإسلام حتى يَسْتَنْشِق أهلُه منه فيها أرَجَا! آمين.

ومن غرائب الأندلس: البيلتان[1] اللتان بطُلَيْطلة، صَنَعهما عبدُ الرحمن[2] لـمَّا سمع بخبر الطِّلّسْم[3] الذي بمدينة أرِينَ من أرض الهند، وقد ذكره المسعودي، وأنه يدور بإصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فَصَنَعَ هو هاتين البيلتين خارج طليطلة في بيت مجوّف في جوف النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين، ومن عجبهما أنهما تمتلئان[4] وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه، وذلك أنَّ أوّل انهلال الهلال[5] يخرج فيهما يَسِيْرُ ماء، فإذا أصبح كان فيهما [رُبْعُ][6] سُبْعِهِما من الماء، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصفُ سُبْعٍ، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصفُ سُبْعٍ حتى يكمل من الشهر سبعةُ أيام وسَبْعُ ليالٍ، فيكون فيهما نصفهما، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نَقَصَتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع [حتى يَتِمَّ القمرُ واحدًاوعشرين يومًا فينقص منهما نِصْفُهما ولا يزال كذلك ينقص في كل يوم وليلة نصف سبع][7]، فإذا كان تسعة وعشرون

(١) البيلتان: مثنى بيلة وهي كلمة إسبانية Pila وتعني الحوض.

(٢) قد يكون أبا القاسم عبد الرحمن الزرقال كما يقول الدكتور إحسان عباس في طبعة دار صادر الجزء الأول (ص ٢٠٦ حاشية ٢). وقد يكون أبا إبراهيم بن يحيىٰ الزَّرْقالي القرطبي، الذي عاش بطليطلة في عهد بني ذي النون، في عصر ملوك الطوائف، وكان من كبار علماء الفلك، حسبما جاء في تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٥١ ـ ٤٥٣).

(٣) الطِّلّسْمُ، بكسر الطاء وفتح الطاء المشددة وغير المشددة عبارة عن تمزيج القوى السماوية الفعّالة بالقوى الأرضية المنفعلة، والجمع طلاسم. محيط المحيط (طلسم).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «يمتلئان وينحسران».

(٥) أول انهلال الهلال: أي أول ظهوره؛ يقال: هَلَّ الهلالُ إذا ظهر، وانهلَّ المطر إذا اشتدَّ انصبابه مع صوت، واسْتُهِلَّ الهلال: ظهر. محيط المحيط (هلل).

(٦) أضَفْنا كلمة «ربع» لمقتضى السياق.

(٧) ما بين قوسين ساقط في طبعة عبد الحميد.

من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء، وإذا تكلّف أحدٌ حين تنقصان[1] أن يملأهما وجَلَب لهما الماء ابتلعا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلاّ ما كان فيهما في تلك الساعة، وكذا لو تكلّف عند امتلائهما إفراغهما ولم يُبْقِ منهما شيئًا ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين. وهما أعجب من طِلّسْم الهند؛ لأن ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار، وأما هاتان فليستا في مكان الاعتدال، ولم تزالا في بيت واحد حتى مَلَكَ النصارى - دَمَّرهم اللّه! - طُلَيْطلةَ، فأراد ألفُنْشُ أن يعلم حَرَكاتهما، فأمر أن تُقْلَعَ الواحدة منهما لينظر من أين يأتي إليها الماء، وكيف الحركة فيهما، فقلعت، فبطلت حركتهما، وذلك سنة ٥٢٨. وقيل: إن سبب فسادهما حُنَين[2] اليهودي الذي جَلَب حَمَام الأندلس كلها إلى طليطلة في يوم واحد، وذلك سنة ٥٢٧، وهو الذي أعلم ألفُنْشَ أنَّ ولده سيدخل قرطبة ويملكها، فأراد أن يكشف حركة البيلتين فقال له: أيها الملك، أنا أقلعهما وأردُّهما أحسن ممّا كانتا، وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتَحْسِران في الليل، فلما قلعت لم يقدر على ردِّها، وقيل: إنه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت، ولم تزل الأخرى تعطى حركتها، واللّه أعلم بحقيقة الحال.

وقال بعضهم في إشبيلية: إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها، ومدينة الأدب واللهو والطرب، وهي على ضفة النهر الكبير، عظيمة الشأن، طيبة المكان، لها البَرُّ المديد، والبحر الساكن، والوادي العظيم، وهي قريبة من البحر المحيط، إلى أن قال: ولو لم يكن لها من الشَّرف إلاّ موضع الشَّرف المقابل لها المطل عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتدّ فراسخ في فراسخ لَكَفَى، وبها منارة في جامعها بَنَاها يعقوبُ المنصور[3]، ليس في بلاد الإسلام أعظم بناء منها. وعَسَلُ الشرف يبقى حينًا لا يترمّل ولا يتبدّل، وكذلك الزيت والتين.

وقال ابن مُفْلح[4]: إن إشبيلية عَروسُ بلاد الأندلس؛ لأنَّ تاجها الشرف، وفي عنقها سمط النهر الأعظم، وليس في الأرض أتمّ حُسْنًا من هذا النهر، يُضَاهي دجلة والفرات

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ينقصان».
(٢) هو حنين بن زبوة اليهودي المنجم. نفح الطيب (جـ ١ ص ٢٠٧، حاشية ٢، طبعة دار صادر).
(٣) هو أمير المغرب والأندلس يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي، وقد تقدّمت ترجمته.
(٤) هو برهان الدين أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن مُفْلح؛ مؤرّخ وقاضٍ. توفي بدمشق سنة ٨٨٤ هـ. الأعلام (جـ ١ ص ٦٥، ومصادر حاشيته).

والنِّيلَ، تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار، وتغريد الأطيار، أربعةً وعشرين مِيلاً، ويتعاطى الناسُ السَّرْحَ[1] من جانبيه عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة، وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى. وبالجملة فهي قد حازت البَرَّ والبحر، والزَّرْعَ والضَّرْع[2]، وكثرة الثمار من كل جنس، وقَصَبَ السكر، ويجمع منها القرمز الذي هو أجلُّ من اللَّكّ[3] الهندي، وزيتونُها يُخَزَّنُ تحت الأرض أكثرَ من ثلاثين سنة، ثم يُعْتَصَرُ فيخرج منه أكثر ممّا يخرج منه وهو طري، انتهى ملخصًا.

ولما ذكر ابن اليسع الأندلس قال: لا يتزوَّدُ فيها أحدٌ ماءً حيث سلك؛ لكثرة أنهارها وعيونها، وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أَرْبَعَ مدائن، ومن المعاقل والقُرَى ما لا يُحْصَى، وهي بِطَاح خُضْر، وقصور بيض. انتهى[4].

قال ابن سعيد: وأنا أقول كلامًا فيه كفاية: منذ خَرَجْتُ من جزيرة الأندلس وطُفْتُ في بَرِّ العُدْوة، ورأيْتُ مدنَها العظيمةَ كمراكش وفاس وسلا وَسَبْتة، ثم طُفْتُ في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بِجَايَةَ وتونس، ثم دخلْتُ الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفُسْطاط، ثم دخلْتُ الشامَ فرأيتُ دِمشق وحَلَبَ وما بينهما ـ لم أَرَ ما يُشْبِهُ رَوْنَقَ الأندلس في مياهها وأشجارها إلاّ مدينة فاس بالمغرب الأقصى، ومدينة دمشق بالشام، وفي حَمَاة مَسْحة أندلسية، ولم أَرَ ما يُشْبهها في حُسْن المباني والتشييد والتصنيع، إلاّ ما شيّد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن، وبعض أماكن في تونس، وإنْ كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية، ولكن الإسكندرية أَفْسَحُ شوارعَ وأبسط وأبدع، ومباني حلب داخلةٌ فيما يُسْتَحْسَنُ؛ لأنها من حجارة صلبة، وفي وضعها وترتيبها إتقان، انتهى.

ومن أحسن ما جاء من النظم في الأندلس قولُ ابن سفر الْمَرِيني[5]، والإحسانُ له عادة: [البسيط]

---

(١) في طبعة دار صادر: «السّرج»، بالجيم.

(٢) الضَّرْعُ، بفتح الضاد وسكون الراء: لذوات الخفّ والبقر بمنزلة الثَّدْي للمرأة، ويريد به هنا الماشية.

(٣) اللَّكُّ: نبات يُصْبَغُ به. محيط المحيط (لكك).

(٤) كلمة «انتهى» ساقطة في طبعة عبد الحميد.

(٥) ابن سفر شاعر ألمرية في عصره، فالنسبة إذن «المريي» وليس «المريني» وقد تقدّمت ترجمته. وسترد هذه الأبيات في هذا الجزء من نفح الطيب، ببعض الاختلاف عمّا هنا.

فـي أرضِ أنـدلـسٍ تُـلْـتَـذُّ نَـعْـمـاءُ ... ولا يـفـارِقُ فـيـهـا الـقـلـبَ سَـرَّاءُ
وليس في غيرها بالعيشِ مُنْتَفَعٌ ... ولا تقومُ بحقِّ الأُنْسِ صَهْبَاءُ[1]
وأين يُعْدَلُ عن أرضٍ تَحُضُّ بها ... علـى الـمُـدَامـةِ أَمْـواهٌ وأفـيَـاءُ[2]
وكيف لا يُبْهِجُ الأبصارَ رؤيَتُها ... وكلُّ روضٍ بها في الوَشْيِ صَنعَاءُ[3]
أنهارُهَا فِضَّةٌ، والمِسْكُ تُرْبَتُها ... والخَزُّ رَوضَتُها، والدُّرُّ حَصْبَاءُ
ولـلـهـواء بـهـا لُـطْـفٌ يـرقُّ بـه ... مَنْ لا يرقُّ، وتَبْدُو منه أهْوَاءُ
ليس النسيمُ الذي يَهفُو بها سَحَرًا ... ولا انـتـشـارُ لآلـي الـطَّـلِّ أنـدَاءُ
وإنـمـا أَرَجُ الـنَّـدِّ اسْـتَـثَـارَ بـهـا ... في ماءِ وَرْدٍ فطابتْ منه أرجاءُ
وأين يَـبْـلُـغُ مـنـهـا ما أُصَـنِّـفُـهُ ... وكيف يَحْوِي الذي حازتْه إحْصَاءُ
قد مُيِّزَتْ مِنْ جهاتِ الأرض حين بَدَتْ ... فـريـدَةً وتـولَّـى مَـيْـزَهَـا[4] الـمـاءُ
دَارَتْ عليها نِطاقًا أَبْحُرٌ خَفَقَتْ ... وَجْدًا بها إذْ تَبَدَّتْ وَهْيَ حَسْناءُ[5]
لِذَاكَ يَبْسِمُ فيها الزَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ ... والطيرُ يَشْدُو ولـلأغصانِ إصْغَاءُ
فيها خَلَعْتُ عِذاري ما بها عِوَضٌ ... فَهْيَ الرِّياضُ، وكلُّ الأرضِ صَحْراءُ

ولله دَرُّ ابن خَفَاجة حيث يقول: [الرمل]

إنَّ لـلـجـنـة بـالأنـدلُـسِ ... مُـجْـتَـلَـى مَـرْأى وَرَيَّـا نَـفَـسِ
فَـسَـنَـى صُـبْـحَـتِـهـا مِـنْ شَـنَـبٍ ... ودُجَـى ظُـلْـمَـتِـهـا مـن لَـعَـسِ
فـإذا مـا هَـبَّـتِ الـرِّيـحُ صَـبًـا ... صِحْتُ وَاشَوقي إلى الأندلُسِ

وقد تقدمت هذه الأبيات[6].

---

(١) الصَّهْباء: الخمر، محيط المحيط (صهب).

(٢) تَحُضُّ: تحرِّضُ. المُدامة، بضم الميم: الخمر. أمواه: جمع ماء. محيط المحيط (حضض) و(دوم) و(موه).

(٣) صنعاء: مدينة عظيمة باليمن كثيرة الخيرات، تعمل بها الحبرات من القطن التي لا يقدر في غيرها على اتخاذ مثلها. الروض المعطار (ص ٣٥٩).

(٤) المَيْزُ: مصدر ماز؛ يقال ماز الشيء إذا مَيَّزه. لسان العرب (ميز).

(٥) النِّطاق، بكسر النون: شُقَّةٌ من ملابس النساء. مختار الصحاح (نطق). يقول: تحيط بها البحار كأنها نطاق أحاط بخصر شابة حسناء.

(٦) تقدمت هذه الأبيات ص ١٦١، وجاء هناك: «ليلتها» بدل «ظلمتها»، كما تقدمت ترجمة ابن خفاجة.

قال ابن سعيد: قال ابن خفاجة هذه الأبيات وهو بالمغرب الأقصى في بَرّ العُدْوَة، ومنزله في شرق الأندلس بجزيرة شَقْر[1].

وقال ابن سعيد في المغرب ما نصه: قواعد من كتاب «الشهب الثاقبة، في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة» أولُ ما تُقَدِّمُ الكلامَ على قاعدة السلطنة بالأندلس، فنقول: إنها مع ما بأيدي عُبَّادِ الصَّليب منها أعظم سَلْطنة كثرت ممالكها، وتَشَعَّبَتْ في وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها. وَنَدَعُ كلامنا في هذا الشأن، وننقل ما قاله ابن حَوْقل[2] النصيبي في كتابه لَـمَّا دخلها في مدة خلافة بني مَرْوَان بها في المائة الرابعة، وذلك أنه لـمّا وصفها قال[3]: وأما جزيرة الأندلس، فجزيرة كبيرة، طولها دون الشهر في عرض نَيِّف وعشرين مرحلة، تغلبُ عليها المياه الجارية والشجر والثمر، والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر، إلى أسباب التملّك الفاشية فيها، ولما هي به من أسباب رَغَد العيش وَسعَتِهِ وكثرته، يملك ذلك منهم مَهِينُهم[4] وأرباب صنائعهم لقلّة مُؤْنتهم وصلاح معاشهم وبلادِهم. ثم أخذ في عظم سلطَانها ووصف وُفور جِباياته وعظم مَرَافقه، وقال في أثناء ذلك: وممّا يُدَلُّ بالقليل منه على كثيره أنَّ سَكة دار ضَرْبه على الدراهم والدنانير دَخْلُها في كل سنة مائتا ألف دينار، وصَرْفُ الدينار سبعة عشر درهمًا، هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك.

وذكر ابن بَشْكُوال أن جباية الأندلس بلغت في مدّة عبد الرحمن الناصر[5] خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفًا، من[6] السوق، والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار.

---

(١) جزيرة شُقر، بالإسبانية Jucar: جزيرة بالأندلس، قريبة من شاطبة، وتبعد عن بلنسية ثمانية عشر ميلاً. الروض المعطار (ص ٣٤٩).

(٢) هو أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي الموصلي، صاحب كتاب «صورة الأرض». انظر ترجمته في مقدمة صورة الأرض.

(٣) النص في صورة الأرض (ص ١٠٤) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) المهين: الحقير؛ يقال: هان الرجلُ إذا حقر. محيط المحيط (هون).

(٥) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد، المعروف بالناصر لدين الله، وقد حكم الأندلس خمسين سنة (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ). المغرب (جـ ١ ص ١٨٢) والحلة السيراء (جـ ١ ص ١٩٧) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ١٥٦). وسيترجم له المقري في هذا الجزء من النفح.

(٦) في طبعة دار صادر: «ثم من السوق».

ثم قال ابن حَوْقل[1]: ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على مَنْ هي في يده مع صغر أحلام أهلها، وضَعَة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبُعْدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومِرَاسِ الأنجاد والأبطال، مع علم أمير المؤمنين بمحلّها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذّاتها.

قال علي بن سعيد مكمل هذا الكتاب: لم أَرَ بُدًّا من إثبات هذا الفصل وإنْ كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصّب ما لا يخْفَى، ولسانُ الحال في الردّ أَنْطَق من لسان البلاغة، وليت شعري إذ سلب أهلُ هذه الجزيرة العقولَ والآراء والهِمَم والشجاعة فَمَنِ الذين دَبَّرُوها بآرائهم وعقولهم مع مُرَاصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيّف؟ ومَنِ الذين حَمَوْها ببَسَالتهم من الأمم المتّصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب؟ وإني لأَعْجَبُ منه إذ كان في زمان قد دَلَفَتْ[2] فيه عبّاد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العَيْثِ في بلاد الشام، حيث الجمهورُ والقبة العظمى، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب، وما أدراك؟ وفعلوا فيها ما فعلوا، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة، إلى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ، ومن أعظم ذلك وأشدّه أنهم كانوا يتغلّبون على الحِصْن من حصون الإسلام التي يتمكّنون بها من بسائط بلادهم، فيَسْبُون ويأسِرُون، فلا تجتمع هِمَمُ الملوك المجاورة على حَسْم الداء[3] في ذلك، وقد يستعين به بَعْضُهُمْ على بعض، فيتمكّن من ذلك الداء الذي[4] لا يُطَبُّ[5]، وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضدّ من البلاد التي ترك وراء ظهره، وذلك موجود في تاريخ ابن حَيَّان وغيره، وإنما كانت الفتنة بعد ذلك. الأعلام بَيِّنَةٌ، والطريقُ واضح.

فلنرجع إلى ما نحن بسبيله: كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح على ما تَقَدَّم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين إفريقية، واختلافُ الولاة داعٍ إلى الاضطراب، وعدم تأثُّل[6] الأحوال وتربية الضخامة في الدولة، ولـمّا صارت الأندلسُ لبني أُمية وتوارثوا ممالكها وانقاد إليهم كلُّ أبيّ فيها وأطاعهم كلُّ عَصِيّ عظمت الدولة بالأندلس، وكبرت الهِمَمُ وتَرَتَّبَتِ الأحوالُ، وتَرَتَّبَتِ القواعد، وكانوا صَدْرًا من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء

---

(١) النص في صورة الأرض (ص ١٠٤) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) دَلَفَتْ: مشتْ مَشْي المُقَيَّد فوق الدبيب. محيط المحيط (دلف).

(٣) حسم الداء: يريد قطع مادة الفساد.

(٤) الذي: ساقطة في طبعة عبد الحميد.

(٥) يُطَبُّ: يُعالَجُ. محيط المحيط (طبب).

(٦) تَأَثُّلُ الأحوال: استقرارها. لسان العرب (أثل).

الخلائف، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة، وملكوا مِنْ بَرِّ العُدْوة وما ضخمت به دولتهم، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة، وتمكّن الناموس من قلوب العالم، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور، وتعظيم العلماء، والعمل بأقوالهم، وإحضارهم في مجالسهم، واستشارتهم، ولهم حكايات في تاريخ ابن حيّان: منها ما هو مذكور من توجُّه الحُكم على خليفتهم أو على ابنه أو أحدِ حاشيته المختصّين، وأنهم كانوا في نهاية من الانقياد إلى[1] الحق لهم أو عليهم، وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة. ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تَهَتَّكَ أمرهم، ثم اضْمَحَلَّ، وكانت ألقابُ الأُوَل منهم الأمراء أبناء الخلائف، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين، إلى أنْ وقعت الفتنةُ بحَسدِ بعضهم لبعض، وابتغاءِ الخلافة من غير وجهها الذي رُتِّبَتْ عليه، فاسْتَبَدَّتْ ملوكُ الممالك الأندلسية ببلادها، وسُمُّوا بملوك الطوائف[2]، وكان فيهم مَنْ خَطَبَ للخلفاء الْمرْوَانيين وإن لم يَبْقَ لهم خلافة، ومنهم مَن خطب للخلفاء العباسيين المُجْمَعِ على إمامتهم، وصار ملوك الطوائف يتباهَوْنَ في أحوال الملك، حتى في الألقاب، فآلَ أَمْرُهُمْ إلى أنْ تلقّبوا بنُعُوتِ الخلفاء، وترفّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى، وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفهِ والضخامة التي تَتَوَزَّعُ على ملوك شتى، فتكفيهم، وتنهض بهم للمباهاة. ولأجل تَوَثُّبِهِمْ على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيرواني[3]:

[البسيط]

مِمَّا يزهّدُني في أرض أَندَلُسٍ ... تلقيبُ مُعْتَضِدٍ فيها ومُعْتَمِدِ
أَلقابُ مملكةٍ في غير مَوضعها ... كالهِرِّ يَحْكي انتفاخًا صَوْلَةَ الأسد

وكان عَبَّاد بن محمد بن عَبَّاد قد تلقَّب بالمعتضد، واقتفى سيرة المعتضد العباسي أمير المؤمنين، وتلقَّب ابنُهُ محمد بن عبّاد بالمعتمد، وكانت لبني عبّاد مملكة إشبيلية ثم انضاف إليها غيرها.

---

(١) في طبعة دار صادر: «للحق».

(٢) في طبعة دار صادر: «الطوائف واستبدّوا».

(٣) البيتان في ديوان ابن رشيق القيرواني (ص ٥٩ ـ ٦٠) ببعض الاختلاف عمّا هنا. وهما في وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٢٨) لابن عمار الأندلسي. وسيردان في الجزء السادس من نفح الطيب باختلاف يسير عمّا هنا. والمعتضد هو عباد بن محمد، ابن عباد، صاحب إشبيلية في عهد ملوك الطوائف، حكم إشبيلية من سنة ٤٣٣ هـ حتى سنة ٤٦١ هـ. فوات الوفيات (جـ ٢ ص ١٤٧) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ٢٠٤). والمعتمد هو ابن المعتضد بن عباد، وقد تقدّمت ترجمته.

وكان خلفاء بني أُميّة يظهرون للناس في الأحيان على أُبَّهَة الخلافة، وقانون لهمْ في ذلك معروف، إلى أنْ كانت الفتنة، فازْدَرَتِ العيونُ ذلك الناموس، واسْتَخَفَّتْ به.

وقد كان بنو حَمُّود من ولد إدريس العَلَوي الذين تَوَثَّبُوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس، وكانوا إذا حضرهم منشدٌ لمدح أو مَنْ يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلّم من وراء حجاب، والحاجبُ واقفٌ عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة، ولمّا حَضَرَ ابن مَقَانا الأُشْبُونيّ[1] أمام حاجب إدريس[2] بن يحيىٰ الحمودي الذي خطب له بالخلافة في مالَقَة، وأنشده قصيدته المشهورة النونية التي منها قوله[3]: [الرمل]

وكأنَّ الشمْسَ لَمَّا أشْرَقَتْ فانْثَنَتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وَجْهُ إدريس بن يحيىٰ بن عليّ ابنِ حمودٍ أميرِ المؤمنينْ

وبلغ فيها إلى قوله:

انظرونا نَقْتَبِسْ من نوركُمْ إنه من نور ربِّ العالمينْ

رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: أَنْظُرْ كيف شِئْتَ؛ وانْبَسَطَ مع الشاعر، وأحسن إليه.

ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسَّطون للخاصّة وكثيرٍ من العامّة، ويُظْهِرون مداراة الجُنْدِ وعوام البلاد، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء، ويُحِبُّ أنْ يشهر عنه ذلك عند مباديه[4] في الرياسة.

ومذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام الجماعة، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارثُ أعيانُها الرياسةَ كما يتوارثُ ملوكُها الملك،

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن مُقانا الأُشبوني، الشاعر المشهور. انظر ترجمته في الذخيرة (ق ٢ ص ٧٨٦) والمغرب (جـ ١ ص ٤١٣) وجذوة المقتبس (ص ٢٧٩).

(٢) هو العالي أبو العلاء إدريس بن يحيىٰ بن علي بن حمود الفاطمي، خليفة مالقة في عصر ملوك الطوائف بالأندلس، بويع بمالقة سنة ٤٣٤ هـ ثم خُلع سنة ٤٣٨ هـ. البيان المغرب (جـ ٣ ص ٢٩١) والمغرب (جـ ١ ص ٤١٣).

(٣) هذه الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٧٩٢ ـ ٧٩٣). وسترد في هذا الجزء من نفح الطيب ضمن ثلاثين بيتًا.

(٤) في طبعة دار صادر: «عند مُباريه».

ومَرَنوا على ذلك، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد، وتمكّن العدوُّ منهم بالتفرّق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع، إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنة، والثوّار في المعاقل تثور، وتروم الكَرَّة، إلى أن ثار ابن هود[1]، وتلقّب بالمتوكّل، ووجد القلوب[2] منحرفة عن دولة بَرِّ العُدْوة، مهيأة للاستبداد، فَمَلَكَها بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط وضعف الرأي، وكان مع العامّة كأنه صاحب شَعْوَذة، يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم ويبادرهم بالسؤال. وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان، فأَعْجَبَ ذلك سفهاءَ الناس وعامّتهم العمياء، وكان كما قيل: [الوافر]

أُمورٌ يَضْحَكُ السفهاءُ منها ويَبْكي من عَوَاقبها الحليمُ

فآل ذلك إلى تَلَف القواعد العظيمة، وتملُّكِ الأمصارِ الجليلة، وخروجها من يد الإسلام. والضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارسًا يَبْرَع الفرسان[3] أو جوادًا يبرعُ الأجواد تهافتوا في نُصْرته، ونصبوه ملكًا من غير تدبير في عاقبة الأمر إلامَ يؤول[4]، وبعد أن يكون الملك في مملكة قد تُوُرِثَتْ وتُدُوْوِلَتْ، ويكون في تلك المملكة قائد من قوّادها قد شهرت عنه وقائع في العدوّ وظهر منه كرمُ نفسٍ للأجناد ومراعاة، قدّموه ملكًا في حصن من الحصون، ورَفَضوا عِيالهم وأولادهم - إنْ كان لهم ذلك - بكرسيّ الملك، ولم يزالوا في جهادٍ وإتلافِ أنفس حتى يظفر صاحبهم بطَلِبَتِهِ. وأهلُ المشرق أصوبُ رأيًا منهم في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نِصابه، لِئَلاَّ يدخلَ الخللُ الذي يقضي باختلاف القواعد وفساد التربية وحلّ الأوضاع.

ونحن نُمَثِّلُ في ذلك بما شاهدناه: لَمَّا كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس تَمَخَّضَتْ عن رجل من حصن يقال له أَرْجُونَة[5]، ويُعْرَفُ الرجلُ بابن الأحمر[6]، كان يكثر مُغَاوزة

(١) هو محمد بن يوسف بن هود الجذامي؛ مَلَك الأندلس بعد انقراض دولة الموحدين سنة ٦٢٥ هـ، وكان عاميًّا جاهلاً، شجاعًا كريمًا. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٧) والمغرب (جـ ٢ ص ٢٥١).

(٢) في طبعة دار صادر: «ووجد قلوبًا».

(٣) يَبْرَعُهُم: يفوقهم. مختار الصحاح (بَرَعَ).

(٤) في طبعة دار صادر: «في عاقبة، آلَ الأمرُ إلى ما يؤول إليه، وبعد».

(٥) أرجونة، بالإسبانية Arjona: مدينة أو قلعة بالأندلس، ينسب إليها محمد بن يوسف بن الأحمر الأرجوني. الروض المعطار (ص ٢٦).

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر المرواني؛ مَلَكَ الأندلس سنة ٦٣٥ هـ، فأسّس بغرناطة =

العدوّ من حِصْنه، وظهرت له مَخَايِلُ وشواهدُ على الشجاعة، إلى أنْ طار[1] اسمه في الأندلس، وآل ذلك إلى أن قدّمه أهلُ حصنه على أنفسهم، ثم نهض فَمَلَكَ قرطبةَ العظمى، ومَلَكَ إشْبِيلِيَةَ، وقتل ملكها الباجيّ، وملك جَيَّان أحْصَنَ بلد بالأندلس وأَجَلَّه قدرًا في الامتناع، ومَلَكَ غرْنَاطة ومَالَقَة، وسَمَّوْه بأمير المؤمنين، فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه.

وأمّا قاعدة[2] الوزارة بالأندلس، فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يُعَيِّنهم صاحبُ الدولة للإعانة والمشاورة، ويخصّهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصًا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسمّيه بالحاجب، وكانت هذه المراتب لضَبْطها عندهم كالمتوارَثَةِ في البيوت المعلومة لذلك، إلى أنْ كانتْ ملوكُ الطوائف، فكان الملكُ منهم - لعظم اسم الحاجب في الدولة الْمَرْوانية، وأنه كان نائبًا عن خليفتهم - يُسَمَّى بالحاجب، ويرى أنَّ هذه السمة أعظم ما تُنُوْفِسَ فيه وظُفِرَ به، وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم. وصار اسم الوزاوة عامًّا لكلِّ مَنْ يُجَالِسُ الملوكَ ويختصُّ بهم، وصار الوزير الذي ينوبُ عن الملك يُعْرَفُ بذي الوزارتين، وأكثرُ ما يكون فاضلاً في علم الأدب، وقد لا يكون كذلك، بل عالـمًا بأمور الملك خاصّة.

وأما الكتابة فهي على ضَرْبَينِ: أعلاهما: كاتب الرسائل، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السِّمة يخصّه[3] من يعظمه في رسالة. وأهلُ الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السِّمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصًا عن درجات الكمال لم يَنْفَعْهُ جاهُه ولا مكانه من سلطانه مِنْ تَسَلُّط الألسن في المحافل والطَّعْن عليه وعلى صاحبه. والكاتبُ الآخر كاتب الزمام، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة[4]، ولا يكون بالأندلس وبَرِّ العُدْوة لا نصرانيًّا ولا يهوديًّا البَتَّةَ، إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماءُ الناس ووجوههم.

= مملكة لبني الأحمر أو بني نصر امتدّت حتى عام ٨٩٧ هـ. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٨ - ٢٩١) والمغرب (جـ ٢ ص ١٠٩).

(١) في طبعة دار صادر: «سار اسمه».

(٢) القول لابن سعيد.

(٣) في طبعة دار صادر: «يخطّطه».

(٤) الجهبذة: المعرفة بتمييز الجيّد من الرديء. محيط المحيط (جهبذ).

وصاحبُ الأشغال الخراجية في الأندلس أعظمُ من الوزير، وأكثر أتباعًا وأصحابًا وأجْدَى منفعةً، فإليه تميلُ الأعناق، ونحوه تُمَدُّ الأكُفُ، والأعمال مضبوطةٌ بالشهود والنظار، ومع هذا إنْ تَأثَّلَتْ حالته واغترَّ بكثرة البناء والاكتساب نُكِبَ وصُودِرَ، وهذا راجع إلى تقلّب الأحوال وكيفية السلطان.

وأما خُطَّة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصّة والعامّة، لِتَعَلُّقِها بأمور الدين، وكون السلطان لو توجَّه عليه حكم حَضَرَ بين يدي القاضي، هذا وصفُها[1] في زمان بني أمية، ومَن سلك مسلكهم، ولا سبيلَ أن يتَّسم بهذه السِّمة إلاّ مَنْ هو والٍ للحكم الشرعي في مدينة جليلة، وإن كانت صغيرة فلا يُطْلَقُ على حاكمها إلاّ مسدّد، خاصة، وقاضي القضاة يقال له: قاضي القضاة، وقاضي الجماعة.

وأمَّا خطة الشُّرْطة بالأندلس، فإنها مضبوطة إلى الآن، معروفةٌ بهذه السِّمة، ويُعْرَفُ صاحبُها في ألسن العامّة بصاحب المدينة وصاحب الليل، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القَتْلُ لمَن وجب[2] عليه دون استئذان السلطان، وذلك قليل، ولا يكون إلاّ في حضرة السلطان الأعظم، وهو الذي يحدُّ على الزنا وشرب الخمر، وكثيرٌ من الأمور الشرعية راجعٌ إليه، قد صارت تلك عادة تقرّر عليها رضا القاضي، وكانت خطة القاضي أوْقَرَ وأتْقَى عندهم من ذلك.

وأما خطةُ الاحتساب، فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفِطَنِ، وكأنَّ صاحبها قاضٍ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكبًا على الأسواق، وأعوانُهُ معه، وميزانُهُ الذي يَزِنُ به الخبزَ في يد أحد الأعوان؛ لأنَّ الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم، وكذلك للثُّمن، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبيّ الصغير أو الجارية الرعْنَاء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان، وكذلك اللحمُ تكونُ عليه ورقةٌ بسعره، ولا يجسُر الجزارُ أنْ يبيعَ بأكثرَ أو دون ما حَدَّ له المحتسبُ في الورقة، ولا يكاد تخْفَى خيانته، فإن المحتسب يدسُّ عليه صبيًّا أو جارية يبتاع أحدهما منه، ثم يختبرُ الوزنَ المحتسبُ، فإنْ وَجَدَ نقصًا قاسَ على ذلك حالَه مع

---

(١) في طبعة دار صادر: «هذا وَضْعها».
(٢) في طبعة دار صادر: «يجب».

الناس، فلا تسألْ عمّا يَلْقَى، وإنْ كثر ذلك منه ولم يَتُبْ بعد الضرب والتجريس[1] في الأسواق نُفي من البلد. ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه؛ لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات وتتفرّع إلى ما يطول ذكره.

وأما خطة الطواف بالليل وما يقابل من الْمَغْرب أصحاب أرباع في المشرق، فإنهم يُعْرَفُونَ في الأندلس بالدرّابين؛ لأنَّ بلاد الأندلس لها دُروب بأغلاق[2] تغلق بعد العَتَمة، ولكل زُقاق بائتٌ فيه، له سراج مُعَلَّقٌ وكَلْبٌ يَسْهَرُ وسلاحٌ معدّ، وذلك لشطارة[3] عامّتها وكثرة شرّهم، وإعيائهم[4] في أمور التلصّص، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة، ويفتحوا الأغلاق الصعبة، ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك، ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع «دارُ فلانٍ دُخِلَت البارحة» و«فلانٌ ذَبَحَهُ اللصوصُ على فراشه» وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدّة الوالي ولينه، ومع إفراطه في الشدّة وكون سيفه يقطر دمًا فإن ذلك لا يعدم، وقد آل الحالُ عندهم إلى أن قتلوا على عنقودٍ سرقه شخصٌ مِنْ كَرْمٍ وما أشبه ذلك، ولم[5] ينته اللصوص.

وأمّا قواعد أهل الأندلس في ديانتهم، فإنّها تختلف بحسب الأوقات والنظر إلى السلاطين، ولكن الأغلب عندهم إقامةُ الحدود، وإنكارُ التهاون بتعطيلها، وقيامُ العامّة في ذلك وإنكارُه إنْ تهاون فيه أصحابُ السلطان، وقد يَلِجُ السلطانُ في شيء من ذلك ولا ينكره، فيدخلون عليه قَصْرَهُ المشيد ولا يعبأون بخيله ورَجْله حتى يخرجوه من بلدهم، وهذا كثير في أخبارهم. وأمّا الرَّجْمُ بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يَعْدِلوا فَكُلَّ يوم.

وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدَّرْوَزَة[6] التي تُكْسِلُ عن الكَدّ

---

(١) التجريس: من جَرَّس بالقوم أي أشهر عيوبهم ونقائصهم. محيط المحيط (جرس).

(٢) الأغلاق: جمع غَلَق وهو ما يُغْلَقُ به الباب أي القُفْل. محيط المحيط (غلق).

(٣) الشطارة: مصدر شَطَرَ؛ يقال: شَطَرَ فلان إذا كان شاطرًا، والشاطر هو مَن أعيا أهله خُبْثًا. محيط المحيط (شطر).

(٤) في طبعة دار صادر: «وإغيائهم».

(٥) في طبعة دار صادر: «فلم».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «الدورة». والدروزة من دريوزة وهي كلمة فارسية معناها طلب الصدقة أو الكدية. محيط المحيط (دروز).

وتخرج[١] الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحةٌ عندهم إلى النهاية[٢]، وإذا رأوا شخصًا صحيحًا قادرًا على الخدمة يَطْلُبُ سَبُّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدّقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلاّ أن يكون صاحب عذر.

وأما حالُ أهل الأندلس في فنون العلوم، فتحقيقُ الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرصُ الناس على التميز، فالجاهلُ الذي لم يوفّقه اللّهُ للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرَى فارغًا عالَةً على الناس؛ لأنَّ هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم مُعَظَّمٌ من الخاصّة والعامّة، يشار إليه، ويحال عليه، ويَنْبُهُ قَدْرُهُ وذِكْرُهُ عند الناس، ويُكْرَمُ في جِوارٍ أو ابتياع حاجة، وما أشبه ذلك. ومع هذا فليس لأهل الأندلس مَدَارِسُ تُعِينُهُمْ على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأُجرة، فهم يقرأون لأنْ يعلموا لا لأنْ يأخذوا جاريًا[٣]، فالعالم منهم بارع؛ لأنه يطلب ذلك العلم بباعثٍ مِنْ نفسه يَحْمِلُهُ على أنْ يترك الشغلَ الذي يستفيدُ منه، ويُنْفِقُ من عنده حتى يعلم، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلاّ الفلسفة والتنجيم، فإنَّ لهما حظًّا عظيمًا عند خواصّهم، ولا يُتَظاهَرُ بها خَوفَ العامّة، فإنه كلّما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشتغل بالتنجيم» أَطْلَقَتْ عليه العامّة[٤] اسمَ زنديق، وقَيَّدَتْ عليه أنفاسه، فإنْ زلَّ في شبهة رجَمُوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرّبًا لقلوب العامّة، وكثيرًا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تَقَرَّبَ المنصور[٥] بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري واللّه أعلم. وقراءةُ القرآن بالسبع وروايةُ الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونقٌ ووجاهة، ولا مذهب لهم إلاّ مذهب مالك[٦]، وخواصّهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم

---

(١) في طبعة دار صادر: «وتُخْرِجُ».

(٢) في طبعة دار صادر: «إلى نهاية».

(٣) الجاري هنا بمعنى المُرَتَّب.

(٤) كلمة «العامة» ساقطة في طبعة عبد الحميد.

(٥) هو أبو عامر محمد بن عبد اللّه ابن أبي عامر المعافري، حاجب الأندلس في دولة المؤيد باللّه هشام ابن الحكم المستنصر، حَجَبَ المؤيدَ وصار بمنزلة سلطان الأندلس بلا منازع. الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٦٨) والمغرب (جـ ١ ص ١٩٩) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٥٦).

(٦) هو الإمام مالك بن أنس، وقد تقدّمت ترجمته.

ذوي الهِمَم في العلوم. وسِمَةُ الفقيه عندهم جليلة، حتى إن الملثمين[1] كانوا يسمّون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه؛ لأنها عندهم أرفع السِّمات.

وعلم الأصول عندهم متوسّطُ الحال، والنَّحْوُ عندهم في نهاية من علوّ الطبقة، حتى إنهم في هذا العَصْر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يَزْدادُ مع هَرَم الزمان إلاّ جِدَّةً، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أيّ علم لا يكون متمكّنًا من علم النحو ـ بحيث لا تخفى عليه الدقائق ـ فليس عندهم بمستحقّ للتمييز، ولا سالم من الازدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواصّ والعوامّ كثير الانحراف عمّا تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو أنّ شخصًا من العرب سمع كلام الشلوبيني[2] أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غرّبت تصانيفه وشرّقَتْ وهو يُقرِىء دَرْسَهُ لَضَحِكَ بملء فِيْه مِنْ شدّة التحريفِ الذي في لسانه، والخاصُّ منهم إذا تكلّم بالإعراب وأخذ يَجْرِي على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مراعًى عندهمْ في القراآت والمخاطبات بالرسائل. وعلْـمُ الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أَنْبَلُ علم عندهم، وبه يُتَقَرَّبُ مِنْ مجالس ملوكهم وأعلامهم، وَمَنْ لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غُفْلٌ[3] مستثقل.

والشعرُ عندهم له حظٌّ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم حظ ووظائف، والمُجِيدُونَ منهم يُنْشِدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويُوَقَّعُ لهم بالصِّلات على أقدارهم، إلاّ أنْ يختلَّ الوقتُ ويغلبَ الجهلُ في حين ما، ولكن هذا الغالبُ. وإذا كان الشخصُ بالأندلس نَحْوِيًا أو شاعرًا فإنه يَعْظُمُ في نفسه لا محالة ويسخف ويُظْهِرُ العُجْبَ، عادةٌ قد جُبِلُوا عليها.

وأما زِيُّ أهلِ الأندلس، فالغالبُ عليهم تركُ العمائم، لا سيما في شرق الأندلس،

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «إن المسلمين». والملثمون هم المرابطون الذين حكموا المغرب والأندلس، وجاء بعدهم الموحّدون.

(٢) هو عمر بن محمد بن عمر الأندلسي الإشبيلي النحوي، المعروف بالشَّلَوْبِيني، نسبة إلى الشَّلَوْبِين، ومعناه بلغة الأندلس الأبيض الأشقر. كان إمام عصره في النحو بلا مدافع، توفي سنة ٦٤٥ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٤٥١) وبغية الوعاة (ص ٣٦٤).

(٣) الرَّجُلُ الغُفْلُ: الذي لا يُجَرِّبُ الأمور، والمراد هنا المهمل لصغر شأنه.

فإنَّ أهل غربها لا تكادُ ترى فيهم قاضيًا ولا فقيهًا مُشارًا إليه إلاّ وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك، ولقد رأيْتُ عزيز بن خطاب[١] أكبر عالم بمُرْسِية حضرة السلطان في ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خُطِبَ له بالملك في تلك الجهة، وهو حاسِرُ الرأس، وَشَيْبُه قد غلب على سواد شعره. وأما الأجناد وسائر الناس، فقليلٌ منهم مَنْ تَرَاه بعمّةٍ في شرقٍ منها أو في غرب، وابنُ هود الذي مَلَكَ الأندلسَ في عصرنا رأيْتُه[٢] في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة، وكذلك ابن الأحمر الذي معظمُ الأندلس الآن[٢] في يده، وكثيرًا ما يتزيَّا سلاطينُهم وأجنادهم بزيِّ النصارى المجاورين لهم، فسلاحُهُم كسلاحهم، وأقبيتهم من الإشكرلاط[٣] وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسُروجهم.

ومحاربتهم بالتُّراس والرِّماح الطويلة للطعن، ولا يعرفون الدبابيس، ولا قِسِيَّ العرب، بل يعدون قِسِيَّ الإفرنج للمحاصرات في البلاد، أو تكون للرجّالة عند المصافقة[٤] للحرب، وكثيرًا[٥] ما تصبر الخيلُ عليهم أو تُمْهِلُهُمْ لأنْ يؤثروها[٦] ولا تجد في خواصّ الأندلس وأكثر عوامّهم مَنْ يمشي دون طَيْلَسان[٧]، إلاّ أنه لا يضعه على رأسه منهم إلاّ الأشياخ المعظّمون، وغفائر[٨] الصوف كثيرًا ما يَلْبَسُونها حُمْرًا وخُضْرا؛ والصُّفْرُ مخصوصةٌ باليهود، ولا سبيل[٩] ليهودي أن يَتَعَمّمَ البَتَّة، والذؤابة لا يُرْخِيها إلاّ العالمُ، ولا يصرفونها بين الأكتاف، وإنّما يُسْدِلُونها من تحت الأذن اليسرى. وهذه الأوضاع التي بالمشرق في

---

(١) هو أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن سليمان بن خطاب القيسي، من بيت مشهور بمرسية. عالم مشهور بالزهد، وشيخ مرسية في دولة محمد بن هود. قتل بمرسية سنة ٦٣٦ هـ. الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ١٤٤) والمغرب (جـ ٢ ص ٢٥٢) واختصار القدح المعلى (ص ١٤٦).

(٢) قوله: «رأيته» و«الآن» يعود إلى ابن سعيد؛ لأن المقري توفي بعد سقوط الأندلس.

(٣) الإشكرلاط: بالإسبانية Escarlata ومعناه «قِرْمزي»، وهو نوع من الجوخ، قرمزي اللون. قاموس ف. كورينطي.

(٤) لم نجد في كتب اللغة كلمة «المصافقة»، بل فيها: «مصافّة»؛ يقال: صافّ القومُ القومَ في القتال مصافّةً إذا وقفوا مصطفين. محيط المحيط (صفف).

(٥) في طبعة دار صادر: «وقليلاً».

(٦) في طبعة دار صادر: «يُوبَرُوها».

(٧) الطَّيْلسان: كساء مدوّر أخضر لُحْمَتُهُ أو سَدَاهُ من صوف يلبسه الخواصّ من العلماء والمشايخ. محيط المحيط (طلس).

(٨) الغفائر: جمع غفارة وهي خرقة تكون دون المقنعة تُوَقّي بها المرأة خِمارها. محيط المحيط (غفر).

(٩) في طبعة دار صادر: «إلى يهودي».

العمائم لا يعرفها أهـل الأندلس، وإنْ رأوا في رأس مشرقي داخِلٍ إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجّب والاستظراف، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها؛ لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم، وكذلك في تفصيل الثياب.

وأهلُ الأندلس أَشَدُّ خلقِ اللّه اعتناءً بنظافة ما يَلْبَسُونَ وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلّق بهم، وفيهم مَنْ لا يكون عنده إلاّ ما يقوته يَومَهُ، فيطويه صائمًا ويبتاعُ صابونًا يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العَيْنُ عنها.

وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظٍ لِمَا في أيديهم خَوفَ ذُلِّ السؤال، فلذلك قد يُنْسَبون للبخل، ولهم مُروءاتٌ على عادة بلادهم، لو فَطِنَ لها حاتمٌ لَفَضَّلَ دقائِقَها على عظائمه؛ ولقد اجْتَزْتُ[1] مع والدي على قَرْية من قُرَاها، وقد نالَ منّا البَرْدُ والمطرُ أشدَّ النَّيْل، فأَوَينا إليها، وكنّا على حال ترقُّبٍ من السلطان وخلوٍّ من الرفاهية، فنَزلنا في بيت شيخ من أهلها، من غير معرفة متقدّمة، فقال لنا: إن كان عندكم ما أشتري لكم فحمًا تسخنون به فإني أمضي في حوائجكم، وأجعلُ عيالي يقومون بشأنكم، فأعطيْناه ما اشْتَرَى به فحمًا، فأَضْرَمَ نارًا، فجاء ابنٌ له صغيرٌ ليصطلي، فضربه، فقال له والدي: لِمَ ضَرَبْتَهُ؟ فقال: يتعلّم استغنام أموال[2] الناس والضَّجَرَ للبرد من الصغر، ثم لما جاء النوم قال لابنه: أَعْطِ هذا الشابَّ كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه، فدفع كساءه إليَّ، ثم لما قُمْنا عند الصباح وَجَدْتُ الصبيَّ مُنْتَبِهًا ويَدُهُ في الكِساء، فقلت ذلك لوالدي، فقال: هذه مروءات أهل الأندلس، وهذا احتياطهم، أعطاك الكِساء وفَضَّلَكَ على نفسه، ثم أَفْكَرَ[3] في أنك غريبٌ لا يعرفُ هل أنت ثقةٌ أو لصٌّ، فلم يَطِبْ له منامٌ حتى يأخذ كساءه خوفًا من انفصالك بها وهو نائم، وعلى هذا الشيء الحقير فَقِسِ الشيءَ الجليل؛ انتهى كلام ابن سعيد في «المغرب»[4] باختصار يسير.

وللّه دَرُّهُ! فإنه أَبْدَعَ في هذا الكتاب ما شاء، وقسمه إلى أقسام: منها كتاب «وَشْي الطِّرْسِ[5]، في حُلَى جزيرة الأندلس» وهو ينقسم إلى أربعة كتب[6]: الكتاب الأول كتاب

(١) الكلام يعود إلى ابن سعيد.

(٢) في طبعة دار صادر: «مال».

(٣) أَفْكَرَ في الشيء: تَفَكَّرَ وافتكر، محيط المحيط (فكر).

(٤) كلام ابن سعيد بدأ قبل صفحات عند حديثه عن الوزارة بالأندلس: «وأمّا قاعدة الوزارة بالأندلس. . . ».

(٥) الطِّرْسُ، بكسر الطاء وسكون الراء: الصحيفة، وجمعها أطراس وطُرُوس. لسان العرب (طرس).

(٦) في المغرب (جـ ١ ص ٣٣): «ينقسم كتاب المغرب إلى ثلاثة كتب».

«حَلْي العِرْسِ، في حلى غرب الأندلس»[1]. الكتاب الثاني «كتاب الشِّفاه اللُّعس، في حُلَى مَوْسِطَةِ الأندلس». الكتاب الثالث كتاب «الأُنُسُ في حُلَى شرق الأندلس». الكتاب الرابع كتاب[2] «لحظات المُرِيْب، في ذكر ما حماه من الأندلس عُبَّادُ الصليب». والقسم الثاني كتاب «الأَلْحان المسلية، في حُلَى جزيرة صقلية»[3] وهو أيضًا ذو أنواع. والقسم الثالث كتاب «الغاية الأخيرة، في حلى الأرض الكبيرة»[3] وهو أيضًا ذو أقسام، وصَوَّرَ ـ رحمه الله تعالى! ـ أجزاءَ الأندلس في كتاب «وَشْي الطُّرْس». وقال أيضـا: إن كلاً مِنْ شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب في قدر المساحة بعضُه من بعض، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام، ليصدق التثليث في القسمة، وهذا دون ما بقي بأيدي النصارى. وقَدَّمَ ـ رحمه اللّه! ـ كتابَ «حَلي العرس، في حِلَى غرب الأندلس»[4]؛ لكون قُرْطُبة قطبِ الخلافة المروانية وإشبيلية التي ما في الأندلس أجملُ منها فيه، وقَسَّمَهُ إلى سبعة كتب، كل كتاب منها يحتوي على مملكة منحازة عن الأخرى: الكتاب الأول كتاب «الحُلَّة المُذَهَّبة، في حُلَى مملكة قرطبة». الكتاب الثاني كتاب الذهبية الأصيلية، في حُلَى المملكة الإشبيلية». الكتاب الثالث كتاب «خدع المُمَالقة، في حلى مملكة مالَقَةَ»[5]. الكتاب الرابع كتاب «الفِرْدَوْس، في حُلى مملكة بَطَلْيَوْس». الكتاب الخامس كتاب «الخِلْب[6]، في حُلى مملكة شِلْب». الكتاب السادس كتاب «الديباجة، في حُلى مملكة بَاجَةَ». الكتاب السابع كتاب «الرياض المَصُونة، في حلى مملكة أُشْبُونة». وقد ذكر ـ رحمه اللّه تعالى ـ! في كل قسم ما يليق به، وصَوَّرَ أجزاءه على ما ينبغي، فاللّه يجازيهِ خيرًا! والكلامُ في الأندلس طويل عريض.

وقال بعض المؤرخين: طول الأندلس ثلاثون يومًا، وعرضها تسعة أيام، ويَشُقُّها أربعون نهرًا كبارًا، وبها من العيون والحمّامات والمعادن ما لا يُحْصَى، وبها ثمانون مدينة

(١) في المغرب: «كتاب العرس في حُلى غرب الأندلس».

(٢) هو الكتاب الثاني من جزيرة الأندلس المسيحية، واسمه: «كتاب لحظة المريب فيما بقي من جزيرة الأندلس لِعُبّاد الصليب». المغرب (جـ ٢ ص ٤٧٣).

(٣) لم يلحظ اسم هذا الكتاب في المغرب.

(٤) اسم الكتاب في المغرب (جـ ١ ص ٣٤): «كتاب العرس في حُلى غرب الأندلس».

(٥) جاء هذا الكتاب في المغرب سابعًا.

(٦) الخِلْب، بكسر الخاء وسكون اللام: الحجاب الذي بين القلب وسواد البطن، وقيل: حجاب الكبد، وقيل: غلاف البطن، محيط المحيط (خلب).

من القواعد الكبار، وأزيد من ثلثمائة من المتوسطة، وفيها من الحُصُون والقُرَى والبروج ما لا يُحْصَى كثرة، حتى قيل: إنَّ عدد القُرَى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية، وليس في معمور الأرض صُقْع يجد المسافرُ فيه ثلاث مدن وأربعًا من يومه إلاّ بالأندلس، ومِنْ بَرَكَتِها أنَّ المسافر لا يسافر[1] فيها فرسخين دون ماء أصلاً، وحيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والصحارى[2] والأودية ورؤوسِ الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة.

وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يومًا طولاً في ثمانية عشر يومًا عرضًا، وهو مخالف لما سبق.

وقال ابن سيده[3]: أخذتِ الأندلسُ في عرض الإقليمين الخامس والسادس من البحر الشامي في الجنوب إلى البحر المحيط في الشمال، وبها من الجبال سبعة وثمانون جبلاً، انتهى.

ولبعضهم: [الكامل]

لِلَّه أندلسٌ وما جَمَعَتْ بها ... مِنْ كُلِّ ما ضَمَّتْ لها الأهواءُ
فكأنما تلك الديار كواكب ... وكأنما تلك البقاعُ سماءُ
وبكلِّ قُطرٍ جَدْوَلٌ في جَنَّةٍ ... وَلِعَتْ بها الأفياء والأنداء[4]

وقال غيره[5]:

في أرض أندلسٍ تُلْتَذُّ نَعْماءُ ... ولا يُفَارِق فيها القَلْبَ سَرَّاءُ
وليس في غيرها بالعيش مُنْتَفَعٌ ... وَلا تقومُ بحقِّ الأُنسِ[6] صَهْبَاءُ
وَأَيْنَ يُعْدَلُ عن أرضٍ تَحُضُّ[7] بها ... على الشهادة أزواجٌ وأبناء

(١) في طبعة دار صادر: «لا يسير».
(٢) في طبعة دار صادر: «والشعاري».
(٣) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل، المعروف بابن سِيده؛ إمام في اللغة وآدابها بالأندلس. ولد بمرسية وانتقل إلى دانية فتوفي بها سنة ٤٥٨ هـ. من مؤلفاته «المخصص» و«المحكم». الصلة (ص ٦٠٦) ووفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٣٣٠).
(٤) الأفياء: جمع فيء وهو الظل. الأنداء: جمع نَدَى وهو البَلَل والمطر. مختار الصحاح (فيأ) و(ندي).
(٥) الأبيات لابن سفر المريي كما مرَّ معنا وببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٦) في طبعة دار صادر: «بحقِّ الماء».
(٧) في طبعة عبد الحميد: «يحضُّ».

وَأَيْنَ يُعْدَلُ عن أرض تَحُثُّ بها ... علـى الـمُـدَامـة أمـواه وأفـيـاء[1]
وكيف لا تُبْهِجُ الأبصارَ رؤيتُها ... وكلُّ أرضٍ بها في الوَشْيِ صَنْعَاء
أنهارُها فِضَّة، والمِسْكُ تُرْبَتُها ... والخَزُّ رَوْضتُها، والدُّرُّ حَصْبَاء
ولِلْهَواءِ بها لُطْفٌ يرقُّ به ... مَن لا يرقُّ، وتَبْدُو منه أَهْوَاء
ليس النسيمُ الذي يَهْفُو بها سَحَرًا ... ولا انتشار لآلي الطَّلِّ أنداء
وإنّما أرَجُ النِّدِّ اسْتشار بها ... في ماء وَرْدٍ فطابتْ منه أَرْجاء
وأينَ يَبْلُغُ منها ما أُصَنِّفُه ... وكيف يَحْوِي الذي حازته إحْصَاءُ
قد مُيِّزَتْ من جهات الأرض ثم بَدَتْ ... فريدةً، وتولَّى مَيْزُها الماءُ
دارتْ عليها نِطاقًا أَبْحُرٌ خَفَقَتْ ... وَجْدًا بها إذ تَبَدَّتْ وَهْي حسناء
لذاك يَبْسِمُ فيها الزَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ ... والطَّيْرُ يَشْدُو، وللأغصان إصغاء
فيها خَلَعْتُ عِذَارِي ما بها عِوَضٌ ... فَهْيَ الرياضُ، وكلُّ الأرضِ صَحْرَاء

وقد تقدمت هذه القصيدة[2].

وقال آخر: [الرمل]

حَبَّذا أندلسٌ مِنْ بَلَدٍ ... لم تزلْ تُنْتِجُ لي كلَّ سُرُورْ
طائرٌ شادٍ، وظِلٌّ وارفٌ ... ومياهٌ سائحاتٌ وقُصُورْ

وقال آخر: [الكامل]

يا حُسْنَ أندلسٍ وما جُمِعَتْ لنا ... فيها من الأوطارِ والأوطانِ[3]
تلك الجزيرةُ لستُ أَنْسَى حُسْنَها ... بتعاقُبِ الأحيانِ والأزمانِ
نَسَجَ الربيعُ نباتَها مِنْ سُنْدُسٍ ... مَوْشِيَّةً ببدائعِ الألوانِ
وغدا النسيمُ بها عليلاً هائِمًا ... بِرُبُوعِها وتلاطُمَ البَحْرانِ
يا حُسْنَها والطلُّ ينثرُ فوقها ... دُرَرًا خلالَ الوَرْدِ والرَّيْحانِ
وسواعِدُ الأنهارِ قد مدَّت إلى ... نُدَمائها بشقائقِ النُّعْمانِ
وتجاوبَتْ فيها شَوَادي طَيْرِها ... والْتَفَّتِ الأغصانُ بالأغصانِ

---

(١) في طبعة دار صادر: «على المدامة أفياء وأنداءُ».
(٢) تقدمت .
(٣) الأوطار: جمع وَطَر وهو الحاجة. مختار الصحاح (وطر).

مـا زُرْتُـهَـا إلاّ وحَـيَّـانـي بـهـا   حَدَقُ البَهَارِ وأنـمُلُ السُّـوسانِ[1]
مِنْ بَعْدِها ما أعجبتني بلدةٌ   مَعَ ما حَلَلْتُ به من البلدانِ

وحكى بعضهم أنَّ بالجامع من مدينة أُقْلِيشَ[2] بلاطًا فيه جوائزُ منشورةٌ مربعة مستوية الأطراف، طول الجائزة منها مائة شبر وأحد عشر شبرًا.

وفي الأندلس جبل، مَنْ شَرِبَ من مائه كثر عليه الاحتلام، من غير إرادة ولا تفكّر، وفيها غير ذلك مما يطول ذكره، واللّه أعلم.

ولْنُمْسِك العِنانَ في هذا الباب، فإنَّ بَحْرَ الأندلس طويل مديد، وربما كررنا الكلام لارتباط بعضه ببعض، أو لِنَقْلِ صاحِبِهِ المروي عنه، أو لاختلافٍ ما، أو غير ذلك من غرض سَديد.

(١) البَهَار، بالفتح: العَرار وهو نبت طيب الرائحة. السُّوسان: نبات من الرياحين طيب الرائحة وهو المعروف بالزنبق. محيط المحيط (بهر) و(سوسن).
(٢) أُقْليش: بالإسبانية Uclés، وقد تقدم الحديث عنها.

الباب الثاني
فتـــح الأنـــدلس

في إلقاء الأندلس للمسلمين بالقِيَاد[1]، وفتحها على يد موسى بن نُصَير ومولاه طارق ابن زياد، وصيرورتها ميدانًا لِسَبْق الجياد، ومحطَّ رَحْل الارتباء[2] والارتياد، وما يتبع ذلك من خبرٍ حصل بازديانه ازدياد، ونبإٍ وصل إليه اعتيام[3] وتقرّر بمثله اعتياد.

إِعْلَـمْ أنه لـما قضى اللّه سبحانه بتحقيق قول رسول اللّه، ﷺ: «زُوِيَتْ لِي مشارق الأرض ومغاربها، وسيبلغ مُلْك أُمتي ما زُوِيَ لي منها» وقع الخلافُ بين لُذَرِيقَ ملكِ القُوط وبين ملك سَبْتة الذي على مجاز الزُّقاق، فكان ما يُذْكَرُ مِنْ فتح الأندلس على يد طارق وطَرِيف ومولاهما الأمير موسى بن نُصَير، رحم اللّه الجميع!.

وذكر الْحِجَاري وابنُ حَيَّان وغيرُهما أن أوَّل مَنْ دخل جزيرة الأندلس من المسلمين برسم الجهاد طريفٌ البربريُّ مولى موسى بن نُصَير الذي تنسب[4] إليه جزيرةُ طَرِيف التي على المجاز، غزاها بـمَعُونة صاحب سَبْتة يُلْيَانَ النصراني، لِحِقْدِهِ على لُذَرِيقَ صاحب الأندلس، وكان في مائة فارس وأربعمائة راجل، جاز البحر في أربعة مراكب، في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين، وانصرف بغنيمة جليلة، فعقد موسى بن نُصَير صاحبُ المغرب

(١) القِياد، بكسر القاف: مصدر قاد، ويستعمل بمعنى الطاعة والإذعان؛ يقال: أعطى فلان القِيادَ إذا أذعن طوعًا أو كُرْهًا.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «الارتياء» بالياء. والارتباء هو تقديم الربيئة، والربيئة هي الطليعة. محيط المحيط (ربأ).

(٣) الاعتيام: مصدر اعتام، أي اختار. محيط المحيط (عيم).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «ينسب».

لمولاه طارق بن زياد على الأندلس، وَوَجَّهَهُ مع يُلْيَان صاحب سَبْتة، انتهى.

وسيأتي في أمر طريف وغيره ما يخالف هذا السياق، وهي أقوال.

وقال ابن حيّان: إن أول أسباب فتح الأندلس كان أنْ ولّى الوليدُ بن عبد الملك موسى بنَ نُصَير مولى عَمِّه عبد العزيز على إفريقية وما خَلْفَهَا سنة ثمانٍ وثمانين فخرج في نفر قليل من المُطَّوِّعة[1]، فلما ورد مِصْرَ أَخْرَجَ معه من جُنْدِهَا بَعْثًا، وفعل ذلك في إفريقية، وجعل على مقدّمته مولاه طارقًا، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مَدَائنهم، حتى بلغ مدينة طَنْجَة، وهي قصبة بلادهم وأُمُّ مدائنهم، فَحَصَرَها حتى فتحها، وأَسْلَمَ أهلُها، ولم تكن فُتِحَتْ قبله، وقيل: بل فُتِحَتْ ثم اسْتغلقت.

وذكر ابن حيّان أيضًا استصعاب سَبْتة على موسى بتدبير صاحبها الداهية الشجاعُ يُلْيَان النصراني، وأنه في أثناء ذلك وقع بينه وبين لُذَرِيق صاحب الأندلس، ثم سرد ما يأتي ذكره.

وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله: وحديثُ الفتح، وما مَنَّ اللّه به على الإسلام من المنح، وأخبارُ ما أفاء اللّهُ من الخير، على موسى بن نُصَير، وكتبٌ من جهاد، لطارق بن زياد، مملولُ قُصَّاصٍ[2] وأوراق، وحديثُ أُفُولٍ وإشراق، وإرعادٌ وإبراق، وعَظْمُ امتشاش[3]، وآلةٌ مُعَلَّقةٌ في دكان قَشَّاش[4]، انتهى.

وقال في المغرب: طارق بن زياد من إفريقية.

وقال ابن بَشْكُوَال: إنه طارق بن عمرو، فتح جزيرة الأندلس ودوَّخها، وإليه يُنْسَبُ جبل طارق الذي يعرفه العامّة بجبل الفتح، في قبلة الجزيرة الخضراء، ورحل مع سَيِّده بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره، انتهى.

---

(١) المُطَّوِّعة: الذين يتطوّعون بالجهاد، والأصل: المتطوعة، فأدغمت التاء بالطاء. محيط المحيط (طوع).

(٢) هذا الجمع لم نعثر عليه في كتب اللغة، وأغلب الظن أنه يريد أن يجمعه على قِصّة، ويريد أنه كثر ذكر الأخبار له حتى ملّها.

(٣) الامتشاش: من امتشّ فلانٌ من مال فلان إذا أصاب منه، وتَمَشَّش العظمَ: أكل مُشاشه أي مُخّه. محيط المحيط (مشش).

(٤) القَشّاش: جامع القُشاشَى، والقُشَاشَى: اللُقاطة أي ما كان ساقطًا مما لا قيمة له. محيط المحيط (قشش) و(لقط).

وقال أيضًا: إنَّ طارقًا كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كَتْبُهُ، وأما المعارف السلطانية فيكفيه ولاية سلطنة الأندلس وما فَتَحَ فيها من البلاد إلى أنْ وصل سيده موسى بن نُصَيْر.

ومن تاريخ ابن بَشْكُوَال: احتلّ طارق بالجبل المنسوب إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين في اثني عشر ألفًا غير اثني عشر رجلاً من البربر، ولم يكن فيهم من العرب إلاّ شيء يسير، وإنه لَمّا ركب البحرَ رأى، وهو نائم، النبيَّ، ﷺ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوفَ وتنكّبوا القِسِيّ[1]، فيقول له رسول الله، ﷺ: «يا طارق، تَقَدَّمْ لشأنك»، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه، فَهَبَّ من نومه مستبشرًا، وبَشَّرَ أصحابه، وثابَتْ نفسُه ببشراه، ولم يشكَّ في الظفر، فخرج من الجبل، واقتحم بسيط البلد شَانًّا للغارة، وأصاب عجوزًا من أهل الجزيرة فقالت له في بعض قولها: إنه كان لها زوج عالِم بالحدثان، فكان يحدّثهم عن أمير يدخل إلى بلادهم هذا فيغلب عليه، ويصف من نعته أنه ضَخْم الهامة[2]، فأنت كذلك، ومنها أن في كتفه الأيسر[3] شامة عليها شَعْر، فإن كانت فيك فأنت هو، فكشف ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت، فاستبشر بذلك ومَنْ معه.

ومن تاريخ ابن حيّان: لما حَرَّض يُلْيَانُ النصراني صاحبُ سَبْتة للأمر الذي وقع بينه وبين صاحب الأندلس موسى بنَ نُصَيْر على غزو الأندلس جَهَّزَ لها مولاه طارقًا المذكور في سبعة آلاف من المسلمين، جُلُّهُم[4] البربر، في أربع سفن، وحَطَّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين، ولم تزل المراكب تعود حتى توافى جميعُ أصحابه عنده بالجبل، قال: ووقع على لُذَريق صاحبِ الأندلس الخبرُ، وأنَّ يُلْيان السبب فيه، وكان يومئذ غازيًا في جهة البَشْكَنس، فبادر في جموعه وهم نحو مائة ألف ذوي عُدّة[5] وعَدَد، وكتب طارق إلى موسى بأنه قد زحف عليه[6] لُذَريق بما لا طاقة له به، وكان عمل من السفن عِدّة، فَجَهَّزَ له فيها خمسة آلاف من المسلمين، فكملوا بمَن تَقَدَّمَ

(١) القِسِيُّ: جمع قوس.
(٢) الهامة: الرأس، وقد يقصد الجثة. محيط المحيط (هوم).
(٣) في طبعة دار صادر: «في كتفه اليسرى».
(٤) في طبعة دار صادر: «جلّهم من البربر».
(٥) في طبعة دار صادر: «ذوي عددٍ وعُدّة».
(٦) في طبعة دار صادر: «زحف إليه».

آثني عشر ألفًا، ومعهم يُلْيانُ صاحبُ سَبْتَةَ في حَشْده يَدُلُّهم على العَوْرات، ويتجسّس لهم الأخبار، وأقبل نحوهم لُذَرِيق ومعه خيار العجم وأملاكها وفرسانها، وقلوبهم عليه، فتلاقَوْا فيما بينهم، وقالوا: إن هذا الخبيث غلب على سلطاننا، وليس من بيت الملك، وإنّما كان من أتباعنا، ولَسْنا نعدم من سيرته خَبَالاً واضطرابًا، وهؤلاء القوم الذين طَرَقُوا لا حاجةَ لهم في إيطان بلدنا، وإنّما مرادُهُمْ أنْ يملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنّا، فهلمّ فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم، فلعلّهم يكفوننا أمره، فإذا هم انصرفوا عنّا أقعدنا في ملكنا مَنْ يستحقه، فأجمعوا على ذلك، انتهى.

وقال ابن خلدون[١] ـ بعد ذكره أن القوطيين كان لهم ملك الأندلس، وأن مَلِكهم لعهد الفتح يُسَمَّى لُذَرِيقَ ـ ما نَصُّه: «وكانت لهم خَطْوة وراء البحر في هذه العُدْوة الجنوبية خَطَوْها من فُرْضة المجاز بِطَنْجة، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر، واستعبدوهم. وكان ملك البربر[٢] بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى يُلْيَان[٣]، فكان يَدِينُ بطاعتهم وبملّتهم، وموسى بن نُصَير أمير العرب[٤] إذ ذاك عامل على إفريقية مِنْ قِبَلِ الوليد بن عبد الملك، ومنزلُه بالقَيْروان. وكان قد أغزى لذلك العهد عساكرَ المسلمين بلاد المغرب الأقصى، ودَوَّخ أقطاره، وأثخن[٥] في جبال طَنْجة هذه حتى وصل خليج الزُّقاق، واستنزل يُلْيَان[٣] لطاعة الإسلام، وخَلَّف مولاه طارق بن زياد الليثي والـيًا بطَنْجة، وكان يُلْيان[٣] ينقم على لذرِيقَ ملكِ القوط لعهده بالأندلس فعلةً فعلها زعموا[٦] بابنته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارقتهم، فغضب لذلك، وأجاز إلى لذريق، وأخذ ابنته منه. ثم لحق بطارق فكشف للعرب عَورَةَ القوط ودلّهم على عورة[٧] فيهم أمكنت طارقًا فيها الفرصةُ فانتهزها لوقته، وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نُصَير في

---

(١) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٥٣ ـ ٢٦١).
(٢) في تاريخ ابن خلدون: «البرابرة».
(٣) في تاريخ ابن خلدون: «بليان، فكان».
(٤) في نسختي عبد الحميد ودار صادر: «المغرب»، وقد صحّحناه عن تاريخ ابن خلدون؛ لأنه الأصوب للسياق.
(٥) في تاريخ ابن خلدون: «وأوغل».
(٦) في المصدر نفسه: «بالأندلس لفعله بابنته في داره كما زعموا، على عادتهم في بنات... فأخذ ابنته منه».
(٧) في المصدر نفسه: «على غرّة فيهم أمكنت طارقًا الفرصة...».

نحو ثلثمائة من العرب، واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف، فَصَيَّرها عسكرين[١]؛ أحدهما على نفسه ونَزَلَ به جبل الفتح، فسمِّي جبل طارق به، والآخر على طريف بن مالك النخعي، ونَزَلَ بمكان مدينة طريف، فَسُمِّي به، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصّن. وبلغ الخبرُ إلى[٢] لُذَرِيقَ فنهض إليهم يجرُّ أُمَم الأعاجم وأهل ملّة النصرانية في زُهَاء أربعين ألفًا، وزحفوا إليه[٣]، فالتقوا بفَحْص شَرِيش، فهزمه اللّه ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم. وكتب طارق إلى موسى بن نُصَير بالفتح وبالغنائم، فحرّكته الغَيْرة، وكتب إلى طارق يتوعَّده إنْ توغّل[٤] بغير إذنه، ويأمره أنْ لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف على القَيْرَوَان ولده عبدَ اللّه، وخرج معه حبيب بن منده الفِهْري[٥]. ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي[٦] وعُرَفاء البربر، ووافَى خليجَ الزُّقاق ما بين طَنجة والجزيرة الخضراء، فأجاز إلى الأندلس، وتلقّاه طارق فانقاد واتبع، وأتـمَّ موسى الفتحَ، وتوغّل في الأندلس إلى بَرْشَلُونة[٧] في جهة الشرق وأربونة في الجوف[٨]، وصنم قادس في الغرب، ودوَّخ أقطارها، وجَمَعَ غنائمها. وأجمع[٩] أنْ يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام دُرُوبه[١٠] ودُروب الأندلس، ويخوض[١١] إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية، مجاهدًا فيهم، مستلحمًا لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة. ونمي الخبر إلى الوليد فاشتدَّ قَلقُه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أنَّ ما هَمَّ به موسى غَرَرٌ بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف. وأسرَّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع[١٢]، وكتب له بذلك عهده، ففتَّ ذلك

---

(١) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٥٤): «فصيَّرهم عسكرًا، ونزل بهم جبل الفتح...».

(٢) في تاريخ ابن خلدون: «الخبر لرذريق».

(٣) «وزحفوا إليه» ساقطة في تاريخ ابن خلدون.

(٤) في تاريخ ابن خلدون: «يتوعده بأنه يتوغل».

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «وخرج معه حسين بن أبي عبد اللّه المهدي الفهري».

(٦) في طبعة دار صادر ونسخة عبد الحميد: «العرب الموالي». وقد أضفنا واو العطف مراعاة للسياق التاريخي، وحسبما جاء في تاريخ ابن خلدون.

(٧) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٥٥): «البرشلونة».

(٨) الجوف عند أهل الأندلس يعني الشمال، وقد تقدّم الحديث عن ذلك.

(٩) في تاريخ ابن خلدون: «وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية».

(١٠) كلمة «دروبه» ساقطة في تاريخ ابن خلدون.

(١١) في تاريخ ابن خلدون: «ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم أُمم النصرانية...».

(١٢) في المصدر نفسه: «يرجع هو».

في عَزْم موسى، وقَفَل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها، وأنزل ابنه عبدَ العزيز لسدِّها وجهاد عدوِّها[1]، وأنزله بقرطبة فاتّخذها دار إمارة، واحتلّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل إلى المشرق سنة ستّ بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العَجَل والظَّهر. يقال: إن[2] من جملتها ثلاثين ألفَ رأسٍ من السّبي، وولّى على إفريقية ابنَه عبدَ اللّه، وقدم على سليمان بن عبد الملك[3] فسَخِطَه ونَكَبه. وثارت[4] عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته، وكان خَيِّرًا فاضلاً، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة. ووليَ مِنْ بَعْده أيوبُ بنُ حبيب اللخمي، وهو ابن أُخت موسى بن نُصَير، فولي[5] عليها ستة أشهر. ثم تتابعتْ وُلاَةُ العرب على الأندلس؛ تارة[6] من قبل الخليفة، وتارة من قبل عامله بالقَيْرَوان، وأثخنوا في أُمم الكفر، وافتتحوا بَرْشَلُونة من جهة المشرق، وحصون قَشْتَالة وبسائطها من جهة الجوف، وانقرضت أُمم القُوطِ، وأَوَى[7] الجلالقةُ ومَنْ بقي من أُمم العجم إلى جبال قَشْتالة وأَرْبُونة وأفواه الدُّروب فتحصَّنوا بها، وأجازت عساكر المسلمين ما وراء بَرْشلونة من دروب الجزيرة حتى احْتَلُّوا البسائط[8] وراءها، وتوغَّلوا في بلاد الفرنجة، وعصفت ريح الإسلام بأُمم الكفر من كل جهة، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلافٌ وتَنَازعٌ أَوْجَدَ للعدوّ بعضَ الكَرَّة، فَرَجَّعَ الإفرنجُ ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد بَرْشلونة لعهد ثمانين سنة من لَدُنِ فتحها، واستمرَّ الأمز على ذلك[9]».

وكان[10] محمد بن يزيدعامل إفريقية لسليمان بن عبد المَلك ـ لـمّا بلغه مَهْلِكُ عبد

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: «عبد العزيز لغزوها وجهاد أعدائها».
(٢) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٥٦): «يقال: كان من جملتها ثلاثون. . .».
(٣) «ابن عبد الملك» ساقطة في تاريخ ابن خلدون.
(٤) في تاريخ ابن خلدون: «وسارت عساكر».
(٥) في المصدر نفسه: «فتولّى عليها».
(٦) في المصدر نفسه: «فتارة من قبل. . . على القيروان. . . من جهة الشرق».
(٧) في تاريخ ابن خلدون: «وأرزا»، وفي طبعة دار صادر: «وأرز».
(٨) في تاريخ ابن خلدون: «بسائط. . . وعصف. . .».
(٩) في المصدر نفسه: «وتنازعٌ، أوجب. . . فَرَجَّع الفرنج ما كانوا غلبوهم عليه».
(١٠) ما يزال الكلام لابن خلدون.

العزيز بن موسى بن نُصَير - بعث إلى الأندلس الحرَّ[1] بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، فَقَدِمَ الأندلس، وعَزَل أيوبَ بن حبيب، وولي سنتين وثمانية أشهر.

«ثم بعث عمرُ بنُ عبد العزيز على الأندلس السَّمْحَ بن مالك الخَوْلاني على رأس المائة من الهجرة، وأمرهُ أن يَخْمُسَ أرضَ الأندلس، فَخَمَسَهَا، وبنى قنطرة قرطبة، واسْتُشْهِد غازيًا بأرض الفرنجة سنة اثنتين ومائة، فقدَّم أهلُ الأندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقي إلى أنْ قَدِمَ عَنْبَسَةُ بن سُحَيم[2] الكلبي مِنْ قِبَلِ يزيد بن أبي مسلم عامل إفريقية، فقَدِمَها[3] في صفر سنة ثلاث ومائة، فاستقام أمر الأندلس، وغزا الفرنجة، وتوغَّلَ في بلادهم، واسْتُشْهِدَ سنة سبع ومائة لأربع سنين وأربعة أشهر»[3].

«ثم[4] تتابعت وُلاَةُ الأندلس مِنْ قِبَلِ أمراء إفريقية، فكان[5] أولهم يحيىٰ بن سلمة الكلبي، أنفذه بِشْرُ[6] بن صَفْوَان الكلبي والي إفريقية، لـمَّا اسْتَدْعَى منه أهل الأندلس واليًا بعد مقتل عَنْبَسَة، فَقَدِمها آخر سنة سبع، وأقام في ولايتها سنتين ونصفًا، ولم يَغْزُ، وقَدِمَ إليها عثمان بن أبي نِسْعَةَ اللخمي[7] واليًا من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السُّلَمي صاحب إفريقية، وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص القيسي[8] فوافاها سنة عشر، وعُزل قريبًا يقال: لسنة من ولايته، واختلف: هل تقدَّمه عثمان أو هو تقدّم عثمان؟ ثم وليَ بعده الهيثمُ ابن عبيد الكلابي[9] مِنْ قِبَلِ عُبَيدة بن عبد الرحمن أيضًا، قَدِمَ في المحرم سنة إحدى عشرة، وغزا أرض مَقوشة[10] فافتتحها. وتوفي[11] سنة ثلاث عشرة ومائة لسنتين من ولايته،

(١) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٥٧): «الحرث بن عبد الرحمن بن عثمان، فقدم...».
(٢) في المصدر نفسه: «شحيم» بالشين المعجمة.
(٣) من: «فقدمها حتى... وأربعة أشهر» ساقطة في تاريخ ابن خلدون.
(٤) لا يزال الكلام لابن خلدون، وعبارة: «ثم تتابعت.... إفريقية» ساقطة في تاريخ ابن خلدون.
(٥) في تاريخ ابن خلدون: «وكان».
(٦) في المصدر نفسه: «حنظلة بن صفوان».
(٧) في المصدر نفسه: «ثم قَدِمَ إليها عثمان بن أبي نسعة واليًا». وفي الكامل في التاريخ (جـ ٥ ص ١٤٦): «عثمان بن أبي نسعة الخثعمي».
(٨) في تاريخ ابن خلدون: «أشهر مجذيفة بن الأحوص العتبي...».
(٩) في الكامل في التاريخ (جـ ٥ ص ١٥٨): الهيثم بن عبيد الكناني.
(١٠) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٥٨): «مقرشة فافتتحها وأقام عشرة أشهر».
(١١) الفقرة من: «وتوفي... حتى الفهري وقدم» ساقطة في تاريخ ابن خلدون.

وقَدِمَ بعده محمد بن عبدالله الأشجعي، فولي شهرين، ثم قَدِمَ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية، فدخلها سنة ثلاث عشرة، وغزا الإفرنجة، وكانت له فيهم وقائع، وأُصِيبَ عسكرُه في رمضان سنة أربع عشرة، في موضع يعرف ببلاط الشهداء، وبه عُرِفَتِ الغزوة، وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر، ثم ولي عبدُ الملك بن قَطَن الفِهْري، وقَدِمَ[1] في رمضان سنة أربع عشرة فولي سنتين. ـ وقال الواقدي: أربع سنين ـ وكان ظلومًا جائرًا في حكومته، وغزا أرض البَشْكَنْس سنة خمس عشرة ومائة، فأوقع بهم وغنم، ثم عُزل في رمضان سنة ست عشرة، وولي عُقْبَةُ[2] بن الحجاج السَّلُولي من قبل عُبَيْد الله بن الحبحاب، فأقام [3] خمس سنين محمودَ السِّيرة مجاهدًا مظفَّرًا، حتى بلغ سُكْنَى المسلمين أرْبُونة [4]، وصار رِبَاطُهم على نهر رُدُونة. ثم وثب عليه عبد الملك ابن قَطَن الفهري سَنَةَ إحدى وعشرين، فخلعه وقتله. ويقال: أخرجه من الأندلس وولي مكانه إلى أنْ دخل بَلجُ بن بشر بأهل الشام سنة أربع وعشرين، فغلب عليه، وولي الأندلس سنة أو نحوها».

وقال الرازي[5]: ثار أهل الأندلس بأميرهم[6] عُقْبة في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك، وولّوا عليهم عبد الملك بن قَطَن ولايَتَه الثانية، فكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر. وتوفي بقَرْمُونة[7] في صفر سنة ثلاث وعشرين، واستقام الأمرُ لعبد الملك. ثم دخل بَلْجُ بن بشر القُشَيْرِي[8] بجند الشام ناجيًا من وَقْعة كلثوم بن عياض مع البربر بـمَلْوِية[9]، فثار على عبد الملك، وقتله وهو ابن سبعين سنة، واستوثق له

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: «وأُجبَ عسكره في رمضان...».

(٢) في المصدر نفسه: «عتبة».

(٣) في المصدر نفسه: «فقدم سنة سبع عشرة. وأقام خمس».

(٤) في تاريخ ابن خلدون: «أرمونة، وصار مساكنهم على نهر وذونة. ثم قام عليه عبد الملك...».

(٥) هنا ينقل ابن خلدون عن الرازي.

(٦) في تاريخ ابن خلدون: «ثار أهل الأندلس بعقبة بن الحاج أميرهم في صفر...».

(٧) في طبعة دار صادر: «بقرقشونة». وفي تاريخ ابن خلدون «بسرقوسة».

(٨) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٥٩): «بشر من أهل الشام، ناجيًا...».

(٩) كلمة «بملوية» ساقطة في تاريخ ابن خلدون. وهنا يشير إلى انتصار البربر في معركة مع العرب بقيادة كلثوم بن عياض القشيري وبلج بن بشر القشيري. يروي ابن الأثير أن كلثوم بن عياض قتل في تلك المعركة سنة ١٢٣ هـ، فانهزم العرب وتفرقوا، فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج، وعاد بعضهم إلى القيروان. الكامل في التاريخ (جـ ٥ ص ١٩٢ ـ ١٩٣).

الأمر بعد مقتل عبد الملك[1]، وانحاز الفِهْريون إلى جانب، فامتنعوا عليه، وكاشفوه، واجتمع إليهم[2] مَنْ أنكر فعلته بابن قَطَن، وقام بأمرهم قَطَن وأميّة ابنا عبد الملك بن قَطَن، والتقوا، فكانت الدائرة على الفِهْريين، وهلك بَلْجٌ من الجراح التي نالته[3] في حربهم، وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أو نحوها من إمارته، ثم ولي ثعلبة بن سلامة الْجُذَامي، وغلب على إمارة الأندلس بعد مَهْلك بلْج، وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه، وولي سنتين[4] أظهر فيهما العدل ودانت له الأندلس عشرة أشهر، إلى أنْ مالت به العصبية في يمانيته[5]، ففسد أمره، وهاجت الفتنة. وقَدِمَ أبو الخَطّار حُسَام بن ضِرار الكلبي مِنْ قِبَلِ حنظلة بن صفوان عامل إفريقية؛ ركب[6] إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين، فدانَ له أهلُ الأندلس وأقبل إليه ثعلبة وابن أبي نِسْعَة[7] وابنا عبد الملك، فلقيهم وأحسن إليهم، واستقام أمره. وكان شجاعًا كريمًا ذا رأي وحزم، وكَثُرَ أهلُ الشام عنده، ولم تحملْهم قرطبة، ففرّقهم في البلاد، وأنزل أهلَ دمشق إلبيرةَ لشبهها بها، وسمّاها دمشق، وأنزل أهلَ حمص إشبيليةَ، وسمّاها حمص[8]، وأهْلَ قِنَسْرِين جَيَّانَ[9]، وسمّاها قِنَسْرين، وأهل الأرْدُنّ رَيّة[10] ومالقة، وسمّاها الأرْدُنّ، وأهلَ فلسطين شَذُونَةَ - وهي شَرِيشُ - وسمّاها فلسطين، وأهلَ مِصْرَ تُدْمِيرَ، وسمّاها مصر. وقفَل ثعلبةُ إلى المشرق، ولحق بمَرْوَان بن محمد، وحضر حروبه، وكان أبو الخطار[11] أعرابيًا عصبيًا أفرط عند ولايته في التعصّب لقومه من اليمانية، وتحامل على المضريّة، وأسخط قَيْسًا، وأمر في بعض الأيام بالصُّميل بن حاتم كبير القَيْسِية - وكان من طوالع بلْج، وهو الصميل[12] بن حاتم بن شَمِرِ

---

(١) عبارة: «وهو ابن سبعين سنة... عبد الملك» ساقطة في تاريخ ابن خلدون.

(٢) في تاريخ ابن خلدون: «واجتمع عليهم مَن أنكر...».

(٣) في المصدر نفسه: «أصابته» بدل «أنالته».

(٤) في المصدر نفسه: «سنين».

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «إلى أن ثار به العصبة اليمانية فعسر أمره...».

(٦) في المصدر نفسه: «وركب... فدانت له...».

(٧) في المصدر نفسه: «وابن أبي سعد».

(٨) في تاريخ ابن خلدون: «وسمّاها حمص لشبهها بها».

(٩) في المصدر نفسه: «حسان».

(١٠) في تاريخ ابن خلدون: «ريّة وهي مالقة».

(١١) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٦٠): «أبو الخطاب».

(١٢) في المصدر نفسه: «الضميل بن حاكم بن شمر بن ذي الجوشن، ورأس على الحصرية، فأمر به يومًا فأُقيم من مجلسه...».

ابن ذي الجوشن، ورأسَ على المضريّة - فأُقِيمَ من مجلسه، وتقنّع، فقال له بعض الحجّاب وهو خارج من القصر: أَقِمْ عمامَتك يا أبا الجوشن، فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها، فسار الصميل بن حاتم أميرهم[1] يومئذ وزعيمهم، وألّبَ عليه قومَه، واستعان بالمنحرفين عنه من اليمانية[2]، فَخُلِعَ أبو الخطار سنة ثمانٍ وعشرين لأربع سنين وتسعة أشهر من ولايته، وقَدَّمَ مكانه ثَوَابة بن سلامة الجُذَامي، وهاجت الحربُ المشهورة. وخاطبوا بذلك عبدَ الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية، فكتب إلى ثوابة بعهده على الأندلس، مُنسَلَخَ رجب سنة تسع وعشرين، فضبط الأندلس، وقام بأمره الصُّمَيْلُ، واجتمع عليه الفريقان. وهلك لسنة[3] من ولايته. ووقع الخلاف بإفريقية، والتاث أمر[4] بني أمية بالمشرق، وشغلوا عن قاصية الثغور[5] بكثرة الخوارج، وعظم أمر المسوِّدة[6] فبقي أهل الأندلس فَوْضَى، ونصبوا للأحكام خاصّة عبدَ الرحمن بن كثير. ثم اتفق جُنْدُ الأندلس على اقتسام الإمارة بين المضريّة واليمانيّة وإدالتها بين الجندين سنةً لكل دولة. وقدَّم المضريَّةُ على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري سنة تسع وعشرين، واستتمّ[7] سنةَ ولايتِهِ بقرطبة دار الإمارة. ثم وافته اليمانية لميعاد[8] إدالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم، فبيَّتهم يوسفُ بمكان نزولهم من شَقُنْدَة في قرى[9] قُرْطُبة بممالأة من الصُّميل بن حاتم والقيسية وسائر[10] المضرية، فاستلحموهم[11]، وثار أبو الخطار فقاتله الصُّميل وهزمه وقتله

(١) في تاريخ ابن خلدون: «حاتم زعيمهم يومئذ وألّب عليه قومه...».
(٢) في المصدر نفسه: «اليمنية فخلع أبا الخطاب سنة...».
(٣) في المصدر نفسه: «لسنتين».
(٤) إلتاث أمر بني أمية: اختلط والتبس، أي فسد واضطرب. محيط المحيط (لوث). وفي تاريخ ابن خلدون: «وتلاشت أمور بني أميّة...».
(٥) في تاريخ ابن خلدون: «قاصية المغرب».
(٦) المسوّدة هم العباسيون، سمّاهم هكذا لأن أعلامهم كانت سودًا ولأنهم كانوا يلبسون الثياب السوداء في أوقات حزنهم.
(٧) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٦١): «واستقرّ».
(٨) في طبعة عبد الحميد: «دالتهم». وفي تاريخ ابن خلدون: «ثم وافقتهم اليمنية... بمكان نزلهم من شقندة في قرى قرطبة من الصميل بن حاتم...».
(٩) في طبعة دار صادر: «في شقندة من قرى...».
(١٠) كلمة «وسائر» ساقطة في تاريخ ابن خلدون.
(١١) استلحموهم: غلبوهم في القتال. محيط المحيط (لحم).

سنة تسع وعشرين[١]، واستبدَّ يوسفُ بما وراء البحر[٢] من عُدْوَة الأندلس، وغلب اليمنية على أمرهم، فاستكانوا لِغَلَبِهِ، وتربَّصُوا الدوائر[٣] إلى أنْ جاء عبدُ الرحمن الداخل. وكان[٤] يوسف ولَّى الصميل سَرَقُسْطة، فلما ظهر أمرُ المسوِّدة بالمشرق ثار الحُبَابُ[٥] الزهريُّ بالأندلس داعيًا لهم، وحاصر الصميلَ بسَرَقُسْطة، واستمدّ[٦] يوسف، فلم يمدَّه رجاءَ هلاكه لما كان يغصّ به. وأَمَدَّتْه القيسية، فأفرج[٧] عنه الحبابُ، وفارق الصميلُ سَرَقُسْطة فملكها الحباب، وولّى يوسفُ الصميلَ على طليطلة إلى أن كان من عبد الرحمن الداخل ما كان[٨]. انتهى كلام وليّ الدين ابن خلدون ببعض اختصار[٩]. وقال بعضُ المؤرخين[١٠]: إن عبد اللّه بن مَرْوَان أخا عبد الملك كان واليًا على مصر وإفريقية، فبعث إليه ابنُ أخيه الوليدُ الخليفةُ يأمره بإرسال موسى بن نُصَير إلى إفريقية، وذلك سنة سبع وثمانين للهجرة، فامتثل أمره في ذلك.

وقال الحميديّ في «جذوة المقتبس»[١١]: إن موسى بن نُصَير وُلِّيَ إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين فقَدِمها ومعه جماعة من الجند، فبلغه أن بأطراف البلاد مَنْ هو خارج عن الطاعة، فوجَّه ولده عبد اللّه، فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا، ثم ولده مروان إلى جهة أخرى، فأتاه بمائة ألف رأس. وقال الليث[١٢] بن سَعْد: بلغ الخمس ستين ألف رأس.

---

(١) عبارة: «وثار أبو الخطار حتى . . . تسع وعشرين» ساقطة في تاريخ ابن خلدون.
(٢) في تاريخ ابن خلدون: «وراء البحرين عدوة الأندلس. . .».
(٣) في تاريخ ابن خلدون: «للغلبة، وتربصوا بالدوائر».
(٤) في المصدر نفسه: «فكان يوسف بن عبد الرحمن قد ولّى الصُّميل بن حاتم. . .».
(٥) في المصدر نفسه: «الحباب بن رواحة الزُهري. . .».
(٦) استمدّه: طلب منه المدَد. لسان العرب (مدد).
(٧) في تاريخ ابن خلدون: «فأخرج».
(٨) في المصدر نفسه: «كان من أمر عبد الرحمن الداخل ما نذكره».
(٩) لم يختصر المقري، وهذا ما قارنّاه بتاريخ ابن خلدون.
(١٠) هو المؤرِّخ ابن خلِّكان، وقد ورد هذا النص في كتابه وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣١٩) وجاء فيه: سنة تسع وثمانين للهجرة.
(١١) كذلك ينقل ابن خلكان في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣١٩) ما جاء به المقري هنا عن جذوة المقتبس للحميدي. وما جاء به الحميدي في جذوة المقتبس (ص ٣٣٨) لا يتعدّى الإشارة إلى أن موسى بن نصير وُلِّيَ إفريقية والمغرب سنة تسع وسبعين للهجرة.
(١٢) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، إمام أهل مصر في الحديث والفقه. توفي بالقاهرة سنة=

وقال الصَّدَفي [1] : لم يُسْمَعْ في الإسلام بمثل سَبَايا موسى بن نُصَير. ووُجِدَ أكثرُ مدن إفريقية خاليةً لاختلاف أيدي البربر عليها، وكانت البلاد في قَحْط شديد، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البَيْن، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات، وفرّق بينها وبين أولادها، فوقع البكاء والصُّراخ والضجيج، وأقام على ذلك إلى مُنْتَصَف النهار، ثم صلَّى وخطب الناسَ [2] ولم يذكر الوليدَ بن عبد الملك، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال: هذا مقام لا يُدعَى فيه لغير اللّه تعالى، فَسُقُوا حتى رَوُوا. ثم خرج موسَى غازيًا، وتتبّع البربر، وقتل فيهم قتلاً ذَرِيعًا، وسبى سَبْيًا عظيمًا، وسار حتى انتهى إلى السُّوس الأدنى لا يُدَافعه أحد. فلما رأى بقيةُ البربر ما نَزَلَ بهم استأمنوا، وبَذَلُوا له الطاعة، فقبل منهم، وولَّى عليهم واليًا، واستعمل على طَنْجة وأعمالها مولاه طارقَ بن زياد البربري، ويقال: إنه من الصَّدِفِ، وترك عنده تسعة عشر ألفًا من [3] البربر بالأسلحة والعُدَّة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحَسُنَ إسلامهم، وترك موسى عندهم خَلْقًا يسيرًا من العرب ليُعَلِّموا [4] البربر القرآن وفرائض الإسلام، ورَجَعَ إلى إفريقية، ولم يَبْقَ بالبلادِ مَنْ يُنَازِعه من البربر ولا من الروم. ولما استقرّت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطَنْجة يأمره بغَزْو بلاد الأندلس [5] فغزاها في اثني عشر ألفًا من البربر خلا اثني عشر رجلاً، وصعد على الجبل المنسوب إليه يوم الاثنين خامس رجب سنة اثنتين وتسعين، وذكر عن طارق أنه كان نائمًا في المركب وقت التعدية، فرأى النبيَّ، ﷺ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد، هكذا ذكر ابن بَشْكُوال. وقيل: إن موسى ندم على تأخّره، وعلم أنَّ طارقًا إن فتح شيئًا نُسِبَ الفتحُ إليه دونه، فأخذ في جمع العساكر، وولَّى على القيروان ابنَه عبدَ اللّه، وتبع طارقًا فلم يدركه إلاّ بعد الفتح، وقال بعض العلماء: إن موسى بن نُصَير كان عاقلاً شجاعًا كريمًا تقيًّا للّه تعالى، ولم يُهْزَمْ له قَطُّ جيشٌ، وكان والده نُصَير على جُيوش معاوية، ومنزلته لديه مَكينة، ولـمَّا خرج معاوية لصفّين لم يخرج معه، فقال له: ما منعك من

= ١٧٥ هـ. تاريخ بغداد (جـ ١٣ ص ٤) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ١٢٩). وقول الليث هنا في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣١٩).

(١) في طبعة عبد الحميد: «الصفدي». وهو أبو شبيب الصدفي كما في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣١٩).

(٢) في وفيات الأعيان «وخطب بالناس».

(٣) في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٢٠): «ألف فارس من البربر بالأسلحة والعُدَد الكاملة...».

(٤) في المصدر نفسه: «التعليم البربر».

(٥) النص من هنا حتى «... والياقوت والزبرجد» في وفيات الأعيان مختلفٌ في صوغه وتنسيقه.

الخروج معي ولي عندك يَدٌ لم تكافئني عليها؟ فقال: لم يمكنّي أن أشكرك بكفري مَنْ هو أولى بشكري منك، فقال: مَن هو؟ فقال: اللّه عزَّ وجلَّ، فأطرق مَليًّا ثم قال: أستغفر اللّه، ورضي عنه.

رجع إلى حديث طارق ـ قال بعض المؤرّخين[١]: كان لُذَرِيق ملك الأندلس استخلف عليها شخصًا يقال له تُدْمِير، وإليه تنسب تُدْمِير بالأندلس، فلما نَزَلَ طارق من الجبل كتب تُدْمير إلى لُذَريق: إنه قد نزل بأرضنا قومٌ لا ندري أمِنَ السماء هُمْ أم من الأرض، فلما بلغ لُذَرِيقَ ذلك ـ وكان قصد بعض الجهات البعيدة لغَزْوٍ له في بعض أعدائه ـ رَجَعَ[٢] عن مقصده في سبعين ألفَ فارس، ومعه العَجَلُ تَحْمِلُ الأموالَ والمتاع، وهو على سريره بين دابّتين، وعليه مِظَلة مكلّلة بالدُّرّ والياقوت والزبرجد. فلما بلغ طارقاً دنوُّه قام في أصحابه، فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حَثَّ المسلمين على الجهاد، ورغّبهم[٣] ثم قال: أيها الناس، أين المفرُّ؟ البحرُ من ورائكم والعدوُّ أمامكم، وليس لكم واللّه إلاّ الصدقُ والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضْيَعُ من الأيتام، في مأدُبَة[٤] اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواتُهُ موفورةٌ، وأنتم لا وَزَرَ[٥] لكم إلاّ سيوفكم[٦]، ولا أقوات لكم[٧] إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم[٨]، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرًا، ذهبت ريحكم[٩]، وتعوّضت القلوبُ من رُعْبها[١٠] منكم الجراءةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمُنَاجزة[١١] هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينتُه الحصينة[١٢]، وإنَّ انتهاز الفُرْصَة فيه لَمُمْكِنٌ إنْ سمحتم

---

(١) يعود المقري إلى النّقل عن ابن خلّكان الذي ينقل بدوره عن الليث بن سعد.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ورجع».

(٣) في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٢١): «ورَغّبهم في الشهادة».

(٤) في المصدر نفسه «مآدب».

(٥) الوَزَرُ، بالفتح: الملجأ. مختار الصحاح (وزر).

(٦) في وفيات الأعيان: «لا وزر لكم غير...».

(٧) في طبعة دار صادر: «إلاّ» بدل «لكم».

(٨) في وفيات الأعيان: «أيدي أعدائكم».

(٩) ذهبت ريحكم: أي ضَعُفْتُم.

(١٠) في وفيات الأعيان: «برعبها».

(١١) المناجزة: القتال. لسان العرب (نجز).

(١٢) في وفيات الأعيان: «المحصّنة».

لأنفسكم بالموت[(١)] . وإني لم أُحذِّركم أمرًا أنا عنه بنَجْوة، ولا حملتكم على خُطةٍ أَرْخَصُ متاعٍ فيها النفوس[(٢)] أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إنْ صَبَرتم على الأشقّ قليلاً، استمعتم بالأرْفَه الألذِّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حَظُّكم فيه بأوفى[(٣)] من حظِّي، وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحُوْرِ الحِسان، من بنات اليونان، الرافلاتِ في الدُّرِّ والمَرْجان، والحُلَلِ المنسوجةِ بالعِقْيان[(٤)]، المقصوراتِ في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليدُ بن عبد الملك أميرُ المؤمنين[(٥)] من الأبطال عُرْبَانًا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا[(٦)] وأختانًا، ثقةً منه بارتياحكم للطِّعان، واستماحكم[(٧)] بمُجَالدة الأبطال والفُرْسان، ليكونَ حَظّه منكم[(٨)] ثوابَ اللّه على إعلاءِ كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مَغْنَمُها خالصة[(٩)] لكم من دونه ومن دون المؤمنين[(١٠)] سواكم، واللّه تعالى وليُّ إنجادكم[(١١)] على ما يكون لكم ذكرًا في الدارَيْن، واعلموا أني أوّلُ مجيبٍ إلى ما دعوتكم إليه، وإني عند مُلْتَقى الجَمْعَيْنِ حاملٌ بنفسي على طاغية القوم[(١٢)] لُذَريق فقاتِلُه إنْ شاء اللّه تعالى، فاحملوا معي، فإنْ هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يُعْوِزْكم[(١٣)] بطلٌ عاقلٌ تسندون أموركم إليه، وإنْ هلكْتُ قبلَ وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمَّ[(١٤)] من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذَلون».

---

(١) في وفيات الأعيان: «بأنفسكم للموت».

(٢) في طبعتي عبد الحميد ودار صادر: «النفوس [إلاّ وأنا] أبدأ». وقال الدكتور إحسان عباس: (إلاّ وأنا): زيادة من وفيات الأعيان. ونحن قابلنا النص فلم نجد فيه هذه الزيادة.

(٣) في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٢٢): «أوفر من حظّي».

(٤) العِقْيان: الذهب الخالص. مختار الصحاح (عقا).

(٥) «أمير المؤمنين» ساقطة في وفيات الأعيان.

(٦) في طبعة دار صادر: «صهارًا».

(٧) استماحكُمْ بمجالدةِ الأبطال: أي إنه سألكم ذلك وطلبه منكم.

(٨) في وفيات الأعيان: «حظه معكم».

(٩) في المصدر نفسه: «خالصًا».

(١٠) في المصدر نفسه: «دون المسلمين».

(١١) الإنجاد: الإسعاف والمساعدة. لسان العرب (نجد).

(١٢) في وفيات الأعيان: «طاغية قومه».

(١٣) يُعْوزكم: يُحوجكم. لسان العرب (عوز).

(١٤) في وفيات الأعيان: «المهمّ».

«فلما فرغ[(١)] من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لُذَرِيقَ وأصحابه وما وعدهم من الخير[(٢)] الجزيل انبسطتْ نفوسُهم، وتحقّقت آمالهم، وهَبَّت رياحُ[(٣)] النصر عليهم، وقالوا له: قد قطعنا الآمال مما يخالِفُ ما عزمتَ عليه، فاحضر إليه فإننا[(٤)] معك وبين يديك. فركب[(٥)] وأصحابَهُ فباتوا ليلتهم في حَرَس إلى الصبح. فلما أصبح الفريقان تكتَّبوا[(٦)] وعَبَّوْا جيوشهم، وحُمِلَ لُذَرِيقُ وهو[(٧)] على سريره؛ وقد حُمِل[(٨)] على رأسه رواقُ ديباج يظلِّله، وهو مُقبل في غابة من البنود والأعلام، وبين يديه المقاتلة والسلاح، وأقبل طارق[(٩)] وأصحابه عليهم الزَّرَدُ، ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض، وبأيديهم القِسِيّ[(١٠)] العربية، وقد تقلَّدوا السيوف، واعتقلوا الرماح، فلما نظر إليهم لُذَرِيق حلف[(١١)] وقال: إن هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا، فداخَلَه منهم الرُّعْبُ[(١٢)]. فلما رأى طارق لُذَرِيقَ قال[(١٣)]: هذا طاغية القوم، فحمل وحمل أصحابه معه، فتفرّقت المقاتلة من بين يدي لُذَرِيقَ، فخلص إليه طارق، وضربه[(١٤)] بالسيف على رأسه، فقتله على سريره، فلـمّا رأى أصحابُه مصرعَ صاحبهم[(١٥)] اقتحم الجيشان، وكان النصر للمسلمين، ولم تقف هزيمة العدو على موضع، بل كانوا يسلمون بلدًا بلدًا ومَعْقِلاً معقلاً».

---

(١) في وفيات الأعيان: «فلمّا فرغ طارق من تحريض. . .».

(٢) في المصدر نفسه: «من النَّيل الجزيل».

(٣) في وفيات الأعيان: «وهَبَّت ريح».

(٤) في المصدر نفسه: «فأنا معك».

(٥) في المصدر نفسه: «فركب طارق وركبوا وقصدوا مناخ لذريق، وكان قد نزل بمتّسع من الأرض، فلما تراءى الجمعان نزل طارق وأصحابه، فباتوا ليلتهم. . .».

(٦) تكتَّبوا: تجمّعوا كتائب، والكتائب جمع كتيبة وهي الفرقة من الجيش. لسان العرب (كتب). وفي وفيات الأعيان: «تلبّبوا وعَبّوا كتائبهم. . .».

(٧) كلمة: «وهو» ساقطة في وفيات الأعيان.

(٨) في وفيات الأعيان: «وقد رفع على رأسه. . . يُظِلُّه. . . في غابة. . .».

(٩) في طبعتي عبد الحميد ودار صادر: «في أصحابه عليهم الزرد من فوق. . .». وأراد بالزرد هنا الدروع.

(١٠) القِسِيُّ: جمع قوس.

(١١) كلمة «حلف» ساقطة في وفيات الأعيان (ص ٣٢٣).

(١٢) في وفيات الأعيان: «قال: أما واللّه إن هذه الصور التي رأينا. . .».

(١٣) في وفيات الأعيان (ص ٣٢٨): «قال لأصحابه. . .».

(١٤) في طبعتي عبد الحميد ودار صادر: «فضربه».

(١٥) في وفيات الأعيان: «مصرع ملكهم».

«ولـمّا[1] سمع موسى بن نُصَير بما حصل من النصرة لطارق عَبَر الجزيرة بـمَن معه، ولحق بمولاه طارق، فقال له: يا طارق، إنه لن يجازيَك الوليدُ بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك[2] الأندلس، فاسْتَبِحْهُ هنيئًا مريئًا، فقال له طارق: أيّها الأمير، واللّه لا أرجع عن قَصْدي هذا، ما لم أنْتَهِ إلى البحر المحيط أخوض[3] فيه بفرسي، يعني البحرَ الشماليَّ الذي تحت بنات نعش، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ إلى جِلّيقِيَّةَ وهي ساحل البحر المحيط»، انتهى.

وقال الحافظ الحميدي في كتابه «جذوة المقتبس» [4]: «إن موسى بن نُصَير نَقَمَ على مولاه طارقٍ إذ غزا بغير إذنه، وَهَمَّ بقتله، ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه، فأطلقه وخرج معه إلى الشام»، انتهى.

وقولُ لذريق «إن هذه الصور هي التي رأيناها في بيت الحكمة الخ» أشار به إلى بيت حكمة اليونان، وكان من خبره [5] ـ فيما حكى بعض علماء التاريخ ـ أن اليونان، وهم الطائفة المشهورة بالـحِكَم [6] ، كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر، فلما ظهرت الفرسُ، واستولَت على البلاد، وزاحمتِ اليونانَ على ما كان بأيديهم من الممالك، انتقَلَ اليونانُ إلى جزيرة الأندلس، لكونها طرفًا في آخر العمارة، ولم يكن لها ذكر إذ ذاك[7]، ولا مَلَكَهَا أحدٌ من الملوك المعتبرة ولم تكُ[8] عامرة، وكان أوَّلَ مَن عَمَّر فيها واختطَّها أندلسُ بن يافث بن نوح عليه السلام، فسُمِّيَتْ باسمه، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة[9] منها عندهم على شكل طائر رأسُه المشرق، والجنوب والشمال

---

(١) في وفيات الأعيان: «فلما سمع بذلك موسى بن نصير المذكور أولاً عبر الجزيرة...».
(٢) في المصدر نفسه: «يبيحك».
(٣) في المصدر نفسه: «وأخوض فيه... فلم يزل طارق... البحر المحيط، ثم رجع».
(٤) النص في جذوة المقتبس (ص ٢٤٨ في ترجمة طارق بن زياد) ببعض الاختلاف عمّا هنا. وقد نقله ابن خلّكان في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٢٩) دون تغيير عمّا هنا.
(٥) النقل هنا أيضًا عن وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٢٣).
(٦) في وفيات الأعيان: «بالحكمة، كانوا يسكنون ببلاد المشرق...».
(٧) في المصدر نفسه: «يوم ذاك».
(٨) في وفيات الأعيان: «ولا كانت عامرة».
(٩) في المصدر نفسه: «كان صورة المعمور».

رجلاه[1]، وما بينهما بطنه، والمغربُ ذَنَبُه، وكانوا[2] يزدَرُونَ المغربَ لنسبته إلى أخسِّ أجزاء الطير. وكانت اليونان لا ترى فَنَاء الأمم إلاّ[3] بالحروب لما فيها من الأضرار والاشتغال عن العلوم التي كان الاشتغال بها عندهم من أهم الأمور، فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس إلى الأندلس. فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها، فشقُّوا الأنهار، وبَنَوا المعاقل، وغرسُوا الجنات[4] والكروم، وشَيَّدوا الأمصار. وملأوها حرثًا ونَسْلاً وبنيانًا، فعظمت وطابت، حتى قال قائلهم لَـمَّا رأى بَهْجتها: إن الطائر الذي صُوِّرت هذه[5] العمارة على شكله، وكان المغرب ذنبه، كان طاووسًا معظمُ جماله في ذنبه».

وحُكِيَ أن الرشيد هارونَ ـ رحمه اللَّه! ـ لَـمّا حضر بين يديه بعضُ أهل المغرب قال الرشيد: يقال: إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب، فقال الرجل: صدقوا يا أمير المؤمنين، وإنه طاووس، فضحك أمير المؤمنين الرشيد، وتعَجَّب من سُرْعة جواب الرجل وانتصاره لقطره[6].

رجع ـ قال[7]: «فاغتبط اليونان بالأندلس[8] أتـمَّ اغتباط، واتّخذوا دار الحكمة والملك بها طُلَيْطلة؛ لأنها أوسط البلاد، وكان أهمّ الأمور عندهم تحصينها عمّن يتصل به خبرها من الأمم، فنظروا فإذا[9] هو أنه لا يحسدهم على رَغَد العيش إلاّ أرباب الشَّظَف والشقاء والتعب[10]، وهم يومئذ[11] طائفتان: العرب، والبربر، فخافوهم على جزيرتهم

---

(١) في وفيات الأعيان: «رجلاه».

(٢) في المصدر نفسه: «فكانوا. . . أجزاء الطائر».

(٣) في طبعة دار صادر: «الأمم بالحروب. . .». وفي وفيات الأعيان: «الأمم بالحروب لِما ترى فيه من الإضرار. . . التي كان أمرها عندهم من أهم الأمور. . .».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «الجنان».

(٥) اسم الإشارة «هذه» ساقط في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٢٤).

(٦) من: «وحُكِيَ أن الرشيد. . . حتى: وانتصاره لقطره» ليس من كلام ابن خلّكان.

(٧) القول هنا لابن خلّكان.

(٨) في وفيات الأعيان: «فاغتبطوا بها أتمَّ اغتباط، واتخذوا دار الملك والحكمة بها مدينة طليطلة؛ لأنها وسط البلاد. . .».

(٩) في وفيات الأعيان: «فنظروا فإذا ليس ثَمَّ مَن يحسدهم على أرغد». . .

(١٠) كلمة «والتعب» ساقطة في وفيات الأعيان.

(١١) في وفيات الأعيان: «وهم يوم ذاك».

العامرة[1]، فعزموا على أن يتخذوا[2] لهذين الجنسين من الناس طِلَّسْمًا، فرصدوا لذلك أرصادًا. ولما كان البربر بالقرب منهم، وليس بينهم[3] سوى تعدية البحر، ويَرِدُ عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع، خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفورًا، وأكثر[4] تحذرهم من نسب أو مجاورة، حتى ثبت ذلك في طبائعهم، وصار بعضه مُرَكَّبًا في غرائزهم، فلمَّا علم البربرُ عَدَاوَة أهل الأندلس وبُغْضَهم[5] لهم، أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسيًا إلاَّ مُبْغِضًا بربريًّا[6]، وبالعكس، إلاّ أن البربر أحوجُ إلى أهل الأندلس[7]؛ لوجود بعض الأشياء عندهم وفَقْدها ببلاد البربر».

وكان بنَوَاحي غرب[8] الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها «قادس» وكانت له ابنة في غاية الجمال، فتسامع بها ملوكُ الأندلس، وكانت الأندلس كثيرة الملوك، لكل بلدة أو بلدتين ملك، فخطبوها، وخشي أبوها إنْ زَوَّجَها مِنْ واحد أسخط الباقين، فَتَحَيَّر، وأحضر ابنته، وكانت الحكمة مركّبة في طباع القوم ذكورِهم وإناثِهم، ولذا قيل: إن الحكمة نَزَلَتْ من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض: أدمغة اليونان، وأيدي أهل الصين، وألسنة العرب؛ فقال لها: يا بُنَيَّة، إني أصبحْتُ على حَيْرة في أمرك ممّن يخطبك من الملوك، وما أرضيتُ واحدًا إلاَّ أسْخَطْتُ الباقين، فقالت له: اجْعَلِ الأمرَ إليَّ تخلُصْ، فقال: وما تقترحين؟ فقالت: أنْ يكون ملكًا حكيمًا، فقال: نِعْمَ ما اخترتِهِ لنفسك، فكتب في أجوبة الملوك الخُطَّاب، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم. فلما وقفوا على الجواب سكن مَن لم يكن حكيمًا. وكان في الملوك الخاطبين حكيمان، فكتب كل واحد منهما: أنا

---

(١) في وفيات الأعيان: «المعمورة».

(٢) في المصدر نفسه: «يتخذوا لدفع هذين الجنسين. . .».

(٣) كلمة «بينهم» ساقطة في طبعة عبد الحميد.

(٤) في وفيات الأعيان: «وكثر تحذيرهم في نسب. . . حتى انبثَّ ذلك في طبائعهم، وصار بغضهم مركّبًا. . .».

(٥) كلمة «لهم» ساقطة في وفيات الأعيان.

(٦) في وفيات الأعيان: «بربريًا، ولا بربريًا إلاَّ مبغضًا أندلسيًا، إلاَّ أن البربر». . .

(٧) في وفيات الأعيان: «إلى أهل الأندلس من أهل الأندلس إلى البربر؛ لكثرة وجود الأشياء بالأندلس وعدمها ببلاد البربر».

(٨) الفقرة من «وكان بنواحي غرب الأندلس. . . حتى في عمل ما أسند إليه من ذلك» في وفيات الأعيان مختلف عمّا هنا بعض الاختلاف.

الملك الحكيم. فلما وقف على كتابيهما قال لها: يا بنية، بقي الأمرُ على إشكال، وهذان ملكان حكيمان، أيَّهما أَرْضَيْتِ أَسْخَطْتِ الآخر، فقالت: سأقترح على كل واحد منهما أمرًا يأتي به، فأيّهما سبق إلى الفراغِ مما التمسْت كنت زوجته، قال: وما الذي تقترحين عليهما؟ قالت: إنّا ساكنون بهذه الجزيرة، ومحتاجون إلى رُجِيّ[١] تدور بها، وإني مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العَذب الجاري إليها من ذلك البرّ، ومقترحة على الآخر أنْ يتّخذ لي طِلَّسْمًا نحصّن به جزيرة الأندلس من البربر، فاستظرف أبوها ذلك، وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته، فأجاباه إلى ذلك، وتقاسماه على ما اختارا، وشرع كل واحد منهما في عمل ما أُسنِد إليه من ذلك.

فأما صاحب الرُّجِيّ، فإنه[٢] عمد إلى أشكال اتّخذها من الحجارة، نَضّد[٣] بعضها إلى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبرّ الكبير في الموضع المعروف بزُقاق سَبْتةَ، وسدّد الفُرَج[٤] التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته، وأوصل تلك الحجارة من البرّ إلى الجزيرة، وآثارهُ باقيةٌ إلى اليوم في الزُّقاق الذي بين سَبْتة والجزيرة الخضراء، وأكثر أهل الأندلس يزعمون أنَّ هذا أثرُ قَنطرة كان الإسكندر قد عملها لِيَعْبُرَ عليها الناسُ من سَبْتة إلى الجزيرة، والله أعلم أيّ القولين أصحّ. غير[٥] أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثاني. فلمّا تمّ تنضيدُ الحجارة للملك الحكيم، جَلَبَ[٦] الماء العذب من جبل عالٍ في البر الكبير، وسلّطه من ساقية محكمة، وبنى بجزيرة الأندلس رَحًى على هذه الساقية».

«وأما صاحب الطِّلَّسْم، فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصَد الموافق لعمله، غير أنه عمل[٧] أمره، وأحكمه، وابتنى بنيانًا مربعًا من حجر أبيض على ساحل البحر في رملٍ

---

(١) في طبعة دار صادر: «أَرْجِيّ». والأَرْجِيُّ والرُّجِيُّ: جمع رَحًى، والرَّحَى الطاحون. محيط المحيط (رحا).

(٢) في وفيات الأعيان (ص ٣٢٥): «عمد إلى خرز عظام... ونضد...».

(٣) نَضَدَه: وضع بعضه على بعض، أي جعله متراصِفًا. مختار الصحاح (نضد).

(٤) في وفيات الأعيان (ص ٣٢٦): «وسدَّ الفروج... بما اقتضته حكمته...». والفُرَجُ: جمع فُرْجَة وهي كل متفرّج بين شيئين. لسان العرب (فرج).

(٥) جملة «غير أن الشائع... هو الثاني» ساقطة في وفيات الأعيان.

(٦) في وفيات الأعيان: «جلب إليها الماء العذب من موضعٍ عالٍ في الجبل بالبَرّ الكبير، وسلّطه في ساقية محكمة البناء...».

(٧) في وفيات الأعيان: «أعمل أمره».

عالجٍ[1] حَفَرَ أساسَهُ إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربَّع إلى حيث صَوَّر من النحاس الأحمر والحديد المصفّى المخلوطين بأحكم الخلط صورةَ رجلٍ بربري، له[2] لحية، وفي رأسه ذؤابة من شعر جَعْد قائمة[3] في رأسه لجعودتها، وهو[4] متأبِّطٌ بصورةِ كِساءٍ قد جَمَع طَرَفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه، في رجله[5] نَعْل، وهو قائم من [6] رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط، وهو شاهق في الهواء، طولُه نَيِّفَ عن ستّين أو سبعين ذراعًا [7]، وهو محدودب الأعلى، إلى أن ينتهي ما سَعَتُه قَدْرُ ذراع [8]، وقد مَدَّ يده اليمنى بمفتاح قُفْلٍ قابضًا [9] عليه مشيرًا إلى البحر كأنه يقول: لا عبور. وكان من تأثير هذا الطِّلَّسْم في البحر الذي تُجاهه أنه لم يُرَ قَطُّ ساكنًا ولا كانت تجري فيه قَطُّ سفينة بربر حتى[10] سقط المفتاح من يده. وكان الملكان اللذان عملا[11] الرَّحِيَّ والطِّلَّسْمَ يتسابقان إلى فراغ العمل، إذ بالسَّبْق يستحق زواج المرأة، وكان صاحب الرَّحِيِّ فرغ[12] أولاً لكنه أخفى أمره على صاحب الطِّلَّسْم لئلاً يترك عمله فيبطل الطِّلَّسْمُ، لتحظى المرأة بالرحيِّ والطِّلَّسْم. فلما علم باليوم[13] الذي يَفْرُغ صاحبُ الطلسم في آخره أجرى الماء في[14] الجزيرة من أوله وأدار الرَّحِيَّ، واشتهر ذلك، فاتصل الخبرُ بصاحب الطلسم وهو في أعلى القبة يَصْقُل وجهه، وكان

---

(١) كلمة «عالج» ساقطة في وفيات الأعيان. ورَمْلٌ عالِجٌ: كثير متراكم بعضه فوق بعض كأنه جبال متواصلة. لسان العرب (علج).

(٢) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «وله».

(٣) في وفيات الأعيان: «قائم».

(٤) كلمة «وهو» ساقطة في وفيات الأعيان.

(٥) في وفيات الأعيان: «في رجليه».

(٦) في المصدر نفسه: «قائم في رأس البناء على مستدق...».

(٧) في المصدر نفسه: «ستّين ذراعًا أو سبعين، وهو محدد الأعلى...».

(٨) في المصدر نفسه: «قدر الذراع...».

(٩) في طبعة عبد الحميد: «قابض».

(١٠) في طبعة عبد الحميد: «إلاَّ». وفي وفيات الأعيان: «بربري حتى سقط...».

(١١) في وفيات الأعيان: «الملكان العاملان للرحى والطِّلَّسْم يتسابقان إلى التمام من عملهما، إذ كان بالسَّبق يستحقّ التزويج...».

(١٢) عبارة: «فرغ حتى... والطِّلَّسْم» مختلفة في وفيات الأعيان عمّا هنا.

(١٣) في وفيات الأعيان (ص ٣٢٧): «اليوم».

(١٤) في المصدر نفسه: «الماء بالجزيرة... واتصل الخبر... وهو في أعلاه...».

الطِّلسْم مذهبًا فلما تحقّق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتًا، وحصل صاحب الرُّحيّ على المرأة والرحى والطِّلَّسْم[١]. وكان مَنْ تقدّم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس[٢] من البربر للسبب الذي قدّمنا ذكره، فاتفقوا وجعلوا الطُّلَّسْمَات في أوقات اختاروا أرصادها، وأودعوا تلك الطِّلَّسْمَاتِ تابوتًا من الرخام، وتركوه في بيت بطُلَيْطلة[٣] وركّبوا على ذلك الباب قُفْلاً[٤]، تأكيدًا لحفظ ذلك البيت، فاستمرَّ أمرهم على ذلك.

ولما حان[٥] وقتُ انقراض دَوْلة مَن كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها، وذلك بعد مضيّ ستة وعشرين ملكًا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطُلَيْطلة، وكان لُذَرِيقُ المذكور آنفًا هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم، فلما اقتعد أريكة[٦] الملك قال لوزرائه وخواصّ دولته وأهلِ الرأي منهم: قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً شيء، وأُريد أن أفتحه لأنظر ما فيه؛ لأنه لم يُعْمل عبثًا، فقالوا: أيها الملك، صَدَقْتَ، إنه لم يُصْنَعْ عبثًا، ولم يُقْفَل سُدًى، والرأي والمصلحة أن تلقي أنت أيضًا عليه قفلاً أُسْوَةً بمَن تَقَدَّمَكَ من الملوك، وكان آباؤك وأجدادك لم يُهْمِلوا هذا، فلا تُهْمِلْهُ، وسِرْ سَيْرَهم، فقال لهم: إن نفسي تُنَازعني إلى فَتْحه، ولا بدّ لي منه، فقالوا له: إن كنت تظن أن فيه مالاً فقدِّره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره، ولا تُحْدِث علينا بفتحه حادثًا لا نعرف عاقبته، فأصَرَّ على ذلك، وكان رجلاً مَهِيبًا، فلم يقدروا على مراجعته، وأمر بفَتْح الأقفال، وكان على كل قُفْل مفتاحه معلقًا. فلما فتح الباب لم يَرَ في البيت شيئًا إلاَّ مائدة عظيمة من ذهب وفِضة مُكَلَّلة بالجواهر، وعليها مكتوب: هذه مائدة[٧] سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، ورأى في البيت ذلك التابوت، وعليه قُفْلٌ، ومِفْتاحه مُعَلَّقٌ،

---

(١) في وفيات الأعيان: «صاحب الرحى على الرحى والمرأة والطِّلَّسْم...».
(٢) في المصدر نفسه: «على جزيرة الأندلس».
(٣) في المصدر نفسه: «بمدينة طليطلة».
(٤) في وفيات الأعيان: «وركبوا على ذلك البيت بابًا وأقفلوه، وتقدموا إلى كل مَنْ ملك منهم بعد صاحبه أن يلقي على ذلك الباب قفلاً، تأكيدًا...».
(٥) الفقرة من «ولما حان... حتى على كل قفل مفتاحه معلّقًا» في وفيات الأعيان مختلفة بعض الاختلاف عمّا هنا.
(٦) الأريكة: السرير المُنَجَّد المزيَّن، والجمع أرائك. لسان العرب (أرك).
(٧) عن مائدة سليمان انظر أخبار الزمان للمسعودي (ص ٩٧).

ففتحه، فلم يَجِدْ فيه سوى رقّ[1]، وفي جوانب التابوت صور فرسان مصوّرة بأصباغ مُحْكَمَةِ التصوير على أشكال العرب، وعليهم الفِرَاء، وعم مُعَمَّمُون على ذوائبَ جُعْدٍ[2]، ومن تحتهم الخيل العربية[3]، وهم متقلّدون السيوفَ المحلاّة، معتقلون الرماح، فأمر بنشر ذلك الرَّقِّ، فإذا فيه: متى فُتِحَ هذا البيتُ وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخَلَ القومُ الذين صُوَرُهُمْ في التابوت إلى جزيرة الأندلس، وذَهَب مُلْكُ مَنْ فيها من أيديهم، وبطلت[4] حكمتهم؛ فلما سمع لُذَرِيقُ ما في الرَّقِّ ندم على ما فعل، وتحقّق انقراضَ دَوْلَتهم، فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى سمع أن جيشًا وصل من المشرق جَهَّزه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس، انتهى[5].

فهذا هو بيت الحكمة الذي أشار إليه لُذَرِيق، واللّه أعلم بحقيقة الأمر في ذلك كله.

على أن في هذا السياق مخالفةً لما سنذكره عن بعض ثقات مؤرّخي الأندلس وغيرهم في شأن المائدة وغيرها، وما ذكر في هذه القصة مِنْ جَلْب الماء من بَرِّ العُدْوة إلخ فيه بُعْدٌ عندي؛ لأن بلاد الأندلس أكثرُ بلاد اللّه مياهًا وأنهارًا، فأنّى تحتاج إلى جَلْب الماء إليها من العُدْوة الأخرى؟ إلاّ أن يقال: إن المرأة أرادتْ تعجيزَ الرجل بذلك، أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الأمر الغريب، وعِلْمُ اللّهِ من وراء ذلك كله، وفوق كل ذي علم عليم، ومنتهى العلم إلى اللّه الحكيم.

وقال ابن حيّان في «المقتبس»: «ذكروا أن لُذَرِيقَ لم يكن من أبناء الملوك، ولا بصحيح النسب في القوط، وأنه إنما نال المُلْك من طريق الغصب والتسوّر عندما مات غَيْطَشة[6] الملكُ الذي كان قبله، وكان أثيرًا لديه، مكينًا، فاستصغر أولاده لمكانه، واستمال طائفة من الرجال مَالُوا معه، فانتزع الملك من أولاد غَيْطَشَةَ[6] واستبقاهم، فكانوا

---

(١) الرَّقُّ، بفتح الراء: ما يُكْتَبُ فيه وهو جِلْدٌ رقيق. مختار الصحاح (رقق). ومنه قوله تعالى: ﴿وكتاب مسطور في رَقّ منشور﴾. سورة الطُّور ٥٢، الآيتان ٢ و٣.

(٢) الذواتب: جمع ذؤابة وهي الناصية، أي ضفيرة الشعر. محيط المحيط (ذأب).

(٣) في وفيات الأعيان (ص ٣٢٨): «العربية، وبأيديهم القِسِيُّ العربيةُ وهم متقلّدون بالسيوف المحلاّة، معتقلون بالرماح، فأمر. . .».

(٤) في وفيات الأعيان: «ودرست حكمتهم، فهذا هو بيت الحكمة المقدّم ذكره، فلما سمع لذريق. . . ملك العرب يستفتح بلاد الأندلس؛ انتهى الكلام على بيت الحكمة».

(٥) أي انتهى النقل عن ابن خلّكان.

(٦) في طبعة دار صادر: «إغطشة».

هم الذين دَبَّروا عليه ـ فيما ذكر ـ عندما لقي رجال العرب المقتحمين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الزُّقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نُصَير طماعةً منهم في أن يودي[1] ويخلص إليهم ملكُ أبيهم، فالتقوا بموضع يدعى وادي لَكَّةَ[2] من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلي مكان عُبُورهم، وذلك لسبع خَلَوْنَ من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، فانهزم القوطُ أعظَمَ هزيمة، وقُتِلَ ملكُهُمْ لُذَريق، وغلبت العرب على الأندلس، فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب، ومِصْداقَ موعد نبيِّهم، ﷺ، الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوَحْي اللّه تعالى إليه أنجزه لهم بفتح الأندلس، ولِلّه القوّة».

قال[3]: «وقام بأمر العرب بالأندلس منذ فتحت الأمراء المرسَلُونَ منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالمشرق طَوَالَ دولة بني أُميّة، رضي اللّه تعالى عنهم، إلى أن طرأ إليها فَلُّهُمْ عند غلبة بني العبّاس عليهم، ودخل[4] عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، فَمَلَكَهَا وأعاد إليها الدولة الأموية التي أورثها عَقِبَهُ حِقْبَة. فكانت عدّة هؤلاء الأمراء من لَدُن أوّلهم طارق بن زياد إلى آخرهم يوسفَ بن عبد الرحمن الفِهْرِي عشرين عاملاً، وعدّةُ سِنِيْهِمْ بالشمسي خمس وأربعون سنة، وبالقمري سبع وأربعون سنة غير أشهر»، انتهى.

وقال في موضع آخر، نقلاً عن الرازي: «وافْتُتِحَتِ الأندلس في أيام الوليد بن عبد الملك، فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت في ظهور الملّة الحنيفية، وكان عمر ابن عبد العزيز ـ رضوان اللّه عليه! ـ متهمِّمًا بها، معتنيًا بشأنها، وقد حوّلها عن نظر والي إفريقية وجَرَّدَ إليها عاملاً من قبله اختاره لها، دلالةً على مَعْنِيته بها، ووقعتِ المقاسمُ فيها عن أمره وبفضل رأيه»، انتهى.

وفي الكتاب الخزائني وغيره سياقة فتح الأندلس على أتمّ الوجوه، فلنذكر مُلَخَّصَهُ:

---

(١) يُودي: يَهْلِكُ. مختار الصحاح (ودى).

(٢) وادي لكة، بالإسبانية Guadalete، موضع من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبليّ. الروض المعطار (ص ٦٠٥).

(٣) القول لابن حيّان.

(٤) في طبعة دار صادر: «وذلك» بدل «ودخل».

قالوا: استعمل أميرُ المؤمنين الوليدُ بن عبد الملك ـ رحمه اللّه تعالى! ـ موسى بن نُصَير مولى عمّه عبد العزيز بن مروان، ويقال: بل هو بَكْري، وذلك أنَّ أباه نُصَيْرًا أَصْلُه من عُلُوج أصابهم خالدُ بن الوليد ـ رضي الله عنه! ـ في عين التَّمْر[١]، فادَّعوا أنهم رُهُنٌ وأنهم من بكر بن وائل، فصار نُصَير وصيفًا لعبد العزيز بن مروان، فأعتقه، فمن هذا يختلف فيه، وقيل: إنه لَخْمِيٌّ، وعقد له على إفريقية وما خَلْفها في سنة ثمانٍ وثمانين، فخرج إلى ذلك الوَجْه في نَفَرٍ قليلٍ من المُطَّوِّعة[٢]، فلمّا ورد مصر أخرج معه مِنْ جُندها بعثًا، وأتى إفريقية عمله، فأخرج من أهلها معه ذوي القوّة والجلد، وصَيَّر على مقدّمته طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل البربَر ويَفُضُّ جموعهم، ويفتح بلادهم ومدائنهم، حتى بلغ طَنْجَة، وهي قصبة ملك البربر وأُمُّ مدائنهم، فحصرها حتى افتتحها، وقيل: إنها لم تكن افْتُتِحَتْ قبله، وقيل: افتتحت ثم ارتجعت، فأسلم أهلها، وخَطَّها قيروانًا للمسلمين. ثم ساروا إلى مدائنَ على شطِّ البحر فيها عمّالٌ لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها، ورأسُ تلك المدائنِ سَبْتة، وعليها عِلْج[٣] يسمى يُلْيان، قاتله موسى فألفاه في نَجْدَة وقوَّة وعدّة فلم يُطِقْه، فَرَجَعَ إلى مدينة طَنْجة فأقام بمَن معه، وأخذ في الغارات على ما حَوْلهم والتضييق عليهم، والسفُن تختلف إليهم بالمِيْرَة[٤] والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غَيْطَشة، فهم يَذُبُّون[٥] عن حريمهم ذَبًّا شديدًا، ويحمون بلادهم حماية تامّة، إلى أنْ هَلَكَ غيطشة ملك الأندلس، وترك أولادًا لم يرضهم أهلها للملك، فاضطرب حبلُ أهل الأندلس، ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لُذَريق، مجرّب شجاع بطل، ليس من بيت أهل الملك، إلاَّ أنه من قُوَّادهم وفُرْسانهم، فولَّوه أمرهم، وكانت طُلَيْطلة دار الملك بالأندلس حينئذ، وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الأيام، عليه عِدَّة من الأقفال يلزمه قوم من ثقات القوط، قد وُكِّلوا به لئلاَّ يُفْتَحَ، وقد عهد الأول في ذلك إلى الآخر، فكلّما قَعَدَ منهم ملكٌ أتاه أولئك الموكَّلون بالبيت فأخذوا منه قُفْلاً وصيّروه على ذلك الباب من غير أن يُزيلوا قُفْلَ مَنْ تقدّمه، فلما قعد لُذَرِيقُ هذا، وكان مُتَهمّمًا يقظًا ذا فكر، أتاه الحُراسُ يسألونه أن يُقْفِلَ

---

(١) عين التمر: حصن بالعراق افتتحه خالد بن الوليد. الروض المعطار (ص ٤٢٣).

(٢) المُطَّوِّعَةُ: الذين يتطوّعون بالجهاد، والأصل: المتطوعة، فأُدْغمت التاء بالطاء. محيط المحيط (طوع).

(٣) العِلْج: الواحد من كُفّار العجم، والجمع عُلُوج وأعلاج وعِلَجَة. مختار الصحاح (علج).

(٤) المِيرَة: الطعام يمتاره الإنسان. مختار الصحاح (مير).

(٥) يَذُبُّون: يدافعون. لسان العرب (ذبب).

على الباب، فقال لهم: لا أفعل أو أعْلَمَ ما فيه، ولا بُدَّ لي من فتحه، فقالوا له: أيها الملك، إنه لم يفعل هذا أحد ممّن قبلك، وتناهَوْا عن فتحه، فلم يلتفت إليهم، ومشى إلى البيت، فأعظمت ذلك العجمُ وضَرِعَ[1] إليه أكابرُهم في الكفّ، فلم يفعل، وظَنَّ أنه بيتُ مال، ففضّ الأقفال عنه، ودخل، فأصابه فارغًا لا شيء فيه، إلاّ تابوتًا عليه قُفْل، فأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يُقْنِعُهُ نفاسةً، فألفاه أيضًا فارغًا ليس فيه إلاّ شُقَّةٌ[2] مُدْرَجَةٌ قد صُوِّرَتْ فيها صورُ العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيولُ العِرَاب[3] متقلّدي السيوف متنكبي القِسِيّ رافِعِي الرايات على الرماح، وفي أعلاها أسطرٌ مكتوبةٌ بالعجمية، فَقُرِئَتْ فإذا فيها: إذا كَسَرْتَ الأقفالَ عن هذا البيت وفُتِحَ هذا التابوتُ فظهر ما فيه من هذه الصور فإن هذه الأمة المُصَوَّرة في هذه الشُقّة تدخل الأندلس، فتغلب عليها وتملكها، فوَجَم[4] لُذَرِيق وندم على ما فعل، وعظم غَمُّهُ وغَمُّ العجم بذلك، وأمر بِرَدِّ الأقفالِ وإقرار الحرس على حالهم، وأخذ في تدبير الملك، وذُهِلَ عَمَّا أنذر به.

وكان[5] من سِيَرِ أكابر العجم بالأندلس وقوّادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم إلى بلاد الملك الأكبر بطُلَيْطلة ليصيروا في خدمته، ويتأدّبوا بأدبه، وينالوا من كرامته، حتى إذا بلغوا أَنْكَحَ بعضهم بعضًا استئلافًا لآبائهم، وحمل صَدُقاتهم[6]، وتولّى تجهيزَ إناثهم إلى أزواجهنّ. فاتفق أنْ فعل ذلك يُلْيَان عامل لُذَرِيق على سَبْتة، وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس، وأهلُها على النصرانية، ركب الطريقة بابنة له بارعة في الجمال تكرم عليه، فلمّا صارت عند لُذَرِيق وقَعَت عينُه عليها، فأعجبته، وأحبَّها حبًّا شديدًا، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافْتَضَّها، فاحتالتْ حتى أعلمت أباها بذلك سرًّا، بمكاتبة خفيّة، فأَحْفَظَهُ شأنُها جدًّا[7]، واشتدّت حميّته، وقال: ودِيْنِ المسيح

---

(١) ضَرِعَ إليه أكابرهم يضرعون: خشعوا وخضعوا واستكانوا. محيط المحيط (ضرع).

(٢) الشُقّةُ، بضم الشين: ثوب، وقيل: نصف ثوب، والجمع شِقاقٌ وشُقَقٌ. مُدْرَجَةٌ: مطويّة؛ يقال: دَرَجَ الثوبَ دَرْجًا إذا طواه. لسان العرب (شقق) و(طوى).

(٣) الخيل العِراب: الذي ليس فيه عِرْق هجين. لسان العرب (عرب).

(٤) وَجَمَ: اشتدّ حزنه حتى أمسك عن الكلام. مختار الصحاح (وجم).

(٥) في طبعة دار صادر: «وقد كان».

(٦) الصَّدُقات، بفتح الصاد وضمّ الدال: جمع صَدُقَة وهي مَهْرُ المرأة. محيط المحيط (صدق). وقوله: حمل الصدقات، أي تحمّلها ودفعها من ماله.

(٧) أحفظه: أغضبه. محيط المحيط (حفظ).

لأزِيلَنَّ ملكه[١] وسلطانه، وَلأَخْفِرَنَّ تحت قدميه، فكان امتعاضُه من فاحشة ابنته هو السببَ في فتح الأندلس بالذي سبق من قَدَر اللّه تعالى.

ثم إن يليان ركبَ بحرَ الزُّقاق من سَبْتة في أصعب الأوقات في ينير[٢] قلبِ الشتاء، فصار بالأندلس، وأقبل إلى طُلَيْطلة نحو الملك لُذَرِيق، فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت، وسأله عمّا لديه، وما جاء فيه[٣]، ولِمَ جاء في مثل وقته؟ فذكر خَيْرًا، واعتلّ بذكر زوجته، وشدّة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده، وتمنِّيها لقاءها قبل الموت، وإلحاحها عليه في إحضارها، وأنه أَحَبَّ إسعافها، ورجا بلوغها أُمنيتها منه، وسأل الملكَ إخراجها إليه، وتعجيلَ إطلاقه للمبادرة بها، ففعل، وأجاز الجارية، وتوثَّق منها بالكتمان عليه، وأَفْضَلَ على أبيها، فانْقَلَبَ عنه، وذكروا أنه لـمَّا وَدَّعه قال له لُذَرِيق: إذا قَدِمْتَ علينا فَأَسْتَفْرِهْ[٤] لنا من الشَّذَانِقَاتِ التي لم تَزَلْ تُطْرِفُنا بها فإنها آثرُ جوارحِنا لدينا، فقال له: أيها الملك، وحقِّ المسيح لَئِنْ بقيْتُ لأُدْخِلَنَّ عليك شَذَانقاتٍ[٥] ما دخل عليك مثلها قطّ، عرّض له بالذي أضمره من السعي في إدخال رجال العرب عليه، وهو لا يَفْطِن، فلم يَتَنَهْنَه[٦] يليان عندما استقرَّ بسَبْتة عملِهِ أن تهيّأ للمسير نحو موسى بن نُصَير الأمير، فمضى نحوه بإفريقية، وكلّمهُ في غزو الأندلس، ووصف له حُسْنها وفضلها، وما جمعت من أشتات[٧] المنافع، وأنواع المرافق، وطيب المزارع، وكثرة الثمار، وثَرَارة[٨] المياه وعذوبتها، وهَوَّن عليه مع ذلك حالَ رجالها، ووصفهم بضعف البأس وقلّة الغَنَاء[٩]، فشوّق موسى إلى ما هناك، وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه يُلْيان، فعاقده على الانحراف إلى المسلمين، واستظهر عليه بأن

---

(١) في طبعة دار صادر: «لأزِيلَنَّ سلطانه...».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «صِنَّير». وهي تعني شدّة البرد. وينير هو شهر Enero بالإسبانية، وهو شهر كانون الثاني.

(٣) جملة «وما جاء فيه» ساقطة في طبعة دار صادر.

(٤) إسْتَفْرَهَ الأفراس: استكرمها. محيط المحيط (فره).

(٥) الشَّذانقات، بفتح الشين وضمّها: الصقور، ويريد يليان بالصقور جنودًا من العرب كما تقول الرواية الإسلامية. راجع البيان المغرب (جـ ٢ ص ٧).

(٦) تَنَهْنَهَ: زُجِرَ؛ يقال: نَهْنَهَهُ عن الشيء إذا زجره، أي إنَّ يليان لم يتريّث في اتخاذ القرار. لسان العرب (نهنه).

(٧) في طبعة دار صادر: «أسباب المنافع».

(٨) ثرارة المياه: غزارتها. محيط المحيط (ثرر).

(٩) الغَنَاء، بفتح الغين المعجمة: النَّفْعُ. مختار الصحاح (غني).

سامه مُكاشَفَة أهل مِلّته من الأندلس المشركين والاستخراج إليهم بالدخول إليها وشَنّ الغارة فيها، ففعل يُلْيان ذلك، وجمع جمعًا من أهل عمله، فدخل بهم في مركبين وحَلّ بساحل الجزيرة الخضراء، فأغار وقتل وسبى وغنم، وأقام بها أيامًا، ثم رَجَعَ بمَن معه سالمين، وشاع الخبر عند المسلمين، فأَنِسُوا بيُلْيَان[1] واطمأنّوا إليه، وكان ذلك عقبَ سنة تسعين، فكتب موسى بن نُصَير إلى أمير المؤمنين الوليدِ بن عبد الملك يُخْبِرُهُ بالذي دعاه إليه يُلْيان من أمر الأندلس، ويستأذنه في اقتحامها، فكتب إليه الوليد: أنْ خُضْها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تُغَرِّرْ بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعه أنه ليس ببَحْر زَخّار، وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه، فكتب إليه: وإن كان فلا بُدَّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه. فبعث موسى عند ذلك رجُلاً من مواليه من البرابرة اسمه طَريف يكنى أبا زُرعة في أربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم في أربعة[2] مراكب، فَنَزَلَ بجزيرةٍ تُقَابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم مَعْبرُ سفائنهم ودارُ صناعتهم، ويقال لها اليوم «جزيرة طريف»[3] لنزوله بها، وأقام بها أيامًا حتى التأم[4] إليه أصحابه، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سَبْيًا لم يَرَ موسى ولا أصحابُه مثله حُسْنًا، ومالاً جسيمًا، وأمتعةً، وذلك في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين. فلما رأى الناسُ ذلك تسرَّعوا إلى الدخول، وقيل: دخل طريف في ألف رجل، فأصاب غنائم وسَبْيًا، ودخل بعده أبو زُرْعة شيخ من البرابرة، وليس بطريف، في ألف رجل منهم أيضًا فأصابوا أهلَ الجزيرة قد تفرّقوا عنها، فضَرَّمُوا عامَّتها بالنار، وحَرَّقُوا كنيسة بها كانت عندهم معظّمة، وأصابوا سَبْيًا يسيرًا، وقتلوا وانصرفوا سالمين.

وقال الرازي: هو أبو زرعة طريف بن مالك الـمَعَافِري، والاسم طبق الكنية.

قالوا: ثم عاود يليان القدومَ على موسى بن نُصَير محرّكًا في الاقتحام على أهل الأندلس، وَخَبّرَه بما كان منه ومن طريف وأبي زُرْعة، وما نالوه من أهلها، وباشروه من طيبها، فحمد الله على ذلك، واستجدَّ عَزْمًا في إقحام المسلمين فيها، فدعا مولًى له كان

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ليليان».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «أربع».

(٣) جزيرة طريف، بالإسبانية Tarifa: جزيرة على البحر الشامي، وهي مدينة صغيرة، تبعد عن الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً. الروض المعطار (ص ٣٩٢).

(٤) في طبعة دار صادر: «تتامّ».

على مُقَدَّمته يُسَمَّى طارقَ بن زياد بن عبد اللَّه فارسيًا هَمَذَانـيًا، وقيل: إنه ليس بمولًى لموسى، وإنما هو رجل من صَدِف، وقيل: مولى لهم، وقد كان بعض عقبه بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكارًا شديدًا، وقيل: إنه بربري من نَفْزَة، فعقد له موسى، وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جُلّهُم البربر والموالي، وليس فيهم عرب إلاّ قليل، وَوَجَّه معه يُلْيان، فَهَيأ له يُلْيانُ المراكبَ، فركب في أربع سفن لا صناعة له غيرها، وحَطَّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم سبت في شعبان سنة اثنتين وتِسْعِين، في شهر أغسطس[1]، ثم صرف المراكب إلى مَنْ خلفه من أصحابه، فركب مَن بقي من الناس، ولم تزل السفائن تختلف إليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل، وقيل: حلَّ طارق بجبله يوم الاثنين لخمس خَلَوْنَ من رجب من السنة في اثني عشر ألفًا غير ستة عشر رجلاً من البرابرة، ولم يكن فيهم من العرب إلاّ يسير، أجازهم يُلْيان إلى ساحل الأندلس في مراكب التجار من حيث لم يُعْلَمْ بهم، أوّلاً أوّلاً، وركب أميرهم طارق آخرهم.

قيل[2]: وأصاب طارق عجوزًا من أهل الجزيرة، فقالت له في بعض قولها: إنه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدّثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا، ويغلب عليه، ويصف مَن نعته أنه ضخم الهامة[3]، فأنت كذلك، ومنها أن في كتفه الأيسر شامةٌ عليها شَعَرٌ، فإنْ كانت بك هذه العلامة فأنت هو، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرته العجوز، فاستبشر بذلك هو ومَنْ معه.

وذكر عن طارق أنه كان نائمًا في المركب فرأى في منامه[4] النبيَّ، ﷺ، والخلفاء الأربعة أصحابه عليهم الصلاة والسلام يمشون على الماء حتى مَرُّوا به، فبشّره النبيُّ، ﷺ، بالفتح، وأمره بالرفق بالمسلمين، والوفاء بالعهد. وقيل: إنه لَمَّا ركبَ البحرَ غلبته عينه فكان يرى النبيَّ، ﷺ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكّبوا القِسِيّ، فيقول له رسول الله، ﷺ: يا طارق، تَقَدَّمْ لشأنك، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه، فَهَبَّ من نومه مستبشرًا، وبَشَّرَ أصحابَهُ، وثابَتْ إليه نَفْسُه ثقةً ببُشْراه، فقوِيَتْ نفسُه، ولم يشكَّ في الظفر، فخرج من البلد، واقتحمَ بسيطَ البلاد شانًّا للغارة.

---

(١) في طبعة دار صادر: «أغش».
(٢) القول لابن بشكوال، وقصة طارق مع تلك العجوز تقدمت في الباب الثاني.
(٣) الهامة: الرأس، والجثة. محيط المحيط (هوم).
(٤) «في منامه» ساقط في طبعة عبد الحميد.

قالوا: ووقع على لُذَريقَ الملكِ خَبَرُ اقتحام العرب ساحلَ الأندلس، وتوالي غاراتهم على بلد الجزيرة، وأنَّ يُـلْيان السبب فيها، وكان يومئذ غائبًا بأرض بَنبَلُونَةَ[1] في غَزَاة له إلى البَشْكَنْسِ لأمر كان استصعب عليه بناحيتهم، فعظم عليه، وفهم الأمر الذي منه أتى، وأقبل مبادرًا الفَتْقَ في جموعه، حتى احتلَّ بمدينة قُرْطُبة من الموسطة[2] ونَزَلَ القصرَ المدعوّ بها ببلاط لُذَريق المنسوب إليه، وليس لأنه بناه أو اخترعه ـ وهو بناء مَنْ تَقَدَّمه من الملوك اتّخذوه لمنزلهم في قرطبة إذا أتوها ـ إلاَّ أن العرب لَمَّا غلبوا لُذَريق وهذا القصر من مَوَاطنه نسبوه إليه، إذ لم يعرفوا مَنْ بناه، ويزعم العجم أنَّ الذي بناه ملك منهم كان ساكنًا بحصن المدور[3] أسفلَ قرطبة، وخرج يومًا يَتَصَيَّدُ حتى انتهى إلى مكان قُرْطبة، وهي يومئذ خراب، وكان في موضع قصرها غَيْضَة عُلَّيْقٍ ملتفة أشِبَة[4]، فأرسل الملك بازيًا له يكرم عليه على حَجَلة عنّت له من ناحية الكُدْية[5] المنسوبة بَعْدُ إلى أبي عُبَيدة، فَتخَبَّثْ[6] في ذلك العُلّيق، ولَجَّ البازي في الانقضاض عليها، فركض الملك خَلْفَهُ حتى وقف على مكانه ليخرجه[7]، فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه ضَنًّا منه به، فَقُطِعَتْ، وبدا له تحتها أساسُ قصرٍ عظيـمٍ راقَهُ رَصُّه، وقد كان ذا همّة، فأمر بالكشف عنه، وتقصّي حدوده طولاً وعرضًا، وتتبّع أسّه وأصْله، فوجده مبنيًا من وجه الماء بصُمّ الحجارة فوق زَرَجُونٍ[8] وُضِعَ بينها وبين الماء بأحكم صناعة، فقال: هذا أثر ملك كريم، وأنا أولى مَنْ جَدَّده، فأمر بإعادته إلى هيأته، واتّخاذه منزلاً من منازل راحاته، فكان إذا طاف بعمله أو مضى في مُتَصَيَّدِه نَزَلَ فيه، وصار السبب في بناء قرطبة إلى جنبه، ونزل[9] الناسُ فيها، وتوارثَ

(١) بنبلونة، بالإسبانية Panplona: مملكة غرسية بن شانجة Garcia Sancho سنة ٣٣٠ هـ. الروض المعطار (ص ١٠٤).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «المتوسطة».

(٣) حصن المُدَوَّر، بالإسبانية: Almodovar ، ويقع بقرب مدينة قُرْنَجُولُش Hornachuelos في مقاطعة قرطبة. الروض المعطار (ص ٤٤٠)، وفي معجم البلدان (جـ ٥ ص ٧٧): «المَدُورُ حِصْنٌ حصين مشهور بالأندلس بالقرب من قرطبة...».

(٤) الغَيضَةُ: الأَجَمَةُ ومجتمع الشجر. أَشِبَةٌ: مُلْتَفَّةٌ؛ يقال أَشِبَ الشجرُ إذا التفّ. محيط المحيط (غيض) و(أشب).

(٥) الكُدْيَةُ: الأرض الغليظة، والجمع كُدى. محيط المحيط (كدى).

(٦) أصلها: تخبّأت.

(٧) في طبعة دار صادر: «بالحرجة».

(٨) الزَّرَجُون: شجر الكَرْم. مختار الصحاح (زرجن).

(٩) في طبعة دار صادر: «ونزول».

الملوكُ قصرها مِنْ بَعْدُ، وَنَزَلَهُ لُذَريقُ في زحفه إلى العرب أيامًا، والحشود من أعماله تتوافى إليه، ثم مضى نحو كورة شذونة يبغي لقاءهم في حشوده الكثيرة.

وقيل: إن آخر ملوك الأندلس الذين تَلَتْهم العربُ غيطشة، وإنه هلك عن أولاد ثلاثة صغار لم يَصْلحوا للملك، فضبطتْ أُمُّهُمْ عليهم ملك والدهم بطُلَيْطلة، وانحرف لُذَريق قائد الخيل لوالدهم فيـمَن تبعه عنهم، فصار بقُرْطُبة، فلما اقتحم طارق الأندلس نَفَرَ إليه لُذَريقُ واستنفَر إليه أجنادَ أهل الأندلس، وكتب إلى أولاد غَيْطَشَة - وقد ترعرعوا، وركبوا الخيل، واتّخذوا الرجال - يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب، ويحذّرهم من القعود عنه، ويحضّهم على أن يكونوا على عدوّهم يدًا واحدةً، فلم يجدوا بدًّا، وحَشَدوا، وقَدِمُوا عليه بقُرْطُبة، فَنَزَلُوا أكناف قرية شَقَنْدَةَ بعُدْوَة نهرها قبالَةَ القصر، ولم يطمئنّوا إلى الدخول على لذِريق أخذًا بالحزم، إلى أنِ اسْتَتَبَّ جهاز لُذَريق وخرج، فانضمّوا إليه، ومَضَوْا معه وهم مُرْصِدون لمكروهه. والأصح - والله أعلم - ما سبق أن مُلْكَ القوط اجتمع لِلُذَريق، واختلف في اسمه: فقيل رُذَريق[1] - بالراء أوله - وقيل باللام لُذِريق وهو الأشهر، وقيل: إن أصله من أصبهان ويسمّى الإشبان، والله أعلم.

قالوا: وعَسكَرَ لُذريقُ في نحو مائة ألف ذوي عَدَد وعُدَّة، فكتب طارق إلى موسى يستمدّه ويعرفه أنه فتح الجزيرة الخضراء فُرْضَةَ الأندلس، ومَلَكَ المجاز إليها، واستولى على أعمالها إلى البحيرة، وأنَّ لُذَريق زحف إليه بما لا قِبَل له به، إلاّ أن يشاء الله، وكان موسى منذ وجّه طارقًا لوجهه، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عِدّة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مَدَدًا كملت بهم عدّة مَنْ معه اثني عشر ألفًا أقوياء على المغانم، حِرَاصًا على اللقاء، ومعهم يُلْيَان المستأمن[2] إليهم في رجاله وأهل عمله يَدُلُّهم على العَوْرات، ويتجسّس[3] الأخبار، وأقبل نحوهم لُذَريق في جموع العجم وملوكها وفرسانها، فتلاقَوْا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: إن هذا ابنَ الخبيثة قد غلب على سلطاننا، وليس من أهله، وإنما كان من أتباعنا، فلسنا نعدم من سيرته خَبَالاً في أمرنا، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا، وإنما مُرَادهم أنْ يملأوا أيديهم من الغنائم، ثم يخرجوا عنّا، فهلمَّ فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلّهم

(١) بالإسبانية Rodrigo.

(٢) المستأمن: أي إن المسلمين أعطوه الأمان.

(٣) في طبعة دار صادر: «ويتجسّس لهم الأخبار».

يكفوننا إيّاه، فإذا انصرفوا عنّا أقعدنا في ملكنا مَن يستحقّه، فأجمعوا على ذلك، والقضاء يُبْرِمُ ما ارتأَوْه.

وكان لُذَرِيق وَلَّى ميمنته أحد ابني غَيْطشة، وميسرته الآخر، فكانا رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة. وأدّاهما إلى ذلك طَمَعُ رجوعِ ملك والدهما إليهما.

وقيل: لَـمَّا تقابل الجيشان أَجْمَعَ أولادُ غَيْطَشَة على الغدر بلُذَرِيق، وأرسلوا إلى طارق يُعْلمونه أنّ لُذَرِيق كان تابعًا وخادمًا لأبيهم فَغَلَبَهُمْ على سلطانه بعد مَهلكه وأنهم غير تاركي حَقِّهم لديه، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمَن يتبعهم، وأن يسلِّم إليهم إذا ظفر ضياعَ والدهم بالأندلس كلها، وكانت ثلاثة آلاف ضَيْعة نفائس مختارة، وهي التي سُمِّيَتْ بعد ذلك صَفَايا الملوك، فأجابهم إلى ذلك، وعاقَدَهم عليه، فالتقى الفريقان من الغَدِ، فانحاز الأولاد إلى طارق، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح. وكان الالتقاء على وادي لَكَّة من كورة شَذونة، فهزم اللّه الطاغيةَ لُذَرِيق وجموعه، ونصر المسلمين نصرًا لا كفاء له، ورمى لُذَرِيق نفسه في وادي لَكَّةَ وقد أثقلته الجراح[1]، فلم يُعْلَم له خبر ولم يوجد.

وقيل: نَزَلَ طارق بالمسلمين قريبًا من عسكر لُذريق مُنْسَلَخَ شهر رمضان سنة ٩٢، فوجد لذريق عِلْجًا من أصحابه قد عَرَف نَجْدَته ووثق ببأسه لِيُشْرِفَ على عسكر طارق فَيَحْزِرَ عددهم ويُعاين هيئاتهم ومراكبهم، فأقبل ذلك العلج حتى طلع على المعسكر، ثم شدّ في وجوه مَنِ استشرفه[2] من المسلمين، فوثبوا إليه، فولّى منصرفًا راكضًا، وفاتهم بِسَبْق فرسه، فقال العلج للُذَرِيق أتتك الصور التي كشف لك عنها التابوت، فخذْ على نفسك، فقد جاءك منهم مَن لا يريد إلاّ الموت أو إصابةَ ما تحت قدميك، قد حَرَقوا مراكبهم إياسًا لأنفسهم من التعلُّق بها، وصفوا في السهل مُوَطِّنِينَ أنفُسَهم على الثبات، إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب، فرَعَبَ وتضاعف جزعه، والتقى العسكران بالبحيرة، واقتتلوا قتالاً شديدًا، إلى أن انهزمَتْ ميمنة لُذَرِيق وميسرته، انهزم بهما أبناء غَيْطَشة، وثبت القلبُ بعدهما قليلاً وفيه لُذَرِيق، فعَذَّر أهلُه[3] بشيء من قتال، ثم انهزموا، ولُذَرِيقُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «السلاح».

(٢) شَدَّ على العدو: حمل عليه حملة. استشرفه: رفع بصره ينظر إليه. محيط المحيط (شدد) و(شرف).

(٣) يقال: عَذَّرَ الرجلُ: أي لم يثبت له عذر وذلك إذا لم يأتِ بعذر صدق. محيط المحيط (عذر).

أمامهم، فاستمرّت هزيمتهم، وأذرع المسلمون[١] القتل فيهم، وخفي أثر لُذَريق فلا يُدْرَى أَمْرُهُ، إلاَّ أن المسلمين وجدوا فَرَسَه الأشهبَ الذي فُقِدَ وهو راكبه، وعليه سَرْج له من ذهب مُكَلَّلٌ بالياقوت والزَّبَرْجَد، ووجدوا أحد خُفَّيْهِ وكان من ذهب مُكَلَّلٍ بالدُّرِّ والياقوت والزبرجد[٢]، وقد ساخ الفرسُ في طين وحَمأة[٣]، وغرق العِلْج، فثبت أحد خُفَّيْه في الطين فأُخِذَ، وخفي الآخر، وغاب شخص العِلْج ولم يوجد حَيًّا ولا مَيْتًا، واللّه أعلم بشأنه.

وقال الرازي: كانت الملاقاةُ يوم الأحد لليلتين بقيَتَا من شهر رمضان، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمسٍ خَلَوْنَ من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام، ثمّ هزم اللّه المشركين، فقُتِل منهم خلق عظيم، أقامت عظامُهم بعد ذلك بدَهْر طويل ملبسة بتلك الأرض. قالوا: وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجلُّ قَدْرُه، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكَهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون مَنْ دونهم بخواتم الفضّة، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس، فجمع طارق الفَيْءَ وخَمَّسَه، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع، وتسامع الناسُ من أهل بَرِّ العُدْوَة بالفتح على طارق بالأندلس وسَعَة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وَجْه، وخَرَقُوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقُشرٍ[٤]، فلحقوا بطارق، وارتفع أهلُ الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهارَبُوا من السهل، ولحقوا بالجبال، ثم أقبل طارقٌ حتى نَزَلَ بأهل مدينة شَذونة، فامتنعوا عليه، فشدَّ الحصر عليهم حتى نَهَكَهم[٥] وأضرّهم، فتَهَيّأَ له فتحها عَنْوَةً، فحاز منها غنائم، ثم مضى منها إلى مَوْرور[٦]، ثم عطف على[٧] قَرْمُونة فَمَرَّ بعينه المنسوبة إليه، ثم مال على إشبيلِيَةَ فصالحه أهلُها على الجزية، ثم نازل أهل إسْتِجَة وهم في قوّة ومعهم فَلُّ عسكرِ لُذَريق، فقاتلوا قتالاً شديدًا حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثم إن

---

(١) أذرع المسلمون القتل فيهم: أي أفرطوا؛ يقال: أذرع في الكلام إذا أفرط. محيط المحيط (ذرع).

(٢) في طبعة دار صادر: «مُكَلَّلٌ بالياقوت والزَّبَرْجَد...».

(٣) الحَمْأَةُ، بفتح الحاء والهمزة وسكون الميم: الطِّينُ الأسود. مختار الصحاح (حمأ).

(٤) القُشْرُ، بضم القاف وسكون الشين السمكة قدر شِبْرٍ. القاموس المحيط (قشر). والمراد هنا المركب.

(٥) نَهَكَهُمْ: أضعفهم. لسان العرب (نهك).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «مُدَوَّر». ومورور بالإسبانية Moron de la Frontera، وهي كورة متصلة بأحواز قرمونة من جزيرة الأندلس. الروض المعطار (ص ٥٦٤).

(٧) في طبعة دار صادر: «إلى».

اللّه تعالى أظهر المسلمين عليهم، فانكسروا، ولم يَلْقَ المسلمون فيما بعد ذلك حربًا مثلها، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعِلْج صاحبها، وكان مغترًا سيىء التدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده، فصادف طارقًا هناك قد أتى لمثل ذلك، وطارق لا يعرفه، فوثب عليه طارق في الماء، فأخذه وجاء به إلى العسكر، فلما كاشَفَهُ اعترف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ما أَحَبَّ، وضرب عليه الجِزْية، وخَلَّى سبيله، فوفى بما عاهد عليه، وقذف اللّه الرُّعْبَ في قلوب الكَفَرَة لَمَّا رأوا طارقًا يُوغِل في البلاد. وكانوا يحسبونه راغبًا في المغنم عاملاً على القُفُول[1]، فسُقِط في أيديهم[2]، وتطايَرُوا عن السهول إلى المعاقل، وصعد ذَوُو القوّة منهم إلى دار مملكتهم طُلَيْطلة، قيل: وكان من إرهاب طارق لنصارى الأندلس وحيله أن تقدّم إلى أصحابه في تفصيل لحوم القتلى بحضرة أَسْرَاهُمْ وطبخها في القدور، يُرُوْنَهم أنهم يأكلونها، فجعل مَن انطلق من الأسرى يحدّثون مَنْ وراءهم بذلك فتمتلىء منهم قلوبهم رُعْبًا ويَجْفِلُون فرارًا، قالوا: وقال يُلْيَان لطارق: قد فَضَضْتَ جيوش القوم، ورعبوا، فاَصْمُدْ لبيضتهم[3]، وهؤلاء أَدِلاَّء[4] من أصحابي مَهَرَة، فَفَرِّقْ جيوشَك معهم في جهات البلاد، واَعْمِدْ أنت إلى طُلَيْطلة حيث مُعْظَمُهُمْ، فأشغل القومَ عن النظر في أمرهم والاجتماعِ إلى أُولي رأيهم، فَفَرَّقَ طارقٌ جيوشَه معهم[5] من إسْتِجَةَ، فبعث مغيثًا الروميّ مولى الوليد بن عبد الملك إلى قُرْطُبة، وكانت من أعظم مدائنهم، في سبعمائة فارس؛ لأنَّ المسلمين ركبوا جميعًا خَيْلَ العجم، ولم يَبْقَ فيهم راجلٌ، وفَضَلَتْ عنهم الخيلُ، وبَعَثَ جيشًا آخر إلى مالَقَةَ، وآخر إلى غَرْنَاطة مدينة إلبيرة، وسار هو في معظم الناس إلى كورة جَيَّان يريد طُلَيْطلة، وقد قيل: إن الذي سار لقُرْطبة طارق بنفسه، لا مغيث، قالوا: فكمنوا بعُدْوة نهر شَقَنْدَةَ في غَيْضَة[6] أرزٍ شامخة، وأرسلت الأدلاء فأمسكوا راعيَ غنم فَسُئِلَ عن قرطبة فقال: رحل عنها عظماء أهلها إلى طُلَيْطلة، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حُمَاتهم مع ضعفاء أهلها، وسُئل عن سورها فأُخْبر

(١) القُفُول: الرجوع، مصدر قفل. لسان العرب (قفل).

(٢) سُقِط في أيديهم: أخطأوا وندموا وتحيروا. لسان العرب (سقط).

(٣) صَمَدَ لبيضتهم: قَصَدَها. بَيْضَةُ البلد: الذي يُجْتَمَعُ إليه ويُقْبَلُ قوله، أي رئيس البلد. محيط المحيط (صمد) و(بيض).

(٤) الأدِلاَّءُ: جمع دليل وهو المُرْشد. محيط المحيط (دلل).

(٥) كلمة «معهم» ساقطة في طبعة صادر.

(٦) الغَيْضَةُ: الأَجَمَةُ ومجتمع الشجر. محيط المحيط (غيض).

أنه حَصين عالٍ فوق أرضها إلاّ أنه فيه ثُغرة[1] ووصَفها لهم، فلما أَجَنَّهم الليل[2] أقبلوا نحو المدينة ووطّأَ اللّهُ لهم أسبابَ الفتح[3] بأَنْ أرسل السماء بِرَذَاذٍ أخفى دقدقة حوافر الخيل، وأقبل المسلمون رويدًا حتى عبروا نهر قرطُبة ليلاً، وقد أغفل حَرَسُ المدينة احتراسَ السور، فلم يظهروا عليه ضِيقًا بالذي نالهم من المطر والبرد، فَتَرَجَّلَ القومُ حتى عبروا النهر، وليس بين النهر والسور إلاّ مقدار ثلاثين ذراعًا أو أقلّ، وراموا التعلّق بالسور فلم يجدوا مُتَعَلَّقًا، ورَجَعُوا إلى الراعي في دلالتهم على الثُّغْرَةِ التي ذكرها، فأراهم إياها. فإذا بها غير متسهلة التسنُّم، إلاّ أنه كانت في أسفلها شجرة تينٍ مَكّنَتْ أفنانها من التعلّق بها. فصعد رجلٌ مِنْ أشِدّاء المسلمين في أعلاها، ونزع مغيثٌ عِمامته فناوله طَرَفَها، وأعان بعضُ الناس بعضًا حتى كثروا على السور، وركب مغيث ووقف من خارج، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس، ففعلوا، وقتلوا نفرًا منهم، وكسروا أقفال الباب، وفتحوه، فدخل مغيث ومَنْ معه وملكوا المدينة عَنْوَةً، فصعد إلى البلاط مَنْزِلِ الملك ومعه أَدِلاَّؤه، وقد بلغ الملك دخولهم المدينة. فبادر بالفرار عن البلاد في أصحابه، وهم زهاء أربعمائة، وخرج إلى كنيسة بغربيِّ المدينة، وتحصَّن بها، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سَفح جبل، ودافعوا عن أنفسهم. ومَلَكَ مغيثٌ المدينةَ وما حولها، وقال مَنْ ذهب إلى أن طارقًا لم يحضر فتح قرطبة وأنّ فاتحها مغيث: إنه كتب إلى طارق بالفتح، وأقام على محاصرة العِلْج بالكنيسة ثلاثة أشهر، حتى ضاق من ذلك وطال عليه، فتقدّم إلى أَسْوَدَ من عبيده اسمه رَبَاح، وكان ذا بأس ونَجدة، بالكُمُون في جنانٍ إلى جانب الكنيسة مُلْتَفَّةِ الأشجار، لعلّه أنْ يظفر له بعلج يقف به على خبر القوم، ففعل، ودعاه ضعفُ عقله إلى أنْ صعد في بعض تلك الأشجار، وذلك أيام الثمر، ليجني ما يأكله، فبصر به أهلُ الكنيسة، وشدّوا عليه، فأخذوه فملكوه، وهم في ذلك هائبون له منكرون لخلقه، إذ لم يكونوا عاينوا أَسْوَدَ قبله، فاجتمعوا عليه، وكثر لَغَطهم[4] وتعجُّبهم من خلقه، وحسبوا أنه مصبوغ أو مطليٌّ ببعض الأشياء التي تُسَوِّدُ، فجرّدوه وسط جماعتهم، وأدنوه إلى القَنَاة التي منها كان يأتيهم الماء، وأخذوا في غَسْله وتدليكه بالْحِبال اَلْـحُرْش[5]، حتى أدموه

(١) الثُّغرة: الثُّلْمَةُ (الفرجة). مختار الصحاح (ثغر).
(٢) أَجَنَّهُ الليلُ: ستره بظلامه. مختار الصحاح (جنن).
(٣) وَطّأَ اللّه لهم أسباب الفتح: سهّلها لهم. مختار الصحاح (وطأ).
(٤) اللَّغَطُ، بالفتح: الصَّوْتُ والجَلَبَةُ. مختار الصحاح (لغط).
(٥) الحبال الحُرْشُ: الخشنة. مختار الصحاح (حرش).

وأعْنَتُوه[١]، فاستغاثهم، وأشار إلى أن الذي به خِلْقة من بارئهم، عَزَّ وجَلَّ، ففهموا إشارته، وكَفُّوا عنه[٢] وعن غسله واشتدَّ فزعهم منه، ومَكَثَ في إسارهم سبعةَ أيام لا يتركون التجمُّع عليه والنظر إليه إلى أنْ يَسَّرَ اللَّه[٣] له الخلاص ليلاً، فَفَرَّ وأتى الأميرَ مغيثًا فخبّره بشأنه وعرّفه بالذي اطّلع عليه من شأنهم[٤]، وموضع الماء الذي ينتابونه، ومن أيّ ناحية يأتيهم، فأمر أهلَ المعرفة بطلب تلك القناة في الجهة التي أشار إليها الأسود حتى أصابوها، فقطعوها عن جَرْيتها إلى الكنيسة، وسدُّوا منافذها، فأيقنوا بالهلاك حينئذ، فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية، فأبَوْا عليه، فأوقد النارَ عليهم حتى أحرقهم فَسُمِّيَتْ كنيسة الحرقى، والنصارى تُعَظِّمُها لصبر مَن كان فيها على دينهم من شدّة البلاءِ، غير أنَّ العِلْج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند إيقان الهلاك، فَفَرَّ عَنْهُمْ وحده، وقد اسْتَغْفَلَهُمْ ورام اللحاقَ بِطُلَيْطلة، فبلغ[٥] خبره إلى مغيث، فبادر الركض خلفه وحده، فلحقه بقرب قرية تَطْليرة[٦] هاربًا وحده، وتحته فرسٌ أصفرُ ذريع الخطو، وحرّك مغيث خلفه، فالْتَفت العِلْجُ وَدُهِشَ لَمَّا رأى مغيثًا قد رَهِقه[٧]، وزاد في حَثِّ فرسه فقصر به، فسقط عن الفرس وانْدَقَّ عنقه، فقعد على ترسه مستأسرًا قد هاضته السقطة[٨]، فَقَبَضَ عليه مغيثٌ، وسَلَبَهُ سلاحَهُ، وحَبَسَهُ عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد، ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره؛ لأنَّ بعضهم استأمن[٩] وبعضهم هرب إلى جِلِّيقيَّةَ، وفي رواية أنَّ مغيثًا استنزل أهل الكنيسة بعد أسره لملكهم، فضرب أعناقهم جميعًا، فمن أجل ذلك عُرِفَتْ بكنيسة الأسرى وأنَّ مُغِيثًا جَمَعَ يهودَ قُرْطُبة فضمَّهُمْ إلى مدينتها استنامةً[١٠] إليهم، دون النصارى، للعداوة بينهم، وأنه اختار القصر لنفسه، والمدينة لأصحابه.

---

(١) أَعْنَتَهُ: أوقعه في العَنَت وفيما يشقُّ عليه تحمُّلُهُ. محيط المحيط (عنت).

(٢) في طبعة دار صادر: «وكَفُّوا عن غسله».

(٣) كلمة «اللَّه» ساقطة في طبعة عبد الحميد.

(٤) في طبعة دار صادر: «اطّلع عليه من موضع الماء...».

(٥) في طبعة دار صادر: «فنمي خبره».

(٦) لعلها طَلْبيرة Talvera de Reina، الواقعة على نهار تاجه Tajo، وهي مبنية على جبل يخرج من تحته عين حرارة. الروض المعطار (ص ٣٩٥).

(٧) رَهِقَهُ: دنا منه. محيط المحيط (رهق).

(٨) مستأسرًا للعدو: كان له أسيرًا. هاضَتْهُ: كَسَرَتْ عظامَهُ. محيط المحيط (أسر) و(هيض).

(٩) استأمن: طلب الأمان. محيط المحيط (أمن).

(١٠) إستنامة إليهم: اطمئنانًا؛ يقال: استنام إليه إذا سكن واطمأنّ. محيط المحيط (نوم).

وأما مَنْ وُجِّه إلى مالَقَة ففتحوها، ولجأ عُلُوجُها إلى جبال هنالك ممتنعة، ثم لحق ذلك الجيشُ بالجيش المتوجِّه إلى إلبيرة، فحاصروا مدينتها غَرْناطة، فافتتحوها عَنْوَةً، وضَمُّوا اليهودَ إلى قصبة غَرْناطة، وصار ذلك لهم سُنَّةً[1] في كل بلد يفتحونه أن يَضُمُّوا يهودَهُ إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها، ويمضي معظمُ الناس لغيرها، وإذا لم يجدوا يهودًا وَفَّرُوا عدد المسلمين المخلَّفين لحفظ ما فتح، ثم صنعوا عند فتح كورة رَيُّهْ[2] التي منها مالَقَةُ مثل ذلك.

ومضى الجيش إلى تُدْمِير، وتدمير: اسم العلج صاحبها، سُمِّيَتْ به، واسم قصبتها أُرْيُوْلَة[3]، ولها شأن في المَنَعة، وكان ملكها عِلْجًا داهية، وقاتلهم مُضْحِيًا[4]، ثم استمرَّتْ عليه الهزيمة في فَحْصِها، فبلغ السيفُ في أهلها مَبْلَغًا عظيمًا أفنى أكثرهم ولجأ العلجُ إلى أريولة في يسير من أصحابه لا يُغْنُونَ شيئًا، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القَصَب والظهور على السور في زيّ القتال متشبّهات بالرجال، وتَصَدَّرَ قُدَّامَهُنَّ في بقية أصحابه يُخالِطُ المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه، فكره المسلمون مِرَاسَه[5] لكثرة مَنْ عاينوه على السور، وعرضوا عليه الصلح، فأظهر الميل إليه، ونَكَّر زِيَّهُ، فَنَزَلَ إليهم بأمان على أنه رسول، فصالحهم على أهل بلده، ثم على نفسه، وتوثق منهم، فلما تَمَّ له من ذلك ما أراد عَرَّفَهُمْ بنفسه، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه، وأَخَذَهم بالوفاء بعَهْدِه، وأدخلهم المدينة، فلم يجدوا فيها إلاَّ العيالَ والذُّرِّيَّةَ، فندموا على الذي أعْطَوْه من الأمان، واسترجحوه[6] فيما احتال به، ومضوا على الوفاء له، وكان الوفاء عادتهم، فسلمت كورة تُدْمير من مَعَرَّة المسلمين[7] بتدبير تُدْمير، وصارت كُلُّها صُلْحًا ليس فيها عَنْوَةٌ، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح، وخَلَّفوا بقصبة البلد رجالاً منهم، ومضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طُلَيْطلة.

(١) في طبعة دار صادر: «سُنَّة مُتَّبَعَة».

(٢) رَيُّهْ، بالإسبانية Reiyo: كورة من كور الأندلس في قبليّ قرطبة. الروض المعطار (ص ٢٧٩).

(٣) أوريوله أو أريوله، بالإسبانية Orihuela: مدينة قديمة من أعمال الأندلس من ناحية تُدْمير. معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٨٠).

(٤) مُضحِيًا: أي وقت الضُّحَى.

(٥) المِراسُ: الممارسة والمعالجة، وقوله: كرهوا مِراسَهُ: أي كرهوا قتاله. مختار الصحاح (مرس).

(٦) استرجحوه: عدّوه راجح العقل، وليس في معاجم اللغة فعل «استرجح».

(٧) المَعَرَّةُ، بفتح الميم والعين والراء المشدّدة: الأذى، وقتال الجيش دون إذن الأمير، محيط المحيط (عرر).

قال ابن حيّان: وانتهى طارق إلى طُلَيْطلة دارِ مملكة القُوط، فألفاها خالية قد فَرَّ عنها أهلُها[1] ولجأوا إلى مدينة بها خلف الجبل، فضمّ اليهود إلى طُلَيْطلة، وخَلَّفَ بها رجالاً من أصحابه، ومضى خلف مَنْ فَرَّ مِنْ أهل طُلَيطلة فسلك وادي الحجارة، ثم استقبل الجبل فقطعه من فَجّ سُمّي به بعد، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل، وهي المنسوبة لسليمان بن داود، عليهما الصلاة والسلام، وهي خضراء من زَبَرْجَد[2]، حافاتها منها وأرجلها، وكان لها ثلثمائة وخمسة وستّون رِجْلاً، فأحرزها عنده، ثم مضى إلى المدينة التي تَحَصَّنوا بها خلف الجبل، فأصاب بها حلْيًا ومالاً، ورَجَعَ ولم يتجاوزها إلى طُلَيطلة سنة ثلاث وتسعين. وقيل: إنه لم يرجع، بل اقتحم أرضَ جِلِّيقية واخترقها حتى انتهى إلى مدينة أَسْتُرقة، فدوّخ الجهة، وانصرف إلى طلَيطلة، واللّٰه أعلم. وقيل: إن طارقًا دخل الأندلس بغير أمر مولاه موسى بن نُصَير، فاللّٰه أعلم. قال بعضهم: وكانت إقامته في الفتوح وتدويخ البلاد إلى أن وصل سَيِّدُهُ موسى بن نُصَير سنة، وكان ما سيذكر.

وأنشد في المسهب وابنُ اليسع في «المعرب»[3] لطارق من قصيدة قالها في الفتح: [الطويل]

رَكِبْنا سَفينًا بالمجاز مُقَيَّرا[4] | عسى أن يكونَ اللّٰهُ مِنّا قَدِ اشْتَرَى
نفوسًا وأموالاً وأهلاً بِجَنَّةٍ | إذا ما اشْتَهَيْنَا الشيء فيها تَيَسَّرَا
ولَسْنَا نُبَالِي كيف سالَتْ نفوسُنَا | إذا نحن أدركنا الذي كان أَجْدَرَا[5]

قال ابن سعيد: وهذه الأبيات مِمَّا يُكْتَبُ لمراعاة قائلها ومكانته، لا لعلوّ طبقتها، انتهى.

وأما أولاد غَيْطَشة فإنهم لَـمَّا صاروا إلى طارق بالأمان، وكانوا سببَ الفتح حسبما

---

(١) في طبعة دار صادر: «فَرَّ أهلُها عنها».
(٢) في طبعة دار صادر: «زبرجدة».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «المغرب» بالغين المعجمة، والصواب: «المعرب»؛ لأن كتاب ابن اليسع هو: «المعرب في آداب المغرب»، وقد تقدّمت ترجمته.
(٤) مُقَيَّرًا: مَطْلِيًّا بالقار، والقار مادة سوداء تُطْلى بها السفن. محيط المحيط (قير).
(٥) سالت نفوسنا: أي سالت دماؤنا. ومعنى هذا البيت والبيتين السابقين أخذه من قول اللّٰه تعالى: ﴿إنَّ اللّٰهَ اشْترى منَ المؤمنينَ أنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُم بأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقاتلون في سبيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلونَ﴾ سورة التوبة ٩، الآية ١١١.

تَقَدَّمَ، قالوا لطارق[١]: أنت أميرُ نفسك أم فوقك أمير؟ فقال: بل[٢] على رأسي أمير، وفوق ذلك الأمير أميرٌ عظيم، فاستأذنوه في اللّحاق[٣] بموسى بن نُصَير بإفريقية ليؤكّد سببهم به، وسألوه الكتاب إليه بشأنهم معه، وما أعطاهم من عهده، ففعل. وساروا نحو موسى فَتَلَقَّوه في انحداره إلى الأندلس بالقرب من بلاد البربر وعرَّفوه بشأنهم، ووقف على ما خاطبه به طارق في ذِمّتهم وسابقتهم، فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق، وكتب إليه بما عَرَّفه به طارق من جميل أثرهم، فلمّا وصلوا إلى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهدَ طارق في ضِيَاع والدهم، وعقد لكلٍّ واحد منهم سِجِلاً، وجعل لهم أن لا يقوموا لداخلٍ عليهم. فقدموا الأندلس، وحازوا ضِيَاع والدهم أجمع، واقتسموها على موافقة منهم، فصار منها لكبيرهم ألمند[٤] ألف ضيعة في غرب الأندلس، فسكن من أجلها إشبيلة مقتربًا منها، وصار لأرطباش[٥] ألف ضيعة، وهو تلوه في السنّ، وضياعه في مُوَسَّطة الأندلس، فسكن من أجلها قُرْطُبة، وصار لثالثهم وَقِلَةَ[٦] ألفُ ضيعةٍ في شرقيّ الأندلس وجهة الثغر، فسكن من أجلها مدينة طُلَيْطلة، فكانوا على هذه الحال صَدْرَ الدولة العربية، إلى أنْ هلك أَلْـمُنْد كبيرهم، وخَلَّف[٧] ابنته سارة[٨] المعروفة بالقُوطِية وابنين صغيرين، فبسط يده أرطباشُ على ضياعهم، وضَمَّها إلى ضياعه، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، فأنشأت سارة بنت أَلْـمُنْد مركبًا بإشبيلية حصينًا كامل العدّة، وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نَزَلَتْ بعَسْقَلاَن[٩] من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره في دمشق، فأنهَتْ خبرها، وشَكَتْ ظُلاَمتها من عَمِّها وتعَدِّيهِ

---

(١) عن قدوم أولاد غيطشة إلى إفريقية ثم اللحاق بالوليد بن عبد الملك بدمشق، وعودتهم إلى الأندلس وحصولهم على كامل أرضهم، راجع تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٢٩ ـ ٣٠). والنص في المصدر المذكور مختلف بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) في تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٣٠): «بلى».

(٣) في طبعة دار صادر: «باللحاق».

(٤) أَلْمُنْد: بالإسبانية Olmundo.

(٥) أرطباش: بالإسبانية Ardabas.

(٦) وَقِلَه: بالإسبانية Aquila.

(٧) في طبعة دار صادر: «وتَـخَلَّفَ».

(٨) خبر سارة القوطية في وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٣٧٠) في ترجمة أبي بكر محمد بن عمر، المعروف بابن القوطية.

(٩) عَسْقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر. معجم البلدان (جـ ٤ ص ١٢٢).

عليها [١]، واحْتَجَّتْ بالعهد المنعقد لأبيها وأَخَويه [٢] على الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأوصلها هشام إلى نفسه، وأعجبه صورتها وحزمها. وكتب إلى حَنْظَلة بن صَفْوَان عامله بإفريقية بإنصافها مِنْ عَمِّها أرطباش وإمضائها وأَخَوَيْها على سُنَّة الميراث فيما كان في يد والدها مـمّا قاسم فيه أخويه [٣]، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عَمِّه، فتمَّ لها ذلك، وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مُزَاحم [٤]، فابتنى [٥] بها بالشام، ثم قَدِمَ إلى الأندلس، وقام لها في دفاع عمّها أرطباش عن ضياعها، فنال بها نعمة عظيمة، وَوُلِدَ له منها ولداه إبراهيم وإسحاق فأدركا الشرف المؤثَّل [٦] والرياسة بإشبيلية، وشُهرا ونَسْلُهما بالنسبة إلى أُمهما سارة القوطية. وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الداخل بَعْدُ إلى الأندلس، وعرفها، فتوسّلت إليه [٧] لـمّا مَلَكَ الأندلسَ ووفدت إليه، فاعترف بذِمَامها [٨] وأكرمها، وأذن لها في الدخول إلى قصره متى جاءت إلى قرْطبة فيجدّد تكرمتها ولا يحجب عياله منها. وتوفي زوجها عيسى في السنة التي ملك فيها عبدُ الرحمن الأندلسَ، فزوَّجَهَا عبد الرحمن من عمير بن سعيد.

وكان لها ولأبيها ألمند وعَمِّها أرطباش في صدر الدولة العربية بالأندلس أخبارٌ ملوكية: فمنها ما حكاه [٩] الفقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكي أنه قصد أرطباشَ يومًا إلى منزله عشرةٌ من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصُّميل وابن الطُّفَيل وأبو عَبْدة وغيرهم، فأجلسهم على الكراسي، وبالغ في تكريمهم، ودخل على أثرهم ميمون العابد جَدُّ بني حَزْم، وكان في عداد الشاميين، إلاّ أنه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وَوَرَعه، فلما بَصُر به أرطباشِ قام إليه دونهم إعظامًا، ورقاه إلى كرسيه الذي كان يجلس عليه،وكان مُلَبَّسًا [١٠]

---

(١) في طبعة دار صادر: «واستعدت عليه».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «وإخوته».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «إخوته».

(٤) عيسى بن مزاحم من موالي عمر بن عبد العزيز الأموي. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٣٧٠).

(٥) ابتنى بها: صار له بنون. محيط المحيط (بني).

(٦) الشرف المؤثَّل: العظيم. محيط المحيط (أثل).

(٧) في طبعة دار صادر: «فتوسّلت بذلك إليه».

(٨) الذِّمام، بكسر الذال: الحُرْمة. مختار الصحاح (ذمم).

(٩) حكاية الفقيه ابن لبابة في تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٥٨ ـ ٥٩) وجاء فيه النص مختلفًا بعض الاختلاف عمّا هنا.

(١٠) في تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٥٩): «وكان مُصَمّدًا بالذهب والفضة. . .».

صفائح الذهب، وجذبه ليجلسه مكانه، فامتنع عليه ميمون، وقعد على الأرض، فقعد أرطباش معه عليها، وأقبل عليه قبلهم، فقال له: يا سيدي، ما الذي جاء بك إلى مثلي؟ فقال له: ما تسمعه، إنّا قدمنا إلى هذا البلد غُزاة نحسب أن مقامنا فيه لا يَطُول، فلم نستعدَّ للمقام ولا كَثَّرنا من العدّة ثم حدثت[1] بعدنا على موالينا وفي أجنادنا ما قد أيِسْنا معه من الرجوع إلى أوطاننا، وقد وَسَّع اللَّهُ عليك، فأحبُّ أنْ تدفع إليَّ ضياعًا من ضياعك أَعْتَمِرُها بيدي، وأؤدي إليك الحقَّ منها، وآخذ الفضل لي طيبًا أتعيَّشُ منه، فقال: لا أرضى لك بالمساهمة، بل أَهَبُ لك هبة مسوّغة، ثم دعا بوكيل له فقال له: سَلِّمْ إليه الْمِجشَر[2] الذي لنا على وادي شُوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك، وادْفَعْ إليه الضيعة التي بجَيَّان، فتسلَّم ميمون الضيعتين وورثهما ولده، وإليهم نُسبت قلعة حزم، فشكره ميمون وأثنى عليه، وقام عنه. وقد أنف الصميل من قيامه إليه، فأقبل على أرطباش وقال له: كنت أظنّك أرجح وَزْنًا، أَدْخُلُ عليك وأنا سيدُ العرب بالأندلس في أصحابي هؤلاء، وهم سادة الموالي، فلا تزيدنا من الكرامة على الإقعاد على أعوادك هذه، ويدخل هذا الصُّعلوك فتصير من إكرامه إلى حيث صرت؟ فقال له: يا أبا جوشن، إنَّ أهلَ دينك يخبروننا أن أدبهم لم يُرْهِفك[3] ولو كان لم تنكر عليَّ ما فعلته، إنكم، أكرمكم اللَّه، إنما تكرمُونَ لدنياكم وسلطانكم، وهذا إنما أكرمته للَّه تعالى: فقد روينا عن المسيح، عليه السلام، أنه قال: مَن أكرمه اللَّه تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه، فكأنما ألقمه[4] حجرًا. وكان الصميل أُمِّيًا، فلذلك عَرَّض به، فقال له القوم: دَعْنا من هذا، وانظر فيما قصدنا له، فحاجتنا حاجة الرجل الذي قصدك فأكرمته، فانظر في شأننا، فقال له: أنتم ملوك الناس، وليس يرضيكم إلاّ الكثير، وها أنا أهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشرًا عشرًا، وكتب لهم بها، وأمر وُكَلاءَهُ بتسليمها إليهم، فكان القوم يَرَوْنها[5] من أَطيب أملاكهم، انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر: «حدث».

(٢) المِجْشَرُ: حوض لا يُسْقَى فيه، ومَرْعًى. محيط المحيط (جشر).

(٣) يقال: أرْهَفَ السَّيْفَ: حَدَّده ورَقَّقَ حَدَّه، والمراد هنا أن أدبهم لم يرقِّق طباعه. محيط المحيط (رهف).

(٤) أَلْقَمَهُ حَجَرًا: أَسْكَتَهُ عند الخصام. محيط المحيط (لقم).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «يرويها».

قال ابن حيّان وغيره[1]: ولـمّا بلغ موسى بن نُصَير ما صنعه طارق بن زياد وما أُتِيحَ له من الفتوح حَسَدَهُ، وتَهَيَّأ للمسير إلى الأندلس فَعَسْكَرَ وأقبلَ نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم، وقيل: إنهم كانوا ثمانية عشر ألفًا، وقيل: أكثر، فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، وتَنَكَّبَ[2] الجبلَ الذي حَلَّهُ طارق، ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى، فلما احتلَّ الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لأسلك طريق طارق، ولا أقفو أثره[3]، فقال له العُلُوجُ الأدِلاّء أصحابُ يُلْيَان: نحن نُسْلِكُك[4] طريقًا هو أشرف من طريقه، ونَدُلُّكَ على مدائن هي أعظم خطرًا وأعظم خَطْبًا وأوسع غُنْمًا من مدائنه، لم تُفْتَحْ بَعْدُ، يفتحها اللّٰهُ عليك، إن شاء اللّٰه تعالى، فَمُلِيء سرورًا. وكان شُفُوفُ[5] طارق قد غَمَّهُ، فساروا به في جانب ساحل شَذُونة، فافتتحها عَنْوَةً، وأَلْقَوْا بأيديهم إليه، ثم ساروا إلى مدينة قَرْمُونة، وليس بالأندلس أحصَنُ منها، ولا أبعد على مَن يَرُومُها بحصارٍ أو قتال، فدخلها بحيلة توجّهت بأصحاب يُلْيَان، دخلوا إليهم كأنهم فُلالٌ[6] وطَرَقَهُمْ موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب، وأوقعوا بالأحراس[7]، فملكت المدينة. ومضى موسى إلى إشبيلية جارَتِها فحاصرها، وهي أعظم مدائن الأندلس شأنًا، وأعجبها بنيانًا، وأكثرها آثارًا، وكانت دَارَ الملك قبل القوطيين، فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حَوّلوا السلطان إلى طُلَيْطلة، وبقي رؤساء الدين فيها أعني إشبيلية، فامتنعت أشهرًا على موسى، ثم فتحها اللّٰهُ عليه، فهرب العلوجُ عنها إلى مدينة باجَةَ، فضمَّ موسى يهودَها إلى القصبة، وخَلَّف بها رجالاً، ومضى من إشبيلية إلى لَقُنْتَ[8] إلى مدينة ماردة، وكانت أيضًا دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر، وهي ذات عزّ ومَنَعَة، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف، فحاصرها أيضًا، وكان في أهلها مَنَعَة شديدة وبأس عظيم، فنالوا من المسلمين دفعات، وآذوهم، وعمل

---

(١) ورد هذا النص في أخبار مجموعة (ص ٢٤ ـ ٢٧) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) تَنَكَّبَ الجَبَلَ: عَدَلَ عنه وتجنّبه. محيط المحيط (نكب).

(٣) قَفَا أَثَرَهُ: تبعه. محيط المحيط (قفو).

(٤) في طبعة دار صادر: «نسلك بك».

(٥) الشُّفُوف: جمع شِفّ وهو الربح. محيط المحيط (شفف). ويريد هنا انتصار طارق وقوته.

(٦) الفُلالُ: جمع فَلّ وهو المنهزم. محيط المحيط (فلل).

(٧) الأحراسُ: جمع حارس وهو الحافظ. لسان العرب (حرس).

(٨) في طبعة عبد الحميد: «لَقُنت» Alicante. ولَقُنْت بالإسبانية Fuente de Cantor.

موسى دَبَّابة دَبَّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها جعلوا ينقّبونه، فلـمّا قلعوا الصخر أَفْضَوْا بعده إلى العمل المدعو بلسان العجم ألاشه ماشه[1]، فَنَبَتْ عنه مَعَاوِلُهم[2] وعدّتهم، وثار بهم العدوّ على غفلة، فاستشهد بأيديهم قومٌ من المسلمين تحت تلك الدبابة، فَسُمِّي ذلك الموضعُ برجَ الشهداء، ثم دعا القومُ إلى السّلم، فترسل إليه في تقريره قوم من أماثلهم أعطاهم الأمانَ واحتال في توهيمهم في نفسه، فدخلوا عليه أول يوم، فإذا هو أبيض الرأس واللحية كما نَصَل[3] خِضابه، فلم يَتَّفِق لهم معه أمر، وعاودوه قبل الفطر بيوم، فإذا هو[4] قد قَنأ لحيته بالحِنّاء فجاءت كضِرَام عَرْفج[5]، فعجبوا من ذلك، وعاودوه يوم الفطر، فإذا هو قد سَوَّد لِحْيته، فازداد تعجُّبهم منه، وكانوا لا يعرفون الخِضاب ولا استعماله، فقالوا لقومهم: إنّا نقاتل أنبياء يتخلَّقون كيف شاءوا، ويتصوّرون في كل صورة أحبُّوا؛ كان ملكهم شيخًا فقد صار شابًا، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله، فما لنا به طاقة، فأذْعَنُوا عند ذلك، وأكملوا صلحهم مع موسى على أنَّ أموال القتلى يوم الكَمِين، وأموال الهاربين إلى جِلِّيقِيَّة، وأموال الكنائس وحُلِيّها للمسلمين[6]. ثم فتحوا له المدينة يوم الفِطْر سنة أربع وتسعين فَمَلَكَها. ثم إن عجم إشبيلـيّة انتقضوا[7] على المسلمين، واجتمعوا من مدينتي باجَةَ وَلَبْلَةَ إليهم، فأوقعوا بالمسلمين، وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً، وأتى فَلُّهم الأمير موسى وهو بمارِدَة، فلـمّا أنْ فَتَحَها وجّه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إليهم ففتح إشبيلية وقتل أهلها، ونهض إلى لَبْلَة ففتحها، واستقامت الأمور فيما هنالك، وعلا الإسلام، وأقام عبد العزيز بإشبيلية، وتوجّه الأمير موسى من مارِدَةَ في عقب شوال من العام المؤرّخ يريد طُلَيْطلة، وبلغ طارقًا خَبَرُه، فاستقبله في وجوه الناس، فلقيه في موضع من كورة طَلَبِيرة، وقيل: إن موسى تَقَدَّم من ماردَةَ فدخل جِلِّيقية من فجٍّ نُسب إليه،

---

(١) ألاشه ماشه: Argamasa وهي كلمة إسبانية وتعني المِلاط. معجم كورينطي F.Coriente.

(٢) نَبَتْ معاولهم: تباعدت، أي لم تَنَلْ منه. محيط المحيط (نبا).

(٣) نَصَلَ خِضابُه: ذهب أثره، والخِضاب: ما يُخْضَبُ به كالحِنّاء، ونحوه. محيط المحيط (نصل) و(خضب).

(٤) في طبعة دار صادر: «فإذا به قد...».

(٥) قَنَأَ اللحية: سَوَّدها بالخِضاب. العَرْفَجُ: شجر سهليّ. محيط المبط (قنأ) و(عرفج).

(٦) في أخبار مجموعة (ص ٢٦): «فصالحوه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين، وأموال الهاربين إلى جليقية، للمسلمين، وأموال الكنائس وحُلِيّها له».

(٧) في أخبار مجموعة (ص ٢٦): «تحيّلوا» بدل «انتقضوا».

فخرقها حتى وافى طارقَ بن زياد صاحب مقدمته بمدينة أَسْتُرْقَة[1]، فغضّ منه علانية، وأظهر ما بنفسه عليه من حقد، واللّه أعلم؛ وقيل: لـمّا وقعت عينُه عليه نزل إليه إعظامًا له، فَقَنَّعه موسى بالسَّوْط، ووبَّخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه. وساروا إلى طُلَيْطلة، فطالبه موسى بأداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك، واستعجله بالمائدة، فأتاه بها وقد خَلَعَ من أرجلها رجلاً وخبّأه عنده، فسأله موسى عنه، فقال: لا علم لي به، وهكذا أصبْتُها، فأمر[2] موسى فجعل لها رِجل من ذهب جاء بعيدَ الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمُّل، ولم يقدر على أحسن منه، فأخلّ بها[3].

وقال ابن الفرضي[4]: موسى بن نصير صاحبُ فتح الأندلس لَخْمِيٌّ[5] يُكْنَى أبا عبد الرحمن، يروي عن تميم الداريّ، وروى عنه يزيد بن مسروق اليَحْصُبي.

وقيل: غزا موسى بن نُصَير في المحرَّم سنة ثلاث وتسعين، فأتى طَنْجة، ثم عبر على[6] الأندلس، فأداخَهَا، لا يأتي على مدينة إلاّ فتحها ونَزَلَ أهلُها على حكمه، وسار[7] إلى قُرْطُبة، ثم قفل على[8] الأندلس سنة أربع وتسعين، فأتى إفريقية، وسار عنها سنة خمس وتسعين إلى الشام يؤمُّ الوليد بن عبد الملك يجرُّ الدنيا بما احتمله من غنائم الأندلس من الأموال والأمتعة يحملها على العَجَل والظَّهر، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبي، فلم يلبث أنْ هلك الوليدُ بن عبد الملك وولي سليمان، فنكب موسى نكبًا أدّاه إلى الـمَتْرَبَة[9]، فهلك في نكبته تلك بوادي القُرَى[10] سنة سبع وتسعين.

قال ابن حيّان: وهذه المائدة المنوّه باسمها المنسوبة إلى سليمان النبيّ، عليه الصلاة

---

(١) أسترقه أو أشترقه: بالإسبانية Astorga، وهي مدينة تابعة لمنطقة جليقية، ما بين بلد الوليد وجليقية.

(٢) في أخبار مجموعة: «فأمر بالرِّجْل فَعُمِلَتْ لها من ذهب...».

(٣) هنا ينتهي نص أخبار مجموعة.

(٤) قول ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (ص ٨٤٨، ترجمة موسى بن نصير) مختلف بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) في تاريخ علماء الأندلس: «مولى لَخْم».

(٦) في طبعة دار صادر: «إلى».

(٧) في طبعة دار صادر: «ثم سار».

(٨) في طبعة دار صادر: «عن».

(٩) الـمَتْرَبَةُ: الفاقة. مختار الصحاح (ترب).

(١٠) وادي القُرى من أعمال المدينة كثير القرى، بين المدينة والشام. معجم البلدان (ج ٥ ص ٣٤٥).

والسلام، لم تكن له فيما يزعم رواة العجم، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحِسْبَة منهم إذا مات أحدُهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفِضّة، تحملُ الشَّمامسة والقُسُوس[1] فوقها مصاحفَ الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك، ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها، فكانت تلك المائدة بطُلَيْطلة مما صِيْغ في هذه السبيل، وتأنّقت الأملاك في تفخيمها، يزيد الآخرُ منهم على الأوّل، حتى برزتْ على جميع ما اتّخذ من تلك الآلات، وطار الذكر مَطَاره عنها، وكانت مَصُوغةً من خالص الذهب، مُرَصَّعةً بفاخر الدُرِّ والياقوت والزُّمُرُّد، لم تَرَ الأعينُ مِثْلَها، وبولغ في تفخيمها من أجل دار المملكة، وأنه لا ينبغي أن تكون بموضع آلةُ جمالٍ أو متاعُ مباهاةٍ إلاّ دون ما يكون فيها، وكانت توضع على مذبح كنيسة طُلَيْطلة، فأصابها المسلمون هنالك[2]، وطار النبأُ الفخمُ عنها. وقد كان طارق ظنَّ بموسى أميره مثل الذي فعله من غَيْرته على ما تَهَيَّأَ له ومطالبته له بتسليم ما في يده إليه، فاستظهر بانتزاع رِجْلٍ من أرْجُلِ هذه المائدة خَبَّأَه عنده، فكان من فَلَجه[3] به على موسى عدوّه عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر في جهادهما ما هو مشهور، انتهى.

وقال بعض المؤرّخين[4]: إن المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة، وكان عليها طَوْق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرّد، وكلّها مكلّلة بالجواهر، انتهى.

وما ذكره ابن حيّان من أن الذي نكب موسى بن نُصَير هو سليمان بن عبد الملك صواب، وأمّا ما حكاه ابن خَلّكان من أن المنكب[5] له الوليد فليس بصحيح، والله أعلم.

---

(١) الشَّمَامِسَةُ: جمع شَمّاس وهو دون القِسِّيس. القُسُوسُ: جمع قَسّ وهو دون الأسقف. محيط المحيط (شمس) و(قسس).

(٢) في طبعة دار صادر: «هناك».

(٣) الفَلَجُ، بالفتح: الظَّفَرُ والفوز. مختار الصحاح (فلج).

(٤) القول لابن خلّكان في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٢٩)، وقد حذف المقري هنا بعضًا منه.

(٥) كلمة «المنكب» لم ترد في وفيات الأعيان، وأغلب الظن أنها تصحيف لكلمة «المبكت»؛ لأن الوليد ابن عبد الملك، حسبما جاء به المؤرّخون، لم يُنَكب موسى، وإنما نقم عليه فأقامه في الشمس يومًا كاملاً في يوم صائف على حدّ قول ابن خلّكان: «ويقال إنّ الوليد كان قد نقم عليه أمرًا، فلمّا وصل إليه وهو بدمشق أقامه في الشمس يومًا كاملاً في يوم صائف حتى خرّ مغشيًا عليه».

رجع إلى كلام ابن حيّان ـ قالوا: ثم إن موسى اصطلح مع طارق، وأظهر الرضا عنه، وأقرّه على مقدمته على رسمه، وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه، فارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتح سَرَقُسْطة وأعمالها، وأوغل في البلاد، وطارق أمامه، لا يمرّان بموضعٍ إلاّ فتح عليهما، وغَنَّمهما اللّهُ تعالى ما فيه. وقد ألقى اللّهُ الرعبَ في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلاّ بطلب صلح[1]، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله، ويكمل ابتداءه، ويوثّق للناس ما عاهدوه عليه، فلما صفا القطرُ كلُّه وطامن نفوسَ مَنْ أقام على سلمه، ووطّأ لأقدام المسلمين في الحلول به، أقام لتمييز ذلك وقتًا، وأمضى المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا، حتى انتهوا إلى وادي رُودنة[2]، فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم. وقد دوَّخت بعوث طارق وسَراياه بلد إفرنجة فملكت مدينتي بَرْشِلُونة وأربونة وصخرة أبنيون[3] وحصن لوذون[4] على وادي رُودنة[2]، فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدًّا، وذكر أن مسافة ما بين قُرْطُبة وأربونة من بلاد إفرنجة ثلثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخًا، وقيل: ثلثمائة فرسخ وخمسون فرسخًا، ولمّا أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قَارْلُهْ[5] ملكُ الإفرنجة بالأرض الكبيرة، وانزعج لانبساطهم، فحشد لهم، وخرج عليهم في جَمع عظيم، فلما انتهى إلى حصن لوذون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه، وأقبل حتى انتهى إلى صخرة أبنيون، فلم يجد بها أحدًا، وقد عسكر المسلمون قُدّامه فيما بين الأجبل المجاورة لمدينة أربونة، وهم بحال غِرّة لا عُيُون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدوُّ اللّه قارْلُهْ، فاقتطعهم عن اللجإ إلى مدينة أربونة، وواضعهم الحرب، فقاتلوا قتالاً شديدًا استشهد فيه جماعة منهم، وحَمَل جمهورُهم على صفوفه حتى اخترقوها، ودخلوا المدينة، ولاذوا بحصانتها، فنازلهم بها أيامًا أُصيب له فيها رجال، وتعذّر عليه المقام، وخامره ذُعْر وخَوفُ مَدَدٍ للمسلمين، فزال عنهم راحلاً إلى بلده، وقد نصب في وجوه المسلمين حصونًا على وادي رودنة[2] شَكَّها بالرجال فَصَيَّرها ثغرًا بين بلده والمسلمين، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس.

---

(١) في طبعة دار صادر: «الصلح».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «رُذُونة». ورودنة تقابل نهر الرون بفرنسا.

(٣) أبنيون، بالفرنسية Avinionum، إلى الشمال من آرل على نهر الرون.

(٤) لوذون: هي مدينة Leon.

(٥) قارله هو Carlos = Charle.

وقال الحِجَارِي في المُسْهب: إنَّ موسى بن نُصَير - نَصَرَه اللّٰهُ نصرًا ما عليه مزيد، وأجْفَلَتْ[١] ملوكُ النصارى بين يديه، حتى خرج على باب الأندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة، فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قَارُلُهْ، وهذه سِمَة لملكهم، فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنّا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العُدّة والعَدَد بجمعهم القليل، وقلّة عُدّتهم، وكونهم لا دُرُوع لهم، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خَرْجتهم هذه، فإنهم كالسَّيْل يحمل مَن يُصَادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيّات تُغْني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حَصَانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في الرياسة، ويستعين بعضهم ببعض[٢]، فحينئذ تتمكّنون منهم بأيسر أمر، قال: فكان واللّٰه كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمُضَرِية واليمانية، وصار بعضُ المسلمين يستعين على بعض بمَن يجاورهم من الأعداء، انتهى.

وقيل: إن موسى بن نُصَير أخرج ابنه عبد الأعلى إلى تُدْمِيرَ ففتحها، وإلى غَرْناطة ومالَقَةَ وكورة رَيَّة ففتح الكل، وقيل: إنه لما حاصر مالَقَةَ - وكان ملكها ضعيفَ الرأي قليلَ التحفّظ - كان يخرج إلى جِنان له بجانب المدينة طلبًا للراحة من غُمَّة[٣] الحصار من غير نَصْبِ عَيْن وتقديم طليعة[٤]، وعرف عبد الأعلى بأمره فأكمن له في جَنَبَات الجنة التي كان ينتابها، قومًا من وجوه فرسانه ذوي رأي وحزم، أرصدوا له ليلاً فظفروا به، وملكوه، فأخذ المسلمون البلد[٥] عَنْوَةً، وملأوا أيديهم غنيمة.

وقيل: كانت نفس موسى بن نُصَير في ذلك كله تنزعج إلى دخول دار الكفر جِلّيقية، فبينما هو يعمل في ذلك ويُعِدُّ له إذ أتاه مغيثٌ الروميُّ رسولُ الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس والإضراب عن الوغول فيها[٦]، ويأخذه بالقفول إليه، فساءه

(١) أجفلوا: هربوا مسرعين، والمراد هنا أنهم انهزموا وفرُّوا من أرض المعركة. مختار الصحاح (جفل).
(٢) الصواب: يستعين بعضهم على بعض كما سيأتي.
(٣) الغُمَّةُ: الكُرْبَةُ. مختار الصحاح (غمم).
(٤) العَينُ هنا: بمعنى الجاسوس. الطليعة: مقدمة الجيش. لسان العرب (عين) و(طلع).
(٥) في طبعة دار صادر: «المدينة» بدل «البلد».
(٦) الوغول فيها: التوغل فيها؛ يقال: وَغَلَ في الشيء يَغِلُ وغولاً إذا دخل فيه وتوارى أو بَعُدَ وذهب. محيط المحيط (وغل).

ذلك، وقطع به عن إرادته؛ إذ لم يكن في الأندلس بلدٌ لم تدخله العرب إلى وقته ذلك غير جليقية، فكان شديدَ الحرص على اقتحامها، فلاطف موسى مغيثًا رسولَ الخليفة، وسأله إنظاره(١) إلى أن يُنفذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أيامًا، ويكون شريكه في الأجْر والغنيمة، ففعل، ومشى معه حتى بلغ المفازة(٢) فافتتح حصن بارو(٣) وحصن لُكّ(٤)، فأقام هناك، وبَثَّ السرايا حتى بلغوا صخرة بِلاَيَ(٥) على البحر الأخضر، فلم تبقَ كنيسة إلاَّ هُدِمَتْ، ولا ناقوسٌ إلاَّ كُسِرَ، وطاعت(٦) الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية، وسَكَنَتِ العربُ المفاوزَ، وكان العرب والبربر كلّما مَرَّ قومٌ منهم بموضع استحسنوه حَطُّوا به ونزلوه قاطنين، فاتّسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس، وخُذِلَ الشِّرْكُ، وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوّة الأمل إذ قَدِمَ عليه رسولٌ آخر من الخليفة يُكْنى أبا نصر أردف به الوليدُ مغيثًا لَمَّا استبطأ موسى في القفول، وكتب إليه يُوَبِّخه، ويأمره بالخروج، وألزم رسوله إزعاجه، فانقلع حينئذ من مدينة لُكّ بجليقية، وخرج على الفج المعروف بفجّ موسى(٧)، ووافاه طارق في الطريق منصرفًا من الثغر الأعلى، فأقفله مع نفسه ومَضَيا جميعًا ومعهما من الناس مَن اختار القفول. وأقام مَنْ آثرَ السُّكْنَى في مواضعهم التي كانوا قد اختطّوها واستوطنوها، وقَفَلَ معهم الرسولان مغيثٌ وأبو نصر حتى احتلّوا(٨) بإشبيلية، فاستخلف موسى ابنَه عبد العزيز على إمارة الأندلس، وأقرّه بمدينة إشبيلية لاتّصالها بالبحر نظرًا لقربه من مكان(٩) المجاز، وركب موسى البحر إلى المشرق بذي الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه، وكان مُقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر، وحمل موسى الغنائم والسَّبي، وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة مُنَوّهًا بها

(١) سأله إنظاره: سأله إمهاله؛ يقال: أنظر فلانًا إذا تأنّى عليه وانتظره في مهلة. محيط المحيط (نظر).

(٢) المَفازَةُ: الفَلاةُ لا ماء فيها. القاموس المحيط (فوز).

(٣) حصن بارو في منطقه بلد الوليد أي البلدة المسماة Villa baruz.

(٤) لُكّ: حِصْنٌ بمنطقة جليقية كما سيأتي، وهو بالإسبانية Lucus Asturum، ويسمّى اليوم María de Lugo.

(٥) صخرة بلاي: بالإسبانية Pena de Pelayo، في منطقة أستيرياس Astorias على المحيط الأطلسي (البحر الأخضر).

(٦) في طبعة دار صادر: «وأطاعت».

(٧) الفج: الوادي؛ وفَجّ موسى بالإسبانية: Valmusa، وهو قريب من جليقية.

(٨) إحْتَلُّوا بإشبيلية: نزلوا بها. محيط المحيط (حلل).

(٩) في طبعة عبد الحميد: «مكاره».

ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يُقَدّر قدره، وهو مع ذلك متلهّف على الجهاد الذي فاته، أسِفٌ[1] على ما لحقه من الإزعاج، وكان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد[2] إفرنجة، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتخذ مُخْتَرَقَه[3] بتلك الأرض طريقًا مَهيعًا[4] يسلكه أهلُ الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البرّ لا يركبون بحرًا، وقيل: إنه أوغل في أرض الفرنجة حتى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار، فأصاب فيها صنمًا عظيمًا قائمًا كالسارية مكتوبًا فيه بالنقر كتابة عربية[5] قُرِئت، فإذا هي: يا بني إسماعيل، انتهيتم فارجعوا، فهاله ذلك، وقال: ما كُتِبَ هذا إلاّ لمعنى كبير، فشاوَرَ أصحابه في الإعراض عنه وجَوَازه إلى ما وراءه، فاختلفوا عليه، فأخذ برأي جمهورهم وانصرف بالناس، وقد أشرفوا على قطع البلاد وتَقَصّي الغاية.

وحكى الرازي: أن موسى خرج من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين، واستخلف على إفريقية أَسَنَّ ولده عبدَ اللّه بنَ موسى، وكان موسى في عشرة آلاف، قال: وكان عبدُ الملك بن مروان هو الذي أغزى موسى المغرب في خلافته، ففُتِح له في أهله البرابرة فتوح كبار، حتى لقد بعث إلى عبد الملك في الخمس بعشرين ألف سَبِيَّةٍ، ثم أردفها بعشرين ألفًا أخرى، كل ذلك من البربر، فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك.

وزعم ابن حبيب[6]: أنه دخل الأندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة، وهو المنيذر، قال: ودخلها من التابعين[7] ثلاثة: موسى الأمير، وعلي بن رَباح اللخمي، وحَيْوَة ابن رجاء التميمي، وقيل: إن ثالثهم إنما هو حَنَشُ بن عبد اللّه الصنعاني[8]، صنعاء الشام،

---

(١) في طبعة دار صادر: «أسيف». وأسِفٌ وأسيفٌ: الحزين. محيط المحيط (أسف).

(٢) في طبعة دار صادر: «بلد».

(٣) المُخْتَرَقُ: اسم مكان من الفعل «اخترق»، أي المكان الذي يخترقه ويجتاز منه. لسان العرب (خرق).

(٤) الطريق المَهيعُ: الواسع الواضح. محيط المحيط (مهع).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «غريبة».

(٦) هو عبد الملك بن حبيب السلمي، وقد تقدّمت ترجمته.

(٧) سيأتي الحديث عن التابعين الذين دخلوا الأندلس في أول الجزء الرابع.

(٨) حنش بن عبد اللّه بن عمرو الصنعاني تابعيٌّ، من القادة، كان مع علي بن أبي طالب، عليه السلام، =

وإنهم قفلوا عنها بقفول موسى، وأهلُ سَرَقُسْطة يزعمون أنّ حنشًا مات عندهم ولم يَقْفُلْ للمشرق، وقبره لديهم مشهور يتبرّكون به ولا يختلفون فيه، فاللّه أعلم.

وقيل: إن التابعين أربعة بأبي عبد الرحمن الحُبُلِيّ[1] الأنصاري، واسمه عبد اللّه بن يزيد، واللّه أعلم، وخَمَّسَهُمْ بعضهم بحِبَّان بن أبي جَبَلة مولى بني عبد الدار وكان في ديوان مصر، فبعث به عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقّهوا أهلَها، وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر، وحدّث عنه عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم وغيره، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس، وانتهى معه إلى حصن من حصون العدو يقال له قَرْقَشُونة، وقيل: بل قَفَلَ إلى إفريقية فتوفي بها بعد العشرين ومائة.

وقال بعضهم: إن بين قَرْقَشُونة هذه وبين بَرْشَلونة مسافة خمسة وعشرين يومًا، وفيها الكنيسة المعظّمة عند الفرنج المسمّاة شنت مرية، وقد حكى ابن حيّان أن فيها سبع سَوَارٍ من فِضّة خالصة لم يَرَ الراؤون مثلها لا يحيط الإنسان بذِرَاعيه على واحدة منها مع طول مُفْرِط.

وحنش الصنعاني المذكور تابعي جليل، كان مع علي، رضي اللّه عنه، بالكوفة، وقَدِمَ مصر بعد قَتْله، فصار عدادُه في المصريين، وكان فيمَن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه، وكفى الأندلس شرفًا دُخُولُه لها.

وعلي بن رَباح بصري تابعي[2]، يكنّى أبا عبد اللّه، وهو لخمي، ولد عام اليَرْمُوك سنة خمس عشرة، قال ابن مَعِين: أهل مصر يقولونه بفتح العين، وأهل العراق يقولونه بضمّها، وروى الليثُ عن ابنه موسى بن علي، وكانت لعليّ بن رَبَاح عند عبد العزيز بن مَرْوَان مكانة، وهو الذي زَفَّ ابنته أُمّ البنين لزوجها الوليد، ثم عتب عليه عبد العزيز فأغزاه إفريقية.

وأما المنيذر الصحابي فلم ينسبه ابن حبيب، وذكره ابن عبد البرّ في الصحابة وقال:

= بالكوفة، فلما قتل عليٌّ انتقل إلى مصر وغزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير. توفي بسرقسطة سنة ١٠٠ هـ. جذوة المقتبس (ص ٢٠١) والكامل في التاريخ (جـ ٥ ص ٥٦: حوادث سنة ١٠٠ هـ). وسيترجم له المقري في الجزء الرابع.

(١) سيترجم له المقري في الجزء الرابع.

(٢) سيترجم له المقري في الجزء الرابع.

إنه المنيذر الإفريقي، وروى عنه أبو عبد الرحمن الْحُبُلي، قال: حدّثنا المنيذر الإفريقي، وكان سكن إفريقية، وكان صحب رسول اللّه، ﷺ، أنه سمعه، ﷺ، يقول: «مَن قال: رضيتُ باللّه ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد، ﷺ، نبيًا، فأنا الزعيم له، فلآخُذَنَّ بيده، فلأدخِلَنَّهُ الجنة» ورواه عنه ابن عبد البرّ بسنده إليه، وسيأتي إن شاء اللّه تعالى في حق المنيذر مزيدُ بيانٍ[١].

ولما قَفَلَ موسى بن نُصَير إلى المشرق وأصحابه سأل مغيثًا أن يسلم إليه العِلْجَ صاحبَ قُرْطُبة الذي كان في إساره، فامتنع عليه، وقال: لا يؤدّيه للخليفة سواي، وكان يُدِلُّ بولائه من الوليد، فهجم عليه موسى فانتزعه منه، فقيل له: إن سرت به حَيًّا معك ادّعاه مغيث، والعلج لا ينكر قوله، ولكن اضْرِبْ عنقه، ففعل، فاضطغنها[٢] عليه مغيث، وصار أَلْبًا[٣] مع طارق الساعي عليه، واستخلف موسى على طَنْجَة وما يليها من المغرب ابنَه الآخَرَ عبدَ الملك، وقد كان ـ كما مَرَّ ـ استخلف بإفريقية أكبَرَ أولاده عبد اللّه، فصار جميعُ الأندلس والمغرب بيد أولاده، وابنُه عبد اللّه الذي خلفه بإفريقية هو الفاتح لجزيرة مَيُورقة. وسار موسى فَوَرَدَ الشام، واختلف الناس: هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده؟ فمَن يقول بالثاني قال: قَدِمَ على سليمان حين استُخْلِف، وكان منحرفًا عليه، فسبق إليه طارق ومغيث بالشكية منه، ورَمَيَاه بالخيانة، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعِلج صاحب قرطبة، وقالا له: إنه قد غَلَّ[٤] جوهرًا عظيم القدر أصابه ولم تَحْوِ الملوك من بَعْدِ فتح فارس مثلَه، فلما وافى سليمان وجده ضغينًا عليه، فأغلظ له، واستقبله بالتأنيب والتوبيخ، فاعتذر له ببعض العذر، وسأله عن المائدة، فأَحْضَرَها، فقال له: زعم طارق أنه الذي أصابها دونك، قال: لا، وما رآها قَطُّ إلاَّ عندي، فقال طارق: فليسأله أمير المؤمنين عن الرِّجْل التي تنقصها، فسأله، فقال: هكذا أصبْتُها، وعَوَّضْتُها رِجْلاً صنعْتُها لها، فحوّل طارق يده إلى قَبَائه[٥] فأخرج منه الرِّجْل، فعلم سليمان صدقه وكذبَ موسى، فحقّق جميعَ

---

(١) أي إن المقري سيترجم للمنيذر الصحابي في أول الجزء الرابع.
(٢) اضطغن عليه: حقد عليه. لسان العرب (ضغن).
(٣) صار أَلْبًا مع طارق عليه: أي اجتمعت عداوته مع عداوة طارق عليه. محيط المحيط (ألب).
(٤) غَلّه: خانه. محيط المحيط (غلل).
(٥) القَباءُ، بالفتح: الذي يُلْبَسُ، والجمع أقبية. مختار الصحاح (قبا).

ما رُمي به عنده، وعزله عن جميع أعماله، وأقصاه، وحبسه، وأمر بتقصّي حسابه[١]، فأغرمه غرمًا عظيمًا كشفه فيه، حتى اضطره[٢] إلى أن سأل العربَ مَعُونَته، فيقال: إنَّ لخمًا حملت عنه في أُعطيتها تسعين ألفًا ذهبًا، وقيل: حمله سليمان غرم مائتي ألف، فأدّى مائة ألف، وعجز، فاستجار بيزيد بن المهلب أسيرِ سليمانَ، فاستوهبه من سليمان، فوهبه إيّاه، إلاّ أنه عزل ابنه عبد اللّه عن إفريقية.

وقال الرازي: إن الذي أزعج موسى عن الأندلس أبو نصر رسولُ الوليد، فقبض على عنانه وثَنَاه قافلاً، وقفل معه مَن أحَبَّ المشرق، وكان أكثر الناس قَطَنوا ببلاد الأندلس لطيبها، فأقاموا فيها.

وذهب جماعة من أهل التاريخ إلى أن موسى إنما قَدِمَ على الوليد، وأن سليمان وليّ العهد لـمّا سمع بقرب موسى بن نُصَير من دِمَشْق ـ وكان الوليد مريضًا ـ كتب ـ أي سليمانُ ـ إلى موسى يأمره بالتربّص[٣]، رجاء أن يموت الوليد قبلَ قدوم موسى فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التي ما رُئِيَ ولا سُمِع مثلها، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس، فأبى موسى من ذلك، ومنعه دِينُه منه، وجَدَّ في السير[٤] حتى قَدِمَ والوليدُ حيٌّ، فسلّم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر، فلم يمكث الوليد إلاّ يسيرًا بعد قدوم موسى، وتوفي، واستخلف سليمان، فحقَدَ عليه، وأهانه، وأمر بإقامته في الشمس حتى كاد يهلك، وأغرمه أموالاً عظيمةً، ودَسَّ إلى أهل الأندلس بقَتْل ابنه الذي استخلفه على الأندلس، وهو عبد العزيز بن موسى، وكان تولّى الأندلسَ بَعْدَ قُفُول أبيه عنها باستخلافه إيّاه كما سبق، فضبط سلطانها، وضَمَّ نَشْرَها[٥]، وسَدَّ ثغورها، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة مـمّا كان قد بقي على أبيه موسى منها، وكان من خير الولاة، إلاّ أن مدته لـم تطل لوثوب الـجُنْد به وقَتْلِهِمْ إيّاه عقب سنة خمس وتسعين في خلافة سليمان

---

(١) يقال: تَقَصّى في المسألة: بلغ الغاية، وتقصّى حسابه: تَتَبَّعَهُ بدقّة ليعرف حقيقته. محيط المحيط (قصي).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «اضطرّ».

(٣) التَّرَبُّصُ: الانتظار. مختار الصحاح (ربص).

(٤) جَدَّ في السَّيْر: اجتهد، أي أسرع. محيط المحيط (جدد).

(٥) النَّشَرُ، بالفتح: المنتشر، وقوله: ضَمَّ نَشَرَها، أي جمع ما تفرّق من أمرها واضطرب. وفي الحديث: اللّهمّ اضمُـمْ نَشَري. محيط المحيط (نشر).

المُوْقِعِ بأبيه موسى لأشياء نَقَمُوها عليه[1]: منها زعموا تزوُّجه لزوجة لُذَريق المكنّاة أمّ عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح، وباءت بالجزية[2]، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز، فحظِيَتْ عنده، ويقال: إنه سكن بها في كنيسة بإشبيلية، وإنها قالت له: لِمَ لا يسجد لك أهلُ مملكتك كما كان يَسْجُدُ للُذَريق ـ زوجها الأولِ ـ أهلُ مملكته؟ فقال لها: إن هذا حرام في ديننا، فلم تقنع منه بذلك، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك مما يُزْري[3] بِقَدْره عندها، فاتّخذ بابًا صغيرًا قُبَالة مجلسه يدخل عليه الناس منه، فينحنون، وأفهمها أن ذلك الفعلَ منهم تحية له، فرضيت بذلك، فنُمِي الخبر إلى الجند، مع ما انْضَمَّ إلى ذلك من دسيسة سليمان لهم في قتله، فقتلوه، سامحه الله تعالى!.

وذكر بعض المؤرّخين أنهم وَجَدُوا في الحجر بعد ما تقدَّم من الكتابة التي هي «ارجعوا يا بني إسماعيل إلخ» ما معناه: وإنْ سألتم لِمَ ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رِقاب بعض، انتهى.

قال ابن حيّان: وليحيىٰ بن حَكَم الشاعر المعروف بالغَزَال[4] في فتح الأندلس، أُرجوزة حسنة مطوّلة ذكر فيها السبب في غزوها نظمًا، وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها، وعداد الأمراء عليها وأسماءهم، فأجاد وتقصّى، وهي بأيدي الناس موجودة انتهى.

وقد عرفت بما سبق تفصيل ما أجمله ابنُ خلدون[5]، والرواياتُ في فتح الأندلس مختلفة، وقد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية، وأشرْنا إلى بعض الاختلاف في ذلك، ولو بسطنا العبارة في الفتح لكان وحده في مجلد أو أكثر.

---

(١) عن زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير وإقدام جنده على قتله، انظر أخبار مجموعة (ص ٢٧ ـ ٢٨) وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ٣٦ ـ ٣٧).

(٢) باءت بالجزية: اعترفت بها. محيط المحيط (بوأ).

(٣) يُزْري بِقَدْره: يحطّ منه. لسان العرب (زري).

(٤) يحيىٰ بن حكم، المعروف بالغزال، شاعر أوانه وأديب زمانه، توفي سنة ٢٥٠ هـ. جذوة المقتبس (ص ٣٧٤) والمطرب (ص ١٣٣) والمغرب (جـ ٢ ص ٥٧) وبغية الملتمس (ص ٥٠٠). وسيترجم له المقري بإسهاب في الجزء الثالث من نفح الطيب رقم ١٦٥ .

(٥) انظر ما تقدّم (ص ٢٢٢ ـ ٢٢٩) من هذا الجزء.

وعُلم مما ألمعْنَا به من كلام ابن خلدون السابق ذكر الولاة للأندلس من لَدُن الفتح، وهم من قبل بني مروان بالمشرق المنفردين بإمامة المسلمين أجمعين قبل تفرّقهم، إلى أن انقرضت دولتهم العظيمة التي هي ألف شهر، فاقتطَعَ الأندلسَ عن بني العباس الدائلين[1] على بني مروان الناسخين لهم فَلُّ المروانيين[2] عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، واقتعدها دار مملكة مستقلّة لنفسه ولأعقابه[3]، وجمع بها شملَ بني أُميّة ومواليهم، وأَوْرَثَها بنيه حِقْبَةً من الدهر، بعد أَنْ قاسى في ذلك خُطُوبًا، واجتمع عليه ثم على ذرّيّته من بعده أهلُ الأندلس أجمعون رِضًا بهم دون بني العباس، بعد أن حاول بنو العباس ملكها بأنْ وَلَّوْا بعضَ رؤساء العرب، وأمروهم بالقيام على عبد الرحمن والدعاء للعباسيين القاطعين جُرْثومة[4] دولة بني مروان، فلم يتيسَّرْ ذلك، وظفر عبد الرحمن بمَن نصب له الحرب في ذلك، وقتل منهم آلافًا، وذلك في مدة المنصور كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل في موضع آخر، وسنذكر قريبًا ولاة الأندلس من حين الفتح إلى إمارة الداخل، وإنْ سبق في كلام ابن خلدون.

وقال بعضهم: كانت ولادة موسى بن نُصَير في خلافة عمر بن الخطاب، رضي اللّه عنه، سنة تسع عشرةَ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضلُ الصلاة وأَجَلُّ السلام، وعلى آله وصحبه أجمعين! انتهى.

وقال الحجاري في «المسهب»: يُحْكَى أنَّ موسى بن نصير ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، وطلب منه أن يكلّمه في أن يُخَفِّفَ عنه؛ فقال له يزيد: أريد أن أسألك فأَصْغِ إليَّ؛ قال: سَلْ عَمَّا بَدَا لك، فقال له: لم أزلْ أسمعُ عنك أنك من أعقل الناس، وأعرفهم بمكايد الحروب ومُدَاراة الدنيا، فقل لي: كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما مَلَكْتَ الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزَّخّار[5]، وتيَقَّنْتَ بُعْدَ المرام واستصعابه، واستخلَصْتَ بلادًا أنت

(١) الدائلون على بني مروان: أي الذين غلبوهم؛ يقال: دالتْ له الدولة إذا صارت له. ودال الزمان: انقلب. محيط المحيط (دول).

(٢) فَلُّ المروانيين: المنهزمون منهم؛ يقال: رَجُلٌ فَلٌّ وقومٌ فَلٌّ. محيط المحيط (فلل).

(٣) الأعقاب: جمع عَقِب، وعَقِبُ الرجل ولده وولد ولده. مختار الصحاح (عقب).

(٤) الجُرْثُومَةُ والجُرْثُوم: الأصل. محيط المحيط (جرثم).

(٥) البحر الزاخر والزَّخّار: الذي امتدّ ماؤه وارتفع. محيط المحيط (زخر).

افترَعْتَها[١]، واستملكْتَ رجالاً لا يعرفون غير خيرك وشرّك، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والـمَعَاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد مَن لا يرحمك، ثم إنك عَلِـمْتَ أن سليمان ولـيَّ عَهْدٍ، وأنه الـمُوَلّى بعد أخيه، وقد أشرف أخوه[٢] على الهلاك لا محالة، وبعد ذلك خالَفْتَهُ، وألقيْتَ بيدك إلى التهلكة، وأحْقَدْتَ مالكك ومملوكك، قال: يعني سليمان وطارقًا، وما رضا هذا الرجل عنك إلاّ بعيد، ولكن لا آلو جهدًا، فقال موسى: يا ابن الكرام، ليس هذا وقت تعديد، أما سَمِعْتَ «إذا جاء الـحَيْن، غَطّى على[٣] العين» فقال: ما قصدت بما قلت لك تعديدًا ولا تبْكيتًا، وإنما قصدت تلقيح العقل، وتنبيه الرأي، وأنْ أرى ما عندك. فقال موسى: أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بُعْد، ويقع في الفخ وهو بمرأى عينه؟ ثم كلَّم فيه سليمان، فكان من جوابه «إنه قد اشتمل رأسه بما تمكّن له من الظهور، وانقياد الجمهور، والتحكّم في الأموال والأبشار، على ما لا يمحوه إلاّ السيف، ولكن قد وهبت لك دمه، وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يردَّ ما غَلَّ[٤] من مال اللّه». قال: وآلت حاله إلى أن كان يُطاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتكُّ به نفسَه، وفي تلك الحال مات، وهو من أفقر الناس وأذلّهم، بوادي القُرَى، سائلاً مَن كان نازلاً به.

وقال أحد غِلْمانه ممّن وَفَى له في حال الفقر والخمول: لقد رأيتُنا نطوف مع الأمير موسى بن نصير على أحياء العرب، فواحدٌ يجيبُنا، وآخرُ يحتجبُ عنّا، ولربما دفع إلينا على جهة الرحمة الدرهَمَ والدرهمين، فيفرح بذلك الأمير ليدفعه إلى الموكلين به، فيخفّفون عنه من العذاب، ولقد رأيتُنا أيام الفتوح العظام بالأندلس نأخذ السُّلُوْبَ[٥] من قصور النصارى، فنفصل منها ما يكون من الذهب وغير ذلك ونرمي به، ولا نأخذ إلاّ الدُّرَّ الفاخر، فسبحان الذي بيده العِزُّ والذلُّ والغنى والفقر.

---

(١) اِفْتَرَعْتَها: أي أنت أول رجل تطأ قدماه هذه البلاد؛ يقال: افْتَرَعَ البِكْرَ إذا افتضّها. محيط المحيط (فرع). وفي طبعة عبد الحميد: «اخترعتها» بدل «افترعتها».

(٢) كلمة «أخوه» ساقطة في طبعة عبد الحميد.

(٣) في طبعة دار صادر: «غطّى العين». وهو مثل، وقد جاء في مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٢٠، رقم ٤٨) هكذا: «إذا جاء الحَيْنُ حارَتِ العَيْنُ». والحَيْنُ: الهلاك. لسان العرب (حين).

(٤) غَلَّ من مال اللّه وغَلَّ من المغنم: خان. مختار الصحاح (غلل).

(٥) السُّلُوب: جمع سَلَب، وهو أخذ الشيء قهرًا. محيط المحيط (سلب). وفي طبعة دار صادر: «السلوك».

قال: وكان له مولى قد وَفَى له وصبر عليه إلى أنْ ضاق ذَرْعُه[1] بامتداد الحال، فعزم على أن يُسْلمه[2] وهو بوادي القُرَى في أسوإ حال، وَشَعَر بذلك موسى، فخضع للمولى المذكور، وقال له: يا فلان، أتسلّمني في هذه الحالة؟ فقال له المولى، من شدّة ما كان فيه من الضجر: قد أسلمك خالقك ومالكك الذي هو أرحم الراحمين، فَدَمَعَتْ عيناه، وجعل يرفعهما إلى السماء خاضعًا مُهَيْنِمًا[3] بشفتيه، فما سفرت تلك الليلة إلاّ عن قبض روحه رحمة اللّه عليه! فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يُتَرَحَّمَ عليه، وَإِنَّ فِعْلَ سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه نائبًا عنه بالأندلس وقد جيء به من أقصى المغرب بين يديه من وَصَمَاته[4] التي تُعَدُّ عليه طول الدهر، لا جَرَمَ أَنَّ اللّهَ تعالى لم يمتّعه بعده بملكه وشبابه.

وذكر ابن حيّان أن موسى كان عربيًّا فصيحًا، وقد سبق من مُرَاجعة يزيد بن المهلّب ما يدلُّ على بلاغته، ويكفي منها ما ذكره ابن حيّان أنه كتب إلى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الأندلس وغنائمها «إنها ليست الفتوح، ولكنها الحشر»[5].

وقال الحجاري: إن منازعةً جَرَتْ بينه وبين عبد اللّه بن يزيد بن أسيد بمَحْضر عبد الملك بن مروان ألجأته إلى أن قال شعرًا منه: [البسيط]

جاريت غيرَ سَؤُومٍ في مُطَاوَلة ... لو نازعَ الحقلَ لم ينزعْ إلى خَصَرِ

وتَقَدَّم ما ذكره غيرُ واحد كابن حيّان أن موسى مولى عبد العزيز بن مروان، وكذا ذكره الحجاري، ثم[6] تجهّز مع أُمّ البنين بنت عبد العزيز حين ابتنى[7] بها الوليد بن عبد الملك، فكانت تُنْمِي مكانته[8] عند الوليد إلى أن بلغ ما بلغ. وأشهر مَن كان في صحبة

---

(١) ضاق ذَرْعُه بامتداد الحال: أي لم يعدْ يُطيقها. محيط المحيط (ذرع).

(٢) يُسْلِمُهُ: يخذله؛ يقال أَسْلَمَ العدوَّ إذا خذله. محيط المحيط (سلم).

(٣) مهينمًا: متحدّثًا بصوت خفيّ. محيط المحيط (هينم).

(٤) الوَصَمَاتُ: جمع وَصْمَة وهي العارُ والعَيبُ والنَّقصُ. محيط المحيط (وصم).

(٥) في فتح إفريقيا والأندلس (ص ٧٨): «إن موسى بن نصير حين فتح الأندلس كتب إلى عبد الملك أنها ليست بالفتوح ولكنه الحشر».

(٦) في طبعة دار صادر: «وكذا ذكر الحجاري أنه تجهّز. . .».

(٧) ابتنى: صار له بنون. محيط المحيط (بنى).

(٨) تُنْمي مكانَتَهُ: تزيدها، أي ترفع من قدره. محيط المحيط (نمى).

موسى بن نُصَير من مواليه طارق المشهور بالفتوح العظيمة، وطريف، وقد جرى ذكرهما في كتابنا هذا بما اقتضاه الاختصار.

وقال ابن سعيد، بعد ذكره الخلاف في[1] موسى هل هو لخمي صريح أو بالولاء، أو بربري، أو مولى لعبد العزيز بن مروان، ما صورته: وكان في عَقِبه نَبَاهةٌ في السلطة، ولّى ابنه عبد العزيز سلطنة الأندلس، وعبد الملك سلطنة المغرب الأقصى، وعبد اللّه سلطنة إفريقية. وذكر الحجاري أن أصله من وادي القرى بالحجاز، وأنه خدم بني مروان بدمشق، وتنبّه شأنه، فصرّفوه في ممالكهم إلى أن وَلِيَ إفريقية وما وراءها من المغرب في زمن الوليد بن عبد الملك، فدَوَّخَ أقاصي المغرب، ودخل الأندلس من جبل موسى المنسوب إليه المجاور لِسَبْتَة، ودوَّخ بلاد الأندلس، ثم أوفده الوليد إلى الشام، فوافق مرضه، ثم موته وخلافة أخيه سليمان فعذّبه واستصفى أمواله[2]، وآل أمره إلى أنْ وجّهه إلى قومه بوادي القرى لعلّهم يعطفون عليه ويؤدّون عنه، فمات بها، وقد نَصَّ ابنُ بَشْكُوَال على أنه مات بوادي القُرَى.

أما معارفه السلطانية فيكفيه ولاية ما خَلْفَ مِصْرَ إلى البحر المحيط بين بري البربر والأندلس.

وأما الأدبية فقد جاءت عنه بلاغة في النثر والنظم تُدْخِلُهُ ـ مع نَزَارتها ـ في أصحاب درّ الكلام. وذكر ابن بَشْكُوال أنه من التابعين الذين رووا الحديث، وأن روايته عن تميم الداريّ، وذِكْرُه في كتب الأئمة من المصنّفين أَنْبَهُ وأَوْعَبُ من أن يخصّص بذكره واحد منهم، وهو غُرّة التواريخ الأندلسية، وذكره إلى الآن جديد في ألسن الخاصّة والعامّة من أهلها.

ومن مُشهِبِ الحجاري: كان قد جمع ـ رحمه اللّه! ـ من خلال الخير ما أعانه اللّه سبحانه به على ما بنى له من المجد المُشَيَّدِ، والذكر الشهير المُخَلَّدِ، الذي لا يُبْلِيْهِ الليلُ والنهار، ولا يُعَفِّي جديدَه بلى الأعصار، إلاّ أنه كان يغلب عليه ما لا يكاد رئيسٌ يسلم

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «في أنّ موسى...».

(٢) استصفى أمواله: أخذها كلها. محيط المحيط (صفا).

منه، وهو الحقد والحسد، والمنافسة لا تخلو من ذلك، وأنشد بعض الرؤساء[1]: [الطويل]

وليس رئيسُ القومِ مَنْ يحمِلُ الحِقْدا[2]

فقلبه الرئيس وقال: «مَن يترك الحقدا»[3]، ثم قال: إن السيد إذا ترك إضمار الخيرِ والشَّرِّ والمجازاة عليهما اجْتُرِىء عليه، ونُسِبَ للضعف والغفلة، وهل رأيت صفقة أخسر من غفلة رئيس أحقده غيره فنسي ذلك أو تناساه، وعدوّه لا يغفل عنه، وحاسِدُهُ لا ينفعه عنده إلاّ الراحة منه، وهو في وادٍ آخرَ عنه، ولله درُّ القائل[4]: [الطويل]

ووَضْعُ النَّدَى في مَوْضع السَّيفِ بالعلا   مُضِرٌّ، كوَضْعِ السيف في موضعِ النَّدَى

ولكن الأصوب أن يكون الرأي ميزانًا: لا يزن الوافي لناقصٍ، ولا يزن الناقص لوافٍ، ويُدَبِّرُ أمره على ما يقتضيه الزمان، ويقدر فيه حُسْن العاقبة.

ونَصَّ ابن بَشْكُوال على أن موسى بن نُصَير مات بوادي القُرَى سنة سبع وتسعين، وغزا[5] الأندلس سنة إحدى وتسعين، ودخلها سنة ثلاث وتسعين، وقَفَل عنها إلى الوليد ابن عبد الملك بالغنائم سنة أربع وتسعين، وذكر أن ولايته على الأندلس بالمباشرة ـ مذ دخلها إلى حين خروجه منها ـ سنة واحدة، ومكث فيها مولاه طارق سنة، انتهى.

وقد تقدّم شيء من ذلك.

وذكر ابن بَشْكُوَال أيضًا أن ابن حبيب قال عن ربيعة: غلَّ الناسُ كلُّهم يوم فتح الأندلس، إلاّ أربعة نفر كانوا من التابعين: حنش الصنعاني، وأبو عبد الرحمن الحُبليُّ، وابن شِمَاسة، وعياض بن عقبة، انتهى.

---

(١) هو محمد بن عمير، وقيل عميرة، ابن عبد الله الكندي، الملقّب بالمقنّع، شاعر من كندة، توفي نحو ٧٠ هـ. الأغاني (جـ ١٧ ص ١١٣) والشعر والشعراء (ص ٦٢٥) والبيان والتبيين (جـ ٣ ص ١٠٢).

(٢) هو عجز بيتٍ للمقنع الكندي المترجم له، وصدره:

لا أَحْمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهمُ

والبيت في كتاب الأمالي (جـ ١ ص ٢٨٤) والشعر والشعراء (ص ٦٢٥).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الحِقْدَ».

(٤) قائل البيت هو المتنبي، وقد تقدّمت ترجمته، وبيته من قصيدة من ٤٢ بيتًا قالها في مدح سيف الدولة. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٣٨٧).

(٥) في طبعة دار صادر: «وأَغْزَى».

قال ابن سعيد: ومـمّن دخل الأندلس من غير هؤلاء الأربعة من التابعين علي بن رَبَاح اللخمي، وموسى بن نُصَير فاتح الأندلس، وحِبَّان بن أبي جِبلة القرشي مولاهـم، وعبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقي[1] صاحب الأندلس المذكور في سلاطينها، ومحمد بن أوس ابن ثابت الأنصاري، وزيد بن قاصد السكسكي، والمغيرة بن أبي بردة الكناني، وعبد اللّه ابن المغيرة الكناني، وَحَيوة بن رجاء التَميمي، وعبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن ابن عَوْف، ومنصور بن خزامة، وعلي بن عثمان بن خطاب.

وذكر ابن حبيب أن عدة مَن دخل الأندلس من التابعين سوى مَن لا يعرف نحو عشرين رجلاً. وفي كتاب ابن بَشْكُوَال أنه دخل الأندلس من التابعين ثمانية وعشرون رجلاً، وهم أسَّسُوا قِبلة المسجد الجامع بقُرْطُبة، وسَمَّى الحجاري في الـمُسْهِب هؤلاء المتقدمين.

وذكر ابن سعيد أنه لم يتحقّق المواضع التي تختصّ بهؤلاء التابعين من بلاد الأندلس، مع جزمه بأنهم دخلوا الأندلس وسكنوا[2] بها، وسيأتي ذكر التابعين الداخلين الأندلس بما هو أشمل من هذا، وقد تقدّم غُلولُ من عَدَا التابعين من الغنائم.

وقال الليث بن سَعْد، بعد ذكره أن طارقًا أصاب بالأندلس مغانم كثيرة من الذهب والفضة[3]: إنْ كانت الطِّنفِسَةُ[4] لَتُوجَدُ منسوجةً بقضبان الذهب، وتُنْظَمُ السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزَّبَرْجَد، وكان البربر ربما وجدوها فلا يستطيعون حملها حتى يأتوا بالفأس فيضربون[5] به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر لنفسه، ويسير معهم جماعة والناسُ مشتغلون بغير ذلك.

وعن يحيىٰ بن سعيد[6]: لَـمَّا افتتحت الأندلس أصاب الناسُ فيها غنائم، فَغَلُّوا منها

(١) عبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقي أحد وُلاة الأندلس، قتل في معركة بواتيه الفرنسية عند توسّعه في جنوبي فرنسا، على يد شارل مارتل، في سنة ١١٤ هـ. البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٦، ٢٨) والكامل في التاريخ (جـ ٥ ص ١٧٤ ـ ١٧٥).

(٢) في طبعة دار صادر: «وكانوا بها».

(٣) النص في فتح إفريقيا والأندلس (ص ٧٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) الطِّنفِسَةُ: البساط، وجمعها طنافس. محيط المحيط (طنفس).

(٥) في طبعة دار صادر: «فيضربوا».

(٦) النص في فتح إفريقيا والأندلس (ص ٧٨ ـ ٧٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

غلولاً كثيرًا حملوه في المراكب وركبوا البحر، فسمعوا مناديًا يقول: اللَّهمّ غَرِّقْ بهم، وتقلّدوا المصاحف، فما نشبوا[1] أنْ أصابتهم ريح عاصف، وضربت المراكب بعضها بعضًا حتى تكسَّرَتْ، وغرق بهم. وأهل مصر ينكرون ذلك، ويقولون: أهل الأندلس ليس هم الذين غرقوا، وإنما هم أهل سردانية[2]، فاللَّه أعلم بحقيقة الحال.

ورأيت في بعض كتب التاريخ أنه وُجد في طُلَيْطلة حين فتحت من الذخائر والأموال ما لا يحصى، فمن ذلك مائة وسبعون تاجًا من الذهب الأحمر مرصّعة بالدُّرّ وأصناف الحجارة الثمينة، ووُجد فيها ألفُ سيف ملوكي، ووُجد فيها من الدُّرّ والياقوت أكيالٌ، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وَصْفٌ، ومائدة سليمان[3]، وكانت ـ فيما يُذْكر ـ من زمرّدة خضراء، وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان، وإنّما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهلُ الحسنة في دينهم إذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنائس، فاجتمع عندهم مال له قَدْرٌ صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة، والكراسيّ من الذهب والفضة، تحمل الشمامسةُ والقسوسُ فوقها الأناجيلَ في أيام المناسك، ويضعونها في الأعياد للمباهاة، فكانت تلك المائدة بطُلَيْطلة ممّا صُنع في هذا السبيل، وتأنَّقَ الملوكُ في تحسينها، يزيد الآخر منهم فيها على الأول، حتى برزت على جميع ما اتُّخذ من تلك الآلات، وطار الذكر بها كلَّ مَطَار، وكانت مَصُوغةً من الذهبِ الخالص مُرَصَّعَةً بفاخر الدُّرّ والياقوت والزَّبَرْجَد، وقيل: إنها من زبرجدة خضراء حافاتُهَا وأرْجُلُها منها، وكان لها ثلثمائة وخمس وستّون رِجْلاً، وكانت تُوضع في كنيسة طُلَيْطلة، فأصابها طارق، انتهى.

وقد ذكرنا فيما مَرَّ عن ابن حيّان ما فيه نظير هذا، وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها ما فيه بعض تخالف، وما ذلك إلاَّ لأنَّا ننقُل كلامَ المؤرّخين، وإن خالف بعضهم بعضًا، ومرادُنا تكثير الفائدة، وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار، وإن حصل الخلاف في صفتها وجنسها وعدد أرجلها، وهي من أَجَلِّ ما غُنِمَ بالأندلس، على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوعة الأجناس التي ذكْرُها إلى الآن شائع بين الناس.

---

(١) ما نَشِبُوا أن أصابتهم: ما لبثوا أن أصابتهم. محيط المحيط (نشب).

(٢) سردانية: جزيرة كبيرة في بحر المغرب، غزاها المسلمون وملكوها سنة ٩٢ هـ في عسكر موسى بن نصير. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٢٠٩).

(٣) هذا الوصف لمائدة سليمان هو لابن حيّان، وقد تقدّم.

فاعلم(١) أنه لـمّا استقرَّ قَدَمُ أهلِ الإسلام بالأندلس وتتامَّ فتحها صرف أهلُ الشام وغيرهم من العرب هِمَمهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جرائيم(٢) العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابَهُمْ إلى أن كان من أمرهم ما كان. فأما العدنانيون فمنهم خِنْدِف(٣)، ومنهم قريش، وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الأنفس: بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن(٤) بن علي بن أبي طالب، ومن هؤلاء بنو حَمُّود(٥) ملوك الأندلس بعد انتثار سلك بني أُميّة، وأما بنو أميّة فمنهم خلفاء الأندلس، قال ابن سعيد: ويُعْرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين، وإنما عَمَّوْا(٦) نسبهم إلى أُميّة في الآخر لَـمَّا انحرف الناسُ عنهم، وذكروا أفعالهم في الحسين رضي اللّه عنه، وأما بنو زُهْرة فمنهم(٧) بإشبيلية أعيان متميزون، وأما المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومي الأعمى الشاعر المشهور من أهل حصن الـمُدَوَّر، ومنهم الوزير الفاضل في النظم والنثر أبو بكر بن زَيْدون(٨) ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد(٩) بن زيدون وزير معتضد بني عباد.

---

(١) في طبعة دار صادر: «واَعْلَمْ».

(٢) الجرائيم: جمع جُرثومة وهي الأصل. لسان العرب (جرثم).

(٣) خِنْدِف، بكسر الخاء والدال وسكون النون: لقب امرأة تزوجت إلياس بن مضر، فعرف بنوه بها، واسمها ليلى بنت حلوان؛ سُمّيت بذلك لأنها كانت تخندف، أي تقلب قدميها في المشي. ومع الزمن أصبحت خندف قبيلة من مشاهير العرب. قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (ص ١٣٢ ـ ١٣٣) وجمهرة أنساب العرب (ص ١٠، ٢٣٣، ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «الحسن بن الحسين». والحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كبير الطالبيين في عهده. كان وصيّ أبيه. توفي نحو ٩٠ هـ. الأعلام (جـ ٢ ص ١٨٧ ومصادر حاشيته).

(٥) حكم بنو حمّود مالقة والجزيرة الخضراء في عصر ملوك الطوائف، وقد تغلب باديس بن حبوس الصنهاجي، صاحب غرناطة، على مالقة عام ٤٤٩ هـ، وأضافها إلى غرناطة. واستولى المعتضد بن عباد، صاحب إشبيلية، على الجزيرة الخضراء، وطرد صاحبها القاسم بن حمود عام ٤٤٦ هـ، وضمّها إلى مملكته. البيان المغرب (جـ ٣ ص ٢١٦ ـ ٢١٨، ٢٢٩ ـ ٢٣٠، ٢٩٠ ـ ٢٩١) و:Prieto Y Vives Los Reyes de Taifas (p. 28 - 29).

(٦) عَمَّوا نسبهم: أخفوه. محيط المحيط (عمى). وفي طبعة دار صادر: «نسبتهم» بدل «نسبهم».

(٧) في طبعة دار صادر: «فهم».

(٨) اسمه محمد، وكان تولّى وزارة المعتمد بن عباد. قتله يوسف بن تاشفين بقرطبة سنة ٤٨٤ هـ. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٤١).

(٩) هو ذو الوزارتين أحمد بن عبد اللّه ابن زيدون، من مشاهير شعراء الأندلس، له حكاية طويلة في =

وقال ابن غالب: وفي الأندلس مَن يُنْسَبُ إلى جُمَح، وإلى بني عبد الدار، وكثير من قريش المعروفون بالفِهْريين من بني مُحَارب بن فِهْر، وهم من قريش الظواهر، ومنهم عبد الملك[١] بن قَطَن سلطانُ الأندلس، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء، وبنو الجَدّ الأعيان العلماء، ومن بني الحارث[٢] بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهري[٣] سلطان الأندلس الذي غلبه عليها عبدُ الرحمن الأموي الداخل، وجدّ يوسف عقبة بن نافع الفِهْري صاحب الفتوح بإفريقية، قال ابن حزم[٤]: ولهم بالأندلس عَدَد وثروة. وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير، وجلُّهم في طُلَيْطلة وأعمالها، ولهم يُنْسَبُ الوَقَّشِيُّون[٥] الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد والوزير أبو جعفر، ومنهم أبو الحسن بن جُبَير العالِم صاحب الرحلة، وقد ذكرناه في محله. وأما هُذَيل بن مدركة بن إلياس بن مُضر، فذكر ابنُ غالب أن منزلهم بجهة أَرْبُولة من كورة تُدْمير. وأما تميم بن مرّ بن أُد بن طابخة بن إلياس بن مضر، فذكر ابنُ غالب أيضًا أنهم خلق كثير بالأندلس، ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية. وأما ضبّة بن أُدّ بن طابخة، فذكر أنهم قليلون بالأندلس، فهؤلاء خندف من العدنانية.

وأما قيس عَيْلاَن بن إلياس بن مضر من العدنانية، ففي الأندلس كثيرٌ منهم ينتسبون إلى العموم، ومنهم مَن ينتسب إلى سُلَيم بن منصور بن عِكرمة بن خَصَفة بن قيس، كعبد الملك بن حَبيب السُّلمي الفقيه صاحب الإمام مالك رضي الله عنه، وكالقاضي أبي حَفْص

= الحب مع ولاّدة بنت المستكفي. توفي سنة ٤٦٣ هـ. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه بقلم الأستاذ كرم البستاني.

(١) وَلِيَ عبد الملك بن قطن الفهري الأندلس سنة ١١٤ هـ، فكانت ولايته سنتين. ثم وَلِيَ ثانية سنة ١٢٢ هـ، وفي سنة ١٢٣ هـ وَلِيَ الأندلس بلج بن بشر القشيري. البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٨، ٣٠ - ٣١).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «محارب»، والصواب ما أثبتناه مستندين في ذلك على ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ١٧٨).

(٣) وَلِيَ يوسف بن عبد الرحمن الفهري بلاد الأندلس من سنة ١٢٩ إلى سنة ١٣٨ هـ حيث يتولاّها عبد الرحمن الداخل، وكان ليوسف الاسم وللصُّمَيْل بن حاتم الرسم. البيان المغرب (جـ ٣ ص ٣٥).

(٤) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ١٧٦ وما بعدها).

(٥) يُنسَب هؤلاء الوقشيون إلى وَقَّش Huecas، وهي قرية بثغر الأندلس. وقيل: مدينة من أعمال طليطلة. منها أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكناني الوقشي؛ وَلِيَ قضاء طلبيرة Talavera، وعُنِيَ بالهندسة والمنطق. الروض المعطار (ص ٦١١) ومعجم البلدان (جـ ٥ ص ٣٨١).

ابن عمر قاضي قُرْطُبَة. ومن قيس مَنْ ينتسبُ إلى هَوَازن بن منصور بن عِكْرمة، قال ابن غالب: وهم بإشبيلية خلق كثير، ومنهم مَن ينتسب إلى بكر بن هَوَازن، قال ابن غالب: ولهم منزل بجَوْفيِّ بلنسية على ثلاثة أميال منها، وبإشبيلية وغيرها منهم خلق كثير، ومنهم بنو حَزْم، وهم بيت غير البيت الذي منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهري، وهو فارسي الأصل. ومنهم مَن ينْتَسبُ إلى سعد بن بكر بن هوازن، وذكر ابن غالب أن منهم بغَرْناطة كثيرًا، كبني جُودِيّ، وقد رأس بعضُ بني جودي. ومنهم مَن ينْتَسبُ إلى سَلُول امرأةٍ نُسِب إليها بنوها، وأبوهم مُرّة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. ومنهم مَن ينْتَسبُ إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. ومنهم مَن ينْتَسبُ إلى نُـمَير بن عامر بن صعصعة، قال ابن غالب: وهم بغَرْناطة كثير. ومنهم مَن ينْتَسبُ إلى قشَير ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، ومنهم بلج بن بشر صاحب الأندلس وآلُه، وبنو رَشِيق. ومنهم مَن ينْتَسبُ إلى فَزَارة بن ذُبْيان بن بَغيض بن رَيْث بن غَطَفان بن سعد بن قيس عَيْلان. ومنهم مَن ينْتَسبُ إلى أشْجَع بن رَيْث بن غطفان، ومن هؤلاء محمد بن عبد اللَّه الأشجعي سلطان الأندلس. وفي ثقيف اختلاف؛ فمنهم مَن قال: إنها قيسية، وإن ثقيفًا هو قَسِيُّ[1] بن مُنَبّه بن بكر بن هوازن، ومنهم بالأندلس جماعة، وإليهم ينْتَسبُ الـحُرُّ بن عبد الرحمن الثقفي صاحب الأندلس، وقيل: إنها من بقايا ثمود، انتهى قيس[2] بن عيلان وجميع مضر.

وأما ربيعة بن نزار، فمنهم مَن ينْتَسبُ إلى أسد بن ربيعة بن نزار، قال في فرحة الأنفس: إن إقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجَوْفـيِّ مدينة وادي آش، انتهى، والأشهر بالنسبة إلى أسد أبدًا بنو أسد بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. ومنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى مُـحَارِب بن عمرو بن وديعة بن لُكَيز بن أَفْصَى بن دُعْمي بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة، قال ابن غالب في فرحة الأنفس: ومنهم بنو عطية أعيان غَرْنَاطة. ومنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى النَّـمِر

---

(١) قَسِيّ: هو ثقيف بن مُنَبّه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عِكْرِمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان. جمهرة أنساب العرب (ص ٢٦٦، ٤٦٨).

(٢) قال ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ١٠، ٢٤٣): قَيْسُ عَيْلانَ بنُ مُضَرَ بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان، أخو إلياس بن مُضَر، جدٌ جاهلي، وقد قال قوم: قيس بن عيلان بن مضر، والصحيح: قيس عيلان. وقال ابن منظور في لسان العرب (قيس): قيس عيلان أبو قبيلة من مضر، وهو لقب، واسمه الحقيقي الناسُ بن مضر بن نزار.

ابن قاسط بن هِنْب بن أَفْصَى بن دُعْمي بن جَديلة بن أسد، كبني عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عُمر بن عبد البرّ. ومنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى تَغْلب بن وائل بن قاسط بن هِنْب، كبني حَمْدين[1] أعيان قُرْطُبة، ومنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى بكر بن وائل، كالبكريين[2] أصحاب أونبة[3] وشَلْطيش الذين منهم أبو عُبَيد البَكْري صاحب التصانيف؛ انتهتْ ربيعة.

وأما إياد بن نِزَار، وقد يقال: إنه ابن معد، والصحيح الأول، فَيُنْتَسَبُ إليهم بنو زُهْر[4] المشهورون بإشبيلية؛ انتهت العدنانية، وهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام.

واخْتُلِفَ في القحطانية: هل هم من ولد إسماعيل أو من ولد هود، على ما هو معروف، وظاهر صنيع البخاري الأول، والأكثر على خلافه، والقحطانية هم المعروفون باليمانية، وكثيرًا ما يقع بينهم وبين الـمُضَرية وسائر العَدْنانية الحروب بالأندلس، كما كان يقع بالمشرق، وهم الأكثر بالأندلس، والملكُ فيهم أرسخ، إلاَّ ما كان من خلفاء بني أميّة، فإن القرشية قدّمتهم على الفرقتين، واسم الخلافة لهم بالمشرق، وكان عرب الأندلس يتميّزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ، إلى أنْ قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس، وقصد بذلك تشتيتهم وقَطْع التحامهم وتعصّبهم في الاعتزاء، وقدّم القوّاد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد فِرَقٌ من كل قبيل،

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «حمديس» وهو خطأ؛ لأن أبا جعفر حمدين بن محمد بن حمدين هو الذي دعا لنفسه بقرطبة لـمّا انقضت دولة المرابطين في سنة ٥٣٩ هـ. الحلّة السيراء (جـ ٢ ص ٢١١ ـ ٢١٢، ٢٤١).

(٢) يقصد بالبكريين عبد العزيز البكري، والد أبي عبيد عبد الله البكري؛ مَلَكَ شلطيش وأونبة في عصر ملوك الطوائف، إلاَّ أن المعتضد بن عباد، صاحب إشبيلية، تغلّب على بلاده، فخرج عبد العزيز منها وانتقل إلى قرطبة بأهله وولده. وبوفاة عبد العزيز بقرطبة سنة ٤٥٥ هـ، وقيل: سنة ٤٥٧ هـ، انتقل أبو عبيد إلى ألمرية فإشبيلية. الذخيرة (ق ٢ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٨) والمغرب (جـ ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨) والحلّة السيراء (جـ ٢ ص ١٨٠ ـ ١٨٧).

(٣) أونبة أو ولبه: بالإسبانية Huelva، وهي مدينة قديمة ممتنعة بالأندلس، بينها وبين البحر نحو ميل. الروض المعطار (ص ٦٣).

(٤) بنو زُهْر من أهل بيت كلهم علماء حكماء وزراء، نالوا المراتب العليّة. وأول مَن اشتهر منهم هو الوزير محمد بن مروان، توفي بطلبيرة Talavera سنة ٤٢٢ هـ. وثانيهما ولده أبو العلاء زهر بن محمد ابن مروان، وكان وزيرًا، وتوفي بدانية Denia. وثالثهما حفيده أبو مروان عبد الملك، وزير وطبيب. ورابعهم أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر بن محمد بن مروان بن زهر، الذي كان بإشبيلية. وقد تقدّمت ترجمته. المطرب (ص ٢٠٣) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٣٤).

فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس، إلاَّ ما جاءت على غير هذه الجهة.

قال ابن حزم[1]: جماع أنساب اليمن مِنْ[2] جِذْمَيْن: كَهْلان وحِمْير [ابني سبأ] بن يَشْجب بن يَعْرب بن قَحْطان بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وقيل: قحطانُ ابنُ الهَمَيْسَعِ بن تَـيْهَان بن نبت[3] بن إسماعيل، وقيل: قحطان ابنُ هود بن عبد اللّه بن رَيَاح بن حارف بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام، والـخُلف في ذلك مشهور. فمنهم كهلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، ومنهم الأزْدُ بن الغَوْث بن نَبت بن مالك ابن زيد بن كهلان، وإليهم يُنْتَسَبُ محمد بن هانيء[4] الشاعر المشهور الإلبيري، وهو من بني المهلَّب، ومن الأزد مَن يُنْتَسَبُ إلى غَسَّان، وهم بنو مازن بن الأزد، وغسان: ماء شَرِبُوا منه، وذكر ابن غالب أن منهم بني القُلَيْعي[5] من أعيان غَرْناطة، وكثير منهم بصالحةَ قريةٍ على طريق مالَقَةَ، ومن الأزد مَن يُنْتَسَبُ إلى الأنصار على العموم، وهم الجمُّ الغفير بالأندلس.

قال ابن سعيد: والعجب أنك تَعْدَمُ هذا النسب بالمدينة وتجدُ منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذُّ عن العدد كثرة، ولقد أخبرني مَن سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلاَّ شيخًا من الخزرج وعجوزًا من الأوس.

قال ابن غالب: وكان جزء الأنصار بناحية طُلَيْطلة، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها، انتهى.

ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عُبَادة[6] بن عبد اللّه بن ماء السماء من ولد سَعْد بن

---

(١) قول ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «من جرم بن كهلان وحمير بن يشجب...». وما بين قوسين مركنين زيادة يقتضيها السياق كما في جمهرة أنساب العرب.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «نابت»، وصَوَّبْناه من جمهرة أنساب العرب.

(٤) هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي؛ شاعر كبير على حظ وافر من الأدب والشعر. توفي سنة ٣٦٢ هـ. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه بقلم الأستاذ كرم البستاني.

(٥) رأس بني القليعي أبو جعفر أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغساني، المعروف بابن القليعي؛ من أهل غرناطة ومن جلّة أعيانها. استقضاه الأمير عبد اللّه بن بلقين الصنهاجي، صاحب غرناطة، واستوزره. توفي سنة ٤٩٨ هـ. مذكرات الأمير عبد اللّه (ص ١١٧) والإحاطة (جـ ١ ص ١٤٧، ١٥٠) والصلة (ص ١٢٤).

(٦) هو أبو بكر عبادة بن عبد اللّه بن محمد بن عبادة الأنصاري الخزرجي؛ يعرف بابن ماء السماء، وهو من أهل قرطبة، وكان شاعرًا مقدّمًا. توفي سنة ٤١٩ هـ بمالقة. الصلة (ص ٦٥٥).

عُبَادة صاحبِ رسول الله، ﷺ، وهو المشهور بالموشّحات، وإلى قَيْس بن سعد بن عُبَادة يُنْتَسَبُ بنو الأحمر(١) سلاطين غَرْنَاطة الذين كان لسانُ الدين بن الخطيب أحدَ وزرائهم، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين، واستولى العدوّ على الجزيرة جميعًا كما يذكر.

ومن أهل الأندلس مَن يُنْتَسَبُ إلى الأوس أخي الخزرج، ومنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى غافق(٢) بن عَكّ بن عُدْثان بن هزّان(٣) بن الأزد، وقد يقال عكّ بن عدنان ـ بالنون ـ فيكون أخا معدّ بن عدنان، وليس بصحيح(٤)؛ قال ابن غالب: مِنْ غافق أبو عبد الله بن أبي الخِصَال الكاتبُ(٥)، وأكثر جهات شَقُورة(٦) ينتسبون إلى غافق. ومن كهلان مَن يُنْتَسَبُ إلى هَمْدان، وهو أوْسِلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان، ومنزل هَمْدان(٧) مشهور على ستّة أميال من غَرْنَاطة، ومنهم أصحاب غَرْنَاطة بنو أضْحَى.

---

(١) بنو الأحمر أو بنو نصر أسّسوا مملكة بغرناطة في جنوبي الأندلس، فاستمرت من عام ٦٣٥ هـ حتى عام ٨٩٧ هـ، تاريخ سقوطها في أيدي الإسبان. وقد ترجم ابن الخطيب لعدد كبير من سلاطين بني الأحمر في كتابه «اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، فانظره.

(٢) جاء في جمهرة أنساب العرب (ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩): «بنو عَكّ بن عدنان، وقد قيل: بنو عَكّ بن الدِّيث ابن عدنان. منهم: غافق بن الشاهد بن علقمة بن عَكّ؛ ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم، في الجوف في شمال قرطبة. منهم بنو أسلم... ومنهم كان أمير الأندلس عبد الرحمن... ابن غافق... وله عَقِبٌ قد خمل بمرنيانة الغافقيين بقرب إشبيلية، على النهر الأكبر».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «أزان».

(٤) قول المقري: «وليس بصحيح» يريد أنه ليس بصحيح عَكّ بن عدنان، بالنون.

(٥) هو ذو الوزارتين محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي؛ نحويٌّ أديب كاتب بارع، أوليّته من قرية فرغليط بشقورة، وبها نشأ، وتوفي سنة ٥٤٠ هـ بقرطبة. المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ١٥٢) وبغية الوعاة (ص ١٠٤) وقلائد العقيان (ص ١٧٤) والمطرب (ص ١٨٧).

(٦) شقورة، بالإسبانية Segura de la Sierra: مدينة من أعمال جيان بالأندلس، ينسب إليها عبد العزيز بن علي بن عيسى الغافقي الشقوري، المتوفّى سنة ٥٣١ هـ. الروض المعطار (ص ٣٤٩) ومعجم البلدان (جـ ٣ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦).

(٧) المقصود بالمنزل مكان إقامة همدان، وهي، حسب ابن سعيد، قرية كبيرة في نطاق غرناطة، سُمّيت بذلك نسبة إلى قبيلة همدان لأنها نزلت بها. المغرب (جـ ٢ ص ١٢٧). وعدَّها ابن الدلائي إقليمًا من أقاليم إلبيرة. نصوص عن الأندلس (ص ٩٠). وجعل ابن حزم دار حمدان بإلبيرة. جمهرة أنساب العرب (ص ٣٩٧). وورد اسمها في نص بالعربية في كتاب لدوزي. Dozy: Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (T. 1, App. LXXVII). وهي بالإسبانية Alhendín.

ومِنْ كهلان مَن يُنْتَسَبُ إلى مَذْحِج[1]، ومَذْحِج: اسمُ أكَمَة حمراء باليمن، وقيل: اسم أمّ مالك وطيّىء بن أدد بن زيد بن كهلان، قال ابن غالب: بنو سِرَاج الأعيان من أهل قُرْطُبة ينتسبون إلى مذحج. ومنزل طيّىء بقبلي مُرْسِية. ومنهم مَن ينتسب إلى مُرَاد بن مالك بن أدد، وحِصْنُ مراد بين إشْبِيلِيَة وقُرْطُبة مشهور، قال ابن غالب: وأعرف بمراد منهم خلقًا كثيرًا. ومنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى عَنْس بن مالك بن أدد، ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب «المغرب» وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غَرْناطة. ومن مَذْحج مَن يُنْتَسَبُ إلى زُبَيْد، قال ابن غالب: وهو مُنَبِّه بن سعد العَشِيرة بن مالك بن أدد. ومن كهلان مَن ينتسب إلى مُرّة بن أدد بن زيد بن كهلان، قال ابن غالب: منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غَرْنَاطة. ومنهم مَن ينتسب إلى عامِلَةَ، وهي امرأة من قُضَاعة ولدت للحارث بن عدي بن الحارث ابن مُرّة بن أدد، فَنُسِبَ ولدُها منه إليها، قال ابن غالب: منهم بنو سِمَاك القُضَاة من أهل غَرْنَاطة، وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، وقيل: هم من قضَاعة. ومن كَهْلان خَوْلاَن بن عمرو بن الحارث بن مرة، وقَلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء وإشبيليَةَ، ومنهم بنو عبد السلام أعيان غَرْنَاطة. ومنهم مَن ينتسب إلى المَعَافِر بن يَعْفُر[2] بن مالك بن الحارث بن مرّة، ومنهم المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس[3]. ومنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى لَخْمِ بن عدي بن الحارث بن مرّة، ومنهم بنو عَبَّاد أصحاب إشبيلية[4] وغيرها، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحبِ الحِيرة، ومنهم بنو الباجي أعيان إشبيلية، وبنو وافد الأعيان. ومنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى جُذام مثل ثَوَابة بن سَلاَمة صاحب الأندلس، وبني هُودِ ملوك شرقيِّ الأندلس، ومنهم المتوكّل[5] بن هُود الذي صَحَّتْ له سلطنة الأندلس بعد الموحّدين، ومنهم بنو مَرْدَنيش[6] أصحاب شرقي الأندلس،

---

(١) قال ابن حزم: مَذْحِج هو مالك بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. جمهرة أنساب العرب (ص ٤٠٥، ٤٧٦، ٤٨٥).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «المَعافِر بن مالك...»، وقد صحّحناه عن جمهرة أنساب العرب (ص ٤١٨).

(٣) هو حاجب الخليفة هشام المؤيد، ولكنه كان حاكم الأندلس الفعلي، وقد تقدمت ترجمته.

(٤) بنو عباد هم القاضي ابن عباد وولده المعتضد وحفيده المعتمد، وقد تقدّمت ترجمتهم.

(٥) مَلَكَ المتوكل بن هود الأندلس سنة ٦٢٥ هـ، وقد تقدّمت ترجمته.

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن سعد، المشهور بابن مردنيش، وهو اسم إسباني Martinez؛ ثار على =

قال ابن غالب: وكان لـجُذَام جزءٌ من قلعة رَبَاح[1]، واسم جُذام عامر، واسم لخم مالك، وهما ابنا عديّ. ومن كهلان مَنْ يُنْتَسَبُ إلى كِنْدَة، وهو ثَوْر بن عُفير بن عدي [بن الحارث] بن مرّة بن أدد، ومنهم يوسف بن هارون الرمادي[2] الشاعر. ومنهم مَن ينتسب إلى تُجيبَ[3] وهي امرأة أَشْرَسَ بن السَّكُون بن أشرس بن كندة. ومن كهلان من ينتسب إلى خَثْعَم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان، ومنهم عثمان[4] بن أبي نِسْعَةَ سلطانُ الأندلس، وقد قيل: أنمار بن نزار بن معدّ بن عدنان، انتهت كهلان.

وأمّا حمير بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، فمنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى ذي رُعَين [5]، قال ابن غالب: وذو رُعَين هم ولد عمرو بن حِمْيَر في بعض الأقوال، وقيل: هو من ولد سَهْل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث ابن قَطَن بن عَريب بن زُهير بن أيمن بن الهَمَيْسع بن حمير، قال: ومنهم أبو عبد اللّه الـحَنَّاط [6] الأعمى الشاعر، قال الحازمي [7] في كتاب النسب: واسم ذي رُعَين يَرِيم[8]:

= الموحدين بالأندلس، ومَلَكَ شرق الأندلس. مات على فراشه سنة ٥٦٧ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ٢٥٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٥٩).

(١) قلعة رباح: بالإسبانية Calatrava، وهي من عمل جيان بالأندلس، بين قرطبة وطليطلة. الروض المعطار (ص ٤٦٩).

(٢) أبو عمر يوسف بن هارون الكندي، المعروف بالرمادي، شاعر مشهور، توفي سنة ٤٠٣ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ٢٢٧) والمطرب (ص ٣) والمغرب (جـ ١ ص ٣٩٢).

(٣) هي تُجِيبُ بنت ثَوْبان بن سُلَيم بن رُهاء، أُمُّ عَدِيّ وسَعْد ابْنِي أَشْرس بن شبيب بن السَّكُون بن أَشْرَس ابن كِنْدة. جمهرة أنساب العرب (أص ٤٢٩).

(٤) ولي عثمان بن أبي نِسْعة الخثعميّ الأندلس سنة ١١٠ هـ، وكانت ولايته خمسة أشهر ثم عزل وانصرف إلى القيروان. البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٨).

(٥) دار ذي رُعَين بالأندلس هو الفحص المنسوب إليهم بريّه Reiyo. جمهرة أنساب العرب (ص ٤٣٤).

(٦) هو أبو عبد اللّه محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني الأعمى القرطبي؛ أديب شاعر، غلب عليه المنطق حتى اتّهم في دينه، ونُفِيَ عن قرطبة. مات بالجزيرة الخضراء سنة ٤٣٨ هـ. الصلة (ص ١٠٠٤) والمغرب (جـ ١ ص ١٢١) والذخيرة (ق ١ ص ٤٣٧).

(٧) هو أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان، الحازمي الهمذاني الملقّب بزين الدين؛ أحد الحفّاظ المتقنين. توفي ببغداد سنة ٥٨٤ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٢٩٤).

(٨) في طبعة عبد الحميد: «عريم»، وقد صحّحناه عن جمهرة أنساب العرب (ص ٤٣٣).

ابن زيد بن سهل، ووصل النسب، ومنهم مَن ينتسب إلى ذي أَصْبَح، قال ابن حزم: هو ذو أصبح بن مالك بن زيد من ولد سبأ الأصغر ابن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس، ووَصَلَ النَّسَبَ[١]. وذكر الحازمي أنَّ ذا أصبح من كَهْلان، وأخبر أنَّ منهم مالك بن أنس الإمام[٢]، والمشهور أنهم من حِمْير، والأَصْبَحيون من أعيان قُرْطُبة، ومنهم مَن ينتسب إلى يَحْصب. قال ابن حزم: إنه[٣] أخو ذي أَصْبَح، وهم كثير بقلعة بني سعيد، وقد تُعْرَفُ من أجلهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يَحْصُب[٤]، ومنهم مَن ينتسب إلى هَوْزن[٥] بن عَوْف بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث، قال ابن غالب: ومنزلهم بشرقيِّ إشْبيليَة، والهَوْزنيون[٦] من أعيان إشبيلية. ومنهم مَن يُنْتَسَبُ إلى قُضَاعة بن مالك بن حِمْير، وقد قيل: إنه قضاعة بن معدّ بن عدنان، وليس بمرضي، ومن قُضَاعة مَن ينتسب إلى مَهْرَة كالوزير أبي بكر بن عمّار[٧] الذي وَثَب على مُلْك مُرْسية، وهو مَهْرَة بن حَيْدَان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، ومنهم مَن ينتسب [إلى خُشين بن نَمِر بن وَبَرَة بن تَغْلِب بن حُلْوان بن عِمْران بن الحافي بن قُضاعة، ومنهم مَن ينتسب إلى تَنُوخ[٨]]، قال ابن غالب: وهو ابن مالك بن فَهْم بن نمر بن وَبَرَةَ بن تغلب، قال الحازمي: تَنُوخ هو مالك بن فِهْر بن فهم بن تَيْم اللَّه ابن أسد بن وَبَرَة. ومنهم مَن ينتسب إلى بَلِيِّ بن عمرو بن الحاف بن قُضَاعة، ومنهم

---

(١) ذو أَصْبح هو الحارث بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد. وسبأ الأصغر هو ابن كعب بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن حِمْير. جمهرة أنساب العرب (ص ٤٣٥، ٤٣٧).

(٢) قال ابن حزم: من ذي أصبح الفقيه مالك بن أنس بن مالك. جمهرة أنساب العرب (ص ٤٣٥).

(٣) أي إنَّ يَحْصِب هو أخو ذي أصبح، وهو يحصب بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد. جمهرة أنساب العرب (ص ٤٣٥).

(٤) قلعة يحصب، أو قلعة يعقوب، أو قلعة بني سعيد، أو القلعة السعدية: بالإسبانية Alcalá la Real، أي القلعة الملكية؛ نزلها بنو سعيد وسكنوها فسُمّيت باسمهم، وهي من أعمال غرناطة، وتبعد عن إلبيرة ثلاثين ميلاً. نصوص عن الأندلس (ص ٨٩، ٩٢) والروض المعطار (ص ٤٥٣) وتقويم البلدان (ص ١٧٧).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «هوازن»، وهو خطأ، وضبطناه عن جمهرة أنساب العرب (ص ٤٣٤)؛ يقول ابن حزم: هوزن بن سعد بن عوف، ودار بني هوزن بالأندلس القريتان المذكورتان بهما بإشبيلية.

(٦) في طبعة عبد الحميد: «والهوازنيون».

(٧) خرج ابن عمّار على سلطة المعتمد بن عباد في مرسية وأراد أن يستأثر بها عندما أرسله المعتمد لضبطها، فقتله المعتمد بيده، وقد تقدمت ترجمته.

(٨) في طبعة عبد الحميد: «خُشَين بن تنوخ...». وقد صوّبناه عن جمهرة أنساب العرب (ص ٤٥٥).

البَلَوِيُّون بإشبيلية[1]. ومنهم مَن ينتسب إلى جُهَينة بن سُوْد[2] بن أسْلَم بن عمرو بن الحاف ابن قُضَاعة، قال ابن غالب: وبقُرْطُبة منهم جماعة. ومنهم مَن ينتسب إلى كَلْب بن وَبَرَة بن تغلب بن حُلوان كبني أبي عبدة الذين منهم بنو جَهْوَر ملوك قرطبة ووزراؤها. ومنهم مَن ينتسب إلى عُذْرة بن سعد هُذَيْم بن زيد بن سُوْد[3] بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء[4] بنو عُذْرة[5].

ومن أهل الأندلس مَنْ ينتسب إلى حَضْرَمَوْت، منهم الحضرميون بمُرْسية وغَرْناطة وإشبيلية وبَطَلْيَوْسَ وقُرْطُبة؛ قال ابن غالب: وهم كثير بالأندلس، وفيه خلاف، قيل: إن حضرموت هو ابن قحطان، وقيل: هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن جَيْدان - بالجيم - ابن قطن بن العَرِيب بن الغَرْز بن نَبْت بن أيمن بن الهميسع بن حِمْير، كذا نَسَقَ النَّسَبَ الحازميُّ.

ومن أهل الأندلس مَن ينتسب إلى سَلاَمان، ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذكر في محلّه.

وقد رأيت أنْ أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بني أميّة، وإن تقدَّم ويأتي ذكرُ جملةٍ منهم بما هو أتمُّ ممّا هنا: فنقول: طارق بن زياد مولى موسى ابن نُصَيْر، ثم الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سريرًا للسلطنة. ثم عبد العزيز بن موسى بن نُصَير، وسريره إشبيلية. ثم أيوب بن حبيب اللخمي، وَسريره قُرْطُبة، وكلّ مَن يأتي بعده فسريره قرطبة والزهراء والزاهرة بجانبيها إلى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينبّه عليه. ثم الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي. ثم السَّمْح بن مالك الخَوْلاني. ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي. ثم عَنْبَسَةُ بن سُحَيم الكلبي. ثم عُذْرة بن عبد الله الفِهْري.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الإشبيلية». وقبيلة بَلِيّ عربيةٌ، لم تكن، كما يقول ابن حزم، تُحْسِنُ التحدّث باللطينية (الرومنثية أي الإسبانية القديمة المتولّدة من اللاتينية) ودارها بالأندلس الموضع المعروف باسمهم شمالي قرطبة. جمهرة أنساب العرب (ص ٤٤٣).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «أسود»، وقد صَوّبْناه عن جمهرة أنساب العرب (ص ٤٤٣).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «أسود»، وقد صوّبناه عن جمهرة أنساب العرب (ص ٤٤٧).

(٤) الجزيرة الخضراء: بالإسبانية Algeciras، وتسمى أيضًا جزيرة أم حكيم، وهي مدينة بالأندلس. الروض المعطار (ص ٢٢٣).

(٥) دار بني عذرة بالأندلس دَلاَية وجيان والثغر وسرقسطة. جمهرة أنساب العرب (ص ٤٥٠).

ثم يحيىٰ بن سلمة الكلبي. ثم عثمان بن أبي نِسْعَةَ الخَثْعَمِي. ثم حذيفة بن الأحوص القيسي. ثم الهيثم بن عُبيد الكلابي[1]. ثم محمد بن عبد اللّٰه الأشجعي. ثم عبد الملك بن قَطَن الفِهْري. ثم بلج بن بشر بن عياض القُشَيْري. ثم ثعلبة بن سلامة العاملي. ثم أبو الخطار [حُسَامُ] بن ضرار الكلبي. ثم ثَوَابة بن سلامة الجُذَامي. ثم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري. وهٰهنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير مُوَارثة، أفرادًا، عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد، ولم يتعدّوا في السِّمة لفظ الأمير[2].

قال ابن حيّان: مدّتهم منذ تاريخ الفتح من لُذَريق سلطان الأندلس النصراني - وهو يوم الأحد لخمس خَلَوْنَ من شوال سنة اثنتين وتسعين - إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري، وتغلّب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطُبةَ - وهو يوم الأضحى لعشرٍ خَلَوْنَ من ذي الحجة سنة ثمانٍ وثلاثين ومائة - ست وأربعون سنة وخمسة أيام، انتهى.

ثم كانت دولة بني أمية[3]، أولهم عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك. ثم ابنه هشام الرضى. ثم ابنه الحكم بن هشام. ثم ابنه عبد الرحمن الأوسط. ثم ابنه محمد ابن عبد الرحمن. ثم ابنه المنذر بن محمد. ثم أخوه عبد اللّٰه بن محمد. ثم ابن ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد اللّٰه. ثم ابنه الحكم المستنصر، وكرسيهما الزهراء. ثم هشام بن الحكم، وفي أيامه بَنَى حاجبُه المنصورُ بن أبي عامر الزاهرة. ثم المهدي محمد ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، وهو أول خلفاء الفتنة، وهُدِمَتْ في أيامه الزهراء

---

(1) في طبعة دار صادر: «الهيثم بن عديّ الكلابي». وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٨): «الهيثم بن عبيد الكناني».

(2) يتحدّث المقري هنا عن أمر الأندلس في عصر الولاة، وعددهم عشرون واليًا، بدءًا بطارق بن زياد سنة ٩٢ هـ وانتهاء بيوسف بن عبد الرحمن الفِهْري سنة ١٣٨ هـ. وقد تحدّث ابن عذاري عن هؤلاء الولاة في كتابه البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٣ - ٤٠)، فزاد عليهم الوالي عقبة بن الحجاج السلولي، وقال إنه وَلِيَ الأندلس خمسة أعوام وستّة أشهر من عام ١١٦ هـ حتى عام ١٢١ هـ. وأغفل ذكر واليين ذكرهما المقري وهما عذرة بن عبد اللّٰه الفِهْري وثوابة بن سلامة الجذامي.

(3) دامت دولة بني أمية بالأندلس، بفترتيها الإمارة والخلافة، من عام ١٣٨ هـ حتى عام ٤٢٢ هـ، بدءاً بالأمير عبد الرحمن الداخل وانتهاءً بالخليفة المعتدّ هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر. وقد أسهب ابن عذاري في الحديث عن هؤلاء الأمراء والخلفاء المروانيين في كتابه البيان المغرب (جـ ٢ ص ٤٧ - ٣٠١) و(جـ ٣ ص ٥٠ - ١٥٠).

والزاهرة، وعاد السرير إلى قُرْطُبة. ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر.

ثم تخلّلت دولة[1] بني حَمُّود العلويين، وأولهم الناصر علي بن حَمُّود العَلَوي الحسني[2] الإدريسي. ثم أخوه المأمون القاسم بن حمّود.

ثم كانت دولة بني أمية الثانية، وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ابن الناصر. ثم المستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبد اللّه. ثم المعتدّ[3] هشام بن محمد ابن عبد الملك بن الناصر، وهو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس، وحين خُلع أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية.

واستبدَّت ملوكُ[4] الطوائف كابن جهور في قرطُبة، وابن عباد بإشبيلية، وغيرهما، ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد، إلى أنْ مَلَكَها يوسفُ بن[5] تاشفين الملثّم مِنْ بَرّ العُدْوَة، وفتك في ملوك الطوائف، وبعد ذلك ما خلصت له ولا لولده علي بن يوسف؛ لأن بني هود نازعوه في شرقها بالثغر، إلى أنْ جاءت دولة عبد المؤمن وبنيه، فما صفت لعبد المؤمن بمحمد بن مَردَنِيش الذي وكان ينازعه في شرق الأندلس، ثم صفت

---

(١) وَلِيَ علي بن حمود أمر الخلافة بالأندلس سنة ٤٠٧ هـ، وقُتل سنة ٤٠٨ هـ، فخلفه أخوه القاسم بن حمود، فحكم لمدة ثلاث سنوات، ثم بويع ثانية سنة ٤١٢ هـ، فحكم سبعة أشهر بعد أن خُلع لفترة وجيزة جدًا. البيان المغرب (جـ ٣ ص ١١٣ ـ ١١٦، ١١٩ ـ ١٢٥) والذخيرة (ق ١ ص ٣٧ ـ ٤٢، ٩٦ ـ ١٠٢). وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٢١، ١٢٨ ـ ١٢٩) وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٢٨).

(٢) كلمة «الحسني» ساقطة في طبعة عبد الحميد.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «المعتمد» وهو خطأ.

(٤) تفسّخت الأندلس بانحلال عِقْد الخلافة الأموية بقرطبة، فثار الأمراء والرؤساء من العرب والبربر والموالي على مدن الأندلس، وصار لكلٍّ منهم دويلة، وأصبح على أرض البلاد ثلاث وعشرون دويلة، سُمّيت بدول الطوائف، وسُمّي أصحابها بملوك الطوائف أو أمراء الطوائف، وقد قضى عليهم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب واحدًا تلو الآخر، فكان أولهم عبد اللّه بن بلقين الصنهاجي، صاحب غرناطة سنة ٤٨٣ هـ وكان آخرهم المتوكل بن الأفطس، صاحب بطليوس، سنة ٤٨٨ هـ. وكان أقواهم المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية، وباديس بن حبوس الصنهاجي، صاحب غرناطة. راجع البيان المغرب (جـ ٣ ص ١٥٥ ـ ٣١٦).

(٥) هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين الصنهاجي اللمتوني الحميري؛ أمير المرابطين وسلطان المغرب الأقصى. انتصر على ألفونسو السادس، ملك قشتالة، في معركة الزلاقة الشهيرة بالأندلس سنة ٤٧٩ هـ. توفي سنة ٥٠٠ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١١٢) والبيان المغرب (جـ ٤ ص ٧ ـ ٤٧).

ليوسف[1] بن عبد المؤمن بموت ابن مَرْدَنيش، ثم لـمَن بعده من بنيه، وحضرتهم مَرَّاكش، وكانت ولايتهم تتردّد على الأندلس وممالكها، ولم يولّوا على جميعها شخصًا واحدًا لعظم ممالكها، إلى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بني هود ملوك سَرَقُسْطَة وجهاتها، فملك معظم الأندلس بحيث يُطْلَقُ عليه اسم السلطان، ولم ينازعه فيها إلاّ زيّان[2] بن مَرْدَنِيش في بَلَنْسِيَة من شرق الأندلس، وابن هلالة في طبيرة[3] من غرب الأندلس، ثم كثرت عليه الخوارج قَرِيْبَ مَوْتِهِ، ولـمّا قتله وزيره ابن الرُّميمي بالمريَّة زاد الأمر إلى أنْ مَلَكَ بنو الأحمر. وكان غرب أهل الأندلس في المائة السابعة يخطبون لصاحب إفريقية السلطان أبي زكرياء يحيىٰ بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حَفْص، ثم تقلّصت تلك الظلال، ودخل الجزيرة الانحلال، إلى أن استولى عليها حزب الضلال، واللّٰه وارث الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين.

وقد ذكرت في هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الأندلس ممّا يصلح للمذاكرة، وربما سَرَّحْتُ طرف القلم في بعضهم.

وبنو جَهْوَر المشار إليهم قريبًا كانوا وُزَرَاءَ الأمويين، ثم إنه لـمّا انتثر سِلْكُ الخلافة استبدَّ بقُرْطُبة الوزير أبو الحزم بن جَهْوَرٍ من غير أن يَتَعَدّى اسمَ الوزارة.

قال في «المطمح»[4]: الوزيرُ الأَجَلُّ جَهْوَر[5] بن محمد بن جهور، [وبنو جَهْوَر][6]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «يوسف بن عبد الرحمن»، وقد تقدمت ترجمة يوسف بن عبد المؤمن الموحدي.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «زياد». وهو زيان بن يوسف بن مردنيش؛ ثار ببلنسية سنة ٦٢٦ هـ، وأخرج منها عبد الرحمن بن محمد بن عبد المؤمن الموحدي، ولم يزل بها حتى هاجمها النصارى سنة ٦٣٥ هـ واستولوا عليها. المغرب (جـ ٢ ص ٣٠٣).

(٣) طبيرة: بالإسبانية Tavira، وهي قرية تبعد ١٤ ميلاً عن البحر، وبينها وبين شنتمرية الغرب ١٢ ميلاً. نزهة المشتاق (ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣).

(٤) النصُّ في مطمح الأنفس لابن خاقان (ص ١٤) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور بن عبيد اللّٰه بن أبي عبدة، من وزراء الدولة العامرية، حكم قرطبة إثر سقوط الدولة الأموية حتى عام ٤٣٥ هـ. الصلة (ص ٢١٥) والمغرب (جـ ١ ص ٥٦) والحلّة السيراء (جـ ٢ ص ٣٠).

(٦) ما بين قوسين ساقط في طبعة عبد الحميد، وقد أضفناه للسياق.

أهل بيت وزارة، اشتهروا كاشتهار ابن هُبَيرة[1] في فَزَارة، وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات، وأنجدهم في الملمّات، ركب مُتُونَ الفنون فَرَاضَها، ووقع في بحورِ المحن فخاضها، منبسط غير منكمش، لا طائشُ اللسان ولا رَعش، وقد كان وَزَرَ في الدولة العامرية فشَرُفَت بجلاله، واعترفتْ باستقلاله، فلمّا انقرضت وعافَتِ[2] الفتنُ واعترضت، تحيّز عن التدبير مُدَّتها، وخلّى لخلافِهِ أعباء الخلافة وشدَّتها، وجعل يُقْبل مع أولئك الوزراء ويُدْبر، ويُدِير[3] الأمرَ معهم ويُدَبِّر، غير مُظهِر للانفراد، ولا متصرّف في ميدان ذلك الطِّراد، إلى أنْ بلغت الفتنةُ مَدَاها، وسوَّغت ما شاءت رَدَاها، ذهب[4] مَنْ كان يَخِدُ في الرياسة ويَخبُّ[5]، ويسعى في الفتنة ويَدِبّ، ولمّا ارتفع الوَبال، وأدبر ذلك الإقبال، راسَلَ أهلَ التقوى مستمدًا بهم، ومعتمدًا على بعضهم تَخَيُّلاً منه وتمويها، وتداهيًا، على أهل الخلافة وذَوِيها، وعرض عليهم تقديم المعتدّ[6] هشام، وأومض منه لأهل قُرْطُبة بَرْقَ خُلَّبٍ[7] يُشَام، بعد سرعة التياثها، وتعجيل انتكاثها، فأنابوا إلى الإجابة، وأجابوا إلى استرعائه الوزارة والحجابة، وتوجّهوا مع ذلك الإمام، وألَـمُّوا بقرطبة أحسن إلمام، فدخلوها بعد فتن كثيرة، واضطرابات مستثيرة، والبلد مُقْفِرٌ، والجلد مسفر، فلم يبق غير يسير حتى جَبَذ[8] واضطرب أمره فَخُلِعَ، واخْتُطِفَ من الملك وانْتُزِع، وانقرضت[9] الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العلوية، واستولى على قُرْطُبة عند ذلك أبو الحَزْم، ودَبَّرَ أمرها[10] بالجِدِّ والعَزْم، وَضَبَطَهَا ضبطًا أمَّنَ خائِفَها، ورفع طارقَ تلك الفتنة وطائفَهَا، وخلا له الجو فطار، وقضى[11] اللُّبَانات والأوطار، فعادت له قُرْطُبة إلى أكمل حالتها،

---

(١) هو أبو خالد يزيد بن عمر بن هبيرة، من بني فزارة، وَلِيَ العراقين؛ البصرة والكوفة سنة ١٢٨ هـ من قِبَل مروان بن محمد، وتوفي سنة ١٣٢ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٣١٣).

(٢) في طبعة دار صادر: «وعاقت».

(٣) في طبعة دار صادر: «وينهل الأمر».

(٤) في طبعة دار صادر: «وذهب».

(٥) يَخِدُ: يسرع. يَخبُّ: يخادع. محيط المحيط (وخد) و(خبب).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «المعتمد» وهو خطأ، وقد تقدّم الحديث عن الخليفة هشام المعتد.

(٧) البَرْقُ الخُلَّبُ وبَرْقُ الخُلَّب: المُطْمِعُ المُخْلِفُ. محيط المحيط (خلب).

(٨) جَبَذَ: جَذَبَ. محيط المحيط (جبذ).

(٩) في طبعة دار صادر: «وانقضت».

(١٠) في طبعة دار صادر: «ودَبَّرها بالجِدِّ...».

(١١) في طبعة دار صادر: «واقتضى».

وانجلى به نورُ جَلالتها، ولم تزل به مُشْرقة، وغصونُ الآمال فيها مُورِقة، إلى أنْ توفي سنة ٤٣٥[١] فانتقل الأمر إلى ابنه أبي الوليد[٢]، واشتمل منه على طارف وتليد. وكان لأبي الحزم أدب ووقار وحلم سارت به الأمثال، وعدم فيها المِثال، وقد أثْبَتُّ من شعره ما هو لائق، وفي سماء الحُسْن رائق، وذلك قولُه في تفضيل الورد[٣]: [الكامل]

الوردُ أحسَنُ ما رأت عيني وأز ... كى[٤] ما سَقى ماءُ السَّحابِ الجائِدُ
خَضَعَتْ نَوَاوِيرُ الرِّياضِ لحسنه ... فتذلَّلتْ تنقادُ وَهْيَ شَوَارِدُ
وإذا تَبَدَّى الوَرْدُ في أغصانه ... يَزْهُو، فذا مَيْتٌ وهذا حاسِدُ
وإذا أتى وَفْدُ الرَّبيع مُبَشِّرًا ... بطلوع وفْدَتِهِ فَنِعْمَ الوافِدُ
ليس المُبَشِّرُ كالمُبَشَّرِ باسمه ... خَبَرٌ عليه من النُّبُوَّةِ شاهِدُ
وإذا تَعَرَّى الوَرْدُ من أوراقه ... بَقِيَتْ عوارِفُهُ فهُنَّ خوالد

انتهى المقصود منه.

وكأنه عارض بهذه الأبيات في تفضيل الورد قول ابن الرومي في تفضيل النرجس عليه من قصيدة[٥]: [الكامل]

للنرجس الفَضْلُ المُبِينُ وإنْ أبَى ... آبٍ وحادَ عن الحقيقةِ حائِدُ

وهي مشهورة.

وردّ على ابن الرومي بعضُهم بقوله: [الكامل]

يا مَنْ يُشَبِّهُ نَرْجِسًا بنواظرٍ ... دُعْجٍ تَنَبَّهْ إنَّ فَهْمَكَ فاسِدُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «سنة ٣٤٥».

(٢) هو أبو الوليد محمد بن أبي الحزم جَهْوَر بن محمد بن جَهْور؛ خَلَفَ أباه في رئاسة قرطبة وتدبير أمرها سنة ٤٣٥ هـ، وقبض عليه المعتمد بن عبّاد، صاحب إشبيلية، وسجنه بشلطيش، فتوفي بها سنة ٤٦٢ هـ. الصلة (ص ٨٠٠) والمغرب (جـ ١ ص ٥٦) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ٣٤).

(٣) تابَعَ المقري خطأ ابن خاقان، فنسب هذه الأبيات إلى أبي الحزم جهور رئيس قرطبة، وهي في الحقيقة لجدِّ أبي الحزم جهور، كما في الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٤٨). وهذا الالتباس يعود إلى أن جدّ أبي الحزم يحمل اسمه وكنيته، وهو أبو الحزم جهور بن عبيد اللّٰه بن أبي عبدة؛ وقد وَزَرَ لعبد الرحمن الناصر، وكان شاعرًا مُكثِرًا. الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٤٥).

(٤) في طبعة دار صادر: «وأذكى».

(٥) مطلع قصيدة ابن الرومي هو:

خجلت خدودُ الوَرْدِ من تفضّله ... خجلاً، تَوَرُّدُها عليه شاهدُ

إلخ، وهي أيضًا مشهورة.

رجع إلى ما كُنّا فيه ـ وكانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح وما بعده وقائع في الكُفّار شَفَتِ الصدورَ من أمراضها، ووفتِ النفوسَ بأغراضها، واستولت على ما كان لملّة الكُفْر من جواهرها وأعراضها، ثم وقع الاختلاف، بعد ذلك الائتلاف، فعَصَفَتْ ريحُ العدوّ والحروب سِجَال، وأعْيَا العِلاجُ حكماء الرجال، فصار أهلُ الأندلس يتذكّرون موسى بن نُصَير وطارق[1]، ومَنْ بعدهما من ملوك الأندلس الذين رَاعَتِ العَدُوَّ الكافرَ منهم طوارق[2].

وما أحسن ما أعرب الإمام الكاتبُ القاضي أبو المطرف بن عميرة[3]، عمّا يشمل هذا المعنى وغيره، في كتاب بَعَثَ به إلى الشيخ أبي جعفر بن أمية، حين حَلَّ الرُّزْء ببَلَنْسِية[4]، وهو: [الطويل]

أَلاَ أيها القَلْبُ المُصَرَّحُ بالوَجْدِ ... أَمَا لَكَ مِنْ بادي الصَّبابة من بُدِّ
وهل من سُلُوّ يُرْتَجَى لِمُتَيَّمٍ ... له لَوْعَةُ الصادِي[5] ورَوْعَةُ ذي الصَّدِّ
يَحِنُّ إلى نجدٍ، وهيهات! حَرَّمَتْ ... صروفُ الليالي أنْ يعودَ إلى نَجْدِ
فيا جَبَلَ الريَّانِ، لا ريَّ بَعْدَمَا ... عَدَتْ غِيَرُ الأيامِ عن ذلك الوِرْدِ
ويَا أهلَ وُدّي والحوادثُ تقتضي ... خُلُوِّيَ عن أهلٍ يُضَافُ إلى الودِّ
أَلاَ متعةٌ يومًا بعاريةِ المُنَى ... فإنّا نراها كلَّ حينٍ إلى الردِّ
أَمِنْ بعد رُزْءٍ في بَلَنْسِيَةٍ ثَوَى ... بأحنائِنا كالنَّار مُضْمَرةِ الوَقْدِ
يُرَجِّي أُناسٌ جُنَّةً من مصائب ... تطاعنُ فيهمْ بالمثقَّفَةِ المُلْدِ[6]

---

(١) حسب مقتضيات النحو: «وطارقًا»، مفعول به لـ «يتذكرون»، وقد أبقاه على هذه الصورة مراعاة للسّجْع.

(٢) الطوارق: جمع طارقة وهي الداهية (الأمر العظيم). محيط المحيط (طرق).

(٣) هو أحمد بن عبد اللّٰه بن محمد بن عميرة المخزومي، من جزيرة شُقْر؛ سكن بلنسية، فبرع في الآداب وكان عَلَمَ الكتابة المشهور. توفي سنة ٦٥٨ هـ. الذيل والتكملة (جـ ١ ص ١٥٠) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٩٧). وسيترجم له المقري في هذا الجزء وفي الجزءين الخامس والسادس.

(٤) بلنسية، بالإسبانية Valencia: مدينة أندلسية سهلية في شرق الأندلس، بينها وبين البحر ثلاثة أميال، وسقطت في أيدي الإسبان سنة ٦٣٦ هـ. الروض المعطار (ص ٩٧).

(٥) الصادي: العطشان. مختار الصحاح (صدي).

(٦) الجُنَّةُ، بضم الجيم وفتح النون المشدّدة: السُتْرة وكلُّ ما وَقَى من سلاح. المُثَقَّفة: الرماح. المُلْدُ: الطريّة. محيط المحيط (جنن) و(ثقف) و(ملد).

ألا ليتَ شِعْرِي هل لها من مطَالعٍ   مَعادٌ إلى ما كان فيها من السَّعْدِ
وَهَلْ أذنَبَ الأبناءُ ذنبَ أبيهمُ   فصاروا إلى الإخْرَاج من جَنَّة الخُلْدِ

مرحبًا بالسُّحاءة[1]، وما أعارتْ أفقي من الإضاءة، وَرَدَتْ تَسْحَرُ النُّهى، وتَسْحَبُ ذيلاً على السُّها، وتَهُزُّ من المَسَرّة أعْطَافا، وتَرُدُّ من نجوم المَجَرَّة نطافا، عامتْ من الظلمة في مَوْجِها، ثم غلبتِ الشهبَ على أوْجِها، فقلبُ العقرب يَجِبُ، وسُهَيلٌ بدارِهِ يحتجِبُ، والطَّرْف غَضيض، وجَناحُ الطائر مَهِيض، وصاحبُ الأخبية[2] يقرض، والذابح[3] عن ذبيحته يُعْرض، ورامحُ[4] السماكين تَخُونه السلاح، وواقِعُ النَّسْرَيْن يَوَدُّ لو أنه[5] يُخْفيه الصباح، بلاغة تَفْتِنُ كلَّ لبيب، وتَرْعَى روضَ كلِّ أديب، وتغضُّ على رَغْم العدوِّ من حبيب، إنَّ من البيان لسحرًا، ويا أيها الجواد وَجَدْناك بَحْرًا، أدَرَيْتَ، أيّ بَرْيٍ بَرَيْت، وبأيّ قمرٍ اهْتَدَيْت، ليلةَ سَرَيْت، افْتتحْت بأبياتك الحسان، ونَظَمتها نظمَ الجُمَان، فعوذْتَ سَبْعَتَها بالسَّبْع[6]، وعَرَفْتُ منها بَرَاعة ذلك الطبع، ثم نَثَرْتُ على القرطاس[7] شذور النثور، بل من جواهر النحور، ما استوقف النُّظَّار، وبَهْرَجَ اللُّجَيْن والنُّضار، ورأيتك استمددْت ولك الباعُ الأمدّ، وأعَرْت محاسنك والعارية تُرَدّ، وجئت باللألاءة[8] تروق أربعتُها، وتخرسُ بها قعقعةُ الأشعار وَجَعْجَعَتُها، فأدَّتْ مِنْ حُسْنِها ما يسرّ، واجتمع لمَن روى القطعتين ما نظم فيها وهو الدُّرّ. وأجريت[9] خبر الحادثة التي مَحَقَتْ بَدْرَ التمام، وذَهَبَتْ بنضارةِ الأيام، فيا مَن حضر يوم البطشة، وعُزّي في أنسه بعد تلك الوحشة، أَحَقًّا أنه دُكّتِ

---

(١) السُّحاءة، بكسر السين: القرطاس. محيط المحيط (سحى).
(٢) سعد الأخبية أو سعد الخبايا هو أربعة كواكب. محيط المحيط (خبأ).
(٣) الذابح: كوكبان نَيِّران بينهما قيد ذراع في نحر أحدهما نجم صغير كأنه يذبحه لقربه منه، والمشهور في تسميته السعد الذابح. محيط المحيط (ذبح).
(٤) السِّماك الرامح: نجم يقدمه نجم مستطيل الشعاع يقولون هو رمحه. محيط المحيط (رمح).
(٥) في طبعة دار صادر: «يودُّ أن».
(٦) في طبعة دار صادر: «ستتها بالسبع». يريد «سبعتها» الأبيات السبعة التي وردت في أول رسالته. ويريد بـ «السبع» السَّبْع المثاني، وهي سورة الفاتحة لأنها سبع آيات ولأنها تثنّى في الصلاة.
(٧) في طبعة دار صادر: «من شذور المنثور...».
(٨) في طبعة دار صادر: «وجئت بالرائية».
(٩) من هنا حتى قوله: «لقد طال الأسى عليهم والأسف» في الروض المعطار (ص ٩٩) باختلاف يسير عمّا هنا.

الأرضُ، ونزف المَعِينُ والبَرْضُ[1]، وصَوَّح [2] روض المنى، وصَرَّح الخطب وما كنى؟ أَيِنْ لي كبِدٌ فَقَدْتَ رَجَاحةَ الأحلام، وعَقَدْتَ مَنَاحةَ الإسلام، وجاء اليوم [3] العَسِرُ، وأوقدْتَ نارَ الحزن فلا تزال تستعرُ؟ حلمٌ، ما نرى؟ بل ما رَأَى ذا حالم، طوفان يقال عنده لا عاصم، مَن يُنصِفنا [4] من الزمان الظالم؟ اللّه بما يلقى الفؤاد عالم. باللّه أيَّ نَحْوٍ تنحو، ومَسْطور تُثْبِتُ وتمحو [5]، وقد حذف الأصلي والزائد، وذهبَتِ الصِّلة والعائد، وبابُ التعجب طال، وحالُ البائس لا تخشى الانتقال، وذهبتْ علامة الرفع، وفُقِدَتْ سلامة الجمع، والمُعْتَلُّ أعدى الصحيح، والمثلَّثُ أردى الفصيح، وامتنعت العجمةُ من الصَّرْف، وأمنت زيادتُهَا من الحذف[6]. ومالت قواعدُ المِلّة، وصِرْنا إلى جمع القلّة، وللشِّركِ صيال وتَخَمُّط[7]، ولقرنه في شَرَكه تخبُّط، وقد عاد الدين إلى غُرْبته[8]، وشَرِق الإسلام بكربته، كأنْ لم يسمع [9] بنصر ابن نُصَير، وطَرْق طارق بكل خير، ونَهَشات حنش[10] وكيف أَعْيَت الرُّقَى، وأذالت[11] بليل السَّليم يومَ الملتقى، ولم تخبر عن المروانية وصوائفها، وفتى مَعَافِر[12] وتعفيره للأوثان[13] وطوائفها، للّه ذلك السلف، لقد طال الأسى عليهم والأسف[14]؟ وبقي الحَكَم العدل، والربُّ الذي قوله الفَصْل، وبيده الفضل، ربّنا أَمَرْتَ فَعَصينا، ونَهَيْتَ فما انتهينا وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا، أنت العليم بما أَعْلَنَّا وما أَخْفَيْنا، والمحيط بما لم نأتِ وما أتينا، لو أننا فيك أحببْنا وَقَلَيْنا، لم تُرِنا من الفُرْقة ما

---

(١) المعين: الماء الجاري. البَرْضُ: الماء القليل. لسان العرب (عين) و(برض).
(٢) صَوَّح النبات: يبس. لسان العرب (صوح).
(٣) في الروض المعطار: «الخَطْب العَسِير».
(٤) في الروض المعطار: «من منصفنا».
(٥) في المصدر نفسه: «أو تمحو».
(٦) يستعمل في هذه الجُمَل اصطلاحات النحو والصرف.
(٧) في الروض المعطار: «فللشِّرْك». والتَّخَمّط: التكبُّر. محيط المحيط (خمط).
(٨) في قوله: «عاد الدِّين إلى غربته» إشارة إلى الحديث: «بدىء الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا».
(٩) في الروض المعطار: «تسمع».
(١٠) يريد حنش الصنعاني الذي تقدّمت ترجمته.
(١١) في طبعة دار صادر: «وأدالت». وفي الروض المعطار: «وأبانت ليل السليم من نوم...».
(١٢) فتى معافر هو المنصور محمد بن أبي عامر، حاجب هشام المؤيّد، وقد تقدّمت ترجمته.
(١٣) في الروض المعطار: «الأوثان».
(١٤) هنا ينتهي نص الحميري في الروض المعطار.

رأينا، ولم تُسلِّط عدوَّك وعدونا علينا، لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جَنَيْنا، وأكرم من أن لا تهب حقوقك إلينا [١].

وأشَرْتَ أيها الأخ الكريم إلى استراحة إليّ، وتنسّم بما لديّ، لِتُبَرِّدَ ـ كما زعمت ـ حَرَّ نَفَس، وتقدحَ زناد قَبَس، وهيهات صَلَدَ الزندُ [٢]، وَذَوَى العَرَارُ والرَّند، وأقشع الشؤبوب، ورَكد ما كان يظنّ به الهُبُوب، فالقلم دَفينٌ لا يُحْشَرُ، ومَيِّتٌ لا يُنْشَرُ، والطبعُ قد نكص القَهْقَرى، وقَلَّ منزله أن يُدْعَى له النَّقَرَى [٣]، فها هو لا يملك مَبيتًا، ولا يجد لقلمه تثبيتًا، وأنت ـ أبقاك اللّه عَزَّ وجلَّ! ـ بمقتبل الآداب، طائر مَيْعة [٤] الشباب، وأين سِنّ السُّمُوّ من سِنّ الانحطاط، ووقتُ الكسل من وقت النشاط، وقد راجعتك لا داخلاً في حَلْبتك، بل قاضيًا حَقَّ رَغْبتك، واللّه تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقيًا، وبِجُنَّةِ الطاعة متوقّيًا، ولهناءِ الأنفس مستقبلا ومتلقيًا! بمنّه، والسلام، انتهى.

وكتب، رحمه اللّه، إلى سلطان [٥] إفريقية الوارث مُلْكَ بني عبد المؤمن بتلك النواحي، المستولي على البلدان والضواحي، وقد كان لأهل الأندلس أَمَلٌ في أخذه بثأرهم، وضَمّ انتشارهم، ما صورته: [الكامل]

شاقَهُ غِبَّ الخيالِ الواردِ ... بارقٌ هاجَ غرامَ الهاجِدِ [٦]
صَدَّقا وَعْدَ التلاقي ثم ما [٧] ... طَرَقا إلاَّ بِخُلْفِ الواعِدِ
وكِلاَ الزَّوْرَيْنِ [٨] من طَيْفٍ ومن ... وافِدٍ تحت الدياجي واردِ
لم يكُنْ بعد السُّرى مُسْتَمْتَعٌ ... فيه للرّائي ولا للرائِدِ
وشديدٌ بثُّ قلبٍ هائمٍ ... يشتكيه عِنْدَ رَبْعٍ هامِدِ
بالأمير المُرْتَضَى عَزَّ الهُدَى ... وثَنَى عِطْفَ المليّ الواجِدِ

---

(١) في طبعة دار صادر: «الدينا».
(٢) صَلَدَ الزَّنْدُ: صَوَّتَ ولم يُخرج نارًا، والزند هو رأس عود الكبريت. مختار الصحاح (صلد) و(زند).
(٣) النَّقَرَى: العيب، ودعوتهم النَّقَرَى: أي دعوةٌ خاصة. محيط المحيط (نقر).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «هيعة». ومَيْعَةُ الشباب: أوله. محيط المحيط (ميع).
(٥) سلطان إفريقية المَعني هنا هو أبو زكريا يحيىٰ بن عبد الواحد الحفصي؛ تغلب على الملك سنة ٦٢٥ هـ، وتوفي سنة ٦٤٧ هـ. فوات الوفيات (جـ ٤ ص ٢٩٣).
(٦) شاقه: هَيَّجَ شَوْقَهُ. الهاجد: النائم ليلاً. مختار الصحاح (شوق) و(هجد).
(٧) في طبعة عبد الحميد: «صِدْقُ وَعْدٍ للتلاقي. . .».
(٨) الزَّوْرُ: الزائر. مختار الصحاح (زور).

وبـه أصْـحَـبَ مـا كـان يُـرَى حـامـلاً أنْـفَ الأبـيِّ الـشـارِدِ
إنَّـمـا الـفَـخْـرُ لـمـولانـا أبِـي زكـرِيَّـاء بـن عـبـد الـواحِـدِ
مَـلِـكٌ لَـوْلاَ حُـلاهُ الـغُـرُّ لـم يَـجْرِ بـالـحَـمْـدِ لسانُ الحامِدِ
وَلَـوَ أنَّ الـعَـذْبَ أبْـدَى رغـبـةً عنهُ لـم يَـشْـفِ غـلـيـلَ الـوارِدِ
فضلُهُ مثلُ سَنَى الشمْسِ، وهَلْ لسَنَى الشمس يُرى مِنْ جاحِدِ
قَـهَـرَ الـبَـغْـيَ بِـجِـدّ صـادع مـا تَـعَـدَّاه وَجَـدّ صـاعِـدِ
إنَّـمـا آلُ أبـي حَـفْـصٍ هُـدى لـلـوَرَى من غـائـبٍ أو شـاهِـدِ
قَعَدُوا فوق النجوم الزُّهْرِ عن هِـمَـم نَـبَّـهْـنَ عَـزْمَ الـقـاعِـدِ
وعـن الإسـلام ذادُوا عـنـدمـا فَلَّ طولُ العَهْدِ غَرْبَ الذائد
أيُّ فـخـرٍ عُـمَـرِيٍّ الْـمُـنْـتَـمَـى وَرِثـوه مـاجِـدًا عـن مـاجِـدِ
مـا الْـفُـتُـوحُ الـغُـرُّ إلاَّ لَـهُـمُ بـيـن مـاضٍ بـادئٍ أو عـائـدِ
فـي مُـحَـيًّـا لاحـقٍ مـن سـابـق وعـلـى الـمـولـود سِـيْـمَـا الـوالِـدِ
ولـيَـحـيـىٰ راجحُ الـحِـلـمِ الـذي تَـرَكَ الـطَّـوْدَ بِـعِـطْـفـي مـائِـدِ
عِـقْـدُ أحـسـابِـهِـمْ تـمّ بـه مِـثْـلُ مـا تـمَّ حـسـابُ الـعـاقـدِ
أيّـهـا الـجـامعُ مـا قـد أحْـرَزُوا جَـمْـعَ مَـنْ هِـمَّـتُـه فـي الـزائـدِ
هـذه الأمـة قـد أوسَـعْـتَـهَـا نـظـرًا يـكـلأ[1] لـيـلَ الـراقـدِ
لـم تَـزَلْ مـنـك بـخـيْـرٍ طـارفٍ رِيـشُـهُ تـالٍ قُـدَامَـىٰ تـالـدِ
ولـهُـمْ مـنـك لـيـوم حـاضـرٍ وغَـدٍ رأيُ الـبـصـيـر الـنـاقـدِ
أَرْشَـدَ الـلَّـهُ لأَولـى نـظـر بـالـوَرَى رأيَ الإمـام الـراشـدِ
وتـولاَّهُ بـتـوفـيـق الألـىٰ سَـعِـدُوا مـن عـاقـدٍ أو عـاهـدِ
ولـه فـي الـلَّـه أوفـى كـافِـل بـالـذي يـبـقـى وأكـفـى عـاضِـدِ

نَصَر اللَّه تعالى مولانا وأيَّده، وشَدَّ ملكه وشيّده، وأبقى للفضل أيّامَه، وللفصل أحكامه! وأظفر بأعناق الأشقياء حُسَامه! ووفَّرَ من اتّساق النعم والآلاء حظوظه وأقسامه! والحمد للَّه ثم الحمد للَّه على أنْ جعل به حَرَم الأمة آمنًا، ووَهجَ الفتنة ساكنًا، وأبواب الصلة والمعروف لا تَعْرِفُ إلاّ واصلاً أو آذنًا، وتَلاَفَى فلَّ الإسلام منه بِفَـيْـآته التي منها

(١) يَكْلأ: يرعى ويحفظ. لسان العرب (كلأ).

ينتظرون الكَرّ، وبها يُوعَدون الفتح الأعزّ والنصر الأغرّ! فهم بين جِدّةٍ قبضوها، وعِدَةٍ رضوها، وارتقاب للفتح أكبر هِمَمهم منه دَرْكُ الثأر، وانتصافٌ لأهل الجنّة من أهل النار، فأمّا الأوطان فقد أسْلَتْهم عنها جهة تُنبِتُ العِزّ فيما تنبته، وتنفي من الضيم ما تلك تثبته، وما ذكر الساخط، على المحل الساقط، منازلَ عادت على مبانيها أطلالاً، ومغانيها أمْحالاً، وللعبد حالٌ يستقبل بها من النظر الكريم ـ أدامه اللّه تعالى! ـ ما أَعْيُنُ الآمال إليه صُورٌ[١]، ورجاء الجميعِ عليه مقصورٌ، انتهى.

والغاية في هذا الباب ما كتب به ـ رحمه اللّه! ـ من جملة كتاب لبعض ذوي الألباب، ونَصُّ محل الحاجة منه: نخصُّ الجهةَ البعيدة الصِّيْتِ والاسم، الشهيرة العمل والعلم، دُرّة تاجنا، وضَوْء سراجنا، ونكتة احتجاجنا، أبقاها اللّه تعالى في أعيننا مَنَارًا، ولأندلسنا فخارًا، على أنه وإنْ بقيت المَفَاخر، فقد أودى المُفَاخِر، وإنْ أضاء الطالع، فقد دَجَت[٢] المَطَالع، وغلب عليها عُدَاةٌ زَوَوْا عنها وجوهَنَا، وأَرَوْا فيها مكروهنا، حتى إني أَتيتُ بشعر فيه استسقاء للديار، على عادة الأشعار، فقلت: [الكامل]

زِدْنَا على النائينَ عن أوطانهمْ ... وإنِ اشْتَرَكْنَا في الصَّبابة والْجَوَى
إنّا وجَدْنَاهُمْ قد استَسْقَوْا لها ... مِنْ بَعْدِ أنْ شَطَّتْ[٣] بهم عَنها النّوى
ويَصُدّنا عن ذاك في أوطاننا ... مَعَ حُبِّها الشِّرْكُ الذي فيها ثَوَى[٤]
حَسْناءُ طاعتُها استقامَتْ بَعْدَنا ... لِعَدُوِّنا، أفيستقيمُ لها الهوى

انتهى[٥].

قلت: ما رأيتُ ولا سَمِعْتُ مثل هذه الأبيات في معناها، العالية في مبناها، فإنّ فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى ـ دَمَّرَهُم اللّه! ـ على تلك الديار، وثبوت قَدَمهم فيها على طِبْق ما حصل لهم فيه اختيار، مع إدماج حُبّه لها الذي لا يُشَكُّ فيه ولا يُرْتاب، واشتمالها

---

(١) الأعين الصُّورُ: المائلة؛ مفردها صَوْراءُ وأَصْوَرُ؛ يقال رجل أَصْوَرُ وامرأة صَوْراء، أي إن الواحد منهما مائل العُنُق، أو مائل مشتاق. لسان العرب (صور).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «دَرَجَت».
(٣) شَطَّتْ: بعدت. لسان العرب (شطط).
(٤) ثَوَى بالمكان: أقام فيه. لسان العرب (ثوى).
(٥) كلمة «انتهى» ساقطة في طبعة عبد الحميد.

على المحاسن التي هي بُغْيَةُ الرائدِ ونُجْعَةُ المنتاب، ولكل أجل كتاب، وإذا نفذ سهم المقدور فلا عتاب.

ومما يستولي على الخواطر، ويروي رياضَ الأفكار بسحُبِ بلاغته المَوَاطر، قولُه - رحمه اللّه تعالى! - يخاطب أبا الحسن الرُّعَيني[1] سنة (٦٣٤): [الكامل]

يا صاحبي والدهرُ - لولا كَرَّةٌ ... منهُ على حفظ الذِّمام - ذَمِيْمُ
أَمُنَازِعي أنتَ الحديثَ؟ فإنه ... ما فيه لا لَغْوٌ ولا تأثيمُ
ومُرَوَّضٌ مَرْعَى مُنَايَ فنَبْتُهُ ... مِنْ طولِ إخلافِ الغُيُومِ هَشيمُ
طال اعتبارِي بالزمَانِ، وإنما ... داءُ الزمانِ كما عَلِمْتَ قَديمُ
مَجْفُوُّ حظٌّ لا يُنادَى ثم لا ... يَنْفَكُّ عنه الحذفُ والترخيمُ
وأرى إمالَتَه تدومُ وقَصْرَه ... فعلامَ يُلْغَى المَدُّ والتفخيمُ
وعلامَ أَدْعُو والجوابُ كأنما ... فيه بنصّ قد أتى التحريمُ
لم أَلْقَ إلاَّ مُقْعِدًا، غَيْرَ الأسى ... فَلَدَيَّ منه مُقْعِدٌ ومُقيمُ
وشرابيَ الهَمُّ المُعَتَّقُ خالصًا ... فَمَتَى يُساعدني عليه نديمُ
غاراتُ أيامِ عليَّ خوارجٌ ... قَعَدِيُّهَا في طبعه التحكيمُ[2]
ولَوَاعِجٌ يحتاجُ صالي حَرِّها ... أَمْرًا به قد خُصَّ إبراهيمُ
ولقد أقولُ لصاحبٍ هو بالذي ... أَدْرَكْتُ من علمِ الزمانِ عليمُ
لا يأسَ من رَوْحِ الإلهِ وإنْ قَسَتْ ... يومًا قلوبُ الخلقِ فهْوَ رحيمُ

ويهزّني، ويستفزّني، ما كتبه - رحمه اللّه تعالى! - من رسالة: كتبته إلى سيدي وهو السيد حقيقة، وأخي وقد كتب الدهرُ بذلك وَثيقة، أبقى اللّه تعالى جلاله محروسًا، ورَبْع وفائه لا يَخْشَى دُروسًا، مِن رِباط الفتح وأنا بحقه عليم، وعلى عهده مُقيم، وشأني توقير له

---

(١) هو علي بن محمد بن علي ابن الفخار الرعيني، من إشبيلية، ولد بها سنة ٥٩٢ هـ وتوفي بمراكش سنة ٦٦٦ هـ. الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٣٢٣). وأبياته هذه في المصدر المذكور (ص ٣٦٣ - ٣٦٤).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «جوارح». والقَعَدِيُّ، بفتح القاف والعين، وكسر الدال وتشديد الياء: مَن يرى رأي القَعَد، والقَعَدُ هم الخوارج، واحدهم قاعد. محيط المحيط (قعد). وهذا من قول أبي نواس: [الخفيف]

فكأنّي وما أُزَيِّنُ منها ... قَعَدِيٌّ يُزَيِّنُ التَّحْكيما

ديوان أبي نواس (ص ٢٩).

وتعظيم، وحبّ فيه خالص كريم، ووَصَلني خطابه الخطير المبرور، فكنت به كالصائمِ رَأى الهلال، والهائم عاينَ ماءَ الزُّلال، عِلْقٌ ليس يوازيه عِلْقٌ، وسحرٌ لكنه حَلالٌ طِلْقٌ[1]، ونظم لذكر الطائي[2] طاوٍ، وصنعةٌ لم يَرَها راءٍ ولا راوٍ، رَمَتِ ابنَ الرومي بالخمول، وبَشَرتِ[3] اسمَ بَشار من الفحول، وحكمتْ بأن النَّمِريّ[4] في نَمِرَةِ الهَوَانِ مُدْرَجٌ، والسَّرِيَّ[5] عن سَرَاوة الإحسان مُخرَجٌ. فأمّا النثر فصهيلٌ لا يجاوبه الرُّغاء، وطِراز لا يُحْسِنُهُ البُلَغاء، ونَقْدٌ تَزِيفُ معه النقود، ومَدًى تنقطع دونه الضُّمَّرُ القُوْد، غادر[6] الصابئ[7] وصَبَاهُ غَيْرُ ذاتِ هبوب، والصاحبَ[8] وهو من العجز مع شر مصحوب، والميكاليّ[9] وميكالُه مرفوض، والحريريّ[10] وحريرُهُ في سوق الكَسَاد معروض، فأما بحر رئيس أرَّجان[11]، فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان، وأبقاه في ضَحْضاح، بل تركه يمشي بأذرح ضاح، فمَن ذا يُجَاري فارسَ الصَّفَّيْن وإمام الصنفين؟ أبلغ مَنْ خَطَّ بقلم، وأشهر من نار على عَلَم، وماذا يقال في أنامل تطرز بها الصحفُ، وخَمَائل تفخر بها الروضة الأُنُفُ، واسم في شرق البلاد

---

(١) الطِّلْقُ: الحلال المطلق. محيط المحيط (طلق).

(٢) أراد بالطائي أبا تمام حبيب بن أوس الطائي، وقد تقدمت ترجمته.

(٣) بَشَرَتْهُ: سُرَّت به واستبشرت. محيط المحيط (بشر).

(٤) هو منصور بن سلمة بن الزِّبرقان النَّمِريّ، نسبة إلى قبيلة النَّمِر بن قاسط؛ كان من أهل الجزيرة، وقَدِمَ بغداد ومدح بها هارون الرشيد وصار مقدّمًا عنده. تاريخ بغداد (جـ ١٣ ص ٦٥) والأغاني (جـ ١٣ ص ١٥٧) والشعر والشعراء (ص ٧٣٦).

(٥) هو السريّ الرفّاء الموصلي، أحد شعراء سيف الدولة الحمداني، وقد تقدّمت ترجمته.

(٦) في طبعة عبد الحميد: «وغادر».

(٧) هو أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابي أو الصابئ، صاحب الرسائل المشهورة. وقد تقدمت ترجمته.

(٨) هو الوزير أبو القاسم إسماعيل بن عباد، المعروف بالصاحب بن عباد، أديب وكاتب، توفي سنة ٣٨٥ هـ. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٢٢٨) ويتيمة الدهر (جـ ٣ ص ١٨٨) وبغية الوعاة (ص ١٩٦).

(٩) هو أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي، الكاتب الشاعر، المتوفّى سنة ٤٣٦ هـ. فوات الوفيات (جـ ٢ ص ٤٢٨).

(١٠) هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري، صاحب المقامات، وأحد أئمة عصره في الأدب واللغة، توفي بالبصرة سنة ٥١٦ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٦٣) وبغية الوعاة (ص ٣٧٨).

(١١) أرّجان: مدينة كبيرة تبعد عن شيراز ستّين فرسخًا. معجم البلدان (جـ ١ ص ١٤٢). ورئيس أرّجان هو أبو الفضل محمد بن العميد الحسين، المعروف بابن العميد، أحد أئمة الكتابة، ويُضرَب به المثل في البلاغة؛ قصده إلى أرجان جماعة من مشاهير الشعراء، كالمتنبي، ومدحوه. توفي سنة ٣٦٠ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ١٠٣) ومعاهد التنصيص (جـ ٢ ص ١١٥).

وغربها ظاهر، ووَسْمٌ بالكتابة والنجابة لم يكن لبني وَهْب وآل طاهر، فالزمان يأثِر، ما ينثر، ويعظِّم، ما ينظِم، ولو أن الأزمنة قبله غمرت[1] المحاضر بكل ناجم، ونشرت المقابرَ عن الصَّنَوْبَري وكُشَاجم، وجاءت بالكُتّاب من كل جيل، والشعراءِ رَعِيلاً بعد رَعيل، لطال هذا العصر بواحده آلافَهَا، وأنسى بخَلَفه أسلافَهَا، انتهى.

وكتب ـ رحمه اللّه تعالى! ـ إلى صاحبين له في معنى ما أَلْمَعْنا به آنفًا، ما صورته:

[مخلع البسيط]

تـحـيّـةٌ مـنـكـمـا أتـتـنِـي ... طابتْ كما طابَ مُرْسِلاها
ويـا لَـهَـا أذْكَـرَتْ عـهـودًا ... قـلـبـيَ والـلَّـه مـا سَلاَهَـا
حَـلَـلْـتُـمـا فـي الـبـلادِ أرْضًـا ... رِيْحُ صَبَاها عـنـي سَلاها
لم يَصْبُ قلبي إلى سواها ... يومًا ولم يَسْلُ عن سلاها

كتابي أيها الأخَوَان اللذان بودِّهما أقول، وعن عهدهما لا أحول، أنزلكما اللّه تعالى خير منزل! وجعلكما من النوائب والشوائب بمَعْزِل! من رباط الفتح ولُبِّي قديمًا ملكتما رِقَّهُ، وقلبي تَعَلُّمًا وتعليمًا عَرَفْتُما صِدْقَهُ، كيف حالكما من سَفَرٍ طَوَيْتما خَبَرَهُ، حين تَجَشَّمْتُما غرَرَهُ؟ وكيف سمحت[2] نفوسكما بأُمِّ الحصون، وذات الظلال والعيون؟ تربةُ الآباء، ومنزلةُ الجُمَحيِّينَ النُّجَبَاء، حتى صَرَمْتُما حَبْلَها، وَهَجَرْتُما حَزْنَهَا وسَهْلها، وخُضْتُما غُبْرَ الفِجَاج، وخُضْرَ الأمواج؟ وما[3] ذاك إلاَّ لِتَغَلُّبِ الحادثِ النُّكْرِ، وتألُّب المَعْشَر الغُدُرِ، ومن أجل الداهية النكاد[4]، والحادثة الشنيعة على البلاد، أزعَجتكم حين أزعجتْنا، وأَخرجتْكم كما أخرجتْنا، وطَوَّحَتْ بنا طوائحُها، واجتاحتْ ثَمَرَنا وشَجَرَنا جوائحُها، فشكرًا للّه تعالى على قضائه، وتضرّعًا فيما نرفعه من دعائه، وهنيئًا لنا ولكم معشر الشُّرَداء، المنطوين من الشجن على شَرِّ داء، ذلك الطَّوْدُ الذي إليه أوَيْتُما، وفي ظِلِّه ثَوَيْتُما، وعن رأيه تَرَيان، وبِسَعْيِهِ تَسْعَيَان، فَوَجْهُهُ المباركُ لا يعدم رأيه نجحًا، ولا يعدو لصبحه إذا دجا ليلُ الهمِّ صبحًا، انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر: «عمرت».

(٢) في طبعة دار صادر: «سَخَتْ».

(٣) في طبعة دار صادر: «ما ذاك».

(٤) لم أعثر في كتب اللغة على هذه الصفة؛ ويقال: رجل نَكِدٌ ونَكَدٌ ونَكْدٌ، أي مشؤوم عَسِرٌ قليل الخير، والجمع أنكاد. ويقال أيضًا: رجل نآدٌ وهو الداهية. محيط المحيط (نكد) و(نأد).

وكان أبو المطرّف بن عُمَيرة المذكور كما قال فيه بعض علماء المغرب: قدوة البُلغاء، وعمدة العلماء، وصدْر الجِلّة الفضلاء، وهو أحمد بن عبد اللّه بن عُمَيرة المخزومي؛ ونكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها، وشَمْسُها التي أخفتْ ثواقب كواكبها حين أبدعها، مبدعُ البدائعِ التي لم يَحْظَ بها قبله إنسان، ولا ينطق عن تلاوتها لسان؛ إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة، ورويَّة بدُرَر العلم فصيحة، ذلّلت له صعبَ الكلام، وصَدَّقت رؤياه حين وَضَعَ سيدُ المرسلين، ﷺ، وهو الذي أُوتي جوامع الكَلِم في يديه الأقلام، وأصْلُ سَلَفِهِ من جزيرة شُقْر، وولد بمدينة بَلَنْسِية، وروى عن أبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع بن سالم وابن نوح والشلوبيني[١] النحوي وابن عات وابن حَوْط اللّه، وغيرهم من الحُفّاظ، وأجازه من أهل المشرق جماعة، وكان شديدَ العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث، وأخذه عن مشايخ أهله، ثم تفنّن في العلوم، ونظر في المعقولات وأصول الفقه، ومال إلى الأدب، فبرع براعة عُدَّ فيها من مُجيدي النظم، فأمّا الكتابة فهو فارسُها الذي لا يُجَارى، وصاحبُ عَيْنها الذي لا يُبَارى، وله وعظ على طريقة ابن الجَوْزي، ورسائل خاطب بها الملوك وغيرهم من الموحِّدين والحَفْصِيين، وله تأليف في كائنة مَيُورقة وتغلُّبِ الرومِ عليها[٢]، نحا في الخبر عنها منحى الإمام الأصبهاني في الفتح القدسي، وله كتاب تَعَقَّبَ فيه على الفخر الرازي في كتاب «المعالم» وله كتاب رَدَّ به على كمال الدين الأنصاري في كتابه المسمّى «بالتبيان»، في علم البيان، المطّلع على «إعجاز القرآن» وسمّاه «بالتنبيهات، على ما في التبيان[٣] من التمويهات»، وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة[٤]، وغير ذلك.

وَرَدَ ـ رحمه اللّه! ـ حضرةَ الإمامة مَرّاكُشَ صحبة أمير المؤمنين الرشيد حين قُفُوله من مدينة سَلاَ، واستكتبه مدّة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة، وقلّده قضاء هيلانة، ثم نقله إلى قضاء سلا، ثم نقله السعيدُ إلى قضاء مِكْناسة الزيتون، ثم قصد سَبْتة، وأخذ ماله في قافلة

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «والشلوبين». وقد تقدّمت ترجمة الشلوبيني.

(٢) تغلّب الإسبان على ميورقة سنة ٦٢٦ هـ، وقد تقدّم ذلك عند الحديث عن ميورقة.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «البيان».

(٤) هو عبد الملك بن محمد ابن صاحب الصلاة؛ أصله من باجة، وقد نعم بمركز مرموق في البلاط الموحدي. توفي سنة ٥٧٨ هـ. وتاريخه المذكور هنا هو «تأريخ المَنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم اللّه أئمة وجعلهم الوارثين». انظر ترجمته في مقدمة المصدر المذكور بقلم المحقّق الدكتور عبد الهادي التازي.

بني مَرين، ثم توجَّه إلى بلاد إفريقية، ووصف حالَه في رسالة خاطب بها ابنَ السلطان أبا زكريا الحَفْصِي، وهو أبو زكريا ابن السلطان أبي زكريا، وكان صاحب بجاية لأبيه، ولم يزل - رحمه اللّه! - مذ فارق الأندلس متطلّعًا لسكنى إفريقية، معمور القلب بسكناها، ولمّا قَدِمَ تونس مال إلى صُحْبة الصالحين والزُّهّاد وأهل الخير بُرْهَة من الزمان، ثم استُقْضِي بالأربس[1] من إفريقية، ثم بقابس مدّة طويلة، ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر باللّه الحَفْصي، وأحضره مجالسَ أنسه، وداخله مداخلة شديدة، حتى تغلّب على أكثر أمره.

ومولده بجزائر شُقر في شهر رمضان المعظم سنة ٥٨٠، وتوفي ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذي الحجة سنة ٦٥٨، ألحفه اللّه رضوانه، وجدّد عليه غفرانه!.

قال ابن الأبار في «تحفة القادم»[2] في حق أبي المطرف المذكور: فائدة هذه المائة، والواحدُ يَفي بالفئة، الذي اعترف باتحاده الجميع، واتصف بالإبداع فماذا يتّصف به البديع[3]، ومعاذ اللّه أن أُحَابيه بالتقديم، لِمَا له من حقّ التعليم، كيف وسَبْقُهُ الأشهر، ونُطْقُهُ الياقوتُ والجوهر، تَحَلَّتْ به الصحائفُ والمَهَارق[4]، وما تَخَلَّتْ عنه المغارب والمشارق، فحسبي أن أجهد في أوصافه، ثم أشهد بعدم إنصافه، هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره، وتناوب المنثور والمنظوم على شكره، ثم أورد له جملة منها قوله[5]: [الكامل]

وأجَلْتُ فِكري في وِشَاحك فانثَنَى ... شَوْقًا إليك يَجُولُ في جَوَّالِ
أنصَفْتَ غُصْنَ البانِ إذ لم تَدَعْهُ ... لتأوُّدٍ مَعَ عِطْفك المَيّالِ
ورَحِمْتَ دُرَّ العِقْدِ حين وضعْتَهُ ... متواريًا عن ثَغْرِك المتلالي

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «بالأريس» بالياء. وأُرْبُس، بضم الهمزة والباء وسكون الراء: مدينة وكورة بإفريقية، أكثر غلّتها الزعفران. معجم البلدان (جـ ١ ص ١٣٦).

(٢) انظر المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٩٧ وما بعدها).

(٣) هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني، المعروف ببديع الزمان، صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة. وعلى منوالها نسج الحريري مقاماته. توفي سنة ٣٩٨ هـ. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٢٧).
والنص الذي يورده هنا المقري نقلاً عن ابن الأبار لم يرد في المقتضب من كتاب تحفة القادم.

(٤) المهارق: جمع مُهْرَق وهو الصحيفة، فارسي معرّب. مختار الصحاح (هرق).

(٥) لم يرد من هذه الأبيات في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٩٧) سوى البيت الأول، وقد ورد في المقتضب ضمن ستة أبيات.

كيفَ اللقاء وفِعْلُ وَغدِك سِيئةٌ أبدًا تُخلِصُه للاستقبال[١]
وكماةُ قَوْمِكَ نارُهُمْ ووقيدُهَا للطارِقِين أسِنَّةٌ وعَوَالي

وله مما يكتب على قوس قوله[٢]: [الكامل]

ما آنآد مُعْتَقَلُ القَنَا إلاّ لأنْ يَحْكِي تأطُّرَ[٣] قامتي العَوْجَاءِ
تَحْنُو الضلوعُ على القلوبِ وإنَّني ضِلَعٌ ثوى[٤] فيها بأعْضَل داءِ

وله وقد أهدى وَرْدًا: [البسيط]

خُذها إلَيكَ أبا عَبْدِ الإله فَقَدْ جاءَتْكَ مثلَ خدودٍ زَانَهَا الخَفَرُ
أتَتْكَ تحكي سَجَايا مِنْكَ قد عَذُبَتْ لكنْ تغيُّرُ هذا دونه الغِيَرُ[٥]
إنْ شِمْتَ منها بُرُوْقَ الغَيْثِ لامعةً فسَوْف يأتيكَ من ماءٍ لها مَطَرُ

قال[٦]: وكتب إليَّ مع تحفة أهداها مكافئًا عن مثلها: [الكامل]

يا واحدَ الأدب الذي قد زَانَهُ بمناقبٍ جَعَلَتْهُ فارسَ مَنْصِبِهْ[٧]
بالفَضْل في الهِبَةِ ابتدأتَ فإنْ تُعِزْ طَرْفَ القَبولِ لِمَا وَهَبْتُ خَتَمْتَ بِهْ

قال[٨]: وله ارتجالاً بقصر الإمارة من بَلَنْسِيَة وأنا حاضر في صبيحة بعض الجمع، وقد حُجم صاحبٌ لنا من أهل النظم والنثر، وأحسن إلى الحجّام المخصوص[٩]: [الوافر]

أرى مَنْ جاء بالمُوسَى[١٠] مُوَاسَى ورَاحَةَ ذي القريض تعودُ صِفْرَا

---

(١) يقول: إن محبوبته دائمًا تُسَوِّفُهُ وتمطله وتقول له مرة بعد مرة: سوف ألقاك.
(٢) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٢٠٠).
(٣) تأطُّرُ قامتي: اعوجاجها؛ يقال: تأطّرَ الشيءُ إذا تعطّف واعوجَّ وانثنى، محيط المحيط (أطر).
(٤) في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٢٠٠): «توافيها» بدل «ثوى فيها».
(٥) عجز البيت في المقتضب هو «لكنْ تَغَيُّرُ هذه دونها الغِيَرُ».
(٦) القول هنا لابن الأبار حسبما يشير إلى ذلك المقري، ولكن البيتين لم يردا في كتاب «المقتضب».
(٧) في طبعة دار صادر: «مقنبة».
(٨) القول هنا لابن الأبار حسبما يشير إلى ذلك المقري، ولكن البيتين لم يَردا في كتاب «المقتضب» وسيردان في الجزء الخامس من نفح الطيب باختلاف كبير عمّا هنا.
(٩) في طبعة عبد الحميد: «بالخصوص» وسيرد هذان البيتان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(١٠) المُوسَى: آلة من حديد يُحْلَقُ بها. محيط المحيط (موس).

فهـذا مُـخْـفِـقٌ إن قَصَّ شِـعْـرًا وهـذا مُـنْـجِـحٌ إنْ قَصَّ شَعْـرًا[1]

ولـــه أيضًا[2]: [الكامل]

هو ما عَلِمْتَ من الأمير، فما الَّذي تـزدادُ مـنـه وفـيـه لا يُـرْتـابُ
لا تـتـقـي الأجـنـادُ فـي أيامـه فَقْرًا، ولا يَرْجُو الغِنى الكُتَّابُ

وله بعد انفصاله من بلنسية عن وَحْشة في ذي القعدة سنة (٦٢٨) [3] : [الطويل]

أسـيـرُ بـأرجـاءِ الـرَّجـاء، وإنـمـا حـديـثُ طـريـقـي طـارقُ الـحَـدَثَـانِ
وأُخضِرُ نَفْسِي إنْ تقدَّمْتُ خِيْفَةً لـغَـضِّ عِـنـانٍ أو لـعـضِّ زَمَـانِ
أيترك حظي للحَضِيض وقد سَرَى لإمـكـانـه فـوق الـذرَا جَـبَـلانِ
وأَخْبِطُ في ليل الحوادث بعد ما أضـاء لِـعَـيْـنِـي منـهـمـا الـقَـمَـرانِ
فـيَـخْـيـىٰ لآمـالـي حَـيَـاة مُـعَـادة وإنَّ عَـزيـزًا عـزةٌ لـمـكـانـي
وقالوا: اقْتَرِحْ إنَّ الأمانيَّ منهما وإنْ كُنَّ فوق النجم تحت ضَمَان
فـقـلـت: إذا نـاجـاهُـمَـا بـقَـضِـيَّـتي ضـميريَ لـم أحفِلْ بشَرْحِ لساني

ولـــه أيـضًا[4]: [الكامل]

سَلَبَ الكَرَى من مُقْلَتَيَّ فلم يجىء مـنـه عـلـى نـأيٍ خَـيَـالٌ يـطـرقُ
أهـفُـو ارتـيـاحًـا لـلـنـسـيـم إذا سَرَى إنَّ الـغَـريـقَ بـمـا يـرى يـتـعـلَّـقُ

انتهى ما تلخص[5] من «تحفة القادم» في ذكر ابن عميرة أبي المطرف.

ومما كتب أبو المطرف ـ رحمه اللَّه! ـ وفي أثنائه إشارة إلى الكُفَّار الغالبين على بلاد الأندلس، ما نَصُّه: [الطويل]

ألاَ إنَّ شَخْصَيْنا على القَطْع واحد وجاحِدُ هـذا لـلـضـرورة جـاحـدُ
فإن لم تُصَدِّقْ ما نَطَقْتُ بصدقه فـإنـك لـي لاحٍ ولـلـودُّ لاحـدُ

(١) في طبعة عبد الحميد: «صِفْرا» بدل «شَعْرا».
(٢) هذان البيتان لم يردا في المقتضب من كتاب تحفة القادم.
(٣) كذلك لم ترد هذه الأبيات في المقتضب.
(٤) لم يرد هذان البيتان في المقتضب.
(٥) في طبعة دار صادر: «ما لُخِّصَ».

ومعاذ اللّه، عَزَّ وجلّ، أن تلحاني، أو تمنع أنْفَكَ ريحَ رَيْحَاني، وكيف تصدّ عنّي بوجهك، أو تشحذ لي غَرْبَ نَجْهِك[1]، وأنا على غَيْبِك أمين، ولشمالك يمين، ولكم دَعَوْتَ بي فأجبْتُ، واستغنَيْتَ عني فحجبت، وأردت الاستبداد فما استطعت، ونَعَتَّ الودادَ فما أحسنْت النعت، وإنما تُحْمَدُ فَرَاهة الأعوجيِّ[2] إن جَرَى، وتُذْكَرُ فضيلةُ ابن السُّري إذا سَرَى، فأما الاقتصار على عَظْم باد، والانتظار لعَيْنٍ عَدِمَتِ السواد، فخطأ من القائل، وخطل عند العاقل، وللّه دَرُّ أخيك من مغمض طرف التطرّف، قارىء أدب الصحبة على السبعة الأحرف، كَرَعَ[3] في أعزّ مَوْرِد، وتواضع في شَرَف مَوْلد، وسَمَا بنفسه عن أن يستخفّه نسب يرفعه، وحسب ما مِنّا أحد يدفعه، وكذلك الكرام يَرَوْنَ عليهم حَقّا، ويَتَوَقَّوْنَ مَن لم يكن من الكبر مُوَقّى، ولَعَهْدي به وظِلُّ الثروة بارد، وشيطان الشبية مارد، وبشره في الملمّات يرفُّ، وقدمه إلى الحاجات تَخِفُّ، يصون عِرْضَه بماله، ويُخْفي صَدَقَة يمينه عن شماله، ويُقَسِّمُ جسمه في جُسوم[4]، ويقوم بالحقوق غير مَلول ولا ملوم، تلك المكارم لا قَعْبانِ[5]، وما تستوي البَدَنة الـمَهِيضة[6] مع غيرها في القُرْبان، وعرضت بذكر العصر الخالي، والقصر العالي، وظل من فنن وَرِيْق، وعيش مع أكرم فريق، وما تذكر من زمن تولّى، وعهد على أن لا يعود تألّى[7]، فارقناه أحسن ما كان، وودَّعنا به الأطيبين الزمانَ والمكان، فَعَفَتِ الرسومُ، وأفَلَتْ تلك النجومُ، ورَمَتْنا عن قوسها الروم، ثم خلفتنا في

---

(١) النَّجْهُ: الردع؛ يقال: نجهه إذا ردّه عن حاجته. محيط المحيط (نجه).

(٢) الأعوجيّ: نسبة إلى أعوج وهو فرس لبني هلال ليس في العرب أشهر وأكثر نسلاً منه. محيط المحيط (عوج).

(٣) كرع في الماء: تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفّيه ولا بإناء. مختار الصحاح (كرع).

(٤) أخذ هذا المعنى من قول عُرْوة بن الورد: [الطويل]

أُقَسِّمُ جِسْمي في جُسُومٍ كثيرةٍ   وأَحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ بارِدُ

يقول: أُقَسِّمُ ما أريد أن أُطعمه في مَحاويج قومي ومَن يلزمني حقه والضّيفان، وأحسو الماء الذي لا يخالطه لبن ولا غيره. ديوانا عروة بن الورد والسموأل وديوان حاتم الطائي (ص ٢٩).

(٥) أخذه من قول أمية بن أبي الصَّلْت من قصيدة قالها في سيف بن ذي يزن: [البسيط]

تلك المكارِمُ لا قَعْبانِ مِنْ لَبَنٍ   شِيبَا بماءٍ فعادَا بَعْدُ أَبْوالا

الشعر والشعراء (ص ٣٧٢).

(٦) البَدَنَةُ من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تُهْدَى إلى مكّة فَتُنْحَر بها. الـمَهِيضَةُ: المكسورة بعد الجبور. محيط المحيط (بدن) و(هيض).

(٧) تألّى: أقْسَمَ. محيط المحيط (ألا).

لمغاني، وقسمتنا بين الأسير والعاني، فأودى القُلُّ والكُثرُ، واشتفى من الإسلام الكُفرُ، نكم كأس أنس أرَقْناه، ومنزلٍ فرقَةَ الأبد فارقناه، وذكرت اجتيازك بين العَلَمين، وقطعك متن اليَمّ في يومين، وأنّك انتقلت من ذوات الألواح، إلى عَذَبَات الأدواح، ومن متهافت الشّراع، إلى منابت اليَرَاع، ومن سكنى بيت السكّان، إلى منزل به الفلاح والملاح يشتركان، حيث اجتمع الضّبُّ والنون[1]، وأينع التين والزيتون، وظُلّلَتِ الساحاتُ، وذُلّلَتِ الثِمارُ المباحات، فلا تُشْرِقنا يا أُصَيْل، ولأمِّ تلك الأرضِ الوَيْل، انتهى.

ووصل هذا الكلام بالأبيات التي تقدّمت قريبًا، وهي قوله «زِدْنا على النائين عن أوطانهم إلخ».

وكتب رحمه الله عن أهل شاطِبَةَ[2] أيام كان قاضيًا بها، مُهَنّئًا أمير المسلمين ابنَ هُود المستولي على الأندلس آخر دولة الموحّدين بوصول الكتاب العباسي الكريم إليه من بغداد بولاية الأندلس، إذ كان ابنُ هودٍ حين ثار على الموحدين يدعو إلى الخليفة العباسي الذي كان أكثرُ الملوك في ذلك الزمان يَدِينون بطاعته، بما نَصُّهُ بعد الصدر:

أمّا بَعْدُ، فكتَبَ العبيدُ ـ كتب الله تعالى إلى المقام العلي المجاهدي المتوكلي سعادة لا تبلغ أَمَدًا إلاّ تَخَطَّتْهُ! ويَدًا عُلُوُّها أثْبَتَتْهُ أيدي الأقدار وخَطَّتْهُ ـ من شاطبة وبركاتُ الأمر المجاهديّ المتوكلي، والعهد الواثقي المعتصمي، تنسكب كالمطر، وتنسحب على البشر، وتقضي بعادة النصر والظفر، وسعادة الوِرْد والصَّدَر، والحمد لله، وعند العبيد من أداء فروض الْخِدَم، والقيام بحقوق النِّعَم، ما عُقِدَتْ عليه ضمائرُهُمْ، وسَمَتْ إليه نواظرُهُمْ، واشترك فيه بادِيهِمْ وحاضِرُهُمْ، فجناب أملهم فسيح، ومَتْجر[3] خدمتهم ربيح، وحديث طاعتهم حَسَن صحيح، وبِسَنَى النظرِ العليّ اهتداؤهم، وفي الباب الكريم رجاؤهم،

(١) الضّبُّ: دُوَيبَّةٌ على حَدّ فرخ التّمْساح الصغير، والجمع أَضُبٌ وضِبابٌ. النُّونُ: الحُوتُ، والجمع نينان وأنوان. محيط المحيط (ضبب) و(نون).

(٢) شاطبة: بالإسبانية Jativa، وهي مدينة كبيرة في شرقي الأندلس من عمل بلنسية. نصوص عن الأندلس (ص ١٨) وآثار البلاد (ص ٥٣٩).

(٣) في طبعة دار صادر: «وتَجْرُ».

وبصدق العبودية اعتزازهم وإليها اعتزاؤهم[١]، والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية، ويَحمِلُهُمْ على المناهج السَّوِيّة، ووصل الكتاب الكريم مُتَحَلّيًا برُوَاء الحق، ناطقًا بلسان الصدق، واصفًا من التشريف والفَخَار المنيف، ما صدر عن إمام الخلق، فلا بيان أعجب من ذلك البيان، ولا يوم كذلك اليوم تَبَدّى نظرُه لِلعيان، أو تأدّى خبرُه في أخبار الزمان، نثرت فيه الخلع العباسية في أعلى الصور، وبرز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه في ذيل الحَصَر، ويهدي سواده سواد القلب والبصر، فيا لمشهدها ما أعجب ما كان، ومرآها الذي راعَ الكفر وراق الإيمان، وأشبه يومه بالأندلس يوم خرجت الرايات السود من خُراسان[٢]، وكفى بهذا فخارًا لا يحتاج ثابته مثبتًا، أن باشرت بُرْدًا باشر البدن الذي طاب حَيًّا وميتًا[٣]، فهو علو في الإسناد ولا نظير له في العَوَالي، وفخار ضلّت عن مثله العُصُور الخوالي، وجَلَّت بهجته أن تُخْلِقَ جِدَّتَها[٤] الأيامُ والليالي، ودلّ الكتاب العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد، والسمة من سيف أمير المؤمنين بما لا يدخل في جنس ذوات الأغماد، وخير الأوصاف ما صدقه الموصوف، والكريمِ[٥] النسبِ نسبه يُبَاهي بها الدين وَتُزْهَى السيوف: [الطويل]

فإن نحن سَمَّيناك خِلْنَا سيوفَنا مِنَ التِّيْهِ في أغمادها تَتَبَسَّمُ

ومـمّا أفاده الكتابُ المبهج بطيب أنبائه، نَصُّ علامة سيدنا، صلواتُ الله عليه وعلى آبائه، فإنّها تَضَمَّنَتْ صفةً لله، عَزَّ وجَلَّ، من صفات الكمال، ودَلَّتْ على مذهب أهل السُّنّة في خلق الله، عَزَّ وجَلَّ، الأعمال، وأَشْعَرَتْنا معشَرَ العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهدي المتوكلي - أحسن الله تعالى إليه! - حين تولّى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فإنه لَـمَّا شايعه بعزيمة مساعدة، ونيّة في مَشارع الصفاء والإخلاص واردة، أَلْهَمَ زيادة في العلامة شاركتِ الإمامةَ في صفة واحدة، فهذه كرامة في العلامة، هي علامة الكرامة، وَهِبَةٌ من مواهب الكشف يجدها مَن امتثل قوله: ﴿فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ﴾[٦] فكان من أهل

---

(١) الاعتزاء: الادِّعاء. محيط المحيط (عزي).

(٢) خُراسان: بضمِّ الخاء، وهي بلاد واسعة، كانت موطن دعوة العباسيين وقيامهم على بني أُمية، والرايات السود هي أعلام بني العباس. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٣٥٠).

(٣) البَدَنُ الذي طاب حَيًّا ومَيتًا هو بدن رسول الله ﷺ.

(٤) الجِدَّة: ضِدُّ البِلَى. محيط المحيط (جدد).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «والكريم النسب نسبته...».

(٦) سورة هود ١١، الآية ١١٢.

الاستقامة، وتَضَمَّن الكتابُ الكريم بيعة أهل جَيّان وما معها، وإن هذه البشائر وما تبعها، لفُرُوع عن هذا الأصل الصحيح، وأَقْيِسَة من[1] هذا النصِّ الصريح، بأدلة[2] الخلاف قد استقلّتْ، وشبهة الخلاف قد بطلت واضمحلّتْ، والحمد للّه على أنْ مَنَحَ جزيلَ النعماء، وشرح باليقين صدور الأولياء، وشرّف هذه الأمة بإمامة نجل الأئمة الخلفاء، وابن عمِّ سيِّد الرسل وخاتم الأنبياء، والعبيد يهنئون بهذه النِّعَم، التي لا يستقلُّ بذكرها قَلَم، ولا يُقْطع عَلَمٌ من وصفها إلاَّ بدا عَلَم[3]، وبهم من الأشواق إلى مشاهدة المعالم السنيّة، ولَثْم اليمين الطاهرة العليّة، ما أكّده دنو الدار، وجدَّده ما تجدَّد للمقام العالي المتوكلي من نِعَم اللّه تعالى الجليلة المقدار، والشاهدة له بإسعاد الأيام وإسعاف الأقدار، فلو أَمْكَنَهُمُ الإقدامُ لأَقْدَمُوا، ولو وجدوا رُخْصة في المسير لعزموا، وهم يستلمون البساط الأشرفي توهّمًا ومِنْ أملهم أنهم في الحقيقة قد استلموا، انتهى.

وبه تعلم أن الدولة العباسية خُطِبَ لها ببلاد الأندلس ـ أعادها اللّه للإسلام! ـ ولا يخفاك أنَّ ما جَلَبْنَاه من ذلك وغيره مناسب للمقام، فلا انتقاد ولا ملام.

وقد رأيت أنْ أذكر هنا مخاطبة صَدَرَتْ من الغني باللّه[4] صاحب الأندلس إلى السلطان المنصور أحمد[5] ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، من إنشاء الوزير الكبير لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه، لِمَا اشتملتْ عليه من أحوال الأندلس، ونَصُّها: الأبوابُ التي تُفْتَحُ لنصرها أبوابُ السماء، وتُسْتَدَرّ من آفاقها سحابُ النعماء، وتُجلَى بأنوار سَعْدِها دياجي الظلماء، وتُعَرَّفُ نكرةُ البلاد والعباد بالانتساب إلى محبّتها والانتماء، على اختلاف العروضِ وتباينِ الحدود وتعدُّدِ الأسماء، ويُجتزأ من صِلاَت

---

(١) في طبعة دار صادر: «عن».

(٢) في طبعة دار صادر: «فأدلّة الخلافة...».

(٣) أخذ المعنى من قول جرير: [الرجز]

إذا قَطَعْنَ عَلَمًا بَدَا عَلَمْ حتَّى تَناهَينَ بنا إلى الحَكَمِ

لسان العرب (علم).

(٤) الغني باللّه هو محمد بن أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر، ثامن سلاطين بني نصر بغرناطة. ملك غرناطة سنة ٧٥٥ هـ بعد وفاة أبيه، ثم عُزِل سنة ٧٦١ هـ، ثم أُعيد إلى ملكه ثانية سنة ٧٦٣ هـ، واستمر في الملك إلى أن توفي سنة ٧٩٣ هـ. اللمحة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩)، وسيترجم له المقري في هذا الجزء من نفح الطيب.

(٥) هو أحد ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام.

صَلاّتها عند الموانع من كمالِ حالاتِ صفاتها بالإيماء، وتَحْمِلُ لها التحيَّةَ ذواتُ الدُّسُر والألواح[1] طاعنةً نَحْرَ الصباحِ على كَتَدِ الماءِ[2]، أبواب السلطان الكبير، الجليلِ الشهير، الطاهرِ الظاهر، الأوحَدِ الأسعد، الأصعدِ الأمجد، الأعلى العادل، العالـمِ الفاضلِ الكامل، سلطانِ الإسلام والمسلمين، عمادِ الدنيا والدين، رافع ظِلال العدل على العالمين، جمالِ الإسلام، علـمِ الأعلام، فخرِ الليالي والأيام، ملكِ البَرَّيْن والبَحْرَيْن، إمامِ الحرمين، مؤمِّن[3] الأمصار والأقطار، عاصبِ تاج الفخار، هازمِ الفرنـجِ والترك والتتار، الملكِ المنصورُ ابنِ الأمير الرفيع الجادة، الكريـمِ الولادةِ، الطاهرِ الظاهر، الكبيرِ الشهير، الـمُعَظَّمِ الـمُمَجَّد الأسمى، الـمُوَقَّرِ الأعلى، فَخرِ الجِلّة، سيفِ الـمِلّة، تاجِ الإمارة، عِزِّ الإسلام، مُسْتَظَلِّ الأنام، قمرِ الميدان، أسدِ الحرب العَوَان[4]، المقدّسِ المطهّرِ، الأمير أحمد ابن والد السلاطين، ومالك المسلمين، وسيفِ خلافة اللّه على العالمين، ووليِّ المؤمنين، سلطانِ الجهاد والحجّ، ومقيمِ رأسِ[5] العَجِّ والثجّ، مُحْيِي معالم الدين، قامع المعتدين، قاهرِ الخوارج والمتمرِّدِيْن، ناصرِ السُّنّة، مُحْيِي الملّة، ملكِ البَرَّيْن والبَحْرَيْن، سلطانِ الحرمين، الملكِ العادل، العالـمِ العامل، المنصورِ المؤيَّدِ الـمُعان الـمُرَفَّع الـمُعَظَّمِ المبجّل المؤمّل، المجاهدِ المرابط الغازي[6] الممجّد المكمّل، المطهّرِ الكبير الشهير، المقدّسِ الملكِ الناصرِ أبي عبد اللّه محمد بن قلاوون الصالحي، جعل اللّهُ فُسْطاطَ دعوته معمودًا بعمود الصبح، وحركاتِ عَزْمِهِ مبنيةً على الفتح، ومجمل سعادته غَنِيًّا عن الشَّرْح، وجياد أوصافه متبارية في ميدان الـمَدْح، وزناد رأيه وارية على الْقَدْح، من موجب حقه وجوب الشعائر الخمس، المرحب لأجل أفقه الشرقيِّ[7] بوفادة الشمس، المجدّدِ في اليوم حكم ما تقرر بين السلف رحمهم اللّه بالأمس، أميرِ المسلمين بالأندلس عبد اللّه الغني باللّه الغالب

---

(١) ذوات الدُّسُر والألواح: السفينة؛ قال اللّه تعالى: ﴿وحَمَلْنَاهُ على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ﴾. سورة القمر ٥٤، الآية ١٣.

(٢) الكَتَدُ، بفتح الكاف والتاء وبكسر التاء أيضًا: مجتمع الكتفين من الإنسان، والجمع أَكْتاد وكُتُود. محيط المحيط (كتد).

(٣) في طبعة دار صادر: «مؤمّل».

(٤) الحرب العَوَانُ: التي قُوتِلَ فيها مرة بعد مرة كأنهم جعلوا الأولى بِكْرًا. مختار الصحاح (عون).

(٥) في طبعة دار صادر: «رسم». والعَجُّ: رفع الصوت. الثَّجُّ: سيلان دماء الهَدْي. مختار الصحاح (عجج) و(ثجج).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «المغازي».

(٧) في طبعة عبد الحميد: «الشرقية».

به محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر. سلامٌ كريمٌ كما زحفتْ رايةَ الصبح تقدمها طلائعُ مبشرات الرياح، يفاوحُ أرجه أزَاهِيرَ(١) الأدواح، ويحاسن طُرَر(٢) الوجوه الملاح، يخصّ أُبُوّتَكُمُ التي رَتّبَ العِزُّ فصولَها، وعضدت نصوص النصر نصولها، ورحمة اللّٰه تعالى وبركاته.

أما بَعْدَ حمدِ اللّٰهِ الذي جعله فاتحةَ القرآنَ، وخاتمةَ دعاء أهل الجِنان، وشُكْره على ما أَوْلَى من مواهب الإنسان، حَمْدًا وشكْرًا يستخدمان من الإنسان، ملكتي القلب واللسان. والصلاةُ والسلامُ على سيّدنا ومولانا محمد رسولِهِ زهرة كِمَامةِ الأكوان، وسَيِّدِ ولدِ آدم على اختلاف اللغات والألوان، الذي أذلَّ بعزّةِ اللّٰه نفوس(٣) أهل الطغيان، وغطى بدينه الحق على الأديان، وزُوِيَتْ له الأرضُ فرأى ملك أُمّته يبلغ ما زُوِيَ له فكان الخبرُ وفق العِيان، والرضا عَمَّنْ له من الأصحاب والأحباب والأعمام والأخوال والإخوان، صلاةً يجدُدُها الجديدان، ويُمْلِيها المَلَوَان(٤) وتتزاحمُ على تربته المقدّسة مع الأحيان، ماسجعت طيورُ البراعة من أعواد اليراعة على الأفنان، والتفتت عيون المعاني ما بين أجفان البيان، والدعاء لأبوابكم الشريفة جعل اللّٰه تعالى عصمته تقيمُ بها وظيفتي الحجابة والاستئذان، وضرب بدعوتها التي هي لذّة الإقامة والأذان على الآذان، واستخدم بروج الفلك الدوار في أمرها العزيز استخدام الأنصار والأعوان، حتى يُغْلم ما في المدافعة عنْ حِماها مَخَالبَ السِّرحان(٥)، وفي الإشادة بعدلها كَفَّتَي الميزان، ويُهْدي لها من الزهرة كُرَةَ الميدان، ومن الهلال عوَض الصولجان، وأبقى في عواملها ضمير الأمر والشان، إلى يوم تَعْنو(٦) وجوهُ الملوك إلى الملك الديّان(٧)، فإنّا كتبناه إلى تلك الأبواب، كَتَبَ اللّٰه لعتبتها النصرة الداخلة، كما أخجل بمكارمها السحب الباخلة، وجعل مفارق مناصلها المختضبّة من نجيع عِداها غير ناصِلة، وقَرَن بكل سبب عن أضدادها فاصلة، من دار ملك الإسلام بالأندلس حَمراء غَرْنَاطة ـ وصل اللّٰه سبحانه عادة الدفاع عن أرجائها! وشدّ بأيدي اليقين عُرَى أملها

---

(١) في طبعة دار صادر: «زهير».
(٢) الطُّرَرُ: جمع طُرّة وهي الناصية أي الشعر في مقدمة الرأس. محيط المحيط (طرر).
(٣) في طبعة دار صادر: «أنوف الطغيان...».
(٤) المَلَوَان: الليل والنهار. وكذلك الجديدان هما الليل والنهار. مختار الصحاح (ملي) و(جدد).
(٥) السِّرْحان: الذئب. مختار الصحاح (سرح).
(٦) تَعْنُو: تخضع وتذلّ. مختار الصحاح (عنا).
(٧) الدَّيّان: صفة للّٰه تعالى. مختار الصحاح (دين).

في اللّه ورجائها! ـ حيث المصافّ[1] المعقود، وثمن النفوس المنقود، ونار الحرب ذات الوَقُود، حيث الأفقُ قد تَرَدّى بالقَتّام[2] وتَعَمَّمَ، والسيفُ قد تَجَرَّدَ وتَيَمَّمَ، وغُبَار الجهاد يقول: أنا الأمانُ من دخان جَهَنَّم، حيث الإسلام من عدوّه كالشامة من جلد البعير، والتمرة من أوسق العِيْرِ، حيث الـمَصَارِع تتزاحم الـحُورُ على شهدائها، والأبطالُ يعلو بالتكبير مسمع ندائها، حيث الوجوه الضاحكة المستبشرة قد زَيَّنَتْها الكلومُ بدمائها، وإنَّ هذا القطر الذي مُهِّدَتْ لسياستنا أكوارُ مَطَاياه، وجُعِلَتْ بيدنا ـ والمنّة للّه ـ عِيَاب عَطَاياه، قطرٌ مستقلٌّ بنفسه، مُرْبٍ يومه في البرّ على أمسه، زكيُّ المنابت عذب المشارب، مُتَمِّمُ المآمل مُكَمِّلُ المآرب، فاره الحيوان، معتدل السَّحَن[3] والألوان، وسيطة في الأقاليم السبعة، شاهدة للّهِ بإحكام الصنعة، أما خيله ففارهة، وإلى الرّكض شارهة، وأما سيوفُه فلمواطن الغمود كارهة، وأمّا أَسَلُه[4] فمتداركة الخطف، وأما عَوَامله فبيّنة الحذف، وأمّا نِبَاله فمحذورة القذف، إلاّ أنَّ الإسلام به في سَفَطٍ مع الـحَيّات[5]، وذَرِيعة للـمَنِيَّات الوَحِيَّات[6]، وهَدَف للنبال، وأكلة للشُّبال[7]، تطؤهم الغارات المتعاقبة، وتخيفهم[8] الحدود المصاقبة، وتَجُوسُ خلالَهم العيون المراقبة، وتريب من أشكال مُخْتَطِّهم إلاّ أنْ يتفضل اللّه بحسن العاقبة، فليس إلاّ الصبر، والضَّرْب الهَبْر[9]، والهمز والنبر، والمقابلة والجبر، وقد حال البحر بينهم وبين إخوان مِلَّتهم، وأُسَاة عِلَّتهم، يقومون بهذا الفرض، عن أهل الأرض،

---

(١) المصافُّ المعقود: المكان الذي تصطفّ فيه الجيوش للقتال؛ يقال: صافَّ القومُ القومَ في القتال مصافّةً إذا وقفوا مصطفّين. محيط المحيط (صفف).

(٢) القَتّامُ: الغبار. لسان العرب (قتم).

(٣) السَّحَنُ: جمع سَحْنَة وهي الهيئة أو لِينُ البشرة. لسان العرب (سحن).

(٤) الأَسَلُ: الرماح. مختار الصحاح (أسل).

(٥) أخذ هذا المعنى من قول ابن العَسّال يحثّ أهل بلده طليطلة على الرحيل وترك طليطلة لَـمّا سقطت في يدي ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة ٤٧٨ هـ:

مَنْ جاوَرَ الشَّرَّ لم يَأْمَنْ عواقِبَهُ　　　كيف الحياة مع الـحَيّاتِ في سَفَطِ

وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٨). وسيرد البيت في الجزء السادس من نفح الطيب، باختلاف عمّا هنا في صدره.

(٦) الوَحِيَّةُ: السريعة، والموت الوَحِيُّ والـمَنِيّة الوَحِيّة: السريع والسريعة. مختار الصحاح (وحي).

(٧) الشُّبالُ: جمع شِبْل وهو ولد الأسد إذا أدرك الصَّيدَ. محيط المحيط (شبل).

(٨) في طبعة دار صادر: «وتتحيفهم».

(٩) في طبعة دار صادر: «والضَّرْبُ والهَبْر». والضَّرْبُ الهَبْرُ: أي أن يُلْقي قطعةً من اللحم إذا ضربه. لسان العرب (هبر).

ويُقرضون مَلِكَ يوم العرض، أحسنَ القرض، فلولا بُعْدُ المَدَى، وغولُ الرَّدَى، ولَغَطُ العدا، وما عَدَا مِمَّا بَدَا[1]، لَسَمِعْتُمْ تكبير الحَمَلات، وزئيرَ تلك الفَلاّت[2]، ودَوِيَّ الحوافر، وصليلَ السيوف من فوق المغافر[3]، وصُرَاخَ الثَّكَالَى، وارتفاع الأدعية إلى اللَّه تعالى، ولو ارتفع هذا[4] المكان، وهو للأولياء مثلكم مِنْ حَيِّز الإمكان، لَمَقَلْتُمْ مقلَ الأسنّة الزُّرْق، حالَّة من أطراف قَصَب الرماح مَحالَّ الوُرْقِ، وأبْصَرْتُمُ القَنَا الخَطّارَ قد عاد أخِلَّة، والسيوف قد صارت فوق بدور الخوذِ أَهِلَّة، وعقود الشهادة عند قاضي السعادة مستقلّة، وكان كما تحصره علومكم الشريفة حدق سور الفتح، وآخر ولاء ذلك المنح[5]، عُرِض على الفاروق فاحتاط، وأغرى به من بعده فاشتاط، وسرحت خيال[6] ابن أبي سَرْح، في خبرٍ يَدْعو إلى شرح، حتى إذا وَلَدُ مروان تقلّدوا كُرَتَهَا التي هَوَتْ، وقضموا[7] ما أنضجت ورثة الحق وشَوَتْ، ويدهم على الأمر احتوتْ، وفازت منه بما نوت، نفل ولائده الوليد، وجلب له الطريف والتليد، وطرقت خيل طارق، وضاقت عن أخباره المهارق، وجلَّتِ الفائدة، وظهر على الذخيرة التي منها المائدة[8]، ثم استرسل الـمَهَبُّ، ونَصَرَ الربُّ، ويكثر الطيرُ حين ينتثرُ الحَبُّ[9] وصَرَفَتْ أشرافُ الشام أعِنَّتَهَا إلى التماس خيره، وطارت بأجنحة العزائم تيمّنًا بطَيْره، وقصدته الطلائع صحبة بَلج بن بشر[10] وغيره، ففتحت الأقفال، ونفلت الأنفال، ونجح الفال، ووُسِمَتِ الأغفال، وافْتُتِحَتِ البلادُ

---

(1) قوله: «ما عَدَا مِمّا بَدَا»: قاله علي بن أبي طالب، عليه السلام، لِطَلْحَةَ يوم الجمل؛ إذ قال له: «عَرَفْتَني بالحجاز وأنْكَرْتَني بالعراق، فما عَدَا مِمّا بدا؟»، وذلك أنه كان بايعه بالمدينة وجاء يقاتله بالبصرة. لسان العرب (عدا).

(2) في طبعة عبد الحميد: «القِلات».

(3) المغافر: جمع مِغْفَر وهو زَرَدٌ يُنْسَج من الدرع. محيط المحيط (غفر).

(4) في طبعة دار صادر: «قَيْدُ المكان».

(5) في طبعة دار صادر: «وآخر دلاء ذلك المتح».

(6) في طبعة دار صادر: «خيل».

(7) في طبعة دار صادر: «وخضموا». والخَضْمُ: التناول بجميع الفم، أما القَضْمُ فهو بمقدّم الفَم. لسان العرب (خضم) و(قضم).

(8) أراد هنا مائدة سليمان التي غنمها المسلمون بطليطلة عند فتح الأندلس.

(9) أخذ هذا المعنى من قول بشّار بن برد من قصيدة قالها في مدح عُقْبَة بن سَلْم: [الخفيف]

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حيث يَنْتَثِرُ الحَبْـ ... ـبُ وتُغْشَى مَنَازِلُ الكُرَمَاءِ

ديوان بشار بن برد (ص ١٥).

(10) هو بَلْج بن بشر القشيري، أحد ولاة الأندلس، وقد تقدّمت ترجمته.

الشهيرة، وانْتُقِيَتِ العذارى الخِيرة، واقْتُنِيَتِ الذخيرة، وتجاوز الإسلامُ الدروبَ وتخطّى، وخَضَدَ الأرْطَى[1]، وأركب وأمطَى، واستوثقَ واستوطا، وتثاءب وتَمَطّى، حتى تَعَدَّدَتْ مراحلُ البريد، وسَخِنَتْ عَيْنُ الشيطان المَرِيد، واستوسقَ للإسلام ملكٌ ضَخْمُ السُّرادق، مرهوبُ البَوَارق، رفيعُ العَمَد، بعيدُ الأمَد، تشهدُ بذلك الآثار والأخبار، والوقائع الكبار، والأوداق والأمطار[2]، وهل يخفى النهار؟ ولكل هُبوبٍ رُكود، والدهر حَسودٌ لمَن يَسُود، فراجعت الفرنجُ كَرَّتَها، واستدركتْ مَعَرَّتَها، فدوّمَتْ جوارحها وحَلَّقَتْ، وأَوْمَضَتْ بوارِقُها وتألَّقَتْ، وتَشَبَّثَتْ وتعلَّقَتْ، وأرسلَتِ الأعِنّة وأطلقتْ، وراجعت العقائلَ التي طَلَّقَتْ، حتى لم يَبْقَ من الكتاب إلاّ الحاشية، ولا من الليل إلاّ الناشِيَة، وسقطت الغاشية، وأخلدت الفئة المتلاشية، وتقلّصتِ الظلالُ الفاشية، إلاّ أنَّ اللّه تدارك بقوم رُجَّحٍ مِنْ سَلَفنا أثبتوا في مستنقع الموت[3] أقدامهم، وأخلصوا للّه بأسَهُم وإقدامهم، ووَصَلوا سيوفهم البارقة[4] بخُطَاهم، وأعطاهم منشور العز مَن أعطاهم، حين تَعَيَّنَ الدينُ وتَحَيَّز، واشْتَدَّ بالمدافعة وتَمَيَّز، وعادت الحروب سِجَالاً، وعلم الروم أنَّ للّه رجالاً، وقد أوفد جدّنا - رضي اللّه عنه! - على أبواب سلفكم من وقائعه في العدوّ كلَّ مُبَشِّرة، ووجوهٍ[5] به مُسْتَبْشِرة، ضحكت لها ثغور الثغور، وسَرَتْ بها في الأعطاف حُمَيّا السرور، وكانت المراجعة عنها شفاء للصدور، وَتمائم[6] في دُرَرِ النحور، وخَفَرًا في وجوه البدور، فإن ذمام الإسلام موصول، وفروعه تجمعها في اللّه أُصولٌ، وما أقرب الحَزْن مِمَّنْ دارُهُ صُولٌ[7]، والمِلَّة -

(١) خَضَدَ الأَرْطَى: قَطَعَ شَوكَهُ. الأَرْطَى: شجرٌ ثَمَرُهُ كالعنّاب. محيط المحيط (خضد) و(أرط).
(٢) في طبعة دار صادر: «والأوراق والأسطار».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «مستنقع الحرب». وأخذ هذا المعنى من قول أبي تمام من قصيدة رثاء: [الطويل]

فَأَثْبَتَ في مُسْتَنْقَعِ المَوْتِ رِجْلَهُ ... وقال لها مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكِ الحَشْرُ

ديوان أبي تمّام (ص ٣٢٩).
(٤) في طبعة دار صادر: «الباترة».
(٥) في طبعة دار صادر: «ووجوديّة منتشرة».
(٦) في طبعة دار صادر: «وتمائم في الدور...». والتمائم: جمع تميمة وهي خرزات توضع في العنق. محيط المحيط (تمم).
(٧) صُولٌ: اسم مكان؛ يقول حُنْدُج بن حُنْدُج المُرّي: صُولٌ: مدينة في بلاد الخزر، وقد أخذ المعنى من قول حُنْدُج بن حُنْدُج المُرّي: [البسيط]

ما أَقْدَرَ اللّه أن يدني على شَحَطٍ ... مَنْ دارُهُ الحَزْنُ مِمَّنْ دارُهُ صُولُ

معجم الأدباء (جـ ٣ ص ٤٣٥).

والـمِنَّةُ للَّه ـ واحدة، والنفوس لا منكرة للحقِّ ولا جاحِدَة، والأقدار معروفة، والآمال إلى ما يوصَل إلى اللَّه مصروفة، فإذا لم يكن الاستدعاء، أمكن الدعاء، والخواطر فَعَّالة، والكلُّ على اللَّه عَالَة، والدين غريب والغريب يحنّ إلى أهله، والمرءُ كثيرٌ بأخيه على بُعْد محلّه.

انتهى المقصود من المخاطبة مما يتعلّق بهذا الباب، واللَّه سبحانه وتعالى الـمُوَفِّقُ للصواب، وإليه المرجعُ والمآب[1].

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «واللَّه الـمُوَفِّق للصواب».

الباب الثالث
الدولة الإسلامية في الأندلس

في سَرْد بعض ما كان للدِّين بالأندلس من العِزِّ السامي العِماد، والقَهْر للعدوِّ في الرواح والغدوِّ والتحرّك والهدوِّ والارتياح البالغ غاية الآماد[1]، وإعمال أهلها للجهاد، بالجِدِّ والاجتهاد، في الجبال والوِهاد[2]، بالأَسِنّة المُشْرَعَة والسيوف المُسْتَلَّة من الأغماد[3].

أقول: قَدَّمْنا في الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين، وفتحهم الأندلس، وما حصل لهم من سُلْطَان بها إلى مجيء الداخل[4]، فتقرَّرَتِ القواعدُ السلطانيةُ، وعَلَتِ الكلمةُ الإيمانية، كما نَسْرُده هنا إن شاء الله تعالى.

وذكر غير واحد ـ منهم ابن حزم[5] ـ أن دولة بني أُميّة بالأندلس كانت أَنْبَلَ دول الإسلام، وأنكاها في العدو، وقد بلغت من العِزِّ والنصر ما لا مزيد عليه، كما سترى بعضه.

وأصل هذه الدولة ـ كما قال ابن خلدون[6] وغير واحد ـ أنَّ بني أمية لَـمَّا نَزَلَ بهم

---

(١) الآماد: أمع أَمَد وهو الغاية. لسان العرب (أمد).

(٢) الوِهادُ: جمع وَهْدَة وهي المكان المطمئنّ. مختار الصحاح (وهد).

(٣) الأغماد: جمع غِمْد وهو جفن السيف. لسان العرب (غمد).

(٤) هو عبد الرحمن الداخل، أمير الأندلس (١٣٨ ـ ١٧٢ هـ).

(٥) راجع البيان المغرب (جـ ٢ ص ٣٩).

(٦) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

بالمشرق ما نَزَل، وغلبهم بنو العباس على الخلافة، وأزالوهم عن كُرْسِيِّها، وقَتَلَ عبدُ اللّه ابن علي مروانَ بن محمد بن مروان بن الحكم آخِرَ خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وتَتَبَّعَ بني مروان بالقتل، فطَلَبوا بَطْنَ الأرض مِنْ بَعْدِ ظَهْرها[١]. وكان ممَّنْ أفلَتَ منهم عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان قومه يتحيَّنُون له مُلْكاً بالمغرب، ويَرَوْن فيه علامات لذلك يأثرونها[٢] عن مَسْلمة[٣] بن عبد الملك، وكان هو قد سمعها منه مشافهة، فكان يُحَدِّث نفسه بذلك، فخلص إلى المغرب، ونَزَلَ على أخواله نَفْزَة[٤] من برابرة طرابلس. وشَعَرَ به عبدُ الرحمن بن حبيب، وكان قد قتل ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك لَـمَّا دخلا إفريقية، فلحق بـمُغِيلة، وقيل بمكناسة، وقيل: بقوم من زَنَاتة، فأحسنوا قبوله، واطمأنَّ فيهم. ثم لحق بـمَلِيلة، وبعث بَدْرًا مولاه إلى مَنْ بالأندلس من موالي المروانيين وأشياعهم، فاجتمع بهم، وبَثُّوا له في الأندلس دَعْوَةً، ونشروا له ذكرًا. ووافق قدومه ما كان من الإحَنِ[٥] بين اليمنية والمضريّة، فأصفقت[٦] اليمنية على أمره؛ لكون الأمر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفِهْري وصاحبه الصُّميل، ورَجَعَ بَدْر مولاه إليه بالخبر، فأجاز البحر سنة ثمانٍ وثلاثين ومائة في خلافة أبي جعفر المنصور، ونَزَلَ بساحل المنكَّبِ[٧]، وأتاه قوم من أهل إشْبيلِيَة فبايعوه. ثم انتقل إلى كورة رَيَّة[٨] فبايعه عاملُها عيسى بن مُسَاور[٩]، ثم إلى شَذُونة فبايعه عتاب بن عَلْقَمَة اللخميّ. ثم إلى مَوْرور فبايعه ابن الصباح، ونَهَد إلى قُرْطُبة فاجتمعتْ إليه اليمنية. ونُـمِي خبره إلى والي الأندلس يوسفَ بن عبد الرحمن الفِهْري، وكان غازيًا بجِلِّيقية، فانفضَّ عسكره، ورَجَعَ إلى قُرْطُبة، وأشار عليه وزيْره الصُّمَيـلُ بنُ حاتم بالتلطُّف له، والـمَكْر به، لكونه صغيرَ السِّنِّ، حَدِيثَ

---

(١) قوله: «اطلبوا بَطْنَ الأرض من بَعْدِ ظَهْرِها»: يريد أنهم أرادوا الاختفاء عن أعين العباسيين حتى ولو كان ذلك المخبأ في بطن الأرض.

(٢) في تاريخ ابن خلدون: «يؤثرونها».

(٣) سيورد المقري طرفًا من هذه الأخبار عن مسلمة في الجزءين الثالث والرابع من نفح الطيب.

(٤) في تاريخ ابن خلدون: «نَفْرَة» بالراء.

(٥) الإحَنُ: جمع إحْنَة وهي الحِقْد. مختار الصحاح (أحن).

(٦) في تاريخ ابن خلدون: «فاجتمعت»، وهما بمعنى واحد.

(٧) في تاريخ ابن خلدون: «بساحل السُّنْد».

(٨) رَيُّه Reiyo، وقد تقدّم الحديث عنها، وفي تاريخ ابن خلدون (ص ٢٦٣): «رحب».

(٩) في تاريخ ابن خلدون: «مُسَوَّر».

عهدٍ بنعمة، فلم يَتِمَّ ما أراده. وارتحل عبدُ الرحمن من الـمُنَكَّبِ، فاحتلَّ بمالَقَة فبايعه جُنْدُها، ثم برُنْدَة، ثـم بشَريش كذلك، ثم بإشْبيلِيَةَ، فتوافتْ إليه جنودُ[1] الأمصار، وتسايلتِ المضريةُ إليه، حتى إذا لم يَبْقَ مع يوسف بن عبد الرحمن غيرُ الفِهْريّة والقَيْسية لمكان الصُّمَيل منه زَحَفَ حينئذ عبدُ الرحمن الداخل، وناجزهم الحربَ بظاهر قُرْطبة، فانكشف يوسف، ولجأ[2] إلى غَرْنَاطة فتحصَّنَ بها، وأتبعه الأمير عبدُ الرحمن فنازله. ثم رغب إليه يوسف في الصلح، فعقد له على أن يسكن قُرْطُبة، ثم أقفله معه، ثم نقض يوسفُ عهده، وخرج سنة إحدى وأربعين ومائة[3]، ولحق بطُلَيْطلة، واجتمع إليه زُهَاء عشرين ألفًا من البربر، وقَدَّمَ الأميرُ عبدُ الرحمن للقائه عبدَ الملك بن عمر المروانِي، وكان وَفَدَ عليه من المشرق، وكان أبوه عمر بن مَرْوان بن الحكم في كَفَالة أخيه عبدِ العزيز بن مروان بمصر، فلمّا دخلت المسوّدةُ أرضَ مصر خرج عبدُ الملك يؤمُّ الأندلسَ في عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة، حتى نَزَلَ على عبد الرحمن سنة أربعين[4]، فعقد له على إشبيليَةَ، ولابنه عمرَ بن عبد الملك على مَوْرور. وسار يوسف إليهما، وخرجا إليه ولقياه، وتناجز الفريقان، فكانت الدائرة على يوسف، وأبعد المفرَّ، واغتاله بعضُ أصحابه بناحية طُلَيْطلة، واحتزَّ رأسَه، وتقدّم به إلى الأمير عبد الرحمن، فاستقام أمره، واستقرَّ بقُرْطُبة، وثَبَتَ قَدَمُه في الملك، وبَنَى المسجدَ الجامعَ والقَصْر بقرطبة، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار، ومات قبل تمامه. وبَنَى مساجد، ووفد عليه جماعةٌ من أهل بيته من المشرق، وكان يدعو للمنصور[5]، ثم قطع دَعْوته، ومَهَّدَ الدولة بالأندلس، وأثَّل بها الملكَ العظيمَ لبني مروان والسلطان العزيز، وجَدّد ما طُمِسَ لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها، واستَلْحَمَ الثُّوّارُ عليه على كثرتهم في النَّوَاحي، وقطع دعوة آل العباس من منابر الأندلس، وسَدَّ المذاهبَ منهم دونها، وهلك سنة ثنتين وسبعين ومائة، وكان يُعْرف بعبد الرحمن الداخل؛ لأنه أولُ داخل من ملوك بني مروان إلى الأندلس، وكان أبو جعفر المنصور يُسَميه «صَقْرَ قريش»[6] لَـمَّا رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل، وما ركب إليها من

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: «الأمداد والأمصار».

(٢) في طبعة دار صادر: «ونجا». وفي تاريخ ابن خلدون: «ورجع».

(٣) ورد ذلك في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٤٩).

(٤) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٦٤): «سنة إحدى وأربعين».

(٥) هو الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي.

(٦) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٦٥): «صقر بني أميّة».

الأخطار، وأنه نَهَد إليها مَنْ أنأى ديار المشرق من غير عَصابَة ولا أنصار، فغلب أهلَهَا على أمرهم، وتناول المُلْكَ من أيديهم بقوّة شكيمة، ومَضاء عَزْم حتى انقاد له الأمر، وجرى على اختياره، وأورثه عقبه، وكان يُسَمَّى بالأمير، وعليه جَرَى بَنُوه من بعده، فلم يُدْعَ أحدٌ منهم بأمير المؤمنين تأدُّبًا مع الخلافة بمقرِّ الإسلام ومُنْتَدى العرب، حتى كان من عقبه عبدُ الرحمن الناصر، وهو ثامن بني أمية بالأندلس، فَتَسَمَّى بأمير المؤمنين على ما سنذكره، لـمَّا رأى من ضعف خلفاء بني العباس بعد الثلثمائة[١]، وغلبة الأعاجم عليهم، وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم، وتوارث التلقيبَ بأمير المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحدًا بعد واحد.

قال ابن خلدون[٢]: وكان لبني عبد الرحمن الداخل بالعُدْوَة الأندلسية مُلْكٌ ضخمٌ ودولةٌ متّسعة[٣] اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة[٤]، وعندما شُغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوي أمرُ الـجَلاَلقة، واستفحل سلطانهم، وعمد فرويلة بن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها، وملكها من أيديهم، فملك مدينة لُكَّ وبرتقال وَسَمُّورة[٥] وَقَشْتَالة وشَقُوبِيَةَ[٦]، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور ابن أبي عامر آخِرَ[٧] الدولة، ثم استعادوها بعده فيما استعادوه من بلاد الأندلس، واستولَوْا على جميعها حسبما يذكر، ولله سبحانه الأمر، انتهى.

وخاطب عبد الرحمن قارلة مِلِكَ الإفرنج، وكان من طُغَاة الإفرنج، بعد أنْ تَـمَرَّسَ به مدّة، فأصابه صُلْبَ الـمَكْسِرِ[٨]، تامَّ الرجولية، فمال معه إلى المدَاراة، ودعاه إلى المصاهرة والسّلْم، فأجابه للسلم، ولم تتمَّ المصاهرة.

---

(١) تسمّى عبد الرحمن الناصر بأمير المؤمنين سنة ٣١٦ هـ، وقد تقدّمت ترجمته.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «قال ابن حيان»، وقد صَوَّبْناه عن تاريخ ابن خلدون؛ لأن النقل عن ابن خلدون لا يزال مستمرًا.

(٣) في تاريخ ابن خلدون: «ممتعة».

(٤) سقطت دولة بني أمية بالأندلس سنة ٤٢٢ هـ وانتقلت من نظام خلافة إلى نظام دول الطوائف أو ملوك الطوائف.

(٥) سَمُّورة: بالإسبانية Zamora، وهي دار مملكة الجلالقة، على ضفة نهر، وتبعد عن البحر ستين ميلاً. الروض المعطار (ص ٣٢٤).

(٦) شقوبية: بالإسبانية Segovia، وهي عبارة عن قرى كثيرة متجاورة متلاصقة. الروض المعطار (ص ٣٥٠).

(٧) في تاريخ ابن خلدون: «رئيس الدولة».

(٨) صُلْبُ الـمَكْسِر: أي قويٌّ من الصعب أن ينكسر.

قال ابن حيّان: ولما[1] ألفى الداخل الأندلس ثَغْرًا قاصيًا غُفْلاً[2] من حِلْية الملك عاطلاً أرْهَفَ[3] أهلها بالطاعة السلطانية، وحَنَّكهم بالسّيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب فأكسبهم عمّا قليلٍ المروءة، وأقامهم على الطريقة، وبدأ فدوَّن الدواوين، ورفع الأواوين[4]، وفرض الأعْطِية، وَعَقَدَ الألْوِية، وَجَنَّدَ الأجناد، ورفع العِماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عُدّته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وَحَذِروا جانبه، وتحاموا حَوْزَته، ولم يلبث أنْ دانت له بلادُ الأندلس، واستقلَّ له الأمرُ فيها.

فلذلك ما ظَلَّ عدوُّه أبو جعفر المنصور ـ بصِدْق حِسِّهِ، وَبُعْدِ غَوْره، وَسَعَة إحاطته ـ يسترجحُ عبدَ الرحمن كثيرًا، ويَعْدِلُه بنفسه، ويُكْثِرُ ذكره، ويقول: لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مِرَاسه وقوة أسبابه، فالشأنُ في أمر فتى قريش الأحوذيِّ[5] الفَذِّ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونَشَبه، وتسلِّيه عن جميع ذلك ببعد مَرْقَى هِمَّته، وَمَضاء عزيمته، حتى قَذَفَ نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرةً شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جُنْدِها بخصوصيته، وقَمَعَ بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوبَ رعيّتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عَصِيُّهُمْ، وذلَّ له أبِيُّهُمْ، فاستولى فيها على أريكته، ملكًا على قطيعته[6]، قاهرًا لأعدائه، حامِيًا لذماره، مانعًا لِحَوْزَته، خالطًا الرغبة إليه بالرهبة منه، إنّ ذلك لهو الفتى كلُّ الفتى لا يكذب مادحه.

وجعل ابن حيّان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصَّرامة، والاجتراء على الكبائر والقساوة، فإن[7] أُمَّ كلِّ واحدٍ منهما بربرية. وكان الداخل يقعد للعامّة، ويسمع منهم، وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصّل إليه مَن أراده من الناس، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقّة، وكان من عادته أن

---

(١) كلمة: «ولـمّا» ساقطة في طبعة دار صادر.

(٢) الغُفْلُ: ما لا عمارة فيه، والمراد هنا المكان الخالي من حلية المُلْك. محيط المحيط (غفل).

(٣) في طبعة دار صادر: «فأرهف».

(٤) في طبعة دار صادر: «الدواوين». والأواوين: جمع إيوان وهو الصُفَّة العظيمة، ومنه إيوان كِسْرى. مختار الصحاح (أون).

(٥) الأَحْوَذِيُّ: الحاذق. محيط المحيط (حوذ).

(٦) في طبعة دار صادر: «قطعته».

(٧) في طبعة دار صادر: «وأنَّ».

، معه من أصحابه مَنْ أدرك وقت طعامه، ومَن وافق ذلك من طلاب الحوائج أَكَلَ معه.

وفي كتاب ابن زيدون[1] أنه كان أَصْهَب[2]، خفيفَ العارضين، بوجهه خالٌ، طويل ة، نحيف الجسم، له ضفيرتان، أعور، أخشم؛ والأخشم: الذي لا يشمُّ، وكان يلقّب قر قريش» لكونه تَغَرَّبَ وقطع البَرَّ والبحر، وأقام ملكًا قد أدبر وحده.

ولَمَّا ذكر الحجاري أنه أعور قال: ما أُنْشِدُ فيه إلاَّ قولَ امرىء القيس[3]: [المنسرح]

لـكــنْ عُــوَيـرٌ وَفَـى بـذمَّـتِـهِ   لا عَــوَرٌ شَــانَــهُ ولا قِــصَــرُ

وقال ابن خلدون[4]: «وفي سنة ست وأربعين[5] سار العَلاَء بن مُغيث اليَحْصُبي من يقية إلى الأندلس، ونزل ببَاجَة الأندلس داعيًا لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خلق، ار عبدُ الرحمن إليه ولقيه بنَوَاحي إشبيلية، فقاتله أيامًا. ثم انهزم العَلاَء، وقُتِلَ في سبعة ف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثيرٍ منهم إلى القَيْرَوَان ومكّة، فأُلقيت في واقها سِرًّا، ومعها اللواء الأسود، وكتاب المنصور للعَلاء»[6]، فارتاع المنصورُ لذلك ال: ما هذا إلاَّ شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، أو كلامًا هذا معناه، د مَرَّ ذكْر ذلك. وكثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل، افسوه ملكه، ولقي منهم خطوبًا عظيمة، وكانت العاقبة له، واسْترابَ في آخر أمره عرب، لكثرة مَن قام عليه منهم، فَرَجَعَ إلى اصطناع القبائل من سواهم، واتخاذ الموالي، م غزا بلاد الإفرنج وَالبَشْكَنس ومَن وراءهم، ورجع بالظَّفَر، وكان في نيّته أنْ يجدِّد دولة ي مروان بالمشرق، فمات دون ذلك الأمل، وكانت مدة ملكه ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعة

---

(١) هو أبو الوليد بن زيدون، صاحب ولاّدة بنت المستكفي، وقد تقدّمت ترجمته، وكتابه هو «التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس» وقد صنّفه على منزع كتاب «اليقين في خلفاء المشرق» للمسعودي، على حدّ قول ابن سعيد في رسالته التي ذيَّلها على رسالة ابن حزم في فضائل الأندلس، وسيرد ذلك في الجزء الرابع من نفح الطيب.

(٢) الأَصْهَبُ: ذو الشعر الأحمر أو الأشقر. القاموس المحيط (صهب).

(٣) البيت في ديوان امرىء القيس (ص ١٣٣) من مقطوعة قالها في مدح العُوَيْر بن شِجْنة وقومه بني عوف. وقد وَفَى عُوَيْر بذمّته يوم أجار هندًا بنت حُجْر، أُخت امرىء القيس.

(٤) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٦٦) باختلاف يسير عمّا هنا. وانظر أيضًا البيان المغرب (جـ ٢ ص ٥١) وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ٥٤).

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «سنة تسع وأربعين».

(٦) هنا ينتهي النقل عن ابن خلدون.

أشهر، إذ دخل الأندلس سنة ثمانٍ وثلاثين ومائة، ومات سنة اثنتين وسبعين، وقيل: إحدى وسبعين ومائة، في خلافة الرشيد، وأُمُّه أُمُّ ولدٍ بَرْبرية اسمها راح[1]، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة، بدير حنّا[2] من أرض دمشق، وقيل: بالعليا[3] من تدمُر، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثماني[4] عشرة عن إحدى وعشرين سنة، وكَفِلَهُ وإخوتَهُ جَدُّهم هشام، وَوَهَبَ لعبد الرحمن هذا جميعَ الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعه إيّاها، وَوَجَّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى، وقيل: إنه لَـمَّا قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة: بَدْرٌ مولى أبيه، وأبو شجاع، وزياد، وعمرو، وقيل: إنَّ بدرًا لحقه ولم يخرج معه، فاللَّه أعلم، وخلف من الولد عشرين، منهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث.

وحكى غير واحد أنه لَـمَّا هرب من الشام إلى إفريقية قاصدًا الأندلس نزل بـمُغِيلة[5]، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس، ويُكْنَى أبا قُرَّة، فاستتر عنده وقتًا، ولحق به بَدْرٌ مَوْلَى أبيه بجوهرٍ وذهبٍ أَنْفَذَتْهُ أُخْتُه إليه، فَلَـمَّا دخل الأندلسَ واستتبَّ أَمْرُه به سار إليه أبو قرة وانسوس البربري، فأحسن إليه، وحَظِي عنده، وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فَتَّشَتْ رُسُلُ ابنِ حبيب بَيْتَها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعبًا حين استظلَّتْ بظله في الأندلس: لقد عَذَّبْتني بريح إِبِطَيْكِ يا تَكْفات على ما كان بي من الخوف، وسَطَعتني[6] بأنْتَنَ من ريح الجيف، فكان جوابها له مسرعة: بل ذلك كان واللَّه يا سيدي منك، خرج ولم تشعر به من فَرْط فَزَعك، فاسْتَظْرَفَ جَوابَها، وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك، وهذا من آفات المزاح.

ومن محاسنه أنه أدار السور بقرطبة، رحمه اللَّه!.

وتولَّى الـمُلْكَ بَعْدَه ابْنُهُ هشامٌ بعهد منه إليه، وأُمُّه أُمُّ ولدٍ اسْمُها حُلَل[7]، وأفضى إليه

---

(١) هكذا في جذوة المقتبس (ص ٨) وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٤٧): «راح» أو «رداح».

(٢) في البيان المغرب: «مولده بموضع يُعرَف بدير حسينة من دمشق». وعلى هذا يكون كلام المقري غير مستقيم؛ لأن «دير حنّة» كما في معجم البلدان (جـ ٢ ص ٥٠٧) بظاهر الكوفة والحيرة.

(٣) في طبعة دار صادر: «بالعلياء».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «ثمان عشرة»، وهو خطأ.

(٥) مُغِيلة: إقليم من أعمال شَذُونة بالأندلس. معجم البلدان (جـ ٥ ص ١٦٣).

(٦) في طبعة صادر: «وسَعَطتني»؛ يقال: سَطَعَتْني رائحة المِسْكُ إذا طارت إلى أنفي. محيط المحيط (سطع).

(٧) في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٦١): «أمُّه تُسَمَّى جمال». وفي جذوة المقتبس (ص ١٠): «أمُّه حوراء».

الملك وهو بمارِدَةَ والٍ عليها، وكان أبوه يوليه في صباه ويرشّحه للأمر، وكان الداخل كثيرًا ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام، فيذكر له أن هشامًا إذا حضر مجلسًا امتلأ أدبًا وتاريخًا وذكرًا لأمورِ الحرب ومواقفِ الأبطال، وما أشبه ذلك، وإذا حَضَرَ سليمان مجلسًا امتلأ سخفًا وهَذَيانًا، فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر سليمان، وقال يومًا لهشام: لـمَن هذا الشعر[1]: [الطويل]

وَتَـعْـرِف فـيـه مِنْ أبيـه شـمـائِـلاً ... ومن خالِهِ أو مِنْ يزيدَ ومِنْ حُجُرْ

سَمَاحةَ ذا، وبِرَّ ذا[2]، ووفاءَ ذا، ... ونائِلَ ذا، إذا صَحَا وإذا سَكِرْ

فقال له: يا سيدي، لامرىء القيس ملك كندة، وكأنه قاله في الأمير أعزّه اللّه! فَضَمَّه إليه استحسانًا بما سمع منه، وأَمَرَ له بإحسان كثير، وزاد في عينيه. ثم قال لسليمان على انفراد: لـمَن هذا الشعر؟ وأنشده البيتين، فقال: لعلّهما لأحد أجلاف العرب، أمَا لي شُغل غَيْرُ حفظِ أقوالِ بعض الأعراب؟ فأَطْرَقَ عبدُ الرحمن، وعلم قَدْرَ ما بين الاثنين من المزية.

ولـمّا ولي هشام[3] أشخَصَ المنجمَ المعروفَ بالضَّبِّي من وطنه الجزيرة الخضراء إلى قُرْطُبة، وكان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حِذْقًا وإصابةً، فلـمّا أتاه خَلاَ به وقال له: يا ضَبِّي، لستُ أشكُّ أنه قد عَنَاك من أمرنا إذ بلغك ما لم نَدَعْ تحديد[4] النظر فيه، فأنشدك اللّه إلاّ ما نَبَّأْتَنا بِمَا ظَهَرَ لك فيه، فَلَجْلَج[5] وقال: أعفني أيها الأمير، فإني أَلْـمَمْتُ به، ولم أُحَقِّقِ النظرَ فيه لجلالته في نفسي، فقال له: قد أَجَّلتكَ لذلك، فَتَفَرَّغ للنظر فيما بقي عليك منه، ثم أحضره بعد أيام، فقال: إن الذي سألْتَك عنه جدٌّ مني، مع أني واللّه ما أثق بحقيقته، إذ كان من غَيْبِ اللّه الذي استأثر به، ولكني أُحِبُّ أن أسمع ما عندك فيه، فالنفس طُلَعة[6]، وألزمه الصِّلة أو العقوبة، فقال: اِعْلَـمْ أيها الأمير أنه سوف يَسْتَقِرُّ مُلْكُك، سعيدًا جَدّك، قاهرًا لـمَن عاداك، إلاّ أنَّ مدّتك فيه فيما دلّ عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: يا ضَبِّي، ما أخوفني

---

(١) البيتان في ديوان امرىء القيس (ص ١١٣).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «مع بَرِّ ذا».

(٣) النَّصُّ في تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٦١) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) في طبعة دار صادر: «لم يُدَّعَ تجديد النظر...».

(٥) لَـجْلَجَ: تردَّد. مختار الصحاح (لجلج).

(٦) النَّفْسُ الطُّلَعَةُ: التي تُكْثِرُ التطلّع إلى الشيء. القاموس المحيط (طلع).

أن يكون النذير كَلَّمني بلسانك، واللّه لو أنَّ هذه المدّة كانت في سَجْدة للّه تعالى لَقَلَّتْ طاعةً له، ووصَلَهُ وخلع عليه، وزهد في الدنيا، ولزم أفعال الخير والبرّ[١].

ومن حكاياته في الجود[٢] أنه كان قاعدًا لراحته في عِلِّية على النهر في حياة والده، فنظر إلى رجل من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان قد أقبل يُوضِع السير في الهاجرة، فأنكر ذلك، وقدّر شرًّا وقع به مِنْ قِبَلِ أخيه سليمان، وكان واليًا على جَيَّان، فأمر بإدخاله عليه، فقال له: مهيم يا كناني، فلأمر ما[٣]، وما أَحْسَبُك إلاّ مزعَجًا لشيء دَهَمك، فقال: نعم يا سيدي، قَتَلَ رجلٌ من قومي رجلاً خطأً، فحملت الدية على العاقلة[٤]، فأخذ بها من كنانة عامّة، وحُمِلَ عليَّ من بينهم خاصّة، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك، فَمَدَّ هشامٌ يَدَهُ إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قلادة عِقْدٍ نفيسٍ كان في نَحْرها، وقال له: دونك هذا العِقْدَ يا كناني، وشراؤه عليَّ ثلاثة آلاف دينار، فلا تُخْدَعَنَّ عنه، وبِعْهُ، وأَدِّ عن نفسك وعن قومك، ولا تُمَكِّنِ الرَّجُلَ من اهتضامك، فقال: يا سيدي، لم آتك مُسْتَجْدِيًا ولا لِضِيقِ المالِ عَمَّا حملته، ولكني لما اعتُمِدْتُ بظلم صُرَاح[٥] أَحْبَبْتُ أن يظهر على عِزّ نصرك، وأثر ذَبِّك[٦] وامتعاضك، فأتمجَّدَ بذلك عند مَن يحسدني على الانتماء إليك، فقال هشام: فما وجه ذلك؟ فقال: أنْ تكتبَ إلى أخيك في الإمساك عنّي، والقيام بذِمَّتك لي، فقال: أَمْسِكِ العِقْدَ، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أنكره، فانزعج، وقال: ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلاّ أمر مُقْلِقٌ، إِئْذَنُوا له، فلمَّا دخلَ سَلَّمَ عليه، ومَثَلَ قائمًا بين يديه، فقال له: إِجْلِسْ يا هشام، فقال: أَصْلَحَ اللّهُ الأميرَ سيدي، وكيف جلوسي بهمّ وذلّ مزعج، وحُقَّ لـمَن قام مقامي أن لا يجلس إلاّ مطمئنًّا، ولن يقعدني إلاّ طِيبُ نفسي بإسعافِ الأمير لحاجتي، وإلاّ رَجَعْتُ على عَقِبي، فقال له: حاشَ لكَ من انقلابك خائبًا، فاقْعُدْ مُحَابًا مُشَفَّعًا، فَجَلَسَ، فقال له أبوه: فما الحَدَثُ المقلق؟ فأَعْلَمَهُ، فأَمَرَ بحَمْلِ الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال، فَسُرَّ هشام

---

(١) في طبعة دار صادر: «في الدنيا، والتزم أفعال البرّ».

(٢) النص في أخبار مجموعة (ص ١١٠ ـ ١١٣) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٦٧ ـ ٦٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) في طبعة دار صادر: «فَلأمْر ما جئت...».

(٤) العاقلة: القرابة من جهة الأب الذين يشتركون في دفع الدية. لسان العرب (عقل).

(٥) الصُّراحُ: الخالص من كل شيء. محيط المحيط (صرح).

(٦) الذَّبُّ: الدَّفع؛ يقال: ذَبَّ عنه إذا دافع عنه. لسان العرب (ذبب).

وأَطْنَبَ في الشكر، وكتب الأميرُ إلى ولده سليمان في ترك التعرّض لهذا الكناني لما لم يَدُر في خَلده[١]. ولَـمَّا دَخَلَ الكناني لِوَدَاع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزْتُ بك حَدَّ الأُمْنِية، وبَلَغْتُ غاية النصر، وقد أَغْنَى اللّهُ عن العِقْدِ المبذول بين يدي العناية الكريمة، فتعيده إلى صاحبته، فأبى من ذلك، وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا[٢].

وكان هشام يذهب بسيرته مَذْهَبَ عمر بن عبد العزيز، وكان يبعثُ بقومٍ من ثقاته إلى الكُوَر[٣] فيسألون الناسَ عن سَيْرِ عُمَّاله، ويُخْبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حَيْف مِنْ أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه، ولم يستعمله بعد.

ولَـمَّا وَصَفَهُ زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال: نسأل اللّه تعالى أن يُزَيِّن مَوْسمنا بمثل هذا[٤].

وفي أيامه فُتِحَتْ أَرْبُونة الشهيرة[٥]، واشترط على المعاهدين من أهل جِلّيقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سُوْر أَرْبُونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقُرْطُبة، وبَنَى منه المسجدَ الذي قُدّام باب الجنان، وفضلت منه فضلةٌ بقيت مكوّمة.

وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروبًا، ثم كانت الدائرة له.

وقصد إلى بلاد الحرب غازيًا، وقصد أَلْبَة والقلاع، فلقي العدوَّ وظفر بهم، وفتح اللّه عليه سنة خمس وسبعين[٦]. وبعث العساكر إلى جِلّيقية مع يوسف بن بخت[٧]، فلقي ملكها برمند[٨]، وهزمه، وأثخن في العدوّ.

وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبدَ الملك بن عبد الواحد بن مُغِيْث لغزاة العدوِّ،

---

(١) عبارة «لما لم يَدُرْ في خلده» ساقطة في طبعة دار صادر.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل عن تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية والبيان المغرب لابن عذاري.

(٣) انظر البيان المغرب (جـ ٢ ص ٦٦).

(٤) هذا القول في أخبار مجموعة (ص ١٠٩) وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ٦٢) ببعض الاختلاف عمّا هنا. وفي طبعة دار صادر: «قال: ليت أنّ اللّه تعالى زَيَّن...».

(٥) فتحت أربونة عام ١٧٧ هـ. البيان المغرب (جـ ٢ ص ٦٤).

(٦) في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٦٣): سنة ١٧٦ هـ.

(٧) في طبعة عبد الحميد: «يوسف بن نجية».

(٨) في طبعة عبد الحميد: «ملكها ابن مندة». وفي البيان المغرب: بَرْمُود، وبالإسبانية Vermudo.

فبلغ ألبة والقلاع، فأثخن في نواحيها، ثم بَعَثَهُ في العساكر سنة سبع وسبعين[١] إلى أَرْبُونة وجرندة[٢] فأثخن فيهما، ووطىء أرض برطانية، وتوغَّلَ عبدُ الملك في بلاد الكُفّار وهَزَمَهُمْ، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع سنة ثمانٍ وسبعين، ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جِلّيقية، فانتهى إلى أَسْتُرْقَة، فجمع له ملك الجلالقة واستمدَّ بملك البَشْكَنْس، ثم خام[٣] عن اللقاء. ورَجَعَ أَدْرَاجَه، واتَّبعه عبدُ الملك، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى، فالْتقوا بعبد الملك، وأثخنوا في البلاد، واعترضهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعضَ الشيء، ثم خرجوا سالمين ظافرين.

ومن محاسنه أنه جَدَّدَ القنطرة التي يُضْرَبُ بها المثل بقرطبة كما سبق، وكان بَنَاها السَّمْح الخَوْلاني عاملُ عمر بن عبد العزيز، رضي اللّه عنه، فأحكم هشام بناءها إلى الغاية، وقال يومًا لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟ فقال: يقولون: ما بناها الأمير إلاَّ ليمضي عليها إلى صَيْدِهِ وقَنَصه، فآلى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها، فلم يَمُرَّ عليها بَعْدُ، ووَفَى بما حلف عليه[٤].

ومن محاسنه[٥] أيضًا إكْمالُ بناءِ الجامعِ بقرطبة، وكان أبوه قد شَرَعَ فيه؛ ومن محاسنه أنه أخرج المُصَدِّقَ[٦] لأخذ الزكاة على الكتاب والسُّنّة، رحمه اللّه.

ثم توفي سنة ثمانين ومائة، لِسَبْع سنينَ وتسعةِ أشهرٍ من إمارته، وقيل: لثمانٍ ـ وكان من أهل الخَيْرِ والصلاحِ، كثيرَ الغَزْوِ والجهاد ـ وعُمْرُه أربعون سنة وأربعة أشهر، ووُلِدَ في شوّال سنة ١٣٩[٧]. وولي بعده ابنُه الحكمُ بِعَهْدٍ منه إليه[٨]، فاستكثر من المماليك، وارتبط الخيل، واستفحل ملكه، وباشر الأمور بنفسه. وفي خلال فتنةٍ كانت بينه وبين عَمَّيْه

---

(١) ورد ذلك في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٦٤).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «جريدة». وجرندة، بالإسبانية Gerona وتقع إلى الشمال الشرقي من برشلونة.
(٣) خامَ عن لقاء العدو: جَبُنَ. محيط المحيط (خيم).
(٤) هذا القول في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٦٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٥) هذا النصّ متأخِّرٌ في الأصل عن قوله: «ثم توفي... سنة ١٣٩»، وقد قدّمته عن النص الآخر للتخلّص من الاضطراب ولمقتضى السياق.
(٦) المُصَدِّقُ: الذي يأخذ الحقوق من الإبل والغنم. لسان العرب (صدق).
(٧) انظر البيان المغرب (جـ ٢ ص ٦١).
(٨) هذا النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

اغتنم العدوُّ الكافر الفرصَةَ في بلاد المسلمين، وقصدوا[1] برشَلُونة فملكوها سنة خمس وثمانين[2]، وتأخَّرَتْ عساكرُ المسلمين إلى ما دونها، وبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مُغيث إلى بلاد الجلاَّلقة، فأثخنوا فيها، وخالفهم العدوُّ إلى المَضَايق، فَرَجَعَ على التعبية، وظفر بهم، وخرج إلى بلاد الإسلام ظافرًا. وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرَّبَضِ[3] من قُرْطُبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لَذَّاته، فاجتمع أهلُ العلم والوَرَع بقُرْطُبة، مثل يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي[4] صاحب مالك وأحد رواة الموطَّإ عنه وطالوت[5] الفقيه وغيرهما، فثاروا به، وخلعوه، وبايعوا بعضَ قرابته، وكانوا بالرَّبَضِ الغربيِّ من قُرْطُبة، وكان مَحَلَّةً متّصلةً[6] بقصره، فقاتلهم الحكم[7]، فغلبهم، وافترقوا، وهدم دُوْرَهم ومساجدهم، ولحقوا بفاس من أرض العُدْوة، وبالإسكندرية من أرض المشرق، ونَزَلَ بها جمع منهم، ثم ثاروا بها، فزحف إليهم عبدُ الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون ابن الرشيد، وغلبهم، وأجازهم إلى جزيرة أقريطِشَ[8]، فلم يزالوا بها إلى أنْ مَلَكَها الإفرنجُ من أيديهم بعد مدَّة.

وكانت في أيام الحكم حروب وفتن مع الثوَّار المخالفين له من أهل طُلَيْطلة وغيرهم.

وفي سنة ثنتين وتسعين[9] جمع لُذَريق بن قارْلَهْ ملك الفرنج جموعَه، وسار إلى

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «وقصد».

(٢) أي سنة خمس وثمانين ومائة.

(٣) المراد هنا الربض الغربي من العاصمة قرطبة، وهو محلّة بها. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٢٦). وخبر ثورة أهل الربض أولاً سنة ١٨٩ هـ وثانيًا سنة ٢٠٢ هـ في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٧١، ٧٥)، وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ٦٨ ـ ٦٩) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٤٤ ـ ٤٧).

(٤) هو أبو محمد يحيىٰ بن يحيىٰ بن كثير ابن منغايا الليثي، أصله من برابرة مصمودة؛ فقيه الأندلس، وبه انتشر مذهب مالك بالأندلس. توفي سنة ٢٣٤ هـ، وقيل ٢٣٣ هـ. تاريخ علماء الأندلس (ص ٨٩٨) وجذوة المقتبس (ص ٣٨٢) وبغية الملتمس (ص ٥١٠) ووفيات الأعيان (جـ ٦ ص ١٤٣). وسيترجم له المقري في الجزء الثاني من نفح الطيب في باب الراحلين إلى المشرق.

(٥) هو طالوت بن عبد الجبار ابن السمح المعافري؛ فقيه قرطبي، من أشدّ معارضي الحكم بن هشام في ثورة الربض. الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ١٥٠) وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ٧٠).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «وكان محلّه متّصلاً...»، والتصويب عن ابن خلدون.

(٧) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٧٤): «وحصروه سنة تسعين ومائة، وقاتلهم فغلبهم وافترقوا...».

(٨) أَقْرِيطِش: جزيرة كبيرة في بحر المغرب. معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٣٦).

(٩) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٧٦): «وفي سنة اثنتين وتسعين جمع لزريق بن قارله ملكُ الإفرنج وسار =

حصار طَرَسُونة، فبعث الحكم ابنَه عبدَ الرحمن في العساكر، فهزمه، ففتح اللَّه على المسلمين، وعاد ظافرًا.

ولَمَّا كثر عَيْثُ الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين[1]، فافتتح الثغور والحصون، وخَرَّب النواحي، وأثخن في القتل والسبي والنهب، وعاد إلى قُرْطُبة ظافرًا.

وفي سنة مائتين[2] بعث العساكرَ مع ابن مُغيث إلى بلاد الفرنج فَخَرَّبَ وهدم عدّة حصون، وأقبل عليه أليط[3] ملكُ الجلالقة في جموع عظيمة، وتنازلوا على نهر، واقتتلوا عليه أيامًا، ونال المسلمون منهم أعظم النَّيْل، وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة، ثم كثرت الأمطار، ومَدَّ النهرُ، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين.

وهو أولُ مَنْ جَنَّد الأجناد، واتَّخذ العدّة، وكان أفحلَ[4] بني أمية بالأندلس، وأشدَّهم إقدامًا ونجدةً، وكان يُشَبَّهُ بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدّة المُلْك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء. وكان يُؤْثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن[5]. وحضر يومًا عنده، وقد غضب فيه على خادم له لإيصاله إليه كتابًا كره وصوله، فأمر بقطع يده، فقال له زياد: أَصْلَحَ اللَّهُ الأمير! فإن مالك بن أنس حدّثني في خبر رفعه أن «مَنْ كَظَمَ غيظًا يقدر على إنفاذه ملأه اللَّه تعالى أمنًا وإيمانًا يوم القيامة» فأمر أنْ يمسك عن الخادم، ويعفى عنه، فسكن غضبه، وقال: اللَّه إنَّ مالكًا حدّثك بهذا؟ فقال زياد: اللَّه إنّ مالكًا حدّثني بهذا.

وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة[6]، فأَكْثَرَ فيها مواساةَ أهلِ

= لحصار طرطوشة». وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٧٢): «وفي سنة ١٩٣ خرج رذْريق صاحب إفرنجة إلى جهة طرطوشة». وطَرَسُونة: بالإسبانية Tarazona مدينة بالأندلس بالثغر، من بنات تطيلة Tudela. الروض المعطار (ص ٣٨٩).

(١) في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٧٣) أن الحكم غزا إلى أرض الشرك وقفل ظافرًا في عامي ١٩٤ و١٩٦ هـ.

(٢) انظر البيان المغرب (جـ ٢ ص ٧٥).

(٣) لم يَرِدْ هذا الاسم في البيان المغرب.

(٤) النص من «وكان أفحل... إلى الأعداء» في المغرب (جـ ١ ص ٣٨ ـ ٣٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) هو أبو عبد اللَّه زياد بن عبد الرحمن بن زياد، المعروف بشبطون؛ فقيه أهل الأندلس. توفي سنة ٢٠٣ هـ وقيل ٢٠٤ هـ. جذوة المقتبس (ص ٢١٨) وبغية الملتمس (ص ٢٩٤).

(٦) في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٧٣) أن المجاعة عمّت الأندلس سنة ١٩٩ هـ.

الحاجات، وفي ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيري[1] فيه: [الكامل]

نَكِدَ الزمانُ فآمنَتْ أيّامُه ... مِنْ أنْ يكونَ بِعِصْرِهِ عُسْرُ
ضلع[2] الزمانُ بأزْمَةٍ فَجَلاَ لَهُ ... تلك الكريهَةَ جُودُهُ الغَمْرُ

وكان نقش خاتمهِ «باللّه يثقُ الحكمُ ويعتصمُ».

وذكور ولده عشرون، وإناثهم عشرون، وأُمُّهُ جارية اسمها زخرف.

وكان أسمر، طُوَالاً، أشمّ[3]، نحيفًا.

ومدّة ملكه ستٌّ وعشرون سنة، سامحه اللّه!.

وقال غير واحد: إنه أول مَن جعل للملك بأرض الأندلس أُبَّهة، واستعدَّ بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف: منهم ثلاثة آلاف فارس، وألفا راجل.

ثم توفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبعٍ وعشرين سنة من ولايته، ومولده سنة ١٥٤.

وقال ابن خلدون وغير واحد[4]: إنه أول مَنْ جَنَّدَ بالأندلس الأجناد والمرتزقة، وجَمَعَ الأسلحةَ والعُدَد، واسْتَكْثَرَ من الخدم والحواشي والحشم، وارتبط الخيول على بابه، واتَّخَذَ المماليك، وكان يُسَمِّيهم الخُرْسَ لِعُجْمَتِهِمْ، وحكى في عدّتهم ما تَقَدَّمَ[5]. ثم قال: وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس، وكان يباشر الأمور بنفسه، ويُقَرِّبُ الفقهاءَ والعلماءَ والصالحين، وهو الذي وَطَّأَ الملكَ لعقبه بالأندلس، انتهى.

وكان له ـ فيما حكى غَيْرُ واحد ـ ألفا فرس مرتبطة على شاطىء النهر بِقِبْلِيِّ قصره

---

(١) عباس بن ناصح الثقفي الجزيري، شاعر الحكم الربضي، وَلِيَ قضاء بلدة الجزيرة الخضراء مع شذونة، وتوفي بعد سنة ٢٣٠ هـ. بغية الوعاة (ص ٢٧٦) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٥٠٤) والمغرب (جـ ١ ص ٣٢٤).

(٢) ضَلَعَ الزمان: جارَ. محيط المحيط (ضَلَعَ).

(٣) الطُّوال، بضم الطاء وفتح الواو: الطويل. وأَشَمُّ الأنف: طويل الأنف. مختار الصحاح (طول) و(شمم).

(٤) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٧٧) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) ذكر ابن خلدون أن عدّتهم بلغت خمسة آلاف.

يجمعها داران. وهو القائل لما قَتَلَ أَهْلَ الرَّبَضِ وهَدَمَ ديارَهُمْ وحَرَثَها[1]: [الطويل]

رأبْتُ صُدُوعَ الأرضِ بِالسَّيْفِ راقعا ... وقِدْمًا لأَمْتُ الشَّعْبَ مُذْ كُنْتُ يافِعَا
فَسَائِلْ ثغُوري هل بها اليومَ ثُغْرَةٌ ... أُبادِرُهَا مُسْتَنْضِيَ السَّيْفِ دارعَا
تُنَبِّيكَ أني لم أكن في قِرَاعِهِمْ ... بِوَانٍ، وقِدْمًا كنتُ بالسَّيْف قارعَا
وهل زدت إذ[2] وفَّيْتُهُمْ صاعَ قَرْضِهِمْ ... فوافَوْا منايا قُدِّرَتْ ومَصَارِعَا
فهذي بلادي، إنني قد تركْتُهَا ... مِهَادًا، ولم أتركْ عليها مُنَازِعَا

وقال ابن حزم في حقه[3]: إنه كان من المُجَاهرين بالمعاصي، السافكين للدماء، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء.

وقال غير واحد[4]: إنه تنصَّل أخيرًا، وتاب، سامحه اللَّه!.

ومن نظمه قوله متغزّلاً[5]: [البسيط]

قُضبٌ من البانِ ماسَتْ فوق كُثْبَانِ ... وَلَّيْنَ عَنِّي وقد أَزْمَعْنَ هِجْرَانِي

ومنهـا:

مَنْ لي بِمُقْتَضِبَاتِ الروح مِنْ بَدَني ... يَغْصِبْنَني في الْهَوَى عِزِّي وسُلْطَاني

وقيل: إنه كان يمسك أولاد الناس ويَخْصِيهم، ونُقِلَتْ عنه أمور، ولعلّه تاب منها كما قَدَّمْنا، واللَّه أعلم بحقيقة أمره.

ومن بديع أخبار الحكم أن العباس الشاعر تَوَجَّه إلى الثَّغْرِ، فلمَّا نَزَلَ بوادي الحِجارة سمع امرأة تقول: واغَوْثاه بك يا حكم، لقد أَهْمَلْتَنَا حتى كَلِبَ العدوُّ علينا، فأَيَّمنا وأَيْتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت: كنت مُقْبلة من البادية في رُفْقة، فَخَرَجَتْ علينا خيلُ عدوّ، فقتلت وأسرت، فصنع قصيدته التي أوّلها: [الطويل]

---

(١) الأبيات في أخبار مجموعة (ص ١٢٠) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٧١ ـ ٧٢) والحلة السيراء (جـ ١ ص ٤٧ ـ ٤٨) والمغرب (جـ ١ ص ٤٤ ـ ٤٥) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) في طبعة دار صادر: «أنْ» بدل «إذْ».

(٣) النص في المغرب (جـ ١ ص ٤٤) وفيه ينقل ابن سعيد عن رسالة «نقط العروس» لابن حزم، ونحن لم نعثر على هذا النص في نقط العروس التي بين أيدينا.

(٤) في طبعة دار صادر: «وقال غيره».

(٥) البيتان ضمن أربعة أبيات في أخبار مجموعة (ص ١٢١) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٥٠) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٧٩).

تَمَلْمَلْتُ في وادي الحِجَارة مُسْئِدًا ... أُراعي نجومًا ما يرون تغيّرا[1]
إليكَ أبا الْعَاصِي نَضَيْتُ مَطِيَّتي ... تسيرُ بهمّ ساريًا ومُهَجِّرا
تداركْ نساءَ العالمينَ بنصرةٍ ... فإنك أحْرَى أنْ تغيثَ وتَنْصُرَا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة، ووصف له خوف الثغر، واستصراخَ المرأة باسمه، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، فخرج بعد ثلاث إلى وادي الحِجَارة ومعه الشاعر، وسأل عن الخيل التي أغارت من أيِّ أرضِ العدوِّ كانت، فأُعْلِمَ بذلك، فغزا تلك الناحية وأثخن فيها، وفتح الحصون، وخَرَّب الديار، وقتل عددًا كثيرًا، وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع مَن أُسِرَ له أحد في تلك البلاد، فأُحْضِرَ، فأمر بضرب رقاب الأَسْرَى بحَضْرتها، وقال للعباس: سَلْهَا: هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة، وكانت نبيلة: واللّه لقد شَفَى الصدورَ، وأنكى العَدُوَّ، وأغاثَ الملهوفَ، فأغاثه اللّه، وأعزَّ نصره! فارتاح لقولها، وبدا السرورُ في وجهه وقال: [الطويل]

أَلَمْ تَرَ يا عباسُ، أنِّي أَجَبْتُهَا ... على البُعْدِ أَقْتَادُ الخميسَ[2] المُظَفَّرَا
فأَدْرَكْتُ أَوْطارًا وبَرَّدْتُ غلّةً ... وَنَفَّسْتُ مكروبًا وأَغْنَيْتُ مُعْسِرا

فقال عباس: نعم، جزاكَ اللّه خيرًا عن المسلمين! وقَبَّلَ يده.

ومِمَّا عِيبَ به أنه قتل الفقيه أبا زكريا يحيىٰ[3] بن مُضَر القَيْسي، وكان قُدْوة في الدين والورع، سمع من سُفيان ومالك بن أنس، وروى عنه مالك وقال: حَدَّثَنا يحيىٰ بن مضر عن سفيان الثَوري أن الطَّلح المنضود هو الموز، وكان قتل المذكور مع جماعة من العلماء وغيرهم[4].

وقام بأمره[5] من بعده ابنُه عبد الرحمن، بعهد منه إليه، ثم لأخيه المغيرة بعده، فغزا

(١) في طبعة دار صادر: «مُسْهَرًا أراعي نجومًا ما يُرِدْنَ تَغَوُّرا». ومُسْئِدًا: سائرًا في الليل. محيط المحيط (سأد).

(٢) الخميس: الجيش لأنه خمس فرق؛ المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق. مختار الصحاح (خمس).

(٣) يحيىٰ بن مضر القيسي فقيه أندلسي، سمع منه يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي. وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ١٤٣).

(٤) قتا الحكم مع جماعة من العلماء في وقعة الربض.

(٥) من هنا حتى قوله: «واحتجب عن العامّة» النقل عن تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٧٧ ـ ٢٨٣) ببعض التغيير عمّا هنا.

عبدُ الرحمن لأول ولايته إلى جِلِّيقِيَّةَ وأبعد، وأطال المغيب، وأثخن في أُمم النصرانية هنالك، ورجع.

وقَدِمَ عليه سنة ست ومائتين زرياب المغني من العراق[١]، وهو مَوْلى المهدي ومتعلِّم إبراهيم الموصلي، واسمه علي بن نافع، فركب بنفسه لتلقِّيه، على ما حكاه ابن خلدون، وبالغ في إكرامه، وأقام عنده بخير حال، وأورث صناعة الغناء بالأندلس وخَلَّفَ أولادًا فخلَفَه كبيرُهم عبدُ الرحمن في صناعته وحُظْوته.

وفي سنة ثمانٍ[٢] أغزى حاجِبَهُ عبدَ الكريم بن عبد الواحد إلى أَلْبَةَ والقلاع، فخرّب كثيرًا من البلاد وانتسفها، وفتح كثيرًا من حصونهم، وصالح بعضها على الجِزْية وإطلاق أسرى المسلمين، وانصرف ظافرًا.

وفي سنة أربع وعشرين بعث قريبه عبيد اللّه بن البلَنْسِي في العساكر لغزو أَلْبَةَ والقلاع، فسار ولقي العدوَّ فهزمهم وأكثر القتل والسَّبْيَ، ثم خرج لُذَريق ملكُ الجَلاَلقة، وأغار على مدينة سالم[٣] بالثغر، فسار إليه فرتون بن موسى، وقاتَلَه، فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدوّ والأسْر، ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهلُ أَلْبَة بالثغر نكايةً للمسلمين، فافتتحه وهدمه، ثم سار عبدُ الرحمن في الجيوش إلى بلاد جِلِّيقية، فدوَّخها وافتتح عدّة حُصون منها، وجال في أرضهم، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم.

وفي سنة ستّ وعشرين بعث عبدُ الرحمن العساكرَ إلى أرض الفرنجة، وانتهوا إلى أرض بَرْطَانِيَةَ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تُطِيلَةَ[٤]، ولقيهم العدوُّ، فصبر حتى هزم اللّه عدوّهم، وكان لموسى في هذه الغَزاة مقام محمود.

وفي سنة تسع وعشرين بعث ابنَه محمدًا بالعساكر، وتقدّم إلى بَنْبُلونة[٥]، فأوقع بالمشركين عندها، وقتل غرسيّةَ صاحبَهَا، وهو من أكبر ملوك النصارى.

---

(١) ستأتي ترجمة علي بن نافع، الملقّب بزرياب، بالتفصيل في الجزء الرابع من نفح الطيب.

(٢) كذلك أشار إلى ذلك ابن عذاري في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٨١ - ٨٢).

(٣) مدينة سالم: بالإسبانية Medinaceli، وهي بالأندلس بقرب قلعة أيوب، وتبعد عن مدينة وادي الحجارة خمسين ميلاً. الروض المعطار (ص ٤٦٩، ٦٠٦).

(٤) تطيلة: بالإسبانيةTudela، وهي مدينة بالأندلس في جوفيّ وشقة، تشتهر بثمارها. الروض المعطار (ص ١٣٣).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «ينبلونة» بالياء.

وفي أيامه ظهر المجوس[1]، ودخلوا إشبيلية، فأرسل إليهم عبدُ الرحمن العساكر مع القوّاد من قُرْطُبة، فنزل المجوسُ من مراكبهم، وقاتلهم المسلمون، فهزموهم بعد مقام صعب، ثم جاءت العساكر مدَدًا من قُرْطُبة فقاتلهم المجوس، فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها، ورحل المجوس إلى شَذُونة فأقاموا عليها يومين، وغنموا بعض الشيء، ووصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشبِيلِيَة فأقلع المجوس إلى لَبْلَة، وأغاروا وسَبَوْا، ثم إلى باجَة ثم أشْبُونة، ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشْبُونة، وسكنت البلاد، وذلك سنة ثلاثين، وتقدّم عبدُ الرحمن بإصلاح ما خرّبوه من البلاد، وأكْثَفَ حاميتها.

وفي سنة إحدى وثلاثين[2] بعث العساكر إلى جليقية فدوّخوها، وحاصروا مدينة لِيُون[3] ورَمَوْها بالمجانيق، وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هَدْم سورها فلم يقدروا عليه؛ لأنَّ عرضه كان سبعة عشر ذراعًا، فثَلَموا فيه ثُلمة ورجعوا.

ثم أغزى عبدُ الرحمن حاجِبَهُ عبدَ الكريم[4] في العساكر إلى بلاد بَرْشَلُونة، فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تُسَمَّى البرت[5] إلى بلاد الفرنجة فدوَّخها قتلاً وأسْرًا وسَبْيًا، وحاصر مدينتها العظمى جَرَنْدَة، وعاث في نواحيها، وقَفَل. وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم توفلس[6] بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلته ويرغِّبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمونُ والمعتصم حتى إنه ذكرهما له في كتابه له وعَبَّر عنهما بابني مَرَاجل ومارِدة، فكافأه الأميرُ عبدُ الرحمن عن الهدية، وبعث إليه يحيىٰ الغزَّال من كبار أهل الدولة، وكان مشهورًا في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوُصْلة، وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازِعيه من بني العباس.

---

(١) المجوس هم القراصنة النورمان، وقد ورد ذكرهم في المراجع العربية باسم الأرْدُمانيين أو المجوس، ويعرفون في اللغة الإسبانية بـ Normandos، وفي الإنكليزية، بـ Vikings. المقتبس بتحقيق مكّي (ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩) والمقتبس بتحقيق الحجّي (ص ٢٣، ٢٤٩) وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ٨٣) والمغرب (جـ ١ ص ٤٩) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٨٧، ٩٦ ـ ٩٧، ٢٤١) والكامل في التاريخ (جـ ٧ ص ١٦).

(٢) ورد ذلك في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٨٨).

(٣) ليون: بالإسبانية Leon، وهي قاعدة من قواعد قشتالة. الروض المعطار (ص ٥١٤).

(٤) في تاريخ ابن خلدون (ص ٢٨٢): «عبد الكريم بن مُغيث. . .».

(٥) في المصدر نفسه: «السرب».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «نوفلس».

ويُعْرَفُ الأميرُ عبد الرحمن بالأوسط؛ لأنَّ الأول عبدُ الرحمن الداخل، والثالث عبد الرحمن الناصر.

ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين، بربيع الآخر، لإحدى وثلاثين سنة من إمارته.

ومولده بِطُلَيْطِلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة.

وكان عالـمًا بعلوم الشريعة والفلسفة، وكانت أيامه أيامَ هدوء وسكون، وكثرتِ الأموالُ عنده، واتَّخذَ القصورَ والمتنزهات، وجلبَ إليها المياهَ من الجبال، وجعل لقَصْره مصنعًا اتخذه الناس شريعة[1]، وأقام الجسور، وبُنِيَتْ في أيامه الجوامع بِكُوَرِ الأندلس، وزاد في جامع قُرْطُبة رِوَاقَيْنِ، ومات قبل أن يستتمّه[2]، فأتمّه ابنه محمد بعده، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة، ورتّب رسوم المملكة، واحتجب عن العامّة[3].

وعدد ولده مائة وخمسون من الذكور، وخمسون من الإناث[4]، ونَقْشُ خاتمه «عابدُ الرحمن بقضاء اللَّه راضٍ» وفي ذلك قيل[5]: [مجزوء الكامل]

خاتَمٌ للمُلْكِ أضْحَى حُكْمُه في الناس مَاضِي
عابِدُ الرحمنِ فيه بقَضَاء اللَّه راضي

وهو أول مَن أحدث هذا النقش، وبقي وراثةً لـمَن بعده من ولده.

قال ابن سعيد[6]: وفي أيامه انتهى مالُ الجباية إلى ألف ألف دينار في السنة، وكان

---

(١) المَصْنَعُ: حوض يُجْمَعُ فيه ماء المطر. الشريعة: مورد الشُّرْب. محيط المحيط (صنع) و(شرب).

(٢) ذكر ابن القوطية أن عبد الرحمن الثاني أمر بالزيادة في جامع قرطبة، فتمّت في أيامه إلاَّ يسيرًا أتمّه من بعده ولده الأمير محمد. تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٨٨). وقال ابن حيّان إن الأمير محمد بن عبد الرحمن أتمَّ ما بقي من العمل في زيادة الأمير عبد الرحمن الثاني. المقتبس بتحقيق مكّي (ص ٢٢٠). وقال ابن خلدون في تاريخه (م ٤ ص ٢٨٣) إن عبد الرحمن زاد في جامع قرطبة رواقين ومات قبل أن يستتمّه، فأتمّه ابنه محمد.

(٣) إلى هنا ينتهي النقل عن ابن خلدون.

(٤) ذكر ابن حزم في رسالته «نقط العروس» أنه كان لعبد الرحمن مائة ولد؛ خمسون ذكرًا وخمسون أُنثى. رسائل ابن حزم (جـ ٢ ص ٧٨). والرقم نفسه في المغرب (جـ ١ ص ٤٥) حيث ينقل ابن سعيد عن ابن حزم. وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٨١): ٤٥ ذكرًا و٤٢ بنتًا.

(٥) البيتان في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٨١).

(٦) المغرب (جـ ١ ص ٤٦)، ولم ترد فيه عبارة: «وكان قبل لا يزيد على ستمائة ألف».

قَبْلُ لا يزيد على ستمائة ألف، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع ما يخالفُ هذا فليراجَع، والله أعلم.

ومن توقيعاته[1]: مَن لم يعرف وَجْهَ طلبه، فالحرمانُ أولى به.

ومن شعر عبد الرحمن المذكور قوله: [الكامل]

ولَقَدْ تَعَارَضُ أَوْجُهٌ لأوامرٍ فيقودُهَا التوفيقُ نحو صَوَابها
والشيْخُ إنْ يَحْوِ النُّهَى بتجَارِب فشِبَابُ[2] رأي القوم عند شَبَابها

وفي زيادته في جامع قرطبة يقول ابن المثنى[3] رحمه الله تعالى: [البسيط المخلع]

بَنَيْتَ لِلَّه خَيْرَ بَيْتٍ يَخْرَسُ عن وَصْفِهِ الأنامُ
حَجٌّ إليه بكل أوْبٍ كأنه المسجِدُ الحرَامُ
كأنَّ مِحْرَابَهُ إذا ما حُفَّ به الركنُ والْمَقَامُ

وقال آخر: [الطويل]

بَنَى مسجدًا للَّه لم يَكُ مِثْله ولا مثله للَّه في الأرض مَسْجِدُ
سوى ما ابْتنى الرحمنُ والمسجِدِ الذي بَنَاه نبيُّ المسلمين مُحَمَّدُ
له عُمُدٌ حُمْرٌ وخُضْرٌ كأنما تلوحُ يَوَاقيتٌ بها وزَبَرْجَدُ
ألا يا أمينَ اللَّه، لا زِلْتَ سالمًا! ولا زِلْتَ في كل الأمور تسدَّدُ!
فيا لَيْتَنَا نَفْدِيكَ مِنْ كلِّ حادثٍ وأنك للدنيا وللدين تَخْلُدُ

وكان كثير المَيْلِ للنساء، وولع بجاريته طَرُوبَ، وكلف بها كلفًا شديدًا، وهي التي بَنَى عليها الباب ببِدَرِ المالِ حين تَجَنَّتْ عليه، وأعطاها حليًّا قيمته مائة ألف دينار، فقيل له: إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك، فقال: إن لابسه أنفسُ منه خطرًا،

---

(١) هذا التوقيع في المغرب (جـ ١ ص ٤٦) وأخبار مجموعة (ص ١٢٥) والمقتبس بتحقيق مكّي (ص ٨٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٢) الشِّباب، بكسر الشين: النشاط. مختار الصحاح (شبب).
(٣) هو أبو عبد الملك عثمان بن المثنى، من أهل قرطبة، نحوي، رحل إلى المشرق وعاد إلى الأندلس وأدخل معه ديوان أبي تمام. توفي سنة ٢٧٣ هـ. تاريخ علماء الأندلس (ص ٥١٣) وبغية الوعاة (ص ٣٢٤).

وأرفعُ قدرًا، وأكرم جوهرًا، وأشرفُ عنصرًا، وفيها يقول[1]: [المتقارب]

إذا ما بَدَتْ ليَ شَمْسُ النَّهَا ... رِ طَالِعَةً ذَكَّرَتْنِي طَرُوبَا
أنا ابنُ المَيَامين من غالبٍ ... أَشُبُّ حُرُوبًا وَأُطْفِي حُرُوبَا

وخرج غازيًا إلى جِلِّيقية فطالت غيبته فكتب إليها[2]: [المتقارب]

عَدَانِيَ عَنْكِ مَزَارُ الْعِدَا ... وقَوْدِي إليهمْ سِهَامًا مُصِيبا
فَكَمْ قد تخطَّيْتُ من سَبْسَبٍ[3] ... ولاقَيْتُ بعدَ دُروبٍ دُرُوبا
أُلاقِي بوَجْهِي سُمُومَ الْهَجِيـ ... ـرِ إذ كاد مِنْهُ الْحَصَى أنْ يذُوبا
تَدَارَكَ بي اللَّه دينَ الهُدَى ... فأحْيَيْتُهُ وأمَتُّ الصليبا
وسِرْتُ إلى الشِّرْكِ في جَحْفَلٍ ... مَلأْتُ الحُزُونَ به والسُّهُوبا

وساق بعض المؤرخين قضية طَروب هذه بقوله: إنَّ السلطان المذكور أغضبها فَهَجَرَتْهُ، وصَدَّت عنه، وأبَتْ أن تأتيه، ولزمتْ مقصورتها، فاشْتَدَّ قَلَقه لهجرها، وضاق ذَرْعُه من شوقها، وجهد أن يترضّاها بكل وجه فأعياه ذلك، فأرسل من خِصْيانه مَن يُكرهُها على الوصول إليه، فأغلقتْ باب مجلسها في وجوههم، وآلت أن لا تخرج إليهم طائعة، ولو انتهى الأمرُ إلى القتل، فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها، واستأذنوه في كسر الباب عليها، فنهاهم وأمرهم بسدِّ الباب عليها من خارجه ببِدَرِ الدراهم، ففعلوا، وبَنَوْا عليها بالبِدَرِ، وأقبل حتى وقف بالباب وكلَّمها مسترضيًا راغبًا في المراجعة على أنَّ لها جميع ما سَدَّ به الباب، فأجابتْ وفتحتِ البابَ، فانهالتِ البِدَرُ في بيتها، فأكبَّتْ على رِجْلِهِ تقبِّلُها، وحازت المال، وكانت تُبْرِمُ الأمورَ مع نصر[4] الخَصِيّ فلا يردُّ شيئًا ممّا تُبْرِمُه.

وأحبَّ أخرى اسمها مدثرة فأَعْتَقَها وتزوَّجها، وأخرى كذلك اسمها الشفاء، وأمّا جاريته قلم فكانت أديبة، حسنة الخط، راوية للشعر، حافظة للأخبار، عالمة بضروب

---

(١) ورد البيتان ببعض الاختلاف عمّا هنا في الحلّة السيراء (جـ ١ ص ١١٤ ـ ١١٥) ضمن قصيدة من ١٣ بيتًا، وفي تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٧٧) البيتان لعبد الرحمن بن الشمر. وورد فقط البيت الأول في المغرب (جـ ١ ص ٤٧).

(٢) الأبيات في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٨٦) منسوبة إلى عبد الرحمن بن الشمر.

(٣) السَّبْسَبُ: المفازة. محيط المحيط (سبسب).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «مضر» وهو خطأ؛ لأنه ورد هكذا في كتب التاريخ، أي «نصر» وكان يلقب بالفتى الكبير. المقتبس بتحقيق مكّي (ص ١٠٦) وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ٩١).

الأدب. وكان مُولَعًا بالسّماع، مُؤْثِرًا له على جميع لذّاته، وله أخبار كثيرة، رحمه اللّه!

ولَـمَّا مات ولي ابنُه محمدٌ[١]، فبعث لأول ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب تُطِيلة[٢]، فعاث في نواحي أَلْبَة والقلاع، وفتح بعض حصونها، ورجع. وبعث عساكر أخرى إلى نواحي بَرْشَلُونة وما وراءها، فعاثوا فيها وفتحوا حصونًا من بَرْشَلونة ورجعوا.

ولما استمدَّ أهلُ طُلَيْطلة المخالفون[٣] من أهل بلاد الأمير محمد عليه بِمَلِكَيْ جِلِّيقِية والبَشْكنس لقيهم الأمير محمد على وادي سَليط[٤]، وقد أكمن لهم، فأوقع بهم، وبلغت عدَّة القتلى من أهل طُلَيْطلة والمشركين عشرين ألفًا.

وفي سنة خمس وأربعين ظهرت مراكبُ المجوس[٥]، وعاثوا في الأندلس، فلقيهم مراكبُ الأمير محمد، فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين، واسْتُشْهد جماعة من المسلمين.

وفي سنة سبع وأربعين[٦] أغزى محمد إلى نواحي بَنْبُلونة[٧]، وصاحبُها حينئذ غرْسِيَةُ ابن وِنْقة[٨]، وكان يظاهر أردن بن أذفنش[٩]، فعاث في نواحي بَنْبلُونة[٧]، ورَجَعَ وقد دَوَّخها وفتح كثيرًا من حصونها، وأسر فرتونَ ابنَ صاحبها، فبقي أسيرًا بقُرْطُبة عشرين سنة.

ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر في العساكر إلى نواحي أَلْبَة والقلاع فعاثوا فيها، وجمع لُذَريقُ للقائهم، فلقيهم وانهزم، وأثخن المسلمون في المشركين بالقتل والأسر، فكان فتحًا لا كِفَاء له.

---

(١) عاد المقري لينقل هنا عن تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٧).

(٢) هكذا في تاريخ ابن خلدون. وفي طبعة عبد الحميد: «طليطلة».

(٣) كان أهل طليطلة قد ثاروا أول الأمر على الأمير محمد في عام ٢٣٨ هـ، فتقدّم إليها وعاث في نواحيها، ثم سار إليها في عام ٢٤٠ هـ، فاستمدّوا بملكي جليقية والبشكنس. تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٩٤).

(٤) هذا في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٨٤) وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٩٥). وفي طبعتي عبد الحميد ودار صادر: «سليطة». ووادي سليط بالإسبانية Auzalete وهو نهر يصبّ في تاجه Tajo جنوبي طليطلة.

(٥) انظر تفصيل هذا الغزو في المقتبس بتحقيق مكّي (ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩).

(٦) حدّد ابن عذاري تاريخ هذه الغزوة سنة ٢٤٦ هـ. البيان المغرب (جـ ٢ ص ٩٧).

(٧) في طبعة عبد الحميد: «ينبلونة» بالياء.

(٨) في طبعة عبد الحميد: «غرسية بن وبقة». وهو بالإسبانية García Inigo.

(٩) بالإسبانية: Ordano، Alfonso.

ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلالقة، فأثخن وخَرَّب.

وفي سنة ثلاث وستّين أغزى الأميرُ محمد ابْنَهُ المنذرَ إلى دار الحرب، وفي السنة التي بَعْدَها إلى بلاد بَنْبُلُونة[1] فَدَوَّخَها ورَجَعَ.

وفي سنة ثمانٍ وستّين أغزاه أيضًا إلى دار الحرب، فعاث في نواحيها وفتح حصونًا.

وفي أيام الأمير محمد خربت ماردة وهدمت ولم يَبْقَ لها أثر.

وذكر بعضهم أنه رأى بالمشرق هذه الأبيات قبل أن تخرب ماردة بأعوام، ولم يعلم قائلها، وذلك سنة ٢٥٤: [الكامل]

وَيْـلٌ لـمـاردَةَ الـتـي مَـرَدَتْ ... وتـكَـبَّـرَتْ عـن عُـدْوَةِ الـنـهـرِ
كـانـت تُـرَى لـهـمْ بـهـا زَهَـرٌ ... فـخَـلَـتْ مِـنَ الزَّهَـرَاتِ كـالـقَـفْرِ
فـالـويـلُ ثـم الـوَيْـحُ حيـن غَـزَا ... بـجـمـيـعـهـمْ مِـنْ صاحِـبِ الأمـرِ

ثم توفي الأميرُ محمد في شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين، لخمسٍ وثلاثين سنة من إمارته، ومولده سنة سبع ومائتين.

وولي بعده ابنه المنذر[2]، ولم تطلْ مدّته، وأقام في الملك سنتين إلاّ نصف شهر، وتوفي منتصف صفر سنة خمس وسبعين ومائتين، وفيه قيل[3]: [مجزوء الكامل]

بـالـمـنـذرِ بـن مـحـمـد ... صَـلُـحَـتْ بـلادُ الأنـدلُـسْ

ثم ولي أخوه عبد اللّه، قال ابن خلدون[4]: كان خراج الأندلس قبله ثلثمائة ألف دينار: مائة ألف للجيوش، ومائة ألف للنفقة في النوائب وما يعرض، ومائة ألف ذخيرة ووفرًا، فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثوّار والمتغلّبين في تلك السنين، وقلّ الخراج، انتهى.

---

(١) في طبعة عبد الحميد وفي تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٨٦): «ينبلونة» بالياء.

(٢) في ترجمته للمنذر ينقل المقري عن تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨) والمغرب (جـ ١ ص ٥٣ ـ ٥٤) وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ١١٣ ـ ١١٤) وأخبار مجموعة (ص ١٣٢).

(٣) البيت لابن عبد ربّه، وقد ورد في ديوانه (ص ٩٤) ضمن بيتين، والبيت الثاني هو:
فـالـطَّـيْـرُ فـيـهـا سـاكِـنٌ ... والـوَحْـشُ فـيـهـا قـد أَنِـسْ

(٤) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٨٨).

ومن نظم الأمير عبد الله قوله[1]: [السريع]

يا مُهجَةَ المشتاقِ ما أوجَعَكْ ... ويا أسِيرَ الحُبِّ ما أخْشَعَكْ
ويا رَسُولَ العَيْنِ مِنْ لَحظِهَا ... بالردِّ والتبليغ ما أسْرَعَكْ
تَذْهَبُ بالسِّرِّ فتأتي به ... في مَجْلسٍ يَخْفَى على مَن مَعَكْ
كم حاجةٍ أنْجَزْتَ إبرازَها ... تَبَارَكَ الرحمنُ ما أطْوَعَكْ

وهذه الأبيات عنوان فضله، وبَرَاعة استهلال نبله.

وكان الوزراء يُطَالعون بآرائهم الخليفَةَ في بطاقة، فطالعه وزيره النَّضر بن سَلَمة[2] برأيه في أمر في ورقة، فلمَّا وقف عليها لم يعجبه ذلك الرأي، فكتب[3]: [مجزوء الخفيف]

أنْتَ يا نَضْرُ آبِدَهْ[4] ... ليس تُرْجَى لفائدهْ
إنما أنتَ عُدَّةٌ ... لِكَنِيفٍ ومائِدهْ[5]

وتوفي الأمير عبد الله سنة ثلثمائة، ومدة ملكه نحو من خمس وعشرين سنة[6].

وولي حافِدُهُ عبد الرحمن الناصر[7] ابن ابنه محمد قتيل أخيه المُطَرِّف، وكانت ولايته من الغريب؛ لأنه كان شابًا، وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون، فَتَصَدَّى إليها واحتازها دونهم، ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلّبين، فأطفأ تلك النيران، واستنزل أهلَ العصيان، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نَيِّفٍ وعشرين سنة من أيامه، ودامت أيامه نحو خمسين سنة استفحل فيها مُلْكُ بني أُميّة بتلك الناحية،

---

(١) الأبيات في البيان المغرب (جـ ٢ ص ١٥٥) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ١٢١).
(٢) هو أبو محمد النضر بن سلمة بن وليد الكلابي القيسي؛ من أهل قرطبة، استقضاه الأمير عبد الله بقرطبة مرتين، ثم استوزره بعد ذلك. توفي سنة ٣٠٢ هـ. تاريخ علماء الأندلس (ص ٨٦٧).
(٣) البيتان في البيان المغرب (جـ ٢ ص ١٥٤) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ١٢٢).
(٤) الآبدة: الداهية. محيط المحيط (أبد).
(٥) الكَنِيفُ: المرحاض. محيط المحيط (كنف). يقول: لا تصلح لشيء، وأنت فقط مُعَدٌّ لأن تملىء بطنك وتفرغه فيما بعد.
(٦) في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٩٨): مدة حكمه ستّ وعشرون سنة.
(٧) يعود المقري للنقل عن تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٩٨).

وهو أول مَن تَسَمَّى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين، عندما التاث أمر[1] الخلافة بالمشرق، واستبدَّ مَوَالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة[2] فتلقّب بألقاب الخلافة، وكان كثير الجهاد بنفسه والغَزْو إلى دار الحرب، إلى أنْ هُزم عام الخندق سنة ثلاث وعشرين[3]، ومَحَّصَ اللّهُ فيها المسلمين، فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردّد الصَّوائف[4] في كل سنة، فَأَوْطَأَ عساكرَ المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يَطَأْه قبلُ في أيام سَلفه، ومَدَّتْ إليه أُممُ النصرانية من وراء الدروب يَدَ الإذعان، وأوفدوا عليه رُسُلَهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال[5] فيما يعنُّ في مرضاته، ووصل إلى سُدّته الملوكُ من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قَشْتَالة وبَنْبُلونة[6] وما يُنْسَبُ إليها من الثغور الجَوفية[7]، فَقَبَّلوا يده، والتمسوا رضاه، واحتقبوا[8] جوائزه، وامْتَطَوْا مراكبه، ثم سما إلى ملك العُدْوة فتناول سَبْتَة ونَقَلَ الفُرْضَة[9] من أيدي أهلها سنة سبع عشرة وثلثمائة، وأطاعه بنو إدريس أمراءُ العُدْوة وملوك زَنَاتة والبربر، وأجاز إليه الكثير منهم كما يُعْلَمُ من أخبارِهِ، وبدأ أمرَه أولَ ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا، انتهى كلام ابن خلدون.

وفيه يقول ابن عبد ربه صاحبُ العقد يوم تولّى الملك[10]: [المجتث]

بَدَا الهِلالُ جَدِيدًا ... والمُلْكُ غَضٌّ جَدِيدُ[11]
يا نِعْمَةَ اللّه زِيدِي ... إنْ كان فيك مَزِيدُ
إن كان للصَّوْم فِطْرٌ ... فأنتَ للدهرِ عِيدُ

(١) التاث أمر الخلافة: اختلط واضطرب. محيط المحيط (لوث).
(٢) قتل الخليفة المقتدر العباسي سنة ٣٢٠ هـ، وليس كما هنا. الكامل في التاريخ (جـ ٨ ص ٢٤١). وفي تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٩٨) أن المقتدر قتل سنة ٣٢٧ هـ.
(٣) الصواب: سنة ٣٢٧ هـ، كما سيأتي في هذا الجزء من نفح الطيب بعد قليل.
(٤) الصوائف: جمع صائفة وهي الغزوة في الصيف. محيط المحيط (صيف).
(٥) الاعتمال في مرضاته: أي العمل في سبيل مرضاته.
(٦) في طبعة عبد الحميد: «وينبلونة» بالياء.
(٧) الثغور الجوفية: الواقعة شمالاً.
(٨) احتقبوا جوائزه: ادّخروها واحتملوها. محيط المحيط (حقب).
(٩) الفُرْضَةُ: المرفأ. وقد سقطت كلمة «الفرضة» في تاريخ ابن خلدون.
(١٠) الأبيات في ديوان ابن عبد ربه (ص ٦٤).
(١١) يقول: إن الهلال بَدَا جديدًا؛ لأن الناصر وَلِيَ الحكم في مستهلّ الشهر.

وأراد بأول الأبيات أنه ولي مستهلّ ربيع الأول كما عُلم.

وما أشار إليه ابنُ خلدون في غَزْوة الخندق فَصَّله المسعودي فقال[1]، بعد أن أجرى ذكر مخالفة أُميّة بن إسحق على الناصر ودخوله أرض النصارى ودلالته إياهم على عَوْرات المسلمين، ما مُلَخَّصُه[2]: وغزا عبدُ الرحمن صاحبُ الأندلس سَمُّورة دارَ الجلالقة، وكان عبدُ الرحمن في مائة ألف أو يزيدون[3]، وكانت الوقعة بينه وبين[4] رُذْمير مِلِكِ الجلالقة في شوّال سنة ٣٢٧ بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر بثلاثة أيام، فكانت للمسلمين عليهم، ثم ثابوا[5] بعد أن حُوصروا وأُلجئوا إلى المدينة، فقتلوا من المسلمين بعد عُبورهم الخندقَ خمسين ألفًا[6]. وقيل[7]: إن الذي مَنَعَ رُذْمير من طلب مَنْ نَجَا من المسلمين أميةُ ابن إسحق[8]، وخَوَّفه الكمين، ورغَّبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعُدّة والخزائن، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين، ثم إن أميّة استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن وتخلّص من رُذْمير، وقبله عبد الرحمن أحسَنَ قَبول. وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جَهَّز عساكرَ مع عِدّة مِنْ قُوَّاده إلى الجلالقة، فكانت لهم بهم عدّة حروب هلك فيها من الجلالقة ضِعْفُ ما قُتل من المسلمين في الوقعة الأولى، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية، ورذْمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢[9]، انتهى.

وقال في موضع آخر ما مُلَخَّصُه[10]: إن عبد الرحمن غزا في أزيد من مائة ألف

---

(١) النص في مروج الذهب (جـ ١ ص ١٨٤) و(جـ ٢ ص ٩).

(٢) النص أيضًا في الروض المعطار (ص ٣٢٥) ولكن ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) هكذا في مروج الذهب (جـ ٢ ص ٩). وفي المصدر نفسه (جـ ١ ص ١٨٤) وفي الروض المعطار (ص ٣٢٤): «في أزيد من مائة ألف».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «وبني». ورذمير بالإسبانية Ramiro.

(٥) ثابوا: رَجَعوا. لسان العرب (ثوب). وفي مروج الذهب (جـ ٢ ص ٩): «أنابوا».

(٦) هكذا في مروج الذهب (جـ ٢ ص ٩). وفي المصدر نفسه (جـ ١ ص ١٨٤): ٤٠ ألفًا، وقيل: ٥٠ ألفًا.

(٧) لم يرد هذا القول في مروج الذهب (جـ ١ ص ١٨٤)، وورد في المصدر نفسه (جـ ٢ ص ٩ - ١٠).

(٨) أُميّة بن إسحق أخو أحمد بن إسحق، وزير عبد الرحمن الناصر؛ لمّا قتل الناصر وزيره أحمد بن إسحق عَصَى أحمدُ بن إسحق أميره والتحق برذمير ملك الجلالقة، فأعانه على المسلمين ودلّهم على عوراتهم. الروض المعطار (ص ٣٢٤ - ٣٢٥).

(٩) إلى هنا ينتهي النقل عن المسعودي في مروج الذهب (جـ ٢ ص ١٠).

(١٠) النص في مروج الذهب (جـ ١ ص ١٨٤).

[فارس] [١] من الناس، فَنَزَلَ على دار مملكة الجلالقة، وهي مدينة سمّورة، وعليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السالفة، وبين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة، وافتتح منها سُورَيْن، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم - ممّن أدركه الإحصاء وممّن عُرِف - أربعين ألفًا، وقيل: خمسين ألفًا، وكانت للجلالقة والبَشْكَنْس [٢] على المسلمين، انتهى كلام المسعودي.

رجع إلى أخبار الناصر - فنقول: إن الناصر - رحمه اللّه - كان له نظمٌ، وممّا نَسَبَ إليه بَعْضُهُمْ قوله: [الخفيف]

لا يضرُّ الصغيرَ حِدْثَانُ سنّ   إنما الشأنُ في سُعُود الصغيرِ
كم مقيمٍ فازَتْ يَداهُ بِغُنْمٍ   لم تَنَلْه بالرَّكْضِ كَفُّ مُغِير

هكذا ألفيْتُ البيتين منسوبين إليه بخط بعض الأكابر، ثم كتب بأثره ما نَصّهُ: الصحيح أنهما لغيره، واللّه أعلم، انتهى.

وكان الناصر - رحمه اللّه - قد استحجب موسى بن محمد بن حُدَيْر، واستوزر عبدَ الملك بن جَهْور وأحمد بن عبد الملك بن شُهَيد [٣]، وأهدى له ابنُ شهيدٍ هديته [٤] المشهورة المتعدّدة الأصناف، وقد ذكرها ابن حيّان وابن خلدون وغيرهما من المؤرّخين. قال ابن خلدون [٥]: وهي مما يدلُّ على ضخامة الدولة الأموية، واتّساع أحوالها، وكان ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة، لثمانٍ خَلَوْنَ من شهر جُمادى الأولى، وهي هدية عظيمة الشأن، اشتهر ذكرها إلى الآن، واتُّفِقَ على أنه لم يُهادَ أحدٌ من ملوك الأندلس بمثلها، وقد أعجبتِ الناصرَ وأهلَ مملكته جميعًا، وأقرُّوا أنَّ نفسًا لم تسمح بإخراج مثلها ضربَةً عن يدها، وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها، فاستحسنها [٦] الناسُ وكتبوها، وزاد الناصرُ وزيرَهُ هذا حُظْوَةً واختصاصًا، وأسْمى منزلتَه على سائر الوزراء

(١) كلمة «فارس» أضفناها من مروج الذهب، وهي ساقطة أيضًا في طبعة دار صادر.
(٢) في مروج الذهب: «والوشكند».
(٣) في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٢٩٩): «أحمد بن عبد الملك بن سعد».
(٤) تحدّث المقري أيضًا عن هذه الهدية في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٦١).
(٥) نص ابن خلدون في تاريخه (م ٤ ص ٢٩٩ - ٣٠١).
(٦) في طبعة دار صادر: «استحسنها».

جميعًا وأضعف له رزق الوزارة، وبلّغه ثمانين ألف دينار أندلسية، وبلغ معروفه[1] إلى ألف دينار، وثنى له العظمة لتثنيته له الرزق، فَسَمّاه «ذا الوزارتين» لذلك، وكان أول مَن تَسَمّى بذلك بالأندلس امتثالاً لاسم صاعد[2] بن مَخْلد وزير بني العباس ببغداد، وأمر بتصدير فراشه في البيت، وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق أول التسمية، فعظم مقداره في الدولة جدًّا.

وتفسيرُ هديته المذكورة على ما ثبت في كتاب ابن خلدون على ما يُفَسَّرُ: خمسمائة ألف مثقال من الذهب العَيْن، وأربعمائة رطل من التِّبر، ومصارفَةً خمسة وأربعون ألف دينار، ومن سبائك الفِضّة مائتا بَدْرة[3]. واقتصر ابن الفَرَضي على خمسمائة ألف دينار فقط، واثنا عشر رطلاً من العُود الهندي الذي يختم عليه كالشمع، ومائة وثمانون رطلاً من العود المتخيّر، ومائة رطل من العود الشبه المنتقى، هكذا ذكره ابن خلدون.

وقال ابن الفرضي مستندًا إلى الكتاب الذي وجّهه ابنُ شهيد مع الهدية: إن العود الغالي[4] من ذلك أربعمائة رطل، منها قطعة واحدة مائة وثمانون رطلاً.

وقال ابن خلدون: ومائة أوقية من المسك الذكي المفضّل في جنسه، انتهى.

وقال ابن الفرضيّ، نقلاً عن الكتاب المصحوب مع الهدية: إن المسك مائتا أوقية، واثنتا عشرة أوقية، ومن العنبر الأشهب الباقي على خلقته بغير صناعة خمسمائة أوقية، منها قطعة عجيبة ململمة الشكل وزن مائة أوقية، هكذا في تاريخ ابن خلدون.

وفي ابن الفرضي أن الكلَّ مائة أوقية، وأن هذه القطعة أربعون أوقية.

ومن الكافور المرتفع النقي الذكيِّ ثلثمائة أوقية.

قال ابن خلدون: ومن اللباس ثلاثون شِقَّة[5] من الحرير المختّم المرقوم بالذهب

---

(١) في طبعة دار صادر: «مصروفه».

(٢) هو ذو الوزارتين صاعد بن مخلد، من أهل بغداد، استكتبه الموفّق سنة ٢٦٥، توفي ببغداد سنة ٢٧٦ هـ. الأعلام (جـ ٣ ص ١٨٧ ومصادر حاشيته).

(٣) في طبعة دار صادر: «دينار من سبائك الفِضّة في مائتي بدرة...»، والبَدْرة هي كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف أو سبعة آلاف. محيط المحيط (بدر).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «العالي» بالعين المعجمة.

(٥) الشُقّة: الثوب. محيط المحيط (شقق).

كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع، وعشرة أفرية[1] من عالي جلود الفَنَك[2] الخراسانية.

وخالفه ابن الفرضيّ، إذ قال: ومن أنواع الثياب ثلاثون شقّة خَنج[3] خاصية للباسه بيضاء وملوّنة، وخمس ظهائر شعيبية[4] خاصية له، وعشر فِراء من عاليّ الْفَنَك منها سبعةٌ بِيضٌ خراسانيةٌ وثلاثٌ ملوّنةٌ، وستةُ مَطَارف عراقية خاصية له، وثمانٍ وأربعون ملحفة زهرية لكسوته، ومائة ملحفة زهرية لرقاده.

ولم يذكر ابن خلدون ذلك، وابنُ الفرضي أعرف، لا سيما وقد استند إلى كتاب المهدِي وصاحبُ البيت أدرى.

قال ابن خلدون: وعشرة قناطير شدّ فيها مائة جلد سَمُّور، وقاله ابن الفرضي أيضًا. وزاد ابن خلدون: وستة من السرادقات العراقية، وثمانية وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب، ثم قالا معًا: وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال، وزاد ابن خلدون: وثلاثون شِقّة من الفربون[5] لسروج الهبات، وزاد ابن الفرضي في الحرير المذكور: قيل: إنه قبضه منه صاحب الطراز ولم يأتِ به مع الهدية، وإنما دفعه لصاحب الطراز، وأثبته في الدفتر. قالا: وثلاثون بساطًا من الصوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعًا، وقال ابن خلدون: منتقاة مختلفة الألوان، قالا: ومائة قطعة مُصَلّيات من وجوه الفرش المختلفة، زاد ابن الفرضي: الصناعات من جنى البُسُط، قالا: وخمسة عشر نَخًّا[6] من عمل الخَزِّ المقطوع شطرها، قال ابن الفرضي: وسائرها من جنس البُسُط[7]، قال ابن خلدون: ومن السلاح والعدّة ثمانمائة من التجافيف[8] المزيّنة أيام البروز والمواكب، وقال ابن الفرضي:

---

(١) الأفرية: جمع فَرْوة.

(٢) الفَنَكُ، بالفتح: حيوان فَرْوَتُهُ أحسن الفِراء. محيط المحيط (فنك).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وخُلَج». وخَنج: لعلّها من الفارسية «خنك» بمعنى حرير أبيض.

(٤) الشعيبية: نوع من القماش.

(٥) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٠٠): «وثلاثون شقة الغريون من الملاحف لسروج الهبات».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «نوخا». والنَّخُ: بساط طويل، والجمع أنخاخ. محيط المحيط (نخخ).

(٧) في طبعة دار صادر: «البُسُط الوجوه».

(٨) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٠٠): «من تخافيف الزينة...».

مائة تجفاف بأبدع الصناعات وأغربها وأكملها، قالا: وألف تُرْس سلطانية، ومائة ألف سهم، زاد ابن خلدون: من النِّبال البارعة الصنعة، قال ابن خلدون: ومن الظهر خمسة عشر فرسًا من الخيل العِرَاب المتخيّرة لركاب السلطان فائقة النُّعوت، وقال ابن الفرضي: ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العِرَاب المتخيّرة لركابه خمسة عشر فرسًا، وخمس من عرض هذه الخيل مُسْرَجة مُلْجَمة لمراكب الخلافة مجالسُ سروجها خزّ عراقي، وثمانون فرسًا ممّا يصلح للوُصفاء والحَشَم، وقال ابن خلدون: مائة فرس من الخيل التي تصلح للركوب في التصرّف والغزوات، وقال ابن الفرضي: وخمسة أبغل عالية الركاب، وقال ابن خلدون: وعشرون من بغال الركاب مُسْرَجة مُلْجَمَة لمراكب الخلافة مجالسُ سُرُوجِها خزّ جعفري عراقي، قالا[1]: ومن الرقيق أربعون وَصِيفًا وعشرون جارية من متخيّر الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم. وقال ابن خلدون في الجواري: متخيّرات بكسوتهنّ وزينتهنّ، وقال ابن خلدون: ومن سائر الأصناف قرية[2] تغِلُّ آلافًا من أمداد الزرع، ومن الصخر للبنيان ما أُنفِقَ عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار، وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصلبه[3] وأقْوَمه قيمتها خمسون ألف دينار، انتهى.

وقال ابن الفرضي نقلاً عن كتاب ابن شهيد المصحوب مع الهدية عندما ذكر الرقيق ما صورته: وكان قد أربى[4] - أيّدَهُ اللّه! - بابتياعهم من مال الأخماس، فابْتَغَيْتُهُمْ[5] من نعمته عندي، وصَيَّرْتُهُمْ مِنْ بَعْثي، ومَع ذلك عشر قناطير سكر طبرزذ[6] لا سُحَاق فيه.

وفي آخر الكتاب: ولـمّا عَلِمْتُ تطلُّعَ مولاي - أيّده اللّه تعالى! - إلى قرية كذا بالقنبانية[7] المنقطعة الغرس شرفها[8]، وترداده - أيّده اللّه تعالى! - لذكرها لم أهنأ بعَيْشٍ حتى أعملْتُ الحيلة في ابتياعها بأحوازها، وأكْتَبْتُ وكيلَه ابن بقية الوثيقَةَ فيها باسمه،

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «قال».
(٢) عبارة «قرية تغلُّ...» غير موجودة في تاريخ ابن خلدون.
(٣) هكذا في تاريخ ابن خلدون، وفي طبعة عبد الحميد: «وأصيله» بالياء.
(٤) في طبعة دار صادر: «أمَرَني».
(٥) في طبعة دار صادر: «بابتياعهم».
(٦) الطَّبَرْزَذ: السكر الأبيض الصلب، فارسية.
(٧) مرّ التعريف بالقنبانية، وهي كلمة إسبانية تدلّ على الحقول والأرض الجرداء، وتكتب بالإسبانية Compaña.
(٨) في طبعة دار صادر: «الغرس في شرقها».

وضمّها إلى ضِياعه، وكذلك صَنَعْتُ في قرية شِيرَةَ من نظر جَيّان عندما اتّصل بي من وَصْفه لها وتطلُّعه إليها، فما زلْتُ أتصدّى لمسرّته بها حتى ابْتَعْتها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها، واحتاز ذلك كله الوكيلُ ابن بقيّة، وصار في يده له أبقاه اللّه سبحانه، وأرجو أنه سيرفع فيها في هذه السنة آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء اللّه تعالى. ولـمّا عَلِمْتُ نافذَ عزمه - أبقاه اللّه تعالى! - في البنيان، وكَلَفَهُ به، وفكّرْتُ في عدد الأماكن التي تطلع نَفْسُه الكريمة إلى تخليد آثاره في بنيانها - مَدَّ اللّه تعالى في عمره، وأوْفَى بها على أقصى أمله! - عَلِمْتُ أنَّ أُسَّهُ وقوامه الصخرُ والاستكثار منه، فأثارت لي همّتي ونصيحتي حكمة حيلة أَحْكَمَهَا سَعْدُك وجَدُّك اللذان يَبْعثان ما لا يتوهّم عليه، حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدَدَ ما كان يقوم على يدي عبدك ابن عاصم في عشرين عامًا، وينتهي تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين ألفًا أعجل شأنه في عام، سوى التوفير العظيم الذي يُبْديه العِيان قبلاً إنْ شاء اللّه تعالى، وكذلك ما ثابَ إليَّ في أمر الخشب لهذه المنيّة المكرّمة، فإنَّ ابنَ خليلٍ عَبْدَك المجتهدَ الدؤوبَ انتهى في تحصيل عدد ما تحتاج إليه إلى ثلثمائة ألف عود ونَيِّف على عشرين ألف عود، على أنه لا يدخل منه في السنة إلاَّ نحو الألفي عود، ففتح لي سَعْدُك رأيًا أُقيم له بتمامه جميعَ هذا الخشب العامّ على كماله بورود الجليبة لوقتها(١)، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفًا والستّين ألفًا، انتهى.

ومن غريب ما يُحْكَى(٢) عن أمير المؤمنين الناصر المذكور أنه أراد الفَصْد(٣)، فقعد بالبَهْو في المجلس الكبير المُشْرف بأعلى مدينته بالزهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيبُ الآلة وجَسَّ يد الناصر، فبينما هو إذ أطلَّ زُرْزُور(٤) فصعد على إناء ذهب بالمجلس، وأنشد: [مجزوء الكامل]

أيها الفاصِدُ رِفْقًا ... بأميرِ المؤمنينا
إنّما تَفْصِدُ عِرْقًا ... فيه مَحْيَا العالمينا

وجعل يُكَرِّرُ ذلك المرة بعد المرة، فاستظرف أميرُ المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف، وسُرَّ به غايَةَ السرور، وسأل عمّن اهتدى إلى ذلك وعلّم الزّرزور، فَذُكِرَ له أن

---

(١) أغلب الظن أنها تعني الخشب المجلوب.
(٢) ورد ذلك في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٦٥).
(٣) الفَصْدُ: قطع العِرْق. مختار الصحاح (فصد).
(٤) الزُرْزُور: طائر من نوع العصفور. محيط المحيط (زرزر).

السيدة الكبرى مَرْجانة أُمّ ولده وليّ عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك، وأعدّته لذلك الأمر، فوهب لها ما يُنَيِّف على ثلاثين ألف دينار.

وذكر ابنُ بَسّام أن أبا عامر بن شُهَيد أحمدَ بن عبد الملك الوزير أُهْدِي له غلامٌ من النصارى لم تقع العيونُ على شَبَهه، فَلَمَحَهُ الناصرُ فقال لابن شهيد: أنّى لك هذا؟ قال: هو من عند الله، فقال له الناصر: تُتْحِفُونَنا بالنجوم وتستأثرون بالقمر، فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام، وقال: يا بني، كن مع جملة ما بعثت به، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي، وكتب معه هذين البيتين[1]: [الطويل]

أمولايَ هذا البَدْرُ سارَ لأفْقِكُمْ ... ولَلأُفْقُ أَوْلَىٰ بالبُدُوْرِ من الأرضِ
أُرَضِّيْكُمُ بالنَّفْسِ وَهْيَ نفيسةٌ ... ولم أرَ قَبْلي مَنْ بمهجتِهِ يُرْضِي

فحسن ذلك عند الناصر، وأتحفه بمال جزيل، وتمكّنت عنده مكانته، ثم إنه بعد ذلك أُهْدِيَتْ إليه جاريةٌ من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينتهي[2] ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى، وبعثها معها، وكتب له: [الطويل]

أمولاي، هذي الشمسُ والبَدْرُ أوّلاً ... تَقَدَّمَ كيما يَلْتَقِي القَمَرانِ
قِرَانٌ لعَمْري بالسعادة قد أتى ... فَدُمْ منهما في كوثرٍ وجِنانِ
فما لَهُمَا واللهِ في الحُسْن ثالِثٌ ... وما لَكَ في مُلْك البَرِيَّة ثاني

فتضاعفت مكانته عنده.

ثم إن أحد الوشاة رفع للملك أنه بقي في نفسه من الغلام حرارة، وأنه لا يزال يذكره حين تُحَرِّكُهُ الشمول[3]، ويقرع السِّنَّ[4] على تعذّر الوصول، فقال للواشي: لا تُحَرِّكْ به لسانَكَ، وإلاّ طارَ رأسُك، وأعمل الناصرُ حيلةً في أن كتب على لسان الغلام رقعةً منها: «يا مولاي، تعلم أنك كنتَ لي على انفرادي[5]، ولم أزلْ معك في نعيم، وإنّي وإن كنتُ عند

(١) في طبعة عبد الحميد: «بهذه الأبيات».
(٢) في طبعة دار صادر: «يُنْهَى».
(٣) الشَّمُولُ: الخمر. لسان العرب (شمل).
(٤) قَرْعُ السِّن: كناية عن الندم. لسان العرب (قرع).
(٥) في طبعة دار صادر: «على انفراد».

الخليفة مشاركٌ في المنزلة، مُحاذِر ما يبدو من سطوة الملك، فتحيّل في استدعائي منه»، وبَعَثَها مع غلام صغير السنّ، وأوصاه أن يقول: من عند فلان، وإنَّ الملك لم يكلِّمْه قطّ، إنْ سأله عن ذلك، فلمَّا وقف أبو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم عَلِمَ من سؤاله ما كان في نفسه من الغلام، وما تكلَّم به في مجالس المُدام، فكتب على ظهر الرقعة ولم يَزِدْ حرفًا: [الطويل]

أَمِنْ بَعْدِ إحكامِ التجارِبِ ينبغي[1] لديَّ سقوطُ الطَّيْرِ في غابة الأَسَدْ
وما أنا مـمَّنْ يَغْلِبُ الـحُبُّ قَلْبَهُ ولا جاهلٌ ما يَدَّعِيهِ أُولُو الـحَسَدْ
فإن كنتُ رُوحِي قد وَهَبْتُكَ طائِعًا وكيف يَرُدُّ الرُّوحَ إنْ فارقَ الـجَسَدْ؟

فلما وقف الناصر على الجواب تَعَجَّبَ من فطنته، ولم يَعُدْ إلى استماع واشٍ به.

ودخل عليه بعد ذلك فقال له: كيف خلصت من الشَّرَكِ؟ فقال: لأنَّ عقلي بالهوى غير مشترك، فأنعم عليه، وزادت محبّته عنده، وممَّن ذكر هذه الحكاية صاحب «مطالع البدور، في منازل السرور»[2].

وأخبار الناصر طويلة جدًّا، وقد مُنِحَ الظفر على الثوّار، واستنزلهم من معاقلهم، حتى صَفَا له الوقت، وكانت له في جهاد العدو اليدُ البيضاء، فمن غَزَواته أنه غزا سنة ثمانٍ وثلثمائة إلى جِلِّيقية ومَلِكُها أردون بن أذفونش، فاستنجد بالبَشْكَنْس والإفرنجة وظاهَرَ شانجة بن غرسية[3] صاحب بَنْبُلونة[4] أمير البشكنس، فهزمهم، ووطىء بلادهم، ودوَّخَ أرضهم، وفتح معاقلهم، وخَرَّبَ حصونهم، ثم غزا بَنْبلونة[4] سنة ثنتي عشرة، ودخل دار الحرب، ودَوَّخَ البسائط، وفتح المعاقل، وخَرَّب الحصون، وأفسد العمائر، وجال فيها، وتوغّل في قاصيتها، والعدوُّ يُحَاذيه في الجبال والأوعار، ولم يظفرْ منه بشيء، ثم بَعْدَ مدّةٍ ظفر ببعض الثوّار عليه، وكان اسْتَمَدَّ بالنصارى فقتل الناصرُ مَنْ كان مع الثائر من النصارى أهل أَلْبَةَ، وفتح ثلاثين من حصونهم، وبلغه انتقاض طوطة[5] ملكة البَشْكَنْس فغزاها في بَنْبلونة[4] ودوَّخَ أرْضَها واستباحها، ورَجَعَ إلى قُرْطُبة، ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع

(١) في طبعة دار صادر: «يُبْتَغَى».
(٢) صاحب كتاب مطالع البدور هو بهاء الدين علي بن عبد الله الغُزُولي الدمشقي؛ أديب، له شعر، توفي بدمشق سنة ٨١٥ هـ. الأعلام (جـ ٤ ص ٣٠٦ ومصادر حاشيته).
(٣) هكذا في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٠٧). وفي طبعة عبد الحميد: «شانجة بن فرويلة».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «ينبلونة»، وفي تاريخ ابن خلدون: «بنبولة».
(٥) طوطة بالإسبانية Teoda.

وعشرين إلى جِلِّيقية فانهزم وأُصِيبَ فيها المسلمون، وقَعَدَ بَعْدَها عن الغزو بنفسه، وصار يرُدُّ البعوث والصوائف إلى الجهاد، وبعث جيوشه إلى المغرب فَمَلَكَ سَبْتة وفاسًا وغيرهما من بلاد المغرب، وطار صِيتُه وانتشر ذكره كما سبق. ولـمَّا هَلِكَ غرسية[1] بن شانجة ملك البَشْكَنْس قامت بأمرهم بعد أُخْتُهُ طوطة، وكفلت ولدَه، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين، فغزا الناصر بلادها، وخَرَّب نواحي بَنْبلُونة[2] ورَدَّدَ عليها، كما مَرَّ، الغزواتِ. وكان قبل ذلك سنة ثنتين وعشرين غزا إلى وَخْشَمَةَ[3]، ثم رحل إلى بَنبلونة[2]، فجاءته طوطة بطاعتها وعَقَدَ لابنها غَرْسِيَةَ على بنبلونة[2]، ثم عدل إلى أَلْبَة وبسائطها فَدَوَّخها وخَرَّب حصونها، ثم اقتحم جِلِّيقية ومَلِكُها يومئذ رُذْمير بن أردون، فخام عن لقائه، ودخل وَخْشَمَةَ، فنازله الناصر فيها، وهدم بُرْغُش[4] وكثيرًا من معاقلهم، وهزمهم مرارًا، ورجع، ثـم كانت بَعْدَها غزوةُ الخندق السابقة، وهابته أُمم النصرانية. ثم وفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب قسطنطينية وهديته، وهو يومئذ قسطنطين، واحتفل الناصرُ لقدومهم في يوم مشهود، وقال ابن خلدون[5]: ركبتْ في ذلك اليوم العساكرُ بالسلاح في أكمل شِكّة[6]، وزُيِّنَ القصرُ الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجُمِّلَ[7] السريرُ الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقَرَابة، ورُتِّبَ الوزراءُ والخدمة في مواقفهم، ودخل الرُّسُلُ فهالهم ما رأوه، وقُرِّبوا حتى أدَّوْا رسالتهم. وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل[8]، ويعظِّموا من أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة اللّه على ظهور دينه وإعزازه، وذلّة عدوِّه، فاسْتَعَدُّوا لذلك. ثم بهرهم هَوْل المجلس فَوَجَمُوا[9]، وشرعوا في

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ولـمّا هلك شانجة بن فرويلة ملك البشكنس قام بأمرهم بعده أُمُّه طوطة...»، والتصويب عن تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٠٨).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ينبلونة»، وفي تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٠٨): «بليونة».

(٣) وَخْشمة: بالإسبانية Osma.

(٤) بُرْغُش: بالإسبانية Burgos، وهي مدينة في بلاد الروم بالقرب من مدينة ليون. الروض المعطار (ص ٨٨).

(٥) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٠٩ - ٣١١).

(٦) في المصدر نفسه: «أكمل هيئة وزيّ». والشِّكّة: السلاح. محيط المحيط (شكك).

(٧) هكذا في تاريخ ابن خلدون. وفي طبعة عبد الحميد: «وحمل» بالحاء المهملة.

(٨) هكذا في تاريخ ابن خلدون، وفي طبعة دار صادر: «الحفل».

(٩) في تاريخ ابن خلدون: «فرجعوا».

القول فأُرْتِجَ عليهم، وكان فيهم أبو علي القالي[(١)] وافدُ العراق، كان في جملة الحكم وليّ العهد ونَدَبه لذلك استثارًا [الفخره][(٢)]، فعجز[(٣)]، فلمّا وجَمُوا كلُّهم قام مُنْذر بن سعيد البَلُّوطي[(٤)] من غير استعداد ولا رَوِيّة ولا[(٥)] تقدّم له أحد بشيء من ذلك، فَخَطَبَ واسْتَحْضَر[(٦)] وجَلَّى في ذلك القصد، وأنشد شعرًا طويلاً ارتجله في ذلك الغرض، ففاز بفخر ذلك المجلس، وعجب الناسُ من شأنه أكثر من كل ما وقع، وأعجب به الناصرُ، وولاّه القضاء بعدها، وأصبح من رجالات المعالم، وأخباره مشهورة، وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيّان وغيره. ثم انصرف هؤلاء الرُّسُل، وبعث الناصرُ معهم هشام ابن هذيل[(٧)] بهديّة حافلة ليؤكّد المودّة ويُحْسن الإجابة، ورَجَعَ بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رُسُل قسطنطين. ثم جاء رسول من ملك الصقالبة ـ وهو يومئذ هوتو[(٨)] ـ ورسول آخر من ملك الألمان، ورسول آخر من ملك الإفرنجة وراء البرت ـ وهو يومئذ أوقة[(٩)] ـ ورسول آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق ـ وهو يومئذ كِلْدة[(١٠)] ـ واحتفل الناصر لقدومهم، وبعث مع رسول الصقالبة ربيعًا الأسقُفَّ إلى ملكهم هوتو[(٨)] ورجع بعد سنتين.

---

(١) هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن سلمان القالي البغدادي اللغوي؛ كان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر. توفي بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٢٢٦) وبغية الوعاة (ص ١٩٨). وسيترجم له المقري في الجزء الرابع وسنشير هناك إلى مصادر ترجمته وهي ضافية.

(٢) كلمة «الفخره» ساقطة في طبعة عبد الحميد، وقد أضفناها من تاريخ ابن خلدون. وفي طبعة دار صادر: «بفخره».

(٣) كلمة «فعجز» ساقطة في طبعة دار صادر، وغير موجودة في تاريخ ابن خلدون.

(٤) منذر بن سعيد البلوطي من أهل قرطبة، قاضي قضاة الأندلس، وشاعر فصيح. توفي سنة ٣٥٥ هـ، وقيل: ٣٤٩ هـ. تاريخ علماء الأندلس (ص ٨٤٥) وبغية الوعاة (ص ٣٩٨) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٦٦) وجذوة المقتبس (ص ٣٤٨).

(٥) في طبعة دار صادر: «وما».

(٦) في طبعة دار صادر: «واسحنفر». وفي تاريخ ابن خلدون: «واستخفر».

(٧) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣١٠): «هشام بن كليب إلى الجاثليق».

(٨) هكذا في تاريخ ابن خلدون، وفي طبعة عبد الحميد: «دوقوه».

(٩) في طبعة عبد الحميد: «أوفة» وفي تاريخ ابن خلدون: «أفوه».

(١٠) كِلْدة هو Guido.

وفي سنة أربع وأربعين جاء رسول أردونَ[1] يطلب السلم، فعقد له، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال فرذلند قومس قَشْتيلة في عهده فأذن له في ذلك، وأُدْخِلَ في عهده، وكان غَرْسِيَةُ بن شانجة قد استولى على جِلِّيْقِيَّة بعد أبيه شانجة بن فرويلة[2] ثم انتقض عليه أهل جليقية، وتولّى كبرهم قومس قشتيلة فرذلند المذكور، ومال إلى أردون بن رذمير، وكان غرسية بن شانجة حافدًا لطوطة ملكة البَشْكَنْس، فامتعضت لحافدها غرسية، ووفدت على الناصر سنة أربع وأربعين مُلْقِيَةً بنفسها في عَقْد السلم لها ولولدها شانجة بن رذمير الملك، وإعانة حافدها غَرْسية بن شانجة على ملكه، ونصره من عدوّه، وجاء الملكان معها، فاحتفل الناصر لقدومهم، وعقد الصلح لشانجة وأُمّه، وبعث العساكر مع غَرْسِيَةَ ملك جِلِّيقية فردَّ عليه ملكه، وخَلَعَ الجلالقَةُ طاعة أردون إليه، وبعث إلى الناصر يشكره على فعلته، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك، وبما ارتكبه فرذلند قومسُ قَشْتيلة في نكثه ووثوبه، ويعيّره بذلك عند الأمم، ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك، ولمّا وصل رسول كلدة ملك الإفرنجة بالشرق، كما تقدَّم، وصل معه رسول ملك برشلونة وطَرَّكونة راغبًا في الصلح، فأجابه الناصر، ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودّة فأُجيب؛ انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار.

ولْنُفَصِّل بعض ما أجمله فنقول: ذكر ابنُ حيّان وغيرُ واحد أنَّ مُلْكَ الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادَتْهُ الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تَبْقَ أُمَّةٌ سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلاَّ وَفَدَتْ عليه خاضعةً راغبةً، وانصرفتْ عنه راضية، ومن جملتهم صاحبُ القسطنطينية العظمى[3]، فإنه هاداه، ورغب في مُوَادعته، وكان وصول أرساله في صفر سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة، وتَقَدَّم في كلام ابن خلدون أنها ستّ وثلاثون، فاللّه أعلم أيّهما أصحّ، وتأهَّبَ الناصرُ لورودهم وأمر أنْ يُتَلَقَّوْا أعظم تَلَقٍّ وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه، وأخرج إلى لقائهم بيَجايَة يحيىٰ بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق، فلمّا صاروا بأقرب المحلاّت من قُرْطُبة خرج إلى لقائهم القوّاد في العدد والعُدّة والتعبية، فتلقّوهم قائدًا

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: «أردون بن رذمير».
(٢) هو Sancho Fruela.
(٣) صاحب القسطنطينية العظمى هو قسطنطين بن ليون كما سيأتي بعد قليل.

بعد قائد، وكمل اختصاصهم بعد ذلك، بأنْ أخرج إليهم الفَتَيَيْن الكبيرَيْن الخصيين ياسرًا وتمّامًا، إبلاغًا في الاحتفال بهم، فلقِيَاهم بعد القواد، فاستبان لهم بخروج الفَتَيَيْن إليهم بَسْطُ الناصر وإكرامُه؛ لأنَّ الفِتْيَان حينئذ هم عظماء الدولة، لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه وبيدهم القصر السلطانيُّ، وأُنْزِلوا بمُنْية وليّ العهد الحكم المنسوبة إلى نصر[1] بعُدْوة قُرْطُبة في الرَّبَض، ومُنِعُوا من لقاء الخاصّة والعامّة جملةً، ومن ملابسة الناس طُرًّا، ورُتِّبَ لحجابتهم رجالٌ تخيّروا من الموالي ووُجوه الحَشَم فصيّروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلاً لأربع دول، لكل دولة أربع منهم، ورحل الناصر لدين اللّه من قصر الزهراء إلى قصر قُرْطُبة لدخول وفود الروم عليه، فقَعَد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة في بَهْو المجلس الزاهر قُعُودًا حسنًا نبيلاً، وقعد عن يمينه وليُّ العَهْدِ من بنيه الحكمُ ثم عبدُ اللّه[2] ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان، وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبّار ثم سليمان، وتخلّف عبد الملك؛ لأنه كان عليلاً لم يُطِقِ الحضورَ، وحضرَ الوزراءُ على مراتبهم يمينًا وشمالاً، ووقف الحُجّابُ من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم، وقد بُسِطَ صَحْنُ الدار أجمع بعتاق البُسُط وكرائم الدرانك[3]، وظُلِّلَتْ أبوابُ الدار وحناياها بظُلَل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسُلُ ملك الروم حائرين ممّا رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون، وهو في رَقّ[4] مصبوغ لونًا سماويًا مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مُدْرَجةٌ[5] مصبوغة أيضًا مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضًا فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده، وكان الكتاب بداخل دِرْجِ فضةٍ منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملوّن البديع، وكان الدِّرْجُ داخل جعْبة ملبسة

(١) في طبعة عبد الحميد: «نُصَير»، وهو خطأ، ومُنْية نصر قرية بالأندلس قريبة من قرطبة، وهي في شرقيِّها، وهي مُنية فسيحة ذات مبانٍ رفيعة، وقد ابتناها الإمام عبد اللّه بن محمد. الروض المعطار (ص ٥٤٨).

(٢) هكذا في المغرب (جـ ١ ص ١٨٧). وفي طبعة دار صادر: «عبيد اللّه».

(٣) الدرانك: جمع دِرْنكٍ وهو الطّنفسَةُ أي البساط. محيط المحيط (درنك) و(طنفس).

(٤) الرّقُّ، بفتح الراء وتشديد القاف: جلد رقيق يُكتَب فيه. محيط المحيط (رقق).

(٥) مدرجة: اسم مفعول من أدرج الكتاب، وهي هنا بمعنى ورقة مطوية.

بالديباج، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سَطْر منه: قسطنطين ورومانين[١] المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان مَلِكَا الروم، وفي سطر آخر: إلى[٢] العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه. ولمّا احتفل الناصرُ لدين الله هذا الاحتفال أَحَبَّ أن يقومَ الخطباءُ والشعراءُ بين يديه، لتذكرَ جلالةَ مقعده وعظيم سلطانه، وتصفَ ما تَهَيَّأ من توطيد الخلافة في دولته. وتَقَدَّمَ إلى الأميرِ الحَكَمُ ابْنُه وليُّ عهده بإعدادِ مَن يقوم بذلك من الخطباء، ويقدّمه أمام نشيد الشعراء، فأمر الحكمُ صنيعه الفقيهَ محمد بن عبد البرّ الكشكينانيَ[٣] بالتأهُّب لذلك، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدي الخليفة، وكان يَدَّعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وُسْع غيره، وحضر المجلس السلطاني، فلمّا قام يحاول التكلّم بما رأى هاله وبَهَره هَوْلُ المقام وأبّهة الخلافة، فلم يَهْتَدِ إلى لَفْظة، بل غُشِيَ عليه وسَقَطَ إلى الأرض، فقيل لأبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب الأمالي والنوادر، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافدُ عليه من العراقِ وأمير الكلام وبحر اللغة: قُمْ فارْقَعْ هذا الوَهْي[٤]، فقام فَحَمَدَ اللّهَ وأثنى عليه بما هو أهله، وصلَّ على نبيِّه ﷺ، هكذا ذكر ابن حيّان وغيره، وكلام ابن خلدون السابق يقتضي أنَّ القالي هو المأمور بالكلام أوّلاً والـمُعَدُّ لذلك، ونَحْوهُ في المطْمَح، والخَطْبُ سهل، ثم انقطع القول بالقالي، فوقف ساكتًا مُفَكِّرًا في كلام يَدْخُل به إلى ذكر ما أُريد منه، وقال في المطمح[٤]: إن أبا علي القالي انقطع وبُهِتَ، وما وصل إلاَّ قطع، ووقف ساكِتًا متفكّرًا، لا ناسيًا ولا متذكّرًا، فلمّا رأى ذلك مُنْذر بن سعيد- وكان ممّن حَضَرَ في زمرة الفقهاء- قام من ذاته، بدرجة مِنْ مِرْقاته، فوصل افتتاح أبي علي لأوّل خطبته بكلام عجيب، ونادى[٥] من الإحسان في ذلك المقام كلَّ مجيب، يسحُه سحًا كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدّة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي البغدادي، فقال[٦]:

---

(١) في طبعة دار صادر: «وروماناس».

(٢) في طبعة دار صادر: «العظيم الاستحقاق المفخر...».

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد البرّ القنباني، المعروف بالكشكيناني نسبة إلى قرية كشكينان من قنبانية قرطبة، كان من الثقات في الرواية، وله حظوة عند الحكم المستنصر. تاريخ علماء الأندلس (ص ٧٢٢) ومعجم البلدان (جـ ٤ ص ٤٦٣)، وفي طبعة دار صادر: «الكسنياني» وهو خطأ.

(٤) مطمح الأندلس (ص ٣٨).

(٥) في طبعة دار صادر: «ونادى في الإحسان من ذلك...».

(٦) الخطبة في مطمح الأنفس (ص ٣٨) وفي تاريخ قضاة الأندلس (ص ٦٦ ـ ٦٨) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٧٣).

أمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّه والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صَفِيِّهِ وخاتم أنبيائه، فإنَّ لكل حادثة مقامًا، ولكلِّ مقام مقال[١]، وليس بعد الحق إلاَّ الضلال. وإنِّي قد قُمْتُ في مقام كريم، بين يَدَيْ ملك عظيم؛ فأَصْغُوا إليَّ مَعْشَرَ الملإ بأسماعكم، وأتقنوا[٢] عني بأفئدتكم، إنَّ مِنَ الحقِّ أنْ يُقال للمُحِقِّ صَدَقْتَ، وللمُبْطِل كَذَبْتَ، وإنَّ الجليل تعالى في سمائه[٣]، وتقدّس بصفاته وأسمائه، أَمَرَ كَليمَهُ موسى صلَّى اللَّه على نبيّنا وعليه وعلى جميع أنبيائه، أنْ يذكّرَ قَوْمَهُ بأيام اللَّه، عَزَّ وجَلَّ، عندهم، وفيه وفي رسول اللَّه، ﷺ، أُسْوَة[٤] حسنة، وإنِّي أُذَكِّركم بأيام اللَّه عندكم، وتَلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لَمَّتْ شَعَثَكُم[٥]، وأَمَّنَتْ سِرْبَكم، ورفعت قوّتكم[٦]، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقوّاكم، ومُسْتَذَلِّينَ فَنَصَرَكُمْ، ولاَّه اللَّهُ رعايتكم، وأَسْنَدَ إليه إمامتكم، أيَامَ ضَرَبَتِ الفتنةُ سُرَادِقَهَا على الآفاق، وأحاطتْ بكم شُعَلُ النفاق، حتى صرْتُمْ في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير، فاستبدلْتُم بخلافته من الشدّة بالرخاء، وانتقلْتُمْ بيُمْنِ سياسته إلى تمْهيد كَنَف العافية بعد استيطان البلاء، أنشدكم[٧] باللَّه معاشرَ الملإ، ألم تكنِ الدماءُ مسفوكةً فَحَقَنَها، والسُّبُلُ مَخُوفةً فَأَمَّنَها، والأموالُ منتهبةً فأحرزها وحَصَّنها؟ ألم تكن البلادُ خرابًا فعَمَرَها، وثغورُ المسلمين مهتضمةً فحماها ونصرها[٨]؟ فاذْكُرُوا آلاء اللَّه عليكم بخلافته، وتلافيَهُ[٩] جَمْعَ كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أَذْهَبَ اللَّهُ عنكم غيظكم، وشَفَى صدوركم، وصرْتُمْ يدًا على عدوّكم، بعد أنْ كان بأسُكم بينكم، فأنشدكم[١٠] اللَّه ألم تكن خلافته قُفْلَ الفتنة بعد انطلاقها من عِقَالها؟ ألم

---

(١) في تاريخ قضاة الأندلس: «مقالاً».
(٢) في المصدر نفسه: «وأيقنوا». وفي طبعة دار صادر: «وألقنوا».
(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «إسمائه».
(٤) الأُسْوة: القدوة. محيط المحيط (أسو).
(٥) قوله: «لَمَّتْ شَعَثَكُمْ» سقط من مطمح الأنفس.
(٦) عبارة: «وأَمَّنَتْ سِرْبكم، ورَفَعَتْ قوتكم» سقطت من تاريخ قضاة الأندلس. وفي طبعة دار صادر: «ورفعت فُرْقَتَكُمْ».
(٧) في مطمح الأنفس: «ناشدتكم». وفي تاريخ قضاة الأندلس: «أنشدكم اللَّه».
(٨) في تاريخ قضاة الأندلس: «وزَهَّرها».
(٩) في المصدر نفسه: «وتأليفه».
(١٠) في طبعة دار صادر: «ناشدتكم»، وهكذا في تاريخ قضاة الأندلس.

يَتَلاَفَ صلاحَ الأمورِ بنفسه بعد اضطرابِ أحوالها ولم يَكِلْ ذلك إلى القوّاد والأجناد، حتى باشره بالقوّة والمُهْجَة والأولاد، واعتزل النُسْوان، وهَجَرَ الأوطان، ورفض الدَّعَة وهي محبوبة، وتراكَ الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطَوِيّة صحيحة[١]، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة[٢] نافذة ثاقبة، وريح هابَّةٍ غالبة، ونصرة من اللّه واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجَدّ ظاهر، وسيف منصور، تحت عَذَل مشهور[٣]، متحمّلاً للنَّصَب، مستقلاً[٤] لِمَا نَالَهُ في جانب اللّه من التعب، حتى لانت الأحوالُ بعد شدّتها، وانكسرتْ شَوْكة الفتنة عند حِدَّتها، ولم يَبْقَ لها غارب إلاّ جَبَّهُ[٥]، ولا نَجَمَ لأهلها قرنٌ إلاّ جدَّه[٦]، فأصبحتُمْ بنعمة اللّه إخوانًا، وبلمِّ أمير المؤمنين لشَعَثِكم على أعدائه أعوانًا، حتى تواترتْ لديكم الفتوحات، وفَتَحَ اللّهُ عليكم بخلافته أبوابَ الخيرات والبركات[٧]، وصارت وفودُ الروم وافدةً عليه وعليكم، وآمالُ الأقصَيْنَ والأدْنَيْنَ مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فَجّ عميق، وبلدٍ سَحيق، لأَخْذِ حبلٍ بينه وبينكم جملةً وتفصيلاً، ليقضي اللّه أمرًا كان مفعولاً، ولن يخلف اللّه وَعْدَه، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدلُّ على أمورٍ باطنة خافية، دليلُها قائم، وجَفْنُها غير نائم ﴿وَعَدَ اللّهُ الذين آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[٨] الآية، وليس في تصديق ما وعد اللّه ارتياب، ولكلِّ نبإٍ مُسْتَقَرٌّ ولكلِّ أَجَل كتاب. فاحْمَدُوا اللّهَ أيّها الناس على آلائه، واسألوه المزيدَ من نَعْمائه، فقد أصبحتُمْ بخلافة[٩] أمير المؤمنين أيّده اللّهُ بالعصمة والسَّدَاد، وأَلْهَمَهُ خالص[١٠] التوفيق إلى سبيل الرشاد، أحسنَ الناسَ حالاً، وأنعمهم بالاً،

---

(١) في مطمح الأنفس: «بطوية خالصة».

(٢) كلمة «ثابتة» ساقطة من تاريخ قضاة الأندلس.

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «منشور».

(٤) في المصدر نفسه: «مستقبلاً».

(٥) جَبَّهُ: قَطَعَهُ. محيط المحيط (جبب).

(٦) جَدَّه: قطعه. محيط المحيط (جدد).

(٧) في تاريخ قضاة الأندلس: «أبواب البركات، وصارت...».

(٨) سورة النور ٢٤، الآية ٥٥.

(٩) في طبعة دار صادر: «أصبحتم بِيُمْنِ خلافة...»، وفي تاريخ قضاة الأندلس: «أصبحتم بين خلافة...».

(١٠) في طبعة دار صادر: «بخالص»، وفي تاريخ قضاة الأندلس: «محاضر».

وأعزّهم قَرَارًا، وأَمْنَعَهُمْ دارًا، وأَكْثَفَهُمْ جَمْعًا، وأَجْمَلَهُمْ صُنْعًا، لا تُهاجَوْنَ ولا تُذادُوْن[1]، وأنتم بحمد اللّه على أعدائكم ظاهرون، فاسْتعينوا على صلاح أحوالكم، بالمناصحة[2] لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن[3] عَمِّ نبيِّكم، ﷺ، فإنّ مَن نزع يدًا[4] من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومَرَق من الدِّين[5]، فقد ﴿خَسِرَ الدُّنيا والآخِرَةَ ذلك هو الخُسْرانُ المُبِينُ﴾[6]، وقد علمْتُمْ أنَّ في التعلّق بعِصمتها، والتمسّك بعُرْوتها، حِفْظَ الأموال وحَقْنَ الدماء، وصلاح الخاصّة والدَّهْماء، وأنَّ بقوام الطاعة تُقام الحدود، وتُوفى العهود، وبها وُصِلَتِ الأرحامُ، ووضحت الأحكام، وبها سَدَّ اللّهُ الخَلَل، وأَمَّن السُّبُلَ، ووطَّأ الأكنافَ، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القَرَار، واطمأنَّتْ بكم الدار، فاعْتَصِموا بما أمركم اللّهُ بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿أَطِيعُوا اللّه وأَطِيعوا الرسولَ وأُوْلي الأمرِ مِنْكُمْ﴾[7]، وقد عَلِمْتُمْ ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المُشْركين، وصنوف المُلْحدين، الساعِينَ في شَقِّ عصاكم، وتفريق ملاكم[8]، الآخذين في مخاذلة دِينكم، وهَتْكِ حَريمكم، وتَوهِين دعوةِ نبيِّكم، صلواتُ اللّه وسلامه عليه وعلى جميع النبيّين والمرسلين، أقول قولي هذا وأختمُ بالحمد للّه ربِّ العالمين، مستغفرًا اللّهَ الغفورَ الرحيمَ فهو خير الغافرين.

وساقَ ابنُ سعيد في «المغرب» هذه الحكاية فقال ما صورته[9]: منذر بن سعيد البَلُّوطي، قاضي الجماعة بقرطبة،خطيبٌ مِصْقَع[10]، وله كتب مؤلفة في القرآن والسُّنّة

---

(١) لا تُهاجَون: أي لا يجرؤ أحدٌ على هجائكم؛ يقال: هاجيته مهاجاة أي هجوته وهجاني. لا تذادون: لا تدافعون؛ يقال: ذاده عنه إذا دفعه عنه. محيط المحيط (هجا) و(ذود). وفي تاريخ قضاة الأندلس: «تواذون» بدل «تذادون».

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس: «بالنصيحة».

(٣) جملة: «وابن عَمِّ... وسلم» سقطت من تاريخ قضاة الأندلس.

(٤) هكذا في تاريخ قضاة الأندلس، وفي مطمح الأنفس: «يده».

(٥) مَرَقَ من الدين: خرج. لسان العرب (مرق).

(٦) سورة الحج ٢٢، الآية١١.

(٧) سورة النساء ٤، الآية ٥٩.

(٨) ملاكم: مخففة من «ملئكم» مراعاة للسجعة. وفي تاريخ قضاة الأندلس ومطمح الأنفس: «ملّتكم».

(٩) لم ترد ترجمة منذر في المغرب المطبوع.

(١٠) المِصْقَعُ: البليغ. محيط المحيط (صقع).

والوَرَع، والردّ على أهل الأهواء والبِدَع، شاعر بليغ، وُلد سنة خمس وستّين ومائتين[1]، وأوّلُ سببه في التعلُّق بعبد الرحمن الناصر لَمَّا احتفلَ لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قُرْطُبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره، أَحَبَّ أنْ يقومَ الخطباءُ والشعراءُ بين يديه، لِذِكْرِ جلالة مقعده، ووَصْفِ ما تَهَيَّأَ له من توطيد الخلافة، ورَمْي ملوك الأمم بِسِهامِ بأسه ونَجْدَتِهِ، وتَقَدَّمَ[2] إلى الأمير الحكَمُ ابْنُهُ ووليُّ عهده بإعداد مَنْ يقوم لذلك من الخطباء، ويقدّمه أمام إنشاد الشعراء، فَتَقَدَّم الحكمُ إلى أبي عليّ البغدادي ضَيف الخليفة، وأميرِ الكلام وبحر اللغة، أن يقومَ، فقام وحَمِدَ اللّهَ وأثْنَى عليه وصلّى على نبيِّه محمد، ﷺ، ثم انقطع، وبُهِتَ فما وصل ولا قطع، ووقف ساكتًا مفكّرًا، فلمّا رأى ذلك منذرُ بن سعيدٍ قام قائمًا بدرجةٍ مِنْ مِرْقَاة أبي علي، ووصل افتتاحه بكلامٍ عجيبٍ بَهَرَ العقولَ جَزَالةً، وملأَ الأسماعَ جلالةً، ثم ذكر الخطبة كما سبق، وقال بعد إيرادها ما صورته: فصلب العِلْج وغلب على قلبه، وقال: هذا كبير القوم، أو كبش القوم، وخرج الناسُ يتحدّثون عن حُسْن مقامه، وثَبَات جَنَانه[3]، وبلاغة لسانه، وكان الناصر أشدّهم تعجّبًا منه، وأقبل على ابنه الحكم ـ ولم يكن يُثْبِتُ معرفته ـ فسأله عنه، فقال له: هذا منذر بن سعيد البلّوطي، فقال: واللّه لقد أَحْسَنَ ما شاء، ولَئِنْ أَخَّرَني اللّهُ بَعْدُ لأَرْفَعَنَّ من ذكره، فَضَعْ يدك يا حَكَمُ عليه، واسْتَخْلِصْه[4]، وذَكِّرني بشأنه، فما للصنيعة مَذْهَبٌ عنه، ثم ولاَّه الصلاةَ والخطابةَ في المسجد الجامع بالزهراء، ثم توفي محمد بن عيسى[5] القاضي فولاّه قضاءَ الجماعة بقُرْطُبة، وأَقَرَّه على الصلاة بالزهراء.

ومن شعره في هذه الواقعة قولُه[6]: [الطويل]

---

(١) صوابه: سنة ٢٧٣ هـ كما في تاريخ علماء الأندلس (ص ٨٤٦).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «وتقدمه».
(٣) الجَنَان، بالفتح: القلب. لسان العرب (جنن).
(٤) إسْتَخْلِصْهُ: إجْعَلْهُ من خلصائك. لسان العرب (خلص).
(٥) الصواب: «محمد بن أبي عيسى»، وهو أبو عبيد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أبي عيسى الليثي، وَلِيَ قضاء الجماعة بقرطبة في عهد الناصر سنة ٣٢٦ هـ، وهو من أهل الأدب والشعر. تاريخ علماء الأندلس، (ص ٧١٨) وجذوة المقتبس (ص ٧٤) وبغية الملتمس (ص ١١١) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٥٩). وسيترجم له المقري في الجزء الثاني من نفح الطيب في باب الراحلين من الأندلسيين إلى المشرق.
(٦) مطمح الأنفس (ص ٤٠).

مقالي[1] كَحَدِّ السَّيفِ وَسْطَ المحافِلِ ... فَرَقْتُ به ما بين حَقّ وباطل
بِقَلْبِ ذكيِّ ترتمي جَمَرَاتُهُ[2] ... كبارقِ رَعْدٍ عند رَعْشِ الأناملِ
فما دَحَضَتْ[3] رِجْلي ولا زَلَّ مِقْوَلي ... ولا طاشَ عقلي يوم تلك الزلازل
وقد حدّقَتْ حولي عُيُونٌ إخالها ... كمثلِ سِهامٍ أُثبِتَتْ في المقاتل
لِخَيرِ إمامٍ كان أو هو كائن ... لِمقْتَبِلٍ أو في العصورِ الأوائلِ
ترى الناسَ أفواجًا يَؤُمُّون بابَهُ ... وكلُّهُمُ ما بَينَ راجٍ وآمِلِ
وُفودُ ملوكِ الرومِ وَسْطَ فِنَائِهِ ... مخافَةَ بأسٍ أو رَجَاءَ لِنائِلِ
فَعِشْ سالمًا أقصى حياة مُؤَمَّلاً ... فأنت رجاء الكل[4] حافٍ وناعل
سَتَمْلِكُهَا ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

انتهى كلام ابن سعيد، وهو يؤيد كلام ابن خلدون أن المأمور بالخطبة هو القالي[5].

وذكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه[6]: لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حَبَّر[7] خطبته هذه وأعَدَّهَا مخافةَ أنْ يدورَ ما دار فيتلافى الوَهْي فإنه لَبَديعٌ من قدرته واحتياطه، ولَئِنْ كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب.

قال ابن سعيد: ولَمَّا فرغ منذر من خطبته أنشد[8]: [البسيط]

هذا المقامُ[9] الذي ما عابَهُ فَنَدُ ... لكنَّ قائلهُ[10] أزْرَى به البلدُ
لو كُنْتُ فيهمْ غريبًا كنت مُطَّرَفًا ... لكنني مِنهُمُ فاغتالني النَّكَدُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «مقالٌ».
(٢) في طبعة دار صادر: «جنباتُهُ».
(٣) دَحَضَتْ رِجْلي: زَلِقَتْ. مختار الصحاح (دحض).
(٤) في طبعة دار صادر: «فأنت غياث كل...».
(٥) هو أبو علي القالي، وقد تقدمت ترجمته.
(٦) انظر أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٧٦).
(٧) حَبَّرَ خطبته: كتبها. لسان العرب (حبر).
(٨) الأبيات الثلاثة في جذوة المقتبس (ص ٣٤٨) وبغية الملتمس (ص ٤٦٥) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٩) في جذوة المقتبس وبغية الملتمس «المقال».
(١٠) في المصدرين السابقين: «صاحبه».

[ويُرْوَى بدل هذا الشطر]

ولا دهاني لهمْ بَغْي ولا حَسَدُ

لولا الخلافةُ أبقى اللَّه حُرْمَتَهَا ما كنتُ أرضى[1] بأرضٍ ما بها أحَدُ

قلت: كأنه عرَّض بأبي علي القالي، وتقديمهم إياه في هذا المقام، واللَّه أعلم.

ومن نظم منذر بن سعيد قوله: [المنسرح]

الموتُ حَوْضٌ وكلُّنا نَرِدُ لم يَنْجُ مما يَخَافُه أحَدُ
فلا تَكُنْ مُغْرَمًا برزقِ غدٍ فلسْتَ تَدْرِي بما يجيء غَدُ
وخُذْ من الدهرِ ما أتاك به ويَسْلَم الروحُ منك والجسَدُ
والخَيْرُ والشَّرُّ لا تُذِعْهُ فما في الناس إلاَّ التشنيعُ والحَسَدُ

وله وقد آذاه شخص فخاطبه بالكُنْية، فقيل له: أيؤذيك وأنت تخاطبه بالكنية؟ فقال: [الكامل]

لا تعجبو مِنْ أنني كَنَّيْتُهُ مِنْ بَعْدِ ما قد سَبَّنَا وأذانا
فاللَّه قد كَنَّى أبا لَهَبٍ وَمَا كَنَّاه إلاَّ خِزْيَةً وهَوَانَا[2]

وقال في المطمح[3]: منذرُ بن سعيد البلوطي، آيةُ حركة وسُكُون، وبَرَكَة لم تكن مُعَدَّةً ولا تكون، وآية سَفَاهة في تَحَلُّمٍ، وجَهَامةٌ وَرَعٍ في طي تبسُّمٍ، إذا جَدَّ وَجَد[4]، وإذا هزل نزل، وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مَرْقَب[5]، ولا اكتسب إثمًا ولا احتَقَب[6]، وَلِيَ قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن، وناهيك من عَدْلٍ أظْهَرَ، ومِنْ فضلٍ أشْهَرَ، ومن جَورٍ قَبَضَ، ومن حَقّ رَفَعَ ومِنْ باطلٍ خَفَضَ، وكان مَهيبًا صليبًا صارمًا

---

(١) في جذوة المقتبس وبغية الملتمس: «اللَّهُ بَهْجَتَها ما كنتُ أبْقَى بأرض...».

(٢) يعتمد على قول اللَّه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وتَبَّ﴾. سورة المَسَد ١١١، الآية ١. وقد استعمل الكنية استصغارًا له ولم يستعمل اسمه وهو عبد العزّى.

(٣) مطمح الأنفس (ص ٣٧).

(٤) في مطمح الأنفس: «تجرّد».

(٥) المَرْقَب: مكان مرتفع لمراقبة العدو. لسان العرب (رقب).

(٦) إحْتَقَبَ الإثْمَ: ارتكبه. لسان العرب (حقب).

غير جبان ولا عاجزٌ ولا مراقبٌ لأحدٍ مِنْ خلقِ اللّه في استخراج حَقٍّ ورَفْعِ ظلم، واستمرَّ في القضاء إلى أنْ مات الناصر لدين اللّه ثم ولي ابْنُه الحكمُ فأقرَّه، وفي خلافته اسْتَعْفَى مرارًا فما أُعْفي، وتوفي بعد ذلك لم يحفظ[1] عنه مدّةَ ولايتِهِ قضيةُ جَوْر، ولا عُدَّتْ عليه في حكومته زلّة، وكان غزيرَ العلم، كثيرَ الأدب، متكلِّمًا بالحق، مُتَبَيِّنًا بالصدق، له كتب مؤلفة في السُّنَّة والقرآن والورع، والردّ على أهل الأهواء والبِدَع، وكان خطيبًا بليغًا وشاعرًا محسنًا، وُلِدَ عند ولاية المنذر بن محمد[2]، وتوفي سنة ٣٥٥، ومن شعره في الزهد قوله:

[الخفيف]

كم تَصَابَى وقد عَلاَكَ المَشِيبُ ... وتَعَامَى عَمْدًا وأنتَ اللبيبُ[3]؟
كيف تَلْهُو وقد أتاك نذيرٌ ... أنْ سَيَأْتي الحِمَامُ منك قريبُ
يا سفيهًا قد حانَ منه رَحِيلٌ ... بَعْدَ ذاك الرحيل يومٌ عَصِيبُ
إنَّ للموتِ سَكْرةً فارْتَقِبْهَا ... لا يُدَاوِي، إذا أتتك، طبيبُ
كم تَوَانَى[4] حتى تصيرَ رَهِينًا ... ثم تأتيك دَعْوَة فتجيبُ
بأمور المَعَاد أنتَ عليمٌ ... فاعْمَلَنْ جاهدًا له يا أُرِيبُ[5]
وتَذَكَّرْ يومًا تُحَاسَبُ فيه ... إنَّ مَنْ يدّكِرْ فسَوْفَ يُنيبُ
لَيسَ مِنْ ساعةٍ مِنَ الدهرِ إلاَّ ... للمنَايَا بها عليك رقيبُ

ولعلّنا نذكر شيئًا من أحوال منذر في غير هذا الموضع.

رَجْعٌ لأخبار الناصر لدين اللّه - حُكِيَ[6] أنه لَمَّا أُعْذِرَ لأولاد ابنه أَبي مروان عبيد اللّه اتَّخَذَ لذلك صنيعًا عظيمًا بقصر الزهراء لم يتخلَّف أحد عنه من أهل مملكته وأمر أنْ يُنْذَرَ لشهوده الفقهاءُ المشاورون ومَنْ يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس، فتخلَّف من بينهم المشاور أبو إبراهيم، وافْتُقِدَ مكانُهُ لارتفاع منزلته، فسأل في ذلك الخليفةُ الناصر، إذ أبو إبراهيم من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار، ووجِدَ الناصرُ بسبب ذلك على أبي

(١) في مطمح الأنفس: «تُحفَظ عليه».
(٢) ولد المنذر بن محمد سنة ٢٢٩ هـ، واتصلت ولايته سنتين غير خمسة عشر يومًا، ومات محاصرًا عمر ابن حفصون المولّدي في سنة ٢٧٥ هـ. جذوة المقتبس (ص ١١) والمغرب (جـ ١ ص ٥٤).
(٣) تصابى: أصلها «تتصابى»، وكذلك «تعامى» أصلها «تتعامى».
(٤) توانى: أصلها «تتوانى».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «ربيب».
(٦) انظر أزهار الرياحين (جـ ٢ ص ٢٨٢).

إبراهيم، وأَمَرَ ابنَه وليَّ العهد الحكَمَ بالكتاب إليه، والتفنيد له، فكتب إليه الحكمُ رقعةً نسختُها: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، حَفِظَكَ اللّهُ وتولاّك! وسدّدك ورعاك! لَمّا امْتَحَنَ أميرُ المؤمنين مولاي وسيدي - أبقاه اللّه! - الأولياءَ الذين يَسْتَعِدُّ بهم وَجَدَكَ متقدّمًا في الولاية، متأخِّرًا عن الصِّلَة، على أنه قد أنذرك - أبقاه اللّه! - خصوصًا للمشاركة في السرور الذي كان عنده، لا أعدمه اللّه توالي المسرّة، ثم أُنْذِرْتَ من قَبْلُ إبلاغًا في التكرمة، فكان منك على ذلك كله من التخلّف ما ضاقت عليك فيه المعذرة، واستبلغ أميرُ المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه، فأَعْيَتْ عليك[1] عنك الحجَّةُ، فعرِّفْنِي - أَكْرَمَك اللّهُ! - ما العذرُ الذي أوجب توقفَكَ عن إجابة دعوته، ومشاهدة السرور الذي سُرَّ به ورَغِبَ المشاركة فيه، لنعرِّفَه - أبقاه اللّه! - بذلك، فتسكن نَفْسُهُ العزيزةُ إليه إن شاء اللّه تعالى». فأجابه أبو إبراهيم: «سلامٌ على الأمير سيدي ورحمة اللّه، قرأت - أبقى اللّهُ الأميرَ سيدي! - هذا الكتاب وفهمته، ولم يكن توقفي لنفسي، إنّما كان لأمير المؤمنين سيدنا أَبْقَى اللّهُ سلطانه، لِعِلْمِي بمذهبه، وسكوني إلى تَقْواه، واقتفائه لأثر سَلَفِهِ الطَّيِّبِ رضوانُ اللّه عليهم، فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقيةً لا يمتهنونها بما يَشِينُها[2]، ولا بما يغضّ منها ويطرق إلى تنقيصها، يستعدّون بها لدينهم، ويتزيَّنُون بها عند رعاياهم ومَن يَفِدُ عليهم من قُصّادهم، فلهذا تَخَلَّفْتُ، ولعلمي بمذهبه تَوَقَّفْتُ، إن شاء اللّه تعالى». فلما أقرأ الحكمُ أباه الناصرَ لدين اللّه جوابَ أبي إبراهيم إسحق أعجبه، واسْتَحْسَنَ اعتذاره، وزال ما بنفسه عليه.

وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور مُعَظَّمًا عند الناصر وابنه الحكم، وحُقَّ لهما أن يُعَظِّماه، وقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مُفَرِّج قال[3]: كنت أختلف إلى الفقيه أبي إبراهيم - رحمه اللّه وتعالى! - فيمن يختلف إليه للتفقُّه والرواية، فإني لَعِنْدَهُ في بعض الأيام في مجلسه بالمسجد المنسوب لأبي عثمان الذي كان يُصَلِّي به قُرْبَ داره بجوفيِّ قَصْرِ قُرْطُبَة، ومَجْلِسُه حافلٌ بجماعة الطلبة، وذلك بين الصلاتين، إذ دخل عليه خَصِيٌّ من أصحاب الرسائل، جاء من عند الخليفة الحكم، فوقف وسَلَّم، وقال له: يا فقيهُ، أَجِبْ أميرَ المؤمنين أبقاه اللّه، فإنَّ الأمرَ خرج فيك[4]، وها هو قاعِدٌ ينتظرك، وقد أُمِرْتُ بإعجالك،

---

(١) الصواب أن نقول: «فأعيت عليَّ عنك الحجة»، أي لم نستطع الاعتذار عنك.

(٢) يشينها: يعيبها. لسان العرب (شين).

(٣) انظر أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٨٥).

(٤) خرج الأمرُ فيك: أي صدر من أمير المؤمنين إليَّ لأنفذه فيك.

اللَّه اللَّه، فقال له: سمعًا وطاعةً لأمير المؤمنين، ولا عجلَةَ، فارْجعْ إليه وعَرِّفْه وفَّقَهُ اللَّهُ عني أنك وجدتني في بيت من بيوت اللَّه تعالى معي طلابُ العلم أُسْمِعهُمْ حديثَ ابنِ عَمِّه رسولِ اللَّه، ﷺ، فهم يُقَيِّدُونَه عني، وليس يمكنني تركُ ما أنا فيه حتى يتمّ المجلسُ المعهود لهم في رضا اللَّه وطاعته، فذلك أوكد من مَسيري إليه الساعَةَ، فإذا انقضى أَمْرُ مَنِ اجتمعَ إليَّ من هؤلاء المحتسبين[1] في ذات اللَّه الساعين لمرضاته مَشَيْتُ إليه إن شاء اللَّه تعالى. ثم أقبل على شأنه، ومَضَى الخصيُّ يُهَيْنِم[2] متضاجرًا من توقفه، فلم يَكُ إلاَّ ريثما أدَّى جوابه، وانصرفَ سريعًا ساكنَ الطيش، فقال له: يا فقيه، أنهيتُ قولك[3] على نَصِّه إلى أمير المؤمنين أبقاه اللَّه، فأَصْغَى إليه، وهو يقول لك: جَزاكَ اللَّهُ خيرًا عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين! وأمتعهم بك! وإذا أنت أَوعَبتَ[4] فامْضِ إليه راشدًا إن شاء اللَّه تعالى، وقد أُمِرْتُ أنْ أبقى معك حتى ينقضي شغلُك وتمضي معي، فقال له: حسن جميل، ولكنني أضْعُفُ عن المشي إلى باب السُّدَّة، ويصعب عليَّ ركوبُ دابّة لشيخوختي وضعف أعضائي، وبابُ الصناعة الذي يقرب إليّ من أبواب القصر المكرَّم أحْوَطُ لي وأقربُ، وأرفق بي، فإنْ رأى أميرُ المؤمنين - أيَّدَهُ اللَّه تعالى! - أنْ يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هَوَّنَ عليَّ المَشْيَ، ووَدُعَ جسمي[5]، وأُحِبُّ أنْ تعودَ وتُنهي إليه ذلك عنّي حتى تعرفَ رأيه فيه، وكذلك تعود إليَّ فإني أراك فتًى سديدًا، فكُنْ على الخير مُعِينًا. ومَضَى عنه الفتى، ثم رَجَعَ بعد حين وقال: يا فقيه، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألْتَ، وأَمَرَ بفَتْح باب الصناعة وانتظارك من قبله، ومنه خَرَجْتُ إليك، وأُمِرْتُ بملازمتك مذكّرًا بالنهوض عند فراغك، وقال: إفْعَلْ راشدًا. وجلس الخصيُّ جانبًا حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه بأكمل وأفسح[6] ما جرت به عادتُه غيرَ مُنْزَعِجٍ ولا قَلِقٍ، فلمّا انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثم مضى إلى الخليفة الحَكم فوصل إليه من ذلك الباب، وقضى حاجته من لقائه، ثم صرفه على ذلك الباب، فأُعِيْدَ إغلاقُهُ على إثْر خروجه. قال ابنُ

---

(١) المحتسبون: جمع محتسب وهو الذي يبتغي أجْرَه من اللَّه. محيط المحيط (حسب).
(٢) يهينم: يتكلم بصوت خفيّ. لسان العرب (هينم).
(٣) أنهَيْتُ قولَكَ: أبْلَغْتُه؛ يقال: أَنْهَى الشيءَ إذا أَبْلَغَهُ. محيط المحيط (نهى).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «أوعيت». وأَوْعَبَ: وَعَبَ؛ يقال: وَعَبَه يَعِبُهُ إذا أخذه أجمع ولم يَدَعْ منه شيئًا. محيط المحيط (وعب).
(٥) وَدُعَ جسمي: استراح. لسان العرب (ودع).
(٦) في طبعة دار صادر: «مجلسه كأفسح ما...».

مفرّج: ولقد تَعَمَّدْنا في تلك العَشِية إثْر قيامنا عن الشيخ أبي إبراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقُه بدُبْرِ القصر لنرى تجشُّم الخليفة له، فوجدناه مفتوحًا كما وصف الخصي(١)، وقد حَفَّهُ الخدمُ والأعوانُ منزعجين ما بين كَنَّاسٍ وفَرّاش متأهِّبين لانتظار أبي إبراهيم، فاشتدَّ عجبُنا لذلك، وطال تحدُّثُنا عنه، انتهى. فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك مع العلماء(٢)، قَدَّسَ اللّهُ تلك الأرواح!.

ثم توفي الناصر لدين اللّه ثاني - أو ثالث - شهر رمضان، من عام خمسين وثلثمائة، أعظَمَ ما كان سلطانه، وأعزَّ ما كان الإسلام بملكه.

قال ابن خلدون: خَلَّف الناصرُ في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات، انتهى.

وقال غير واحد(٣): إنه كان يقسم الجِبَاية أثلاثًا: ثلث للجند، وثلث للبناء، وثلث مدَّخر، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكُوَر والقُرَى خمسةَ آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستّين ألف دينار، وأمَّا أخماس الغنائم العظيمة فلا يُحْصِيْها ديوان.

وحُكِيَ(٤) أنه وُجِدَ بخطِّ الناصر - رحمه اللّه! - أيام السرور التي صَفَتْ له دون تكدير يومُ كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا، وعُدَّتْ تلك الأيامُ فكانت أربعة عشر يومًا، فاعْجَبْ أيها العاقلُ لهذه الدنيا وعدم صفائها، وبُخْلِها بكمال الأحوال لأوليائها، هذا الخليفة الناصر حلف السعود، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود، مَلَكَها خمسين سنة وستة - أو سبعة - أشهر وثلاثة أيام، ولم تَصْفُ له إلاَّ أربعة عشر يومًا، فسبحان ذي العزّة القائمة، والمملكة الدائمة لا إله إلاَّ هو.

وممّا يُنْسَبُ للناصر من الشعر، وقيل: لابنِهِ الحكم، قوله(٥): [مخلع البسيط]

مَا كُلُّ شيءٍ فَقَدْتُ إلاَّ … عَوَّضَني اللّهُ عنه شَيَّا

(١) في طبعة دار صادر: «الخصي مفتوحًا...».
(٢) في طبعة دار صادر: «والملوك معهم...».
(٣) انظر المغرب (جـ ١ ص ١٨٣) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٧١).
(٤) انظر المغرب (جـ ١ ص ١٨٢) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٨٢).
(٥) هكذا وردت الأبيات في المغرب (جـ ١ ص ١٨٤).

إنـي إذا مـا مَـنَـعْـتُ خَـيْـري　　　تـبـاعَـدَ الـخَـيْـرُ مِـنْ يَـدَيَّـا
مَـنْ كـان لـي نِـعْـمَـةٌ عـلـيْـهِ　　　فـإنَّـهـا نِـعْـمَـةٌ عَـلَـيَّـا

ومـمّـا زيَّن اللَّه به دولَةَ الناصر وزراؤه الذين من جملتهم ابنُ شُهَيد، قال في المطمح[1]: أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شُهَيد[2]، مفخرُ الإمامة، وزَهْرُ تلك الكمامة، وحاجب[3] الناصر عبد الرحمن، وحاملُ الوزارتين على سُمُوِّها في ذلك الزمان، استقلَّ بالوزارة على ثقلها، وتصرَّف فيها كيف شاء على حدِّ نظرها والتفات مُقلها، فظهر على أولئك الوزراء، واشتهر مع كثرة النظراء، وكانت إمارة عبد الرحمن أسعد إمارة، بَعُدَ عنها كلُّ نَفْسٍ بالسُّوء أمَّارة، فلم يطرقْها صَرْف، ولم يَرْمُقْها محذور بطَرْف، فَفَرَعَ[4] الناسُ فيها هِضَابَ الأمانيِّ ورُبَاها، ورَتَعَتْ ظباؤها في ظلال ظُبَاها، وهو أَسَدٌ على بَرَاثنه رابض، وبَطَلٌ أبدًا على قائم سيفه قابض، يَرُوعُ الرومَ طَيْفُه، ويجوسُ خلال تلك الديار خَوفُهُ، ويَرْوَى بل يَحْسِمُ[5] كلَّ آونة سَيْفُهُ، وابنُ شهيد يَنْتِجُ الآراءَ ويُلْقِحُها، وَيَنْقُد تلك الأنحاءَ وينقحُها، والدولة مشتملةٌ بغنائه، متجمّلة بسنائه، وكَرَمُه منتشرٌ على الآمال، ويَكْسُو الأولياء بذلك الإجمال[6]، وكان له أدب تزخَرُ لُجَجُهُ، وتَبْهَرُ حُجَجُهُ، وشعرُه رقيقٌ لا يُنْتَقَدُ، ويكاد من اللطافة يُعْقَدُ، فمن ذلك قوله: [الطويل]

تَرَى البَدْرَ منها طالعًا فكأنَّما　　　يَجُولُ وِشَاحَاها على لُؤلؤ رَطْبِ
بَعِيدَةُ مَهْوَى القُرْطِ مُخْطَفَةُ الحَشَا　　　ومُفْعَمةُ الخلخالِ مُفْعَمَةُ القُلْبِ[7]
مِنَ اللاَّءِ لم يَرْحَلْنَ فوق رواحل　　　ولا سِرْنَ يومًا في ركاب ولا رَكْبِ

(١) مطمح الأنفس (ص ٩).
(٢) أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد هو جَدُّ أحمد بن عبد الملك، صاحبِ رسالة التوابع والزوابع؛ من أهل الأدب البارع، وله قوة في البديهة. جذوة المقتبس (ص ١٣١) وبغية الملتمس (ص ١٩٠) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٣٧).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «وصاحب».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «فقرع» بالقاف. وفَرَعَ الناسُ الهضابَ: صعدوها. لسان العرب (فرع).
(٥) يَرْوَى: يشرب. يَحْسِمُ: يقطع. محيط المحيط (روى) و(حسم). يريد أنَّ سيفه قاطع صارم يرتوي من ماء أعدائه.
(٦) الإجمال: مصدر أجمل؛ يقال: أجمل الصنيعة إذا حَسَّنها، والمراد هنا الإحسان، لسان العرب (جمل).
(٧) القُلْبُ، بضم القاف وسكون اللام: سِوارٌ للمرأة. لسان العرب (قلب).

ولا أَبْـرَزَتْـهُـنَّ الـمُـدَامُ لِـنَـشْـوَةٍ وشَدْوٍ كما تشدو القِيانُ على الشَّرْبِ

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور متولِّي الأمر معه، ومشاركه في التدبير إذا حضر مجتمعه، منافسةٌ، لم تنفصِل لهما بها مُدَاخلة ولا ملابسة، وَكلاهما يَتَرَبَّصُ بصاحبه دائرة السَّوْء، ويغصّ به غَصَص الأفق بالنَّوْء، فاجتاز يومًا على رَبَضه، ومال إلى زيارته ولم تكن من غَرَضه، فلمَّا استأمر عليه، تأخَّر خروج الإذن إليه، فثَنَى عِنانَهُ حَنَقًا من حِجَابه، وضجرًا من حُجَّابه، وكتب إليه مُعَرِّضًا، وكان يُلَقَّبُ بالحمار[1]: [الطويل]

أتيناكَ لا عَنْ حاجةٍ عَرَضَتْ لنا إلَـيْكَ ولا قَلْبٍ إليكَ مَشُوقِ
ولـكـنَّـا زُرْنـا بفَـضْـلِ حُـلوْمِـنـا حِـمـارًا تَـوَلَّـى بِـرَّنـا بـعُـقُـوقِ[2]

فراجعه ابنُ جهور يغضُّ منه، بما كان يَشِيعُ عنه، بأنَّ جدّه أبا هشام، كان بَيطَارًا بالشام، بقوله[3]: [الطويل]

حَـجَـبْـنَـاك لَـمَّـا زُرْتَـنا غَـيْـرَ تائقٍ بِقَلْبِ عَدُوّ في ثيابِ صَديقِ
وما كان بَيْطَارُ الشَّآم بِمَوْضِعٍ[4] يُـبَـاشِـرُ فـيـه بِـرَّنَـا بـخَـلِـيـقِ[5]

ومن شعره قوله يتغزل: [الوافر]

حَلَفْتُ بِمَنْ رَمَى فأصابَ قَلْبِي وقَـلَّـبَـهُ عـلـى جَـمْـرِ الـصُّـدُودِ
لَـقَـدْ أوْدَى تـذكُّـرُهُ بـقـلـبـي ولَسْتُ أشُكُّ أنَّ النَّفْسَ تُودِي
فَـقِـيـدٌ وَهْـوَ مـوجـوْدٌ بـقـلـبـي فَـوَا عَـجَـبًـا لـمـوجـودٍ فَـقِـيـدِ

وقد تقدَّم الكلام على هدية ابن شُهيد وبعض أخباره، رحمة اللّه عليه!.

ولَـمَّا توفي الناصرُ[6] لدين اللّه تولَّى الخلافةَ بعده وليُّ عهده الحَكَمُ المستنصرُ باللّه

(١) البيتان في جذوة المقتبس (ص ١٣٢) وبغية الملتمس (ص ١٩٠) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٣٨).
(٢) عجز هذا البيت في طبعة عبد الحميد هو: «فكيف تُلاقي بِرّنا بعقوقِ».
(٣) البيتان في جزوة المقتبس (ص ١٣٢) وبغية الملتمس (ص ١٩٠) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٣٨).
(٤) في جذوة المقتبس وبغية الملتمس: «الموضع».
(٥) ابن جَهْوَر يُعَيِّرُ ابنَ شهيد في هذا البيت بمَا يقال بأنّ جَدّه كان يعمل بَيطارًا في الشام قبل أن يخدم معاوية بن مروان بن الحكم ويدخل في ولائه.
(٦) عاد المقري للنقل عن ابن خلدون في تاريخه (م ٤ ص ٣١٢ ـ ٣١٧).

فَجَرَى على رَسْمِه، ولم يفقد من ترتيبه إلاّ شخصه، وولي حجابته جَعْفر المصحفي[١].

وأهدى له يوم ولايته هديّة كان فيها من الأصناف ما ذكره ابن حيّان في «المقتبس» وهي: مائة مملوك من الإفرنج ناشبة[٢] على خيول صافنة كاملو الشّكة[٣] والأسلحة من السيوف والرماح والدّرق والتّراس والقلاَنس الهندية[٤]، وثلثمائة ونَيِّف وعشرون درعًا مختلفة الأجناس، وثلثمائة خُوذة كذلك، ومائة بَيضَة هندية، وخمسون خشبية[٥] من بيضات الفرنجة من غير الخشب يسمّونها الطاشانية[٦]، وثلثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية[٧]، وعشرة جَوَاشن فضة[٨] مذهبة، وخمسة وعشرون قرنًا مذهبة من قرون الجاموس، انتهى.

قال ابن خلدون[٩]: ولأوّل وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور، فغزا الحكم المستنصر[١٠] بنفسه، واقتحم[١١] بلد فرذلند[١٢] بن غندشلب، فنازل شنت إشتبين[١٣] وفتحها عَنْوَةً واستباحها، وقفل، فبادروا إلى عَقْدِ السلم معه وانقبضوا عمّا كانوا فيه. ثم أغزى غالبًا مولاه بلادَ جِلِّيقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب، فجمع له الجلالقة،

---

(١) هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر، المعروف بالمصحفي، من برابر بلنسية، تولّى الحجابة والوزارة بالأندلس، وكان من أهل العلم والأدب البارع، وله شعر كثير رائع. توفي سنة ٣٧٢ هـ. الحلة السيراء (جـ ١ ص ٢٥٧) وجذوة المقتبس (ص ١٨٧).

(٢) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣١٣): «ناشئة»، وهكذا في طبعة دار صادر.

(٣) في المصدر نفسه: «الشيكة».

(٤) في المصدر نفسه: «الهندوية».

(٥) في المصدر نفسه: «وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الإفرنجة غير الحبش التي يسمّونها...».

(٦) هكذا في تاريخ ابن خلدون. وفي طبعة دار صادر: «الطشطانة»، وهي باللغة الرومنثية «Tistina»، مشتقة من كلمة «Testa» وتعني الرأس.

(٧) في تاريخ ابن خلدون: «سلطانية الجنس».

(٨) في المصدر نفسه: «نقية مذهّبة».

(٩) كلام ابن خلدون متّصل بما قبله في النقل عنه.

(١٠) كلمة «المستنصر» ساقطة من تاريخ ابن خلدون.

(١١) من هنا حتى «وقفل» غير موجود في تاريخ ابن خلدون.

(١٢) في طبعة عبد الحميد: «فرلند»، وهو بالإسبانية Fernando Gonzalo.

(١٣) شنت إشتبين: بالإسبانية San Esteban من مدينة وشقة Huesca.

ولقيهم[1]، فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكرَ بلدَ فرذلند[2] ودوَّخها، وكان شانجة بن رُذمير ملكُ البَشْكَنس قد انتقض، فأغزاه الحكمُ التجيبيَّ[3] صاحبَ سرقسطة في العساكر. وجاء ملكُ الجلالقة لنصره، فهزمهم، وامتنعوا بقُورِيَةَ[4]، وعاثوا في نواحيها، وقفل، ثم أغزى الحكَمُ أحمدَ بن يعلى ويحيىٰ بن محمد التجيبي إلى بلاد بَرْشَلُونة، فعاثتِ العساكرُ في نواحيها، وأغزى هُذَيلَ بنَ هاشم ومولاه غالبًا إلى بلاد القومس، فعاثا فيها، وقفلا، وعظمت فتوحات الحكم وقوّاد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فَتْح قَلَهُرَّة[5] من بلاد البَشْكَنس على يد غالب، فعمرها الحكم، واعتنى بها، ثم فتح قَطْرِبَة[6] على يد قائد وَشْقة وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث وفي بسيطها من الغنم والبقر والرَّمَك[7] والأطعمة والسَّبْي ما لا يُحْصَى.

وفي[8] سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألْبَة، ومعه يحيىٰ بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون، فابتنى حصن غُرْماج[9] ودَوَّخ بلادَهُم، وانصرف. وظهرت في هذه السنة مراكبُ المجوس في البحر الكَبير، وأفسدوا بسائط أشْبُونَة[10] وناشبهم الناسُ القتال، فرجعوا إلى مراكبهم، وأخرج الحكمُ القوّادَ لاحتراس السواحل، وأمرَ قائدَ البحر عبدَ الرحمن بن رُمَاحس[11] بتعجيل حركة الأسطول. ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل.

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: «ولقيهم على أشتبة».

(٢) في المصدر نفسه: «فردلند القومس».

(٣) في المصدر نفسه: «فأغزاه الحكمُ يحيىٰ بن محمد التجيبيّ...».

(٤) في المصدر نفسه: «وامتنعوا في حصونها». وقورية بالإسبانية: Coria وهي مدينة بالأندلس قريبة من ماردة. الروض المعطار (ص ٤٨٥).

(٥) هكذا في تاريخ ابن خلدون. وفي طبعة عبد الحميد: «قُلُمْرية». وقلمرية بالإسبانية هيCoimbra، من بلاد البرتغال حاليًا، تبعد عن البحر اثني عشر ميلاً. الروض المعطار (ص ٤٧١). وقَلَهُرَّة بالإسبانية Calahorra، وهي من قواعد منطقة نبرة Navarra.

(٦) في طبعتي عبد الحميد ودار صادر: «قطوبية»، وقد صوّبناها عن تاريخ ابن خلدون.

(٧) الرَّمَكُ: جمع رَمَكَة وهي الفرس تتّخذ للنسل. محيط المحيط (رمك).

(٨) ما يزال النقل عن ابن خلدون متصلاً بما قبله.

(٩) حصن غُرْماج بالإسبانية Gormaz، وهو من أهم المعاقل حسبما يذكر ابن حيّان في المقتبس بتحقيق الحجي (ص ٢١٨).

(١٠) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣١٤): «أحشبونة».

(١١) في المصدر نفسه: «رماجس» بالجيم، وهو خطأ.

ثم[1] كانت وفاة أردون بن أذفونش ملك الجَلاَلِقَة، وذلك أن الناصر لَـمَّا أعان عليه شانجة بن رذمير ـ وهو ابن عمِّه، وهو الملك من قَبْل أردون ـ وحمل النصرانية على طاعته، واستظهر أردون بصهره فرذلند قومس قشتيلة، تَوَقَّعَ مظاهرةَ الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر، فبادر إلى الوفادة على الحكم مستجيرًا به، فاحتفل لقدومه، وعَبّى[2] العساكر ليوم وفادته، وكان يومًا مشهودًا وصفه ابن حيّان كما وصف أيام الوفادات قبله. ووصل إلى الحكم، وأجلسه، ووعده بالنصر من عدوّه، وخلع عليه، وكتب[3] بوصوله ملقيًا بنفسه، وعاقده على موالاة الإسلام، ومقاطعة فرذلند القومس وأعطى على ذلك صَفْقة يمينه[4]، ورهن ولده غَرْسية، ودُفِعَتِ الصِّلات والـحُمْلاَنُ[5] له ولأصحابه. وانصرف معه وُجوه نصارى الذمّة [6] ليوطِّدوا له الطاعة عند رعيّته، ويقبضوا رهنه.

وعند ذلك بعث ابنُ عمِّه شانجةُ بن رذمير ببيعته وطاعته مع قواميس[7] أهل جِلّيقية وسَمُّورة وأساقفتهم، يرغب في قبوله، ويمتّ بما فعل أبوه الناصر معه، فتقبّل بيعتهم على شروطٍ شَرَطَها كان منها هدمُ الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين.

ثم بَعَثَ ملكا بَرْشلونة وطَرَّكونة وغيرهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه، وبعثا بهدية، وهي: عشرون صبيًّا من الـخِصْيان الصقالبة، وعشرون قنطارًا من صوف[8] السمّور، وخمسة قناطير من القصدير[9]، وعشرة أذرَاعٍ صقلبيّة، ومائتا سيف فرنجيّة، فتقبّل الهدية وعَقَدَ على أن يَهْدِمُوا الحصون التي تضرُّ بالثغور، وأنْ لا يظاهروا عليه أهلَ مِلّتهم، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين.

ثم وصلتْ رسُلُ غرسية بن شانجة ملك البَشْكنس في جماعة من الأساقفة والقواميس

---

(١) ما يزال النقل عن ابن خلدون متصلاً بما قبله.

(٢) جملة «وعَبّى العساكر ليوم وفادته» ساقطة من تاريخ ابن خلدون.

(٣) في تاريخ ابن خلدون: «وخلع عليه لما جاء ملقيًا بنفسه. . .».

(٤) أعطاه صفقة يمينه: أي عاهده.

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «والحملات».

(٦) عدّد ابن خلدون وجوه أهل قرطبة ومنهم ابن مغيث القاضي، وأصبغ بن عبد اللّٰه بن نبيل الجاثليق وغيرهما.

(٧) في تاريخ ابن خلدون: «مع قَوْلب من أهل جليقية. . .».

(٨) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣١٥): «من الصوف السمّور».

(٩) في المصدر نفسه: «الفرصدس».

يسألون الصلح، بعد أنْ كان توقّف وأظهر المكر، فقعد لهم الحكم، فاغتبطوا ورجعوا.

ثم وَفَدَتْ[1] على الحكم أمُّ لُذَريق بن بلاشك[2] القومس بالقرب من جِلّيقية، وهو القومس الأكبر، فأخرج الحكمُ لتلقّيها أهلَ دولته، واحتفل لقدومها في يوم مشهود مشهور، فوصلت وأسعفت[3]، وعقد السلم لابنها كما رغبت، ودفع لها مالاً تقسّمه بين وفدها، دون ما وصلت به هي، وحُمِلَتْ على بغلة فارهة بسرجٍ ولجامٍ مثقلَيْن بالذهب وملحفة ديباج. ثم عاودت مجلس الحَكَم للوداع، فعاوَدَها بالصِّلات لسفرها، وانطلقت.

ثم أوْطَأَ عساكره[4] أرضَ العُدْوة من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقّى دعوته ملوكُ زَنَاتة من مَغْراوةَ ومكْناسة، فبثّوها في أعمالهم، وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشّيعة فيما بينهم. ووفد عليه من بني خزر وبني أبي العافية، فأجزل صلتهم، وأكرم وفادتهم، وأَحْسَنَ مُنْصَرَفَهُمْ، واستنزل بني إدريس من ملكهم بالعُدْوة في ناحية الرِّيف. وأجازهم البحر إلى قُرْطُبة، ثم أجلاهم إلى الإسكندرية.

وكان مُحِبًّا للعلوم، مكرّمًا لأهلها، جَمَّاعًا للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، قال أبو محمد بن حزم[5]: أخبرني تليد[6] الخصِيُّ - وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان - أنَّ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعٌ وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون[7] ورقة، ليس فيها إلاَّ ذكرُ أسماء الدواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سُوقًا نافقة جُلِبَتْ[8] إليها بضائعُهُ من كل قطر.

قال أبو محمد بن خلدون[9]: ولما وفد على أبيه[10] أبو علي القالي صاحبُ كتاب

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: «وفي سنة خمس وستّين وثلاثمائة وردت أُم لذريق...».

(٢) هو Rodrigo Velasques، وأُمُّهُ هي Oneca. وفي تاريخ ابن خلدون: «بلاكش».

(٣) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣١٦): «فوصلها وأسعفها».

(٤) في المصدر نفسه: «عساكره من أرض...».

(٥) النص في جمهرة أنساب العرب (ص ١٠٠) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٠٣).

(٦) في تاريخ ابن خلدون: «بكيّة الخصي».

(٧) هكذا في تاريخ ابن خلدون وفي المغرب (جـ ١ ص ١٨٦). وفي جمهرة أنساب العرب والحلّة السيراء: «خمسون ورقة».

(٨) في تاريخ ابن خلدون: «نفقت».

(٩) في طبعة دار صادر: «من كل قطر. ووفد على أبيه».

(١٠) في تاريخ ابن خلدون: «ووفد عليه أبو علي...».

«الأمالي» من بغداد أكرم[1] مَثْوَاه، وحَسُنَتْ منزلته عنده، وأورث أهلَ الأندلس عِلْمَه، واختصَّ بالحكم المستنصر، واستفاد علمه.

وكان يبعث في[2] الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجّار، ويرسل إليهم الأموالَ لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه. وبعث في كتاب «الأغاني» إلى مُصَنِّفه أبي الفرج الأصفهاني، وكان نَسَبُهُ في بني أمية، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق[3]. وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهَرِي المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، وأمثال ذلك. وجمع بداره الحُذّاقَ في صناعة النَّسْخ والمَهَرَة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى [4] من ذلك كلّه، واجتمعت بالأندلس خزائنُ من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلاّ ما يُذْكَرُ عن الناصر العباسي ابن المستضيء. ولم تزل هذه الكتبُ بقصر قُرْطُبة إلى أنْ بِيْعَ أكثرُها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجبُ واضحُ مِنْ مَوَالي المنصور بن أبي عامر. ونُهِبَ ما بقي منها عند دخول البربر قُرْطُبة واقتحامهم إيّاها عَنْوَةً، انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار.

ولنبسط الكلام على الحكم فنقول[5]: إن الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثانيَ يوم وفاة أبيه يوم الخميس، وقام بأعباء الملك أتمّ قيام، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له، ودعا الناس إلى بيعته، واستقبل من يومه النظر في تمهيد سلطانه، وتثقيف مملكته، وضبط قصوره، وترتيب أجناده، وأوّل ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر، كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم، وتكفّلوا بأخذها على مَنْ وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم، وأوصل إلى نفسه في الليل دون هؤلاء الأكابرَ من الكُتّاب والوصفاء والمقدمين والعُرَفاء، فبايعوه، فلمّا كملتْ بيعةُ أهل القصر تقدّم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض إلى أخيه شقيقه أبي مروان عُبَيد

---

(١) في تاريخ ابن خلدون وفي طبعة دار صادر: «فأكرم».

(٢) هكذا في تاريخ ابن خلدون وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «في شراء الكتب». وورد بعض هذا النص في الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢).

(٣) في تاريخ ابن خلدون: «يخرجه بالعراق».

(٤) أوعى: حفظ.

(٥) النص مع قصيدة المرادي اللاّمية في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٨٦).

اللّه المتخلّف بأن يُلزمه الحضور للبيعة دون معذرة، وتقدّم إلى موسى بن أحمد بن حُدَير بالنهوض أيضًا إلى أبي الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثاني، فمضى إليهما كلٌّ واحد منهما في قَطِيع من الجند، وأَتَيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال في الخيل لإتيان غيرهما من الإخوة، وكانوا يومئذ ثمانية، فوافى جميعهم الزهراء في الليل، فنزلوا في مراتبهم بِفُصْلان[1] دار الملك، وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي، وقعد المستنصر باللّه على سرير الملك في البَهْو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التي في السطح المُمَرَّد[2]، فأوّل مَنْ وصل إليه الإخوة فبايعوه، وأنصتوا لصحيفة البيعة، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها، ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة، وقَعَدَ الإخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله، إلاّ عيسى بن فُطَيس فإنه كان قائمًا يأخذ البيعة على الناس، وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة، فاصْطَفَّ في المجلس الذي قَعَدَ فيه أكابرُ الفتيان يمينًا وشمالاً إلى آخر البَهْو كلٌّ منهم على قدره في المنزلة، عليهم الظهائر[3] البيض شعار الحزن، قد تقلّدوا فوقها السيوف، ثم تلاهم الفتيان الوُصَفاء، عليهم الدروع السابغة[4] والسيوف الحالية[5] صَفَّيْنِ مُنْتَظِمَيْنِ في السطح، وفي الفصلان المتّصلة به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض، بأيديهم السيوف، يتّصل بهم مَنْ دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة، ثم تلاهم الرماة متنكّبين قِسِيَّهم وجِعابهم، ثم وصلتْ صفوفَ هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوفُ العبيد الفحول شاكِيْنَ في الأسلحة الرائقة والعدّة الكاملة، وقامت التعبية في دار الجند والترتيب مِنْ رَجّالة العبيد عليهم الجواشن والأقبية البيض، وعلى رؤوسهم البيضات الصَّقْلبية[6]، وبأيديهم التّراس الملوّنة والأسلحة المزيّنة، انتظموا صَفَّيْن إلى آخر الفَصْل، وعلى باب السُّدّة الأعظم البوّابون وأعوانُهم، ومن خارج باب السُّدّة فرسان العبيد إلى باب الأقباء[7]، واتّصل بهم فرسان الحشَم وطبقات الجند والعبيد

---

(١) الفُصْلان: جمع فَصِيل وهو حائط قصير دون الحِصْن أو دون سُور البلد. محيط المحيط (فصل).

(٢) السَّطْحُ المُمَرَّدُ: المُمَلَّسُ؛ يقال: مَرَّدَ البناء إذا مَلَّسه وسوّاه. محيط المحيط (مرّد).

(٣) الظهائر: جمع ظِهارة وهي من الثوب نقيض البطانة. محيط المحيط (ظهر).

(٤) الدروعُ السابِغَةُ: الدروع الواسعة. مختار الصحَاح (سبغ).

(٥) الحالية: المرصّعة بالحَلْي. لسان العرب (حلي).

(٦) في طبعة دار صادر: «الصقيلة».

(٧) الأقباء: جمع قَبْو وهو البناء المعقود بعضه إلى بعض. المنجد (قبا).

والرماة، موكبًا إثر موكب، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء، فلمّا تَمّتِ البيعةُ أُذِنَ للناس بالانفضاض، إلاّ الإخوة والوزراء وأهل الخدمة فإنهم مَكَثُوا بقصر الزهراء إلى أن احْتُمِلَ جَسَدُ الناصر ـ رحمه اللّه! ـ إلى قصر قُرْطُبة للدفن هنالك في تربة الخلفاء.

وفي ذي الحجة من سنة خمسين تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبَيعة والتماس المطالب، من أهل طُلَيْطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها، فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضي مُنْذر بن سعيد والملأ[1]، فأُخِذَتْ عليهم البيعة، ووُقِّعَتِ الشهاداتُ في نسخها.

وفي آخر صفر من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر باللّه مَوْلَيَيْه محمدًا وزيادًا ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقّي غالب الناصري [الذي خرجوا إليه][2] صاحِبِ مدينة سالم الموردِ للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولة المتملّك على طوائف من أمم الجلالقة والمُنازع لابن عمّه المُمَلَّك قَبْلَهُ شانجة بن رذمير، وتبرّع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر باللّه من ذاته، غير طالب إذن ولا مستظهر بعهد، وذلك عندما بلغه اعتزامُ الحكم المستنصر باللّه في عامه ذلك على الغزو إليه، وأَخْذُهُ في التأهّب له، فاحتال في تأميل المستنصر باللّه والارتماء عليه، وخرج قبل أمانٍ يُعقد له أو ذِمّة تعصمه في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه، تَكَنَّفَهم غالب الناصري الذي خرجوا إليه، فجاء به نحو مولاه الحكم، وتلقّاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم، ثم تَحَرَّكَا بهم ثاني يوم نزولهم إلى قُرْطُبة، فأخرج المستنصر باللّه إليهم هشامًا المصحفيَّ في جيش عظيم كامل التعبية، وتقدّموا إلى باب قُرْطُبة، فمرّوا بباب قصرها، فلمّا انتهى أردون إلى ما بين السّدة وباب الجنان سأل عن مكان رَمْسِ[3] الناصر لدين اللّه فأُشِيرَ إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة، فَخَلَعَ قَلَنْسُوَتَهُ، وخضع نحو مكان القبر، ودعا، ثم رَدَّ قَلَنْسُوته إلى رأسه. وأمر المستنصر بإنزال أردون في دار الناعورة، وقد كان تقدّم في فرشها بضروب الغِطاء والوِطاء، وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسّع له في الكَرامة ولأصحابه، فأقام بها الخميسَ والجمعة، فلمّا كان يومُ السبت تقدّم المستنصر باللّه

(١) المَلأُ: الجماعة، والمراد هنا أعيان البلد. مختار الصحاح (ملأ).
(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.
(٣) الرَّمْسُ: القبر. لسان العرب (رمس).

استدعاء أردونَ ومَن معه بعد إقامة الترتيب وتعبية الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صَفًّا في المجلس، فيهم القاضي منذرُ بن سعيد والحكّام والفقهاء، فأتى محمد بن القاسم بن طُمْلُس[1] بالملك أردون وأصحابه وعالي لبوسه ثوبٌ ديباجي روميٌّ أبيض وبَلْيُوَال[2] من جنسه وفي لونه، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمّة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه، فيهم وليد بن حيزون[3] قاضي النصارى بقُرْطُبة وعبيد اللّه بن قاسم مُطْران طُلَيْطلة[4] وغيرهما، فدخل بين صَفَّي الترتيب يُقَلِّب الطَّرف في نظم الصفوف، ويُجِيلُ الفكر في كثرتها وتَظَاهر أسلحتها ورائق حليتها، فراعهم ما أبصروه، وصلَّبوا على وجوههم، وتأمّلوا ناكسي رؤوسهم غاضّين من أجفانهم قد سُكِرَتْ أبصارهم[5] حتى وصلوا إلى باب الأقباء أوّل باب قصر الزهراء، فترجّل جميعُ مَن كان خرج إلى لقائه، وتقدّم الملك أردون وخاصَّةُ قوامِسِهِ على دوابّهم، حتى انتهوا إلى باب السُّدَّة، فأمر القوامس بالترجّل هنالك والمشي على الأقدام، فترجّلوا.

ودخل الملك أردون وحده راكبًا مع محمد بن طُمْلُس، فأنزل في بُرْطُل[6] البَهْو الأوسط من الأبهاء القبلية التي بدار الجند على كرسي مرتفع مكسوّ الأوصال بالفضة، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوّه ومناوئه شانجة بن رُذْمير الوافد على الناصر لدين اللّه - رحمه الله تعالى! - فقعد أردون على الكرسي، وقعد أصحابه بين يديه، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر باللّه بالدخول عليه، فتقدّم يمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح، فلمّا قابَلَ المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر باللّه وقف وكشف رأسه

---

(١) محمد بن قاسم بن طُمْلُس قائد ووزير وصاحب الحشم في عهد الحكم المستنصر، قُتل في أول سنة ٣٦٢ هـ بفحص مَهْران على يد حسن بن قنون. المقتبس بتحقيق الحجي (ص ٢٥، ٩٦).

(٢) بَلْيُوال: لعلّها من اللفظة الإسبانية Pluvial، أي ذو المطر. وفي طبعة عبد الحميد: «يَلْبُوال».

(٣) في طبعة دار صادر: «خيزران». ويذكر ابن حيّان أن قاضي النصارى بقرطبة عام ٣٦٠ هـ هو أصبغ ابن نبيل. المقتبس بتحقيق الحجي (ص ٦٤).

(٤) عبيد اللّه بن قاسم المذكور جعله ابن حيّان مطران إشبيلية، الذي كان يعتمد عليه في الترجمة. المقتبس بتحقيق الحجي (ص ٦٤، ١٤٧).

(٥) سُكِرَتْ أبصارهم: حُبِسَتْ. محيط المحيط (سكر).

(٦) البُرْطُل: كلمة إسبانية Portal أي البوّابة أو مدخل البيت.

وخلع بُرْنُسَه، وبقي حاسرًا إعظامًا لما بان له من الدنو إلى السرير، واستُنْهِضَ، فمضى بين الصَّفَّيْن المرتبين في ساحة السطح، إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو، فلمّا قابل السريرَ خَرَّ ساجدًا سُوَيعَةً، ثم استوى قائمًا، ثم نهض خطواتٍ، وعاد إلى السجود، ووالى ذلك مرارًا إلى أنْ قَدِمَ بين يدي الخليفة وأهوى إلى يده فناوله إياها وكَرَّ راكعًا مقهقرًا على عقبه إلى وسادِ ديباج مُثقل بالذهب، جُعل له هنالك، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير، فجلس عليه، والبَهْرُ[1] قد علاه، وأنهض خلفه مَن استدنى من قوامسه وأتباعه، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع، وناولهم الخليفةُ يَدَه فقبّلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم، ووصل بوصولهم وليدُ بن حيزون[2] قاضي النصارى بقُرطُبة، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعودهِ أمامه وقتًا كيما يُفرِخَ رَوْعُهُ[3]. فلمّا رأى أن قد خُفِّض[4] عليه افتتح تكليمه فقال: ليسرّك إقبالك ويغبطك تأميلك، فلدينا لك من حُسْن رأينا ورَحْب قبولنا فوق ما قد طلبته، فلمّا ترجم له كلامه إيّاه تطلّق[5] وجهُ أردون، وانحطّ عن مرتبته، فقبّل البساط، وقال: أنا عبد أمير المؤمنين، مولاي، المُتَوَرِّكُ[6] على فضله، القاصد إلى مجده، المحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله وعوّضني من خدمته رجوت أنْ أتقدّم فيه بنيّة صادقة، ونصيحة خالصة، فقال له الخليفة: أنت عندنا بمحلّ مَنْ يستحقّ حُسْن رأينا، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك على أهل مِلّتك ما يغبطك، وتتعرّف به فضل جنوحك إلينا، واستظلالك بظل سلطاننا، فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة، وابتهل داعيًا، وقال: إن شانجة ابنَ عمّي تقدّم إلى الخليفة الماضي مستجيرًا به منّي، فكان من إعزازه إيّاه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لـمَن قصدهم وأمَّلَهم، وكان قَصَدَه قَصْدَ مضطرّ قد شَنأتْه رعيَّتُه[7]، وأنكرتْ سيرته، واختارتني لمكانه من غير سعي مني علم الله

---

(١) البُهْرُ: تتابع النَّفَس وانقطاعه من الإعياء. محيط المحيط (بهر).

(٢) في طبعة دار صادر: «خيزران».

(٣) يقال في المثل: «أَفْرِخْ رَوعَكَ بالأمر» أي سَكِّن اضطرابك. محيط المحيط (فرخ).

(٤) خُفِّض عليه: أي خُفِّضَ عليه الأمر فَهانَ. محيط المحيط (خفض).

(٥) تَطَلَّقَ وَجْهُهُ: ضِدُّ تَقَبَّضَ. محيط المحيط (طلق).

(٦) الـمُتَوَرِّكُ على فضله: المعتمد على فضله؛ يقال: تورَّكَ الرجل إذا اعتمد على وِرْكِهِ. محيط المحيط (ورك).

(٧) شَنَأَتْهُ رَعِيَّتُهُ: أبغضته. مختار الصحاح (شنأ).

ذلك، ولا دعاء إليه، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرًا مضطهدًا، فتطوّل عليه(١) ـ رحمه اللّه! ـ بأنْ صَرَفه إلى ملكه، وقَوّى سلطانه، وأعزَّ نصره، ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي أُسْدِيَتْ إليه، وقَصّر في أداء المفروض عليه وحقِّه وحقِّ مولاي أمير المؤمنين من بعده، وأنا قد قصدتُ باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطاني وموضع أحكامي، مُحَكِّمًا له في نفسي ورجالي ومعاقلي ومَنْ تحويه من رعيتي، فشتّان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمّة، فقال الخليفة: قد سمعْنا قولك، وفهمْنا مَغْزَاك، وسوف يظهر من إقراضنا إيّاك على الخصوصيّة شأنه، ويترادف من إحساننا إليك أضعافُ ما كان من أبينا ـ رضي اللّه تعالى عنه! ـ إلى نِدِّك(٢)، وإنْ كان له فضلُ التقدّم بالجنوحِ إلينا والقصد إلى سلطاننا، فليس ذلك ممّا يؤخّرك عنه، ولا ينقصك ممّا أنلناك، وسنصرفك مغبوطًا إلى بلدك، ونشدُّ أَواخِيَّ(٣) ملكك ونُمَلِّكك جميع مَن انحاش إليك من أمتعتك ونعقد لك بذلك كتابًا يكون بيدك نقرّر به حدَّ ما بينك وبين ابن عمِّك، ونَقْبِضُه عن كل ما بتصرّفه(٤) من البلاد إلى يدك، وسيترادف عليك من إفضالنا فوق ما احتسبته، واللّه على ما نقول وكيل. فَكَرَّر أردون الخضوعَ، وأسهب في الشكر، وقام للانصراف مقهقرًا لا يولّي الخليفَةَ ظهره، وقد تكنّفه الفتيانُ [من جملة الفتيان](٥)، فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح، وقد علاه الْبَهر وأذهله الرَّوْع، مِنْ هَوْل ما باشره، وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزّة، فلمّا أنْ دخل المجلسَ ووقعتْ عينُه على مقعد أمير المؤمنين خاليًا منه انحطَّ ساجدًا إعظامًا له، ثم تقدّم الفتيان به إلى البهو الذي بجَوْفي هذا المجلس، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب، وأقبل نحوه الحاجب جعفر، فلمّا بصر به قام إليه وخضع له(٦)، وأومأ إلى تقبيل يده، فقبضها الحاجبُ عنه، وانحنى إليه فعانقه، وجلس معه، فغَبَّطه(٧)، ووعده من إنجاز عِدَات الخليفة له بما ضاعف سروره، ثم أمر الحاجب جعفر فَصُبَّتْ عليه الخلعُ التي

---

(١) تَطَوَّلَ عليه: امتنَّ وتفضّل عليه. محيط المحيط (طول).

(٢) النِّدُّ، بكسر النون وتشديد الدال: المِثْل والنظير. مختار الصحاح (ندد).

(٣) الأَواخِيُّ: جمع أَخِيَّة وهي عُودٌ في حَبْلٍ يُدْفَنُ طرفاهُ في الأرض ويَبْرَزُ طرفُهُ كالحلقة تُشَدُّ فيها الدابّة. محيط المحيط (أخو). وقوله: نشدُّ أواخيَّ مُلْكك: أي نُقَوِّيه ونثبته وندافع عنه.

(٤) في طبعة دار صادر: «يصرّفه».

(٥) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.

(٦) في طبعة دار صادر: «وختع له».

(٧) غَبَّطه: حَمَلَهُ على الغَبْط (الغبطة). محيط المحيط (غبط).

أمر له بها الخليفة، وكانت دُرّاعة[1] منسوجة بالذهب، وبرنسًا مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عين العِلْج تجلّة، فخرّ ساجدًا، وأعلن بالدعاء، ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم، فكمل جميعُ ذلك بحسب ما يصلح لهم، وخَرَّ جميعهم خاضعين[2] شاكرين، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه، وقُدِّم لركابه في أوّل البهو الأوسط فرسٌ من عتاق خيل الركاب عليه سَرْجُ حلي ولجامُ حلي مفرغ، وانصرف مع ابن طُمْلُس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه، وقد أُعِدَّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون، واستقرَّ أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش. واستشعر الناس من مَسَرَّة هذا اليوم وعزّة الإسلام فيه ما أفاضوا في التبجُّح به والتحدّث عنه أيامًا، وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حِسان، وإنشادات لأشعار محكمة مِتّان، يطول القول في اختيارها، فمن ذلك قولُ عبد الملك بن سعيد المرادي[3] من قصيدة حيث يقول[4]: [الكامل]

مَلِكُ الخلافة[5] آيةُ الإقبالِ ... وسُعُودُه مَوْصولَةٌ بتَوَالي[6]
والمسلمون[7] بعِزَّةٍ وبِرِفْعَةٍ ... والمُشْرِكون بِذِلَّةٍ وسَفَالِ
أَلْقَتْ بأيديها الأعاجِمُ نَحْوَهُ ... مُتَوَقِّعِينَ لِصَوْلَةِ الرِّئْبالِ[8]
هذا أميرُهُمُ أتاه آخِذًا ... منه أواصِرَ ذِمَّةٍ وحِبَالِ
متواضِعًا لجَلالِهِ مُتَخَشِّعًا ... مُتَبَرِّعًا لَمَّا يُرَعْ بقِتالِ
سينال بالتأميل للملك الرِّضَا ... عِزًّا يعمُّ عِدَاهُ بالإذلال
لا يوم أعظَم للوُلاة مَسَرَّةً ... وأشدُّه غَيْظًا على الأقيال

(١) الدُرّاعَةُ، بضم الدال وفتح الراء المشددة: جُبّةٌ مشقوقة المقدَّم ولا تكون إلاّ من صوف. محيط المحيط (درع).
(٢) في طبعة دار صادر: «خانعين».
(٣) عدّه ابن حزم في رسالته «في فضائل الأندلس وذكر رجالها» من فحول شعراء الأندلس، رسائل ابن حزم (جـ ٢ ص ١٨٨). وترجم له الحميدي بقوله: «عبد الملك بن سعيد المرادي الخازن: رئيس أديب شاعر، كثير الشعر...». جذوة المقتبس (ص ٢٨٥).
(٤) الأبيات الأربعة الأوائل في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٣٥).
(٥) هكذا في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٣٥)، وفي طبعتي عبد الحميد ودار صادر: «الخليفة».
(٦) هكذا في البيان المغرب، وفي طبعة عبد الحميد: «بنوالِ».
(٧) في البيان المغرب: «فالمسلمون».
(٨) الرئبال: الأسد. محيط المحيط (رأبل).

مـن يـوم أردونَ الـذي إقـبـالُـه | أمَلُ الـمَـدَى ونـهـايـةُ الإقـبـال
ملك الأعاجم كلّها ابنُ ملوكِها | والي الرُّعاة إلى الأعاجم[١] والي
إن كـان جاء ضرورةً فلقد أتى | عَنْ عزّ مـمـلـكـة وطَوْعِ رجـالِ
فـالـحـمـدُ لـلّـه الـمُـنـيـلِ إمامَـنا | حظَّ الـمـلـوكِ بقَدْره الـمـتـعـالـي
هُوَ يومُ حَشْرِ الناس إلاّ أنهم | لـم يُـسْـأَلُـوا فـيـه عـن الأعـمـالِ
أضْحَى الفَضَاءُ مُفعَمًا بجُيوشه | والأفـق أَقْـتَـمَ أَغْـبَـرَ الـسِّـرْبـالِ
لا يَهْتَدِي الساري للَيْلِ قَتَامِهِ | إلاّ بـضَـوءِ صَـوَارم وعَـوَالـي
وكـأن أجْسَام الكُمَاة تَسَرْبَلَتْ | مذ عُرِّيَتْ عنه جُسُوم صِلاَلِ
وكـأنـمـا العِقْبَان عِقْبَانُ الفَلاَ | مُـنْـقَـضَّـة لـتـخـطُّـفِ الـضُّـلاَّلِ
وكأن مُقْتَضب[٢] القَنَا مُهْتَزَّة | أشْطَانُ نـازحَـةٍ بـعـيـدةِ جَـالِ[٣]
وكأنما قُبْلُ التجافيفِ[٤] اكْتَسَتْ | نـارًا تُـؤَجِّـجُـهَـا[٥] بـلا إشْـعَـالِ

وقال بعض المؤرخين في حق الحكم المستنصر عن فتاةٌ تليد صاحب خزانته العلمية فيما حدَّث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم[٦]: إنَّ عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون[٧] ورقة ليس فيها إلاَّ ذكر الدواوين فقط، انتهى. وقد قدّمناه عن ابن خلدون[٨]، ونقله ابن الأبار في التكملة[٩].

وقال بعض المؤرّخين في حق الحكم[١٠]: إنه كان حسن السيرة، مكرّمًا للقادمين عليه، جمع من الكتب ما لا يُحَدُّ ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وإنّهم لَـمَّا نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها، وكان عالـمًا نبيهًا، صافي

---

(١) في طبعة دار صادر: «وللأعاجم».
(٢) في طبعة دار صادر: «منتصب».
(٣) الأشطان: جمع شطَن وهو الحبل الشديد الفتل. الجال: صفحة البئر. لسان العرب (شطن) و(جول).
(٤) التجافيف: جمع تَجْفاف وهي آلة للحرب يُتّقى بها كالدرع. لسان العرب (جفف).
(٥) في طبعة دار صادر: «توهجها».
(٦) النص في جمهرة أنساب العرب (ص ١٠٠) والحلة السيراء (جـ ١ ص ٢٠٣).
(٧) هكذا في المغرب (جـ ١ ص ١٨٦)، وفي جمهرة أنساب العرب والحلّة السيراء: «خمسون ورقة».
(٨) أي تقدّم ذلك ص ٣٦٩.
(٩) لم نعثر على ذلك في كتاب التكملة المطبوع.
(١٠) بعض هذا النص في الحلة السيراء (جـ ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١).

السريرة، وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دُحيم ومحمد بن عبد السلام الـخُشَني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه، وأجاز له ثابت بن قاسم، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء. وكان يستجلب الـمُصَنّفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرام بها، قد آثر ذلك على لَذّات الملوك، فاستوسع علمه، ودقّ نظره، وجمت استفادته، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحْوَذيًا[1] نسيج وحْدِه، وكان ثقة فيهما بنقله، بهذا وصفه ابن الأبار وبأضعافه، وقال: عجبًا لابن الفرضي وابن بَشْكوال كيف لم يذكراه وقلّما يوجد كتاب من خزائنه إلاّ وله فيه قراءة أو نظر في أي فنّ كان ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلاّ عنده لعنايته بهذا الشأن.

ومما يُنْسَبُ إليه من النظم قوله[2]: [الطويل]

إلى اللّه أشكو من شَمَائِلِ مُتْرَفٍ[3] عَلَيَّ ظَلُومٍ لا يَدِينُ بما دِنْتُ
نأتْ عَنْه داري فاستزاد صُدُودهُ وإنّي على وَجْدِي القديم كما كُنْتُ
ولو كُنْتُ أدري أنّ شَوْقيَ بالِغٌ مِنَ الوَجْدِ ما بُلِّغْتُهُ لم أكُنْ بِنْتُ

وقوله[4]: [الطويل]

عَجِبْتُ، وقد ودَّعْتُها، كيف لم أَمُتْ وكَيْفَ انْثَنَتْ بَعْدَ الوَدَاعِ يَدِي مَعِي
فيا مقْلَتِي العَبْرَى، عَلَيْهَا اسْكُبِي دَمًا ويا كَبِدِي الْحَرَّى، عَلَيْهَا تقطَّعِي

وتوفي ـ رحمه اللّه تعالى! ـ بقصر قُرْطبة ثاني صفر سنة ست وستّين وثلثمائة، لستّ عشرة سنة من خلافته، وكان أصابه الفالج، فلزم الفراش إلى أن هلك ـ رحمه اللّه تعالى! ـ وكان قد شَدَّد في إبطال الخمر في مملكته تشديدًا عظيمًا.

وولي بعده ابنه هشامٌ صغيرًا سنُّه تسع سنين، ولا ينافيه قولُ ابن خلدون: «قد ناهز الحلم» وكان الحكم قد استوزر له محمدَ بن أبي عامر، ونقله من خطة القضاء إلى وزارته، وفوّض إليه أموره، فاستقلّ.

---

(١) الأحوذيُّ: الحاذق. لسان العرب (حوذ).
(٢) الأبيات في المغرب (جـ ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٧).
(٣) هكذا في طبعة دار صادر وفي المغرب، وفي طبعة عبد الحميد: «مُسْرِف».
(٤) البيتان في المغرب (جـ ١ ص ١٨٧) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٠٣).

قال ابن خلدون[1]: وتَرَقَّتْ حالُ ابن أبي عامر عند الحكم، فلما توفي الحكم وبويع هشام ولُقِّبَ المؤيّد بعد أن قُتل ليلتئذ المغيرة أخو الحكم المرشَّح لأمره تناول الفتك به محمد بن أبي عامر[2] هذا بممالأةٍ من جعفر بن عثمان المصحفيِّ حاجب أبيه، وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم، ومن خصيان القصر يومئذ ورؤسائهم فائق[3] وجؤذر[4]، فقتل ابن أبي عامر المغيرة بممالأةِ مَنْ ذُكِرَ، وتَمَّتِ البيعةُ لهشام[5]. ثم سَمَا لابن أبي عامر أملٌ في التغلّب على هشامٍ لمكانه في السنِّ، وثاب له رأيٌ في الاستبداد، فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضًا ببعض. وكان من رجال اليمنية من مَعَافر[6]، دخل جَدُّه عبدُ الملك مع طارق، وكان عظيمًا في قومه، وكان له في الفتح أثر، وعظم ابنُ أبي عامر هذا، وغلب على المؤيد، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلاَّ في النادر من الأيام يُسَلِّمون وينصرفون. وأرْضَخَ[7] للجند في العطاء، وأعلى مراتب العلماء، وقمَعَ أهلَ البدع، وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين. ثم تجرَّد لرؤساء الدولة ممّن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحَطَّهم عن مراتبهم، وقتل بعضًا ببعض، كلُّ ذلك عن [أَمْرِ][8] هشام وخَطِّه وتوقيعه حتى استأصلهم وفرَّق جموعهم. وأول ما بدأ بالصقالبة الخِصْيان الخدّام بالقصر، فحمل الحاجبَ المصحفيَّ على نكبتهم، فنكبهم وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم، وبالغ في خدمته والتنصُّح له، واستعان به على المصحفيّ فنكبه ومحا أثره من الدولة، ثم استعان على غالب بجعفر بن[9] علي بن حمدون صاحبِ الـمَسِيلة[10] وقائدِ الشيعة ممدوح ابن هانىء

---

(١) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣١٨ ـ ٣٢١).
(٢) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣١٨): «محمد بن عامر».
(٣) هكذا في تاريخ ابن خلدون وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «فاتن».
(٤) في تاريخ ابن خلدون: «جوذر».
(٥) في المصدر نفسه: «فقتل محمد بن أبي عامر المغيرةَ وبايع لهشام».
(٦) في المصدر نفسه: «مغافر» بالغين المعجمة.
(٧) في المصدر نفسه (ص ٣١٩): «وأرخص»، وفي كلا الحالين يريد أنه زاد في أعطيات الجنود.
(٨) ما بين قوسين زيادة من تاريخ ابن خلدون يقتضيها السياق، وقد سقطت من طبعة عبد الحميد.
(٩) هكذا في تاريخ ابن خلدون وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد «جعفر بن أحمد بن علي...».
(١٠) من هنا حتى «وغيرها، وهو» ساقط من تاريخ ابن خلدون.

بالفائية المشهورة[١] وغيرها، وهو النازعُ[٢] إلى الحكم أوّل الدولة بمَن[٣] كان معه من زَنَاتة والبربر. ثم قتل جعفرًا[٤] بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم. ثم لـمَّا خَلاَ الجوُّ من أولياء الخلافة والمرشّحين للرياسة رَجَعَ إلى الجند، فاستدعى أهل العُدْوَة من رجال زناتة والبرابرة فرتّب منهم جندًا، واصطنع أولياء، وعرَّف عُرَفاء من صنهاجة ومَغْراوة وبني يفرن وبني برزال ومِكْنَاسة وغيرهم، فتغلَّب على هشام وحَجَره[٥]، واستولى على الدولة، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته؛ من[٦] تعظيم الخلافة، والخضوع لها، وردّ الأمور إليها، وترديدِ الغزو والجهاد، وقدَّم رجالَ البرابرة وزَنَاتة، وأخَّرَ رجالَ العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتمّ له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، وبَنَى لنفسه مدينة لنزله[٧] سمّاها الزاهرة. ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك، وأمر أنْ يُحَيَّا بتحية الملوك، وتَسَمَّى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتبُ والمخاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر[٨] باسمه عقب الدعاء للخليفة، ومَحَا رَسْمَ الخلافة بالجملة، ولم يَبْقَ لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أَكْثَرُ من الدعاء على المنابر وكَتْبِ اسمه في السّكة والطرز، وأغفل ديوانه ممّا سوى ذلك. وجَنَّدَ البرابرة والمماليك، واستكثرَ من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة، وقَهْرِ مَنْ تطاول[٩] إليها من العلية[١٠]، فظفر من ذلك بما أراد،

---

(١) يريد ابن هانىء الأندلسي، وقد تقدمت ترجمته. وقصيدته الفائية طويلة من ٧١ بيتًا قالها في مدح جعفر بن علي المذكور أعلاه، ومطلعها: [الطويل]

أَلَـيْـلَـتَـنَـا إذ أرْسَلَـتْ واردًا وَحْـفًـا ... وبِتْنا نرى الجوزاءَ في أُذْنِها شَنْفَا

ديوان ابن هانىء الأندلسي (ص ٢٠٧).

(٢) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣١٩): «الفازع».

(٣) هكذا في تاريخ ابن خلدون وفي طبعة دار صادر، وفي طبعة عبد الحميد: «وبمَن».

(٤) في تاريخ ابن خلدون: «ثم قتل جعفر عمّاله ابن عبد الودود...».

(٥) حَجَرَهُ: مَنَعَهُ من التصرُّف، لسان العرب (حجر).

(٦) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٢٠): «مع».

(٧) في المصدر نفسه: «وابتنى لنفسه مدينة فَتَزَلَها وسمّاها...».

(٨) «من هنا حتى... مما سوى ذلك» مختلف عن تاريخ ابن خلدون حيث جاء فيه: «المنابر، وكتب اسمه في السكّة والطرز، وعمر ديوانه بما سوى ذلك...».

(٩) في تاريخ ابن خلدون: «مَن يطاول».

(١٠) في المصدر نفسه: «من الغلبة».

وردّد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا ستًّا وخمسين[1] غزوة في سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية، ولا فُلَّ له جيش، وما أصيب له بعث، وما هلكت له سَرِيَّة، وأجاز عساكره إلى العُدْوَة، وضرب بين ملوك البرابرة، وضرب بعضهم ببعض، فاستوثق له ملك المغرب، وأخبتتْ[2] له ملوك زَنَاتة، وانقادوا لحكمه، وأطاعوا سلطانه، وأجاز ابْنَهُ عبدَ الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خَزَر، ولمّا سخط زيري بن عَطِيَّة مَلِكُهم لمّا بلغه ما بلغه من إعلانه بالنَّيْل منه والغَضّ من منصبه والتأفّف لِحَجْر الخليفة هشام أوقع به عبد الملك سنة ستّ وثمانين، ونَزَلَ بفاس ومَلَكَها، وعقد لملوك زَنَاتة على ممالك[3] المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها، وشرّد زيري بن عطية إلى تَاهَرْتَ، فأَبْعَدَ المفرّ[4]، وهلك في مفرّه ذلك. ثم قفل عبد الملك إلى قُرْطُبة، واستعمل واضحًا على المغرب. وهلك المنصور أعظم ما كان ملكًا، وأشدَّ استيلاءً، سنة أربع وتسعين وثلثمائة[5]، بمدينة سالم مُنْصَرَفَه من بعض غزواته، ودُفن هنالك، وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه، انتهى كلام ابن خلدون، وبعضه بالمعنى وزيادة يسيرة.

ولا بأس أن نزيد عليه فنقول: ممّا حُكي أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه اللّه تعالى[6]: [الكامل]

آثاره تُنْبِيكَ عن أخْبَارِه ... حَتَّى كأنّك بالعِيان تَرَاهُ
تاللّه لا يأتي الزمانُ بمثْلِهِ ... أبدًا، ولا يَحْمي الثغورَ سِوَاهُ

وعن شجاع مولى المستعين بن هود: لَمَّا توجَّهْتُ إلى أذفونش وَجَدْته في مدينة سالم، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره، وامرأته متّكئة إلى جانبه، فقال لي: يا شجاع، أَمَا تراني قد مَلَكْتُ بلاد المسلمين، وجلست على قبر ملكهم؟ قال:

(١) في تاريخ ابن خلدون: «فغزا اثنتين وخمسين غزوة».
(٢) في المصدر نفسه: «وأذعنت»، والكلمتان بمعنى واحد.
(٣) في تاريخ ابن خلدون: «على المغرب»
(٤) أَبْعَد المَفَرّ: أي إنه فرّ إلى مكان بعيد.
(٥) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٢١): «سنة أربع وسبعين وثلاثمائة»، والصواب أنه توفي سنة ٣٩٢ هـ كما سيأتي بعد قليل وكما هو في الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٧٣) والمغرب (جـ ١ ص ٢٠٠).
(٦) سيأتي هذان البيتان في الجزء الرابع من نفح الطيب وفي المغرب (جـ ١ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣) وفيهما «أوصافه» بدل «أخباره». وفي الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٧٣) دون تغيير عمّا هنا. وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٣٠١) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

فَحَمَلَتْني الغَيْرةُ أنْ قلت له: لو تَنَفَّسَ صاحبُ هذا القبر وأنت عليه ما سَمِع منك ما يكره سماعه، ولا اسْتَقرَّ بك قرار، فهمَّ بي، فحالت أمرأته بيني وبينه، وقالت: صدقك فيما قال، أيفخر مثلك بمثل هذا؟.

وهذا تلخيص ترجمة المنصور من كلام ابن سعيد[1]، قال رحمه اللّٰه: ترجمة الملك الأعظم المنصور أبي عامر محمد بن عبد اللّٰه بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الـمَعَافري، من قرية تَرْكَش[2]، وعبد الملك جدّه هو الوافد على الأندلس مع طارق في أوّل الداخلين من العرب، وأمّا المنصور فقد ذكره ابنُ حَيَّان في كتابه المخصوص بالدولة العامرية، والفتحُ في المطمح، والحِجَاري في الـمُسْهِب، والشُّقُنْدي في الطرف، وذكر الجميع أن أصله من قريش تَرْكش، وأنه رحل إلى قرطُبة، وتأدّب بها، ثم اقتعد دكانًا[3] عند باب القصر يكتب فيه لـمَن يَعِنُّ له كتب من الخدم والمرافقين للسلطان، إلى أنْ طلبت السيدة صُبْح أم المؤيّد مَن يكتب عنها، فعرّفها به مَنْ كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فترقّى إلى أن كتب عنها، فاستحسنته، ونَبَّهت عليه الحكم، ورغّبت في تشريفه بالخدمة، فولاّه قضاء بعض المواضع، فظهرت منه نَجَابة، فترقّى إلى الزكاة والمواريث بإشْبيلِيَة وتمكّن في قلب السيدة بما استمالها به من التُّحَف والخدمة ما لم يتمكّن لغيره، ولم يقصِّر - مع ذلك - في خدمة المصحفي الحاجب، إلى أن توفي الحكم وولي ابنُه هشام المؤيد، وهو ابن اثنتي عشرة[4] سنة، فجاشتِ الرومُ، فجهّز المصحفيُّ ابنَ أبي عامر لدِفاعهم، فنصره اللّٰه عليهم، وتمكّن حبّه من قلوب الناس.

وكان جوادًا عاقلاً ذكيًا، استعان بالمصحفي على الصَّقالبة، ثم بغالب على المصحفيّ، وكان غالب صاحب مدينة سالم - وتزوّج ابنُ أبي عامر ابنَته أسماء، وكان أعظم عُرْس بالأندلس - ثم بجعفر بن علي الأندلسي ممدوحِ ابن هانيء على غالب، ثم بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التُّجيبي على جعفر، وله في الحَزْم والكَيْد والـجَلَدِ ما أفرد له ابنُ حيّان تأليفًا، وعَدَدُ غزواته المنشأة من قُرْطُبة نَيِّفٌ وخمسون غزوة، ولم تُهْزَم له راية، وقبره بمدينة سالم في أقصى شرق الأندلس.

---

(١) النص في المغرب (جـ ١ ص ١٩٩ - ٢٠٣) باختلاف عمّا هنا.

(٢) في المغرب (جـ ١ ص ٢٠٣): «كُرْتِش».

(٣) اقتعد دكانًا: اتخذ الدكان قُعْدَةً له أي مركزًا للعمل. محيط المحيط (قعد).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «عشر».

ومـــن شـعره[1]: [الطويل]

رَمَيْتُ بنفسي هَوْلَ كلِّ عظيمةٍ وخاطَرْتُ والحُرُّ الكريمُ يُخَاطِرُ
وما صاحبي إلاَّ جَنَانٌ مُشَيَّعٌ وأسْمَرُ خَطِّيٌّ وأبْيَضُ باتِرُ[2]
فسُدْتُ بنفسي أهلَ كلِّ سيادة وفاخَرْتُ حتى لم أجِدْ مَنْ أفاخر
وما شِدْتُ بنيانًا ولكنْ زيادةً على ما بَنَى عبدُ المليك وعامِرُ
رَفَعْنَا العَوَالي بالعَوَالي حديثةً[3] وأوْرَثناهَا في القديمِ مَعَافِرُ[4]

وجُودُهُ مع صاعد البغدادي[5] اللغوي مشهور.

وصدر عن بعض غَزَواته فكتب إليه عبدُ الملك ابن شُهَيْد[6]، وكان قد تخلَّف عنه[7]: [الخفيف]

أنَا شَيخٌ والشَّيخُ يَهْوَى الصَّبايا يا بِنَفْسِي أقِيكَ كُلَّ الرَّزَايَا
ورسولُ الإلهِ أسْهَمَ في الفَيْ ءِ لِمَنْ لم يُخِبَّ فيه المَطايَا

فبعث إليه بثلاث جَوَارٍ من أجمل السَّبْي، وكتب معهنَّ، وكانت واحدة أجملهنَّ، قوله[8]: [الخفيف]

---

(١) الأبيات في الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٧٤) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٧٤). وورد منها ثلاثة أبيات في المغرب (جـ ١ ص ٢٠٣).
(٢) الجَنانُ: بالفتح: القلب. المُشَيَّعُ: الجريء. الأسمر: الرمح. الخَطِّيُّ: المنسوب إلى الخطّ وهو موضع باليمامة كانت تصنع به الرماح. الأبيض: السيف. لسان العرب (جنن) و(شيع) و(سمر) و(خطط) و(بيض).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «مثلها».
(٤) رفعنا العوالي: رفعنا المجد. بالعوالي: بالرماح. معافر: قبيلة المنصور محمد بن أبي عامر كما مرّ معنا.
(٥) هو أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الرَّبَعي البغدادي اللغوي صاحب كتاب «الفصوص»؛ نشأ ببغداد، وانتقل إلى الأندلس حوالى سنة ٣٨٠ هـ، فأكرمه حاجبها محمد بن أبي عامر. توفي سنة ٤١٧ هـ بصقلية. وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٤٨٨) وبغية الوعاة (ص ٢٦٧).
(٦) هو أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد، من أهل قرطبة، استوزره المنصور محمد ابن أبي عامر، وتوفي سنة ٣٩٣ هـ. الصلة (ص ٥٢١) والمغرب (جـ ١ ص ٢٠٣).
(٧) هذان البيتان في البيان المغرب (جـ ١ ص ٣٠٠) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٨) الأبيات الأول والثالث والرابع في الجزء الثاني من نفح الطيب، وهي نفسها في الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٧٦) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٣٠٠) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

قد بَعَثْنَا بها كشمسِ النهارِ ... في ثلاثٍ مِنَ الْمَهَا أبْكارِ
وامْتَحَنَّا بعذرة البكر إنْ كنـ ... ـت تُرَجِّي بوَادِرَ الإعذارِ
فاجْتَهِدْ وابتَدِرْ فإنّك شَيخٌ ... قَدْ جَلاَ لَيْلَهُ بياضُ النهارِ
صانَكَ اللّه من كَلالِكَ فيها ... فَمِنَ العارِ كَلَّةُ المِسْمَارِ

فافْتَضَّهُنَّ من ليلته، وكتب له بُكْرة[1]: [الخفيف]

قد فَضَضْنَا خِتامَ ذاك السِّوَارِ ... واصْطَبَغْنَا من النَّجيعِ الْجَارِي
وَصَبَرْنَا على دِفَاعٍ وَحَرْبٍ ... فلَعِبْنَا بالدُّرِّ أو بالدراري
وَقَضَى الشيخُ ما قَضَى بحُسَامٍ ... ذي مَضَاءٍ عَضْبِ الظُّبَا بَتَّارِ
فاصْطَنِعْهُ فليس يَجْزِيكَ كُفْرًا ... واتّخِذْهُ فَحْلاً على الكُفّارِ

وقَدِم بعض التجّار[2] ومعه كيس فيه ياقوت نفيس، فَتَجَرَّد ليسبح في النهر، وترك الكيس، وكان أحمر، على ثيابه، فرفعته حِدَأة في مخالبها، فجرى تابعًا لها وقد ذُهِل، فتغلغلتْ في البساتين، وانقطعت عن عينه، فَرَجَعَ متحيِّرًا، فشكا ذلك إلى بعض مَنْ يأنس به، فقال له: صفْ حالك لابن أبي عامر، فتلطّف في وصف ذلك بين يديه، فقال: ننظر إن شاء اللّه تعالى في شأنك، وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين، ويسأل خُدّامَها عمَّنْ ظهر عليه تبديلُ حال، فأخبروه أن شخصًا ينقل الزبل اشترى حمارًا، وظهر من حاله ما لم يكن قبل ذلك، فأمر بمجيئه، فلمّا وقعت عينه عليه قال له: أَحْضِرِ الكيسَ الأحمر، فتملّك الرعبُ قلبه وارتعش، وقال: دعني آتي به من منزلي، فوكل به مَنْ حَمَلَهُ إلى منزله وجاء بالكيس، وقد نقص منه ما لا يقدح في مَسَرَّة صاحبه، فجبره[3]، ودفعه إلى صاحبه، فقال: واللّه لأحدّثنّ في مشارق الأرض ومغاربها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور ويُنْصف منها، والتفت ابنُ أبي عامر إلى الزبّال فقال له: لو أتيت به أغنيناك، لكن تخرج كَفَافًا[4] لا عقابًا ولا ثوابًا.

---

(١) الأبيات في الجزء الثاني من نفح الطيب، وورد فيه البيت الثاني مختلفًا كلّيًا عمّا هنا. وهي في الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٣٠٠) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٢) بعض التجار هو رجل جوهري من تجّار المشرق، قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة. وقد وردت قصته هذه في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٩١) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) جبره: أي أكمل نقصه. محيط المحيط (جبر).
(٤) عبارة: تخرج كَفافًا لا عقابًا ولا ثوابًا: يريد لا لك ولا عليك. محيط المحيط (كفف).

وتوفي، رحمه اللّه، في غزاته للإفرنج بصفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة، وحُمِلَ في سريره على أعناق الرجال، وعَسْكَرُه يحفُّ به، وبين يديه، إلى أن وصل إلى مدينة سالم.

ودامت دولته ستًّا وعشرين سنة، غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة[1] واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف، انتهى كلام ابن سعيد، وفي بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون.

وقال الفتح في «المطمح» في حق المصحفي الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ما صورته[2]: تجرد للعَلْيا، وتمرّد[3] في طلب الدنيا، حتى بلغ المنى، وتسوّغ ذلك الْـجَنَى[4]، ووصل إلى الْـمُنْتَهَى، وحصل على ما اشتهى، دون مجد تفرّع من دَوْحَته، ولا فخر نشأ بين مَغْدَاه ورَوْحَتِه، فسما دون سابقة، ورمى إلى رُتْبَة لم تكن لنفسه مُطَابقة، فبلغ بنفسه، ونزع عن جنسه، ولم يزل يستقلُّ ويضطلع[5]، وينتقل من مطلع إلى مطلع، حتى التاح في أُفق الخلافة، وارتاح إليها بِعِطْفِه كنَشْوان السُّلافة، واستوزره المستنصر، وعنه كان[6] يسمع وبه يُبْصر، وحَجَبَ الإمام، وأسكب برأيه ذلك الغمام، فأدرك لذلك ما أدرك، ونَصَب لأمانيه الحبائلَ والشرك، فاقتنى اقتناء مُدَّخِر، وأزرى بمَن سواه وسخر، واستعطفه ابنُ أبي عامر ونَجْمُهُ غائر لم يَلُح، وسرُّهُ مكتوم لم يبح، فما عطف، ولا جَنَى من روضة دنياه ولا قَطَف، وأقام في تدبير الأندلس ما أقام وبُرْهانُه مستقيم، ومن الفتن عَقيم، وهو يَجْري من السعد في مَيدَان رَحْب، ويَكْرَعُ من العِزِّ في مَشْرَب عذب، ويَفُضُّ ختام السرور، وينهض بمُلْكٍ على لَبَّتِهِ مزرور، وكان له أدبٌ بارع، وخاطر إلى نظم القريض مُسَارع، فمن محاسنه التي بعثها إيناس دهره وإسعاده، وقاله حين ألهته سَلْماه وسُعَاده، قولُه[7]: [الطويل]

لِعَيْنَيكِ في قلبي عليَّ عيونُ[8] وَبَينَ ضُلوعي للشجُون فُنُونُ

---

(١) هكذا في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص٣٢٠). وفي المغرب (جـ ١ ص ٢٠٢): «اثنتان وعشرون غزوة».
(٢) النص في مطمح الأنفس (ص ٤ ـ ٨) باختلاف يسير عمّا هنا. وأورد ابن عذاري بعض هذه الترجمة في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٥٥).
(٣) تمرّد في طلب الدنيا: تجاوز الحَدَّ.
(٤) تُسَوِّغُ ذلك الجَنَى: تجده سائغًا؛ يقال: ساغ الشرابُ إذا سَهُلَ مدخله. مختار الصحاح (سوغ).
(٥) في طبعة عبد الحميد: «يستغل ويطلع».
(٦) في طبعة عبد الحميد: «قد كان».
(٧) البيتان في الحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٦٣) والبيت الأول في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٥٥).
(٨) في طبعة عبد الحميد: «قلبي عليك شجونُ». وفي البيان المغرب (لِعَينيكَ).

نَصيبي من الدنيا هواك، وإنه غِذائي[1]، ولكنّي عليه ضَنِينُ

وستأتي هذه الترجمة من المطمح الصغير إن شاء اللّه تعالى بما فيه بعض زيادة ونقصان في الباب الرابع.

وقال في المطمح في حق ابن أبي عامر[2]: إنه تمرَّسَ ببلاد الشِّرْك أعظم تمرُّس، ومَحَا من طواغيتها كُلَّ تعجْرُف وتَغَطْرُس، وغادرهم صَرْعَى البِقاع، وتركهم أَذَلَّ من وَتدٍ بقاع، ووالى على بلادهم الوقائع، وسدَّدَ إلى أكبادهم سهام الفجائع، وأغصَّ بالحِمام رواحهم، ونَغَّصَ بتلك الآلام بُكُورَهُمْ ورَوَاحَهُمْ، ومن أوضح الأمور هنالك، وأفصح الأخبار في ذلك، أنَّ أحدَ رُسُلِهِ كان كثير الانتياب، لذلك الجناب؛ فسار في بعض مسيراته إلى غَرْسِيَة صاحب البَشْكَنْس فوالى في إكرامه، وتناهى في برّه واحترامه، فطالتْ مُدَّتُه فلا متنزَّه إلاَّ مَرَّ عليه متفرِّجًا، ولا منزل إلاَّ سار عليه مُعَرِّجًا، فَحَلَّ في ذلك، أكثر الكنائس هنالك، فبينا هو يَجُول في ساحتها، ويُجِيْلُ العَيْنَ في مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسْر، قويمة على طول الكسر، فكلَّمَتْهُ وعَرَّفَتْهُ بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعّمه بُؤسَهَا، ويتمتّع بِلَبُوسِ العافية وقد نضت لَبُوسَها، وزعمت أنّ لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذلّ وصَغَار ملبسة، وناشدته اللّه في إنهاء قصتها، وإبراء غُصَّتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه في ذلك أوكد مواثيق الرحمن، فلمّا وصل إلى المنصور عَرَّفَهُ بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مُصْغٍ إليه حتى تَمَّ كلامه، فلما فرغَ قال له المنصور: هل وقفتَ هناك على أمر أنكرته، أم لَم تقف على غير ما ذكرته؟ فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه، وبالمواثيق التي[3] أخذت عليه، فعتَبَه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه، ثم أخذ للجهاد من فَوره وعرض مَنْ من الأجناد في نَجْده وغوره، وأصبح غازيًا على سَرْجه، مُبَاهيًا مروان يوم مَرْجِه[4]، حتى وافى ابن شانجة

---

1) في الحلّة السيراء: «عذابي».

2) كتاب «مطمح الأنفس» ثلاثة أجزاء؛ صغير وهو الذي ذكره المقّري وفيه ترجمة المنصور محمد بن أبي عامر، ومطمح متوسط، ومطمح كبير. وترجمة المنصور ليست في المطمح المطبوع الذي بين أيدينا. وقد وردت هذه الترجمة في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨) باختلاف يسير عمّا هنا.

3) في طبعة عبد الحميد: «الذي».

4) يريد مروان بن الحكم بن أبي العاصي، ويريد بيوم مَرْجه الوقعة المشهورة التي كانت بمرج راهط سنة ٦١ هـ بين مروان المذكور وبين الضحّاك بن قيس الفِهْري، وقتل فيها الضحّاك واستقام الأمر لمروان. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٢١).

في جمعه، فأخذت مَهَابته ببَصره وسَمْعه، فبادر بالكتاب إليه يتعرّف ما الجليّة، ويحلف له بأعظم ألِيَّة[1]، أنه ما جَنَى ذنبًا، ولا جَفَا عن مضجع الطاعة جَنْبًا، فعنف أرساله وقال لهم: كان قد عاقدني أن لا يَبْقَى ببلاده مأسورة ولا مأسور، ولو جملته في حواصلها النُّسُور، وقد بلغني بَعْدُ بقاءُ المسلمة في تلك الكنيسة، ووالله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها، فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها، وأقسم أنه ما أبصرهنّ ولا سمع بهنّ وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقًا لقَوله، وتضرّع إليه في الأخذ فيه بطَوْله، فاسْتَحْيا منه، وصرف الجيش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحفَ توحّشها بأُنسِهِ، وغَيَّرَ من حالها، وعاد بسواكب نُعْماه على جَدْبها وإمحالها، وحملها إلى قومها، وكحلها بما كان شردَ من نومها، انتهى.

وقال في المطمح أيضًا في حقه ما نصه[2]: فرد نابَه على مَنْ تَقَدَّمَهُ، وصَرَّفَهُ واستخدَمه[3]، فإنه كان أمضاهم سِنَانًا، وأذكاهم جَنَانًا، وأتمّهم جَلالاً، وأعظمهم استقلالاً، فآل أَمْرُهُ إلى ما آل، وأَوْهَمَ العقولَ بذلك المَآل، فإنه كان آية اللّه في اتفاق سَعْدِهِ، وقُرْبِهِ من الملك بَعْدَ بُعْدِهِ، بهر برفعة القَدْر، واستظهر بالأناة وسَعَةِ الصَّدْرِ، وتحرّك فَلاحَ نجمُ الهدوّ، وتملّك فما خَفَق بأرضه لواء عدوّ، بعد خمول كابَدَ منه غَصَصًا وشَرَقًا، وتعذُّر مأمولٍ طارَدَ فيه سَهَرًا وأرَقًا، حتى أنجز له الموعود، وفَرَّ نَحْسُهُ أمام تلك السعود، فقام بتدبير الخلافة، وأقعد مَن كان له فيها إنافة، وساس الأمورَ أحسن سياسةٍ، وداس الخطوبَ بأخشن دياسة، فانتظمت له الممالك، واتّضحت به المسالك، وانتشر الأمن في كل طريق، واستشعر اليُمْنَ كلُّ فريق، وملك الأندلس بِضْعًا وعشرين حِجّة، لم تُدْحض لسعادتها حُجّة، ولم تزخر لمكروه بها لُجّة، لبست فيه البَهاءَ والإشراق، وتنفّست عن مثل أنفاس العِرَاق[4]، وكانت أيامه أحمدَ أيام، وسهام بأسه أسَدَّ سهام، غزا الروم

---

(١) الأَلِيَّةُ: اليمين. مختار الصحاح (ألا).

(٢) النص في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥).

(٣) هكذا في البيان المغرب وطبعة دار صادر، وفي طبعة عبد الحميد: «وصَوَّبَهُ واستحزمه».

(٤) أخذ المعنى من قول أبي العباس أحمد بن يحيىٰ النحوي: [مجزوء الكامل]

وشَمِمْتُ من أرض الشآ ... مِ نسيمَ أنفاسِ العراق

مصارع العشاق (جـ ١ ص ٢٣٧).

شاتيًا وصائفًا، ومضى فيما يروم زاجرًا وعائفًا، فما مَرّ له غير سَنيح[1]، ولا فاز إلاّ بالمعلّى لا بالمنيح[2]، فأوغل في تلك الشّعاب، وتَغَلْغَلَ حتى راع ليثَ الغاب، ومشى تحت ألويته صِيدُ[3] القبائل، واستجرَّتْ في ظلّها بِيضُ الظُّبا وسُمْرُ الذوابل، وهو يقتضي الأرواح بغير سَوْم، وينتضي الصفاح على كل رَوْم، ويتلف مَن لا ينساق للخلافة وينقاد، ويخطف منهم كلَّ كوكب وَقّاد، حتى استبدَّ وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد، وانتظمت له الأندلس بالعُدْوة، واجتمعت في ملكه اجتماعَ قريش بدار النَّدْوَة، ومع هذا لم يخلع اسمَ الحجابة، ولم يَدَعِ السمعَ لخليفته والإجابة، ظاهرٌ يخالفه الباطن، واسم تنافره مواقع الحكم والمواطن، وأذلّ قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاوَمَهُم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلّبوا على الجمهور، وسلبوا عنهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوبَ المشهور، الذي أعاد أكثر الأندلس قفرًا يَبَابا، وملأها وَحْشًا وذئابا، وأعراها عن الأمان، بُرْهَة من الزمان، وعلى هذه الهيئة فهو وابنه المظفر كانا آخر سعد الأندلس، وحَدَّ السرور بها والتأنّس، وغَزَواته فيها شائعة الأثر، رائعة كالسيف ذي الأُثُرِ، وحَسَبه وافر، ونسبه مَعَافر، ولذا قال يفتخر:

رميت بنفسي

الأبيات، وزاد هنا بعد قوله «أبيض باتر» بيتًا، وهو[4]: [الطويل]

وإني لَزَجَّاءُ الجيوشِ إلى الْوَغَى ... أُسُودٌ تلاقيها أُسُودٌ خَوَادِرُ[5]

وكانت أمُّه تميمية، فحاز الشرف بطرفيه، والتف بِمِطْرَفَيْه، ولذا قال القَسْطَلّي فيه[6]: [الطويل]

تلاقَتْ عليه من تميمٍ ويَعْرُبٍ ... شُمُوسٌ تلالا في العُلاَ وبُدُورُ

---

(١) السنيح والسانح هو ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، ومن العرب مَن يتيمّن به. لسان العرب (سنح).

(٢) المُعَلَّى: السابع من سهام المَيْسر. المَنِيحُ: قِدْحٌ بلا نصيب. لسان العرب (علا) و(منح).

(٣) الصِّيدُ: جمع أَصْيَد وهو الذي يميل بعنقه كبرياء. لسان العرب (صيد).

(٤) البيت في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٧٤).

(٥) الزَّجّاء، بتشديد الجيم: شديد النفاذ والسَّوق. الخوادر: جمع خادر وهو الأسد في عرينه. لسان العرب (زجا) و(خدر).

(٦) البيتان في ديوان ابن دراج القسطلي (ص ٣٠١) وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٧٤).

مِنَ الْحِمْيَرِيِّينَ الذين أكفُّهُمْ   سَحَائِبُ تَهْمِي بالنَّدَى وبحورُ

وتَصَرَّف قبل ولايته في شتى الولايات، وجاء من التحدّث بمنتهى أمره بآيات، حتى صَحَّ زَجْره، وجاء بصُبْحِهِ فَجْره، تؤثر عنه في ذلك أخبار، فيها عجَب واعتبار، وكان أديبًا مُحْسِنًا، وعالمًا متفنّنًا، فمن ذلك قولُه يمنّي نفسه بِمُلْكِ مصر والحجاز، ويستدعي صدورَ تلك الأعجاز[1]: [الخفيف]

مَنَع العَينَ أنْ تذوقَ المَنامَا   حُبُّها أنْ ترى الصَّفَا والمَقامَا
لي ديونٌ بالشَّرْقِ عند أناسٍ   قَدْ أحَلُّوا بالمَشْعَرَيْنِ الْحَرَاما
إنْ قَضَوْهَا نالوا الأماني، وإلاّ   جَعَلوا دُوْنَها رِقَابًا وَهَامَا
عن قريبٍ تَرَى خُيُولَ هشامٍ   يَبْلُغُ النِّيلَ خَطْوُهَا والشآما

انتهى ما نقلته من المطمح.

وفي المنصور المذكور أيضًا قال بعض مؤرّخي المغرب[2]، مازجًا كلامه ببعض كلام الفتح، بعد ذكر استعانته ببعض الناس على بعض، وذكر قتله لجعفر بن علي، فقال بعده ما صورته: ثم انفرد بنفسه وصار ينادي صُروفَ الدهر هل من مبارز، فلمّا لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، فاستقام أمره منفردًا بمملكة لا سَلَف له فيها[3]، ومن أوضح الدلائل على سَعْده أنه لم يُنْكب قطّ في حرب شهدها، وما توجّهت عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلاّ قاهرًا غالبًا، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء وواجه من الأمم، وإنها لخاصّة ما أحسب أحدًا من الملوك الإسلامية شاركه فيها، ومن أعظم ما أُعِينَ به مع قوة سعده وتمكّن جَدّه[4] سَعَةُ جوده، وكثرة بذله، فقد كان في ذلك أُعجوبة الزمان، وأول ما اتكأ على أرائك الملوك وارتفق، وانتشر عليه لواء السعد وخَفَق، حط صاحبه المصحفيّ، وأثار له كامن حقده الخفيّ، حتى أصاره للهُمُوم لبيسًا، وفي غيابات السجن حبيسًا، فكتب إليه يستعطفه بقوله[5]: [البسيط]

---

(١) هكذا وردت الأبيات في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٧٥) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٧٥).
(٢) النص في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٨٦) وبعضه في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٧٧).
(٣) لا سَلَفَ له فيها: أي لم يَرِثِ المُلْك عن أبيه.
(٤) الجَدُّ، بفتح الجيم وتشديد الدال: الحظّ. لسان العرب (جدد).
(٥) الأبيات في الجزء الثاني من نفح الطيب وفي الذخيرة (ق ٤ ص ٦٩). وفي البيان المغرب =

هَبْني أسأتُ فأين العَفْوُ والكَرَمُ | إذ قادَني نَحْوَكَ الإذعانُ والنَّدَمُ
يا خَيْرَ مَن مُدَّتِ الأيدي إليه أمَا | ترثي لشَيْخٍ رَماهُ[1] عندكَ القَلَمُ
إن الملوكَ إذا ما اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا | بالغَثِّ في السُّخْطِ فاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ

فما زاده ذلك إلاَّ حنقًا وحقدا، وما أفادته الأبيات إلاَّ تضرّمًا ووقْدا، فراجعه بما أيأسه، وأراه مَرْمَسَه، وأطبق عليه محبسه، وضَيَّق تروُّحه من المحنة وتنفُّسَهُ[2]: [البسيط]

الآن يا جاهلاً زَلَّتْ بكَ القَدَمُ | تبغي التَّكَرُّمَ لَمَّا فاتَكَ الكَرَمُ
أغْرَيْتَ بي مَلِكًا لولا تَثَبُّتُهُ | ما جازَ لي عِنْدَهُ نُطْقٌ ولا كَلِمُ
فَايْأَسْ مِنَ العَيشِ إذ قدْ صِرْتَ في طَبَقٍ | إنَّ الملوكَ إذا ما اسْتُنْقِمُوا نَقَمُوا
نَفْسِي إذا سَخِطَتْ لَيْسَتْ براضيةٍ | ولو تَشَفَّعَ فيكَ العُرْبُ والعَجَمُ

وكان من أخباره الداخلة في أبواب البِرّ والقربة بنيانُ المسجد الجامع، إلى أن قال[3]:

ومن ذلك بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الأعظم، ابتدأ بناءَهَا المنصورُ سنة ثمان وسبعين وثلثمائة، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وسبعين[4]، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المَنْفَعَةُ، وصارت صَدْرًا في مناقبه الجليلة.

(جـ ٢ ص ٢٨٦) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٦٥). وقد علّق ابن الأبار في الحلّة السيراء على هذه الأبيات بقوله: «هذه الأبيات متنازعة، ينسبها إلى المصحفي جماعة، وقد وَجَدْتُها منسوبة إلى أبي عمر ابن دراج القسطلي، وذكر أبو إسحق إبراهيم بن القاسم الرقيقي في تاريخه أنها لكاتب إبراهيم بن أحمد بن الأغلب...».

(١) في البيان المغرب والحلّة السيراء والذخيرة «نعاه».

(٢) الأبيات في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٨٦) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٦٧). وفي المصدر الثاني يقول ابن الأبار إن ابن أبي عامر أمر أبا مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري أن يجاوب المصحفي عن أبياته، فقال هذه الأبيات على البحر والرويّ نفسيهما. ويضيف: ويقال إن الأبيات لابن أبي عامر. وأورد ابن بسام البيتين الأول والرابع ونسبهما إلى ابن عبد الملك الجزيري.

(٣) النص في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٨٧ ـ ٢٩٢).

(٤) في البيان المغرب (ص ٢٨٨): «ابتدأ المنصور بُنْيانها سنة ٢٨٧، وفرغ منها في النصف من سنة ٨٩...».

وكانت هنالك[1] قطعة أرض لشيخ من العامّة، ولم يكن للقنطرة عُدُولٌ عنها؛ فأمر المنصورُ أُمَناءه بإرضائه فيها، فحضر الشيخ عندهم[2]، فساوموه بالقطعة، وعرّفوه وَجْهَ الحاجة إليها وأنَّ المنصور لا يريد إلاَّ إنصافه فيها، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظَنَّه أنها[3] لا تخرج عنه بأقلَّ من عشرة دنانير ذهبًا، كانت عنده أقصى الأُمْنِية، وشَرَطَها صِحاحًا. فاغتنم الأُمَناء غَفْلَتَهُ، ونقدوه الثَّمَن، وأشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره، فضحك من جَهَالته، وأنف من غَبْنه، وأمر أنْ يُعْطى عشرة أمثال ما سأل، وتُدْفَعَ له صِحاحًا كما قال، فقبضَ الشيخُ مائة دينار ذهبًا؛ فكاد أن يخرج من[4] عقله، وأن يُجَنَّ عند قبضها من الفرح، وجاء مُحْتَفِلاً في شكر المنصور، وصارت قِصّته خَبَرًا سائرًا.

ومن ذلك أيضًا بناء[5] قنطرة على نهر إسْتِجَةَ، وهو نهر شنيل، وتجشم[6] لها أعظم مؤنة، وسَهَّل الطريقَ الوَعْرة والشِّعاب الصعبة.

ومن ذلك أيضًا أنه خَطَّ بيده مُصْحَفًا كان يحمله معه في أسفاره[7] يَدْرُسُ فيه، ويتبرَّك به.

ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع[8] ما عَلِقَ بوجْهه من الغُبَار في غزواته ومَواطِن جهاده[9]، فكان الخدَمُ يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صُرَّة ضخمة، عَهِدَ بتصييره في حَنُوطه[10]، وكان يحملها[11] حيث سار مع أكفانه، تَوَقُّعًا

---

(١) كلمة «هنالك» ساقطة من البيان المغرب.

(٢) في البيان المغرب: «عندهم، وأخذ حَذَرَهُ منهم، فساوموه...».

(٣) في المصدر نفسه: «ألاّ تخرج».

(٤) في المصدر نفسه: «عن».

(٥) في البيان المغرب: «بنيان».

(٦) في المصدر نفسه: «فتجشَّمَ».

(٧) هكذا في المصدر نفسه وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «أسفاره [وغزواته] ويدرس فيه...».

(٨) هكذا في البيان المغرب وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «بجميع».

(٩) كذلك فعل سيف الدولة الحمداني، إذ جمع من نفض الغبار الذي اجتمع عليه في غزواته لبلاد الروم، وعمل لَبِنَةً بقدر الكفّ، وأوصى أن يوضع خدّه عليها في لحده، فنفّذت وصيّته في ذلك. وفيات الأعيان (جـ٣ ص ٤٠٥).

(١٠) الـحَنُوط، بفتح الحاء وضم النون وسكون الواو: طِيبٌ يوضع في ماء غُسْل الـمَيّت. لسان العرب (حنط).

(١١) في البيان المغرب: «يحمله».

لِحُلُولِ مَنِيَّته، وقد كان اتَّخذ الأكفان من أَطْيَب مَكْسَبِهِ من الضَّيْعة الموروثة عن أبيه، وغَزْلِ بناته. وكان يسأل اللَّه تعالى أن يَتَوَفَّاه في طريق الجهاد؛ فكان كذلك.

وكان[١] مُتَّسِمًا بصحّة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من رَبِّه، وكثرة جهاده. وإذا ذُكِّر باللَّه ذَكَر، وإذا خُوِّفَ من عِقابه ٱزْدَجَر، ولم يزل متنزّهًا عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين. وكان عَدْله[٢] في الخاصّة والعامّة وبَسْطُ الحَقِّ على الأقرب فالأقرب من خاصّته وحاشيته أمرًا مضروبًا به المثل.

ومِنْ عَدْله أنه وقف عليه رجلٌ من العامّة بمجلسه، فنادى: «يا ناصر الحق، إنَّ لي مَظْلمَةً عند ذلك الوصيف الذي على رأسك»، وأشار إلى الفتى صاحب الدَّرَقَة، وكان له فَضْلُ محلّ عنده[٣]، ثم قال: وقد دَعَوتُه إلى الحاكم، فلم يأتِ، فقال له المنصور: «أَوَ عبد الرحمن بن فُطَيس[٤] بهذا العجز والمهانة[٥]، وكُنّا نظنّه أمضى من ذلك؟ أُذْكُرْ مَظْلَمَتكَ يا هذا!»، فذكر الرجلُ معاملةً كانت جاريةً بينهما فقطعها من غير نَصَفٍ[٦]، فقال المنصور: «ما أعظمَ بَلِيَّتنا بهذه الحاشية»! ثم نظر إلى الصَّقْلبي وقد ذُهِل عقلُه، فقال له: «إدْفَع الدَّرَقة إلى فلان، وانزِلْ صاغرًا، وسَاوِ خَصْمَكَ في مقامه حتى يرفعك الحقُّ أو يَضَعَكَ»، ففعل، ومثلَ بَيْنَ يديه، ثم قال لصاحب شُرْطته الخاصّ به: «خُذْ بيد هذا الفاسق الظالم[٧] وقَدِّمْه مع خَصْمه إلى صاحب المَظالِم لِيُنَفِّذَ عليه حُكْمَهُ بأغلظَ ما يُوجبه الحقُّ من سَجْنٍ أو غيره»، ففعل ذلك، وعاد الرجلُ إليه شاكرًا، فقال له المنصور: «قد انتصفْتَ

---

(١) في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٨٩): «وكان المنصور مُتَّسمًا...».
(٢) في المصدر نفسه: «وكان عدل المنصور في الخاصّة والعامّة، واطّراحه المهاودة، وبَسْطُهُ الحَقّ...».
(٣) في المصدر نفسه: «عند ابن أبي عامر».
(٤) هكذا في البيان المغرب وطبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «الفطيس».
(٥) في البيان المغرب: «بهذه المنزلة من العَجْز...».
(٦) النَّصَفُ، بالفتح: الإنصاف. لسان العرب (نصف).
(٧) في البيان المغرب: «الظالم الفاسق...».

أنت، فاذْهَبْ[1] لسبيلك. وبقي انتصافي أنا ممّن تهاون بمنزلتي». فتناول الصَّقْلبيَّ بأنواع من المَذَلَّة، وأَبْعَدَهُ عن الخِدْمة.

ومن ذلك قِصةُ فتاهُ الكبير المعروف بالبورقي[2] مع التاجر المَغْربي؛ فإنهما تنازعا في خُصُومة توجّهت فيها اليمينُ على الفتى المذكور، وهو يومئذ أكبرُ خَدَمِ المنصور، وإليه أَمْرُ داره وحُرَمه، فَدافَعَ الحاكمَ، وظنَّ أنَّ جاهَهُ يمنع من إحلافه. فصرخ التاجرُ بالمنصور في طريقه إلى الجامع مُتَظَلِّمًا من الفتى، فَوَكَّلَ به في الوقت مَنْ حَمَلَهُ إلى الحاكم، فأَنْصَفَهُ منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نِعْمته منه، ونَفاهُ. ومن ذلك قصة محمد فَصَّادِ[3] المنصور وخادمه وأمينه على نفسه، فإنَّ المنصور احتاجه يومًا إلى الفَصْد، وكان كثير التَّعَهُّد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفاه الرسولُ محبوسًا في سجن القاضي محمد بن زرب[4] لِحَيفٍ ظهر منه على امرأته قَدَّرَ أنَّ سبيلَهُ من الخِدْمة يَحْميه من العقوبة. فلمّا عاد الرسول إلى المنصور بقصّته، أَمَرَ بإخراجه من السجن مع رقيب من رُقَباء السجن يلزمه إلى أنْ يَفْرَغَ من عمله عنده، ثم يردّه[5] إلى محبسه. ففعل ذلك على ما رسمه، وذهب الفاصدُ إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور، وقال له: «يا محمد، إنّه القاضي، وهو في عَدْله، ولو أخذني الحقُّ ما أَطَقْتُ الامتناع منه، عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحقّ فهو الذي يُطْلقك». فانكسر الحاجم، وزالت عنه ريحُ العناية. وبلغت قصتُه للقاضي، فصالَحَهُ مع زَوْجته[6]، وزاد القاضي شدّةً في أحكامه.

وقال ابن حيّان[7]: إنه كان جالسًا في بعض الليالي، وكانت ليلةً شديدةَ البَرْدِ والريح والمَطَر، فدعا بأحد الفُرْسان وقال له: «إنْهَض الآن[8] إلى فج طَلْيارش، وأَقِمْ فيه، فأول

---

(١) هكذا في البيان المغرب. وفي طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «إذْهَبْ». وقوله: إنْتَصَفْتَ: أي أَخَذْتَ حَقَّكَ كاملاً. لسان العرب (نصف).

(٢) في البيان المغرب: «بالميورقي».

(٣) الفَصّادُ: الذي مهنته الفَصْد وهو شقّ عِرْق المريض، وهو كالحَجّام. لسان العرب (فصد).

(٤) محمد بن يَبْقى بن زَرْب أحد صدور الفقهاء في زمانه بالأندلس، كان له حظّ كبير في علم الإعراب والفِقْه. توفي سنة ٣٨١ هـ. تاريخ قضاة الأندلس (ص ٧٧ ـ ٨٢).

(٥) في البيان المغرب (ص ٢٩٠): «يعيده».

(٦) في المصدر نفسه: «زوجه».

(٧) في المصدر نفسه: «ومن دهائه، قال ابن حيّان: كان جالسًا...».

(٨) كلمة «الآن» ساقطة من البيان المغرب.

خاطر يَخْطُرُ عليك سُقْهُ إليَّ». قال: فنهض الفارس وبقي في الفَجِّ في البرد والريح والمطر واقفًا على فرسه، إذ وقف عليه قُرْبَ الفجر شَيخٌ هَرِمٌ على حمارٍ له، ومعه آلَةُ الحَطَبِ، فقال له الفارس: «إلى أين تريد يا شيخ»[1]؟ فقال: «وراء حَطَبٍ»، فقال الفارس في نفسه: «هذا شَيخٌ مسكينٌ نَهَضَ إلى الجبل يسوق حَطَبًا، فما عسى أن يريد المنصور منه»؟ قال: فَتَرَكْتُهُ، فسار عنِّي قليلاً، ثم فَكَّرْتُ في قول المنصور، وخِفْتُ سَطْوته، فَنَهَضْتُ إلى الشيخ وقلْتُ له: «اِرْجِعْ إلى مولانا المنصور». فقال له[2]: وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي؟ سألتك باللّه أن تتركني[3] لطلب معيشتي، فقال له الفارس: لا أفعل، ثم قَدِمَ به على المنصور، ومَثَّله بين يَدَيه وهو جالس لم يَنَمْ لَيْلَتَهُ تلك، فقال المنصور للصقالبة: فَتِّشوهُ، ففتّشوه[4] فلم يجدوا معه شيئًا، فقال: فَتِّشوا بَرْذَعَة[5] حماره، فوجدوا داخِلَها كتابًا مِنْ نصَارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون[6] عنده إلى أصحابهم من النصارى لِيُقْبِلُوا ويَضْرِبوا في إحدى النَّواحي المعلومة[7]. فلما انبلج الصبح أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فَضُرِبَتْ أعناقُهُمْ، وضُرِبَتْ رَقَبَةُ الشيخِ معهم.

ثم ذكر المؤرّخ[8] قصة الجوهري التي قَدَّمْنا نقلها[9] من مُغْرب ابن سعيد، ولكنّا رأينا إعادتها بلفظ هذا المؤرّخ؛ لأنه أتَمّ مساقًا إذ قال عطفًا على دهائه: ومن ذلك قصة الجوهري التاجر، وذلك أن رجلاً جوهريًا مِنْ تـجّار المشرق قصد المنصور من مدينة عَدَن بجوهرٍ كثيرٍ وأحجارٍ نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما اسْتَحْسَنَهُ، ودفع[10] إلى التاجر الجوهري صُرَّتَهُ، وكانت قطعة يمانيّة، فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرَّمْلَة على شطِّ

(١) في البيان المغرب: «إلى أين تذهبُ يا شيخ؟».
(٢) في المصدر نفسه: «فقال: وما عسى...».
(٣) هكذا في طبعة دار صادر وفي البيان المغرب، وفي طبعة عبد الحميد: «تتركني [أذهب] لطلب...».
(٤) في البيان المغرب (ص ٢٩٠ ـ ٢٩١): «فَفُتِّشَ، فلم يُوجَدْ عنده شيء...».
(٥) البَرْذَعَةُ والبَرْذَعَةُ: جِلْس (كِساء) يُلْقى تحت الرَّحْل يُوَقَّى به ظهر البعير من الرَّحْل. مختار الصحاح (بردع).
(٦) في البيان المغرب (ص ٢٩١): «يحزمون».
(٧) في طبعة عبد الحميد: «المرطومة»، وفي طبعة دار صادر «الموطومة» وفي الطبعتين مصحّفة، ولذا صوّبناها عن البيان المغرب.
(٨) المؤرّخ هو نفسه ابن عذاري في كتابه «البيان المغرب»، حيث يتابع المقّري النقل عنه.
(٩) تقدّم الحديث عن قصة التاجر الجوهري.
(١٠) في البيان المغرب: «ودفع إلى الجوهريِّ التاجر...».

النهر، فلمَّا تَوَسَّطَها واليومُ قائظٌ، وعَرَقُهُ مُنْصَبٌّ دَعَتْه نَفْسُه إلى التبرّد في النهر، فوضع ثيابه وتلك الصُرّة على الشَّطِّ، فَمَرَّتْ حِدَأَةٌ فاخْتَطَفَتِ الصُّرَّة، تحسبها لحمًا، وصاعدت[1] في الأُفق بها ذاهبةً، فقطعت الأُفق الذي تنظر إليه عينُ التاجر، فقامت قيامَتُهُ، وعلم أنّه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة[2]، فَأَسَرَّ الحُزْنَ في نفسه، ولَحِقَه[3] لأجل ذلك علَّة اضطرب فيها. وحضر الدفعُ إلى التجّار، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان للمنصور ما بالرجل[4] من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدّة العارضة، فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصّته، فقال له: هلاّ أَتَيْتَ إلينا بِحدْثَان وقوع الأمر؟ فكُنَّا نستظهرُ على الحيلة، فهل هُدِيتَ إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها؟ قال: مَرَّ مُشْرِقًا على سَمْتِ هذا الجبل[5] الذي يلي قصرك، يعني الرملة، فدعا المنصور شُرْطِيَّه الخاصَّ به، فقال له: جِئْني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى وجاء بهم سريعًا، فأمرهم بالبحث عمَّن غَيَّرَ حالَ الإقلالِ منهم سريعًا، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا في ذلك ثم قالوا: يا مولانا، ما نعلم إلاّ رجلاً من ضُعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ويتناولون السَّبْق[6] بأقدامهم عجزًا عن شراء دابّة، فابتاع اليومَ دابَّةً، واكتسى هو وولده كسوةً متوسِّطة، فأمر بإحضاره من الغَدِ، وأمر التاجرَ بالغُدُوِّ إلى الباب، فحضر الرجلُ بعينه بين يَدَي المنصور، فاسْتَدْناه والتاجرُ حاضرٌ، وقال له: سَبَبٌ ضاعَ منَّا وسَقَطَ إليك، ما فَعَلْتَ به؟ قال[7]: هو ذا يا مَوْلايَ، وضرب بيده إلى حُجْزَة[8] سَرَاويله فأخرج الصُّرَّة بعينها، فصاح التاجرُ طَرَبًا، وكاد يطير فرحًا، فقال له المنصور: صِفْ لي حديثها، فقال: بَيْنَا أنا أعمل في جِنَاني تحت نَخْلَةٍ إذ سقطت أمامي، فأخذْتُها وراقَني منظرُها، فقلت: إنَّ الطائرَ اختلسها من قَصْرك لِقُرْب الجوار، فاحترزتُ[9] بها، ودَعَتْني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عُيُونًا كانت معها

---

(١) هكذا في البيان المغرب وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «وصارت».
(٢) في البيان المغرب: «ذلك بِعَدْوَى ولا بحيلة...».
(٣) في المصدر نفسه: «ولَحِقَتْهُ».
(٤) في المصدر نفسه: «ما به».
(٥) في المصدر نفسه: «الجنان».
(٦) في المصدر نفسه: «السَّقْي».
(٧) في البيان المغرب: «فقال».
(٨) حُجْزَةُ الإزار: مَعْقِده، وحُجْزَةُ السراويل: التي فيها التِّكَّةُ. مختار الصحاح (حجز).
(٩) إحْتَرَزْتُ بها: أي احتفظْتُ بها. لسان العرب (حرز).

مصرورةً، وقلت: أَقَلُّ ما يكون في كرم مَوْلايَ أن يسمح لي بها، فأعجبَ المنصورُ ما كان منه، وقال للتاجر: خُذْ صُرَّتَكَ وانْظُرْها، واصْدُقْني عن عَدَدِها، ففعل وقال وحقِّ رأسك يا مولايَ، ما ضاعَ منها شيءٌ سوى الدنانير التي ذكرها، وقد وَهَبْتُها له، فقال [له][1] المنصور: نحن أولى بذلك منك ولا نُنَغص[2] عليك فرحك. ولولا جَمْعُهُ بين الإصرار والإقرار[3] لكان ثوابه موفورًا عليه، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا من دنانيره، وللجَنَّان بعشرة دنانير ثوابًا لتأنِّيه عن فساد ما وقع بيده، وقال: لو بَدَأَنا بالاعتراف قبل البَحْث لأوسَعْناه جَزاءً، قال: فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاوَدَهُ نشاطُهُ وقال: واللّه لأَبُثَّنَّ في الأقطار عظيمَ ملكك، وَلأُبَيِّنَنَّ[4] أنك تَـمْلِكُ طَيرَ أعمالِك[5] كما تملك إنسها، فلا تَعْتَصِمْ منك ولا تمتنع[6]، ولا تؤذي جارك، فضحك المنصور وقال: إقْصِدْ في قولك[7] يغفر اللّه لك، فعجب الناس من تَلَطُّف المنصور في أمره وحيلته في تفريج كُرْبته.

ثم حكى هذا المؤرّخ[8] غزوة المنصور لمدينة شَنْت يَاقُبَ قاصية غليسية، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس، وما يتّصل بها من الأرض الكبيرة. وكانت كنيستُها عندهم بمنزلة الكَعْبة عندنا، وللكعبة المثلُ الأعلى [9]، فبها يحلفون، وإليها يحجُّون من أقصى بلاد رُومة وما وراءها، ويزعمون أنَّ القَبْرَ الـمَزُورَ فيها قبرُ ياقب[10] الحواريّ أحد الاثني عشر، وكان أخصَّهم بعيسى، على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام! وهم يسمّونه أخاه للزومه إيّاه[11]. وياقب بلسانهم يعقوب، وكان أُسْقُفًا ببيت الـمَقْدِسِ، فجعل يستقري

---

(١) كلمة «له» ساقطة في طبعة دار صادر.

(٢) في البيان المغرب (ص ٢٩٢): «ولا نُنْقِصُ عليك فرحتك...».

(٣) في المصدر نفسه: «بين الإقرار والإنكار».

(٤) وهكذا في البيان المغرب، وفي طبعة دار صادر: «وَلأُنَبِّئَنَّ».

(٥) في البيان المغرب: «طَيْرَ عَمَلِكَ».

(٦) عبارة: «ولا تمتنع» سقطت من البيان المغرب.

(٧) قَصَدَ في قوله: اعتدل في قوله. لسان العرب (قصد).

(٨) في طبعة عبد الحميد: «ومن ذلك غزوة المنصور...»، وهذا خطأ؛ لأنّ غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب Santiago ليست من قصص الدهاء التي مرّت. وهنا لا يزال المقري يتابع النقل عن ابن عذاري في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٧).

(٩) عبارة: «وللكعبة المثل الأعلى» ساقطة في البيان المغرب.

(١٠) في البيان المغرب: «ياقوب».

(١١) في المصدر نفسه: «إياه. وقد زعم جماعة منهم أنه ابن يوسف النجار. وشنت ياقوب هي مَدْفَنُ ياقوب. فهم يسمّونه أخا الرّبّ...».

الأَرْضين داعيًا لـمَن فيها[1] حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام فمات[2] بها، وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رِمَّته[3]، فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره. ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها ولا الوصول إليها، لصعوبة مَدْخَلها، وخُشُونة مكانها. وبُعْدِ شُقَّتِها. فخرج المنصور إليها من قُرْطُبة غازيًا بالصائفة يوم السبت لستٍّ بَقِينَ مِنْ جُمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلثمائة، وهي غزوته الثامنة والأربعون. ودخل على مدينة قُورِية، فلمّا وصل إلى مدينة غليسية وافاه عددٌ عظيم من القوامس المتمسّكين بالطاعة في رجالهم، وعلى أتمّ احتفالهم، فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في المُغَاوَرَةِ[4] سبيلهم. وكان[5] المنصور تَقَدَّم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس[6] من ساحل غرب الأندلس، وجَهَّزه برجاله البَحْريّين وصنوف المترجّلين، وحمل الأقوات والأطعمة والعُدَد والأسلحة، استظهارًا على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع بُرْتقال على نهر دُوَيرة[7]، فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذا الأسطول جِسْرًا بقرب الحِصْن الذي هنالك، ووَجَّهَ[8] المنصور ما كان فيه من المِيرة إلى الجُنْد، فتوسَّعوا في التزوّد منه إلى أرض العدو. ثم نهض منه يريد شنت يَاقُب، فقطع أَرَضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخِلْجان يَمُدُّها البحر الأخضر. ثم أفضى العسكرُ بعد ذلك إلى بَسَائط جليلة من بلاد فرطارش[9] وما يتّصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوَعْر لا مسلك فيه ولا طريق، لم يَهْتَدِ الأدِلاَّءُ إلى سواه. فقدَّمَ المنصورُ الفَعَلَةَ بالحديد لِتَوْسِعَةِ شِعابه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر، وعبروا بعده وادي مِنْيُهْ[10]، وانبسط المسلمون بعد

---

(١) في البيان المغرب: «لمَن فيها، فجاز إلى الأندلس حتى انتهى...».

(٢) في البيان المغرب (ص ٢٩٥): «فَقُتِلَ بها».

(٣) الرِّمَّةُ، بكسر الراء وفتح الميم المشدّدة: العظام البالية. مختار الصحاح (رمم).

(٤) المغاورة: مصدر غاور، وهي الإغارة. لسان العرب (غور).

(٥) في البيان المغرب: «وقد كان المنصور».

(٦) قصر أبي دانس: بالإسبانية Alcazar de Sal، بغربيّ الأندلس، فيه كانت الوقيعة على المسلمين للروم في سنة ٦١٤ هـ. الروض المعطار (ص ٤٧٥).

(٧) نهر دُوَيرة: بالإسبانية Duero، ويصبّ عند بورتو في المحيط الأطلسي.

(٨) في البيان المغرب: «ووزَّع المنصور... على الجُنْد...».

(٩) في المصدر نفسه: «فَلْطارِش ومباسيطة والدِّير وما يتّصل بها...».

(١٠) وادي مِنْيُهْ: بالإسبانية Río Mino.

ذلك في بسائط عريضة وأرَضين [أريضة][1]، وانتهت مَغِيرتُهُمْ إلى دَيْر قَسْطان وبسيط بلنبو[2] على البحر المحيط، وفتحوا حصن شَنْت بَلايُه[3]، وغنموه، وعبروا سِبَاحَةً[4] إلى جزيرة من البحر المحيط لَجَأَ إليها خلقٌ عظيمٌ من أهل تلك النواحي، فسَبَوْا مَنْ فيها مِمَّنْ لجأ إليها. وانتهى العسكر إلى جبل مُراسيه[5] المتّصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط. فتخلّلوا أقطاره، واستخرجوا مَنْ كان فيه، وحازوا غنائمه. ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجًا في[6] معبرَيْن أَرْشَدَ الأَدِلاَّءُ إليهما، ثم نهر أيلة[7]، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة[8]، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد يَاقُبَ[9] صاحب القبر تِلْوَ مَشْهَدِ قبره عند النصارى في الفضل، يقصد نُسَّاكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنُّوبة وغيرهما، فغادره المسلمون قاعًا. وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خَلَتَا من شعبان، فوجدها المسلمون خاليةً من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهَدَمُوا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعَفَّوْا آثارها. ووكّل المنصورُ بقبر يَاقُبَ مَنْ يحفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مَصَانِعُها بديعةً محكمةً فَغُودِرَتْ هشيمًا كأنْ لم تَغْنَ بالأمس[10]، وانْتَسَفَتْ بُعُوثُه بعد ذلك سائرَ البسائط، وانتهت الجيوش إلى[11] شنت مانكش مُنْقَطَع هذا الصقع على البحر المحيط، وهي غايةٌ لم يبلغْها قَبْلَهُمْ مسلمٌ، ولا وَطِئَها لغير أهلها قَدَمٌ، فلم يكن بعدها للخيل مَجَالٌ، ولا وراءها انتقالٌ. وانكفأ المنصور عن باب شنت يَاقُبَ وقد بلغ غايةً لم يبلغْها مسلم قبله، فجعل في طريقه القَصْدَ على عمل بَرْمُنْد بن أُرْدن ليستقرَّ[12] عائثًا ومُفْسِدًا، حتى وقع في عمل القوامس المُعاهدين الذين في

---

(١) الأرض الأريضة: المُعْجِبَةُ للعَين. مختار الصحاح (أرض).

(٢) في البيان المغرب (ص ٢٩٥): «بلبنوط».

(٣) شنت بلايه: بالإسبانية San Pelayo.

(٤) في البيان المغرب «سِباحَة».

(٥) جبل مُراسيُهْ: بالإسبانية Morrazo.

(٦) في البيان المغرب (ص ٢٩٦): «خليج لورقى».

(٧) نهر أيلّة: بالإسبانية Río Ulla.

(٨) في البيان المغرب: «الفائدة، منها بسيط أونبة وقَرْجِيطة ودَير شَنْت بريّة. ثم انتهوا إلى خليج إيلياء، وهو من مشاهد ياقوب أيضًا صاحب...».

(٩) في طبعة دار صادر: «مشاهد صاحب القبر».

(١٠) في البيان المغرب: «بالأمس، وذلك يوم الاثنين أو الثلاثاء بعده. وانتسفت...».

(١١) في طبعة عبد الحميد: «مدينة شنت...».

(١٢) في طبعة عبد الحميد: «يستقر به عائثًا به...».

عسكره، فأمر بالكَفِّ عنها، ومَرّ مجتازًا حتى خرج إلى حصن بليقية [١] من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامسَ بِجُمْلتهم على أقدارهم، وكساهم وكَسَا رجالهم، وصَرَّفهم إلى بلادهم، وكتب بالفَتْح من بليقية. وكان مبلغ[٢] ما كساه في غَزَاته هذه لملوك الروم ولـمَن حَسُنَ غَناؤه[٣] من المسلمين ألفين ومائتين وخمسًا وثمانين شُقَّة من صنوف الـخَزِّ الطِّرازي، وأحدًا[٤] وعشرين كِساءً من صوف البَحْر، وكساءين عَنْبَرِيَّيْن، وأحد عشر سِقْلاطونًا، وخمس عشرة مُرَيَّشات[٥]، وسبعة أنماط ديباج، وثَوبَيْ ديباج روميّ، وفَرْوَيْ فَنَك، ووافى جميع العسكر[٦] قرطبةَ غانمًا، وعظمت النعمة والـمِنَّة على المسلمين. ولم يجد المنصور بشنت يَاقُبَ إلاَّ شَيخًا من الرُّهْبان جالسًا على القبر، فسأله عن مُقامه، فقال: «أؤانسُ[٧] يعقوبَ»، فأَمَرَ بالكَفِّ عنه.

قال[٨]: وحدّث شُعْلة، قال: قلت للمنصور ليلةً طالَ سهرُهُ فيها[٩]: «قد أفرط مولانا في السهر، وبَدَنُهُ يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، وهو[١٠] أعلمُ بما يحرِّكه عَدَمُ النوم من عِلَّة العَصَب، فقال: يا شُعْلة، الـمَلِكُ لا ينامُ إذا نامتِ الرعيّة، ولو اسْتَوْفَيتُ نومي لَـمَا كان في دُوْرِ هذا البلد العظيم عَينٌ نائمة». انتهى ما نقلتهُ من الكتاب المذكور.

وقد رأيتُ أن أذكر هنا أخبارًا، نقلْتُها من كتاب «الأزهار المنثورة، في الأخبار المأثورة»[١١]:

قال في الزهرة التاسعة والعشرين: تقدّم إلى المنصور وانزمار بن أبي بكر البرزالي أحد جنود[١٢] المغاربة، وقد جلس للعرض والتمييز، والميدان غاصٌّ بالناس، فقال له

---

(١) في البيان المغرب: «مَلِيقَة». وقد يكون حصن لميقة Lamego.
(٢) في البيان المغرب: «مبلغ مَن أكْساهُ ابنُ أبي عامر في غزاته...».
(٣) في البيان المغرب (ص ٢٩٧): «عناؤه».
(٤) في البيان المغرب وطبعة عبد الحميد: «وإحدى».
(٥) في البيان المغرب: «مريشًا».
(٦) في المصدر نفسه: «إلى قرطبة سالـمًا غانـمًا.
(٧) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «أونِسُ».
(٨) ينقل هنا عن البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٩٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٧٦).
(٩) في البيان المغرب: «طال فيها سَهَرُهُ».
(١٠) في المصدر نفسه: «وهو يعلم ما...».
(١١) لم نَهْتَدِ إلى صاحب هذا الكتاب، وقد يكون هو نفسه كتاب «الزهرات» لابن سعيد.
(١٢) في طبعة دار صادر: «جُنْد».

بكلام يُضحك الثّكلى: يا مولاي، ما لي ولك، أسكنّي فإني في الفحص، فقال: وما ذاك يا وانزمار؟ وأين دارُك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتني عنها واللّه نعمتُكَ، أعطيتني من الضياع ما انصبَّ عليَّ منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها، وأنا بربري مجوّع حديثُ عهد بالبؤس، أتراني أُبعِدُ القمحَ عني؟ ليس ذلك من رأيي. فتطلّق المنصور[1] وقال: للّه دَرُّك مِنْ فَذّ عَيِيٍّ، لَعِيُّك في شكر النعمة أبلغُ عندنا، وآخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق[2] متزيد وبليغ متفنّن، وأقبل على مَنْ حوله من أهل الأندلس فقال: يا أصحابنا، هكذا فَلْتُشكر الأيادي وتُستدام النعم، لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم، والتشكّي المبرّح، وأمر له بأفضل المنازل الخالية.

وفي الموفية ثلاثين ما نَصُّهُ: أصبح المنصور صبيحةَ أحدٍ، وكان يوم راحة للخَدَمَة[3] الذين أُعفوا فيه من قصد الخدمة، في مطر وابل غبَّ أيام مثله، فقال: هذا يوم لا عهد بمثله، ولا حيلة للمواظبين لقصدنا في مكابدته، فليت شعري هل شذّ أحد منهم عن التقرير[4] فأغرب في البكور؟ اخرج وتأمّل، يقوله لحاجبه، فخرج وعاد إليه ضاحكًا، وقال: يا مولاي، على الباب ثلاثة من البرابرة: أبو الناس بن صالح واثنان معه، وهم بحال من البلل إنّما توصف بالمشاهدة، فقال: أوصلهم إليّ وعجّل. فدخلوا عليه في حال الملاّح بللاً ونَدَاوة، فضحك إليهم وأدنى مجلسهم، وقال خبّروني كيف جئتم؟ وعلى أيّ حال وَصَلْتُم؟ وقد استكان كل ذي روح في كِنِّه[5]، ولاذَ كل طائر بوَكْره، فقال له أبو الناس بكلامه: يا مولانا، ليس كل التّجّار قعد عن سوقه، وإذا عُذِر التجار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر بإدراكها بالبِدَرِ ومن غير رؤوس الأموال[6]، يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون في قصدها ثيابَهُم، ونحن نأتيك على خَيْلك، ونذيلُ على صَهَواتها ملابسك، ونجعل الفضلَ في قصدك مضمونًا إذا جعله أولئك طَمَعًا ورجاء، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذا؟ فضحك المنصور ودعا بالكُسا والصِّلاَت، فدُفِعَتْ لهم، وانصرفوا مسرورين بغدوتهم.

---

(١) أي تَطَلَّقَ وَجْهُهُ، ضِدُّ تَقَبَّضَ. محيط المحيط (طلق).

(٢) الخطيب الأَشْدَقُ: البليغ. محيط المحيط (شدق).

(٣) في طبعة دار صادر: «الخَدَمَة».

(٤) في طبعة دار صادر: «التقدير».

(٥) الكِنُّ: السُّترة والمكان يستتر فيه. لسان العرب (كنن).

(٦) في طبعة دار صادر: «وهم يتناوبون».

وفي الزهرة الرابعة والأربعين ما نَصُّهُ: كان بقُرْطُبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتًى مِنْ أهلِ الأدب قد رَقَّتْ حاله في الطلب، فتعلّق بكتاب العمل، واختلف إلى الخزانة مدّة، حتى قُلِّدَ بعضَ الأعمال، فاستهلك كثيرًا من المال، فَلَمَّا ضَمَّ إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار، فرفع خبره إلى المنصور، فأمر بإحضاره، فلمّا مَثُلَ بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له: يا فاسق، ما الذي جَرّأَكَ على مال السلطان تنتهبه؟ فقال: قضاءٌ غلب الرأي، وفَقْرٌ أَفْسَدَ الأمانة، فقال المنصور: واللّه لأَجْعَلَنَّكَ نكالاً لغيرك، لَيُحْضَر كَبْلٌ[١] وحَدَّاد، فأُحضرا[٢]، فكبل الفتى وقال: اِحْمِلُوهُ إلى السجن، وأمر الضابط بامتحانه والشدّة عليه، فلما قام أنشأ يقول: [السريع]

أَوّاهُ أوّاهُ وكـــــم ذا أرَى ... أُكْــثِـرُ مِــنْ تــكــرار[٣] أوّاهِ
مَـا لامْـرِىءٍ حَـولٌ ولا قُـوَّةٌ ... الــحَــوْلُ والــقــوةُ لــلّــهِ

فقال المنصور: ردّوه، فلما رُدَّ قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت، فقال: حُلُّوا عنه كَبْلَهُ، فَلَمَّا حُلَّ عنه أنشأ يقول: [السريع]

أمَـا تَـرَى عَـفْـوَ أبي عـامـرٍ ... لا بُـدَّ أنْ تـتـبـعـه مِـنّـهْ
كـذلِـكَ الـلّـهُ إذا مـا عَـفَـا ... عـن عَـبْـده أدخَـلَـهُ الـجَـنّـهْ

فأمر بإطلاقه، وسوّغه[٤] ذلك المال، وأبرأه من التبعة فيه.

وفي الخامسة والأربعين: عُرِضَ على المنصور بن أبي عامر اسمُ أحد خَدَمِهِ في جملة مَنْ طال سجنه، وكان شديد الحقد عليه، فوقّع على اسمه بأنْ لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأُمّه الهاوية، وعُرِّف الرجل بتوقيعه، فاهتـمّ[٥] واغتـمّ وأَجْهَدَ نفسه في الدعاءِ والمناجاة، فأرق المنصور إثر ذلك، واستدعى النومَ فلم يقدر عليه، وكان يأتيه عند تنويمه آتٍ كَرِيهُ الشخص عنيفُ الأخذ يأمره بإطلاق الرجل، ويتوعّده على حبسه، فاستدفع شأنه مرارًا إلى أن علم أنّه نذيرٌ مِنْ ربِّه، فانقاد لأمره، ودعا بالدواة في مرقده فكتب بإطلاقه،

---

(١) الكَبْلُ: القَيدُ. لسان العرب (كبل).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «فأحضر».
(٣) في طبعة دار صادر: «تذكار».
(٤) سَوَّغَهُ ذلك المالَ: جعله له سائغًا.
(٥) في طبعة دار صادر: «فاغتـمّ وأجهد. . .».

وقال في كتابه: هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبي عامر، وتحدّث الناسُ زمانًا بما كان منه.

وفي السادسة والأربعين[1] ما نَصُّه: انتهت هَيْبَة المنصور بن أبي عامر وضَبْطه للجُنْد واستخدام ذكور الرجال[2] وقُوَّام الملك إلى غاية لم يَصِلْها ملك قبله، فكانت مواقفهم في الميدان على احتفاله مثلاً في الإطراق، حتى إنَّ الخيل لتتمثَّل إطراق فرسانها فلا تُكْثِرُ الصهيلَ والحَمْحَمة[3]، ولقد وقعت عَيْنُهُ على بارقةِ سَيف قد سَلَّه بعضُ الجند بأقصى الميدان لِهَزْلٍ أو جدّ بحيث ظنّ أنَّ لَحْظَ المنصور لا يناله، فقال: عليَّ بشاهرِ السيف، فمثل بين يديه لوقته، فقال: ما حملك على أنْ شَهَرْتَ سيفك في مكان لا يُشْهَرُ فيه إلاَّ عن إذن؟ فقال: إنِّي أشرت به إلى صاحبي مُغْمَدًا فذلق[4] من غِمْدِهِ، فقال: إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى، وأمر به فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ بسيفه، وطِيْفَ برأسه، ونُوْدي عليه بذنبه.

وفي السابعة والأربعين[5]: أن المنصور كان به داء في رجله، واحتاج إلى الكَيِّ فأمر الذي يكويه بذلك وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته، فجعل يأمر وينهى ويَفْرِي الفَرِيَّ في أموره[6]، ورِجْلُهُ تُكْوَى والناسُ لا يشعرون، حتى شَمّوا رائحة الجلد واللحم، فتعجّبوا من ذلك وهو غير مكترث.

وأخباره ـ رحمه اللّه تعالى! ـ تحتمل مجلّدات، فلنمسك العنان، على أنَّا ذَكَرْنا في الباب الرابع والسادس من هذا الكتاب جملة من أخباره، رحمه اللّه تعالى! فَلْتُراجَع إلى آخره.

وقال الفتح في المطمح[7]: وكان مما أُعِينَ به المنصورُ على المُصْحَفيِّ مَيلُ[8] الوزراء إليه، وإيثارُهُمْ له عليه، وسَعْيُهُمْ في تَرَقِّيه، وأَخْذُهُمْ بالعَصَبِيَّة فيه، فإنها[9] وإن لم

(١) في طبعة دار صادر: «وفي الثامنة والأربعين».
(٢) أراد بذكور الرجال الشُّجعان منهم.
(٣) الحَمْحَمَةُ: صوت الخيل دون الصهيل. لسان العرب (حمحم).
(٤) في طبعة دار صادر: «فزلق».
(٥) في طبعة دار صادر: «وحكى غير واحد أنّ المنصور...».
(٦) يفري الفريَّ في أموره: يقوم بها بشكل لا يستطيع القيام بها سواه. لسان العرب (فري).
(٧) النص في مطمح الأنفس (ص ٧) وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢).
(٨) في البيان المغرب: «مَيْلُ جِلّة الوزراء».
(٩) في المصدر نفسه: «فإنهم، وإن لم تكن لهم حميّة...».

تكن حَمِيَّةً أعرابية، فقد كانت سَلَفِيَّةً سُلْطانية، يقتفي القومُ فيها سبيلَ[١] سَلَفِهِمْ، ويمنعون بها ابتذال شرفهم، غادروها سِيْرَةً، وخَلَّفوها عادةً أثيرةً، تَشَاحَّ الخَلَفُ فيها تَشَاحَّ أَهْلَ الديانة، وصانوا بها مراتبهم أَعْظَمَ صيانة، ورأوا أنَّ أحدًا[٢] لا يلحق فيها غاية، ولا يتعاقد لها راية. فلمّا اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه، ووَضَعَه مِنْ أثرتِهِ حيث وَضعه، وهو[٣] نزيع بينهم ونابغ فيهم، حسدوه وذَمُّوه، وخَصُّوه بالمطالبة وعَمُّوه. وكان أَسْرَعَ صنف[٤] الطائفة من أعالي الوزراء وأعاظم الدولة إلى مُهاودة المنصور عليه، والانحراف عنه إليه، آلُ أبي عَبْدة[٥] وآل شُهَيد[٦] وآل قُطَيس من الخلفاء وأصحاب الرِّدَافة، من أُولي الشرق والإنافة وكانوا في الوقت أزِمَّة الملك وقُوّام الخِدْمة، ومصابيحَ الأُمَّة، وأغير الخلق على جاه وحُرْمة، فأحظوا محمد بن أبي عامر مُشايعة، ولبعض أسبابه الجامعة متابعة، وشادوا بناءه، وقادوا إلى عُنْصُره سَناءه، حتى بلغ الأمَل، والتحف بِمُناه واكْتَحَلَ[٧]، وعند التئام هذه الأمور لابن أبي عامر استكان، جعفر بن عثمان، للحادثة، وأيقن بالنكبة، وزوال الحال وانتقال الرتبة[٨]، وكفّ عن اعتراض محمد وشركته في التدبير، وانقبض الناسُ من[٩] الرواح إليه والتبكير. وانثالوا على ابن أبي عامر فخفَّ مَوكِبُهُ، وغار مِنْ سماء العزّ كَوْكَبُهُ، وتوالى عليه سَعْيُ ابن أبي عامر وَطَلَبُهُ، إلى[١٠] أن صار يغدو إلى قُرْطُبة ويروح وليس بيده من الحجابة إلاّ اسمها، وابن أبي عامر مشتمل على رَسْمِها، حتى مَحاه، وهتك ظِلّه[١١] وأضحاه. قال[١٢] [محمد][١٣] بن إسماعيل: رأيته يُسَاق

---

(١) في البيان المغرب: «آثار».

(٢) في المصدر نفسه: «أحدًا من التوابع لا يدرك، ولا يلحق بها راية».

(٣) عبارة: «وهو نزيع بينهم ونابغ فيهم» ساقطة من البيان المغرب.

(٤) كلمة «صنف» ساقطة في البيان المغرب.

(٥) في طبعة عبد الحميد: «عبيدة».

(٦) في البيان المغرب (ص ٢٧٢): «وآل شُهَيْد، وآل جَهْوَر، وآل قُطَيْس».

(٧) في مطمح الأنفس: «والتحف يمينه بمناه واشتمل». وفي البيان المغرب: «واشتمل» بدل «واكتحل».

(٨) في البيان المغرب: «وزوال المرتبة، وكفّ...».

(٩) في المصدر نفسه: «عن».

(١٠) «من هنا حتى مَحَاهُ» ساقط في البيان المغرب.

(١١) في مطمح الأنفس والبيان المغرب: «ظِلاله».

(١٢) من هنا حتى أول الأبيات ساقط في البيان المغرب (ص ٢٧٢) وبعضه (ص ٢٦٨).

(١٣) ما بين قوسين زيادة من مطمح الأنفس.

إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلاً فأقبل يدرم، وجَوَارِحُه باللواعج تَضْطرم، ووائقُ الضاغطُ ينهره، والزَّمَعُ يقهره، والبهرُ والسِّنُّ قد هاضاهُ[1]، وقَصَّرَا خُطَاه، فسمعته يقول: رفقًا بي فسَتُدْرِك ما تحبّه وتشتهيه، وترى ما كنت تَرْتَجيه، ويا ليت أنَّ الموت يُبَاع فأغْلِيَ سَومَه، حتى يَرِدَه مَن أطال عليه حَوْمَه، ثم قال[2]: [الكامل]

لا تَأْمَنَنَّ مِنَ الزمانِ تَقَلُّبَا إنَّ الزمانَ بأهْلِهِ يَتَقَلَّبُ
ولَقَدْ أراني والليوثُ تَخَافني فأخافَنِي[3] مِنْ بَعْدِ ذاك الثعْلَبُ
حَسْبُ الكريمِ مذلّةً ومَهَانَةً أنْ لا يزالَ إلى لئيمٍ يَطْلُبُ[4]

فَلَمَّا بلغ المجلس جلس في آخره دون أن يسلّم على أحد، أو يومىء إليه بعين أو يد، فلمّا أخذ مجلسه تسرّع إليه الوزير محمد بن حَفْص بن جابر فَعَنَّفَه واستجفاه، وأنكر عليه تركَ السلام وجَفَاه، وجعفر مُعْرِضٌ عنه، إلى أن كَثُر القول منه، فقال له: يا هذا، جَهِلْتَ المَبَرَّةَ فاسْتَجْهَلْتَ معلّمها[5]، وكَفَرْتَ النعم فقصدت بالأذى ولم ترهب مقدِّمها، ولو أتيْتُ نُكْرًا، لكان غيرك أدرى، وقد وقعتَ في أمر ما أظنّك تخلص منه، ولا يَسَعُكَ السكوت عنه، ونسيت الأيادي الجميلة، والمبرّات الجليلة، فلمّا سمع محمد بن حفص ذلك من قوله قال: هذا البَهْتُ[6] بعينه، وأيُّ أياديك الغُرّ[7] التي مَنَنْتَ بها وعَيَّنْتَ أداء واجبها؟ أَيَدُ كذا أم يَدُ كذا؟ وعَدَّد أشياءَ أنكرها منه أيام إمارته، وتصرّف الدهر طوع إشارته، فقال جعفر: هذا ما لا يُعْرَفُ، والحق الذي لا يُرَدُّ ولا يُصْرَفُ، دَفعي القطع عن يمناك، وتبليغي لك إلى مُنَاك، فأصَرَّ محمد بن حَفْص على الجحد، فقال جعفر: أَنْشُدُ اللَّهَ مَنْ له عِلْمٌ بما أذكره[8]، إلاَّ اعترف به فلا ينكره، وأنا أحوج إلى السكوت، ولا تحجب دعوتي فيه عن الملكوت، فقال الوزير أحمد بن عباس[9]: قد كان بعضُ ما ذَكَرْتَهُ يا أبا

---

(١) في مطمح الأنفس: «والزمع والبهر قد هاضاه».
(٢) الأبيات أيضًا في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٧٢) والحلّة السيراء (جـ ١ ص ٢٦٧).
(٣) في البيان المغرب: «تهابني وأخافني...».
(٤) هذا البيت فيه بعض التغيير في البيان المغرب والحلّة السيراء عمّا هنا.
(٥) في مطمح الأنفس والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٦٩): «عالمها، وكفرت اليد...».
(٦) يقال: بَهَتَ الرجلَ بهتًا إذا رماه بالباطل. لسان العرب (بهت).
(٧) في البيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٦٩): «الضرّاء».
(٨) في المصدر نفسه: «ذَكَرْتُ».
(٩) في البيان المغرب: «ابن عيّاش».

الحسن، وغَيْرُ هذا أَوْلَى بك، وأنت فيما أنت فيه من مِحْنتك وطلبك، فقال: أَحْرَجَني الرجلُ، فتكلَّمْتُ، وأَحْوَجَني إلى ما به أعلمت، فأقبل الوزيرُ ابن جَهْور على محمد بن حَفْص وقال: أسأت إلى الحاجب، وأوجبت عليه غيرَ الواجب، أَوَ ما عَلِمْتَ أنّ منكوب السلطان لا يسلّم على أوليائه لأنه إن فعل ألزمهم الردّ لقوله تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ منها أو رُدُّوها﴾[1] فإن فعلوا طافَ[2] بهم من إنكار السلطان ما يخشى ويخاف؛ لأنه تأنيس لِمَن أوحش وتأمين لِمَن أخاف، وإن تركوا الردّ أسخطوا اللّه، فصار الإمساك أحسن، ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن، فانكسر ابن حفص، وخجل ممّا أتى به من النقص. وبلغه أن قومًا توجّعوا له، وتفجّعوا ممّا وصله، فكتب إليهم: [الطويل]

أَحِنُّ إلى أنفاسِكُمْ فأظنُّها ... بَواعِثَ أنفَاسِ الحياةِ إلى نَفْسِي
وإنّ زمانًا صِرْتُ فيه مُقَيَّدًا ... لأَثْقَلُ مِنْ رَضْوَى وأَضْيَقُ من رِمْسِ

انتهى ما ترجم به المنصور بن أبي عامر.

ولنرجع فنقول: ولمّا توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنُه عبد الملك المظفّر أبو مروان فجرى على سَنَن أبيه في السياسة والغزو، وكانت أيامه أعيادًا دامت مدّة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع، تشبيهًا بسابع العروس، ولم يزل مثل اسمه مظفرًا إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلثمائة في المحرم، وقيل: سنة ثمانٍ وتسعين.

وكاتبه المعزّ بن زيري ملك مَغْرَاوة بعد أن استرجع فاسًا والمغرب إثر موت أبيه، فكتب له العهد على المغرب، وثارت الطوائف في ممالكهم، وتحرّكت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم.

قال ابن خلدون[3]: ثم قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن، وتلقّب بالناصر لدين اللّه، وقيل: بالمأمون[4]، وجرى على سَنَن أبيه وأخيه في[5] الحجر على الخليفة هشام، والاستبداد عليه، والاستقلال بالملك دونه. ثم ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم

---

(١) سورة النساء ٤، الآية ٨٦.
(٢) في طبعة دار صادر: «لَطافَ».
(٣) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٢١ ـ ٣٢٤).
(٤) قوله: «وقيل: بالمأمون» ساقط في تاريخ ابن خلدون.
(٥) في تاريخ ابن خلدون: «في الحجر على الخليفة...».

الخلافة، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده، فأجابه، وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحلّ والعقد، فكان يومًا مشهودًا، فكتب[1] عهده من إنشاء أبي حفص بن بُرْد[2] بما نَصُّه[3]: «هذا ما عهد به هشامُ المؤيد باللّه أمير المؤمنين إلى الناس عامّة، وعاهد اللّهَ عليه من نفسه خاصّة، وأعطى به صَفْقة يمينه بيعةً تامّة، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأَهَمَّه ما جعل اللّه إليه من الإمامة، وعَصَب[4] به من أمر المؤمنين، واتقى حلولَ القدر بما لا يؤمن، وخاف نزولَ القضاء بما لا يُصْرف، وخشي إن هجم محتومُ ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علَمًا تأوي إليه، وملجأ تنعطف عليه، أن يكون[5] يَلْقَى رَبَّه تبارك وتعالى مُفَرِّطًا ساهيًا عن أداء الحق إليها، وتَقَصَّى[6] عند ذلك من إحياء قريش وغيرها مَنْ يستحقُّ أن يسند[7] هذا الأمر إليه، ويعوّل في القيام به عليه، مِمَّنْ يستوجبه بدينه وأمانته، وهَدْيه وصيانته، بعد اَطِّراح الهوى، والتحرِّي للحق، والتَّزَلُّف[8] إلى اللّه جَلَّ جلاله بما يرضيه. وبعد أن قطع الأواصر[9]، وأسخط الأقارب، فلم يجد أحدًا أجدَرَ أن يوليه عهده، ويفوِّض إليه الخلافة بعده، لفضل نفسه وكرم خِيمِهِ[10] وشرف مرتبته وعلوِّ منصبه، مع تُقَاه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، أبي المطرِّف[11] عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، وفّقه اللّه! إذ كان أمير المؤمنين ـ أيّده اللّه تعالى! ـ قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مُسَارعًا في الخيرات، سابقًا في الحَلَبات، مستوليًا على الغايات، جامعًا للمأثُرات. ومَنْ كان

---

(1) في تاريخ ابن خلدون: «وكتب».

(2) هو أحمد بن بُرْد الأكبر، جَدُّ ابن بُرْد الأصغر؛ وزير ورئيس في الدولة العامرية وبعدها، توفي سنة ٤١٨ هـ. جذوة المقتبس (ص ١١٩) وبغية الملتمس (ص ١٧٢).

(3) نصُّ العهد في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٩١ ـ ٩٣) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ٤٤ ـ ٤٦) وصبح الأعشى (جـ ٩ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٧).

(4) في تاريخ ابن خلدون: «ونصب إليه...».

(5) في المصدر نفسه (ص ٣٢٢): «تنعطف إليه، أن يلقى ربَّه...».

(6) في المصدر نفسه: «واعتبر». وفي طبعة عبد الحميد: «ونقص».

(7) في تاريخ ابن خلدون: «يستند».

(8) في طبعة عبد الحميد: «والزُّلْفَى». والتزلّف والزُّلْفَى: التقرّب إلى اللّه تعالى. لسان العرب (زلف).

(9) في تاريخ ابن خلدون: «الأقاصي».

(10) الخِيمُ، بكسر الخاء وسكون الياء: الطبيعة والسجيّة، والمراد الأصل. محيط المحيط (خام).

(11) في تاريخ ابن خلدون: «أبي المظفر».

المنصورُ أباه، والمظفَّرُ أخاه، فلا غَرْوَ أن يبلغ مِنْ سُبُل البِرِّ مَدَاه، ويحوي من خلال الخير ما حَوَاه، مع أن أمير المؤمنين ـ أيّده اللّه! ـ بما طالع من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، يرى أنْ يكون وليّ عهده القَحْطَاني الذي حدّث عنه عبد اللّه بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى يخرج رجل من قَحْطَان يسوق الناس بعصاه». فلما استوى له الاختيار[1]، وتقابلت عنده فيه الآثار، ولم يجد عنه مَذْهَبًا، ولا إلى غيره مَعْدِلاً، خرج إليه من تدبير الأمور في حياته، وفَوَّضَ إليه الخلافةَ بعد وفاته، طائعًا راضيًا مجتهدًا، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه، وأنجزه وأنفذه، ولم يشرط فيه مَثْنَوِية[2] ولا خيارًا، وأعطى على الوفاء به في سرّه وجهره وقوله وفعله عهدَ اللّه وميثاقه، وذمّةَ نبيّه محمد ﷺ، وذِمَم الخلفاء الراشدين من آبائه، وذمّة نفسه، أن لا يبدِّل ولا يغيّر ولا يحوّل ولا يزول. وأشْهَدَ اللّه على ذلك والملائكة، وكفى باللّه شهيدًا، وأشهد [مَن أوقع اسمه في هذا][3] وهو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المطرف[4] عبد الرحمن بن المنصور وفّقه اللّه تعالى، وقبوله ما قَلَّده، وإلزامه نَفْسَه ما ألزمه، وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة ثمانٍ وتسعين وثلثمائة[5]. وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم[6]، وتَسَمَّى بعدها بوليّ العهد.

ونقم[7] عليه أهلُ الدولة ذلك، فكان فيه حَتْفه، وانقراض دولته ودولة قومه، وكان أسرع الناس كراهةً لذلك الأمويون والقرشيون[8]، فغَصّوا بأمره[9]، وأسِفوا[10] من تحويل

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الاختبار».

(٢) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٢٣): «ثنيا»، وكلاهما بمعنى وهو الاستثناء.

(٣) الزيادة من تاريخ ابن خلدون.

(٤) في تاريخ ابن خلدون: «أبي المظفر».

(٥) الصواب سنة ٣٩٩ هـ كما هو في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٩٣) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ٤٦) وصبح الأعشى (جـ ٩ ص ٣٨٧)، ولأن عبد الرحمن وَلِيَ بعد وفاة أبيه في العام ٣٩٩ هـ.

(٦) في أعمال الأعلام (ص ٩٣) والبيان المغرب (ص ٤٦) أنّ أول الشهود في العهد هو قاضي الجماعة أحمد بن عبد اللّه بن ذَكْوان، ويليه من الوزراء أسماء ٢٩ رجلاً، يليهم أسماء ١٨٠ رجلاً من أصحاب الشرطة وسائر أهل الخِدْمة.

(٧) في تاريخ ابن خلدون: «ونقم أهل الدولة عليه ذلك...».

(٨) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «الأمويين والقرشيين».

(٩) غَصُّوا بأمره: شَرِقوا، أي تضايقوا أشدَّ الضِّيق. لسان العرب (شرق).

(١٠) في تاريخ ابن خلدون: «بأمره، واتفقوا على تحويل...».

الأمر جملة من المضرية إلى اليَمَنية، فاجتمعوا لشأنهم، وتَمَشَّتْ من بعض إلى بعض رجالاتهم، وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور[1] ببلاد الجلالقة في غَزَاة من صَوَائفه، ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقُرْطُبة سنة تسع وتسعين وثلثمائة، وخلعوا هشامًا المؤيد.

وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين اللّه من أعقاب الخلفاء [2]، ولقّبوه المهدي باللّه، وطار الخبر إلى عبد الرحمن الحاجبِ بن المنصور بمكانه من الثَّغْر، فانفضَّ جمعُه، وقَفَل إلى الحضرة مُدِلاً بمكانه، زعيمًا بنفسه، حتى إذا قرب من الحضرة تسلّل عنه الناس من الجند ووجوه البربر، ولحقوا بقرطبة، وبايعوا المهدي القائم بالأمر، وأغْرَوه بعبد الرحمن الحاجب، لكونه ماجنًا مستهترًا غير صالح للأمر، فاعترضه منهم مَنْ قبض عليه، واحْتَزَّ رأسه، وحمله إلى المهدي وإلى الجماعة.

وذهبت دولة العامريين كأنْ لم تكن، وللّه عاقبة الأمور [3].

وفي المهدي يقول بعضهم[4]: [مخلع البسيط]

قَدْ قامَ مَهْدِيُّنا ولكنْ ... بِمِلَّةِ الفِسْقِ والمُجُونِ
وشَارَكَ النَّاسَ في حَرِيمٍ ... لولاه ما زالَ بالمَصُونِ
مَنْ كان مِنْ قَبْلِ ذا أجَمًّا ... فاليَوْمَ قد صار ذا قُرُونِ[5]

وكان[6] رؤساء البربر وزَنَاتة لحقوا بالمهديّ لما رَأَوْا[7] من سوء تدبير عبد الرحمن وانتقاض أمره. وكانت الأموية تعتدُّ عليهم ما كان من مُظَاهرتهم العامريين، وتنسب تغلّب

(١) في تاريخ ابن خلدون: «من الحاجب الناصر...».
(٢) في المصدر نفسه: «من أعياص الملك وأعقاب الخلفاء...».
(٣) عبارة «كأن... الأمور» ساقطة من تاريخ ابن خلدون.
(٤) البيتان في الجزء الثاني من نفح الطيب.
(٥) الأَجَمُّ: الكَبْشُ بلا قرن. محيط المحيط (جمم).
(٦) تفصيل الخبر عن هذه الفتنة البربرية في البيان المغرب (جـ ٣ ص ٥٠ ـ ١١٥) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٠٩ ـ ١٢٨) وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٨) والذخيرة (ق ١ ص ٣٥ ـ ٤٦). ورؤساء البربر في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥) هم زادي بن مناد الصنهاجي، ومحمد بن عبد اللّه البرزالي، وابن دوناس اليفرني، وأبو نور بن أبي قرّة اليفرني، ومحمد بن ليلى المغراوي.
(٧) في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٢٥) «لمّا رأوا من انتقاض أمر عبد الرحمن وسوء تدبيره».

المنصور وبنيه[1] على الدولة إليهم، فسخطتْهُمُ القلوبُ، وخَزِرَتْهُمُ العيونُ[2]، ولولا ما لهم من العَصَبية لاستأصلهم الناس، ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم. وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلّحوا، وردَّ بعض رؤسائهم في بعض الأيام من باب القصر، فانتهبت العامّةُ دُورَهم، وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم، فاعتذر إليهم وقتل مَن اتُّهم من العامّة في أمرهم، وهو مع ذلك مُظْهِرٌ لبغضهم، مُجَاهِرٌ بسوء الثناء عليهم. وبلغهم أنّه يريد الفَتْك بهم، فتمشّتْ رجالاتهم، وأسَرُّوا نجواهم، واشتَوَرُوا في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر، وفشا في الخاصّة حديثُهم، فَعُوجِلوا عن مَرَامهم ذلك، وأغرى بهم السواد الأعظم، فثاروا بهم، وأزعجوهم عن المدينة. وتقبض على هشام وأخيه أبي بكر، وأُحْضِرا بين يدي المهدي، فَضَرَبَ أعناقهما. ولحق سليمانُ ابن أخيهما الحكم بجنود البربر، وقد اجتمعوا بظاهر قُرْطُبة وتوامروا[3]، فبايعوه ولقّبوه المستعين بالله، ونهضوا به إلى ثغر طُلَيطلة، فاستجاش بابن أذفونش، ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة، وبرز إليه[4] المهدي في كافّة أهل البلد وخاصّة الدولة، فكانت الدائرة[5] عليهم، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفًا، وهلك من خيار الناس وأئمّة المساجد وسَدَنتها ومؤذّنيها عالَم. ودخل المستعينُ قرطبة ختام[6] المائة الرابعة. ولحق المهديُّ بطليطلة. واستجاش[7] بابن أذفونش ثانية، فنهض معه إلى قرطبة، وهزم المستعينَ والبرابرة بعَقَبة البقر[8] من ظاهر قرطبة، ودخل قرطبة ـ أعني المهدي ـ وملكها. وخرج المستعينُ[9] مع البربر، وتفرّقوا في البسائط يَنْهبون ولا يُبْقُون على أحد. ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء، فخرج المهديّ ومعه ابن أذفونش لاتّباعهم، فَكَرُّوا عليهم، فانهزم المهدي وابن أذفونش ومَن معه من المسلمين والنصارى، واتّبعهم المستعين إلى قرطبة،

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «وغيره». وفي تاريخ ابن خلدون: «وبنيه على أمرهم فسخطتهم...».
(٢) خَزِرَهُ: نظر إليه بمؤخّر عينه. محيط المحيط (خزر).
(٣) في تاريخ ابن خلدون: «وتآمروا».
(٤) في المصدر نفسه: «إليهم».
(٥) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٢٦): «الدبرة».
(٦) في المصدر نفسه: «خاتم».
(٧) استجاش به: طلب منه جيشًا. لسان العرب (جيش).
(٨) تبعد عقبة البقرة عن قرطبة حوالى عشرين كيلومترًا إلى جهة الشمال.
(٩) في تاريخ ابن خلدون: «إلى البرابرة».

فأخرج المهدي هشامًا المؤيّد للناس، وبايع له، وقام بأمر حجابته، ظَنًّا منه أنَّ ذلك ينفعه، وهيهات! وحاصرهم المستعينُ والبربر، فخشي أهلُ قرطبة من اقتحامهم عليهم، فأغروا أهلَ القصر وحاشيةَ[1] المؤيد بالمهديّ وأنَّ الفتنة إنّما جاءت من قبله، وتولّى كِبْرَ ذلك واضحٌ العامري، فقتلوا المهدي، واجتمع[2] الكافّة على المؤيّد، وقام واضحٌ بحجابته. واستمرّ الحصار[3]، ولم يغْنِ عن أهل قرطبة ما فعلوه شيئًا، إلى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة، وعُدِمَتِ المرافقُ، وجَهَدَهُمُ الحصارُ. وبعث المستعين إلى أهل [ابن] أذفونش يستقدمهم[4] لمظاهرته، فبعث إليهم هشام وحاجبه واضح يكفّونهم عن ذلك، بأنْ ينزلوا لهم عن ثغور قَشْتَالة التي كان المنصور افتتحها[5]، فسكن عن مظاهرتهم عزمُ أذفونش، ولم يزل الأمر حتى دخل المستعينُ قرطبةَ ومَنْ معه من البربر عَنْوَةً سنة ثلاث وأربعمائة، وقُتِلَ هشامٌ سِرًّا. ولحق بيوتات قرطبة مَعَرّة في نسائهم وأبنائهم. وظن المستعينُ أنْ قد استحكم أمره، وتوثّبت البرابرة[6] والعبيد على الأعمال، فولّوا المدنَ العظيمة، وتقلّدوا البلاد[7] الواسعة، مثل باديس بن حبُّوس في غَرْناطة، والبرزالي في قَرْمُونة، واليفرني في رُنْده، وخزرون[8] في شَرِيش، وافترق شَمْلُ الجماعة بالأندلس، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة، مثل ابن عبّاد بإشْبِيلِيَة، وابن الأفطس ببَطَلْيَوْس، وابن ذي النون بطُلَيْطلة، وابن أبي عامر ببَلَنْسِيَة[9]، وابن هُود بسَرَقُسْطة، ومجاهد العامري بدَانِيَة والجزائر[10].

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: «القصر وحاجبه المدبر بالمهدي...».

(٢) في المصدر نفسه: «واجتمعت الكافّة على تجديد البيعة لهشام المؤيّد ليعتصموا به من معرّة البرابرة...».

(٣) في المصدر نفسه (ص ٣٢٧): «واستمرّ البرابرة على حصار قرطبة...».

(٤) في المصدر نفسه: «وبعث المستعين البرابرة إلى ابن أدفونش يستقدمونه لمظاهرتهم، فبعث إليه...». وقوله: يستقدمهم لمظاهرته: أي يطلب منهم القدوم لمناصرته.

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «اقتحمها».

(٦) في المصدر نفسه: «البرابرة العبيد».

(٧) في تاريخ ابن خلدون: «الأعمال».

(٨) في طبعة عبد الحميد: «وهرزون».

(٩) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٢٨): «بيلنسية ومرسية...».

(١٠) الجزائر التي ملكها مجاهد العامري هي ميورقة ومنورقة ويابسة وذلك سنة ٤١٣ هـ، وتسمّى بالجزائر الشرقية. تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٥٤).

[قال ابن خلدون][1] وكان مائلاً لبني حَمُّود يهجو سليمان المستعين: [السريع]

لا رَحِمَ اللَّهُ سُلَيمانكمْ فإنه ضِدُّ سُلَيمَانِ
ذاكَ به غُلَّتْ شياطينُها وحَلَّ هذا كلَّ شيطانِ
فَباسمِهِ ساحَتْ على أرضِنا لِهلْكِ سكانِ وأوْطانِ

وكان من أعظم الأسباب في فساد دولة المستعين أنه قال هذه الأبيات مستريحًا بها إلى خواصّه، وهي قوله: [الطويل]

حَلفتُ بِمَنْ صَلَّى وصامَ وكَبَّرَا لأُغْمِدُها فِيمَنْ طَغَى وتَجَبَّرا
وأبصر دين اللَّه تَحْيَا رسومه فبَدَّلَ ما قد كان[2] منه وَغَيَّرا
فَوَاعجبا مِنْ عَبْشَمِيٍّ مُمَلَّكٍ برَغْمِ العَوَالي والمعالي تَبَرْبَرَا
فلو أنَّ أمْري بالخيارِ نَبَذْتُهُمْ وحاكَمْتُهُمْ للسَّيف حُكْمًا مُحَرَّرَا
فإمّا حياة تُسْتَلَذُّ بفَقْدِهِمْ وإمّا حِمَامٌ لا نَرَى فيه ما زَرَى[3]

وقد سلك هذا المسلك المرتضى المرواني فقال: [السريع]

قَدْ بَلَغَ البربرُ فِينَا بِنَا ما أفْسَدَ الأحْوَالَ والنُّظُمَا
كالسَّهمِ للطائرِ لولاَ الذي فيه مِنَ الرِّيشِ لَمَا أصْمَىٰ
قُومُوا بنا في شأنهم قَوْمَةً تُزِيلُ عنَّا العَارَ والرَّغْمَا
إمَّا بها نَمْلِكُ، أو لا نَرَى ما يَرْجِعُ الطَّرْفُ به أعْمَىٰ

وكان علي بن حَمُّود الحَسَني وأخوه قاسم من عقب إدريس مَلِك فاس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العُدْوة إلى الأندلس، فدَعَوْا لأنفسهم، واعصوصب[4] عليهم البربر، فملكوا قُرْطُبة سنة سبع وأربعمائة، وقتلوا المستعين، ومَحَوْا ملك بني أمية، واتّصل ذلك في خَلَفٍ منهم سبع سنين، ثم رَجَعَ الملكُ إلى بني أُمَيّة.

وكان المستعين المذكور أديبًا بليغًا، ومن شعره يعارض هارون الرشيد في قوله: [الكامل]

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.
(٢) في طبعة دار صادر: «قد لاح منها وغَيَّرَا».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «مأزرَا».
(٤) إعْصَوصَبَ عليهم البربرُ: اجتمعوا وصاروا عصائب. محيط المحيط (عصب).

ملك الثلاثُ الآنساتُ عِناني

الأبيات[1] - قولُه[2]: [الكامل]

عجَبًا يهَابُ الليثُ حَدَّ سِنَانِي ... وأهابُ لحظَ[3] فواتِرِ الأجْفَانِ
وأقارعُ الأهوالَ لا مُتَهَيِّبًا ... منها سوى الإعراض والهِجْرَانِ
وَتَمَلَّكَتْ نفسي ثلاثٌ كالدُّمَى ... زُهْرُ الوُجُوهِ نواعِمُ الأبدانِ
كَكَواكبِ الظَّلماءِ لُحْنَ لناظري ... مِنْ فَوقِ أغصانٍ على كُثْبَانِ
حاكَمْتُ فيهنَّ السلوَّ إلى الهَوَى[4] ... فقضى بسُلطَانٍ على سلطاني
هذِي الهلالُ، وتلك بنتُ الْمُشْتَرِي ... حُسْنًا، وهذي أُخْتُ غُصْنِ البانِ
فَأَبَحْنَ من قلبي الحِمَىٰ وتَرَكْنَني ... في عِزِّ مُلْكي كالأسير العاني
لا تَعْذِلوا مَلِكًا تَذَلَّلَ في الهوى[5] ... ذُلُّ الهوى عِزٌّ ومُلْكٌ ثاني
ما ضَرَّ أنّي عَبْدُهُنَّ صَبَابةً ... وبنو الزمان وهُنَّ من عُبْدَاني
إنْ لم أُطِعْ فِيهِنَّ سلطانَ الهوى ... كَلَفًا بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ

وولي الأمر بعده علي بنُ حَمُّود[6] الحَسَني؛ تلقَّبَ بالناصر، وخرج عليه العبيدُ ببعض المغاربة، وبايعوا المرتضى أخا المهدي، ثم اغتيل المرتضى، واستقام الملك لعلي بن حَمُّود نحو عامين، إلى أنْ قتلته صقالبته بالحَمّام سنة ثمانٍ وأربعمائة، فولي مكانه أخوه لقاسم، وتلقّب بالمأمون، ونازعه الأمرَ بعد أربع سنين من خلافته يحيىٰ ابنُ أخيه، وكان على سَبْتة، فأجاز إلى الأندلس سنة عشر، واحتلّ بمالَقَة وكان أخوه إدريس بها منذ عهد

---

(١) هي أبيات ثلاثة قالها هارون الرشيد في ثلاث من محبوباته، وأولها:
مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِناني ... وحَلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكانِ
الأبيات في البيان المغرب (جـ ٣ ص ١١٨) والحلّة السيراء (جـ ٢ ص ٩) وجذوة المقتبس (ص ٢٢) وبغية الملتمس (ص ٢٦).

(٢) أبيات المستعين في الذخيرة (ق ١ ص ٤٧) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ١١٩) والحلّة السيراء (جـ ٢ ص ٩) وجذوة المقتبس (ص ٢١) وبغية الملتمس (ص ٢٥ - ٢٦).

(٣) في طبعة دار صادر: «سِحْر».

(٤) في طبعة دار صادر: «الرِّضَى».

(٥) في المصادر الأخرى: «للهوى».

(٦) ورد هذا النص عن علي بن حمود في جذوة المقتبس (ص ٢٢ - ٢٣) وبغية الملتمس (ص ٢٧ - ٢٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

أبيهما، فبعثه إلى سَبْتة، ثم زحف يحيىٰ إلى قرْطُبة فَمَلَكَهَا سنة ثنتي عشرة وأربعمائة، وتلقب المعتلي، وفَرَّ عَمُّهُ المأمون إلى إشبيلية وبايع له القاضي ابن عباد، واستجاش بعض البرابرة، ثم رجع إلى قُرْطُبة سنة ثلاث عشرة وملكها، ثم لحق المعتلي بمكانه من مالَقَةَ، وتغلّب على الجزيرة الخضراء، وتغلّب أخوه إدريس على طَنْجة من وراء البحر، وكان المأمون يعتدُّها حِصْنًا لنفسه، وفيها ذخائره، فلمّا بلغه الخبرُ اضطرب، وثار عليه أهل قرطبة، ونَقَضُوا طاعته، وخرج فحاصرهم فدافعوه، ولحق بإشبيليّةَ فمنعوه، وكان بها ابنه فأخرجوه إليه، وضبطوا بَلَدَهُم، واستبدَّ ابنُ عباد بملكها، ولحق المأمون بشَريشَ، ورجع عنه البربر إلى يحيىٰ المعتلي ابن أخيه، فبايعوه سنة خمس عشرة، وزحف إلى عَمِّه المأمون فتغلّب عليه ولم يزل عنده أسيرًا وعند أخيه إدريس بمالَقَةَ إلى أن هلك بمحبسه سنة سبع وعشرين، وقيل: إنه خُنِقَ[1] كما سيأتي، واستقلَّ المعتلي بالأمر، واعتقل ابني[2] عمّه القاسم. وكان المستكفي من الأمويين استولى على قُرْطبة في هذه المدّة عندما أخرج أهلها العلوية، ثم خلع أهل قرطبة المستكفي الأموي سنة ست عشرة، وصاروا إلى طاعة المعتلي، واستعمل عليهم ابنَ عَطّاف مِنْ قِبَلِهِ، ثم نقضوا سنة سبع عشرة، وصرفوا عاملهم، وبايعوا للمعتدِّ [بالله][3] الأموي أخي المرتضى، وبقي المعتلي يردِّدُ لحصارهم العساكر إلى أن اتفقت الكلمة على إسلام الحصون والمدائن له، فَعَلاَ سلطانه، واشتدَّ أمره إلى أن هلك سنة تسع وعشرين؛ اغتاله أصحابُه بدَسِيسَةِ ابنِ عَبَّاد الثائر بإشبيلية، فاستدعى أصحابه أخاه إدريس بن علي [بن حمّود] من سَبْتة، ومَلَّكوه، ولقّبوه المتأيّد، وبايعته رُنْدة وأعمالها وألْمَرِيَّة والجزيرة الخضراء، وبعث عساكِرَه لحرب أبي القاسم[4] إسماعيل بن عَبَّاد والد المعتضد بن عباد، فجاءوه برأسه بعد حروب، وهلك ليومين بعد ذلك سنة إحدى وثلاثين، وبُويع ابنُه يحيىٰ، ولم يَتِمَّ له أمرٌ، وبويع حسن المستنصر بن المعتلي، وفَرَّ يحيىٰ إلى قمارش[5] فهلك بها سنة أربع وثلاثين، ويقال: إنه قتله نجا، وهلك حسن

---

(١) في جذوة المقتبس وبغية الملتمس أن القاسم قُتل خَنْقًا سنة ٤٣١ هـ.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «بني» وهو خطأ.

(٣) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) الصواب: «أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد»، وهو مؤسّس الدولة العبّادية بإشبيلية، وقد توفي سنة ٤٣١ هـ. البيان المغرب (جـ ٣ ص ٣١٦).

(٥) قمارش: بالإسبانية Comares.

مسمومًا بيد ابنة عمه إدريس، ثأرت منه بأخيها، وكان إدريس[1] بن يحيىٰ المعتلي معتقلاً بمالَقَة فأُخْرج بعد خطوب وبُويع بها، فأطاعته غَرْنَاطة وقَرْمونة، ولُقِّب العالي، وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة بالمغرب التي قالها فيه أبو زيد عبدُ الرحمن بن مَقَانا القِبْذاقي[2] الأشبوني من شعراء الذخيرة، وهي[3]: [الرمل]

أَلِـبَـرْقٍ لائـحٍ مِـنْ أَنْـدَرِيـنْ ... ذَرَفَتْ عيناكَ بالماءِ[4] الْمَعِينْ
لَـعِـبَـتْ أسـيـافُـهُ عـارِيَـةً ... كَمَخَاريقَ[5] بأيدي اللاَّعِبينْ
ولِصَوْتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وحَنِين ... ولِـقَـلْـبِـي زَفَـرَاتٌ وأنِـيـنْ
وأُنَاجِي في الدُّجَى عاذِلَتِي ... وَيْكِ لا أَسْمَعُ قولَ العاذلين[6]
عَيَّرَتْنِي بِسَقَامٍ وضَنَى ... إنَّ هذَيْنِ لَدِينُ[7] العَاشِقِينْ
قد بَدَا لي وَضَحُ الصُّبْحِ الْمُبِينْ ... فاَسْقِنِيهَا قَبْلَ تكبير الأذِينْ[8]
اِسْقِنِيهَا مُزَّةً مَشْمُولَةً ... لَبِثَتْ[9] في دَنِّهَا بِضْعَ سِنِينْ
نَثَرَ الـمَـزْجُ عـلـى مَـفْـرِقِـهَـا ... دُرَرًا عامَتْ فعادَتْ كالبُرِينْ[10]

---

(١) هو العالي إدريس بن يحيىٰ المعتلي بن علي بن حمود؛ أخرجه جُند مالقة من السجن الذي كان أخوه حسن قد ثقفه فيه، وبايعوه في سنة ٤٣٤ هـ، إثر وفاة أخيه حسن. البيان المغرب (جـ ٣ ص ٢١٦ - ٢١٧، ٢١٩، ٢٩١) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٤١).

(٢) ترجم له ابن بسام في الذخيرة (ق ٢ ص ٢٨٦ - ٢٨٧) وعدَّه من الشعراء المشاهير، وقال: له شعر تصرَّف فيه تصرّف المطبوعين المجيدين، وهو من قرية تدعى القبذاق من ساحل شِنْترة Cintra. وترجم له ابن سعيد في المغرب (جـ ١ ص ٤١٣) وقال: هو شاعر مشهور، من قِبْذاق إحدى قرى أشبونة Lisboa. وترجم له الحميدي وأسماه عبد الرحمن بن مقاناة البطليوسي. جذوة المقتبس (ص ٧٩).

(٣) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٧٩١ - ٧٩٣) وفي المغرب (جـ ١ ص ٤١٣ - ٤١٤) عشرون بيتًا.

(٤) في المغرب: «بالدمع».

(٥) المخاريق: ما يلعب به الصِّبْيان من الخرق المفتولة، واحدها مِخْراق. محيط المحيط (خرق).

(٦) في الذخيرة والمغرب: «وأنادي» بدل «وأناجي». وَيْكِ: كلمة زَجْر، أي كُفِّي. محيط المحيط (وي).

(٧) في المصدرين المذكورين: «لَزَيْنُ».

(٨) الأذين: الأذان، أي النداء إلى الصلاة، لسان العرب (أذن).

(٩) البيت غير وارد في المغرب، وفي الذخيرة: «سَقِّنِيها مُزَّةً صافية عُتِّقَتْ. . .».

(١٠) البُرِينُ: جمع بُرَة وهي الحلقة من نحاس تكون في أنف البعير. محيط المحيط (برا).

مَـعَ فِـتْـيـانٍ كِـرامٍ نُـجُـبٍ   يَتَـهَـادَوْنَ رياحـينَ الـمـجُـونْ[1]
شربـوا الـراحَ عـلـى خَـدِّ رَشًا[2]   نَـوَّرَ الـوَرْدُ بـه والـيـاسـمـيـن
وجَـلَـتْ آيـاتُـهُ[3] عـامِـدَةً   سَبَجَ الشَّعْرِ على عاج الجبين
لَـوَتِ الـصُّـدْغَ عـلـى حـاجـبِـهِ   ضَـمَّـةَ اللأمِ عـلـى عَـطْـفَـةِ نُـونْ
فترى غُـصْـنًا على دِعْـصِ نَـقًا   وتـرى لَـيْـلاً عـلى صُـبْـحٍ مبين
وسَـيُـسْـقَـوْنَ[4] إذا مـا شَـرِبُـوا   بـأبـاريـقَ وكـأسٍ مـن مَـعِـيـنْ
ومَصَابِيحُ الدُّجى قد طُفِئَتْ[5]   في بَقَايا من سَوَادِ الليل جُونْ
وكأنَّ الطَّلَّ مِسْكٌ في الثَّرَى   وكأنَّ الطَّلَّ[6] دُرٌّ في الغُصُونْ
والـنَّـدَى يَـقْـطُـرُ مِـنْ نَـرْجِـسِـهِ   كدُمُوعٍ أسْكَبَتْهُنَّ[7] الـجُفُونْ
والثريَّا قد هَوَتْ من أفقها[8]   كـقَـضِـيـبٍ زاهـرٍ مـن ياسـمـيـن
وانْبَرَى جُنْحُ الدُّجَى عن صُبْحِهِ[9]   كـغُـرَابٍ طـارَ عـن بَـيْـضٍ كَـنِـينْ
وكـأنَّ الـشَّـمْـسَ لَـمَّـا أشْـرَقَـتْ   فانْثَنَتْ عنها عُيُون الناظِرِينْ[10]
وَجْهُ إدريسَ بن يَحْيىٰ بن عَلِيٍّ   ابْـنِ حَـمُّـودٍ أمـيـرِ الـمُـؤْمِـنِـيـنْ
مَـلِـكٌ ذو هَـيْـبَـةٍ لـكـنَّـهُ   خـاشِـعٌ لـلَّـهِ رَبِّ الـعـالـمـيـن
خُطَّ بالمِسْكِ علَى أبْوَابِهِ:   أُدْخُـلُـوهَـا بـسـلام آمـنـيـن
فـإذا مـا رُفِـعَـتْ رايـاتُـهُ   خَفَقَتْ بين جَنَاحَيْ جَبْرَئِين[11]

---

(١) جاء في الذخيرة بعد هذا البيت بيت ساقط من نفح الطيب وهو:
وعـلـيـهـمْ زاجـرٌ مـن حِـلْـمِـهـمْ   ولـديـهـمْ قـاصـراتُ الـطَّـرْفِ عِـيـن
(٢) في الذخيرة: «فتًى».
(٣) في الذخيرة: «رَجَّلَتْ دايَتُهُ». وفي المغرب «رَجَّلَتْ داياتُهُ».
(٤) في الذخيرة: «ويُسَقَّوْنَ».
(٥) في الذخيرة: «أُطْفِئَتْ».
(٦) في المصدر نفسه: «وكأنَّ الطلَّ... وكأنَّ النَّورَ دُرٌّ...».
(٧) في الذخيرة والمغرب «أسْبَلَتْهُنَّ».
(٨) في الذخيرة: «والثريّا قد عَلَتْ في أُفقها».
(٩) في المصدر نفسه: «عن أفقه».
(١٠) هذا البيت والذي يليه تقدما في هذا الجزء من نفح الطيب.
(١١) في الذخيرة: «وإذا ما رُفِعَتْ راياته». جبرئين: لغة في جبرائيل.

وإذا أشكَلَ خَطْبٌ مُعْضِلٌ صَدَعَ الشَّكَّ بِمِصْبَاحِ اليقينْ
فَبِيُسْرَاهُ يَسَارُ المُعْسِرين وبِيُمْنَاهُ لِوَاءُ السابقين
يا بني أَحْمَدَ، يا خَيْرَ الْوَرَى لأبيكمْ كان وَفْدُ[1] المسلمين
نَزَلَ الوحيُ عليه فاختَبَى في الدُّجَى فوقهمُ الرُّوحُ الأمين[2]
خُلِقُوا مِنْ ماءِ عَدْلٍ وتُقَى وجَميعُ الناسِ من ماءٍ وطِينْ
أنْظُرونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ إنَّه مِنْ نورِ رَبِّ العالمينْ[3]

وقيل[4]: إنه أنشده إياها من وراء حجابٍ اقتفاءً لطريقة خلفاء بني العباس، فلما بلغ إلى قوله:

أنْظُرونا نَقْتَبِسْ مِنْ نوركمْ إنه من نُورِ ربِّ العالمينْ

أمر حاجبه أن يرفع الحجاب، وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب، وأمر له بإحسانٍ جزيل، فكان هذا من أنبل ما يُحكى عنه.

وخُلع العالي سنةَ ثمانٍ وثلاثين، وولي ابنُ عمّه محمد بن إدريس بن علي، وتلقَّبَ بالمهدي، وتوفي سنة أربع وأربعين.

وبويع[5] إدريس بن يحيىٰ بن إدريس، ولُقِّبَ الموفّق، ولم يخطب له بالخلافة وزحف إليه العالي إدريس المخلوع الممدوح بالقصيدة السابقة، وكان بقُمارش، فدخل عليه مالَقَة، وأطلق أيدي عبيده عليها لحقده عليهم، ففرَّ كثير منهم، وتوفي العالي سنة ستّ أو سبع وأربعين.

وبويع محمد بن إدريس، ولُقِّبَ المستعلي، ثم سار إليه باديسُ بن حَبُّوس سنة تسع وأربعين وأربعمائة، فتغلَّب على مالَقَة، وسار محمد إلى ألْمَرِيّة مخلوعًا، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مَليلة [فأجاز إليهم][6] وبايعوه سنة ست وخمسين[7]، وتوفي سنة ستّين.

---

(١) في الذخيرة: «رفد».
(٢) الروح الأمين هو جبرائيل.
(٣) تقدّم هذا البيت في هذا الجزء من نفح الطيب.
(٤) القول للحجاري كما هو في المغرب.
(٥) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٣٥) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٦) ما بين قوسين أضفناه من تاريخ ابن خلدون، وجاء فيه: «واستدعاه أهل مليلة فأجاز إليهم...».
(٧) في تاريخ ابن خلدون: «تسع وخمسين».

وكان محمد بن القاسم بن حَمُّود لَـمَّا اعْتُقِل[١] أبوه القاسم بمالَقَة سنة أربع عشرة فَرَّ من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها، وتلقّب بالمعتصم، إلى أن هلك سنة أربعين. ثم ملكها بعده ابنُه القاسم الواثق، إلى أن هلك سنة خمسين، وصارت الجزيرة للمعتضد بن عَبّاد، ومالَقَةُ لابن حبوس مزاحِمًا لابن عباد.

وانقرضت دولة الأشراف الحمُّوديين من الأندلس، بعد أن كانوا يَدَّعُون الخلافة.

وأما قرطبة فإن أهلها لَـمَّا قطعوا دعوة الحمُّوديين بعد سبع سنين من ملكهم وزحف إليهم القاسم بن حَمُّود في البربر، فهزمهم أهل قُرْطُبة، ثم اجتمعوا واتّفقوا على ردّ الأمر لبني أُميّة، واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبّار أخا المهدي، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة، ولقّبوه المستظهر وقاموا بأمره، ومن شعره قوله[٢]: [مجزوء الرمل]

طـال عُـمْـرُ الـلـيـلِ عـنـدي   مـذ[٣] تـولّـغـتَ بـصَـدّي
يـا غـزالاً نَـقَـضَ الـعَـهْـ   ـدَ ولـم يُـوْفِ بـوَعْـدِ[٤]
أَنَـسِـيـتَ الـعَـهْـدَ إذ بِـتْـ   ـنَـا عَـلَـى مَـفْـرشِ وَرْدِ
واجْـتَـمَـعْـنَـا فـي وِشَـاحٍ   وانْـتَـظَـمْـنَـا نَـظْـمَ عِـقْـدِ[٥]
ونـجـومُ الـلـيـلِ تَـحْـكِـي   ذَهَـبًـا فـي لازَوَرْدِ

قال الحِجَاري: لو قال «لؤلؤاً في لازوردٍ» لكان أَحْسَنَ تشبيهًا، وأنشد متمثلاً: [مجزوء الكامل]

إنّـا عِـصَـابَـتُـكَ الأُلَـى   كُـنّـا نُـكـابِـدُ مـا تُـكَـابِـدْ
هـذا أوانُ بُـلُـوغِـنـا الـنُّـ   ـعْـمَـى وإنـجـازِ الـمـواعِـدْ

(١) في تاريخ ابن خلدون: «وأما محمد بن القاسم المعتقل بمالقة ففرّ...».
(٢) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ٥٧ ـ ٥٨) والحلّة السيراء (جـ ٢ ص ١٦) وسترد في الجزء الثالث من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) في طبعة عبد الحميد: «قد».
(٤) في الذخيرة: «نقض الودَّ ولم يُوفِ بعهدي». وفي الحلة السيراء: «ولم يُوف بعهدي».
(٥) بعد هذا البيت في الحلة السيراء والذخيرة البيت الآتي:
وتـعـانَـقْـنـا كَـغُـصْـنَـيْـ   ـنِ وقَـدّانـا كَـقَـدّ

وكان حسان بن أبي عبدة[1] من وزراء المستظهر، ولَمَّا أكثر المستظهر دونه الاستبداد كتب إليه بقوله[2]: [الطويل]

إذا غِبْتُ لم أحْضَرْ، وإنْ جِئْتُ لم أُسَلْ فَسِيَّانِ منّي مَشْهَدٌ ومَغِيبُ
فأَصْبَحْتُ تَيْمِيًا، وما كنتُ قَبْلَها لِتَيْمٍ، ولكنَّ الشَّبِيهَ نَسِيبُ

يشير إلى قول الأول[3]: [الوافر]

ويُقْضَى الأمْرُ حين تغيبُ تَيْمٌ ولا يُسْتَأْذَنُونَ وهُمْ شُهُودُ

وعاتبه أيضًا بقوله: [الطويل]

إذا كان مِثْلِي لا يُجَازَى بصَبْرِهِ فَمَنْ ذا الذي بَعْدِي يُجَازَى على الصَّبْرِ
وكم مَشْهَدٍ حارَبْتُ فيهِ عَدُوَّكُمْ وأَمَّلْتُ في حَرْبِي له راحَةَ الدَّهْرِ
أخوضُ إلى أعْدَائِكُمْ لُجَجَ الْوَغَى وأَسْرِي إليهِمْ حيثُ لا أحَدٌ يَسْرِي
وقَدْ نام عنهمْ كُلُّ مُسْتَبْطِنِ الحَشَا أكولٌ إلى المَمْسَى نؤومٌ إلى الظُّهْرِ
فما بَالُ هذا الأمرِ أصْبَحَ ضائِعًا وأنْتَ أمينُ اللّه تحكم في الأمْرِ

وسيأتي إن شاء اللّه تعالى من كلام الوزير المذكور ما يدلُّ على عظيم قدره، وهناك نذكر تحلية الفتح له.

ثم ثار عليه لشهرين من خلافته محمدُ بن عبد الرحمن بن عبيد اللّه ابن أمير المؤمنين الناصر لدين اللّه، فاتَّبعه الغَوْغاء، وفتك بالمستظهر، وتلقَّب بالمستكفي، واستقلَّ بأمر قُرْطُبة، وهو والد الأديبة الشهيرة ولاَّدة[4]، ولعلّنا نُلِمُّ ببعض أخبارها إنْ شاء اللّه تعالى

---

(١) هو أبو عبدة حسان بن مالك بن أبي عبدة؛ من الأئمة في اللغة والأدب، ومن بيت جلالة ووزارة. ألّف للمنصور محمد بن أبي عامر كتابًا في الأسمار، ووزر للخليفة المستظهر. توفي قبل سنة ٤٢٠ هـ. جذوة المقتبس (ص ١٩٦) وبغية الملتمس (ص ٢٧٠) وفيهما أن وفاته قبل سنة ٣٢٠ هـ، وهو خطأ. وانظر ترجمته أيضًا في بغية الوعاة (ص ٢٣٨).

(٢) البيتان في المصادر الثلاثة الآنفة الذكر.

(٣) البيت في جذوة المقتبس وبغية الملتمس.

(٤) هي ولاّدة بنت الخليفة المستكفي محمد بن عبد الرحمن الناصري؛ أديبة شاعرة، حسنة الشعر، كانت تُساجل الأدباء وتفوقهم، وقد قيل إنه لم يكن لها تصاون يطابق شرفها. توفيت سنة ٤٨٤ هـ. الصلة (ص ٩٩٦) والذخيرة (ق ١ ص ٤٢٩).

فيما بعد، وكان أبوهُ عبد الرحمن قتله المنصور بن أبي عامر لسعيه في الخلاف[1].

ثم بعد ستة عشر شهرًا من بيعة المستكفي رَجَعَ الأمرُ إلى المعتلي يحيىٰ بن علي بن حَمُّود سنة ست عشرة[2]، وخلع أهلُ قرطبة المستكفي، وولّى عليهم المعتلي من قبله، وفَرَّ المستكفي إلى ناحية الثغر، ومات في مَفَرِّه، ثم بدا لأهل قُرْطُبة فخلعوا المعتلي بن حَمُّود سنة سبع عشرة، وبايع الوزير أبو الحزم[3] جَهْوَر بن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخي المرتضى، وكان بالثغر في لارِدَةَ[4] عند ابن هُود، وذلك سنة ثماني عشرة[5]، وتلقّب المعتدَّ بالله، وأقام متردِّدًا في الثغر ثلاثة أعوام، واشتدَّت الفتنُ بين رؤساء الطوائف، واتّفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة، فاسْتَقْدَمَهُ ابنُ جَهْور والجماعة، ونزلها آخِرَ سنة عشرين، وأقام بها يسيرًا، ثم خلعه الجند سنة ثنتين وعشرين، وفَرَّ إلى لارِدَةَ فهلك بها سنة ثمانٍ وعشرين.

وانقطعت الدولة الأموية من الأرض، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائفُ بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خُطَّتَها، وتغلَّب بَعْضٌ على بعض، واستقلَّ أخيرًا بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالجِزَى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزّهم مُلْكَهُمْ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قطع إليهم البحرَ ملكُ العُدْوة وصاحبُ مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللَّمْتُوني، فخلعهم، وأخلى منهم الأرض.

فمن أشهرهم بنو عَبَّاد ملوك إشبيلية وغرب الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق، وفي الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كافٍ شافٍ.

ومنهم بنو جَهْوَر، كانوا بقرطبة في صورة الوزارة، حتى استولى عليهم المعتمد بن عَبَّاد، وأخذ قرطبة، وجعل عليها ولده، ثم كانت له وعليه حروب وخطوب، وفَرَّق أبناءه على قواعد الملك، وأنزلهم بها، واستفحل أمره بغرب الأندلس، وعَلَتْ[6] يدُه على مَن

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الخلافة».

(٢) أي سنة ست عشرة وأربعمائة.

(٣) في طبعتي عبد الحميد ودار صادر: «أبو محمد» وهو خطأ. وقد تقدّمت ترجمة أبي الحزم جهور.

(٤) لاردة: بالإسبانية Lerida، وهي مدينة في ثغر الأندلس الشرقي. الروض المعطار (ص ٥٠٧).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «ثمان عشرة» وهو خطأ.

(٦) من هنا حتى: «سنة ثمان وثمانين» في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٤١ - ٣٤٢).

كان هنالك من ملوك الطوائف، مثل ابن حَبُوس[١] بغَرْنَاطة، وابن الأفطس ببطَلْيَوْسَ، وابن صُمَادح بالمريَّة، وغيرهم، فكانوا يخطبون سلْمه، ويغلون[٢] في مَرْضاته، وكلّهم يُدَارون الطاغية ويَتّقونه بالجِزَى، إلى[٣] أن ظهر يوسف بن تاشفين، واستفحل ملكه، فتعلّقت آمال الأندلس بإعانته، وضايقهم الطاغية في طلب الجِزْية، فقتل المعتمدُ اليهوديَّ[٤] الذي جاء في طلب الجزية للطاغية، بسبب كلمة آسَفَه[٥] بها. ثم أجاز البحر صريخًا إلى يوسف بن تاشفين، فأجاز معه البحر، والتقوا مع الطاغية في الزلاَّقة[٦]، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى، ونصر اللّه تعالى الإسلام نَصْرًا لا كفاء له، حتى قال بعض المؤرّخين: إنه كان عدد النصارى ثلثمائة ألف، ولم يَنْجُ منهم إلاّ القليل، وصبر فيها المعتمدُ صَبْرَ الكرام، وكان قد أعطى يوسفَ بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكّن من الجواز متى شاء، ثم طلب الفقهاءُ بالأندلس من يوسف بن تاشفين رَفْعَ المكوس والظلامات عنهم، فتقدَّم بذلك إلى ملوك الطوائف، فأجابوه بالامتثال، حتى إذا رَجَعَ من بلادهم رَجَعُوا إلى حالهم، وهو خلالَ ذلك يُرَدِّد عساكره للجهاد، ثم أجاز إليهم وخلع جميعهم، ونازلت عساكره جميعَ بلادهم، واستولى[٧] على قُرْطُبة وإشبيلية وبَطَلْيَوْسَ وغَرْنَاطة وغيرها، وصار المعتمدُ بن عباد كبيرُ ملوك الأندلس في قبضته أسيرًا بعد حروب، ونقله إلى أغْمَاتَ قرب[٨] مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة، واعتقله هنالك إلى أن مات[٩] سنة ثمانٍ وثمانين[١٠]. وسَنُلِمُّ بما قاله الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه لَـمَّا[١١] زار قبره.

---

(١) هو باديس بن حبوس، وقد تقدمت ترجمته. وفي تاريخ ابن خلدون: «مثل ابن باديس» وهو خطأ.

(٢) في تاريخ ابن خلدون: «ويعملون».

(٣) في المصدر نفسه: «إلى أن ظهر بالعُدْوة ملك المرابطين، واستفحل أمر يوسف بن تاشفين، وتعلّقت. . .».

(٤) كان اليهودي وزيرًا لألفونسو السادس ملك قشتالة، وقد أغلظ للمعتمد فضربه المعتمد بمحبَرة كانت بين يديه، فألقى دماغه في حلقه وأمر بصلبه بقرطبة. الروض المعطار (ص ٢٨٨).

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «أسفّ بها».

(٦) انظر وقعة الزلاقة بالتفصيل في الروض المعطار (ص ٢٨٨)، وكانت في عام ٤٧٩ هـ.

(٧) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٤٢): «واستولى على الأندلس كما يأتي ذكره في أخباره».

(٨) في المصدر نفسه: «قرية».

(٩) في المصدر نفسه: «هلك».

(١٠) هنا ينتهي النقل عن ابن خلدون.

(١١) في طبعة دار صادر: «حين».

وللمعتمد هذا أخبار مأثورة خصوصًا مع زوجته أُمّ أولاده الرميكية الملقبة باعتماد، وقد رُوِيَ أنها رأت ذات يوم بإشبيلِيَة نساءَ البادية يَبِعْنَ اللبنَ في القِرَب وهُنَّ رافعاتٌ عن سوقهنّ في الطين، فقالت له: أشتهي أن أفعل أنا وجواريَّ مثلَ هؤلاء النساء، فأمر المعتمد بالعنبر والمِسْك والكافور وماء الورد، وصُيِّر الجميعُ طينًا في القصر، وجعل لها قِرَبًا وحبالاً من إبريسم[1]، وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين، فيقال: إنه لـمّا خُلِعَ وكانت تتكلّم معه مرّة فجرى بينهما ما يجري بين الزوجين، فقالت له: واللّه ما رأيت منك خيرًا، فقال لها: ولا يوم الطين؟ تذكيرًا لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلاّ اللّه تعالى، فاستحيت وسكتت.

وولي[2] بعده غَيْرَ مَن تقدّم بنو رَزِين أصحابُ السَّهْلة، وبنو الفهري أصحاب البونت، وتغلّب عليهما أخيرًا يوسف بن تاشفين.

ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذي النون ملوك طُلَيْطلة من الثغر الجَوفي، وكانت لهم دولة كبيرة، وبلغوا في البذخ والتَّرَف إلى الغاية، ولهم الإعذار المشهور الذي يقال له «الإعذار الذُّنُّوني» وبه يُضرَب المثل عند أهل المغرب، وهو عندهم بمثابة عُرْس بُورَانَ عند أهل المشرق، والمأمون من بني ذي النون هو صاحب ذلك، وهو الذي عظم بين ملوك الطوائف سُلْطَانُه، وكان بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة، وغلب على قُرْطُبة، وملكها من يد ابن عَبَّاد المعتمد، وقتل ابنَه أبا عمرو، وغلب أيضًا على بَلَنْسِيَةَ وأخذها من يد بني ابن أبي عامر.

وفي أيام حافد المأمون ـ وهو القادر بن ذي النون ـ كان الطاغية ابن أذفونش قد استفحل أمره، لَـمّا خلا الجوّ من مكان الدولة الخلافية، وخَفَّ ما كان على كاهله من إصر العرب، فاكتسح البسائط، وضايق ابن ذي النون، حتى أخذ من يده طُلَيْطلة، فخرج له عنها سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة كما سبق، وشرط عليه أن يُظَاهره على أهل بَلَنْسِية، فقبل شرطه، وتسلّمها ابن ألفونش، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم.

ومن أعظم ملوك الأندلس الموالي العامريون مثل خيران وزهير وأشباههما. وأخبار الجميع تطول.

---

(١) الإِبْرِيْسَمُ: الحرير قبل أن يخرقه الدود. محيط المحيط (إبريسم).

(٢) في طبعة دار صادر: «ومن أعظم ملوك الطوائف غير مَن تَقَدَّم...».

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هُود ملوكُ سَرَقُسْطَة وما إليها، ومن أشهرهم المقتدر[1] بالله، وابنه يوسف المؤتمن، وكان المؤتمن قائمًا على الأمور[2] الرياضية، وله فيها تآليف، ومنها كتاب الاستكمال[3] والمناظر، وولي بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طُلَيْطلة[4]، وعلى يده كانت وقعة وَشْقَةَ - زَحَفَ سنة تسع وثمانين في آلاف لا تُحْصَى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وَشْقَة، وكان محاصِرًا لها، فلقيه الطاغية وهزمه، وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف، وهلك هو شهيدًا سنة ثلاث وخمسمائة، بظاهر سَرَقُسْطة في زحف الطاغية إليها. وولي ابنُه عبد الملك[5] عماد الدولة، وأخرجه الطاغية من سَرَقُسْطة سنة ثنتي عشرة، وتولّى ابنه سَيْف الدولة، وبالغ في النكاية بالطاغية، ثم اتّفق معه، وانتقل بحَشَمِهِ إلى طُلَيْطلة، فكان فيها حِمَامه.

ومن شعر المقتدر بن هود قولُه رحمه الله في مبانيه: [الكامل]

قَصْرَ السرور ومَجْلسَ الذَّهَبِ ... بكما بَلَغْتُ نهايَةَ الأربِ
لو لم يَحُزْ ملكي خلافَكما ... كانَتْ لديَّ كفايَةُ الطَّلَبِ

ومن مشاهير ملوك الطوائِف بنو الأفطس أصحاب بَطَلْيَوْسَ وما إليها، والمظفر منهم هو صاحب التأليف المسمّى بالمظفري في نحو الخمسين مجلدًا، والمتوكّل منهم قُتل على يد جيش يوسف بن تاشفين، وفيه قال ابن عَبْدُون قصيدته المشهورة[6]: [البسيط]

الدهْرُ يَفْجَعُ بعد العَيْن بالأثر ... فمَا البكَاءُ على الأشباح والصُّوَرِ

وهي من غرر القصائد الأندلسية[7].

ولما[8] استولى ملوك لَمْتُونة على بلاد الأندلس وأزالوا ملوك الطوائف منها، وبقيت عمّالهم تتردّد إليها وبنوهم حتى فَشِلَتْ ريحهم، وهَبّتْ ريحُ الموحدين، أعني عبد المؤمن

---

(١) هلك المقتدر بن هود سنة ٤٧٤ هـ لتسع وثلاثين سنة من ملكه. تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٥١).
(٢) في تاريخ ابن خلدون وفي طبعة دار صادر: «العلوم».
(٣) في تاريخ ابن خلدون: «الاستهلال».
(٤) أي سنة ٤٧٨ هـ. تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٥٢).
(٥) في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٥٢): «الملك، وتلقّب عماد الدولة».
(٦) تقدم هذا البيت.
(٧) كلمة «الأندلسية» سقطت من طبعة دار صادر.
(٨) في طبعة دار صادر: «فلما استولى ملوك لمتونة...».

ابن علي وبنيه، فحاربوا لَمْتُونَةَ، واستولوا على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة، ثم أجازوا البحر إلى الأندلس، وملكوا أكثر بلاد الأندلس، وملك بنو مَرْدَنيش شرق الأندلس، وملخص ذلك أن الأندلس كان ملكها مجموعًا للَمْتُونَةَ بعد خلعهم ملوك الطوائف، فلما اشتغل لَمْتُونَةُ في العُدْوة بحرب الموحِّدين اضطربت عليهم الأندلس، وعادت إلى الفرقة بعضَ الشيء، ثم خلص أكثرها لعبد المؤمن وبنيه بعد حروب منها ما حصل بين عبد المؤمن وبين ابن مَرْدَنيش وقائده ابن هَمْشَك بفَحْص غَرْنَاطة، وقد استعان ابنُ مردنيش بالنصارى على الموحِّدينَ، فهزمهم عبدُ المؤمن، وقتلهم أبْرَحَ قَتْل، واستخلص غَرْنَاطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة من يد ابن مَرْدَنِيش. وولي الأمر بعد عبد المؤمن ابنُه يوسف، وأجاز إلى الأندلس، وكانت له مواقف في جهاد العدوّ، وولي بعده ابنُه يعقوب[١] المنصور الطائر الصيت، وكانت له في النصارى بالأندلس نكاية كبيرة، ومن أعظمها غزوة الأرك[٢] التي تُضَاهِي وقعة الزلاَّقة أو تزيد، والأرك: موضع بنواحي بَطَلْيَوسَ، وكانت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره، وكان عدّة مَنْ قُتل من الفرنج ـ فيما قيل ـ مائة ألف وستّة وأربعين ألفًا، وعدّة الأسارى ثلاثين ألفًا، وعدّة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفًا، والبغال مائة ألف، والحمير أربعمائة ألف، جاء بها الكفّار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم، وأما الجواهر والأموال فلا تُحْصَى، وبِيعَ الأسيرُ بدرهم، والسيفُ بنصف درهم، والفرسُ بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقَسَّم يعقوبُ الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا ألفنش ملكُ النصارى إلى طُلَيْطلة في أسوإ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرسًا ولا دابّة، حتى يأخذ بالثأر، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه إلى طُلَيْطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضَيَّق عليها، ولم يبق إلاّ فتحُها، فخرجت إليه والدة الأذفونش[٢] وبناته

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والأندلس، وثالث خلفاء الموحدين. وَلِيَ الحكم بعد أبيه يوسف سنة ٥٨٠ هـ وتوفي سنة ٥٩٥ هـ. تاريخ ابن الأثير (جـ ١١ ص ٥٠٥) و(جـ ١٢ ص ٥٧، ١١٣، ١١٦. ١٤٥) وصفحات أخرى متفرقة ووفيات الأعيان (جـ ٧ ص ٣).

(٢) ر الأَرَك: بالإسبانية Alarcos، وتسمَّى اليوم: Santa María de Alarcos، وكان حصنًا منيعًا بمقربة من قلعة رباح، وهناك كانت وقيعة الأرك على صاحب قشتالة وجموع النصارى على يد المنصور يعقوب ابن يوسف الموحدي. الروض المعطار (ص ٢٧).

ونساؤه وبكَينَ بين يديه، وسَألْنَهُ إبقاء البلد عليهنّ، فرقّ لهنّ، ومَنّ عليهنّ بها، ووهب لهنّ من الأموال والجواهر ما جَلّ، وردّهُنّ مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قُرْطُبة، فأقام شهرًا يقسم الغنائم، وجاءته رسُلُ ألفنش بطلب الصلح، فصالحه، وأمّنَ الناس مدّته، وفيه يقول بعض شعراء عصره: [الكامل]

أهْلٌ بأنْ يُسْقَى إليه ويُرْتَجَى ويُزَارَ مِنْ أقْصَى البلادِ على الرَّجَا
مَنْ قد غَدَا بالمَكْرُمَاتِ مُقَلّدًا ومُوَشَّحًا ومُخَتَّمًا ومُتَوَّجَا
عمرتْ مقاماتُ الملوكِ بذكره وتَعَطَّرَتْ منه الرِّيَاحُ تَأَرُّجَا

ولمّا[1] أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمسَ الدين بن مُنْقذ يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدّسة، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين، لم[2] يُجِبه إلى ما طلبه، وكل ذلك في سنة ٥٨٧[3]، ومدحه ابنُ منقذ[4] بقوله من قصيدة: [الكامل]

سأشكُرُ بَحْرًا ذا عُبَابٍ قَطَعْتُه إلى بحر جُودٍ ما لأخراه سَاحِلُ
إلى مَعْدِن التَّقْوَى إلى كَعْبَة النَّدَى إلى مَنْ سَمَتْ بالذكر منه الأوائلُ
إليكَ أميرَ المؤمِنِينَ ولم تَزَلْ إلى بَابِكَ المأمولِ تُزْجَى الرَّوَاحِلُ
قطعْتُ إليك البَرَّ والبَحْرَ مُوقِنًا بأنَّ نَدَاكَ الغَمْرَ بالنُّجحِ كافِلُ
وحُزْتُ بقَصْدِيكَ[5] العُلاَ فبلَغْتُهَا وأدْنَى عطاياكَ العُلاَ والفَوَاضِلُ
فلا زِلْتَ للعَلْيَاء والجُودِ بانيًا تُبَلِّغُك الآمالُ ما أنتَ آمِلُ

وعدّتها أربعون بيتًا، فأعطاه بكل بيت ألفًا، وقال له: إنّما أعطيناك لفضلك ولبيتك.

---

(١) في طبعة دار صادر: «وهو الذي أرسل...».
(٢) في طبعة دار صادر: «فلم».
(٣) أورد القلقشندي كتابًا للقاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى المنصور يعقوب الموحدي في سنة ٥٨٥ هـ يستجيشه على الروم الفرنج القاصدين بلاد الشام والديار المصرية، يلقّب فيه المنصور بأمير المؤمنين. صبح الأعشى (جـ ٦ ص ٥٢٦).
(٤) هو شمس الدين أبو الحارث عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بن منقذ، أرسله صلاح الدين رسولاً إلى المنصور يعقوب الموحدي في سنة ٥٨٧ هـ، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين، بل خاطبه بأمير المسلمين، فعزّ ذلك عليه ولم يجبه إلى ما طلبه منه. وكانت ولادته سنة ٥٢٣ هـ ووفاته سنة ٦٠٠ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١٢).
(٥) بِقَصْديكَ: أي بقصدي إياك.

وكان عنوان الكتاب الذي أرسله صلاح الدين «إلى أمير المسلمين» وفي أوّله «الفقير إلى اللّه تعالى يوسف بن أيوب» وبعده من إنشاء الفاضل «الحمد للّه الذي استعمل على الملّة الحنيفية مَن اسْتَعْمَرَ الأرضَ، وأغنى من أهلها مَنْ سأله القَرْض، وأجزى مَنْ أجرى على يده النافلة والفرض، وزَيَّنَ سماء الملّة بدَرَاري الذراري التي بعضُها من بعض» وهو كتاب طويل سأله فيه أن يَقْطع عنه مادة البحر، واستنجده على الإفرنج إذ كانت له اليد عليهم، وعاد ابن منقذ من هذه الرسالة سنة ٥٨٨ بغير فائدة، وبعث معه هديّة حقيرة، وأمّا ابن منقذ فإنه أحسن إليه وأغناه، لا لأجل صلاح الدين، بل لبيته وفضله كما مَرَّ، وما وقع من يعقوب في صلاح الدين إنّما هو لأجل أنّه لم يُوَفِّهِ حَقَّهُ في الخطاب.

رجع[١] - ولَمَّا استفحلَ أمرُ الموحِّدين بالأندلس استعملوا القَرَابة[٢] على الأندلس وكانوا يُسَمّونهم السادة، واقتسموا ولايتها بينهم. ولهم مواقف في جهاد العدوّ مذكورة، وكان صاحب الأمر بمراكش يأتي الأندلس للجهاد، وهزم يعقوبُ المنصورُ كما سبق قريبًا بالأَرَك ابنَ أدفونشَ ملك الجلالقة الهزيمةَ الشنعاء.

وأجاز[٣] ابنه الناصر الوالي بعده البَحْرَ إلى الأندلس من المغرب سنة تسع وستمائة ومعه من الجنود ما لا يُحْصَى، حتى حَكَى بعضُ الثقات من مؤرِّخي المغرب أنه اجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل، فمحص[٤] اللّه المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب[٥]، واستُشْهِد منهم عِدّة. وكانت سببَ ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبِخَلاءِ كثير من قُرَاه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلبِ العدوّ عليها؛ لأنه لَمّا التاث[٦] أمرُ الموحدين بعد الناصر ابن المنصور انتزى السادة بنواحي الأندلس كلٌّ في عمله، وضعف ملكهم بمراكش، فصاروا إلى الاستجاشة[٧] بالطاغية بعضهم على بعض، وإسلام

---

(١) أي رجع إلى أخبار يعقوب، والنصُّ هنا في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٥٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) في تاريخ ابن خلدون: «القرابة من بني عبد المؤمن وكانوا يسمّونهم السادة....».

(٣) من هنا حتى: «واستشهد منهم عدّة» مختلف في تاريخ ابن خلدون بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) مَحَّصَ اللّهُ المسلمين: اختبرهم وابتلاهم. لسان العرب (محص).

(٥) العقاب: بالإسبانية Las Navas de Tolosa، بين جيان وقلعة رباح، وفيه كانت الوقعة العظيمة التي هزم فيها المسلمون في سنة ٦٠٩ هـ. الروض المعطار (ص ٤١٦).

(٦) التاث أمر الموحدين: التبس، ويريد: اضطرب، محيط المحيط (لوث).

(٧) في تاريخ ابن خلدون: «الاستجاشة بالطاغية بقص...».

حصون المسلمين إليه في ذلك، فَمَشَتْ[1] رجالات الأندلس وأعقابُ العرب منذ الدولة الأموية، وأجمعوا على إخراجهم، فثاروا[2] به لحين واحد، وأخرجوهم. وتولى كِبْرَ ذلك محمد بن يوسف بن هود الجُذَامي الثائر بالأندلس وابن مَرْدَنيش وثوّار آخرون.

وقال ابن خلدون[3]: ثم خرج على ابن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضًا وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، وتلقَّب محمد هذا بالشيخ، فجاذبه[4] الحبل، وكانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه، انتهى.

وكان ابن هود يخطب للعباسي صاحب بغداد، ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروبٌ وخطوبٌ إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكل، فضايقه ألفنش والبرشلوني فبعث بالطاعة لابن الأحمر، فبعث إليه ابن أشقيلولة[5]، وتسلَّم مُرْسِيَةَ منه، وخطب لابن الأحمر بها، ثم خرج منها راجعًا إلى ابن الأحمر، فأوقع به النصارى[6] في طريقه، ثم رجع الواثق إلى مُرْسِية ثالثة، فلم يزل إلى أن ملكها العدو من يده سنة ثمانٍ وستّين وستمائة، وعوَّضه عنها حصنًا يسمَّى يُسْر[7]، وهو من عملها، فبقي فيه إلى أن هلك. وانقرضت دولة ابن هود، واللّٰه وارثُ الأرضِ ومَنْ عليها.

رجع[8] إلى ذكر دولة أولاد الأحمر؛ لأن لسان الدين وزير أحدهم، ولأنهم آخر ملوك الأندلس، ومن يدهم استولى النصارى على جميعها كما سنذكره. قال ابن خلدون[9]: أصلهم من أرْجُونَةَ من حُصُون قُرْطُبَة، ولهم فيها سَلَفٌ من أبناء الجند، ويُعْرَفون ببني نصر، وينتسبون إلى سعد بن عُبَادة سيد الخَزْرج. وكان كبيرهم لآخر دولة الموحِّدين محمد بن يوسف بن نصر، ويُعْرف بالشيخ، وأخوه إسماعيل. وكانت له وجاهة في ناحيتهم.

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: «فَسَمَتْ».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «فساروا».
(٣) كلام ابن خلدون لا يزال مرتبطًا بما قبله.
(٤) في تاريخ ابن خلدون: «فحاربه أهل الجبل...».
(٥) في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٦٥) أنه عبد اللّٰه بن علي بن أشقيلولة.
(٦) في المصدر نفسه: «البصري».
(٧) في المصدر نفسه: «يَسّ».
(٨) في طبعة دار صادر: «ولنذكر ملوك بني الأحمر إجمالاً؛ لأنَّ لسان...».
(٩) النص في تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٦٦ ـ ٣٧٠).

ولـمَّا فشلت[١] ريح الموحِّدين، وانتزى الثوّار بالأندلس، وأعطى السادة حصونها للطاغية، استقل[٢] بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بـمُرْسِية بدعوة العباسية، وتغلّب على شرق الأندلس أجمع، فتصدَّى الشيخ هذا للثورة عليه[٣] وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة، ودعا لأبي زكرياءَ صاحب إفريقية، وأطاعته جَيَّان وشَرِيش سنة ثلاثين بعدها، واستظهر على أمره بقرابته من بني نصر وأصهاره بني أشقيلولة. ثم بايع لبني[٤] هُود سنة إحدى وثلاثين، عندما بلغه خطاب الخليفة من بغداد. ثم ثار بإشبيلية أبو مَرْوَان الباجي عند خروج ابن هود عنها ورجوعه إلى مُرْسِية، فداخله محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوِّجه ابنته، فأطاعه، ودخل إشبيلية سنة اثنتين وثلاثين. ثم فتك بابن الباجي فقتله، وتناول البطش[٥] به علي بن أشقيلولة. ثم راجع أهل إشبيلية بعدها بشهر دعوة ابن هُود، وأخرج ابن الأحمر. ثم تغلّب على غَرْنَاطة سنة خمس وثلاثين بـمُدَاخلة[٦] أهلها حين ثار ابنُ أبي خالد بدعوته فيها، ووصلته بيعتها وهو بجَيَّان[٧]، فقَدِمَ إليها علي بن أشقيلولة. ثم جاء على أثره، ونزلها، وابتنى[٨] بها حصن الحمراء لنزوله. ثم[٩] تغلَّب على مالَقَة، ثم تناول ألمريَّة من يد ابن الرميمي وزير ابن هود الثائر بها سنة ثلاث وأربعين، ثم بايعه أهلُ لُورقَة سنة ثلاث وستّين، وكان ابن الأحمر أولَ أمره وَصَل يدَه بالطاغية استظهارًا على أمره، فعضده وأعطاه ابن هود ثلاثين حِصْنًا في كَفِّ غَرْبه بسبب ابن الأحمر، وليعينه على ملك قُرْطُبة، فتسلّمها، ثم تغلَّب على قُرْطُبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، أعادها اللَّه! ثم نازل إشبيليَةَ سنة ست وأربعين وابنُ الأحمر معه، ثم دخلها صلحًا، وملك أعمالها. ثم ملك مُرْسِيَة سنة خمس وستّين. ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورةً كورةً وثغرًا ثغرًا

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: «فشل ريح الموحدين وضعف أمرهم، وكثر الثوّار بالأندلس، وأعطى حصونها للطاغية...».

(٢) في طبعة عبد الحميد وتاريخ الأندلس: «واستقلّ».

(٣) كلمة «عليه» سقطت من طبعة دار صادر. وفي تاريخ ابن خلدون: «فتصدَّى محمد بن يوسف هذا للثورة على ابن هود...».

(٤) في تاريخ ابن خلدون: «لابن هود».

(٥) في المصدر نفسه: «الفتك».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «بمداجاة».

(٧) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٦٧): «الحيان».

(٨) في المصدر نفسه: «واستقرَّ بها».

(٩) من هنا حتى: «ثم نازل إشبيلية» مختلف كل الاختلاف في تاريخ ابن خلدون عمّا هنا.

إلى أن ألجأ المسلمين[١] إلى سِيْفِ[٢] البحر ما بين رُنْدَةَ من الغرب وإلبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مَرَاحل من الغرب إلى الشرق، وفي قدر مرحلة أو دونها في العرض ما بين البحر والجوف. ثم سخط ابن الأحمر وطمع في الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه، وتلاحق بالأندلس الغُزَاة[٣] من بني مَرِين وغيرهم، وعَقَدَ ملكُ المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة آلاف منهم، فأجازوا في حدود الستّين وستمائة، وتَقَبَّل ابنُ الأحمر إجازتهم، ودفع بهم في نَحْر عدوّه، ورجعوا. ثم تناسلوا[٤] إليه بعد ذلك، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة، وولي بعده ابنه محمد الفقيه، وأوصاه باستصراخ بني مَرِين[٥]، ملوك المغرب بعد الموحدين، إن طرقه أمر أن يعتضد بهم، فأجازه الفقيه إلى يعقوب بن عبد الحقّ سلطان فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين، فأجاب صريخه، وأرسل ابنَه[٦] وعساكره معه. ثم أجاز على أثره وتسلّم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها وجعلها[٧] ركابًا لجهاده، ونزل إليه ابنُ الأحمر عن طريف وما إليها من الحصون، وهزم هو وابنُ الأحمر زعيمَ النصرانية دَنُّنه[٨] وفرّق جمعه، وأوقع بجموع الطاغية من كل جهة، وبَثَّ سراياه وبُعوثه في أرض النصرانية، ثم خاف ابنُ الأحمر على ملكه، وصالح الطاغية ثم عاد، انتهى كلام ابن خلدون ملخصًا.

وثبتت قَدَمُ عقبِ ابنِ الأحمر بالأندلس، واستولوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل الجزيرة وطريف ورُنْدَة التي كانت بيد بني مَرِين.

وبعد مدّة أَلَّبَ ملوكُ النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غَرْنَاطة، وجاءها الطاغية دون بِطْرُه[٩] في جيش لا يُحْصَى ومعه خمسة وعشرون ملكًا، وكان من خبر هذه

---

(١) هكذا في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٦٩). وفي طبعة دار صادر: «ألجأ المسلمون».

(٢) سِيْف البحر، بكسر السيف وسكون الياء: ساحل البحر. محيط المحيط (سيف).

(٣) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٦٩): «غزاة من زناتة الثائرين يومئذ من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وبني مرين...».

(٤) في المصدر نفسه: «تهايلوا».

(٥) في تاريخ ابن خلدون (ص ٣٧٠): «باستصراخ ملوك زناتة من بني مرين...».

(٦) في المصدر نفسه «ابنه منديل».

(٧) هكذا في تاريخ ابن خلدون وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «وخَطَّها».

(٨) هو بالإسبانية Don Nuno.

(٩) هو بالإسبانية Don Pedro.

الوقعة أن الإفرنج حَشَدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بطْرُه إلى طُلَيْطلة، ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا، وسجد له، وتضرّع، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس، وأكّد عزمه، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها، وعزموا على الاستنجاد بالـمَرِيني أبي سعيد صاحب فاس، وأنفذوا إليه رُسُلاً، فلم ينجع ذلك الدواء، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو اللّجَأ إلى اللّه تعالى، وأخلصوا النيّات، وأقبل الإفرنج في جموعٍ لا تُحْصَى، فقضى ناصر مَنْ لا ناصر له سِواه بهزم أُمم النصرانية، وقتل طاغيتهم دون بطْره، ومَن معه، وكان نصرًا عزيزًا ويومًا مشهورًا[1] مشهودًا.

وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب باللّه أبو الوليد[2] إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أنْ يُحَصِّنَ البلاد والثغور، فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على مُنازلة الجزيرة الخضراء، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردّهم، وجهّز الأساطيل والرجال، فلـمّا رأَوْا ذلك طلبوا إلى طُلَيْطلة، وعزموا على استئصال المسلمين وبلادهم[3] وتأهّبوا لذلك غاية الأُهبة، ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات في المراكب، ووصل العدوّ إلى غَرْنَاطة، وامتلأت الأرض بهم، فتقدّم السلطان إلى شيخ الغُزَاة الشيخ العالِم أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء الْـمَرِيني بالخروج إلى لقائهم بأنجاد[4] المسلمين وشجعانهم، فخرج إليهم يوم الخميس الـمُوْفي عشرين لربيع الأول.

ولـمّا كانت[5] ليلة الأحد أغارت سَرِيَّةٌ من العدوّ على ضيعة من المسلمين، فخرجت إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرّماة، فقطعوهم عن الجيش، وفَرّتْ تلك السَّرِيّة أمامهم إلى جهة سلطانهم، فتبعهم المسلمون إلى الصبح، فاستأصلوهم وكان هذا أول النصر.

ولـمّا كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدوّ في خمسة آلاف من أبطال

---

(١) كلمة «مشهورًا» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) الغالب باللّه أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بن الأحمر، خامس سلاطين دولة بني نصر بغرناطة. بويع سنة ٧١٣ هـ، واغتاله ابن عمّ له سنة ٧٢٥ هـ الأعلام (جـ ١ ص ٣٢١ ومصادر حاشيته).

(٣) في طبعة دار صادر: «استئصال بلاد المسلمين».

(٤) الأَنْجادُ: جمع نَجْد وهو الشجاع. محيط المحيط (نجد).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «كان».

المسلمين المشهورين، فلَمَّا شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلّتهم في تلك الجيوش العظيمة، فركبوا وحملوا بجُمْلتهم عليهم، فانهزم الفرنجُ أقبَحَ هزيمة، وأخذتهم السيوفُ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام، وخرج أهل غَرْنَاطة لجمع الأموال، وأَخْذِ الأَسْرَى، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب - فيما قيل - ثلاثة وأربعون قنطارًا، ومن الفِضّة مائة وأربعون قنطارًا، ومن السَّبْي سبعة آلاف نَفْسٍ حسبما كتب بذلك بعض الْغرناطيين إلى الديار المصرية، وكان من جملة الأساري[1] امرأة الطاغية وأولاده، فبذلت في نفسها مدينةَ طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حِصْنًا فيما حَكَى بعض المؤرّخين، فلم يقبل المسلمون ذلك، وزادت عدّة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفًا، ويقال: إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد، لعدم معرفتهم بالطريق، وأمّا الذين هلكوا بالجبال والشِّعاب فلا يُحْصَوْنَ، وقُتِلَ الملوك الخمسة والعشرون جميعهم، واستمرَّ البيع في الأسرى والأسلاب[2] والدوابّ ستّة أشهر، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد.

ومن العجب أنه لم يُقْتَلْ من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارسًا، وقيل: عشرة أنفس، وقيل: كان عسكر الإسلام نحو ألف وخمسمائة فارس، والرَّجّالة نحوًا من أربعة آلاف راجل، وقيل دون ذلك.

وكانت الغنيمة تفوق الوصف، وسُلخ الطاغية دون بِطْره وحُشِي جلدُه قُطْنًا، وعُلِّق على باب غَرْنَاطة، وبقي معلّقًا سنوات، وطلبت النصارى الهدنة، فَعُقِدَتْ لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذي كان من أعمال سلطان فاس والمغرب، وهو جبل طارق، ولم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن الْمَرِيني[3] صاحب فاس والمغرب، بعد أن أنفق عليه الأموال، وصرف إليه الجنود والحشود، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصّه، وضيّقوا به، إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، واهتمَّ ببنائه وتحصينه، وأنفق عليه أحمالَ مالٍ في بنائه وحِصْنِهِ وسُورِهِ وأَبْراجِهِ وجامِعِهِ ودُوْرِهِ ومخازِنِهِ، ولَمَّا كاد يتمُّ ذلك نازله العدوُّ

---

(١) في طبعة دار صادر: «الأسرى».

(٢) في طبعة دار صادر: «والأسباب». والأسلاب: جمع سَلَب، بفتح السين واللام، وهو ما يُسْلَبُ، أي ما يأخذه المقاتل من عدوّه. محيط المحيط (سلب).

(٣) هو المنصور بالله علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني؛ وَلِيَ أمر المغرب بعد وفاة أبيه سنة ٧٣١ هـ، وتوفي سنة ٧٥٢ هـ اللمحة البدرية (ص ٩٥، ١٠٥، ١١٧).

بَرًّا وبَحْرًا، فصبر المسلمون، وخيَّب اللّٰه سعي الكافرين، فأراد السلطان المذكور أن يحصِّن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدوٌّ في منازلته، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته، ورأى الناسُ ذلك من الـمُحال، فأنفق الأموال، وأنصف العُمّال، فأحاط بمجموعه إحاطَةَ الهالَةِ بالهلال، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدوّ نَيِّفًا وعشرين سنة، وحاصره السلطان أبو الحسن ستّة أشهر، وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان، ولـمّا أجاز السلطان أبو الحسن المذكور إلى الأندلس، واجتمع عليه ابن الأحمر، وقاتلهم الطاغية ـ هزمهم في وقعة طريف، واستولى على الجزيرة الخضراء، حتى قَيَّضَ اللّٰهُ من بني الأحمر الغني باللّٰه محمدًا الذي كان لسان الدين بن الخطيب وزيره، فاسترجعها وجُمْلَةَ بلاد كجيّانَ وغيرها.

وكانت له في الجهاد مواقف مشهورة، وامتدَّ ملكه واشتدَّ حتى محا دولَةَ سلاطين فاس مـمّا وراء البحر، وملك جبلَ الفتح، ونصر اللّٰه الإسلام على يده، كما ستقف عليه في بعض مكاتبات لسان الدين ـ رحمه اللّٰه! ـ في مواضع من هذا الكتاب، وسَعْدُ هذا الغني باللّٰه من العجائب.

وبقي ملك الأندلس في عقبه إلى أن أَخَذَ ما بقي من الأندلس العدوُّ الكافرُ واستولى على حضرة الملك غَرْنَاطة أعادها اللّٰه للإسلام، كما نبيّن ذلك[1] إن شاء اللّٰه، وخَلَتْ جزيرة الأندلس من أهل الإسلام، فأُبدِلَتْ[2] من النور بالظلام، حسبما اقْتَضَتْهُ الأقدارُ النافذة والأحكام، واللّٰه وارثُ الأرضِ ومَنْ عليها وهو خير الوارثين.

قال ابن خلدون: واتفق بنو الأحمر سلاطين غَرْنَاطة أن يجعلوا مشيخة الغُزَاة لواحد يكون من أقارب بني مَرِين سلاطينِ المغرب؛ لأنهم أوّل مَنْ وَلِيَ الأندلس عند استيلاء بني عمِّهم على ملك المغرب لِـمَا بينهم من المنافسة، وكان لهؤلاء في الجهاد مواقِفُ مشهورة، منها[3] ما كتب على قبر شيخ الغُزَاة عثمان بن أبي العلاء لتستدلّ عند ذلك على ما ذكرناه «بحمد اللّٰه تعالى، هذا قبر شيخ الـحُمَاة وصدر الأبطال الكُمَاة[4]، واحد الـجَلاَلة، لَيْث الإقدام والبَسَالة، علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب

(١) كلمة «ذلك» سقطت من طبعة دار صادر.

(٢) في طبعة دار صادر: «وأُبدِلَتْ».

(٣) في طبعة دار صادر: «مشهورة، وسأذكر لك ما كتب...».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «والكماة».

المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، وإمام الصفوف، القائم بباب «الجَنّة تحت ظلال السيوف»، سيف الجهاد، وقاصم الأعاد، وأسد الآساد، العالي الهِمَم، الثابت القَدَم، الهَمّام المجاهد الأَرْضَى، البطل الباسل الأمْضَى، المقدَّس، المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير، الأصيل الشهير، المقدّس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد اللّه بن عبد الحق، كان عمره ثمانيًا وثمانين سنة أنفقه ما بين رَوْحة في سبيل اللّه وغَدْوة، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غَزْوَةً، وقطع عمره جاهدًا مجتهداً في طاعة الرب، محتسبًا في إدارة الحرب، ماضي العزائم في جهاد الكُفّار، مُصَادِمًا بين جموعهم تَدَفُّقَ التَّيَار، وصنع اللّه تعالى له فيهم من الصنائع الكبار، ما سار ذكره في الأقطار، أشهر من المثل السَّيَّار، حتى توفي رحمه اللّه وغُبَار الجهاد طَيُّ أثوابه، وهو مراقب لطاغية الكُفّار وأحزابه، فمات على ما عاش عليه، وفي ملحمة الجهاد قَبَضه اللّه تعالى إليه، واستأثر به سعيدًا مرتضى، وسيفه على رأس ملك الروم مُنْتَضَى، مقدِّمَةَ قبول وإسعاد، ونتيجة جهاد وجِلاد، ودليلاً على نيّته الصالحة، وتجارته الرابحة، فأَرْتَجَّتِ الأندلس لِبُعْدِهِ، أَتْحَفَهُ اللّهُ تعالى رحمةً من عنده! توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من عام ثلاثين وسبعمائة» انتهى.

ومنها ما كتب به لسانُ الدين بن الخطيب ـ رحمه اللّه! ـ في تولية علي بن بدر الدين مشيخَةَ الغزاة ما نَصُّه: «هذا شيخ الغُزَاة الذي فُتح على الإسلام أبوابُ السّرّاء، وراقَ طرازًا مذهّبًا على عاتق الدولة الغَرّاء، وأعملَ عَوَاملَ الجهاد، في طاعة ربِّ العباد، شارعَةً لأهل الكُفْر والعناد، من باب الإعمال والإغراء، أمر به فلان صدر صدور أَوِدّائِهِ، وحسامه المشهور على أعدائه، ووليّه الذي خَبَر صدق وفائه، وجَلّى في مِضْمَار الخلوص له مُغَبّرًا في وجوه أكفائه، شيخ شيوخ المجاهدين وقائد كتائبه المنصورة إلى غَزْو الكافرين المعتدين[1]، وعِتْرَته التي يُدَافع بها عن الدين، وسابق وُدِّه المُبَرِّز في الميادين، الشيخ الأجلّ» إلى آخر ما وصفه به ممّا ضاقَ الوقتُ عن مثله، واللّه وليّ التوفيق.

[تمّ بحمد اللّه الجزء الأول من نفح الطيب ويليه الجزء الثاني مُفتتحًا بالباب الرابع في ذكر قرطبة نسأل اللّه أن يعيننا على إكماله][2].

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «والمعتدين».

(٢) ما بين قوسين سقط من طبعة دار صادر.

ثبت باسماء المصادر والمراجع العربية والاجنبية

أولاً ـ المصادر والمراجع العربية:

١ ـ آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني. دار بيروت، بيروت، ١٩٧٩.

٢ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبد اللّه عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧.

٣ ـ أخبار الزمان للمسعودي. دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٠.

٤ ـ أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٥ ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها لمجهول. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

٦ ـ اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى لابن سعيد. دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠.

٧ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (١ ـ ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

٨ ـ أساس البلاغة للزمخشري. تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود. دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩.

٩ - الأعلام للزِّركلي (١ - ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

١٠ - أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب. القسم الثاني، تحقيق الأستاذ إ.ليفي بروفنسال. دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

١١ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. شرحه وكتب هوامشه الدكتور يوسف طويل والأستاذان عبد علي مهنّا وسمير جابر. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

١٢ - الأفضليات لابن الصيرفي (١ - ٢). نسخة مصوّرة عن مخطوطة محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت تحت رقم Ms. 8927 s 27 a A.

١٣ - الأمالي في لغة العرب لأبي علي القالي (١ - ٢). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.

١٤ - بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.

١٥ - البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (١ - ١٤). مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩ - ١٩٨٠.

١٦ - بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضَّبِّي. دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

١٧ - بغية الوُعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة للسيوطي. دار المعرفة، بيروت.

١٨ - البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي (١ - ٤). تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال والدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت.

١٩ - البيان والتبيين للجاحظ (١ - ٤). تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة.

٢٠ - تاريخ ابن خلدون (سبعة مجلدات في أربعة عشر جزءًا). دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

٢١ - تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

٢٢ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١ ـ ١٤). دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٣ ـ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤.

٢٤ ـ تاريخ الفكر الأندلسي لأنجل بالنثيا. ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥.

٢٥ ـ تأريخ قضاة الأندلس أو المَرْقبة العليا فيمَن يستحقّ القضاء والفتيا للنباهي. تحقيق الأستاذ إ. ليفي بروفنسال. دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٨.

٢٦ ـ تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩.

٢٧ ـ تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ إنشائها حتى استيلاء المرابطين عليها للدكتور محمد أحمد أبو الفضل. الهيئة المصرية العامّة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١.

٢٨ ـ تأريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين لابن أبي صاحب الصلاة. تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي. دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩.

٢٩ ـ تقويم البلدان لأبي الفداء. تحقيق رينود وماك كوكين دي سلان. باريس، ١٨٥٠.

٣٠ ـ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (١ ـ ٢). عُنِيَ بنشره وصحّحه السيد عزّت العطّار الحسيني. مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦.

٣١ ـ تكملة المعاجم العربية لرينهارت دوزي، نقله إلى العربية الدكتور محمد سليم النعيمي. وزارة الثقافة والفنون بالعراق.

٣٢ ـ توشيع التوشيح للصفدي. تحقيق الأستاذ ألبير حبيب مطلق. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.

٣٣ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

٣٤ ـ جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري). تحقيق الدكتور عبدالرحمن الحجي. دار الإرشاد، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٨.

٣٥ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.

٣٦ ـ حلبة الكميت لشمس الدين النواجي. القاهرة، ١٢٧٦ هـ.

٣٧ ـ الحُلّة السِّيَرَاء لابن الأبّار (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

٣٨ ـ الحُلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب، مطبعة التقدّم الإسلامية بتونس، سنة ١٣٢٩ هـ. وهناك طبعة الرباط (١٩٣٦) بتحقيق الأستاذ علوش، مصدّرة بعبارة «مجهول المؤلف» وهي عبارة صحيحة؛ لأنه لا يصحّ أن يُنْسَب هذا الكتاب إلى ابن الخطيب لأسباب عدّة منها الصياغة والمضمون. ونحن اعتمدنا طبعة تونس لعدم توفّر الطبعة الثانية.

٣٩ ـ خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي (١ ـ ٤). القاهرة، ١٣٤٧ هـ.

٤٠ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لابن فضل اللّه المحبّي. ط. القاهرة، ١٢٨٤ هـ.

٤١ ـ دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك. تحقيق الدكتور جودت الركابي. دار الفكر بدمشق، ١٩٨٠.

٤٢ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (١ ـ ٤). ط. مصر، ١٩٦٧.

٤٣ ـ ديوان ابن حمديس. صحّحه وقدّم له الدكتور إحسان عباس. دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٠.

٤٤ ـ ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي. تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية. مطبعة محمد هاشم الكتبي. دمشق، ١٩٧٢.

٤٥ ـ ديوان ابن خفاجة. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت، ١٩٨٠.

٤٦ ـ ديوان ابن دراج القسطلي. تحقيق الدكتور محمود علي مكّي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٩٦١.

٤٧ ـ ديوان ابن الدمينة. تحقيق الأستاذ أحمد راتب النفاخ. ط. القاهرة، ١٩٥٩.

٤٨ ـ ديوان ابن رشيق القيرواني. جمعه ورتّبه الدكتور عبد الرحمن ياغي. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.

٤٩ ـ ديوان ابن الزقاق البلنسي. تحقيق الأستاذة عفيفة ديراني. دار الثقافة، بيروت.

٥٠ ـ ديوان ابن زيدون. تحقيق وشرح الأستاذ كرم البستاني. دار بيروت، بيروت، ١٩٧٩.

٥١ ـ ديوان ابن شهيد الأندلسي، عُنِيَ بجمعه Charles Pellat. دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٣.

٥٢ ـ ديوان ابن عبد ربه. حقّقه وجمعه وشرحه الدكتور محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩.

٥٣ ـ ديوان ابن هانىء الأندلسي. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٥٤ ـ ديوان أبي تمام. شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية. دار صعب، بيروت.

٥٥ ـ ديوان أبي فراس الحمداني (شرح ديوان أبي فراس الحمداني). دار مكتبة الحياة، بيروت.

٥٦ ـ ديوان أبي نواس، تحقيق الأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٥٣.

٥٧ ـ ديوان الأعمى التطيلي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٥٨ ـ ديوان امرىء القيس. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.

٥٩ ـ ديوان البحتري (١ ـ ٢). دار صعب، بيروت.

٦٠ ـ ديوان بشّار بن برد. جمعه وحقّقه السيد بدر الدين العلوي. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

٦١ ـ ديوان الحطيئة. المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

٦٢ ـ ديوان الخنساء (شرح ديوان الخنساء). دار مكتبة الحياة، بيروت.

٦٣ ـ ديوان ذي الرّمّة. تحقيق كارليل مكارتني. ط. كمبردج، ١٩١٩.

٦٤ ـ ديوان الرصافي البلنسي. جمعه وقدّم له الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.

٦٥ ـ ديوان الشريف الرضي (١ ـ ٢). دار صادر ودار بيروت، بيروت.

٦٦ ـ ديوانا عروة بن الورد والسموأل، ديوان حاتم الطائي. دار بيروت، بيروت، ١٩٨٦.

٦٧ ـ ديوان المتنبي (العُرْف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب). شرحه الشيخ ناصيف اليازجي. دار القلم، بيروت.

٦٨ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشُّنتريني (أربعة أقسام في ثمانية مجلدات). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.

٦٩ ـ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١ ـ ٢). ط. القاهرة، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣.

٧٠ ـ الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (١ ـ ٦). تحقيق الأستاذين محمد بن شريفة وإحسان عباس. دار الثقافة بيروت، ١٩٧٣.

٧١ ـ رحلة ابن بطّوطة وتسمّى تُحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٧٢ ـ رحلة ابن جبير. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩.

٧٣ ـ رسائل ابن حزم الأندلسي (١ ـ ٤). تحقيق الدكتور إحسان عباس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣.

٧٤ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع مسرد عام) للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

٧٥ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي (١ ـ ٢٣). تحقيق مجموعة من الأساتذة. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١ ـ ١٩٨٥.

٧٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الحنبلي (١ ـ ٨). نشر القدسي، القاهرة، ١٣٥٠ ـ ١٣٥١ هـ.

٧٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة (١ ـ ٢). دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.

٧٨ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (١ـ ١٤). شرحه وعلّق عليه الأستاذ

محمد حسين شمس الدين والدكتور يوسف الطويل. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

٧٩ ـ الصلة لابن بشكوال (١ ـ ٣). تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩.

٨٠ ـ صورة الأرض لابن حوقل. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩.

٨١ ـ طبقات الشعراء لابن سلام. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.

٨٢ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (١ ـ ٧). شرح الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩ ـ ١٩٦٥.

٨٣ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق (جزءان في مجلد). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢.

٨٤ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أُصيبعة. تحقيق الدكتور نزار رضا. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

٨٥ ـ فتوح إفريقيا والأندلس لابن عبد الحكم. تحقيق الأستاذ عبد الله أنيس الطباع. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤.

٨٦ ـ فرحة الأنفس (قطعة من كتاب فرحة الأنفس: عن كُوَر الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة) لابن غالب. نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، مطبعة مصر، ١٩٥٥.

٨٧ ـ الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس. للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق. دار الثقافة، بيروت.

٨٨ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ ـ ٥). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ـ ١٩٧٤.

٨٩ ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.

٩٠ ـ قاموس عربي إسباني للدكتور الإسباني ف. كورينطي. المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد ١٩٧٧.

٩١ ـ قرآن كريم. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٩٢ ـ قضاة قرطبة للخشني، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.

٩٣ ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.

٩٤ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان. القاهرة، ١٢٨٤ هـ.

٩٥ ـ الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي. تحقيق الأستاذ الحساني حسن عبد الله. خانجي وحمدان، بيروت.

٩٦ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (١ ـ ١٣). دار صادر، بيروت، ١٩٨٢.

٩٧ ـ الكامل في اللغة والأدب للمبرد، مؤسسة المعارف، بيروت.

٩٨ ـ كتاب الجغرافيا لابن سعيد. تحقيق الأستاذ إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٠.

٩٩ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (١ ـ ٢). إستانبول، ١٩٤١ ـ ١٩٤٣.

١٠٠ ـ اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (١ ـ ٣). ط. القدسي، القاهرة، ١٣٥٦ ـ ١٣٦٩ هـ.

١٠١ ـ لسان العرب لابن منظور (١ ـ ١٥). دار صادر، بيروت.

١٠٢ ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب. نشره الأستاذ محبّ الدين الخطيب. المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٤٧ هـ.

١٠٣ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السُّنة المحمدية، ١٩٥٥.

١٠٤ ـ محيط المحيط للمعلّم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.

١٠٥ ـ مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.

١٠٦ ـ مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة. نشر وتحقيق إ. ليفي بروفنسال. دار المعارف بمصر، ١٩٥٥.

١٠٧ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (١ ـ ٤). دار الأندلس، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨١.

١٠٨ ـ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله). نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨.

١٠٩ ـ مصارع العشّاق لأبي محمد السرّاج القارىء (١ ـ ٢). دار صادر، بيروت، ١٩٥٨.

١١٠ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي. دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥.

١١١ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مِلح أهل الأندلس لابن خاقان. الطبعة الأولى، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، ١٣٠٢ هـ.

١١٢ ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧.

١١٣ ـ المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب من لَدُن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، ضبطه وصحّحه الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩.

١١٤ ـ معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الرومي. الجزء الأول، اعتنى بنسخه وتصحيحه د.س. مرجليوث. الطبعة الثانية، المطبعة الهندية بمصر، ١٩٢٣.

١١٥ ـ معجم البلدان لياقوت الرومي (١ ـ ٥). دار صادر، دار بيروت.

١١٦ ـ معجم الشعراء للمرزباني، ومعه المؤتلف والمختلف للآمدي. تصحيح الدكتور ف. كرنكو. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.

١١٧ ـ المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة، ١٩٦٧.

١١٨ ـ معجم ما اسْتُعْجم للبكري (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ مصطفى السقا. دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.

١١٩ ـ المُغْرِب في حلى المغرب لابن سعيد (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.

١٢٠ ـ المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن حيّان القرطبي (تتمة السفر الثاني ويؤرّخ من سنة ٢٣٢ حتى سنة ٢٦٧ هـ). تحقيق الدكتور محمود علي مكّي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣.

١٢١ ـ المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان القرطبي (ويؤرّخ من سنة ٣٦٠ حتى سنة ٣٦٤ هـ). تحقيق الأستاذ عبد الرحمن الحجّي. دار للثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

١٢٢ ـ المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبّار. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣.

١٢٣ ـ المنجد في اللغة والأعلام. دار المشرق، بيروت، ١٩٧٨.

١٢٤ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. لابن تغري بردي (١ ـ ١٢). ط. دار الكتب المصرية.

١٢٥ ـ نخبة الدهر في عجائب البَرّ والبحر لشيخ الربوة، طبع بمدينة بطرسبورغ في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، سنة ١٨٦٥.

١٢٦ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي (١ ـ ٢). دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.

١٢٧ ـ نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك لأحمد بن عمر العذري المعروف بابن الدلائي. تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني. مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٦٥.

١٢٨ ـ هدية العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي (١ ـ ٢). إستانبول، ١٩٥١ ـ ١٩٥٥.

١٢٩ ـ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١ ـ ١٧). فيسبادن، ١٩٦٢ ـ ١٩٨١.

١٣٠ ـ وصف إفريقية والمغرب والأندلس (جزء من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري). نشرة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب. مطبعة النهضة بتونس، ١٣٣٩ هـ.

١٣١ - وفيات الأعيان لابن خَلِّكان (١ - ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ - ١٩٧٨.

١٣٢ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (١ - ٤). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩.

ثانياً - المراجع الأجنبية:

1 - Dozy (R.P.A): Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (1 - 2). 3em édition, Amsterdam, Oriental press, 1965.

2 - F.Coriente: Diccionario español - arabe. Institute Hispano - Arabe de cultura. Madrid, 1970.

3 - L.Asián peña (José): Historia general del arte y de la cultura. Barcelona, 1963.

4 - Lévi - provençal (E.): Histoire de l'Espagne Musulmane (1 - 3). Paris, Leiden, 1950 - 1953.

5 - Prieto Y Vives (A.): Los Reyes de Taifas. Madrid, 1926.

فهرس الجزء الأول من كتاب
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري

تمّ فهرس الجزء الأول من كتاب نفح الطيب


Bibliotheca Alexandrina
0581031
